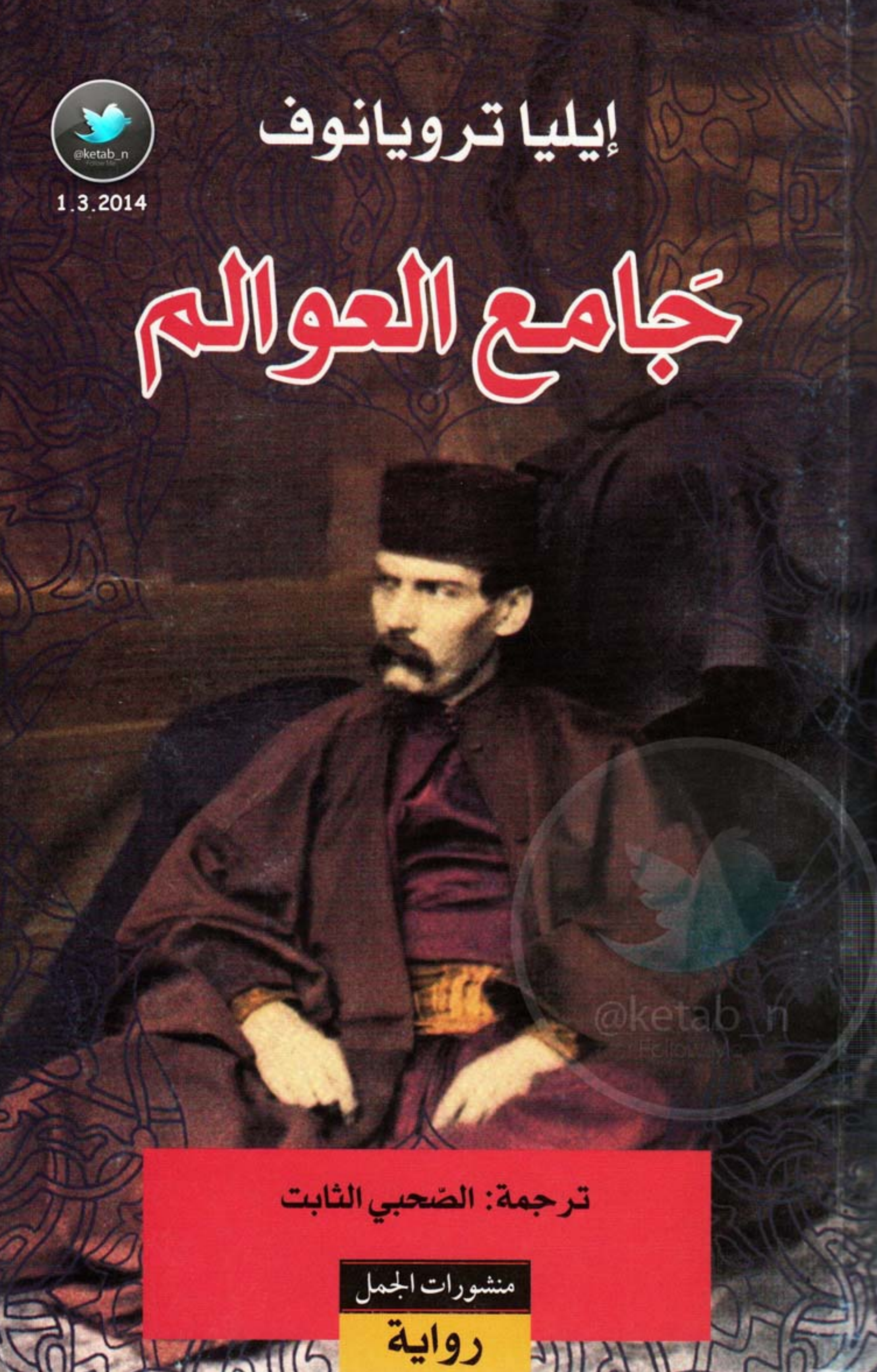


إيليا ترويانوف
@ketab_n
1.3.2014
جَامع العوالم
ترجمة: الصّحبي الثابت
منشورات الجمل
رواية

إيليا ترويانوف

حَامع العوالم

رواية

ترجمة
الصّحبي الثابت

منشورات الجمل

إيليا ترويانوف: جَامع العوالم

إيليا ترويانوف: جَامع العوالم، ترجمة: الصّحبي الثابت
الطبعة الأولى ٢٠٠٨

Ilija Trojanow: Der Weltensammler, Roman

Postfach 210149. 50527 Köln. Germany
Tel: 0221 736982. Fax: 0221 7326763
www.al-kamel.de
E-Mail: info@al-kamel.de
نُشر هذا الكتاب ضمن مشروع لتريكس، حيث ساهم معهد غوته في تكاليف الترجمة

إلى نور الدين

&

رنجيت

اللذين اهتمّا بالموضوع اهتماماً حقيقياً

(تقديم المؤلف)

هذه الرّواية مستوحاة من حياة وأعمال ريتشارد فرانسيس برتن (١٨٢١ ـ ١٨٩٠) وتأتي أحداثها تارة متّفقة مع سنوات شبابه في جميع تفاصيلها، كما تبتعد تارة أخرى كل البعد عن المتعارف. ورغم أنّ بعض الأقوال والتعابير الصادرة أصلاً عن برتن تمّ إقحامها في النصّ، فإن شخصيات الرواية وتسلسل الأحداث فيها تبقى في مجملها من نسج خيال المؤلف ولا تتطلّع إلى أن تُقاس بوقائع حقيقية لها صلة بالسّيرة الذّاتية. إذا صحّ القول بأن كل إنسان يشكل سرّاً في حد ذاته، فإنّ هذا ينسحب قبل كل شيء على شخص لم يسبق للمرء أن كان له معه لقاء. هذه الرّواية هي إذن محاولة شخصيّة للاقتراب أكثر من أحد الأسرار دون الإصرار على كشف النّقاب عنه تماماً.

افعل ما تتطلّبه منك رجولتك
ولا تنتظر استحسانا من أحد.
عاش عزيزاً ومات كريماً
من سنّ قوانينه بنفسه والتزم بها.

(ريتشارد فرنسيس برتن، القصيدة VIII، ٩)

التحوّل الأخير

فارق الحياة في الصّباح الباكر، قبل أن تبدأ العين في التّمييز بين خيط أسود وآخر أبيض. سكنت صلوات القسّيس، بلّل شفتيه بلسانه وابتلع لعابه. لم يتحرّك الطّبيب بجانبه منذ أن انقطعت دقّات النّبض تحت أنامله. العنادُ وحده هو الذي أبقى مريضه في اللّحظات الأخيرة على قيد الحياة، كذلك لم تُهدَّ إرادته في نهاية الأمر إلاّ بمفعول جلطة. ربضت على ذراعيْ الميت المشْبكتين يد بقْعاء. تراجعت اليد إلى الوراء لتضع صليباً على الصّدر العاري. قال الطبيب في نفسه: الصّليب ضخم جدّاً، كاثوليكي إلى حد كبير ووافر الزّخرفة كالنّصف الأعلى النّديب لجسم المتوفّى. وقفت الأرملة في الجانب الآخر للفراش قبالة الطبيب الذي لم يجرؤ على النظر في عينيها. تنحّت عن مكانها، اتّجهت بهدوء إلى المكتب، جلست ثم بدأت في كتابة شيء ما. رأى الطبيبُ القسّيسَ وهو يُودِع قارورة الزّيت الصّغيرة جيبَه فاعتبر ما قام به إيذانا بجمع الحقَن والبطارية الكهربائية. كانت ليلة طويلة؛ قد يستوجب منه الظّرف مستقبلاً أن يبحث عن وظيفة أخرى. كانت حادثة مؤسفة بالنسبة إليه لأنّ هذا المريض وقع في نفسه ولأنه نعِم لحد الساعة بالعيش عنده في فيلّته المشرفة على المدينة والمطلّة على الخليج و، هناك بعيداً، على البحر الأبيض المتوسط. أحسّ بنفسه يحمرّ خجلا وزاد، لهذا السبب، فاحمرّ أكثر. ولّى الميتَ ظهره. جال القسّيس الذي يصغره ببضع سنوات ببصره في الغرفة مسترقاً النّظر. على أحد الجدران علّقت خارطة للقارة الإفريقية في مكان ضيّق حاصرته رفوف

الكتب يمنة ويسرة. النافذة المفتوحة أزعجته، شأنها شأن كل شيء في تلك اللحظة. الأصوات المتسلّلة إلى الداخل ذكّرته بليالي عديدة أخرى لم يذق فيها طعم النوم. الرّسم المعلّق على يساره وعلى بعد ذراع منه جميل ومبهم في الآن نفسه، لقد أدخل عليه الارتباك منذ أوّل وهلة. أعاد إلى ذاكرته أنّ هذا الإنجليزي سبق له وأن تسكّع في مناطق ملحدة لم يدخلها إلا السذّج والمغرورون. كان عناده معروفا لدى الجميع، هذا هو كل ما كان القسّيس يعرف عنه. لقد استطاع الأسقف أن يتنصّل مرّة أخرى من مهمّة محرجة. لم تكن تلك المرّة الأولى التي وجب فيها على القسّيس تقديم مسحة ما قبل الموت لمجهول. عليك أن تثق في سلامة تفكيرك المنطقيّ، كان هذا كل ما زوّده به الأسقف. كان نصيحة غريبة. لم يجد متسعاً من الوقت ليتدبّر الأمر على أحسن وجه. لقد أخذته الزّوجة على حين غرّة، ألحّت عليه، طالبته بتقديم سرّ القربان للمحتضر وكأنّه مدين لها به. انصاع إلى إرادتها لكنّه سرعان ما ندم على فعلته. وقفتْ في فتحة الباب، ناولت الطبيب ظرفا وألحّت عليه. هل كان عليه أن يقول شيئا؟ تقبّل القسّيس شكرها الصّادق الذي جاء بصوت خافت ـ ماذا كان عليه أن يقول؟ ـ ومع الشّكر جاء طلبُها غير المصرّح به بالانصراف. اشتمّ رائحة عرقها ولازم الصّمت. في الردهة ناولته معطفه ثم مدّت له يدها. ولاّها ظهره، توقّف. صعب عليه الخروج إلى اللّيل ونفسه مثقلة. التفت إليها بحركة نشطة.

ـ سينيورا. .

ـ معذرة إن أنا لا أرافقكم حتى الباب.

ـ كل شيء كان خطأً، كان غلطاً.

ـ أبدا!

ـ لا بدّ أن أحيط الأسقف علما بكلّ ما حصل.

ـ الوصيّة التي نفّذتم كانت وصيّته. معذرة، أيها الأب، لديّ أعمال تنتظرني. انشغالكم ليس له مبرّر. الأسقف على علم بكل شيء.

ـ قد تكونين واثقة كل الوثوق فيما تقولين، سينيورا، أمّا أنا فتعوزني مثل هذه الثقة.

ـ أرجو أن تصلّوا من أجل خلاص روحه، أظنّ أن هذا هو الأفضل بالنسبة إلينا جميعاً. إلى اللّقاء أيها الأب.

قضت يومين كاملين جالسة إليه وهو في فراش الموت، تصلّي تارة وتتحدث إليه تارة أخرى، لا يزعجها من حين لآخر إلاّ الذين جاؤوا لتوديعه الوداع الأخير. في اليوم الثالث أيقظت الخادمة باكرا على غير العادة. التحفت هذه الأخيرة بشال فوق قميص النّوم وخرجت تتحسّس طريقها في دفء الليل إلى المخزن أين نام البستاني. لم يردّ البستاني على ندائها إلاّ بعد أن هجمت على الباب بمجرفة. نادى بدوره: أَنَّا، هل حصل مكروه من جديد؟ أجابته: ربّة البيت تطلبك في خدمة، ثم أردفت: فورا.

ـ هل جمعتَ حطبا، ماسّيمو؟

ـ نعم، سينيورا، الأسبوع الماضي، لمّا نزل البرد، لدينا ما يكفي..

ـ أريد أن تُوقد ناراً.

ـ نعم، سينيورا.

ـ في الحديقة، بعيداً عن المنزل وقريباً في الأسفل.

كوّمَ كدسا صغيراً من الحطب تماماً كما يفعلون في القرية عند احتفالهم بانقلاب الشّمس. الجهد جعله يشعر بشيء من الدفء. ابتهج

لإشعال النار، من أجل أصابع رجليه التي بلّلها الندى. التحقت به أنّا وقد أمسكت بفنجان بينما بدت تسريحةُ شعرها غير منتظمة وتداخلت فيها الخصلات تداخل الأغصان الجافّة. اشتمّ رائحة القهوة وهو يستلم منها الفنجان.

ـ هل الحطب قابل للاشتعال؟

ـ طالما لم يهطل المطر.

مال برأسه في اتّجاه الفنجان وكأنه حاول التعرّف على شيء معيّن في السائل. ترشّف قليلاً.

ـ هل أُضرمُ فيه النار؟

ـ لا. من يدري ما الذي تريده ربّة البيت. من الأفضل أن تنتظر.

بدا الخليج جليّاً في نور الصباح. جمع زورق ذو ثلاث صوارٍ أشرعته. أفاقت تْرييِسْتا وتحوّلت إلى ميدان حركة دائبة للحمّالين ولعربات جرّها حصان واحد. تقدّمت ربّة البيت فوق العشب وقد لبست أحد ثيابها الثقيلة والفضفاضة.

ـ أضرم النّار!

امتثل للأمر وهمس في اتجاه ألسنة اللّهب الأولى: احترقي، احترقي أيتها العروسة كالشّمس وأشعّ، أشعّ أيها القرين كالقمر. اللّحن الذي كان أبوه يردّده عند انقلاب الشمس. تقدّمت ربّة البيت في اتجاهه فصعب عليه ألاّ يتزحزح عن مكانه. قدّمت إليه كتاباً.

ـ ألقِ به في النار!

كادت تلامسه. كان شيء من الارتباك مندسّا في النّبرة التي أصدرت بها أمرها. هي شخصياً سوف لن تكون لها الشّجاعة الكافية لتلقي بالكتاب

في النار. تحسّس الغلاف بأصابعه، تحسّس البُقع فوقه ومرور الخيط، ابتعد قليلاً عن اللّهب ومسح بيده على الجلد باحثا عن ذكرى إلى أن خطر بباله ما ذكّره به الكتاب: النّدبة على ظهر مولوده الأوّل.

ـ لا.

كانت ألسنة النار تستعر في جميع الاتجاهات.

ـ ابحثي عن شخص آخر، أنا لا أقدر على فعل ما تطلبينه منّي.

ـ ستقوم به. حالاً.

تصاعد اللّهب واستوى واقفا. لم يجد ماسّيمو جوابا للردّ عليها. همست أنّا في أذنه.

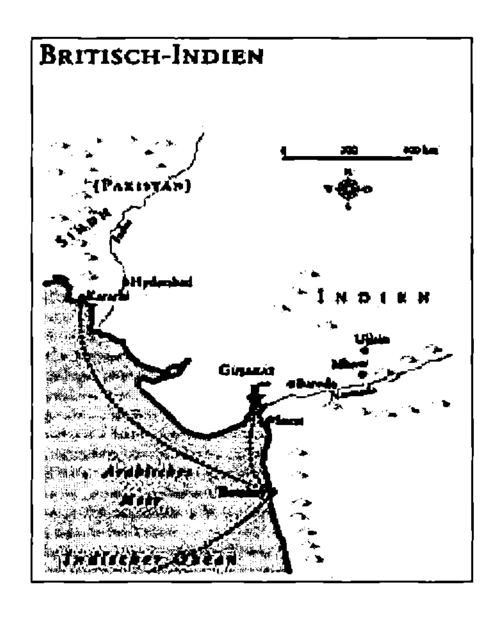
ـ كلّ هذا لا يعنينا. ماذا لو انصرفتْ الآن.. فكّرْ في خطاب التّوصية، في هدايا الوداع. لماذا تُولي الكتاب كلّ هذه الأهمية؟ ناولْني إيّاه، الأمر بسيط.

لم ير الكتاب وهو يتطاير في الهواء، سمع طقطقة فقط، سمع الجمر يتكلم واللّهيب يرتعد، ولمّا أبصر الكتاب في النار رأى جلدة غلافه تتلوّى لتأخذ شكل ظفر إصبع الرّجل عندما ينمو معوجّا. جلست الخادمة أرضاً فظهرت على ركبتها العارية شامة من الهباب. جلد الجمل يحترق، تتقلّص عضلات وجهٍ لحين ثمّ تُطقطق، النّيران تلتهم أرقام الصفحات، تغمر ألسنة اللّهب صيحات القردة، تتبخّر الماراتية، الغُوجاراتيّة، السّنْدية وتترك حروفاً وجلة ومرتجفة ترفرف شراراتٍ قبل أن تتحوّل إلى مسحوق فحم يتناثر على الأرض. وسط النار يتعرّف هو، ماسّيمو جُوتّي، بستاني أصيل الجبال المجاورة لتريِيسْتا، على المتوفّى، السينيوري برتن، من جديد، لمّا كان رجلاً شابا وفي زيّ على الطراز القديم. يمدّ ماسّيمو ذراعه فتلفح النّار الشعيرات على ظهر يده، الصفحات تحترق، قصاصات الورق، الخيوط،

علامات تحديد مكان القراءة وكذلك الشَّعر، شَعرها الحريري الأسود، شعرها الأسود الطويل وهو يتدلّى من أعلى الجهة الأمامية لكومة الحطب ويعصف به صفير الريح الحزين. على بعد متر أو مترين من اللّهب فقط هناك ميتة ملقاة على الأرض، جلدتها تنسلخ، جمجمتها تنفلق، تبدأ في الانكماش والتضاؤل حتى لا يبقى منها إلاّ ما هو أقلّ وزنا من شعرها الأسود الجميل والطويل. الضّابط الشابّ يجهل اسمها، لا يدري من هي ولا يستطيع تحمّل الرائحة أكثر.

يبتعد ريتشارد فرانسيس برتن وهو يحثّ الخطى. يتخيّل صيغة لأوّل رسالة له من البلد الجديد، يقول: تصوّر أنك أخيراً وبعد قضاء أربعة أشهر في بحر أمواجه متلاطمة تصل إلى هنا فترى على الرّمل أكواماً من الحطب وتكتشف أنّ النّاس يحرقون موتاهم على الشاطئ. وسط هذه الحفرة النتنة القذرة والتي تسمّى بُمباي.

الهند البريطانية



حكايات
كاتب خادم السيّد

•

الخطوات الأولى

بعد قضاء أشهر في البحر، بعد مرور فرص للتعارف فرضتها الصُدف وهذر بلا نهاية، عندما يتحتّم التقليل من المطالعة بسبب مفعول الأمواج العاتية تكون عمليات المقايضة مع خدم من الهندوستان: نبيذ بورتو مقابل مفرداتٍ، آستي آستي في مستوى منطقة هدوء الرّياح، يا له من خُمار!، وخَطرْناك ثم خبَرْدار في قلب العاصفة عند رأس الرّجاء الصالح. تشكّلت الأمواج حدّ العتوّ ثم تهشّمت بانتظام. ما من مسافر استطاع الحفاظ على طعام العشاء في وضع مائل كهذا، كذلك صار النّطق ببعض الكلمات صعبا. ازدادت الأيّام غرابة وبدأ كلّ في التحدّث إلى نفسه، هكذا مضوا منقادين في رحلتهم عبر المحيط الهندي.

ثم جاء الخليج فاغترفت الأشرعة المكوّرة الهواء اغتراف اليدين للماء. رأوا أوّل ما رأوا من خلال منظار معطّر بزيت القرنفل ما كانوا اشتمّوا رائحته من قبل. صعُب التأكّد من اللّحظة التي صعدت فيها اليابسة إلى السفينة التي تحوّل سطحها إلى فضاء للتكهنات والرؤى وصار مسرحاً لكلّ التعليقات.

ـ طبلة!

التفت البريطانيون وقد أزعجهم ما سمعوا أثناء حديثهم عند الحاجز الخارجي للسفينة. وقف رجل من الأهالي متقدّم في السن وراءهم مباشرة

مرتدياً لباساً بسيطاً من القطن. كان في الحقيقة أحقر بكثير من ضخامة صوته. تدلّت لحيته إلى مستوى البطن، أمّا جبينه فكان أملس. ابتسم في وجوههم بلطف لكنه اقترب منهم كثيراً.

- طبلة ذات طبلتين. دقّة تتكون من بُم وبَايْ.

أخرج الرّجل ذراعين ويدين وبدأ في تحريكها حتّى يتمكّن من مرافقة نبرة صوته الواطئة.

- يساراً نجد الخليج المبارك بُم باهيا ويمينا مُمْبا آي، إلهة صيادي السّمك. تيتْتال من أربعة مقاطع، إن شئتم أسمعتكم إيّاه.

ثمّ ما لبث أن اندسّ بينهم وبدأ يدقّ الطّبلة بسبّابتيه بينما انطلق رأسه يلوّح بشعره الطّويل.

بُم - بُم - بيِيْ - بيِيْ

بُم - بُم - باي - باي

مُم - مُم - باي - باي

بُم - بُم - بيِيْ - بيِيْ

- إيقاع فيه عنف وحدّة في نفس الوقت، ككلّ إيقاع يُدقّ منذ قرون: أوروبا من جهة والهند من جهة أخرى. الأمر في الحقيقة في غاية البساطة بالنسبة لكل من يجيد الاستماع.

ضحكت عينا الرجل معبّرتين عن رضاهما. نودي على هؤلاء المسافرين الأثرياء للاستيلاء على الأرض. القارب في الانتظار والهند على بعد تجذيفات قليلة لا أكثر. أسرع برتن لمساعدة إحدى السيدات المجذوبات بسحر البلاد على صعود درجات السلّم. بعد أن جلست في مكانها بكل أمان ووضعت يديها في حجرها، التفت برتن إلى الوراء فرأى

قارع الطبلة الذي غزا الشيب رأسه ولحيته واقفاً في جمود على سطح السفينة وقد فتح رجليه فتحاً عريضاً وشبك يديه وراء ظهره. كانت عيناه تحملقان من وراء زجاج نظارات سميك. تقدّمْ، تقدّم! لكن انتبهْ إلى أمتعتك. هذه ليست بريطانيا. أنت تطأ الآن أرض العدوّ. طارت ضحكته في الهواء لمّا أُنزل القارب بالحبال إلى البحر وهو يئنّ.

مع الهبوط إلى اليابسة انكشفت خدعة المنظار. بُني رصيف الميناء على الأسماك العفنة وغمره مزيج من البول الجافّ والماء المُصفرّ الآسن. رُفعت الأكمام بسرعة لتسدّ الأنوف. قرون من العفن دكّته الأرجل الحافية ليتحوّل إلى أرضية صلبة مرّ فوقها رجل يرتدي بذلة عسكرية وهو يصيح ويتصبّب عرقا. نظر القادمون حولهم في تردّد. تمّ إرجاء كلّ ضروب الفضول إلى موعد آخر. ضعْ كلّ شيء بين أيدينا وسنريحك من كل المشاقّ! ردّ برتن على انجليزية أحد الأعوان اللّزجة بالهندوستانية وفي تروّ لم يخلُ من شعور بالفخر. نادى على حمّال وقف جانبا وغير مهتم بكل تلك الفوضى، سألَ، انتبهَ إلى ما قيل له، فاصلَ، راقبَ صناديقه وهي تُرفع على الظّهور وتُحمل إلى إحدى العربات المنتظرة. قال الحوذي إنّ الطريق ليست طويلة وأجرته زهيدة. تزحلقت العربة وسط الجموع الغفيرة كزورق مشدود إلى جرّار. في آثار التيّار تراءت الطّواقي والصّلعات، العمائم والتُّوبي. لم يتعرّف وسط الدّوامة المحيطة به على أيّ وجه من الوجوه، مرّ بعض الوقت قبل أن يرى مشهدا له مغزى: أمام أحد الدّكاكين ربضت يدان ضخمتان لبقّال على أكياس من الأرزّ. بعد أن غادرت العربة الميناء ودارت حول الناصية إلى شارع عريض أسند برتن ظهره إلى الوراء. نجا ولدٌ ـ كما تطلّبه منه امتحان الشجاعة ـ في آخر لحظة من الوقوع تحت حوافر الحصان وجازى نفسه بنفسه بضحكة من طرف أسنانه. وسط ضوضاء عجلات دارت بانتظام انشغل أحدهم بحلق ذقن آخر. قُدّم له

طفل لا جلدة له. ذُعر للحظة ثم نسي ما رأى. بدا الحوذيّ وكأنه يذكر أسماء البنايات على جانبي الطريق: أَبُولُو غِيتْ، يأتي بعده فُورْ، سَكْريتَارِيَاتْ، فُورْبس هَاوْس. سِيبُويْ!، قالها الحوذي مشيراً إلى طاقية غطّت شعراً قذراً ثم إلى أسفل حيث برزت رجلان نحيفتان غطّاهما الشعر داخل سروال للعمل قصير جدّاً. قال برتن في نفسه: مصيبة! هذا واحد من الجنود المحليين الذين سيكونون تحت إمرتي، يا إلهي، هذا اللباس ليس إلاّ مجرد ذرّ رماد في العيون وحتى معالم الوجه تبدو وكأنها منقولة عن البريطانيين. واصلت العربة سيرها ومرّت بزمرة من النساء ظهر الوشم على أيديهن وأرجلهن. قال الحوذي مغتبطا: حفلة زفاف! والرائحة؟ حنّاء! اختفت النساء المزيّنات في ناصية الشارع. كانت جلّ المباني بثلاثة طوابق وبدت متهرئة وكأنّها أصابها الأُكال. من أعلى إحدى الشّرفات الخشبية تخلّص أحدهم من بلغمه وقذف به وسط الطريق. البنايات القليلة التي بقيت في حالة مقبولة كانت بمثابة الحرّاس داخل حَجْر صحي للجُذم. باستمرار شاهد برتن بين أعالي النخل غربانا برؤوس شيباء. حلّقت مرّة فوق ملاك نُحت في المرمر كانت امرأة محجّبة بصدد تقبيل رجليه. قبل بلوغه الفندق بقليل رأى غرباناً وهي تنقضّ على جيفة. قال الحوذيّ وهو يلتفت فجأة إلى الوراء بينما واصلت العربة سيرها الحثيث: إنّها أحياناً لا تنتظر حتى يحلّ الموت.

كان البْريتيشْ هُوتيل في بُمباي لا يشبه بالمرة هُوتيلْ بْرِيتِنْ في بْرايْتن. مقابل رفاهة أقلّ كلّف السّكن في بُمباي مالاً أكثر، أمّا السّرير والطاولة والكرسي فكان على النزيل أن يبحث عنها بنفسه. في بْرايْتن ما كان مثلاً طالب من الكلية الحربية بشعره القصير وبخَرٍ في عفن المستنقعات ليسمح لنفسه وهو في حالة سُكر بالصعود ليلاً على كرسي ليتفرّس من خلال حاجز الموصْلين في جيرانه في الغرفة المجاورة. أمّا برتن الذي بقي ينتظر

النوم لساعات فقد أزاح بدوره الناموسية جانبا ورمى طالب الكلية العسكرية بأقرب شيء وصلت إليه يده تحت فراشه. أصاب المقذوفُ الطالب في وجهه تماماً، سقط من على كرسيّه وبدأ يلعن بصوت خافت إلى أن أضاء نور شمعة وسُمعت صرخة: تعرّف الطالب على المقذوف حقّاً، جرذ كان برتن قتله قبل ذلك بقليل بحذائه الطويل. لا شيء آخر استطاع أن يحمي الطالب نحيف الجسم من التهديدات التي صدرت عنه غير حاجز القماش. أدخل برتن يده مرة أخرى تحت الفراش وأخرج زجاجة من البْرانْدي. السّحالي كان يُتفاءل بها، أمّا الجرذان فكانت منبوذة. عُلقت السحالي بالسقف كالرسوم المنمنمة بينما اختبأت الجرذان. بدون جدوى أحياناً.

كان جاره من الجهة الأخرى جنديّاً ممرّضاً التحق بمنصبه لأوّل مرة. جلس على حافة النافذة ونظر بعيداً في اتجاه البحر إلى أن لفحت الريح وجهه. صاح داخل عنبر النوم: حذار! الشّواء الهندي بدأ ينفخ! عبَر نداؤه ردهة السلّم الضيقة وصدع دماغ ذلك الهندي من أصل فارسي الذي غلبه النعاس وكان يخدم النّزلاء بكثير من التذلل. أغمضوا أعينكم وأغلقوا الكوّات. فتح الرّجل عينيه وهزّ رأسه بامتعاض. سُحقاً لهؤلاء الغُورَا، إنّهم لا يحتملون رائحة الغير إلاّ إذا ذهبت بها الرّيح قبل أن تجد طريقها إلى أنوفهم.

رفض الجندي الممرض أن يرافق برتن إلى المكان الذي كان يتمّ فيه حرق الجثامين. أوضح أنه من الأفضل على المرء أن يحترس من تطلّع إلى المعرفة في غير موضعه، كلام نجل ردّد ما تعلّمه من مواعظ أبيه واستقلّ لتوّه عن الرعاية التي لطالما أغدقتها عليه أمه. حاولَ برتن أن ينوّه بحب الإطلاع لكنه سرعان ما لاحظ أن خبرته الشخصية ـ الطفولة في إيطاليا وفرنسا كابن لرجل لا يعرف الاستقرار، كذلك المدرسة الداخلية

في ما يسمّى الوطن ـ لم تَلق تفهما يذكر. انتهى الجندي الممرّض في آخر الأمر على الأقل إلى الاقتناع بعبور الكرْنك رُودْ، الحدّ الفاصل بين دماغ الإمبراطورية وأمعائها، كما قيل لبرتن خلال أوّل طعام عشاء له في حضرة أسياد كانوا يحكمون ملء الشدقين دوائر برمّتها، أبناء بقالين جاؤوا من الأرياف الإنجليزية وأخلاف مُحضِرين نقلتهم أيدي وثنية من الظلّ إلى البرودة، صاروا أثرى وأوسع سلطاناً ممّا كان بإمكانهم أن يتصوروا في أكثر أحلامهم جسارة. كانت زوجاتهم ترسمن بدقة خرائط الأحكام المسبقة المعمول بها. كل جملة من كلامهن كانت بمثابة لافتة تحذير مندسّة وراء كلام من قبيل: كيف تقول هذا أيها الشابّ؟ قمن من جهتهن بالمسح الكافي الذي يجعلُهن جدّ متأكدات من العبارات التي تتناسب والهند. الطقس: «وخيم العواقب»، الخدم: «محدودو التفكير»، الطرقات: «عفنة»، والنساء الهنديات: كلّ هذا في آن واحد، لذلك وجب ـ استمع جيداً إلى ما نقول أيها الشاب! ـ تحاشيهن بكلّ الوسائل، رغم أنّنا نرى أنّ بعض العادات السيئة درجت في الأثناء بيننا، رغم أنّه يبدو مستحيلاً مطالبة رجالنا بالانضباط والتصرّف تصرّفاً أخلاقياً. الأفضل هو ـ ولن تسمع أبداً نصيحة أكثر صراحة من هذه ـ أن تبتعد عن كل شيء غريب!

نقرس الأزقّة. كانت كل خطوة تمثّل تماسّاً. كان برتن كل مرة يقفز جانبا، مركّزاً انتباهه على الحمّالين والجارّين والدّافعين. لم تبرز وسط هذا البحر من البشر إلا الحمولات، تلك القطع العظيمة التي كانت تطفو متماثلة فوق تموّجات الرؤوس المتأرجحة. محالّ تجارية تعرض التفاهة. وُرش وسط العديد من الوُرش المماثلة. جلس تجّار على حصائر وروّحوا على أنفسهم بمراوح. كانت وراءهم مداخل ضيقة تقود إلى مغارات تكوّرت تكوّر البطون إذا حملت وموبوءة ذبابا. كاد برتن أن يتوسّل إلى

الباعة، علّهم يقدّمون إليه شيئاً يستطيع شراءه. وإذا صادف أن قرّروا بيع شيء فإنّهم لم يقدّموا إليه إلاّ أسوأ بضاعة في محالّهم وشرعوا في مدح السلعة الممتازة طبعاً مقسمين بشرفهم، إلى أن قبل شراء خنجر صغير أو الهة من حجر. تلا كلّ هذا أخذ وردّ في خصوص الثمن مصحوب بزفرات وتعابير وجه متغيّرة.

لاحظ الجندي الممرّض بنبرة فيها شيء من اللوم: أنت تتكلم بعدُ لهجة هؤلاء القوم كما يجب. ضحك برتن وقال: لو سمعتك النساء اللاني التقيتهنّ أمس لأصابهن الذعر. سيفكّرن طبعاً أن تقاسم لغة واحدة هو بمثابة تقاسم نفس الفراش. مدينة دكناء، قاتمة ويكتنفها الغموض. فجأة ظهر أمامهما معبد ثم مسجد، الأوّل مزركش بعديد الألوان والثاني يزخر في لون واحد. تقزّز الجندي الممرض من منظر إلهة مشوهة، من رأسها المخيف الذي فاق حجمه كبر جسمها بأضعاف. تمتّعْ بالمفاجأة، إنها على كل حال شفيعة كل المدينة التي ينطق فيها الناس بلغات عدة بينما تبقى هي على خرسها. مرّا بمدفن فشاهدا بالمقربة من جثمان مغطى بقماش أخضر ومطرّز هراوات معلّقة على الحائط. شرح لهما أحد الحراس أنّها أدوات بَابَا السحرية، قرعات جيء بها من إفريقيا. أناس جذمٌ وكلاب منبوذة. الأطراف الذابلة للمتسولين طُليت بلون مقدّس، غير بعيد حرّكت بقرة مشوّهة ذيلها باستمرار مطاردة الذباب. كان لون ساقها الخامسة والقصيرة برتقالياً. غير بعيد عن البقرة جثم رجل بدون أطراف فوق غطاء وسط الزقاق الذي يقود إلى المدخل الخلفي للمسجد وقد أحاطت به قطع النقود المبعثرة وكأنها حبات الجُدري سقطت من على أجسام أصحابها. عطّل رجل أسود البشرة وعاري الجسم حركة المرور. كان مدهونا من أصابع رجليه حتى رأسه، رابطاً منديلاً أحمر حول جبينه وممسكاً بسيف. تجمهر جمع هائل من الناس حول صيحاته المتواصلة.

أرُوني الطريق الصحيح! هكذا كان يصيح ويلوّح بسيفه في الهواء. ردّد رجل مسنّ بالقرب من برتن كلاماً وهو يغمغم بصوت مكبوت وفي رتابة الصلاة بينما اهتزّ السيف في يد الرّجل عاري الجسم كالسّوط وتحوّلت الجموع المحيطة به في تصوّره شيئاً فشيئاً إلى أعداء. ماذا يجري هنا؟ إني لا أفهم ما يجري هنا! تكوّر الجندي الممرض وراء ظهر برتن. واصل الرجل العاري دورانه بسرعة حول نفسه محدثاً صفيراً بسيفه الممدود إلى أن عثرت قدمه وسقط السيف من يده. هجم عليه عندئذ بعض من الرّجال المتجمهرين حوله وبدؤوا في ضربه وركله. قال له الجندي الممرّض متوسلا: حذار، لا تتدخل! أنت طويل القامة ولربّما أيضاً قويّ البنية، لكن ليس في مقدورك أن تجابه هؤلاء الوحوش. وماذا إذا قتلوه؟ أمره لا يعنينا.

قال الجندي الممرّض في طريق العودة: موسمان من الرّياح، يا دِكّ، هذا هو معدّل عمر القادمين الجدد. أجابه برتن مواسياً: لا تحمل همّا، هذا لا ينطبق طبعاً إلا على الذين يكونون حذرين جداً في حياتهم فيموتون نتيجة البراز الناشف. غمغم الجندي الممرّض قائلاً: البراز الناشف؟ أنا لست متهيئاً لهذا أبداً.

١

الخادم

قد لا يذهب أحد إلى اللاّهية في ساعة كهذه طلباً لخدماته. ليس في شهر الجفاف هذا. بوسع الآخرين أن يذهبوا إلى المعبد ليعِدوا بما شاؤوا ثمّ ليترجّوا الآلهة مجدّداً أن تغدق عليهم مطراً، أمّا هو، فبأي عمل صالح يستطيع أن يَعِد غانِيش؟ الأجدر به أن يرحل، أن يغلق مكتبه وأن يفرّ أمام كل هذا الغبار، لكن المسافة طويلة حتى المكان الذي يستطيع أن ينام فيه قليلاً. الريشة والورق على تمام الاستعداد رغم أن لا أحد سوف يزوره، على الأقل في مثل هذه الساعة من النهار وفي شهر الجفاف هذا. ليس بوسعه أن يركن إلى راحة القيلولة لأنّ الراحة النفسية تعوزه. لقد دأب على مراقبة الكتَبة العموميين الآخرين، تلك الوحوش الضارية التي تتناحر باستمرار من أجل الحرفاء. ما إن يدخل الزبون نهج الكتبة حتّى يبدؤوا في تحسّس كل ما يوحي بعدم تمرّسه، إلى إن يجلس القرفصاء أمامهم ويفصح بطلبه. سوف لن يتفطّن أبداً إلى الطريقة التي دأب هؤلاء الأوغاد الذين لا حياء لهم على الاحتيال بها عليه كل مرّة. ما زالوا يحترمونه شيئاً ما، ما زالوا يخشونه قليلاً. هو لا يعلم ما الذي يخيفهم حقاً، غير أن صوته الأكثر تماسكاً من جسمه كان يقيه شرّهم. لديه من مواطن القوّة ما يستطيع أن يعوّل عليه: طلْعته الوقورة، اسمه وعمره اللذان يجلبان له الاحترام. هذا الوقت من النّهار بالذات، هذا الفصل من السنة، كلاهما يبعث على القنوط. الأرض تحمَى ولا شيء يتحرك. يمدّد ساقيه. القيظ

يذوب، يسيل على الطريق، يلتصق بحوافر ثور لا يروم السّير قُدما. ينهال عليه ضربا صاحبُه منهك القوى أصلاً، علّه مقابل كل ضربة يتقدم خطوة واحدة صوب النهاية.

من هو هذا الرجل وسط الطريق؟ أهو زبون؟ طوّقته الأنظار بسرعة، رجل طويل القامة، يقف منحنياً شيئاً ما إلى الأمام، يطأطئ رأسه ثم يرفعه. جسمه لا يبدي مقاومة أمام الأيدي الكثيرة التي تجاذبته من كل صوب. يبدو الرّجل وكأنه تسمّر في مكانه. الآن يرفع رأسه. ينسلخ أحد الوحوش الضارية عن المجموعة فتتبعه وحوش أخرى. تترك الرجل الذي هو أطول قامة وحاله. يشاهد اللاهية الكتبة وهم يشيرون بأصابع تدّعي المعرفة في اتجاهه هو. يسير الرّجل طويل القامة نحوه وقد غلبت على محياه علامات تنمّ عن قدر من العناد والفخر وشارب طغى عليه الشّيب. اللاّهية يعلم الآن أنّ الكتبة الآخرين، هؤلاء المتطفلين على المهنة، خاب ظنهم، رغم أنهم بدوا غير مكترثين وهم يغلقون دفاترهم مُوهمين العالَم أن لا شيء في هذه الدنيا يمكن أن يبقى سرّاً بالنسبة إليهم. لا بد أنّ لهذا الرجل طلباً لا يستطيع تلبيته غير اللاّهية المتمرّس.

ـ المكاتيب الموجّهة إلى السّلطات البريطانية هي من اختصاصي.

ـ لا يتعلّق الأمر بمكتوب عادي..

ـ وأيضاً الرسائل الموجّهة إلى شركة الهند الشرقية البريطانية.

ـ هل تحرّر أيضاً رسائل موجهة إلى ضباط؟

ـ طبعاً.

ـ لا أريد رسالة رسمية فيها كلفة.

ـ سنكتب ما تريد، لكن هناك صيغاً يحسن الإبقاء عليها. الأسياد يحبّذون التمسك بالشكل. أدنى هفوة في بناء النص أو في توجيه الكلام قد تحوّل الرسالة إلى شيء لا قيمة له.

ـ يجب شرح كثير من الأشياء. لقد اضطلعت بمهامّ عدّة كما لم يضطلع بها أحد غيري..

ـ سوف نستوفي الكلام بالقدر الذي يتطلّبه الموضوع.

ـ كنتُ سندَه لسنوات عديدة. ليس هنا فقط، في بارودا. انتقلتُ معه من مكان إلى مكان..

ـ نعم، أنا أعي هذا.

ـ خدمته بكل وفاء.

ـ لا أشك في هذا.

ـ لولاي لكان مصيره الضياع.

ـ طبعاً.

ـ وهل تعرف كيف عاملني هو؟

ـ اللّؤم هو دوماً جزاء النّبلاء.

ـ أنقذتُ حياته!

ـ هل لي أن أعرف إلى من سيُوجّه المكتوب؟

ـ لن يُوجّه إلى أحد.

ـ لن يُوجّه إلى أحد؟ شيء غريب.

ـ لن يُوجّه إلى شخص بذاته.

ـ فهمت. هل تريد استعمال المكتوب مرّات عديدة؟

ـ لا، أو العكس، نعم. لا أدري فقط إلى من سأقدّم الرسالة. كل الأنغريز في هذه المدينة عرفوه فيما مضى. مرّ على هذا وقت طويل، ربما وقت طويل جدّاً لا أعلمه بالتحديد، لا بد أنّ البعض منهم ما زال في

بارودا. اليوم فقط رأيت الملازم أوّل وَايسْتلر. كان يتنقّل في عربة، في إحدى تلك العربات حديثة العهد والتي تغطّيها مظلة من الجلد حتى نصفها. كانت عربة جميلة حقاً. كاد الملازم أوّل أن يدوسني بعربته. نعم، تعرّفت على الملازم أوّل وَايسْتلر في الحين. كان زارنا فيما مضى مراراً. كنت أعلم أنه سيتوقّف قريباً فجريت قليلاً بجانب العربة، ولمّا توقفتْ سألت الحوذي.

ـ وماذا أجاب؟

ـ قال مصحّحا: لا، إنّها عربة العقيد وَايسْتلر. لم أخطئ على كل حال في شأنه، أذكر أنّ سيّدي كان يتهكّم باسمه.

ـ سنكتب إذن إلى العقيد وَايسْتلر!

وحتى يعلم الزّبون أنه على تمام الاستعداد، يفتح اللاهية المحبرة الصغيرة، يتناول الريشة، يغمسها في الدّواة، يجرّها على الورق على سبيل التجربة، ينحني سطورا إلى الأمام ثم يمكث دون حراك. سكنت أمواج الغبار التي حيّرها مجيء هذا الزائر. من وراء الضّوء الساطع الذي قرّر اللاهية ألاّ يواصل النظر فيه، يبدأ الصوت المتردّد في السّرد. التخمينات والافتراضات تتحوّل إلى تلميحات، التلميحات تتحول إلى أوهام وعن الأوهام يتولد أشخاص. من أشخاص مجهولين يُخلق بشر لهم أسماء، صفات ووجوه. يبدو اللاهية مستعدّاً ويمسك الريشة بين أصابعه مسكاً محكماً، لكنه مع كل هذا لا يرى لا نهاية ولا مغزى لقصّة الحياة هذه التي يسهب الرّجل في عرض أطوارها أمامه. لا فائدة إذن في تدوين كلّ ملامحها الغامضة وغريبة الأطوار.

ـ استمع إليّ جيداً! كلّ هذا لا يوصلنا إلى نتيجة. أنا في حاجة إلى بعض الأفكار تتلوها بعض التسجيلات، في حاجة أوّلاً إلى بعض رؤوس

أفلام تمكّنني من تقديم اقتراحات حول الكيفية التي سنصوغ بها المكتوب.

ـ لكن.. لا بد أن أعرف كم سيكلفني كلّ هذا!

ـ ادفع في الأوّل عربونا بقيمة روبيتين، ناوكرام بْهاي، وسنرى لاحقاً كم يتطلّب الأمر من مجهود.

٢

انطلاقاً من مقطع

حدث أحياناً أن تجشأت المدينة المكتنزة. كان لكلّ شيء رائحة كريهة وكأنّ إفرازات المعدة انصبّت عليه فأفسدته. على قارعة الطريق ما زال النوم لم يُستسغ بعد لكنه قد يتبدّد قريباً. غاصت مِلعقةٌ في ثمرة بَابَايَا نضجت زيادة عن اللّزوم، أرسلت بطونُ أقدام عارقة وهي في طريق العودة من السُّوق رائحة الكزبرة. كان لا يدري ما الذي تسبب حقّاً في تقززه. أهو نسيم البحر الذي اختلط وقت الجزر بالرائحة العفنة لحشائش الماء ورئات البحر المترامية على الشاطئ، أم هي روائح فطور الصباح الذي يتناوله المسلمون والمتكوّن من أحشاء الماعز المقلاّة على نار مواقد صغيرة. كانت الطريق التي سلكتها الإنسانية مفروشة بإغراءات ماكرة.

ـ سِيرْ، ليس من عادتي أن أزعج سيّداً عظيم الشأن مثلك. أرى أنك سيّد رفيع الشأن، أرى هذا من أوّل وهلة.. ولا تظنّ أنّي.. أبداً، أنا رجل متواضع ولا يليق بي أن أخيّب ظنّك، لا أريد أيضاً أن أسرق من وقتك، لا سِيرْ، أرجو فقط أن تتفضّل بالإصغاء إليّ قليلاً وسوف أكون في عونك.

سار برتن على طول الطريق، كان يتفسّح ويتحسّس المنازل بنظراته المتمعّنة. كان ملفتا للنظر، هذا الضابط البريطاني الشاب ذو الرّأس المرفوع واللحية الكثة.

- لا بدّ أنّك وصلت للتوّ. أمر ليس باليسير. الأمور هي كذا في كلّ مكان عند الوصول، لا أحد يساعدك، أمر عسير حقّاً..

- أاَبكا شُوبَه نَآمْ كِيَا هِي؟ كان سؤال الضّابط.

- آرِي بْهَاجْوَانْ، آَآبْ هِنْدِي بُوْلِتِي هِي؟ اسمي ناوْكرام، أنا في خدمتك، صاحب، أنا في خدمتك.

بعد أسبوع من وصوله عرف برتن أنّ المدينة تعجّ بالهنود المنافقين الذين لا يرون في كل ضابط وكل ذي بشرة بيضاء إلاّ بقرة أعوزتها القداسة يريدون حلبها كما عنّ لهم. فحتى عندما ينحنون تقديراً واحتراماً، فإنّهم، في نفس الوقت، يدسّون أيديهم في جيوب الغير.

- عن أيّ خدمة أنت تتحدث؟

- تعلمتَ لغتنا بسرعة، بَاهُوتْ آتْشِي تَرَاهْ. أنت وصلت إلى هنا منذ وقت قصير، على متن آخر سفينة جاءت من انجلترا.

- أنت مطّلع تمام الإطّلاع.

- مجرّد صدفة، صاحب، أخي يعمل في الميناء، وابن عمي يعمل كذلك في الميناء، لا غير.

ماذا يريد هذا الرّجل الشاب الذي تُوحي أسارير وجهه بحكمة الكبار؟ ماذا يريد هذا الرّجل الأنيق والدقيق في لباسه؟ فارع القوام هذا بانحناءته الطفيفة إلى الأمام؟ هذا الرّجل في منتهى الشحوب، ذو الوجه المقبول لا غير ودون جاذبية تذكر؟

- كلما سارعتَ في الحصول على خادم إلاّ وكان الأمر أفضل بالنسبة إليك.

- ما دخلك في كل هذا؟

ـ أنا، رمجي ناوكرام، سأكون خادمك.

ـ ما الذي يجعلك تعتقد أني أبحث عن خادم؟

ـ هل لديك خادم بعدُ؟

ـ لا، ليس لدي خادم بعدُ، كذلك ليس لي جواد.

ـ كل سيّد يحتاج إلى خادم.

ـ وكيف تريد أن تكون أنت خادمي بالذات؟ ثم لماذا أختارك أنت دون غيرك؟

بقيا واقفين في مفترق طرقات أين كانت عروض أخرى تترصّد برتن. عند مغادرة الفندق في الصباح كان قرّر ألاّ يفوّت على نفسه موعد الظهر ليتعوّد على أن يقول لا، على أن يبقى متشبثاً بموقفه. قرّر أن يضرب بجميع الإغراءات عرض الحائط، فقط لمجرّد أن يكون له الدليل القاطع على أنّه قادر على التصدّي لها. في انتظار أن يمتثل لها لاحقاً.

ـ أنا لا أرضى إلا بالجيّد.

ـ نعم، صاحب، هل من معنى لكلمة «جيّد»؟ هناك رجال وهناك نساء، والرّجال الذين لا يختارون امرأة لاعتقادهم أنّه في مكان قريب جدّاً قد تنتظرهم امرأة أروع أو أجمل أو أيسر حالاً، هؤلاء الرجال يبقون في نهاية المطاف بدون امرأة. ما نأخذه اليوم هو دائماً أجدى من كل الوعود بأشياء قادمة. ما هو مؤكّد اليوم يحسن عدم إرجائه إلى الغد.

في اليوم الذي تلا اليوم الموالي جاءته فكرة.

ـ أريد أن أتعرف على المدينة ليلاً.

ـ تريد زيارة النادي، صاحب؟

ـ المدينة الحقيقية.

ـ طبعاً، ماذا تقصد بالضبط؟

ـ أرني الأماكن التي يؤمّها الأهالي للترفيه عن أنفسهم.

ـ وماذا تريد أن تعيش هناك، صاحب؟

ـ أريد أن أعيش ما يبحث عنه الروّاد القارّون. أن أتسلّى بما يتسلّون به.

هذه المرّة فضّل برتن عدم الخروج مع الممرّض الذي قد تكون المسافة وحدها كافية لتوتير أعصابه. الطرقات كانت غير مضاءة، وكل مخلوق اعترض طريقهما كان ملفوفاً في هالة من الغبار تنقّلت معه. ازدادت الأزقة ضيقاً وكثرت تفرّعاتها إلى حدّ أنّ برتن ما كان ليهتدي إلى طريقه لو كان وحيدا. كان عليهما أن يترجّلا فشعر بإجهاد وتوتّر لم يكونا في الحسبان. تساءل هل إنه سيسمع وقع خطًى قبل أن ينغرس سكين ما في جسده. استثارته الفكرة: ابتدأت الأمسية حسب ذوقه. لمع قبالتهما صفّ من المنازل، اقتربا منه وتمكّنا من التّعرف على بنايات منفصلة لها جميعاً ثلاثة طوابق وبكل طابق شرفة. نساء وقفن في الشّرف وانحنين من على الحواجز أخذن ينادينه، هَمَارَا غَارْ أَنَا، أَتْشَا دِينْ هِي. كنّ على درجة كبيرة من الصّخب ولم تترك لهنّ شراهتهن مجالاً لإغرائه بالدخول إلى الطابق الأرضي الذي كان مفتوحا كالدّكان وجلست في أوّله طبعاً امرأة متقدّمة في السن تكفّلت بتسيير باقي الشؤون. كانت الوجوه ملطّخة بالأصباغ، ارتفع صراخها فغطّى حتى على أصوات النساء، أمّا الباقي فقد انحصر في الطابق الأوّل وشكّل عالماً حكَمته تموّجات الساري. ليس جميلاً كل هذا، صاحب، أليس كذلك؟ هل يأتي إلى هذا المكان كثير من الناس؟ الذين ليس لهم إلا القليل، هذا المكان ليس جميلاً. الآن سنشاهد ما هو أجمل، صاحب. مرّا أمام بناية كان ناوكرام يعلم أنه يتمّ تدخين

الأفيون بداخلها. قال برتن في نفسه، الآن سنرى الذّهب الذي يقتات منه كلّ الذين يشغّلونني. سيشاهد في الحقيقة مصدر كل الثروات، الدّخان المتموّج الذي وجب عليه الذّود عنه. همّ بدخول مغارة الأفيون لكنّه ارتبك لرؤية الرّجال الواقفين في المدخل والواجمين كأنهم دمى من الشّمع. قال ناوكرام إنّهم لا يقدرون على الحراك، لقد تناولوا أكثر ممّا يلزم من الأفيون.

اقتربا من المكان الذي كانا يقصدان أصلاً. هناك أيضاً كانت البنايات شاهقة وتكوّنت من عدة طوابق لكلّ واحد منها شرفة، غير أن هذه المرّة لم تتدلّ من على حواجزها الحظايا بل أزهار منعشة. لندخل إذن. لا، صاحب، ادخل أنت، أما أنا فسأنتظر في الخارج. كلام لا معنى له، ستدخل معي، ولا تنس أنك في فترة تربص! استقبلهما رجل نحيف الجسم وعلى درجة كبيرة من الخضوع، ناهيك أن برتن كاد يقسم أن الرّجل انحنى أمامهما فعلا رغم أنه بقي طول الوقت واقفاً وقفة مستقيمة. أكّد لهما بفيض من العبارات أنّ المحلّ يرحّب بهما وهو يلقي نظرة مرتابة على قميص ناوكرام البالي والطّويل. عندئذ تكلّم برتن وقال بنبرة فيها زجر إنّه يودّ أن يرى مرافقه يُعامَل باحترام وقد لاحظ أن ناوكرام كان يصارع نفسه محاولا تخطّي العقبة. سارا وراء مستقبِلِهما ودخلا مكاناً فاخراً أكثر برودة من الخارج وأرضيته مفروشة بزرابي سميكة بينما جلست في أحد جوانبه مجموعة من الموسيقيين كانت بصدد الاستراحة. سبَح كل شيء في غمامة نشرت نوعا من الحلاوة في الجوّ. اتخذا لنفسيهما مكاناً في زاوية اكتظّت بالمخدّات وما أن اختفى الرجل النحيف حتى قدمت لهما امرأة مشروبات باردة وحلويات. أثارت انتباهه سرّتها الجميلة، كذلك الضفيرة السوداء التي وصلت حدّ خصرها. همس إليه ناوكرام قائلاً إن هؤلاء النسوة قادرات على قول الشّعر. كنّ يرتدين ملابس أجمل من تلك التي

استها النساء الأخريات. وجاءت امرأة رشيقة ونحيفة البنية متهادية بينما أظهر برتن استعداداً بيّنا للغرق في سحر منظرها الفتّان وهي تلقي على ناوكرام على جناح السرعة ودون مقدّمات أسئلة عديدة وكأنّها ترشقه برماح بينما تفحّصت برتن وكأنه سمكة عُرضت للبيع. اتخذت لنفسها مكاناً بجانبه وابتسمت له بعينيها الخضراوين ووعْد غير بيّن وكأنّها صدَفة بدأت تفتح شيئاً فشيئاً. غفر لها أسئلتها الفضّة وتفرُّسها فيه بلا حياء.

- هذا الذي يرافقك قال إنك تتكلم لغتنا.

- لغتكم لا أفهمها إلاّ عندما تتكلمينها بتأن كامل وتبتسمين بعد كل كلمة.

- هل تريد أن أغنّي لك؟

- إلاّ إذا شرحتِ لي ما ستغنّين.

أشارت إلى العازفين بإيماءة رأس، وقفت ثم خطت خطوات قليلة إلى الوراء وهي تحدّق مباشرة في عيني برتن ثم تموّجت مع اللحن المناسب رويدا رويدا وكأنّها أرجوحة تزداد سرعتها شيئاً فشيئاً إلى أن بدأت تصفّق وتغنّي.

مَن طول حياته عمل صالحاً،

ليُبعثنّ يوماً قطرةً من الندى

على شفتيّ.

مَن طول حياته عاش على العفّة،

ليَسكُننّ بيوت المحار

فراشاً وثيراً بين شفتيّ.

وخيرَ النعم أصاب الذي،

كاللؤلؤة البيضاء اندسّ

بين نهديّ.

مكثت على مقربة منه طوال الأغنية برعشة في شفتيها وقد أبقت على عينيها نصف مغمضتين وكأنهما خطيرتان ووجب مراقبتهما. توقّفت عن دورانها السّريع حول نفسها أمامه تماماً وكان باستطاعته أن يقبّل سرّتها وقد أمالت رأسها إلى الوراء وجمدت في مكانها. كان ثوبها يرتعد مع كل ثنية من ثنياته، كذلك فعل نهداها تحت القماش المطرّز بالذّهب. برز فجأة بين يدي المرأة صنْجان صغيران جعلت تُطبق أحدهما على الآخر وهي تواصل رقصها. ولمّا وصل اللحن إلى نهايته بدا له وكأنّ الإرهاق نال منه أكثر من المرأة. جمدت في مكانها وبدا محيّاها كلّه انتظار.

ـ أعطها نقوداً.

ـ لا أريد أن يكون لها في الأمر إهانة.

ـ لا، صاحب، الإهانة تكون عندما لا تعطي شيئاً.

مدّ برتن يده صوب المرأة وبين أصابعه ورقة نقدية. كانت الشّراهة في عينيها جليّة، جذبت منه الورقة النقدية بتؤدة وكأنها لا تريد أن توقظ أصابعه من سباتها ثمّ استدارت فجأة إلى الخلف واختفت وراء ستار.

ـ لديّ شعور أنّها سخرت منّي.

ـ لا، صاحب، أنت فقط لا تقدّم النقود بالطريقة المطلوبة.

ـ هل هذا يعني أني لا أقدّم ما فيه الكفاية؟

ـ لا، أنت تعطي ما فيه الكفاية، لكن عليك أن تلعب بالنقود، انظر، هكذا..

ـ إنّ هذا ليدعو إلى السخرية. لا أريد أن أكون أضحوكة.

كان مصدر الرائحة المائلة إلى الحلاوة والمسيطرة على المكان تلك النرجيلات التي، كما أوضحت له إحدى النساء، يختلط فيها التبغ الفارسي بالأعشاب والسكّر غير المصفّى والعديد من التوابل ويمرّ عبر الماء ليصير صافياً. جرّبْ، سوف تجد في هذا لذّة. أخرجتْ من جيب مندسّ داخل ثوبها مبسماً خشبياً وبدأت هي أيضاً تدخّن النرجيلة.

ما كان بوسعه ليحدّد الوقت الذي قضّته النّسوة وهنّ يرقصن ويغنّين له، ألحاناً متصاعدة فاقت في نبرتها كل النبرات، في إيقاعات تداخلت، إيقاعات عادت لتُدقّ على وتيرة منتظمة، لتنبض، لتجهد، على وقع كلمات لا تخفي شيئاً. ثم يكون تأثير اللّبن الذي لم يكن لبنا بل سُومَا، كما لقّنه ناوكرام. كان مشروباً للفكر، مشروباً سحرياً، يصلح للصّلوات وللولادات. ويزيد الحليّ لمعاناً واتقادا وتتأرجح السلاسل في الأرجل والأيدي وتتعرى الخصور ويصوّر تكوّر البطن الطفيف استدارة السرّة الفردوسية. ثم تشرق تلك الابتسامة الرائعة التي لا عنوان لها ويفيض ذلك الشّعر السّائب الذي سرّحته الأيدي وخاضت غماره بانتظام. كلّ هذا لن يسمح له فيما بعد بأن يقول إنّه اختار حقّاً واحدة من بينهن بمحض إرادته. أخذته من يده وصعدا إلى غرفة في الطابق الأوّل. الفراش عال، جرّدته من ثيابه وغسلت جسمه، بتأن وبماء دافئ. غطّت وجهه عبقاً. تذكّرْ هذه الرائحة! كلما شممتَها مستقبلاً إلاّ وتذكرت لحظات سعيدة. نعم، ستتذكّر الزهور. كان كلّ شيء يعبق برائحة الزّهور، كل المداخل، صور الأجداد الأوائل، عوارض السّقف، المخدّات وشعر هذه المرأة التي كانت تنزع ثيابها وتنفضها عنها سحابة بعد أخرى. تَصلّبَ هو كالماسورة فعضّت شيئاً ما على شحمة أذنه وهمست بكلام لم يفهمه إلا بعد أن واصلت الرّحلة بلسانها على مدى رقبته وبلغت شحمة·أذنه الأخرى. قالت: رَاتْ كِي راني. كان ما نطقت به سهل الفهم، كان يعني ملكة الليل، لكن ما

المغزى من قول مثل هذا الكلام؟ هل كان هذا ربّما اسمها الحقيقي؟ أم لقبها كحظية؟ بدأت بالكشف عن جسمه بلطافة ودون مفاجآت إلى أن قامت بشيء جعله يرتعد. تلذذت تصلّب ذكره، تذوّقته، وزّعت لذّتها أقساطاً. لم يتوقّف تلذّذها حتى عندما تركت نهديها ينزلقان على وجهه، حتى لمّا تهاوت وجرّته معها إلى العمق وهو يسمح لنفسه بإرسال بعض الصيحات المكبوتة. رفعت عجُزها إلى أعلى فلمح الزّهرة في يدها من جديد، لم تلبث يدها أن اختفت تحت عجُزها ولم يفلح هو في ضبط نفسه فانفتح عليها بهزّات صاخبة أخيرة. لا بدّ أنّ الزّهرة تمّ سحقها لأنّه لمّا عاد واستلقى بجانبها منهكا أحاط به عطر خفيف من كل جانب، رائحة ملكة الليل العبقة.

رغب في البقاء لساعات في ذلك الفراش العالي، لكنّه، لمّا ذبلت الرائحة الشذية، أحسّ بنوع من عدم التّريث يخترق الجسم العاري والممدّد بجانبه. فكّر: انتهى الوقت المخصّص لي. ثمّ ما لبث أن استطرد: بلى! إنّها حقّاً بداية البداية بالنسبة إليّ. ولمّا كان يغادر المحلّ الذي عاش فيه أوّل سحر وهو يسير صحبة ناوكرام في اتجاه المكان الذي بقيت فيه العربة في انتظارهما قال في نفسه: إنّها حقّاً بداية ذات بال.

- إلى أين نحن الآن ذاهبان؟

- إلى الفندق الذي تقيم فيه، صاحب.

- قبل كل شيء أوصلك إلى بيتك.

- لا، صاحب، لا داعي.

- هل تريد أن تعبُر نصف المدينة مشيا على الأقدام؟

- المسافة ليست بعيدة، صاحب، نصف ساعة من السّير، لا أكثر.

- أرى أنّك تصرّ على السّير على قدميك، ليلتك سعيدة.

نزل ناوكرام من العربة، ولمّا اختفى في الظلمة سمع صوتا يناديه.

ـ نجحتَ في الاختبار، ناوكرام، سأدخلك في خدمتي، لكن عليك أن تكون مستعدا للانتقال معي إلى الشّمال، إلى مكان يبعد بأربعمائة ميل من هنا ويسمّى بارودا. علمتُ أمس أن نقلتي تمّت إلى هناك، أين سأكون بحاجة إلى خادم.

وجاء الجواب من وسط الظلمة:

ـ كلّ شيء مقدّر، صاحب، كلّ شيء يسير حسب مشيئة. أعرف أين تقع بارودا، أعرف هذا جيّداً لأنّي أصيل بارودا. كل شيء يسير في الطريق الصّحيح، صاحب، نعم، سأعود معك إلى مسقط رأسي.

٣
ناوكرام

II أُومْ إيكاكشارايا نَمَهَا سرفافيغنوباشنتايا نَمَهَا أُومْ غانيشايا نَمَهَا II

ـ أنا جاهز.

ـ تعرّفت على صاحبي، النقيب ريتشارد فرانسيس برتن، في بُمباي.

هناك من نصحه بأن يُدخلني في خدمته. كان وقتها وصل لتوّه من أنجلستان ويبحث عن خادم جدير بالثقة فأدخلني فوراً في خدمته.

ـ لا! ليس بهذه الطريقة. هل أنت سَياجيرَاوْ الثّاني حتّى تبدأ مباشرة بالحديث وكأنّ كل الناس يعرفونك؟ علينا قبل كلّ شيء أن نبدأ بتقديمك. أصلُك، عائلتك، حتى يكون المُرسَل إليه على علم تامّ بمصدر المكتوب.

ـ وماذا تريدني أن أقول عن نفسي؟

ـ هل أنا الذي أعرف شيئاً عن حياتك؟ هل أنا من يعرف شيئاً عنك؟ تكلّم بكل عفويّة، وكل ما هو زائد سأحذفه فيما بعد.

ـ أقول إذن شيئاً عن نفسي؟

ـ ابدأ!

ـ حسن. ولدتُ في بارودا، في القصر. في النصف السيئ للقصر. كنت طفلا معتلّ الصحة وحاله تبعث كثيراً على الانشغال. لربّما وجب عليّ أوّلاً أن أذكر أنّي لم أنشأ عند أبي وأمي ومع إخوتي. عرفتهم كلهم

فيما بعد، أي، بصفة أدق، لم أتعرّف على والديّ أبداً. جاءا مرة واحدة لزيارتي لمّا كنت صبيا. قد يكون كلّ هذا غير مهمّ. لقد خدمت عائلتي القائكْوَاذْ منذ أجيال، منذ أن كان أحد القائكْوادَات السّاعد الأيمن للمْنيفاجي. لقد خاض أحد أجدادي الحرب إلى جانبه أثناء الواقعة الكبرى، لا، كلّ هذا غير مهمّ، أغلب الظنّ أنّه خرافة من خرافات عائلتنا، حكاية جميلة كنّا نفتخر بها. أظنّ أنّي كنت الابن الأصغر. قبل أن تحملني أمي في بطنها كانت ولدت لأبي ستة أبناء كانوا كلهم في صحة جيدة وأقوياء. كان أبي في غاية السعادة لمّا وُلد له الابن الأوّل، جد فخوراً عند ولادة الابن الثاني ومرتاحا لولادة الابن الثالث، أما فيما بعد فاستقبل كل ابن جديد كشيء بديهي. لكن ليس هناك من نعم بديهية، هذا ما أعتقده على الأقل. على المرء أن يكون عارفاً بالنّعم التي يحظى بها، أن يكون مدركا لقيمتها. لمّا جاء أمّي المخاض بحث أبي عن جِيُوتِيشْ القصر. كان هذا الأخير رجلاً لا يعرف الصّبر، لم يستطع الانتظار لمعرفة إن كان ذلك اليوم حسن الطّالع. كان مخطئاً ولم تكن المفاجأة سارّة بالنسبة إليه. موقع النجوم، العدد سبعة، العدد تسعة، تاريخ اليوم وعمر أبي، وعمر أمي، و..

- كفى. هوّن عليّ وأرحني من هذا الهراء.

- هراء؟ ألا تثق في هذا الكلام؟ إنه صادر عن جِيُوتِيشْ الماهاردجا.

- أنا أنتمي إلى سَاتيَا شُودَاكْ سَامَاجْ، هل تفقه ما أقول؟ نحن تركنا مثل هذا الاعتقاد البدائي بالخرافات.

- لكن النّجوم كانت حقاً تنذر بالويل. مثلاً بالجفاف والفيضانات في نفس الوقت. قال الجيوتيش، كلّما بدا الحظ سعيداً والطّالع حسناً أكثر من اللاّزم انقلب إلى العكس. كانت صحّة المولود الجديد في خطر،

ومستقبل العائلة كان نذير شؤم. أمّا أبي فكان مهموما جداً وأراد وضع حدّ لكل لتلك الحالة. قال الجيوتيش، هناك مخرج واحد، على زوجتك، أي أمّي، أن تلد بنتا وسوف تعود الأمور إلى نصابها. سرّح الجيوتيش أبي بعد أن زوّده بقارورة صغيرة من زيت شجر المَرغُوزَا وبعض التعاويذ التي كان عليه أن يكرّرها بينما كانت القابلة منهمكة في تدليك بطن أمّي في حركات دائرية وفي اتّجاه عقارب الساعة مرّة كل ساعة..

- كفى. لسنا هنا بصدد تأليف كتاب لتعليم السّحر.

- اقترب موعد ولادتي وتجمّع كل خدم الماهاردجا الذين لم يكن لديهم ما يشغلونه أمام غرفة أمّي وصلّوا جادّين لأن تلد أمّي بنتاً. تتالت الأوجاع واحتدّت الصلوات وجاء أحدهم ببُوجَارِي بينما جمع آخر نقوداً، أحضر جوز الهند والأكاليل. لا أدري في الحقيقة إن كان القسّيس يحفظ الصلوات الخاصة بولادة البنات حقاً، أم إنّه ابتدعها للتو.

- بارع في الارتجال.

- ماذا؟

- لا شيء. واصل!

- في ساعة متأخّرة من اللّيل، بعد أن مرّ وقت على ذهاب البوجاري ولم يبق إلا القليل من الأصدقاء مع أبي، فُتح الباب وخرجت القابلة وهي تحمل المولود الجديد بين ذراعيها. قالت وكلّها بِشْر: طفل وسيم، في تمام الصّحة والعافية، فصاح أبي قائلاً: ما حاجتنا بالصّحة والعافية؟ هل المولود الجديد بنت؟ لكن القابلة المنهكة أصلاً لم تهتمّ بكل هذا الانفعال وأجابته: لا، حمدا لكريشْنا، لا، إنه ولد. لطم أبي جبهته براحته وصاح بصوت عال جعل الحرّاس يهرولون إلى مكان الحادثة. أحاط الأصدقاء بأبي في محاولة منهم لمواساته، أمّا القابلة التي لم يُعرها أحد اهتماماً

فعادت بي إلى الغرفة ومددتني بجانب أمي. لقد بلغ الانفعال أوجه، إلى درجة أن الجميع نسوا أن يضعوا قطنا مبللا على لساني.

ـ أما الآن، وقد تحقق لك حلم الولادة، هل لك أن تقول لي لماذا أنت سردت عليّ كل هذا؟ هل تظنّ أن العقيد وَايسْتلر يريد أن يعرف أنّه من الأجدر بك لو كنتَ بنتا؟

ـ لقد عاودتني الذّكرى فقط.

ـ علينا أن نكتب ما يعود عليك بالنفع، أن نبرز خبرتك الكبيرة كخادم، أن نصف مواطن القوّة لديك، أن نذكر نجاحاتك، أن نعرّف بقدراتك. أمّا المصائب التي بقيت عالقة بك، فلا أحد يريد أن يعرف عنها شيئاً. بإمكانك أن تتقاسمها مع زوجتك.

ـ ليست لي زوجة.

ـ ليست لك زوجة؟ هل أنت أرمل؟

ـ لا، لم أتزوّج أبداً. أحببت مرّة، لكن النهاية لم تكن سعيدة.

ـ أريت؟ هذا مهمّ. كنتَ إذن دوماً خادماً أميناً إلى حد أنك لم تجد وقتاً للزواج.

ـ لم يكن هذا السبب.

ـ هل هذا مهمّ؟ هل أنت دوماً متأكد من الأسباب التي تجعلك تقوم بشيء أو تعدل عن آخر؟ من يعلم هذا بالتأكيد؟ واصل!

ـ لم يرمْ أبي الانتظار حتى يقرّر فيذْهاتا مصيري. أراد أن يدّخر مصاريف الكساء والمرطبات فأخذني للتوّ إلى أقارب لنا في سُوراتْ. أعطاهم قطع الذّهب التي قدّمها إليه الدّيوان في الصباح الموالي للولادة شفقة عليه وظنا منه ـ لمّا بدا أبي مذهولاً ـ أنه ولدت له بنت. وبفضل هذا

المهر، إن صحّ التعبير، وافق الأقارب على أن يتكفلوا بي. ثمّ إنّ الجيوتيش أكّد لأبي أن المصيبة ستزول لا محالة بمجرّد أن أبدأ حياتي بعيداً عن أهلي.

ـ هلاّ انتهيتَ أخيراً من هذه الحكاية المميتة؟ أنت ترهق صبري أكثر من هذا الحرّ. لنأخذ نصيبا من الراحة. ستكون المهمّة أصعب ممّا كان متوقّعا، وستكون التّكلفة أكبر! سنكون في حاجة إلى عدّة أيام.

ـ عدّة أيام؟ إلى هذا الحد؟

ـ لا نريد تحرير هذا المكتوب بتسرّع، ولا ضرر في أن تقصّ عليّ أكثر من المطلوب. اترك لي الاختيار، لكنّي أخشى ألاّ تكفي روبيتان. سيكلّفك الأمر أكثر.

٤
حظوة مكتسبة

ما من أحد نبّه برتن إلى أن المنزل الخشبي الذي خُصّص له لم يسكنه أحد منذ أشهر. وأيّ منزل في الهند لا يسكنه أحد تتكفّل الفصول بخرابه. كان الخراب، باستثناء ما ظهر على النوافذ، لا يُرى من الخارج. دفع ناوكرام وبرتن الباب الذي أحدث صريراً وندماً للتوّ على ما فعلا. انتشرت رائحة براز القردة التي لا تطاق داخل المنزل، لذا قرّر برتن عدم الدّخول قبل أن يستعين ناوكرام بآخرين ويتمّ تنظيفه على آخره. في الأثناء وقف برتن أمام الباب وأخذ يتأمل الأدغال أمامه. المنزل الذي وُضع تحت تصرّفه وتكوّن من دَور واحد وُجد في أقصى طرف المقاطعة التي ضمّت المساكن التّابعة للكتيبة على بعد مسافة أقلّ من ثلاثة أميال في شرقي جنوب المدينة. وصلت الطّبيعة المتوّحشة حتّى المكان الذي سكنه وشكّلت، لحسن الحظّ، مسافة لها الفضل في الفصل بينه وبين زملائه. مسح ناوكرام كرسيّاً من الخيزران وجرّه إلى الشرفة الخارجية ليتمكن برتن من الجلوس، لينظر إلى الحديقة قليلة النبات، إلى حديقة ليست بالكبيرة وليست بالغنّاء، زادها ضيقاً سور أقيم من الحجر، فيها، على الأقلّ، شجرة بَانِيان وبضع نخلات . تمكّن من ربط شبكته المعلّقة للنّوم بين نخلتين ولم ير من حيّ الأهالي في المنخفض إلاّ ما كان بارزاً للعيان: أبراجاً ومآذن. أمّا الباقي فكان خليطاً عسير الهضم تماماً ـ عبارة ملائمة حقّاً، زوّده بها في الصّباح القدامى من بين روّاد نادي الكتيبة. أوضحوا له

قائلين: شارعنا الرئيسي هذا يقود مباشرة إلى تلك الكتلة المتكوّنة من ذلك الخليط في الأسفل. لكن، لحسن الحظ، هناك على اليمين طريق تصل إلى ساحة الاستعراضات بدون حمل الخيول على نزول الهضبة. هذا المرتفع يجب أن ندافع عنه، أعني مجازاً، وأنت تفهم ما أقصد. لم يشارك برتن الحاضرين ضحكاتهم التآمرية. امتطِ صهوة جوادك وغادر باكراً قدر المستطاع، استبِق القيظ، اتّبع هذه النصيحة وسرْ في الاتجاه المعاكس، فالأدغال هي أقل خطراً بكثير من المدينة. كلّ حياتنا نقضّيها في المقاطعة. ننهض باكراً من نومنا ونفرغ باكراً من عملنا. صاحب القصر يتصرّف إزاءنا بأدب. ليس له أيّ طموح ولا يفكّر في إبداء مقاومة. بالعكس. نعم، بالعكس. نداء الحضور باكراً ثم جولة تفتيشية على متن الجياد قبل أن يحلّ موعد فطور الصباح. أنت تتقن لعبة البليارد، أليس كذلك؟ البريدْج على الأقل؟ سنجعل منك لاعبا رفيع المستوى! ضحك الجميع وأحاطوا به محافظة منهم على لحمة المجموعة وقوّتها. قرأ في وجوههم الممتعضة أنهم انتظروا منه أن يتبعهم في ضحكهم. خيّب ظنّهم. كان يودّ أن يقول لهم: لا تجهدوا أنفسكم، أيها الأصدقاء، سوف لن تكون هذه المرّة آخر مرّة لا أنسج فيها على منوالكم.

سمع برتن النوافذ تُفتح بقوة. انتصب واقفاً ونظر من خلال السياج إلى مسكنه الجديد. كان واسعاً بما فيه الكفاية. لم تكن الأرضية مغطاة بالألواح ولا كان السقف مبطّنا بالخشب، أمّا الجدران فكانت عارية كجمجمة حاجّ. كان منظر الخشب العاري الذي حمل السقف غريبا لكنّه لم يكن منظراً مملاً وثقيلاً. تدلّت من الدعائم حبال غليظة لا بدّ أنّها ستُشدّ إليها قريباً مراوح كبيرة.

ـ ناوكرام، المنزل الصغير هناك في الرّكن، يبدو أن لا أحد يسكنه. إنه أقل إغراءً من حظيرة البقر هذه. هل هو مخزن تحفظ فيه الآلات؟

ـ بُوبُوخَنَّا، صاحب.

ـ لعلك تفسّر لي أيضاً ما تعنيه هذه العبارة.

ـ المكان الذي تسكن فيه الزّوجة.

ـ زوجتك؟

ـ لا، ليس زوجتي.

ـ وليس زوجتي أيضاً.

ـ ربّما، صاحب، ربّما زوجتك.

في قاعات نادي الكتيبة، بين جدران زيّنتها قضبان من الخشب الرّفيع وعلى زرابي مألوفة في زرقة الياقوت، انتشرت فوقها الرّسوم النّافرة وتمّ استيرادها من وِيلْتن، زرابي تكوّرت بعدُ في بعض المواضع، ذكّره كل شيء بالوطن وشعر وكأنه لم يُبحر إلى نصف العالم الآخر. كانت تلك الأمسية الأولى التي قضّاها في النادي، كان مبتدئاً وغير مجبر على التكيّف بما حوله. لا، أبداً. كان عليه فقط أن يتغلّب على اشمئزازه. كانت أوكسفورد وكانت لندن، مرّة أخرى وكالعادة. كل شيء كان مألوفاً لديه، الصّوَر، الأُطر وبعض الخيول المرسومة في الهلام، أمسيات في الحدائق لأشخاص تزيّنوا بأعداد هائلة من الأطفال، منظر عسير الهضم ككعكة عيد الميلاد. كلّ شيء كان معروفاً لديه، المناضد والأرائك الوثيرة، الحانة، الزجاجات وحتى الشّوارب. كل الأشياء التي فرّ منها هاربا سطت عليه من جديد.

ـ بدون مراوح ستموت من شدّة القيظ. لا بدّ لك من خِلاصي.

ـ أو أكثر.

ـ لتحريك المراوح؟

ـ طبعاً. وتأكد دائماً من أن الخِلاصي يتفقّد الأربطة بانتظام، تلك التي يُشدّ إليها ذلك الجزء الملعون. الزّمن يقطع كل الأربطة.

ـ نحن نُربك هذا الشاب حقّاً بكثرة التفاصيل. استمع إلى ما سأقوله لك: نحن نتعامل في هذه الربوع مع كسالى مكرة يجهدون أنفسهم دوماً لإيجاد أعذار تجنّبهم القيام بعملهم.

ـ والأكثر دهاء هي تلك الحجّة التي تتّخذ من الطهارة ذريعة.

ـ هذا شيء لا يتحمّل الهزل.

ـ كل من لا يتفطن إلى الأمر يجد نفسه خارج اللعبة.

ـ لنقل مثلاً أنك تريد أن تقرأ الجريدة وفي الوقت نفسه تريد أن تُغسَل لك رجلاك. في شِيلُومْشِي كبير وجميل.

ـ شيشي، كما نسمّيه.

ـ أنت لا ترى في كلّ هذا ضرراً، لكن الشخص الذي يغسل لك رجليك يعتبره بنو جنسه غير طاهر. لأنّ الرّجلين ليستا طاهرتين ولأنك مسيحي وفي حد ذاتك غير طاهر.

ـ صعب أن يصدّق المرء مثل هذا، أليس كذلك؟

ـ ولذا لا يمكن تكليف هذا الشخص بعمل في بيتك يكون خلاله على اتصال بخدم آخرين. شرفاء النسب منهم قد لا يجرؤون حتى على لمس الشيشي. لهذا الغرض البسيط أنت في حاجة إلى من يصب الماء على رجليك ثمّ إلى من يجفّفها. لكن ليس هذا نهاية التعب، لأنّ الخادم الذي ينظّف المرحاض يعتبره الآخرون غير طاهر بالمرّة وتتعذّر الاستعانة بخدماته في مكان آخر.

ـ مثل هذه الأعذار الواهية يمكن سماعها في كل مكان، ثم ثق أنك حتى بعد خمس أو عشر سنوات سوف لن تكون سمعت كل شيء.

تفرّس فيه هؤلاء الرّجال غير المتزوّجين بدون استثناء وباهتمام، مُسدين إليه نصائحهم من حين لآخر وبشغف كبير. كانوا يمتحنونه، يختبرون إن كان يصلح أن يكون الرجل الرّابع والأخير في الحلقة ليدافع بدوره عن دعاباتهم الثّقيلة حقّاً. أن يكون طرفاً في المؤامرة.

ـ الأهمّ من كل شيء هو أن يوفّق المرء في اختيار من يشرف على الأمتعة.

ـ الأمر عسير بالنسبة لغير المتزوجين، وأنت تفهم ما أعنيه.

ـ بكل بساطة، على المرء أن يقبل بواقع أنّ هؤلاء القوم لا يصلحون لشيء. إذا سلّمتَ بهذا فإنك لن تصاب مستقبلاً بالخيبة. وهنا لا تنفع حتى التربية. أم هل رأيتم مرّة أن واحداً منهم تحسّن سلوكه؟ الكرباج يمنعهم في أحسن الأحوال من السرقة.

ـ أنا أعلّق أهمية كبيرة على السِّرْكَار.

ـ السّركار؟ وأين تكون الحاجة إليه ماسة؟

ـ يجب أن تثق فيه، ألاّ يساورك الشكّ بشأنه، أيّ شك. إنه حامل حافظة نقودك.

ـ سركار؟ في عصرنا هذا؟ يا إلهي، لدينا عُملة موحّدة في روبية الفضة ودكتورنا هنتنجتون العزيز ما زال يعيش في زمن يقدّم فيه الناس ألعابا بهلوانية بقطع نقدية مختلفة تتطلب جهداً إضافياً.

ـ لا أستطيع أن أحمل نقودي بنفسي لأعدّها أمام الجميع. وأين أغسل يديّ بعد عدّها؟

ـ لنطلب زجاجة أخرى، احتفاءً بالقادم الجديد.

ـ دعني يا برتن أقول لك شيئاً، إنّ النظام لن يستتب في بيتك إلا إذا تكفّل أحد من حين لآخر بحمل الخدم على السّير في الطريق الصحيح. لا أظن أنك تفضل كيل الضّربات بنفسك، إنه لأمر شاقّ، ونظراً لحرارة الطقس فهو يؤثر على الصحة سلباً. عليك بخادم يؤدّب الخدم الآخرين.

ـ أليس لهذا النوع من الخدم اسم؟

خيّم الصّمت للحظات ولم يحتمل برتن أن ينظر إلى الوجوه القبيحة لهؤلاء الأنبياء العنيدين. كان في طريقه إلى الحجّ فجاؤوا يرومون تضليله. لقد تمّ حتّى الآن نقل كل ما لا يمكن احتماله من أصيص إلى آخر إلى أن وصل إلى هذا النادي، إلى هذا المحلّ من الزجاج، فصار حقّاً قادراً على البقاء. لكن وضع برتن الجديد سيساعده لا محالة على احتقار كلّ ما هو دنيء.

ـ شاركْنا الضحك يا برتن! جرّب ما تريد فعله، رفّه عن نفسك، اجتنب تأنيب الضمير ولا تنس أبداً أن تقوم بشيء واحد: تناول يومياً نبيذ بورتو. زجاجة واحدة تقيك شرّ الحمّى.

٥

ناوكرام

IIأُومْ سيدهيفيناياكايا نَمَهَا/ سرفافيغنوباشنتايا نَمَهَا/ أُومْ غانيشايا نَمَهَا II

ـ واصل!

ـ بعد وصول سيّدي، النّقيب ريتشارد فرانسيس برتن، بالسفينة إلى الهند بمدّة قصيرة تمّت نقلته من بُمباي إلى بارودا. وبما أنّي كنت قدّمت له خدماتي أثناء الأسابيع التي قضّاها في بُمباي..

ـ أحسن: خدماتي التي لا غنى عنها.

ـ نعم، لا غنى عنها.. لم يستطع الاستغناء عن خدماتي فأخذني معه، وهكذا عُدت لأوّل مرّة إلى مسقط رأسي.

ـ أين استُقبلتَ استقبال الملوك!

ـ لم يكن أحد يعرفني، لأني خرجت من العدم. كنت أنيق الملبس، لأن برتن صاحب كان مدّني بنقود اشتريت بها كُورْتاتْ جديدة. كنت رجلاً مطلوب الخدمات وبصدد البحث عن خدم لضابط من اليَانْ كَامْبَانِي بْهَادُوز..

ـ من شركة الهند الشرقية البريطانية الموقّرة. ألا ترى كم أنا منتبه إلى كل شيء؟ لو تسلّلت مثل هذه الأخطاء إلى داخل المكتوب فسوف لن تحصل على أكثر من وظيفة تتمثّل في تنظيف المراحيض.

ـ منذ أن تعرّف عليّ الأقارب لم يتركوني وشأني. كان والداي قد

تُوفّيا، أما الآخرون فتزيّنوا حقّاً بوجودي بينهم. منذ اليوم الثاني أجهدوا أنفسهم ليجدوا لي زوجة وحاولت من جهتي ألاّ أتذكّر كيف أنهم، فيما مضى، تخلصوا مني في مدينة سُورَاتْ المقيتة.

- هل تريد أن تحملني على البكاء؟

- كل واحد منهم أراد الحصول على وظيفة، وإخوتي هم أوّل من طلبوا مني هذا. طبعاً، تعافوا بسرعة من وقع المفاجأة بأنني على قيد الحياة. لا بدّ أن تعلم أنّ والديَّ قالا لهم أنّي وُلدت ميّتا. حاولوا أن يتملّقوا إليّ، قالوا: كم أضعنا من السّنوات أيّها الأخ العزيز، علينا الآن أن نتداركها كلّها. علينا ابتداءً من اليوم ألاّ نبتعد عن بعضنا أبداً. حدّقوا فيَ النظر وللحظة ظننتُ أنهم كانوا صادقين فيما قالوا. كذا البشر، يثقون في الآخرين حتى ولو خدعوهم. نريد أن نجلّك وعلينا أن نبتهج بك بيننا كما لو أوتينا هديّة جاءت متأخّرة. هكذا تشدّق إخوتي الستة في حضرتي دون كلل. استمتعت بكل هذا الاهتمام بشخصي لأنه كان بالنّسبة إليّ بمثابة التّعويض، حتّى وإن بدا هذا التّعويض في غاية الضآلة. أجهدوا أنفسهم كثيراً ليتركوا لديّ انطباعاً حسناً. رأيتُ تماماً ولاحظتُ بكل تجرّد من كان يصلح والعكس. لديّ فراسة بالناس لا بأس بها ويمكن الاعتماد عليها، دوّنْ كلّ هذا! لما قرّرت إدخال اثني عشر رجلاً في خدمة برتن صاحب أوضحت لهم أنّهم عليهم أن يأتمروا بما أقول لهم وأيضاً بما يقوله الصّاحب إذا صادف أن توجّه إليهم بالكلام مباشرة. ما عدا هذا كان عليهم أن يطيعوني أنا، لأنّي كنت الوحيد الذي كان له تأثير على الصّاحب، وإذا حصل أن لم يطيعوني مرّة فقد تمكّنت دائماً من..

- اثنا عشر خادماً وسيّدان.

- على امتداد كلّ تلك السّنوات لم يكن لبرتن صاحب مشاكل مع الخدم أبداً. والفضل في ذلك يعود إليّ أنا.

ـ كم دفعوا لك؟

ـ من؟

ـ أقاربك الذين كانوا تحت إمرتك.

ـ ماذا تقول؟

ـ أنت ابتززتهم. من الغباء أن تكون وفّرت لهم وظيفة مربحة كتلك دون مقابل.

ـ كان برتن صاحب يمدّني بقدر معيّن من المال مخصّص لجميع المصاريف الزائدة، ومن هذا المبلغ دفعت لهم أجورهم. كانوا راضين. كانوا كلّهم راضين وكنت متحكّما في الميزانية. المسكن كان جميلاً، لكنّه، مع الأسف، كان يوجد في أقصى طرف من المقاطعة والمسالك المؤدية إليه كانت طويلة، رغم هذا سرعان ما تعوّد برتن صاحب على الحياة هناك. أطلق عليه الضبّاط الآخرون لقب الغْرِيفِينْ، أي القادم الجديد، غير أنّ هذا لم يدم طويلاً. كذا هو سيّدي، كلّما وصل إلى مكان تعوّد عليه أكثر ممّن قضوا فيه عمرا بأكمله. كان يتأقلم في الحين وقد لا تصدّق كيف أنه كان يتعلم كلّ شيء بسرعة فائقة. لو كانت لي مثل هذه المقدرة لما انتهيت إلى الحال التي أنا عليها الآن.

ـ هل صرت من المغضوب عليهم؟

ـ لقد تمّ ترحيلي إلى بلدي، بدون توصية أو خطاب توصية. بعد كل تلك السنين. لم أحصُل إلاّ على تعويض بسيط وعلى الملابس التي كنت أرتدي. لم أكن المخطئ الوحيد. كان دائماً يُعوّل عليّ أكثر من تعويله على الآخرين، هكذا كان الأمر دائماً.

ـ طبعاً، طبعاً.

ـ ليس من العدل، في الحقيقة، تغليب النّهاية على جُلّ الأمور الأخرى. النّهاية لا يمكن أن تكون لها كلّ هذه الأهمية.

ـ اسمع جيّداً، سوف لن أذكر مواطن الضّعف لديك ولا الوجه المحرج لقصّتك، لكن عليّ أن أعرفها. كلّما عرفتُ أكثر إلاّ وكانت الحال أفضل. هل فهمتَ؟ واصل!

ـ لم يكن متعوّدا على كثير من الخدم، وهو ما بدا لي غريبا آنذاك، إلى أن علمتُ، بعد سنوات عديدة، أنّه عاش عيشة متواضعة وبسيطة في بلده. لم يعرف غير خادم واحد وطاهٍ. لم أعلم هذا إلا عندما سافرت معه إلى انجلترا وفرنسا..

ـ زرتَ بلاد الإفرنج؟

ـ من هناك تمّ ترحيلي إلى هنا.

ـ لماذا لم تقل هذا من قبل؟

ـ أخذني معه إلى بلده. إلى هذا الحدّ كنت مهمّا بالنسبة إليه.

ـ لماذا لم تخبرني بهذا منذ البداية؟ أنت رجل ذو خبرة في بلاد الإفرنج. هذا يرفع من منزلتك.

ـ الآن عرفتَ.

ـ لا أعرف خادماً واحداً زار انجلترا.

ـ كنت أكثر من مجرّد خادم.

ـ صديقا؟

ـ لا، ليس صديقاً، لا يمكن أن يكون المرء صديقاً لهم.

ـ ربما أمين سرّ؟ نعم، هكذا يكون للكلمة وقع حسن في الأذن. ناوكرام، أمين سر النّقيب برتن! واصل!

ـ النّقيب ريتشارد فرانسيس برتن، الأفضل هو ربّما أن نكتب الاسم كاملاً.

ـ طبعاً. والأفضل من كلّ هذا هو ألاّ تخفي عني شيئاً. كلما التجأتُ إلى الشّرح المستفيض إلا ودام الأمر مدّة أطول.

ـ يجب أن يُحرَّر المكتوب تحريراً جيداً، قدر المستطاع. لا بدّ أن أجد عملا من جديد لدى أنغريزي. أنا خُلقت لهذا ولم أنس خطأً واحداً من بين الأخطاء التي ارتكبتها. لمّا كان عليه أن يُحلَق لأوّل مرة كاد الأمر ينتهي بالقتل العمد. كان نائماً، أعني كان في غفوة لما تمّت ترغية لحيته. أمسك الحَجَاومْ الموسى وأراد أن يبدأ بالحلاقة عندما فتح برتن صاحب عينيه. لا أدري ما الذي كان يتصوّر رؤيته، دار حول نفسه وهو في الفراش ووجهه كله رغوة. سقطت أدوات الحَجَاومْ وسقط معها برتن على الأرضية. أشهرَ مسدّسه وأظنّ أنّه كان سيطلق النار فعلا لو لم أصخ قائلاً: كلّ شيء على ما يرام، صاحب، لا وجود لأي خطر، كلّ شيء على ما يرام. كان المُراد فقط حلاقة ذقنك! لوَّح بالمسدّس في اتجاهي مهدّداً وقال إنّه سيقتلني لا محالة في أوّل فرصة قادمة قد أسمح فيها لنفسي مرّة أخرى بمباغتته.

ـ هل أخذتَ تهديده مأخذ الجدّ؟

ـ أعتقد أنّه، إذا تملّكته الشياطين، كان قادراً على تنفيذ ما ارتأى.

ـ بفضل شجاعتك حصلت حقّاً على أجر كبير. كان لك الفضل في إنقاذ حياة حلاّق.

٦

إزالة حواجز

أكّد ناوكرام أنه ليس بوسعه أن يدبّر شؤون المنزل بأقلّ من اثني عشر خادماً فسمح له برتن بإحضارهم وتقديمهم إليه. أين وجدهم؟ كيف وجدهم؟ لا أحد يدري. كان كلّ هذا غير مهمّ بالنّسبة إليه. قرّر أن يُوكِل إلى ناوكرام بالتّصرف في الأمر بكلّ حرّية إلى أن يحلّ جديد. رضي بالإثنتي عشرة قامة الغريبة وشديدة السّمرة التي انزلقت إلى داخل غرفته، قامت بعملها في صمت دون أن تظهر خضوعاً مبالغاً فيه ثمّ وضعت راحة اليد على راحة اليد الأخرى محدقة النظر فيه. حدث أحياناً أن نسي وجود الخدم وأصابه الفزع كلّما صدرت عنهم خشخشة. كان يقضي طوال اليوم في مسكنه برفقتهم، الأيام المشمسة التي زادت حرارة وطولا كان يقضّيها جالسا أمام مكتبه، محتميا بشيش النوافذ من سطع النهار. هكذا استطاع أن يقرأ ويكتب في شيء من الراحة وجوّ يمكن احتماله نسبيا. هل كان بوسعه القيام بشيء آخر؟ نعم، لقد علّم أيضاً مجموعة من الرجال، تم اختيارهم اعتباطيا ولا اهتمام لهم كلّيا، مبادئ التدريب العسكري في الساعات التي تلي طلوع الفجر. من الغباء اعتبار تدريب هذه الحفنة من جنود الإمبراطورية مهمّة ذات بال لأنّ الوضع الأمني في المناطق المجاورة لهذه النّقطة الأمامية كان لا يبعث على القلق والأهالي كانوا ملازمين الهدوء إذ تعُود آخر الخسائر المسجّلة إلى سنوات عديدة مضت، لما ثارت ثائرة فيل في قصر الماهاردجا أثناء استعراض وداس بعض السِّيبُوي. ما عدا هذا فقد

عمّ هدوء شامل، إلى درجة أنّه كان يتخيّل سماع البلاهة وضيق الأفق وهما ينبضان. كان يتقزّز من التبلد اللزق لحياة أُوقفت على لعب البيليارد والبريدج ويرفض أن يقضي مدة خدمته في الانتظار، غارقا في وسائد سميكة، وثيرة ومتعفنة في الآن نفسه، ومركّزاً نظره على أظافره وقد تجمّع فيها التراب والغبار. لم تكن أمامه سوى إمكانية واحدة تحول دون تبدد حياته: عليه أن يتعلم اللغات التي كانت بالنّسبة إليه بمثابة السلاح. قد يستطيع بواسطتها أن يتخلص من قيود السأمة، أن يحفز حياته المهنية، أن يأمل مستقبلاً في القيام بمهمات أكثر تحدّ. لقد تعلّم على متن السفينة قدراً كافياً من الهندوستانية، ما يسمح له بتحديد اتجاهه ويقيه من سخرية الأهالي. نعم، كان الأمر ـ كما لاحظ هو نفسه بكل دهشة ـ أكثر من مجرّد ما كان يبحث عنه حتّى أولئك الضباط الذين وسمتهم بلاد الهند منذ وقت طويل. كان منهم من لا يتكلم إلاّ في صيغة الأمر وآخر لا يستعمل إلاّ صيغة المؤنث ـ بينما علم الجميع أنّه كان فقط يردّد ما تكلّمت به عشيقته المحلّية. وكان هناك اسكتلندي لم يُوفّق أبداً في تكييف نطقه إلى درجة أن أهل بلده أنفسهم لم يفهموه إلاّ بعناء، أمّا الأهالي فلم يفهموه أبداً. كلّما حاول أن يتكلّم الهندوستانية أجابوه بكل أدب معتذرين أنّهم للأسف لا يفهمون الانجليزية، ثم يطلبون منه أن يتمهّل قليلاً حتى يأتي من يستطيع ترجمة ما قال.

بعد القيام بواجباته في الكتيبة كان برتن يأخذ مكانه أمام مكتبه ويعكف حتى ساعة متأخرة من الليل على كتب النّحو التي اقتناها في بُمباي. قَلّما أزعجه أحد بعد أن تردّد على الألسن أن القادم الجديد شخص غريب الأطوار. كان يصعب عليه البقاء جالساً في مكانه دون القيام بشيء ما. قبل أقلّ من نصف سنة بدأت رحلته انطلاقاً من غرينْويتْش، يحدوه الأمل في الخروج من رتابة الحياة اليومية إلى عالم البطولات العظمى والارتقاء

السريع في عالم الشهرة والمجد. ولا غرابة في هذا إذا كان رجال في سنّه يقودون ثلاثة آلاف من السيخ ويغزون بلداناً وبلداناً لصاحبة الجلالة، بلداناً أكبر من أيرلندا مساحة.

قطرات من العرق جرت على ساعديه وعلى ظهره. أزّ الذباب من حوله، كانت أفغانستان في مكان مغاير تماماً، بلداً توطّدت فيه السكينة، ولم يبق له إلا إعادة نطق الكلمات بصوت جهوري، مائة مرّة. كلما سكت سمع صرير البعوض الذي لازمه، غير مكترث بضرباته في الهواء وهو يعيد نطق الكلمة التي كان بصدد حفظها بصوت عال. لم يكن هناك سوى خطّة واحدة للانتصار على هذا البلاء: أن يبقى جالساً على كرسيه بلا حراك مع تدقيق النظر في الكتاب المفتوح أمامه، في اللفظة الانجليزية الموالية التي التصق بها كالعادة مَعنَيان ـ أن يكون الأهالي ذوي وجهيْن فهذا يبدو جليّاً في لغتهم، هذا ما بدا واضحاً تماماً من خلال الضابط الذي كان يُصرّف أفعاله في صيغة المؤنّث. كان برتن ضحيّة لا تخلو من مكر عدّلت سمعها على صرير البعوضة المقتربة، بْرَاتِيكْشَا كَازنَا، هذه هي التسمية الأولى، يجب إعادتها على مهل، كل مقطع كان بمثابة ارتواء بعد عطش ويُنطق به بتؤدة على شاكلة تناول جرعة من الماء، اقتربت البعوضة أكثر، إنْتِزَارْ كَازنَا، تلك هي التسمية الثانية التي أعاد نطقها مرّات وهو يحسّ بالبعوضة تحطّ على ذراعه ثم تلسعه قبل أن يقضي عليها بضربة.

ـ ناوكرام!

ـ نعم، صاحب.

ـ كتب النحو وحدها لا تنفعني. أنا في حاجة إلى معلّم. هل تستطيع أن تجد معلّما يصلح؟

ـ سأحاول.

ـ في المدينة؟

ـ نعم، في المدينة.

ـ هناك شيء آخر، ناوكرام.

ـ نعم، صاحب.

ـ أحجّر عليك، ابتداءً من الآن، أن تتكلم ولو كلمة انجليزية واحدة في حضرتي. تكلّم الهندوستانية! أو الغُوجاراتيّة أو كل ما تريد، لكن لا تتكلم ولو كلمة واحدة بالإنجليزية.

ـ وعندما يزورنا أحد؟

ـ اقتصر على اللاّزم. لا أكثر من اللاّزم.

٧

ناوكرام

II أُومْ فيقهناهرتايا نَمَهَا/ سرفافيغنوباشنتايا نَمَهَا/ أُومْ غانيشايا نَمَهَا II

ـ واصل!

ـ إلى أين وصلنا أمس؟

ـ استمع إليّ جيداً، نظراً لأني أقوم بواجبي على أحسن ما يرام قرأت البارحة كل ما كتبنا مرّة أخرى وراجعته بحثا عن أخطاء أو مسائل معلّقة. لماذا تعتمد عليّ دائماً في هذا الشأن؟ عليك مستقبلاً أن تتذكّر بنفسك ما حدّثتني به بعدُ وأن تعرف ما تنوي سرده عليّ لاحقاً.

ـ أنت طاغية، أسوأُ من شِيفَاجي. لا تخاطبني بهذه الطريقة. نعم، أنا في حاجة إلى خدماتك، لكني لست خادمك.

ـ علينا ألاّ نضيع الوقت. على فكرة، تساءلت وأنا أقرأ قصتك، كيف كان يبدو سيّدك. عليّ أن أعرف هذا.

ـ لأيّ غرض؟ الأنغريز الموجّه إليهم المكتوب يعلمون كيف كان، هم يتذكرونه، بالتأكيد، لا أحد يستطيع أن ينساه.

ـ أنت لا تفقه إلاّ القليل من هذه الأشياء. كيف لي أن أجد العبارات الملائمة وأنا ليس لي أيّ تصوّر عن برتن صاحب؟

ـ كان طويل القامة، في طولي أنا تقريباً، لكنه كان أضخم، مثل الجاموس الأسود الذي يقدر على العمل الشّاق في الحقل كامل اليوم.

نعم، كان هكذا، لا يعرف الكلل. اللافت للنظر فيه أن عينيه كانتا حالكتي السواد. والأكثر غرابة أنهما كانتا تبدوان عاريتين. لم أر في حياتي قط عينيين عاريتين مثل عيني برتن صاحب. كانت نظرته قادرة على أن تحبسك، ولقد رأيت بنفسي من بقي مشدوهاً لرؤية عينيه وكأنّهما كانت لهما قدرة سحرية. عندما يغضب كان ينظر إليّ وكأنه لا يعرفني، وكأن يَاكْشَات شريرة كانت تتطاير من ناظريه. كان يبعث على الفزع وغالباً ما يتملّكه الغضب، فجأة ولسبب ما قد يبدو لنا واهياً ولا قيمة له تماماً.

ـ سبق وأن حدثتَني أمس عن كلّ هذا! هل كان يضربك؟

ـ يضربني؟ لا! ولِمَ تريده يضربني؟ أظن أنك لم تدرك أهمية المنصب الذي كنت أشغله في منزل برتن صاحب، وأيضاً الدّور الذي كنت أقوم به. أنت لم تفهم شيئاً من كل هذا!

ـ حدثني إذن أكثر عن واجباتك.

ـ كنت أقوم بكل الأعمال وآتيه بكلّ ما يحتاج.

ـ كل شيء؟

ـ كل ما طَلب مني. كل ما كان يجب القيام به، وأحياناً كذلك ما كان يتمنّاه سرّا.

ـ أمثلة! أعطني أمثلة!

ـ في البداية كان تأثيث المنزل، النوافذ التي لا تَعمَل، لقد أبدلت زجاجها وعلّقت عليها شيَشا. الستائر، جعلتها من الكُوبْرَادُول الرفيع الذي اقتنيته بثمن مناسب إذ دأبت على عدم تبذير مال صاحب الدّار. كانت الستائر جميلة إلى درجة أنّ زوجة قائد اللواء أرسلت تسألني عن المكان الذي اشتريت منه القماش.

ـ سوف أؤكد على هذا: اختصاصي في الكُوبْرادُول.

ـ قمت بالمشتريات، أحضرت الغَانيَا لأنه كان يحبّ التدخين مساءً عندما يتناول البُورْت.

ـ البُورْت؟

ـ نعم، نبيذ البُورْتُو، أنت تعرف البورتو؟

ـ طبعاً، أردت فقط أن أتأكّد من أني سمعت جيّداً.

ـ أنت تربكني عندما تقاطعني، تجعلني أتلف أفكاري، لسنا في الحقيقة في حاجة إلى كلّ هذا. نبيذ البُورتُو، نعم، أحضرت الكتب أيضاً، كان يريد أن يقرأ كلّ شيء، كذلك الأعشاب والحنّاء والقردة، تلك القردة التعيسة، نعم، أنا الذي جئت بها. كان الأمر شاقّا..

ـ قردة؟

ـ والمعلّم الذي صار فيما بعد مهمّا بالنسبة إليه، أنا الذي وجدته.

ـ قردة ومعلّم؟ مهلا!

ـ وكُنْدَالِينِي، حتى كندالِيني أنا الذي..

ـ انتظر، انتظر، انتظر! من هي كندالِيني؟ عمّن تتحدث؟

ـ طلبتَ منّي أن أمدّك بأمثلة.

ـ اشرح لي أمثلتك.

ـ لا أظن أنك في حاجة إلى الإلمام بمثل هذه الأشياء.

ـ من منّا الأعقل؟

ـ فكرة تحرير هذه الرّسالة هي فكرة ساذجة، لا معنى لها. حرارة الطّقس دوّخت رأسي.

ـ كلاّ، ناوكرام بهاي، أنت مخطئ، الأمر حيويّ ومهمّ جدّا! هذه الفكرة هي أفضل فكرة جاءتك منذ وقت طويل. وجدتَ طريقك إليّ، حسن، أمّا الآن فما زال الطّريق أمامنا طويلاً. علينا أن نتحلى بالصبر وسأوصلك إلى مبتغاك، ثق فيما أقول. حدّثني عن شيء آخر، عن شيء أنت فخور به.

ـ العثور على معلّم قدير لم يكن أمراً يسيراً. عوّلَ عليّ برتن صاحب في هذا الخصوص بعد أن كان حاول بنفسه. سأل أهل بلده إن كانوا يعرفون مُنْشِي فلم يستطيعوا مساعدته. كانوا لا يعرفون إلا مُنشيين عاديين خطّهم جميل ويحفظون بعض النصوص المقدسة.

ـ طبعاً، قليلون هم اليوم الذين يريدون أن يتعلّموا شيئاً بحقّ.

ـ أراد برتن صاحب أن يتلقّى دروسا على يدي علامة حقيقي. كان يقول: لا أريد أن أجلس قبالة شخص ليس قادراً على الإجابة عن كل أسئلتي. سألتُ أوّلاً في مكتبة الماهاردجا وهناك دلّني أحدهم على براهماني قيل إن علمه اشتهر في جميع أرجاء غُوجارات ويتقن لغة الأنغريز جيداً. ذهبتُ إليه في منزله الذي كان غير بعيد عن المكتبة، في بيت على النّاصية وبشرفات صغيرة من كل جهة. كان منزلا جميلاً بحقّ لكن صغيراً جداً ولا يكاد عرضه يكفي لتمرّ منه بقرة. كان الباب في واجهة البناية مفتوحاً لأنّ حلاقاً كان يشتغل في الأسفل بجانب السلّم. كان دكّانه ضيّقاً وطويلاً ولا يسمح له بغير الوقوف وراء زبونه. لمّا رأيت المعلّم لم أتمالك عن الابتسام. بدا وكأنه لم يقصّ شعره منذ عشرات السنين، لا شعر رأسه ولا شعر لحيته. تركني أنتظر رغم أني أبلغته مسبقاً بموضوع زيارتي له. أغضبني استكبار هذا النّوع من البشر. كان المعلّم شديد الإهمال إذ تناثرت كتبه في كل مكان. تمكّنت من خلال الباب المفتوح أن

ألقي نظرة إلى داخل الغرفة الثانية: أكداس من الكتب المفتوحة كادت تحجب عني الأرضية. كانت زوجته لطيفة، قدّمت لي الشاي مع البُورَامْبُولِيس الطازجة فانتقمتُ من المعلّم المعجب بنفسه وأكلتها كلّها.

- كم؟

- كم ماذا؟ كم من بُورامبُوليس؟ ما دخلُك وما دخل أيّ إنسان آخر في عدد البُورامبُوليس التي أكلتها قبل ثماني سنوات؟

- هل كان ذلك قبل ثماني سنوات؟

- كم بُورامبُوليس أكلت أنت مثلا؟ في السنة الماضية؟ ماذا تريد منّي بالتحديد؟

- هدّئ من روعك. أردت فقط أن أرفّه عنك قليلاً.

- أنا هادئ تماماً. أسرد عليك الحكاية، لكنّك تفسد عليّ دائماً كل شيء.

- ما كان سؤالي عديم الجدوى كما تظنّ. سألتك فقط لأني سمعتُ شيئاً مهمّا، شيئاً كان عليّ أن أعلمه منذ البداية. تحدثتَ عن ثماني سنوات، هل يعني هذا أنك قضّيت ثماني سنوات في خدمة هذا الصاحب؟

- تقريباً، لأني كان عليّ أن أعود من أنجلستان، الشيء الذي استغرق شهوراً. أنت تجهل كل هذه الأشياء، أم هل تظنّ أني عدت إلى هنا طائراً في الجوّ على أجنحة غَارودَا؟

- ثماني سنوات، ممتاز. هذه المعلومة، هذا الرقم، سأذكره في مستهلّ المكتوب لأنّ له رنيناً حسناً في الأذن: ناوكرام، الخادم الأمين طيلة ثماني سنوات ومحطّ ثقة الضابط المشهور لدى شركة الهند الشرقية البريطانية الموقّرة، برتن صاحب.

ـ ضابط مشهور؟ مشهور بماذا؟ بعد أن تمّ ترحيله إلى بلده مذموما مدحوراً، مثلما حصل لي لاحقاً تماماً. كان يتمتّع لدى أهل بلده بصيت أيّ منبوذ عندنا.

ـ لحدّ الآن لم يحصل لي مثل هذا الانطباع.

ـ هل أنت تكتب حقّاً ما أقول لك؟ تماماً ما أقول لك؟ أم تزيده ما يجول بخاطرك؟

ـ هدئ من روعك. تكلّمتُ فقط بكل عفوية، أردت أن أسوق الجملة كمَثَلٍ، أعصابك متشنجة جداً، وتنفّسك غير منتظم.

ـ كفى! لن نتحدث الآن عن طريقتي في التنفّس. سنواصل. انقضى نصف الظهيرة بعدُ ولم يبق لي متّسع من الوقت. يجب أن نتقدّم. أخيراً سُمح لي بالدخول إلى المعلّم ووجب عليّ الانتباه إلى الكتب حتى لا أدوس أحدها. كان رجلاً قصير القامة، لكنه عندما بدأ يتكلّم أخذ، شيئاً فشيئاً، يزداد طولا. ألقى عليّ وابلاً من الأسئلة، حقّق معي واستفهمني كأنني جئت أطلبه حاجة. أراد أن يعرف كل شيء عن سيّدي. كاد يحْملني على أن أقول أن ليس له الحق في إلقاء مثل تلك الأسئلة، لكنّ شيئاً ما منعني. كان رجلاً وقوراً، بدا وكأنّ الأجرة لا تهمّه لما عرضتُ عليه عشرين روبية في الشهر. لم يحرّك ساكناً ولم أتأكّد إن كان سمعني. توقّعت أن يسرّه الحصول على مهمّة تدريس برتن صاحب. لا، أبداً، اعلمْ أنّ هؤلاء الناس متعالون وفخورون بأنفسهم. لم يعبّر عن موافقته من أوّل وهلة. وافق فقط على لقاء مع برتن صاحب وخشيتُ حقاً ألاّ يقبل بغير أن يزوره سيّدي في منزله. هذا الصّنف من البشر ينسون أنفسهم أحياناً، يحسبون أنّ الفكر وحده له سلطته. خمّنَ قليلاً ثم عاد إلى الطريق السّوي. اتّفقنا على أن يأتي إلى منزلنا في اليوم بعد الغد.

٨

بحر من المعرفة

ما كان برتن ليصدّق عينيه. وقف أمامه رجل قصير القامة، مفتوح الرجلين وبوجه وضّاء، اللحية كثة وبيضاء، الحاجبان أشيبان بينما رُبط الشعر في مؤخرة الرأس في شكل ضفيرة ـ كان الزّائر ذلك الشخصَ غريب الأطوار الذي بادر القادم الجديد بالكلام مباشرة وبكل جرأة وهو واقف عند حاجز السّفينة قبل أن تطأ قدم برتن أرض بُمباي بقليل. كان كالقزم الذي لمّعت جبهته السنون وربَض في عينيه ضربٌ من الحكمة الماكرة. تلك الحكمةُ التي كانت توصي بلا ملل: أجّل كل شيء إلى وقت لاحق ولا تأخذ شيئاً مأخذ الجدّ. كان قزماً كمهرّج بلاط وجديراً به أن يجد مكانه كاملاً وسط نقوش معبد هندي ليخرّ ماءُ الأمطار عند هطوله على بطنه المكوّرة. هل أنت سعيد بوجودك في بلاد الأعداء؟ الرّجل غريب الأطوار هو بدوره تعرّف على برتن من جديد وبسرعة. كم مرّة لعنتَ القائد الذي عيّنك في بارودا؟ أجابه برتن: لولاه لما التقينا اليوم، أريد أن أترك السّآمة ورائي، أريد أن أتعلم. السّآمة؟ أنت تحبّ استعمال العبارات غير المتداولة؟ عليك بتعلّم السنسكريتية. العالم كلّه مركّب من المقاطع المختلفة لهذه اللغة. كل شيء يتولّد عن السنسكريتية، لنأخذ مثلاً كلمة «فيل»، بالسنسكريتية، «pilu». قد تسأل، أين يوجد الشّبَه، لكن اتبعني إلى إيران أين تحوّلت الكلمة إلى «pil» لأنّ الفرس كانوا لا يعرفون الحروف المتحرّكة والقصيرة في آخر الكلمات. أمّا في العربية فقد انتقلت

الكلمة من «pil» إلى «فيلْ» لأنّ العربية، كما لا يخفى عليك بدون شك، لا تعرف الـ p، أمّا اليونانيون فإنهم ألصقوا «آسْ» بجميع العبارات باللغة العربية. وإذا أضفنا إلى هذا تحويلاً في الحروف الساكنة فإننا نحصل على «إيليفاس»، ومن هنا تكون المسافة اشتقاقاً قصيرة جدّاً للوصول إلى كلمة «إيليفانْت» التي نعرفها جميعاً. أرى أننا سوف نستمتع معاً. على فكرة، ماذا تعني كلمة «سآمة»؟ لم يترك للصّمت مجالاً، وما أن انتهى برتن من شرحه للكلمة حتى واصلت العبارات تدفّقها من فم الرجل المسنّ. اسمي أوبَانِيتشِي، سبق لك وأن سمعتَ هذا الاسم، والآن اكتبْه، أوبا-نيتشي، بالحروف الديفاناغارية حتى تكون لي فكرة عن معلوماتك.

يا له من اعتداد بالنّفس! صار برتن مشوّش البال وهو يكتب بتأنّ حروفاً تلوّت كأسماك انقرضت منذ زمن بعيد. كان هذا الرّجل الهنديّ الأوّل الذي بدا في معاملاته معه لا يعرف الخضوع. لا، بل أكثر من هذا، لقد بدا تصرّف هذا المعلّم الذي قيّم للتوّ ما نسخ تلميذه على الورق من معرفة نادرة وكأنّه تصرّف استبدادي. طرقعَ بلسانه ثلاث مرّات دون أن يُفهَم عنه نهائيّاً إن كان راضياً أم ممتعضاً. انتزع الريشة من يد برتن ـ هل كان عليه أن يستأذن؟ ـ وكتب سطراً على الورقة. هل بمقدرتك قراءة هذا؟ أجاب برتن بالنّفي، عندها علم أوبَانِيتشِي ـ وكأنه كان بصدد جمع المكوّنات اللازمة لتشخيص مرض ـ أنّ تلميذه يجهل الغُوجاراتيّة. حان الوقت للعودة إلى ما ضاع من مجالات الحديث فسأل: ماذا تريد أن تتعلّم؟ أجاب برتن: كل شيء. في هذه الدنيا؟ هذه السنة! في البداية بعض اللغات، الهندوستانية، الغُوجاراتيّة، الماراتية، أريد أن أسجّل نفسي في المناظرة في بُمباي لأن لهذا مزاياه على الحياة المهنية. قال أوباناتشي مستهجنا: علينا بعدم التسرّع، هذا ما يجب أن ندركه أوّلاً. فأجابه برتن: لنتّفق إذن في شأن أوقات الدرس والأجر.

ردّ أُوبَانِيتِشِي بلهجة حاسمة: سوف أمتحن جوعك كلّ يوم ولمدة أسبوع، من حلول العصر إلى أن يحين بالنسبة إليك موعد تناول طعام العشاء، وسنرى بعد انقضاء الأسبوع. أمّا فيما يتعلق بالأجرة فلن أستلم منك نقوداً. هل لأني مْلِيتْشَا؟ ضحك أُوبَانِيتشِي بصوت جهوري وقال: أرى أنّك تعلمت الكثير من العبارات الساذجة. كان لي في السابق اتصال غزير بالأنغريز، وبالنسبة إليّ أنت لست أجذم ولا واحداً من الطبقة الفقيرة، لا تشغل بالك. إنها مجرّد عادة قديمة تتمثل في أننا نحن البراهمانيين لا نعرض معرفتنا للبيع، لكننا، وهنا تبرز ملكة الابتكار لدينا، نقبل الهدايا. في يوم الغُورُو بُورْنيمَا، عندما يبجّل كلٌّ معلمّه، نحصل على حلويات وعلى كرات صغيرة من السمسم تُخبّأ فيها قطعة نقدية بسيطة أو حتى قطعة حليّ ثمينة. عندما نخلو بأنفسنا نفتح الكرات بأصابعنا وكأنّنا نفتح ثمرة غُوايَافِي ناضجة. مزايا هذه العادة كبيرة، إذ أنّ التلاميذ لا يشعرون بوجوب تقديم شيء ما ولا يخجلون عندما يكونون فقراء ولا يستطيعون تقديم الكثير. أمّا نحن معشر المعلّمين فإننا نهدي بعض تلك الحلويات آخرين، نقدمها بدورنا إلى معلّمينا، إلى آبائنا إن هم ما زالوا على قيد الحياة. بهذه الطريقة يوكَل البتّ في موضوع من هو جدير بالحصول على هدية، وعلى أيّة هدية بالتحديد، إلى قوّة خفية قد تسمّيها أنت الصُّدفة. تكلّم أُوبَانِيتشِي كمن مثّل دوراً على الركح وهو يبالغ في تقسيم كلامه إلى مقاطع منغّمة أو يدخل فترات صمت طويلة بين تعلية الصوت وخفضه. زد على هذا أنه كان يشخّص كلامه بحركات نشطة وحازمة بحيث كان من الصعب تصور أنه قد يرتبك لأيّ سبب من الأسباب. قاطعه برتن قائلاً: الهدية إذا فقدت صبغتها المادّية تتحول إلى مفهوم على قدر كبير من الأهمية. فهمتَ حقاً، حسن، الهدايا عندنا لا تُقاس بقيمتها المادّية، ما إن نحصل عليها حتى نحاول تجنّب الحالات

المربكة لأنه ليس من شأن الهدايا أن تتنافس لنيل رضا مَن كانت من نصيبه. هل بالإمكان أن أتركك الآن؟ ما إن انتهى أُوبَانِيتشِي من إلقاء سؤاله المتضمّن للجواب حتى نهض بعدُ. رافقه برتن حتى الباب قائلاً: أنا مبتهج بالدروس، أُوبَانِيتشِي صاحب. فردّ المعلّم: الآن، وقد اتفقنا، تستطيع أن تناديني غُورُو-جِي. ثم بقي شيء آخر لم أعلمك به: التلميذ عندنا يذعن لسلطة المعلم دون قيد أو شرط، وهو مدين له بالشُّوشْرُوشَا والشْرَاذْهَا، أي بالطاعة والثقة العمياء. قديما كان التلاميذ يذهبون إلى معلّمهم ومعهم حطَبة تعبيراً منهم عن استعدادهم للاحتراق بنار المعرفة ولا يسلكون طريقهم الخاص إلا بعد أن يصلوا إلى نهاية الطريق التي كان رسمها المعلم.

كان سكرتيرٌ في انتظاره في ظلّ السقيفة، شابّ حمل رزمة ـ قَدّرَ برتن أن بها أدوات كتابة المايسترو ـ وأسرع ليفتح مظلّة فوق رأس سيّده. قال أُوبَانِيتشِي: الآن ستحصل على أوّل درس لك بالغُوجاراتيّة. في الحياة اليومية عادة ما يفترق النّاس هنا بقول: آَو-جُو، وهو ما يعني تقريبا: تعالَ ـ اذهبْ. أي: أذهبُ حتّى أعود من جديد، مفهوم؟ إذن، مستر برتن، حتى الغد، آَو-جو، فأجاب برتن: غُورُوجِي، ومن خلال نظرات معلّمه الجديد بانت له تباشير صداقة جديدة.

٩

ناوكرام

II أُومْ فيقهناهرتايا نَمَهَا/ سرفافيغنوباشنتايا نَمَهَا/ أُومْ غانيشايا نَمَهَا II

ـ هناك شيء لم أفهمه. كان سيدك ضابطاً ورغم هذا يبدو أنه كان يقضي وقته كما عنّ له.

ـ كان عليه أن يتنقّل عدة مرات إلى مْهُوو على متن الجواد. كانت تلك مهمته الوحيدة، طبعاً إلى جانب التمارين التي كان يقوم بها مع السيبُوي كل صباح، باستثناء أيّام الآحاد التي تكون فيها الصلاة الجماعية للإفرنج. لكن برتن صاحب كان لا يشارك في هذه الصلوات لأنّ ورع أهل بلده ـ وهذا شيء أثار استغرابي ـ كان لا يحظى لديه باهتمام كبير. كان أكثر اهتماماً بالآرْتِي، بصلاة الجمعة، الشِيفَاآرَاتْرِي والأُورْس. عجيب كل هذا. سألته فيما بعد، لمّا سمح لي بإلقاء أسئلة لا يلقيها الخدم عادة على أسيادهم، لماذا كان يميل أكثر إلى الصلوات الغريبة بالنسبة إليه أكثر منه إلى الصلوات الخاصة به، فأجاب بأن طقوسه وتقاليده الخاصة هي بالنسبة إليه مجرّد اعتقاد بالخرافات وشعوذة. .

ـ ماذا؟

ـ أقوالٌ عائمة جوفاء، يَانْترُو ـ مَانْترُو ـ جَالاَجَالاَ ـ تَانْترُو. سحر. .

ـ مَايَا.

ـ إن شئت. قال أيضاً إنّه يعتبر العادات الغريبة عنه أخّاذة، لأنه ما زال لم ينكشف له سرّها بعد.

ـ هل كان في حاجة إلى وقت طويل لينكشف له سرّ اعتقادنا بالخرافات؟ كان عليك أن تأتي به إليّ. المانترا هي حَجرات يخرجها البراهمانيون من أفواههم، أما نحن، عندما نشاهد ذلك، فإنّنا نجمد في مكاننا إجلالا لما يفعلون وكأنهم يقدّمون لنا شيئاً نفيساً. ألم تلاحظ أن السّحرة عادة ما يحركون شُعلا وهم يقدّمون حيلهم الفنية بنية صرف انتباهنا، تماماً كما يفعل القساوسة أثناء قدّاس الآرتي؟ نفس الطريقة ونفس التصوّر الكاذب.

ـ لستُ رجلاً عظيما مثلك لأسمح لنفسي بالسخرية من كل هذا.

ـ كنتُ جادّاً في كلامي.

ـ أُوئِيمْ أَئِيمْ كْلِيمْ هْرِيمْ سْلِيمْ.

ـ هل تريد أن تهينني؟

ـ لا، أبداً، ليس بقدر الثّمن الذي تطلبه منّي. الوضع الذي أنا فيه لا يسمح لي بأيّة إهانة كانت. أريد فقط أن أواصل سرد الحكاية، كما علينا أن نتجنّب الحديث عن أنفسنا.

ـ قبل كل شيء عليك ألا تنسى لمن أنت مدينٌ بالاحترام.

ـ كانت لكتيبته مهمّة واحدة. خلال المدّة التي قضّيناها في بارودا لم يتمّ استخدامها إلاّ مرّة في السنة كحماية للماهاردجا، لا بل كتشريف له في عيد غَانِيشْ تْشَاتُورْتِي. السّيبُوي الثلاثمائة والضبّاط توجّهوا كلهم إلى القصر على متن الجياد يرافقهم أفراد الطاقم الموسيقي الذي كان يشكّل جزءاً لا يتجزأ من الكتيبة. رافقوا الموكب حتى نهر الفِيشْفَامِيتْرَا، كانوا يعزفون بأعلى صوت ممكن ليتمكّن الناس من سماعهم رغم رنين الأجراس والصّنوج والأصداف. ولمّا ترجّل الماهاردجا ومشى فوق الجسر تمّت تحيّته بطلق ناري. كان هذا الطلق الناري التشريف الأكثر دويّاً يوم الاحتفال، وكان الجميع راضين كلّ الرّضا.

ـ حسن، كفى! كنتُ هناك بنفسي وأعرف كيف يستعرض الإفرنج قوّتهم. كان له إذن متّسع من الوقت، كان يحبّ الإطلاع فجئته بمعلّم. بمعلّم مناسب حسب ما فهمت، بمعلم ذي معرفة واسعة.

ـ جئتُه بأفضل معلّم في بارودا. على يده تعلّم برتن صاحب لغاتنا بسرعة ثم سافر بعد سنة إلى بُمباي وتألق في الامتحانات، في الهندية والغُوجاراتيّة، وهو ما مكّنه لاحقاً أيضاً من الحصول على راتب أعلى.

ـ هل أعلمك بهذا؟ أعني النقود، لا بدّ أنّه كان يثق بك.

ـ ما عدا هذا لم يتغيّر شيء يذكر. كان من حين لآخر يقوم بدور المترجم لدى المحكمة. وحسب معرفتي له أنا غير واثق من أنه كان دقيقاً في ترجمته. كان يقضّي الجانب الأكبر من اليوم في المنزل، كالعادة. لم يكن له شغل آخر سوى التعلّم. كان مواظبا ويعمل بجهد كبير، كالثور في معصرة الزيت. وتكرّر نفس الشيء في السنة الموالية، اجتاز الامتحان مجددا في بُمباي، هذه المرّة في الماراتية والسنسكريتية. نجح مجدّداً في الامتحان وبامتياز هذه المرة وعاد إلى بارودا ليجلس أمام مكتبه ولأتكفل أنا بخدمته. وبما أنه كان رجلاً شابّا كنت أقول في نفسي: سيأتي اليوم الذي لن يجد فيه لغة يتعلّمها. لكن كان علينا في السّنة الثالثة أن نغادر بارودا فجأة، الشيء الذي شكّل بالنسبة إليّ صدمة عنيفة. لا بدّ أن رؤساءه لاحظوا أنه لم يكن لديه شغل كثير فعجّلوا بنقلته التي شكّلت حقّاً حادثة في غاية السوء. تمّت نقلته إلى السّنْد، إلى الصحراء، إلى الطرف الآخر من صحراء الطّار.

ـ مهلا، مهلا، مهلا. نحن لا نعرف الشيء الكثير عن الوقت الذي قضّيتماه في بارودا. أنت تختزل الكثير. من المهمّ أن نعلم كيف كان ذلك المعلّم الذي اسمه..؟ أُوبَانِيتشِي.. كيف كان يُدرّس برتن صاحب.

ـ ما دخل المعلّم في عملي أنا؟ ولِمَ التوقّف عند هذا المعلّم؟

ـ لكنّك أنت الذي جئت به، لا أحد غيرك. ألا يعود الفضل في نهاية الأمر إليك أنت، أن يكون الأنغريزي تعلّم بنجاح؟

ـ المعلّم أُوبَانِيتشِي صاحب لم يكن مُنْشياً عادياً. قال إنّ برتن صاحب لن يتكلم الغُوجاراتيّة ما لم يأكل مثل الغُوجاراتيين. ثم أوعز إليه أن يستغني عن اللحوم وأن يزيد من أكل الفواكه الجافة والغلال بأقساط صغيرة ومتتالية وأن يتجنّب الوَجبات الثقيلة. قال إنّ الإفرنج يتوهّمون أنّ لهم مَعدات الفيلة. عمل برتن صاحب بالقواعد الغريبة هذه، قرر تغيير نمط تغذيته وطلب منّي أن أعلم الطّاهي الذي لم يسعد كثيراً لأنه كان أكثر فخرا بإجادة طهي بعض الوجبات الإفرنجية.

ـ ما سمعتُ قطّ أن أنغريزيا يعمل إلى هذا الحدّ. كانوا في السابق يلقّبون، لا أدري إن أنت تتذكّر هذا، بالقوم الذين لا يتوجّب عليهم العمل.

١٠

ذلك الذي يظلّ جالساً كالصخرة

ـ أخيراً حصل على مهمّة كسرت روتينية الحياة اليومية، تلك الروتينية التي تواصلت أسبوعاً كاملاً. كُلّف بتوفير الحماية لأحد أعوان شركة الهند الشرقية البريطانية، بإيصاله سالما إلى مُهُوْ أين تمركز الجزء الآخر من كتيبته. كانت المهمّة سهلة التنفيذ وسمحت له على الأقل بمغادرة المدينة ما دام الفصل بارداً. قبل أن ينطلقا قال الرّجل دعاءً، أحد تلك الأدعية التي توحي بأن الله ستكون له كلّ الوصاية على محسوبه هذا بالذّات. لم يقل كلمة واحدة في خصوص عمله ـ لربما كان عليه، بصفته تاجراً مرخّصاً له بشحن الأفيون من مَلْوَا إلى الصين، ألاّ يقع ضحية لعذاب الضمير. سلكا الطريق المؤدية شرقا في اتجاه نهر النّرْمَادَا. كان قطيع من الماعز يسير على يسارهما. وصلا إلى قرية تسمّى كيلنْبُور، بلغا بعدها جانْبوفَا، نهرا بدون ماء. هل من معنى بالذّات لكون جميع الأنهار لها أسماء مؤنثة؟ أسماء إلاهات بالتحديد. قوبلت محاولة برتن البدء بالحديث بنظرة مستنكرة. غير بعيد عن حافة الطريق جلس بعض المشرّدين مع نسائهم وأطفالهم حول نار يطبخون طعامهم. وصلا ذْهابُوي، ذلك الحصن القديم الذي دُفن مشيّده حيّاً في أحد أسواره الخارجية. لم يصدر عن الرجل، لمّا سمع هذا الخبر، سوى قباع يشبه قباع الخنزير. كان بمثابة منزل سُمّرت نوافذه وأبوابه. تخلّى برتن عن البحث عن موضوع للحديث. في البعد بانت سلسلة جبال الفِنْدهِيَاشَال. عبرا نهر النّرمَادا في

مستوى غَارُودشفَار. قال برتن: نهر مقدّس أكثر من غيره من الأنهار. كان لا يريد الإبقاء على حالة الصّمت. هل كنت تعلم أنّ الخلاص من الخطيئة يدوم سبعة أيام في نهر جَامُونَا، في نهر السَّرَسْفَاتِي ثلاثة أيام وفي الغَانْج يوماً واحداً، لكن مجرّد رؤية النرمادا تكون كافية للتخلص من كل الذنوب. خرافة كلّها مكر، أليس كذلك؟ أجاب تاجر الأفيون: ماء كلّه قذارة. فأردف برتن قائلاً: لكن بقدرات كبيرة على الطهارة. همز تاجر الأفيون فرسه وتقدّم قليلاً فالتحق به برتن بسرعة. أخشى أن تظلّ الطريق، أمّا المرشد الذي يرافقنا فإنك ستجد صعوبة في التفاهم معه. إنه يتكلم هندوستانية متقطعة وكلمة واحدة بالإنجليزية: shortcut. غمغم تاجر الأفيون: يا لها من وقاحة. لديّ جزئية أخرى رائعة حول الغانج. بما أنّ عددا لا يحصى من البشر يتطهّرون فيه، يصبح هو نفسه في آخر الأمر غير طاهر. مرّة في السنة يتخذ لنفسه شكل بقرة سوداء وينتقل إلى النّرمادا ليستحمّ فيه، في مكان لا يبعد كثيراً من هنا. القرية اسمها. . لكن تاجر الأفيون صدع بصوته لأوّل مرة: قليلاً من ضبط النفس، أيها الرجل! أنت على حقّ، أنا أتوقف كثيراً عند التفاصيل. الأهمّ هو أنّه عندما تخرج البقرة من الماء تصير بيضاء، بيضاء تماماً. حاول أن تجد تفسيراً لهذا الموضوع. قال برتن هذا ودفع بجواده إلى الأمام.

في اليوم التالي، وبعد صعود الجبال، امتدّت على حافتي الطريق ولمدة ساعات عديدة من الركض الخفيف حقول الخشخاش. وانطلاقاً من هذا السهل العالي قادت الشركة الموقّرة الصّين إلى الهلاك. في السنة الماضية وبعد أن خمدت نار القتال في الصين كتب أحد المعلقين في جريدة التّايمز يقول: معادلة ذكية في ميزان التجارة الخارجية. لم يتوجّه تاجر الأفيون إليه بالكلام إلاّ مرة واحدة. كانا يركضان صوب عربة لمّا سأل عمّا عساه يكون داخلها. سأل في نبرة وكأنه يعرف أكثر، أكثر ممّا

كان يبدو للعيان. أجاب برتن: علف، على ما أظنّ. يبدو الأمر كذا، لكن أليست المظاهر خدّاعة؟ كان لتاجر الأفيون حقّاً رصيد من المعرفة جدير بطبقة الأسياد. قال: حديثاً تمّ القبض على شخص كان شحن العربة بسلعة مهربة خبّأها تحت العلف. سأل برتن في شيء من النّفاق: بأيّ نوع من السلعة المهرّبة؟ بسلعة عالية الجودة، لقد تمكنّا من مصادرة ثروة حقيقية. ولم يزد التّاجر على ذلك شيئاً إلى أن غمغم كلمات الوداع في مُهُوْ. سلّم برتن الرائد قائد المدينة رسالة من قائد اللواء في بارودا وتظاهر بالإعياء اجتنابا منه تناول طعام الغداء معه، وهو، بلا شكّ، ما قد كان يحطّ بأوزاره على ما تبقى من اليوم. بالمقابل تسلّل إلى الخارج ليتعرّف على المدينة الصغيرة.

انتصبت الشمس في كبد السماء. كان بعض الرّجال ينعمون بالظل تحت عرباتهم. بقرات كانت تلوك ملء شدقيها. ما كان ليحدث أكثر من هذا في أوج النهار. اقتفى أثره صبيّ. تعال! تعال معي، لا بدّ أن تتعرّف على القاضي. لا أحد يُسمح له بمغادرة هذا المكان دون أن يتعرّف على القاضي آيْرونْسايْد. تمّ جرّه من كمّه عبر الأزقّة الموحلة. نعم، كان الصبي الذي يسير بجانبه يشدّه باستمرار من كمّه ويتباهى بأسماء السادة الأجلاّء الذين قال إنّه سبق له أن قدّمهم إلى القاضي. كان يعدّد ألقابهم للمرّة الثالثة عندما وصلا إلى مبنى المحكمة. كان المبنى محاطاً بحديقة احتمت بها العدالة من قاذورات الشارع. شدّ التّشُوكيدَارْ الواقف في المدخل يمناه إلى حزامه الملطّخ، أدّى التحية بيُسراه ولم يزد شيئاً غير سيل من اللّعاب جرى مع شاربه.

ـ لعل السيد القاضي لا يعمل اليوم؟

ـ القاضي موجود دائماً. أين تريده أن يكون إذن؟

اتّبعا مسلكاً من الحصى كان في السابق محفوفاً بنباتات أنيقة تمّ إهمالها في الأثناء. كان العشب أمام المدخل مرصعاً بالأهالي الجاثين على ركابهم. بين الأعمدة نسَخ كتبةٌ على الورق معلومات هُمس بها إليهم وأضفوا عليها ختما وهم يتفحصونها بنظراتهم. دخل الصبي المبنى بكل ثقة ودون أن يطلب الإذن من أحد. في الحقيقة لم يكن هناك من يمكن أن يطلب منه إذنا. مرّا دون أن يزعجهما أحد أمام جماجم من المرمر حدّقت فيهما بصرامة ثمّ دخلا قاعة انتهى سقفها الطويل بقبة عظيمة ذكّرت برتن ببَازيليكَا. تدلّت من السّقف مَراوح شُدّت إلى قضبان طويلة وفي حالة دوران. كانت هناك عصافير ترفرف بأكثر صدى من المراوح، عصافير خضراء كثيرة لا بدّ أنها وجدت طريقها إلى الداخل من خلال الفوّهات في القبة. جلس في وسط القاعة بين أكوام من الأوراق، الأقفاص، الشمعدانات ودواةٍ هائلة رجل ذو شعر مستعار غرق في دراسة ملفّاته. جلس القرفصاء بعيداً عن مكتبه مقدّمو شكاوى بحيث كان من السّهل مشاهدة الأرضية اللّماعة بين هؤلاء والقاضي ـ لا بدّ أن يكون هذا الرّجل شاحب الوجه وبذقن الماعز القاضي. بدا الصبي غير واثق من نفسه لأوّل مرة. أمعن برتن النظر في شعر القاضي المستعار الذي جعدته النّسمة في مستوى أعلى الجبهة بينما انسدل على الأذنين وكأنه خرقة مبللة. واصل القاضي قراءته للأوراق بتأن. لم يُبد حراكاً، حتى عندما هبط عصفور كناري على كتفه اليمنى. كذلك لم يتحرّك مقدّمو الشكاوى وظلّوا صامتين. ودون أن يتنحنح أو يعلم الحاضرين بما سيقول، نطق القاضي فجأة بالحكم. لم يرفع بعد ذلك بصره ولم يسرّح المنتظرين بكلمة أخيرة أو بإشارة ما. ووسط الصّمت المتراكم وقف الجميع مُتثاقلين وانصرفوا في سبيلهم.

ـ الآن!

ـ حضرة القاضي، جاءكم ضيف! جئتكم بضيف، أخيراً جاء من يريد زيارتكم.

بعد إشارة من القاضي، وبينما كان الاثنان يقتربان من مكتبه، اندفع رجل قصير القامة وبيده سطل إلى الداخل، لمّع الأرضية أكثر ثم لازم السكون في المكان الذي جلس فيه قبله مقدّمو الشكاوى وكأنّ أحداً سبق له أن رسم هناك حدّاً فاصلاً لا يُرى.

ـ زيارة قد لا يكون لكم فيها نفع. يؤسفني أنّه ليس بوسعي اليوم أن أقدم إليكم أيّ شيء. جئتموني دون سابق إعلام. ظرف غير مواتٍ تماماً. كان باستطاعتي حقّاً ترتيب الأمور بعض الشيء، أما الآن فليس لنا إلاّ ما فاجأتنا به الصدفة.

ـ ما كنت لأعلم ما ينتظرني في مْهوڤ، لكنّنا تمكنّا على كل حال ونحن في طريقنا إلى هنا من زيارة الكهوف البوذية.

ـ هل التقيتم الراهب؟

ـ كان اليوم يوم صمته. تبادلنا النظرات لفترة.

ـ كما قلتُ. شيء يؤسف له. أمر مؤسف حقاً. علينا ألا نترك شيئاً للصدفة. هذا هو أعلى مبدأ للحضارة يجب عليّ تعلّمه في هذا المكان. العصافير تغطّي بقاذوراتها دفاتري. هل تعتقدون أن وراء كل هذا غاية؟ لم أفلح في التخلص منها نهائيّاً رغم أنها تُستدرج باستمرار إلى داخل الأقفاص ويتمّ بيعها في السوق. لكنّ السوق، للأسف، تعاني من التخمة والعرض فيها يفوق الطّلب بكثير. أعداد هائلة من العصافير تدخل من الثغرات. أترقّب منذ أمد بعيد أن يُرخّص لي بترميم البناية. إنّها لأعجوبة أن لم تهطل أمطار حقيقية في هذا المكان منذ سنين. الله مع العدالة.

ـ العدالة هي ابنته المفضّلة.

ـ لقد طورت نظامي الخاصّ بي. ركّزت على المجالات التي أستطيع التحكم فيها. هل تريدون أن تعرفوا كيف؟

ـ في الحقيقة أردت فقط..

ـ تساءلتُ: ما الذي يزعجنا أكثر من غيره؟ القذارة؟ نعم. التطفّل؟ طبعاً. عدم الالتزام بالمواعيد؟ إلى درجة كبيرة! ولذلك قرّرت أن أستأصل كل هذا البلاء. أحدثت منطقة ممنوعة، يحجّر على الجميع دخولها. معذرة إن وجدتم في مثل هذا التّصرف شيئاً من عدم الاحترام، لكنّ القبول بالاستثناءات ليس إلاّ دليلاً على الضّعف. حاولت أن أعمّم استعمال الزيّ الموحد، وهو شيء لم يسبق له مثيل، زيّاً للمدّعين وآخر للمتّهمين وثالثا للشهود، غير أن الأمر كان طَموحا إلى حد كبير. فكّرت طويلاً وانتهيت إلى أنّ أصوات هؤلاء الناس تقودني إلى القنوط. هذا الهرج الصاخب الذي يُسمع وكأن الكلمات يُنطق بها عبثاً يقودني إلى الجنون. لذلك حرّمت جميع أنواع الكلام.

ـ الكتبة أمام الباب..

ـ كل الطّلبات يجب تقديمها كتابيا، إذ لا كلام أمام المحكمة. الحكم وحده هو الذي له حقّ الكلام. يوميّاً يخيّم الصمت في هذا المكان. أحاول أن أوضح لهؤلاء الناس أهمية التحكم في الحديث.

ـ قديمة هي الـ..

ـ لكن كل هذا لم يكن كافياً. كان لا بدّ من قطع الطريق أمام عدم الوفاء بالوعود المتواصل. يا لها من مهمّة جبارة. كثيرون هم الذين فشلوا في القيام بها. هل تدرون ماذا فعلت؟ طبّقت مبدأ الجدول الزمني الذي أعتبره أعظم إنجاز لي على الإطلاق.

وسط الحديث، وبينما هزّ القاضي رأسه ليضفي على قوله أكثر مصداقية، انزلق الطّرف المدبّب للحيته إلى داخل دواة الحبر.

ـ يتكوّن يومنا من فترات متتالية تدوم كل واحدة منها نصف ساعة. أخصّص لكل موضوع ثلاثا وعشرين دقيقة وتبقى لي سبع دقائق للاستراحة. سترون هذا بأنفسكم، سوف لن يتأخّر آخرون عن المجيء، في الموعد المحدّد، في دِقّة بغ بنْ! أمّا إذا جاؤوا مبكرين أو متأخرين فإن قضّيتهم لا يتمّ النظر فيها. وليس لهم الحق في الاعتراض أو الاحتجاج وما عليهم إلاّ أن يترقبوا دورهم في الطابور من جديد.

بقي طرف اللحية المدبّب منغمسا في الحبر وتلوّنت الشعرات انطلاقاً من الطّرف الذي لا يُرى فصاعدا وتكوّنت مع كلّ الجعدات شرايين زرقاء صغيرة حتى مستوى الذقن.

ـ لعلّكم تظنّون أنّ كل هذه العصافير ترفّ داخل رأسي.

ضحك فبانت أسنانه مغشّاة بغلاف أزرق، كذلك الشأن بالنسبة للسانه.

ـ فكّروا في أيّ شيء تريدون، لكن تأكدوا من أنّي سأقوم بواجبي خير قيام، أفضل من أية محكمة لعينة أخرى في هذا البلد اللعين. عليّ الآن أن أكون جاهزاً للقضية الموالية.

رفع دفترا من وسط كدس صغير من الأوراق بجانب مقعده إلى مستوى الفم ونفخ على شيء من الغبار الخفي.

ـ الغبار في كلّ مكان. التخلّص منه يكون بتناول الكركم يومياً. مساءً مع شيء من العسل وسوف تتّقون شرّه. ابقوا هنا إن شئتم، لكنّي أخشى أن تكون القضية الموالية مملّة. مملّة إلى حد كبير.

انصرف القاضي إلى دراسة ملفّاته قبل أن يتمكّن برتن من توديعه. جذبه الصبي من كمّه وقاده إلى باب الخروج الخلفي في الطرف الآخر للقاعة. وقبل أن يبلغا الباب ألحّ سؤال على برتن، نطق به فتحوّل صوته الجهوري إلى صدى.

ـ سيدي القاضي، لأيّ غرض كانت هذه البناية تُستعمل في وقت **مضى؟**

بينما كانت كلماته تنشر الذّعر بين العصافير تحت القبّة أرسل إليه **القاضي** نظرة كلّها امتعاض.

ـ كضريح للمسلمين. الآن انصرفوا!

١١

ناوكرام

II أُومْ باشينايا نَمَهَا/ سرفافيغنوباشنتايا نَمَهَا/ أُومْ غانيشايا نَمَهَا II

- يوم أمس لم يكن مُربحا. في المساء راجعت ما تمّ تدوينه ولم أجد ما يمكن اعتباره صالحا. لقد أهدرنا مالنا.

- أهدرنا مالنا؟ هل هذا صحيح؟ أنا من دفع النقود وأنت الذي تسلّمتها.

- علينا أن نقول أكثر عن بارودا لأنّك، في نهاية الأمر، ستبحث عن عمل في بارودا. أما السّنْد فهو ناء.

- قلت لك كل شيء عن المدّة التي قضّيتها هنا.

- استثنيتَ كُندالِيني.

- تحاشيتُ ذكرها عمدا.

- خجلك ليس له مبرّر، حقّاً. الكلّ يعلم أن الأنغريز الذين لا تصطحبهم زوجاتهم يتخذون لأنفسهم حظايا، كل واحد منهم له بُوبُو خاصة به. جئتَ الإفرنجي إذن بعشيقة.

- من أين لك هذا الخبر؟

- الشّاعر يجوب حتى الأصقاع التي لا تشرق عليها الشمس. ما الذي تريد إخفاءه عنّي إذن؟

ـ بالنسبة إليّ كان الأمر مختلفاً.

ـ طبعاً. لذلك أنا أريد أن أوثق الحكاية. ستجعل منك شخصاً مهمّاً ومميّزاً، أنا واثق من هذا، ولو أنّي ما زلت لم أسمعها بالتفصيل.

ـ لا، ليس بالضّرورة.

ـ كم مرّة أكّدت لك أنّ كلّ ما لا يصبّ في صالحك لن يقع تدوينه.

ـ الأفضل ألاّ يقال بالمرّة.

ـ أنت لست عنيداً فقط..

ـ لستُ مطالباً بالحديث عن كلّ شيء.

ـ بل تجد كذلك تعليلاً لعنادك.

ـ اليوم لا أريد الكلام. سأذهب.

ـ بدون موافقتي..

ـ آأُو-جُو. نلتقي غدا.

ـ أنت مجنون. أنا الوحيد الذي يستطيع أن يساعدك على التّستر على غبائك. هل تسمعني أيّها المجنون؟

١٢

بهلال على الجبين

حضرتْ فجأة. لم يكن مهيّئاً للقائها. أوّل ما رأى منها كان تجويف ظهرها العاري ونهاية قفاها. فوق حاشية الساري دُوبَاتَا من جلد الظّباء. كان الساري في زرقة اللّجج. جلست في الحديقة على كرسي بدون مسند جيء به، إن لم يخطئ الظنّ، من المطبخ. تأمّل مؤخرة رأسها فرأى قفاها الذي قسمه عموديا إلى شطرين خطّ التباين بين ضفائر شعرها المزيّنة بشرائط حمراء من الحرير. تدلّت قلادة نحيفة وذهبية اللون على إحدى فقرات رقبتها وبدت وكأنها فكرة معلّقة. جلست بلا حراك، أمّا هو فوقف أمام النافذة وتأمّلها في صمت. لن يتركها ناوكرام تدخل البيت ـ حتى ولو كانت أختا له أو عشيقته، نعم، هذا مستبعد حقّاً ـ دون أن يستشيره. أطراف شعرها تُلامس العشب، هذا الشّعر حالك السواد الذي تدلّى وكأنه فحم حجري لمّاع ولطالما حسد الأهالي عليه. الشعر الأشقر كان بالنسبة إليه مثالا على ضلال الطبيعة، تعبيراً عن نزعة هوجاء إلى التغيير. كان قميصها فاتح الزرقة، كماء البحر عندما يقترب من الشاطئ. في المكان الذي وصل فيه كمّ القميص إلى نهايته بانت أوّل ملامح استدارة إحدى العضلات. لعلّه أخطأ النّظر، لعلّ الكُمّين كانا ضيّقين. تدلّت من معصمها أساور فضّية. سمع دقات الباب، ابتعد عن النافذة وجلس أمام مكتبه قبل أن يأذن لناوكرام بالدخول. صاحب، أودّ أن أقدّم إليك شخصاً، معذرة

عن الإزعاج، أودّ أن أقدّم إليك ضيفا. في أيّ موضوع، ناوكرام؟ قصد التعارف، صاحب، ليس هناك موضوع، سوف لن تندم، ثق فيما أقول.

أوّل ما لفت نظره كان البِنْدي على الجبهة، نقطة في لون ملابسها، أزرقاً مركّزاً. كان وجهها أسمر اللّون ونحيفا. قدّمها ناوكرام بالإنجليزية ثمّ بدأ في مدح خصالها وكأنه كان يعرضها للبيع. كان الموقف حرجاً ومثيراً في آن. عضّت بأسنانها العليا على شفتها السفلى مرّة وبسرعة فلم يتأكّد من أنه رأى ما رأى حقّاً. ألقى عليها بعض الأسئلة بكل أدب فلم ترفع رأسها إلا بعد أن صدرت عنها أجوبة متتالية. خلت نظرتها من الخضوع الذي بدا على هيئتها. كانت عيناها سواداً على بياض وكأنهما عقيق يماني حفّ به الكحل. لم يكن لوجهها المتكامل سوى عيب واحد: في أعلى الجبهة، عند بداية نموّ الشعر، تقوَّس ندب في شكل هلال جديد. لم يفهم ما قال ناوكرام، كفّ عن الإنصات، هزّ رأسه مرة عندما انصرفت وتبعت ناوكرام إلى خارج الغرفة.

تركت وراءها ابتسامة في صغر زاوية مطوية في أعلى صفحة من كتاب. وعاد ناوكرام بدون إبطاء.

ـ ناوكرام، ما مغزى كلّ هذا؟

ـ كنت أظن أنك في حاجة إلى مجالسة امرأة.

ـ وظننتَ أيضاً أني غير قادر على أن أتصرّف بنفسي!

ـ أنت رجل ذو مشاغل عديدة، فكيف تستطيع أيضاً أن تتكفل بمهمة كهذه؟

ـ نعم، نعم.

ـ ألم تعجبك؟

ـ إنها خلاّبة. معك حقّ، أنّى لي أن أعثر على امرأة بمفردي؟

ـ لعلك تريد أن تجرب لبضعة أيام، لترى هل أن مرافقتها تدخل عليك البهجة.

ـ لست متعوّدا على مثل هذه الترتيبات.

ـ لا تشغل بالك بشيء، صاحب، سأتكفل بكل شيء قد يبدو لك محرجاً. عليك أن تستمتع فقط.

لكنّ هذه المرأة مثّلت أكثر من وعد مؤكد بالمتعة.

١٣

ناوكرام

II أُومْ بهالشندرايا نَمَهَا/ سرفافيغنوباشنتايا نَمَهَا/ أُومْ غانيشايا نَمَهَا II

ـ يجب أن تكون على علم بأمر كنداليني، هذا ما فكرت فيه. ليس لي شيء أخفيه.

ـ لن أكتب شيئاً. سوف أستمع إليك فقط.

ـ وجدتها في مَايخَنَّا. رأيتها وهي تخدم الزبائن. هي التي جاءتني بقدح من اللبن والبْهانْج، مشروبي المفضل. لم أتناول الدَّارُو أبداً لأني أكره المشروبات الكحولية. هناك شيء ربما لا تعرفه، النساء هناك جميلات جداً ويحذقن الرقص. إذا أعجبهن زبون ووضع النقود فوق الطاولة رقصن أمامه وله فقط. رصدتُها ثم قلت في نفسي: جميل لو رقصت لي. كان لدي ما يكفي من المال فرجعت ووضعت نقودي فوق الطاولة. فما كان منها إلا أن رقصت. لي فقط. ولمّا نظرتْ في عينيّ أوحت إليّ أنها من ناحية جدّ قريبة مني ومن ناحية أخرى بعيدة المنال. كانت تماماً بمثابة شجرة بِيبَال منتصبة في وسط القرية..

ـ ألا تبالغ قليلا؟

ـ ربما. ليس مهمّا أن نعرف بأي شيء ذكّرتْني. المهم فقط هو أنها لمّا توقفت عن الرقص جاءتني فكرة. تصورتُها بجانب برتن وهي تطفئ ظمأه من أشياء لا تدخل في الروتينية اليومية. كان صاحبي في حاجة إلى

رفيقة، لكنه لم يقم بشيء يذكر في هذا الخصوص. وأنّى له أن يشبع رغباته فقط بمجرد القيام بفسحة من حين لآخر.

ـ كان إذن لا يجلس فقط أمام مكتبه.

ـ تحدّثتُ إليها، أجهدت نفسي لأقول كلاماً صحيحاً. كنت لا أريد إهانتها، لذلك أفهمتها أن عرضي هو في الحقيقة تعبير عن تقديري لها. وافقت للتو، وهو ما فاجأني حقاً. وتكفّلت فيما بعد بكل ما توجّب القيام به.

ـ بدفع الأجر على ما أظن.

ـ ليس بالأجر فقط. هذا النوع من العلاقات يكون دائماً محدوداً زمنياً، هذا ما سمعت الناس يقولون. ثم كان علي أن أحمي سيّدي. كان علي أن أجنّبه كل ما من شأنه أن يتسبّب له في مشاكل. حرّرتُ وثيقة وأمضت هي عليها.

ـ ماذا؟

ـ كيف ماذا؟

ـ كيف حرّرتها؟ اسمح لي بتذكيرك أنك لا تعرف الكتابة.

ـ تستطيع أن تجيب بنفسك عن هذا السؤال. ذهبت إلى لاهية.

ـ هل وافق على تحرير اتفاق من هذا القبيل؟

ـ ولِمَ لا؟ كان أمراً عادياً.

ـ حقاً، يجب علينا أن نطهّر بلادنا. هؤلاء المْلتْشا يجلبون إلينا من القذارة ما يفسدنا.

ـ في كلامك هذا شيء من المبالغة.

ـ أنت لست على دراية بالأشياء. كنتَ تحت رحمتهم، كنت تلميذا لهم، من يدري، لعلك الآن صرت مثلهم.

ـ لا لشيء إلاّ لأني عرفتُهم صرت واحداً منهم؟ يا للسخرية! وماذا نقول عن برتن صاحب؟ لقد اتّبع نمط حياتنا وكلما ارتدى ملابس كالتي نرتدي نحن اعتُبر كواحد منا، لكن هل هو الآن واحد منا حقا؟

ـ هناك فرق بين حالة يتنكّر فيها الشخص لذاته وأخرى يطغى فيها التنكّر الاحتفالي. هذا الفرق كبير.

ـ وأعرف أيضاً أن بلادنا كانت فيها دوماً حظايا. تستطيع أن تقرأ هذا حتى في البُورَانَات.

ـ من قال لك هذا الكلام؟

ـ ليس مهمّا.

ـ من؟

ـ برتن صاحب.

ـ برتن صاحب! هل تثق فيما يقوله مُلتْشا عندما يتعلق الأمر بتقاليدنا نحن؟ متى كان الغرباء يشكلون مرجعاً بالنسبة لمعارفنا؟ حظايا في البُورانات، عظيم! وأيّة كذبات فظيعة أخرى سيختلقون في المستقبل؟

ـ هل أنت واثق من أن هذا غير صحيح؟

ـ لنترك هذا الموضوع. إذن بماذا التزمت هذه المرأة إزاءك أو إزاءكما كتابيا؟

ـ التزمت بعدم الحمل.

ـ هل وعدتك بهذا حقا؟

ـ كانت تعلم ما المطلوب منها.

ـ دعني أحزر. بثمار الكَاشُو؟ أم، كلما ظنت أنها يمكن أن تكون حاملا، أكلت ثمرة بَابَايَا؟

ـ لا، كانت تحفظ مانْتْرَات قوية التأثير وبحوزتها تميمة. زيادة على هذا كانت تحضّر خليطاً من روث البقر، بعض الأعشاب، عصير الليمون وبعض الحمضيات الأخرى وشيء من النطرون إن لم تخنّي الذاكرة.

ـ وبرائن دجاجة.

ـ ماذا؟

ـ لا شيء. أنت اتفقت معها على ما كان يجب الاتفاق عليه. الأفضل أن نوصي بك كمعرّص. على فكرة، العمل الذي أثقل كاهلي ينمو، وعلينا أن نتفق على رفع في الأجرة. أظنّ أني سأكون، على الأقل، في حاجة إلى ثماني روبيات.

١٤

قاهر الصّعاب

قليلون جداً هم الذين كان لهم شرف الموت من أجل الوطن. أما الباقون فكانوا كل مساء يتذمرون في نادي الكتيبة من التضحيات التي طُلب منهم تقديمها. إحدى عشر شهراً كانت لا تُحتمل، هكذا كانوا يُنشدون، وشهر آخر كان الأسوأ: مايو. شُلّ برتن بمفعول القيظ. نضبت أفكاره. استلقى على الفراش في وضع يسمح له فقط بمعاينة مقياس الحرارة بعينين لزجتين. انتصب الفراش وسط الغرفة وقد أحاطت به من جميع الجوانب ستائر من الحرير الخام فاتح الخضرة. كلّما مدّ ذراعه استطاع أن يغمس يده في طبق نحاسي به ماء بارد. كُلف أحد الخدم بأن يأتيه كل ساعة بماء جديد. كان يدور فوقه بَانْكها من الخشب والقماش. كان يعلم أن هذه المروحة متصلة عن طريق خيط يمر عبر الحائط بإبهام قدم شبح من بين تلك الأشباح الآدمية الهادئة السمراء، تمثّل دوره في مدّ رجله وجذبها ليروّح على الصّاحب. لا وجود لأحد خارج المنازل، ولم يكن برتن في حاجة إلى مغادرة بيته ليتحقق من أن المدينة هي أيضاً مشلولة مثله. ريح أشدّ من الحمى تنفخ سعيرها فتمحو الحياة من السهل. الغيوم كلّها غبار بينما يعبق الجوّ برائحة النشوق. تغرق بارودا في خمولها، في هذا الشّهر الأخير قبل أن تهطل الأمطار وتأتي بالخلاص. تظلّ الخيول واقفة ومشدودة إلى الأوتاد، مطأطئة رؤوسها وبشفة سفلى مقلوبة، يمنعها الكسل من تحريك ذيلها لطرد الذباب بينما يغرق السُّوّاس غير بعيد عنها

في شخيرهم وقد سقطت من أيديهم الأطقم التي كان عليهم أن يقوموا بتنظيفها. فحتى الغربان تلهث بحثا عن النّسمة. عليك أن تحدّ من جميع وظائف جسمك، أن تتحاشى كل حركة زائدة عن اللّزوم. استفدْ من وجود الخدم وتصوّرْ أنهم أطرافك وأعضاؤك. كان الرجل محقّاً فيما قال، نعم، يستطيع برتن أن يعمل بنصيحته إذا وصلت طاقته على التحمل إلى نهايتها، بإمكانه أن ينادي على ناوكرام، بإمكانه أن يتخلص من ثيابه القطنية الفضفاضة وأن يدخل بيت الاستحمام أين سيكون ممكناً أن يصبّ عليه بعض الخدم ماءً من قلل مثقوبة. كما بوسعه أن يطالع بعد ذلك.

تعرّف في الأثناء على بارودا والأطراف المجاورة، دخل كل مكان، كل مكان استطاع دخوله بصفته ضابطاً بريطانياً، ولقد شاهد بعدُ ما لم يشاهده إلا القليل النادر من زملائه. كان غير راض. بدا له الأهالي من على صهوة جواده وكأنهم أشخاص في كتاب قصص خرافية تُرجم إلى لغة إنجليزية هزيلة. أما مظهره هو، فقد كان له تصوُّره الخاصّ بشأنه: كان يشبه النّصب التذكاري. لذلك تملّك الأهالي الفزع كلما وجّه إليهم الفارس البرونزي الكلام بلغتهم. كيف لا، لأنّه طالما بقي غريباً سوف لن يلمّ إلا بالقليل، ثمّ إنّه سيبقى أبداً غريباً طالما لم يرَ فيه الأهالي شخصاً آخر. حلّ وحيد أعجبه من أوّل وهلة: عليه أن يتخلّص بنفسه من مظهر الغريب وألاّ ينتظر أن يريحه الغير منه. سيتصرف وكأنه واحد منهم. ما عليه في واقع الأمر إلاّ أن ينتظر فرصة مواتية. والأكثر إثارة في هذه الفكرة هو أنه لن يجد صعوبة في تنفيذها. أمّا المسافة التي سيتوجّب عليه قطعها فقد بدت له بسيطة. فالناس يُولُون الاختلافات أهمية كبيرة، لكن هذه الأخيرة غالباً ما تزول بمفعول عباءة سحرية أو تطرد بواسطة كلمات تقال في لهجة مقلدة. فغطاء الرأس مثلاً، إن اختير بحكمة، يستطيع لوحده أن يؤسّس لعمل مستقبليّ مشترك.

لاحت عاصفة رملية في الأفق وما لبثت أن هدرت سحب سوداء فوق الأرض بأفواه شرهة. تسرّب الرمل إلى الداخل من خلال كل فتحة، من خلال كل شق، وخلّف غلافاً سميكاً فوق كل شيء. صارت اللّحف سمراء اللون وكان باستطاعته التوقيع بسبّابته فوق مخدته. ابتلعت العاصفة الدوّارة القمامة، مزّقت الخيام وفرقعت أكداس الحبوب إلى أن خرّت قواها بعد أن أنهكها الجنون وارتطم كل شيء اقتلعته في طريقها بالأرض.

١٥

ناوكرام

II أُومْ فيجنشفارايا نَمَهَا/ سرفافيغنوباشنتايا نَمَهَا/ أُومْ غانيشايا نَمَهَا II

ـ تأزّمت الأمور وازدادت سوءاً بعد أن تمّت نقلتنا إلى السّنْد. الناس هناك متوحشون أفظاظ ويكرهون الغرباء بكل جوارحهم.

ـ لديّ بعض الأسئلة تتعلق ببارودا. علينا أن نتعرّض إليها أوّلاً.

ـ العواصف الرملية كانت مألوفة في جميع أوقات اليوم.

ـ بالنسبة إليّ ما زالت أمور عديدة يكتنفها الغموض.

ـ كان شيئاً لا يحتمل. مثل شهر مايو عندنا، خصوصاً إذا أردتُ تقديم الطعام. كان لا بد من وضع غطاء على كل شيء، لأنه كلّما بقي شق واحد مفتوحا خشخش الأكل بين الأسنان. كان الرمل في كل مكان.

ـ لم أنته بعد من الباب ما قبل هذا.

ـ باب؟ أي باب؟

ـ مجرد طريقة في التعبير. انظر إلي جيداً! ألم تلاحظ شيئا؟ إني لم أكتب شيئاً وأنت تتكلم.

ـ أصبحنا بدون منزل. بقيت لدينا خيمتان فحسب تمّ نصبهما وسط سهل رملي.

ـ حسن. كما تريد. سنعود في وقت لاحق إلى بارودا. لماذا لم يكن لكما منزل؟

ـ لم يكن لبرتن صاحب ما يكفي من المال. كان يحصل على مائتي روبية في الشهر وكان هذا غير كاف لبناء منزل إذا أخذنا بعين الاعتبار أنه كان ينفق نقوداً كثيرة على الكتب.

ـ هل كان على الضباط أن يدفعوا معلوم السكن بأنفسهم؟

ـ نعم. وكان عليهم أيضاً أن يبحثوا بأنفسهم عن مسكن. طبعاً كان بوسعي التكفل بكل هذا، غير أن برتن صاحب كُلّف بالقيام بمهمة أخرى قادته إلى داخل كل البلاد. وهكذا تعودنا على حياة كلها حراك، مما جعل جميع قدراتي على التأقلم والتصرف الملائم للواقع محل اختبار. ولا تنس أني وجدت نفسي فجأة وحيداً، بدون المساعدين الإثني عشر إلى جانبي. دوّن هذا! لم يبق معي إلاّ طاه وفتى يساعده كان في الحقيقة لا يصلح لشيء. عوض أن أدبر شؤون منزل بأتمّ معنى الكلمة رأيتني أتعامل مع سبعة صناديق لأوفّر من محتواها لسيدي سكناً يكون فيه أكبر قدر ممكن من الراحة. كنت وحيداً في تلك الصحراء. والشخص الوحيد الذي كان بإمكاني التحدث إليه كان برتن صاحب. أمّا المختونون فلم يكن الحديث معهم ممكناً، حتى لو توفّرت لغة مشتركة بيننا. كانت وجوههم تشبه القلاع وكانت أعينهم كالمدافع المصوّبة دوماً في اتجاهك. كانت مهمّتي ضخمة، لكن اعلمْ أني كنت تماماً في مستوى التحدي. كان برتن صاحب يريد القراءة والكتابة حتى وقت العواصف الرملية. كان يجلس أمام منضدة متنقّلة بينما أضع أنا على رأسه منديلاً مبللاً وبارداً. كنت أمسح الغبار الدّاخل باستمرار من شقوق الخيمة لأمنعه من أن يجد طريقه إلى عينيه اللتين، لو دخل إليهما، صار له فيهما مفعول مسحوق الفلفل. كانت

عملية الكتابة صعبة وكان الحبر يتصلّب في طرف الريشة بينما غطى الغبار الورق بسرعة، أمّا أنا فكنت لا أفرغ أبداً من إزالته. كنت أقف وراءه وأنحني كل بضع دقائق على كتفه اليمنى لأمرّر منديلاً على الورقة التي كان بصدد الكتابة عليها. ضحك مرة وقال إنّ دوري يشبه دور من ساعد عازف الموسيقى على قلب أوراق النّوتة. هل كنت تعلم من قبل أن الأنغريز يقرؤون الموسيقى من الأوراق؟ كلّما غادر برتن مكانه كان عليّ أن أُرجع كل شيء إلى الصّناديق. أما إذا بقيت ورقة يوماً كاملاً خارج الصندوق فإنها تصير وكأنها بَارَاتْهَا. الفرق يتمثّل فقط في أن الورقة ليست مغلّفة بالعجين بل بغبار السّنْد الملعون.

١٦

جسم في لون الدّخان

شعُر برغبة في طرد اللّيل بركلة قدم، في مطاردة الكابوس الأخير. في الخارج كان رجل يسير وحيداً ويبصق بين خطوات مخشخشة، كان يبدو على عجلة من أمره ليكون أوّل من يستقبل الفجر. مزقت الغربان ما تبقى من السكون بمناقير فظة. وقف أمام النافذة وألصق جبينه بالسلك المشبك. أشعل أحدهم ناراً، كانت التحية والتحضير لأوّل شاي في ذلك اليوم. سرَت رائحة السماد الطبيعي فوق حقول تصاعد منها البخار وكأنها يد بلا غسيل. كان الهواء بارداً وفيه قليل من الرطوبة. سمع ناوكرام وهو يفتح الباب ثم يضع الصينية. تحسس طريقه إلى الإبريق، صب من الشاي الأحمر في الفنجان وزاده بضع قطرات من الحليب. لما أوصل الفنجان إلى شفتيه لاحظ أنّ نور الفجر قد تسلّل بعدُ إلى الداخل وكأنه خجل لقضاء الليلة في مكان آخر تماماً. استلذّ دفء الفنجان بين يديه ثم أحس بها وهي تلصق نهديها بظهره. كانت تلك طريقتها في التّسليم عليه. سألها رغم علمه المسبّق برفضها: هل تريدين قليلاً من الشاي؟ أفلح في اقتسام الفراش معها ولم يستطع أن يقتسم معها الفنجان. لم يسبق أن تناولت معه طعاماً أبداً. عاشا في رقعة أرض واحدة لكنّه توجّب عليه تناول وجباته بمفرده. قالت: ذاك ما تقتضيه اللياقة. تصدت لكل طلباته ودعواته مثلما رفضت من قبل أن تقضّي كامل الليل برفقته. عندما تستيقظُ أنت أكون أنا

قد رجعتُ بعدُ. كانت تُوفي بوعدها دوماً وتحافظ على المسافة الّتي تفصل بينها وبينه، تطلب منه، خلافاً لما عهده لدى باقي الحظايا، أن يطفئ جميع الأضواء قبل أن تبدأ بنزع ثيابها. كان هذا شرطها الأوّل، منذ البداية. قبِل طلبها ورأى فيه تعبيراً عن احتشام ما. كان القمر في عونه أوّل مرة، كان لطيفاً إزاءه. تلمّس جلدتها باهتمام، حاول أن يقبّلها على شفتيها لكنها لم تفتحهما. هيّجه أن استسلمت إليه دون أن تنفتح. اتضح أنها ماهرة، متمرسة، شأنها شأن كلّ الحظايا الأخريات. لم يشغل باله بالتفكير في أيّ شيء أو باتخاذ قرارات، لبّت له حاجاته قبل أن يُفصح بها. خمّن، وقد رفع رأسه: ها أنا أراها وهي تنجز عملها. فكرة زادت من يقظته وحوّلت ذروة شهوته إلى ولادة بدون مخاض. انتصبت واقفة لتوّها قبل أن يفتح عينيه من جديد، ها هو يسمع الصّدى الصامت لخطى أرجل حافية تبتعد. لم تعدْ بعد ذلك إلى مكانها. بعد مرور عدّة ليال على ذلك المنوال أخبر ناوكرام بأنّ كنداليني قد تنتقل لتسكن في البُوبُوخنّا. سُرّ ناوكرام سروراً واضحاً وصادقا، هذا هو على الأقل ما لاحظه برتن الذي تأثّر حقّاً لكون ناوكرام كان ساهراً على راحته بكلّ اهتمام. وفي إحدى الليالي التي جادت ببرودة تسمح بتحمّل جلدة شخص آخر، أمسكها من ذراعها وهي تهمّ بالوقوف. قالت محتجّة: لا بد أن أذهب. أرجو أن تبقيْ ولو قليلاً. استندت إلى الخلف. أشعل مصباحا ووضعه جانباً وهي تنظر إليه بعينين مرتابتين. أزاح عنها الساري الذي كان يغطي جسمها، أراد أن يتأمّلها، أن يرى جلدتها في لون الدخان الداكن. أراد أن يرى كل شيء فيها لكنها سرعان ما حجبت عورتها بيد بينما حاولت أن تخفي نهديها بيدها الأخرى دون جدوى. ختاما، ولما رأت أنها تحولت إلى فريسة سهلة لفضوله، نهضت وغطت عينيه بكلتا يديها. تصدّى لها بأقل ما يمكن من الجهد،

ولمّا باعد بين أصابع قدميه أخذت في الضحك كالماء يبدأ في الغليان. احتضنها وعيناه ما زالتا مغشّاتين، احتضن ضحكتها. قال في نفسه إن البداية مشجّعة، لكن بقي له أن يعرف إن كان أمتعها.

صعب عليه أن يسألها وانتظر أياماً قبل أن يجرؤ على السؤال. أجابت منشغلة: المهمّ أن تكون أنت أمتعك هذا، سيدي. نعم، أنا استمتعت. إذن أنا أيضاً سعيدة. لم تكن نبرتها أو أسارير وجهها هي التي ولّدت فيه الريبة وإنما شيء مغاير تماماً. بدت له كلماتها وكأنها جاءت عن قصد فراح فيما بعدُ يسأل ناوكرام. طبيعي أن لم يسأله مباشرة، إذ كيف سيكون استغرابه لو ناداه أثناء الاستحمام وقال له: حاول أن تعرف هل أنّي أُشبع رغبة كنداليني. كاد يرى خسارة في كونه لم يسمح لنفسه بمثل هذه الدّعابة.

لكنه حاول، منتقلا من تلميح إلى آخر، أن يقترب أكثر من لغة مشفّرة. ورغم كل الحذر أصاب ناوكرام الذعر. كان أحياناً له ردود فعل لا تتماشى والموقف فيبدو عليه تكلف المربّيات. كاد برتن أن يمتهن كرامته ويصفه بتاجر أعراض ذي حياء كاذب. صاحب، هل أنت غير راض عنها؟ لا، أبداً. أريد فقط أن نتناغم أكثر، أنا وكنداليني. هل هي لا تلبي طلباتك، صاحب؟ أود أن أعرف المزيد عن رغباتها، هذا هو الموضوع. ليس من الضّروري أو المتداول أن تكون لها رغبات. أفهم قصدك، أظن أنك غير قادر على مساعدتي. بالعكس، صاحب، أنا دائماً قادر على مساعدتك، دائماً.

في المساء الموالي قالت له كنداليني مترددة وفي شيء من اللوم، إنه يحلق المكان الذي تنظر إليه كل النساء وليس المكان الذي تنظر إليه هي وجدها. صحيح، في الأمر تناقض، ولعلّ الحَجَاوِمْ أراد لهذا الغرض أن

يحلقه مرّة وهو في غفوة. لا بأس، سوف يكون مجبوراً على إنجاز العمل بنفسه. وذات مرّة، بينما كان هو مستلقياً على ظهره منهك القوى وهي متكئة على كتفها بجانبه، حدّثته بكل طلاقة وفي دعابة عن جدّتها التي كانت تصنّف الرجال إلى فصائل وكأنّهم حيوانات. وإلى أيّة فصيلة ينتمي هو؟ قالت: إلى الأرانب. لم يلمس في كلامها مجاملة ذات بال. وما هي الفصائل الأخرى؟ هناك الثيران والأحصنة. سأل: وهذه الأخيرة، هل من شأنها أن تكون أفضل؟ أبداً، النقيصة ليست في الأرانب في حدّ ذاتها وإنّما في الأرانب السريعة. وهل هناك أرانب بطيئة؟ حرّكت رأسها بالإيجاب. بطيئة ونصف سريعة. كذلك بالنسبة للثيران والأحصنة؟ نعم. السرعة، ماذا تعني؟ مهلا، هل، كما أتصور، لهذا علاقة بالتّمديد في لحظات المتعة؟ نعم، الأمر يتعلق بالتريّث وانتظار المرأة، بانتظارها حتى تصل إلى الذروة. هل للمرأة ذروة؟ تكلم برتن بتسرّع كبير وندم للتّو على ما قال. نظرت إليه في ذهول فسأل مترددا: وأنتِ؟ هل عشتِ الذّروة معي؟ حرّكت رأسها سلباً. هل لأني أرنب سريع؟ لنقلْ إنّ الأمر يتطلّب وقتاً أطول بالنّسبة إليّ. كم؟ ذلك متوقّف فقط على الوقت الذي يتحكّم فيه لسانك. أما سمعت أبداً بالإِيشْكمَاكْ، بالفنّ الذي يتمثل في تأخير الذروة؟ لا، أبداً. أعرف فنونا نبيلة أخرى مثل فن صيد الثعالب، فن المبارزة والفن الذي يتمثّل في تصادم كرات فوق بساط أخضر من اللّباد، أمّا فنّ تأجيل الذروة فأنا لا أعرفه. هذا الضرب من الفنون لا يطبّق لدينا وعندنا تتلاحق الذّرى وتطارد الواحدة منها الأخرى. لم تصدر عنها ولو ابتسامة. سأعلّمك هذا الفنّ، إن رغبتَ فيه طبعاً. تكلّمت بكل جدّ ودون أن تعير ابتسامة الرضا التي صدرت عنه أيّ اهتمام. وأجاب بدوره بجدّ مصطنع: نعم، أريد أن أعيش معك لحظة ذروتك. أريد أن أكون مسبّبها. وضع يده على كتفها وتأمّل الفرق بين بشرتيهما. لماذا أنت سمراء إلى هذا الحدّ؟

استدارت في اتجاهه ونظرت إليه بصرامة وكأنه ألقى عليها سؤالا تعوزه اللّباقة. انحنت مقتربة منه إلى درجة أنه صار تقريباً لا يراها بتاتا ثم همست: لأني ولدت مع الهلال الجديد. وانفجرت عيناها وكأنهما شُمروخان.

لمّا كانا في المرة الموالية مستلقييْن معاً في الفراش، هي فوقه، وعبّرت زفراته عن العاصفة التي تشكّلت داخله، أمسكت عن الحراك، تركت يديها على صدره ثم بدأت بالكلام وهي جاثمة فوقه بينما خفق هو من فرط إعجابه برجولته، تكلّمت في جمل كاملة وبنبرة معهودة كانت في الظاهر تسرُد سرداً عادياً لكنّها، في الحقيقة، استقطبت كل انتباهه. كان عليه أن يخفّف من وقع هزّاته ليتمكن من تتبع كلماتها التي كانت تتحدّث عن الحظايا الضّلال اللائي تعودت أجسامهن لسنوات عديدة على السمّ. تناولن في البداية قطرة واحدة ثم تناولن قطرات ليرتفع القدر إلى ملء ملعقة شاي في اليوم. وفي آخر الأمر صرن قادرات على تناول كأس مملوءة سمّا دون أن يلحق بهنّ ضرر. لكنّ عرقهن، بصاقهن وكل ما أفرزن من سوائل أثناء الجماع كانت مسمّمة إلى درجة أن كل من ضاجعهن كان محكوما عليه بالإعدام. ناهيك أنه حتى من مسح لهن مرة دمعة وأوصل منها شيئاً إلى فمه مات. نعم، كنّ لا يستطعن إشباع رغباتهن إلاّ إذا أُريد منهنّ أن يقتلن أحداً. كنّ مجرّد قاتلات مأجورات في خدمة حاكم من الحكام. لقد حُرّم عليهن أن يقعن في حب أحد. كنّ يسمّمن كل من يمسّهن، كل من يقبّلهن، بقطع النظر عن كونهنّ يحتقرنه أو يحببنه. هل تستطيع أن تتصوّر شقاوتهن؟ كان برتن مستلقياً على الفراش بلا حراك، وكان ذكَره بمثابة فرضيّة تراجع عن نيّة تنفيذها. مررت أظافرها على صدره وقالت إن الحكاية لم تنته. يحكى أنّ شاعرا، ربما كان أشعر شعراء البلاد، لمّا رأى مرّة إحدى تلك الحظايا، وكانت أجمل امرأة في زمانها، وقع للتّو في حبّها. لم يكن فتى لا يتمالك نفسه أو متحمسا بل رجلاً ذا

تجربة، على دراية بقوانين البلاط وعارفاً بأحكام المشاعر. تعذّب طويلاً وبقي في ريب من أن يعترف لها بحبه. ولما قرر، بعد صراع مع نفسه، أن يبوح بمشاعره، بادرته بالكلام على ضفاف الجَامُونَا. عبّرت عن رغبتها في أن يخصّها بدروس في السنسكريتية وقالت إنّ معرفة هذه اللغة هي وحدها التي تنقصها من بين الفنون التي يُسمح للحظايا بتعلّمها. حصلت على ترخيص من الحاكم يخوّل لها التعلّم يومياً. انحنت كندالييني إلى الأمام فلامس شعرُها وجهه ثم استقامت في جلستها من جديد. اختفت يداها وأحس بأظافرها تُمرّر بين فخذيه. قالت: انتبه جيداً إلى ما سيأتي! كما تعوّدت الحظيّة قبل ذلك شيئاً فشيئاً على السم، وقعت خلال سنوات تعلّمهما البطيء للسنسكريتية رويداً رويداً في حبّ الشاعر. وفي يوم من الأيام اعترفت بشيئين اثنين في وقت واحد: باحت له بحبها واعترفت بتربيتها أداةً لنشر الموت. كثيراً ما أفكرّ في هذا الشّاعر وفيمَ عساه أحسّ به في تلك اللحظة والحال أنّ حبّهما المتبادل جاء في شكل ولادة هادئة. لم يبتعد عنها، لا بل قرر أن يتّحد بمحبوبته ولو مرّة واحدة فقط. نعم، التزم بالتعويض عن التعسف الذي كان لحق بتلك المرأة. هزّت قشعريرة جسم برتن. وماذا حصل بعد ذلك؟ هذا هو الغريب في الأمر، هذه القصة لها نهايات شتى لا تلتقي إلا عند شيء واحد: لقد مات طبعاً، لكن أساريره انبسطت وهو يفارق الحياة وظهرت عليها سعادة غامرة لا يعرفها إلا الذين تخطّوا بعدُ بوابة الخلاص. تركته كندالييني وشأنه، تمطّت بجانبه ثم مرّرت ظفر سبابتها على ذكره المرتخي. كان هذا، سيّدي، فن تأخير بلوغ الذروة. عندما تكون خرجتَ من دهشتك لحكايتي، نستطيع أن نعيد الكرّة من جديد. نظر إليها نظرة مختلفة تماماً وكان بودّه لو قبّلها، ناسياً من هي ولماذا هي ممدّدة في تلك الغرفة. لم يكن كالشاعر. لقد اكتشف بداخله جبنا، في مكان لم يقرأ له فيه حسابا.

١٧

ناوكرام

II أُومْ دهومرافارنايا نَمَهَا/ سرفافيغنوباشنتايا نَمَهَا/ أُومْ غانيشايا نَمَهَا II

ـ يكفينا ما سمعنا حول بارودا، يكفي. ما زال لنا الكثير الذي يجب كتابته عن السِّنْد، عن خدمتي هناك. كانت سنوات عملت فيها بجهد كبير ولم أشعر فيها بفرحة تذكر.

ـ موافق.

ـ اعلمْ أني اصطحبت سيدي وأنّ الأمر لم يكن بديهيا. لم أخدمه هو وحده هناك بل كذلك جيش الأنغريز. ثم أنّي أنقذت حياته، لا بدّ أن تُبرز هذه الجزئيّة بجلاء..

ـ نعم، سنصل إليها. إذن ذهبت معه. وعشيقته كنداليني؟ لا أظن أن ضابطاً من الأنغريز يغيّر مكان إقامته ويأخذ معه عشيقته.

ـ السؤال لم يطرح.

ـ ولِمَ لا؟

ـ لأنه لم يطرح.

ـ هجرتْه، أليس كذلك؟ جئتَه بشخص لا يعرف الوفاء. لقد هربت.

ـ لا، أبداً، هذا كذب.

ـ لماذا يكون رد فعلك عنيفاً كلما دار الحديث حولها. ألا ترى أن مشاعرك مبالغ فيها؟

ـ وما هي المشاعر المبالغ فيها؟ هل أنت من يعرف كلّ شيء؟ لم يسرْ كل شيء على ما يرام، أمّا أنا فلم أخطئ. آه، لو كانت لي امرأةِ مثل كنداليني!

ـ مثل كنداليني أو كنداليني بالذّات؟

ـ لا أستطيع أن أصفها لك. كان دائماً يسرّني أن أقوم في الصّباح لأني كنت أعلم أني سأراها وسأسمع صوتها. كانت تغني وهي تغتسل، كانت تحفظ العديد من البْهَاجَانَات. إذا غنّت بدت وكأنها تزيّن النهار بأجمل الحلل. غالباً ما كانت مرحة، لكنها لم تعرف المرح منذ البداية كذلك. الخدم الآخرون عاملوها أوّلاً باحتقار. كانوا منافقين، في الحقيقة تمنّاها كلّ واحد منهم زوجة له. ولمّا كانت لطيفة وخفيفة الظل لم يروا بدّاً من ترك احتقارهم جانباً. كنا أحياناً نجلس معاً في المطبخ وكانت تحملنا جميعاً على الضحك. لكنّها كانت أحياناً أخرى معكرة المزاج إلى درجة أني كنت أرى كل الدنيا وكأنها ملتحفة ببُورْخا. كنت أريد أن أسليها، لكني لم أدرِ بأيّ شيء. لم أكن الشخص الذي. .

ـ وقعتَ في حبّها. كيف لم أهتد إلى هذه الخلاصة من قبل؟ أنت جُننت بها.

ـ استفحل الأمر لأنّه وثق بي وباح لي بأسراره. كان شيئاً لم أحتمله قط. ظن أنه يمكنه أن يعبّر لي عن تقديره واحترامه بمجرّد أن يتحدّث معي في شأنها. حول ما أدهشه وما أعجبه فيها. كنت لا أستطيع إيقافه، وكلّ ما كان بإمكاني قوله كان ليُثير الشكوك لديه. كلما طالت مدة إقامتها معنا إلا وازداد حديثه معي صراحة. كنت لا أريد أن أتعمق معه في الموضوع لكن الحال ازدادت سوءاً. صار لا يريد معرفة رأيي فقط بل طلب مني أيضاً أن أؤثر عليها . لم يُصدر إليّ أمراً صريحاً في هذا الشأن، لكن،

رغم كلّ هذا، كان كل ما أراد واضحاً بالنّسبة إليّ. كان عليّ أن أتحدث إليها، في شأنه.

ـ كنتَ تغار من برتن صاحب، الآن فقط فهمتُ. كان يمتلك الكثير الكثير، أكثر منك بكثير، فلماذا إذن يمتلك أيضاً المرأة الجميلة التي وقعتَ في حبها؟ أليس كذلك؟ هل تفطّن إلى كراهيتك له؟

ـ لم أكرهه. هذا أيضاً كذب.

ـ هل لهذا السبب بقيتْ هي في بارودا؟ هل وشيت بها لدى الإفرنجي؟ لأنك صرت لا تحتمل حضورها؟ لأنها زرعت بينكما الشقاق؟

ـ اخرس! أنت تقول أباطيل. كانت وقتها قد ماتت بعد، ماتت منذ مدة طويلة.

ـ ماذا؟ ماذا كان سبب موتها؟

ـ أنت لا تعرف حدودك. هل تظن أني سأسرّ إليك بما لم أقله لأحد لحدّ هذه اللّحظة؟

ـ كان مجرّد سؤال.

ـ ليس من حقّك أن تلقي أيّ سؤال.

ـ كان سؤالا في غاية الوجاهة.

ـ هل أدفع لك النقود لأبوح لك بأسراري؟ أنت قلبت كل الحقائق التي لها علاقة بحياتي.

١٨
تعجيل بالفعل

بعد مرور أسبوع وافق أُوبَانِيتشِي على تدريس هذا التلميذ، أمّا برتن فأمر ناوكرام بأن يتمّ، من حين لآخر، إيصال قرْعات كبيرة إلى منزل المعلّم. سأل: ما رأيك فيه؟ لاحظتُ، صاحب، أنه يصل كل يوم في نفس الوقت، أنه يتحكم في نمط حياته، وهذا دليل على أنه معلّم عظيم. فعلا، إنه يحافظ تماماً على المواعيد ولا يتأخر ولو قليلاً. كل يوم في الرابعة بعد الظهر تماماً كانا يسمعان قرقعة عجلات التُّونْغَا وشخير البغل. كلما فتح ناوكرام الباب إلاّ واندفع الرجل قصير القامة وذو اللحية الشّيباء إلى الداخل ومشى وسط الحديقة وسكرتيره وراءه رافعاً المظلّة. شربَا كلّ مرّة شاياً أراده المعلّم، كالعادة، معطراً ثم جلسا جنباً إلى جنب أمام المكتب. كان على ناوكرام أن يضع كلّ مرّة ثلاث وسائد في كرسي الخيزران. درس النّحو كان بالنسبة لأُوبَانِيتشِي بمثابة حلبة رقص سمحت له بالقيام بحركاته الدائرية البهلوانية، أما برتن فما كان كل هذا ليزعجه. لا أحد كان ينتظر من فكر يقظ أن يقنَع فقط بصيغة المضارع المنصوب لدى الوسائط الفعلية. اقتصر خروجه عن الموضوع في أوّل الأمر على اللغة. لا شك أنّك على معرفة بالكلمتين اللتين نستعملهما في لغتنا للتعبير عن رجل/إنسان، : أَدْمِي، أصلها يعود إلى آدم الذي، كما يقول المسلمون، ولد في هذه البلاد، ومَانَاف التي يرجع أصلها إلى مَانُو، أي إلى الجد الأوّل الآخر، كما قد يكون وصل إلى علمك، أي إلى التقاليد الهندوسية.

يمكنك التعرف عليها من خلال اللغة، أليس كذلك؟ من خلال لغتنا نتعرّف على أنفسنا كأصيلي جنسين اثنين. يا لها من قوّة هذه التي يمدّنا بها مثل هذا الانتماء! وانطلاقاً من طريقة الحِجاج هذه، ألا يمكننا، غورُوجِي، أن نقول إنّ كل هندي هو في الآن نفسه هندوسي ومسلم؟ لنترك الجسارة جانباً، يا تلميذي العزيز، ولنقل إنّنا سعيدان جدّاً لكون الجنسين يعيشان جنباً إلى جنب. لكن ما لبثت اللغة أن صارت غير كافية بالنسبة إليه. قفز أُوبَانِيتِشِي في الهواء وهبط بكلتا رجليه في ميدان علم الحقوق.. تعرض إلى القانون الجنائي الهندي القديم الذي لم ينصف الحيوانات. قام بثلاث قفزات أخرى ثم مضى في تعليقه حول نظام الطبقات.. أنتم تقولون: مولود من أصل شريف ونحن نقول: مولود مرّتين. لا أرى فرقا بين الطريقتين. ألا ترى الأمر كذلك؟ وبعد أن شرح صيغة النداء كافأ تلميذه بقول مأثور.. الكتاب، القلم والزّوجة، هي أدوات ثلاث لا يجب إعارة أيّة منها الغير أبداً لأنّها في حال استعادتها من طرف أصحابها إمّا أن تكون ممزقة، مهشمة أو فقدت نضارتها بعدُ. هل أنت صاحب هذا القول، غُورُوجِي؟ لا، أبداً، أخذته من قصيدة بالسنسكريتية، لنقل من مؤلَّف قديم. مدهش! جميل أن تدهش، فالدهشة مفيدة للصحة. هل نبدأ درسا آخر؟ في هذا كفاية، مستر برتن، في هذا كفاية. الشَّيشِيَا يُرهق الغُورُو، هل سبق أن حصل مثل هذا؟ غير معقول! عليك أن تصون قواي لأنك ستكون في حاجة إلى الغُورُوجِي مدّة أطول.

وفي إحدى الأمسيات لم تأت التُّونْغا لتعود به إلى المنزل. كان على أُوبَانِيتِشِي أن ينتظر بينما بحث ناوكرام عن بديل. رغم أنه جلس على الأريكة جلسة مريحة ومدّ رجليه فوق مقعد بلا مسند، تملّكه الضّجر وأخذ يطرقع بالإبهام والإصبع الأوسط بينما كان يجيب عن أسئلة برتن المتعلّقة بحياته. كان كلما انتهى من جملتين أو ثلاث يرهف أذنيه لعله يسمع قرقعة

العجلات. هل أنت قلق بسبب زوجتك، غُورُوجِي؟ اليوم سأتأخر كثيراً، شيء لا أستطيع احتماله. نحن خلَفٌ لحضارة دأبت على الدقة. كل ثانية نعيشها ينعكس فيها النظام الكوني وكل ثانية تضيع منا يكون فيها هذا النظام مهدّداً إلى حدّ كبير. لا تهتمّ كثيراً بما يقال عن دورات كَالاَ التي يُزعم أننا بإمكاننا التّفكير بداخلها بكلّ سخاء. علينا فقط أن نكون دقيقين. لمّا رجع ناوكرام دون أن يحصل على شيء بدأ أُوبَانِيتشِي ينقر بأصابعه على ظهر الأريكة ثم أخذ يتزحزح فوق الوسائد جيئة وذهاباً. لم يتمكّن ناوكرام من العثور على تُونْغا واحدة في كامل المقاطعة، الشيء الذي جعل برتن يقرّر أن يُوصل المعلّم بنفسه إلى منزله على متن جواده الخاص بينما سار السكرتير على قدميه. إيه، يا تلميذي العزيز، أنت تكلفني ما لا أطيق. ما العمل للوصول إلى ظهر هذا الجواد؟ سنساعدك على الصّعود. لا، أبداً، كل هذا لا يعجبني، المعلّم ليس مجرّد قطعة من أثاث المنزل. حسن، سيأتي ناوكرام إذن بكرسي من الداخل. سأمسك بزمام الحصان كي لا يتحرك، وفي الأثناء يمكنك الصعود إلى الصهوة والجلوس. ما جلست قط على ظهر حصان، ولا حتى على ظهر بغل. اصعد، غُورُوجِي، اجلس في المؤخرة، إن أمكن، ليبقى لي مكان أمامك. وإذا سقطتُ؟ امسك بي، غُورُوجِي. بصفة استثنائية أنت تحت رحمتي هذه المرة. كيف؟ هل سنسير هكذا في الظلام؟ كعاشقين في سنّ الشباب؟ ماذا لو رآنا أحد؟ ابتعد من فضلك عن الطريق الرئيسية، أنا أفضّل في هذه الحال الطّرقات الفرعية غير المضاءة. حمل برتن الحصان طول المسافة على ركض هادئ، بينما هدّأ أُوبَانِيتشِي من روعه شيئاً فشيئاً. هذا المساء ليس مساءً عاديا، وأودّ أن أجازيك عن حسن صنيعك، أو بعبارة أخرى: أريد أن أقدّم لك شيئاً يبدو لي في مستوى هذه المناسبة. فيم تفكّر غُورُوجِي؟ في مَانْترَا. لربما في واحدة تفوق كل المانْترَات الأخرى حكمة

وتعبيراً. اعتبر هذه المَانْتِرَا تعويضا مني على إيصالك لي إلى هنا، تعويضاً سوف لن ينفد أبداً.

بُورْنَا ـ مَادَهَا

بورنا ـ مِيدَامْ

بورنَآتْ بورنامْ أُودَا ـ تْشِيبَاتِي

بورناسِّيَا بورنامْ ـ آدَايَا

بورنامِيفَا آفَا ـ شِيشَيَاتِي.

ـ لهذا الكلام وقع حسن، غُورُوجِي. سماع مثل هذه المَانْترَاتْ يحفزني على السير معك كامل الليل.

ـ دعنا والمبالغة. ماذا علّمتك؟ الاعتدال في كل شيء. ألا تريد أن تسمع الترجمة؟

ـ سوف لن يكون سماعها مقنعاً مثل السنسكريتية.

ـ معك حق. الأفضل أن تحفظ هذه المَانْترَا، أمّا المعنى فسيأتي لاحقاً. سترى، إنها تفتح عوالم.

ـ تفتح عوالم؟

ـ اتركني أنزل هناك من على الحصان، أريد أن أمشي بقية المسافة وحدي. تعال غدا إلى المنزل لنتناول معاً وجبة بسيطة.

ـ شكراً على الدعوة.

ـ لا تشكرني، لأن الشكر كالنقود. والناس إذا تعارفوا أكثر قدّموا لبعضهم ما هو أثمن من المال. لدي رجاء، لا أدري كيف سيكون ردّ فعل الجيران عندما نستضيف ضابطاً بريطانياً، ولهذا أنا أفضّل احترام مشاعرهم بأن أطلب منك، إن أمكن، أن تلتفّ بلباسٍ محلّي. أعلم جيداً أني أطلب

منك الكثير، لكن اعتبره جزءاً من تكوينك اللغوي. سيسمح لك اللباس المحلي بالتحدث بسهولة أكبر إلى الناس. ما عليك في هذه الحال إلا الوقوف في مكان ما وستلاحظ بعد دقائق قليلة أنك كسبت الصداقات الأولى.

ـ معرفتي بالغُوجاراتيّة غير كافية.

ـ وكيف تريدها أن تكون كافية؟ ستكون المسافر الذي جاء ـ دعني أفكّر ـ من كشمير! نعم، أنت براهماني من كشمير. وإذا سألك أحد إلى أي البراهمانيين تنتمي، أجبْ: براهماني نَانْديرَا.

ـ نانديرا.

ـ وإذا سألك أحد إلى أية غُوتْرَا تنتسب فأجب: بْهَارَادْوَاجْ.

ـ بْهارَاذواخ.

ـ وإذا سألك أحد عن العائلة فأجب..

ـ أُوبَانِيتشِي!

ـ لمَ لا، أنت قريبٌ للمعلّم في طرف القرابة، سمعتَ بشهرته فجئت تطلب مقابلته. عظيم!

ـ وماذا إذا التقيتُ كشميريا؟

ـ عندئذ قدّم نفسك كضابط سام تابع ليَانْ كَامْبَنِي بَهادُورْ وهدّده بأنك ستأمر بسجنه إن هو وشى بك.

ـ أليس معروفاً لدى الجميع أن لك اختلاطاً بالإفرنج؟

ـ في الماضي، يا تلميذي العزيز، في الماضي. الأزمنة لا تبقى على حالها. عدم الاكتراث بالغير حلّ مكانه رفض من نوع جديد. هناك أناس صاروا يذكرون البريطانيين بكثير من الكراهية.

ـ أنت تبالغ. لا يمكن أن يكون الأمر قد وصل إلى هذا الحد.

ـ ربما، لكن المبالغة في مثل هذه الحالات لها جدواها. نعم، أُقرّ أنّ لفكرتي أسباباً عدّة. بودّي لو أوقعتُ جاري في حيلة، والحلاّق أيضاً. أودّ أن أقدّمك كعلاّمة من كشمير لأرى بعد ذلك مدى الاندهاش على محياهما، عندما أقول لهما لاحقاً إنّ ضيفي كان في الحقيقة من الأنغريز، طبعاً بعد أن يكونا قد شرحا لي بإسراف وفي لغة الزّهور الأسباب التي جعلتهما يعتبرانك كشميرياً حقيقياً. تعال باكراً لأننا لا نتناول وجبة حقيقية إلاّ مرّة واحدة في اليوم، سوف لن نضنّ على أنفسنا بوجبة غداء متأخرة، وعندما تميل الشمس إلى الغروب تستطيع أن تعود إلى بيتك.

ـ آأُو ـ جُو، غُورُوجِي.

ـ آأُو ـ جُو. نعم، نسيت شيئاً. أرجو ألاّ تجلب معك كتباً.

ظن برتن أن هذا الطلب يخفي وراءه دعابة لم يفهمها. لكن سرعان ما حل الموعد المنتظر وما إن وطأت قدمه منزل المعلّم وهو متنكّر في زيّ محلي حتى تأكد من أن الكتب هي حقاً آخر ما قد تكون تلك الدار في حاجة إليه. كانت زوجة أُوبَانِيتِشِي امرأة أقصر قامة حتّى من زوجها وبوجه بدت عليه كل مشاعرها مكشوفة للعيان. رحّبت بالضّيف بحرارة إذ، لأسباب بقيت مجهولة، توسّمت فيه ذلك التلميذ الذي سيعاضدها في حربها ضدّ كتب زوجها التي لا يحصى لها عدد والتي تكوّمت في شكل أعمدة مائلة بجانب الوسائد، في صراع بدا واضحاً أنها خسرته مسبقاً. قالت للمعلّم بصوت جهوري مركّزة نظرها في نفس الوقت على الضيف: كل هذه الكتب المغبرّة، ألا تتخلّص منها وتلقي بها جانبا؟ أنت لم تمسّها منذ عشر سنين. أجاب الغُورُوجِي: وما الغريب في الأمر؟ أنت أيضاً لم أمسّك منذ عشر سنوات. هل يعني هذا أني يجب عليّ أن ألقي بك جانبا؟

ارتاع برتن لِما سمع ولم يدرِ إلى أيّ اتّجاه يحوّل بصره، في أيّة مشكلة تورّط؟ وماذا عساه يفعل تفاديا للموقف المربك أمامه؟ لكنه سمع العجوزين يضحكان، يضحكان بدون أي تحفّظ، ولمّا نظر إليهما غمز أُوبَانِيتشِي في اتّجاهه.

ـ أنت تضاجع كتبك.

ـ هل أنت غيورة؟

ـ كان عليك أن تتزوج كتاباً، لا أن تتزوجني أنا.

ـ هل كان بإمكان الكتاب أن يرزقني أولادا؟

ـ أنت عديم القلب.

ـ في مكان القلب لي كتاب سميك وأسود اللون، أعرف هذا.

ـ قلبك لا ينبض، لذا يجب فتحه.

ـ هل من أجل هذا تعلّمتِ القراءة، يا أم أولادي؟

ـ لو أمسكتَ عن الكتابة فيه باستمرار لكنتُ حفظت كل ما فيه عن ظهر قلب. لا أستطيع اللحاق بك. أسلمتُ أمري منذ عشر سنوات!

ضحكا معاً من جديد وشاركهما برتن هذه المرة الضحك. شعر فجأة بارتياح كبير لوجوده عند هذين الزوجين المسنّين اللذين أدخلا الحيوية على انفرادهما بواسطة دعابات لا تعرف الهوادة. متى ستقدّمين لنا ما نقتات به؟ ألا ترى أني مازلت أتكلم؟ أنت تتكلمين بدون انقطاع، ولو تركنا لك الأمر فإنّ ضيفنا سيموت جوعاً. في ذلك المساء قرر أُوبَانِيتشِي أن يترك الجدّ جانباً وأردف: كان لأشهر شعرائنا عديد النساء، وكان في هذا مثالا يحتذى إذ كثيرون هم الذين قلّدوه وما زالوا يقلّدونه، أمّا أنا فأقول لزوجتي منذ مدة إنّي لن أصير شاعرا كبيراً ما دامت لي زوجة واحدة

فقط. هل تعرف ماذا تجيبني؟ صرْ قبل كل شيء شاعرا كبيراً ثم يمكنك بعد ذلك أن تأتي بنساء أخريات! سمع برتن ضحكتها المسترسلة والآتية من المطبخ بينما اتّكأ أُوبَانِيتشِي إلى الوراء وكله رضا ثم مسح بيمناه وبلطف على لحيته البيضاء قبل أن يطارد السّكون الذي بدأ يخيّم بدعابته الموالية. ضحك الجميع هذه المرة في وقت واحد وبقوّة، ناهيك أن برتن انحنى إلى الأمام وقد شبك يديه فوق بطنه مقتربا بعينيه من عيني المعلّم اللتين خرجتا من مكانهما، تدحرجتا فوق المنضدة وتحوّلتا إلى عيون كثيرة جمعها أُوبَانِيتشِي، وقد انقلبت إلى سبحة، بأصابعه العجراء. سأل برتن مقلّصاً وجهه بعض الشيء: ماذا كان في الحليب؟ بْهانْج، يا تلميذي العزيز. نريد أن نراك منبسطاً عندنا. وقفت السيدة أُوبَانِيتشِي الرقيقة أمامهما وكأنّها حورية حملت صينيتين عليهما الطَّالِي. شرحت له ما احتوت عليه الصّحاف الصغيرة الخمس. أخرج قطع الخُبّازَى المطبوخة في البخار الواحدة تلو الأخرى بواسطة شَابَاتِي من إحدى الصحاف بينما تسلل أُوبَانِيتشِي إلى قرية تلك الفتاة التي كان عليه أن يعقد عليها قرانه وهو ما زال فتى يختبئ وراء الأشجار ليسترق إليها نظرة خاطفة بقيت النّظرة الأخيرة حتى يوم الزواج، إلى اليوم الذي جلسا فيه قبالة بعضهما، محاطين بالكهنة والأقارب من كل جهة، حتى اللحظة التي أزيح فيها اللحاف الذي غطى رأسها وكتفيها. سألتْه: هل تملّكك يومها الفزع؟ يجب أن أعترف أنكِ أعجبتِني عن بعد. أمّا عن قرب، فقد طار قلبي ولم يهدأ أبداً منذ ذلك اليوم. دقّ الباب. الجيران جاؤوا ليعبّروا عن احترامهم وتقديرهم للرّجل العلاّمة من كشمير. مدحوا إتقانه للغُوجاراتيّة. إثر ذلك قاد أُوبَانِيتشِي تلميذه إلى أسفل، قدّمه إلى الحلاق وسأله إن كان ممكناً أن يبقى ضيفه عنده قليلاً لأنه هو يجب عليه أن يكتب رسالة مهمّة لا تحتمل الانتظار. اعتذر الحلاق لبرتن قائلاً: كما ترى، المحل ضيّق. بقي برتن

جالساً لوقت طويل في أقصى وأظلم ركن من ذلك المكان الضيّق. لم يتحدث إلى الحلاق إلا القليل لأنّ الزبائن كانوا يفدون على الدكان بانتظام. انتهت حلاقة الزبائن كل مرة بدلك سريع للرأس وصفعات رفيقة على الخدّين. غرق برتن في غفوة إلى أن أخرجه منها صوت ضخم، صوت بدأ في الشتم. حاول الحلاق إيقاف ذلك الفيض من الكلام الصادر عن أحد الزبائن أو على الأقل تغيير وجهته، لكن دون جدوى.

ـ فيما مضى وجب علينا إطعام طفيليٍّ واحد فقط.

ـ ها.

ـ والآن انضمّ إليه الإفرنج.

ـ ها.

ـ الأنغريز طفيليات أكثر دهاءً من غيرها.

ـ ها.

ـ ليس بوسعنا إطعام ماهاردجا ثمّ ماهاردجا آخر في وقت واحد.

ـ ها.

تكلّم برتن من الزاوية الخلفية للدكان.

ـ أنت على حق تماماً.

ـ آرِي بَابْرِي! عندك ضيف؟

ـ رجل علاّمة من كشمير. حلّ ضيفاً على الغُورُوجِي.

ـ أنا متفق معك. هؤلاء الأنغريز يسطون علينا، يسرقوننا، يغْلَقون بنا كالطفيليّات وينتظرون منا أن نطعمهم إلى ما لا نهاية له.

ـ أنت تقول حقاً، أيها المسافر. أنتم رجال الكشمير لم تتعوّدوا على العبودية مثلنا. نعم، الأنغريز شأنهم شأن كلّ الطّفيليات. مهما عملنا

جاهدين ومهما حصلنا عليه من قوت فإننا، ما دمنا فريسة تلتهمها الطّفيليات، سنظل أبداً هزيلي البدن.

- وهو كذلك. لكن ماذا يمكننا أن نفعل أمام كلّ هذا؟

- علينا أن نقاوم.

- لكن كيف؟

- علينا أن نُألِّب كلّ الذين بحوزتهم سلاح على الأنغريز، كل القادرين على المقاومة. هل عرفتَ من أقصد؟

- تقصد السيبُوي.

- نعم. نحن نفكّر بنفس الطريقة. هذا ما لاحظت من أوّل وهلة. نحن أخَوان في الفكر. ما اسمك؟

- أُوبَانِيتشِي.

- واسمك الشخصي؟

- اسمي الشخصي، نعم، اسمي. . رمجي.

- يشرّفني أن أتعرّف عليك. اسمي هو سُورِيشْ سَافيري. تجدُني في سوق المجوهرات. جميل لو واصلنا حديثنا.

لمّا غادر برتن البناية كان الوقت متأخرا. مشى بضع خطوات فاعترضه مُنير طرقات الحيّ. كان يحمل سلّما على كتفه وصفيحة الزيت في يده. حيّاه برتن بحماس فردّ الرجل التحية بهدوء ثم أسند السلّم إلى أحد الأعمدة الخشبية وصعد إلى القمة المغطاة بالقطران.

١٩

ناوكرام

II أُومْ كشيبرايا نَمَهَا / سرفافيغنوباشنتايا نَمَهَا / أُومْ غانيشايا نَمَهَا II

ـ فكّرتُ في الأمر، بحثتُ عن شيء من شأنه أن يُبرز قيمتي حتى لأغبى الأغبياء من الأنغريز. كان برتن صاحب جاسوسا. ليس في بارودا وإنما بعد ذلك ، لما أقمنا في السّنْد. كان جاسوسا مهمّا، من أهمّ الجواسيس. نعم، كان على اتصال دائم بجنرال الأنغريز. كانت له محادثات طويلة معه. وهل تعرف ما الذي قاده إلى التّجسّس؟ كنت أنا السبب إلى حد كبير. أنا وغُورُوجِي جعلنا منه جاسوسا.

ـ ألا تخجل لصنيعك؟

ـ لم أعبّر عن قصدي كما يجب. نحن لم نحرّضه مباشرة على المخادعة، أوعزنا إليه فقط بأن يلبس ملابسنا، أن يتصرف كواحد منا. طلب غُورُوجِي منه هذا ذات مرّة فاستعار مني كُورْتَا.

ـ كانت بينكما حقاً ألفة.

ـ كان جِدّ مضطربا بعد زيارته لغُورُوجِي وزوجته. ارتبتُ في أمره لمّا رأيته يلبس الكورتا، وعندما وقف أمامي وهو متنكّر لم أتمالك عن الضّحك. كان سرواله مشطّا في الطول وبدا وكأنه فزّاعة. ومع هذا لم أنتبه إلى شيء هام. كنت أعرف أنّ الواقف أمامي هو برتن صاحب دون أن آخذ بعين الاعتبار كيف سيستقبله كل الذين لا علم لهم بتنكّره. دلك

وجهه، يديه ورجليه بشيء من زيت الحنّاء ثم ركب تُونْغا وذهب إلى المدينة. عاد إلى البيت بعد حلول الظلام. كان مضطربا. لم أره إلا نادراً على تلك الحال من الاضطراب. أراد أن يقصّ علي كل شيء، كيف أنّ الجميع ظنوا أنه كشميري، كيف أنه ارتاح كثيراً لذلك الدور، كيف جلس في الركن، كيف استمع إلى الأحاديث ثم كيف نسي فجأة أنه غريب. تكلّم باستمرار فتبيّن لي أني حكمت غلطاً على تنكره. كان عليه فقط أن يقدّم نفسه كشخص من الهِيمَالايَا وفعلا اتّخذ لنفسه مظهر رجل من هناك. حتى نطقه كان مقبولا. لنقل إنّه لم يكن كلّه اعوجاج بل كان فيه ما يكفي من العيوب ليظهر أنه غريب.

ـ هل سمعتَ مرة كشميرياً يتكلم الغُوجاراتيّة؟

ـ لا.

ـ إذن ما الذي جعلك تعرف أن نطقه كان يتماشى ولباسه المستعار؟

ـ كان له الرنين الذي تصورتُ. وبعد أيام عبرنا مع بعضنا السوق فطلب مني أن أتصرّف كالسيّد على أن يقوم هو بدور الخادم. لقد شدّد عليّ قبل خروجنا بألاّ أوليه أيّ احترام، أن يبدو تصرّفنا طبيعيّاً وجديراً بالتصديق. أصرّ على أن يكون هو من يحمل المشتريات. لم أقل شيئاً وشاركته اللعبة، لكن كل هذا لم يكفِه. همس في أذني بالإنجليزية وطلب مني أن أزجره بصوت عال حتى يسمع الناس كل شيء. أخذت في أوّل الأمر ألومه على كسله في شيء من التردّد ثم بدأت اللعبة تستهويني شيئاً فشيئاً فأنّبته من أجل خداعه بشيء من المبالغة هذه المرّة. بينما كنّا كذلك نادانا رجل كان واقفاً أمام دكّان لبيع المجوهرات. كان هذا الرجل، على ما يبدو، يعرف برتن إذ وجّه إليه الكلام مناديا إياه: أُوبَانِيتشِي. بدا واضحاً أن الرجل استاء كثيراً لاكتشافه أن برتن صاحب كان خادما. قال متذمرا:

وا أسفاه، لقد وصلت بنا الحال في بْهَارَات أجدادِنا إلى درجة أن المتعلمين بيننا صاروا يُجبرون على بيع أنفسهم للخونة ويأتمرون بأوامر الفارّين إلى العدوّ. ثم التفت إليّ وكأنه أراد أن يسحقني بنظرة.

ـ غريب حقاً.

ـ بالنسبة إليّ كان الموقف يبعث على الضحك. على الأقل فيما تلا ذلك. غضب برتن صاحب مني رغم أني نفّذت تماماً جميع طلباته. لم يكن في حسبانه لقاء ذلك الرجل والآن أصبح مستحيلاً بالنسبة إليه ملاقاته مرة أخرى لأنه فقد احترامه له. وأنى له أن يشرح للرجل الأسباب التي جعلته، بوصفه كشميريّاً فخوراً بانتمائه، يدخل في خدمة تاجر من غُوجَارَات. رغم ذلك شكّل الإخفاق جزءاً من النجاح، إذ منذ ذلك اليوم صار برتن صاحب مشغوفاً بفكرة التنكّر. طلب مني أن أحضر خيّاطاً ليأخذ مقاسه ويخيط له مجموعة من الثياب، للاستعمال اليومي كما للمناسبات الخاصة. في البيت كان يرتدي كورتا بسيطة لا ينزعها إلا عندما تبلى أو تتمزق. كان يحرّم عليّ غسلها ويقول: كل طبقة اجتماعية لها ثوبها الخاص. اتخذ من نظريته هذه دعابة ليتسكع أمام نادي الكتيبة وللتسوّل عند دخول الضباط الآخرين إليه وخروجهم منه. فإذا نهروه رفع صوته الغاضب إلى السماء واشتكى في لغة انجليزية قحّة من قسوة بني وطنه.

ـ ماذا كان يأمل من وراء كل هذه المهازل؟ هل كان هذا مجرّد لعبة؟

ـ كان لعبة، بالتأكيد. لكن أكثر من هذا أيضاً. ظنّ في بادئ الأمر أنّ مزاحه سوف يخلّصه من رتابة عمله، لكن بعد وقت قصير أدرك الفائدة التي يمكن أن تحصل له من خلال نزهاته. أتذكّر أنه قال لي مرة إنّ المقيم العام يصرف شهرياً مئات الروبيات على التقارير السرية التي تُطلعه على ما يجري في بلاط الماهاردجا. وأنه هو شخصياً يستطيع، خلال ليلة واحدة

يقضيها في المدينة، أن يجمع معلومات بقيمة خمسين روبية. ثم أردف: يا للخسارة، المقيم العام ما هو إلاّ مغفّل وليس أهلا لمثل كلّ هذه المؤازرة. رأى برتن صاحب في دوره الجديد إمكانية للارتقاء السريع فحسب.

ـ ولعٌ مُربح.

ـ أنت على حقّ. تزايد ولعه بالموضوع وسرعان ما تبادر إلى ذهنه أنه أصبح قادراً على التفكير، على النظر إلى الأمور والإحساس كأيّ واحد منا نحن. أخذ شيئاً فشيئاً يظن أنه في الحقيقة لا يتنكر وإنما يتحول من شخص إلى آخر، كذلك كان يأخذ مسألة التحول هذه مأخذ الجدّ. زاد يوم عمله طولا وصار يتمرن ساعات على جلسة القرفصاء، إلى حدّ عدول رجليه عن أيّة حركة ولجوئنا إلى رفعه من مكانه وحمله إلى فراشه. كان يريد أن يبقى جالساً أطول وقت ممكن ليبدو أكثر هيبة ووقارا. وإذا صادف أن لم يكن بصدد التعلّم مع غُورُوجِي فإنه كان يطلب مني أن أعلّمه شيئاً.

ـ ماذا كان بإمكانك أن تعلّمه؟

ـ أشياء مختلفة. جزئيات صغيرة ما كنت لأفكر فيها بتاتا. كيف يكون تقليم الأظافر، كيف نتحدث عن أمهاتنا، كيف يجب تحريك الرأس، كيف يكون الجلوس على العقب، كيف يتمّ التعبير عن التحمّس لشيء ما. كان يأمرني بالجلوس إليه وأن أُريه شيئاً ما أو أعلّمه نطق كلمة. لكني رفضت كل مرّة. اكتبْ كلّ هذا! حتى الألفة لها حدودها. رفضت كذلك باستمرار دعوته لي لتناول الطعام معه على المائدة. لو كنت قبلتُ لرأى الخدم الآخرون في عملي تصرفاً غير مقبول. وبعكس ما كان يعتقد برتن صاحب، كنت لا أقرّ بمبدأ أنّ المرء باستطاعته أن يلعب في الحياة دوراً آخر غير دوره الأصلي.

٢٠
مستأسر القلوب

قبل أن يصيبها المرض المفاجئ بأيام أخذ يدها وحاول أن يعبّر لها عن محبّته في كلمات لم تفصح عن المعنى الحقيقي لهذه المحبّة. كانت مصيبة حقّاً. قاطعت كلامه وأراحته بقبلة طبعتها على قفاه. جرّدته من ثيابه، وخلافاً للنسق المتريث الذي علّمته، أمسكت بذكره وأولجته داخلها في عجلة تكاد تفتقر إلى الحياء. كان على وشك أن يعبّر عن حبه بأكثر صراحة لمّا أمسكت عن الحراك، وضعت يديها على صدره ثم بدأت بالكلام وهي جاثمة فوقه بينما خفق هو من فرط إعجابه برجولته، تكلّمت في جمل كاملة وبنبرة معهودة كانت في الظاهر تسرُد سرداً عادياً لكنّها، في الحقيقة، استقطبت كل انتباهه. كان عليه أن يخفّف من وقع هزّاته ليتمكّن من تتبع كلماتها التي كانت تصف رجلاً وقع في غرام مجهولة، أصبحت بالنسبة إليه أهم من كل شيء آخر على وجه الأرض. كان يقتفي أثرها كلما غادرت بيتها، صار عبدا لهواها، لا يتركها لحظة ولا يتصور لنفسه حياة بدونها بعد أن سكنت في كل زاوية من أفكاره. وذات يوم حمل نفسه على ما تكره، استحضر كل ما لديه من شجاعة وبادرها بالكلام في الطريق، عبر لها في اضطراب عن حبه، بصوت متغيّر، عن حبه الأبدي، بكلمات لا نهاية لها، إلى أن قاطعته. ابتسمت فقال في نفسه إن الليل قد ولّى ولن يعود، قالت له بصوت أجمل بكثير مما كان يتصور: كلماتك رائعة وأنا مسرورة لسماعها، إنها تشرفني لكنني لست أهلا لها لأنّ أختي

التي تسير ورائي لها من الجمال والجاذبية ما ليس لي. أنا متأكدة، إن أنت رأيتها فستفضّلها عليّ للتوّ. ما إن انتهت من كلامها حتى حوّل الرجل المتيّم في الغرام بصره عن محبوبته ليلقي مجرّد نظرة سريعة ومتفحّصة على الأخت التي سبق امتداحها. عندئذ أنزلت المحبوبة بالرّجُل ضربة قويّة على الرأس قائلة: كان ذلك إذن حبّك الأبدي! ما أن ذكرتُ وجود امرأة جميلة حتى صرفت نظرك عني لتسرق منها هي نظرة. أنت تجهل كل شيئ عن الحب.

كيف سمحت لنفسها بكلّ هذا؟ ما الذي جعلها تتحداه بتلك الصورة؟ أراد برتن أن ينفصل عنها، لكنّها عارضت بكلّ ما لجسمها من وطأة، بهذا الجسم الذي أطبق عليه، عارضت بخاصرتيها. طوقته وقاومت كل نيّة من نواياه إلى أن غاب عنه تماماً إن كان حقّاً ما زال غاضبا أم إنّ رغبته هاجت من جديد. حملته بأصابعها الطويلة والرّشيقة على الاستسلام، حاصر شهوته بغضبه فاستحال عليها الظهور كما استحال عليها الفتور، هيجان مؤلم ذلك الذي حرّك عواطفه فترجّى الخلاص. صاح. حصل كل هذا أياما قليلة قبل أن يصيبها مرض عضال.

٢١

ناوكرام

II أُومْ مانومايا نَمَهَا / سرفافيغنوباشنتايا نَمَهَا / أُومْ غانيشايا نَمَهَا II

ـ ما إن أتمّ حذق الظّهور في هيئة كشميري حتى وجب عليه نسيان ما تعلّم. كان عليه أن يتقمّص شخصية جديدة كاد يظهر فيها على أحسن وجه لو لم يتذكر دوماً أنه كان فيما مضى براهمانيا من نَاْنديرَا. كانت هذه الجزئية الصعبة في كامل المهمّة التي أوْكل بها إلى نفسه. وجب عليه إذن أن يتعوّد من جديد، لأنّ الأنغريز احتلّوا بلداناً كثيرة ولأن تنكّرا واحداً ما كان ليغيّر شيئاً. جاءت التحوّلات كالفصول، بدت كمن طلب منّي مثلاً أن أعمل كخِلاصي في الربيع، ككِدْمُوتغَارْ في الصيف، كَبْهِيستْ في الخريف وكحَجَاومْ في الشتاء.

ـ لا أرى أنّ هذا مثير للإعجاب.

ـ إقامتنا في السّنْد كانت فيها بلبلة. غادرنا بُمباي على متن سفينة شراعية في اتجاه كاراتشي. كانت سفرة قصيرة إلى أرض مقفرة لم تدم إلاّ بضعة أيام.

منذ اليوم الأوّل الذي وطأت فيه قدماي تلك البلاد أدركتُ أني لا أنتمي إليها. بدا عليّ بوضوح أنني أجنبي وبقيتُ كذلك. بذلتُ قصارى جهدي لكي لا أنسى من أنا. أمّا برتن صاحب فقد ضاعف الرهان. أراد أن يرى فيه الناس مسلما. هل تستطيع أن تتصور شيئاً أصعب من هذا

وأفظع؟ كان عليه أن يحفظ الكثير عن ظهر قلب، قضّى يومه وهو يتمتم بينما لم أفهم أنا ولو كلمة واحدة من كلّ ما كان يقول. رغم هذا أجبرني على الاستماع إليه وهو ينطق بتلك الأصوات الخشنة. ليُصيبنّ النقرس كل الألسنة التي تعوجّ بتلك الطريقة. لم يكفِه كلّ هذا، كان لا بدّ أن يمشي واضعاً يده على خاصرته، أن يتحاشى التّصفير. نعم، هؤلاء المِبيًا الأغبياء يعتقدون أن الإفرنج يتحدثون مع الشيطان كلما صفروا. تعلّمَ بالمقابل الدندنة همساً. تعلّم المسح على لحيته بيده اليمنى والسكوت لمدة طويلة. تعلّم الإنصات إلى الصمت وهو يتكلّم، وهو ما صعب عليه أكثر من أيّ شيء آخر.

- بالتأكيد لم يتعلّم كلّ ما ذكرت بين عشية وضحاها.

- نعم، تطلّب الأمر وقتاً. مرت شهور قبل أن يتعلّم ربط العمامة. كان مذهلا. من جهة احتكم إلى الصّبر ومن جهة أخرى كان يجنّ جنونه كلّما لم يُنجز له شغلٌ في الأجل المطلوب. وبصبر خنقه الحنق تمكّن حتى من قهر أكبر تحدّ اعترض طريقه، أي ركوب الجمل. كانت محاولته الأولى مهانة، شيئاً - يجب أن أقرّ بهذا - رفّه عني كثيراً. ظنّ أن ركوب البعير شيء بسيط إذا حذق المرء ركوب الخيل. قفز على ظهر إحدى الدّواب دون أن تكون له معلومات حول طبيعتها. بدأ الجمل في الصراخ والرّغاء وردَّ عنه الرّاكبَ بكل قواه لأنه كان دابّة تنقل الأمتعة وغير متعوّدة على من يركبها. ما إن جلس برتن صاحب فوقه حتى أخذ الجمل يحاول المَسك به من حذائه. سلّ سيفه ووخزه في أنفه كل مرة أدار فيها رأسه. تمادى الأمر على هذه الوتيرة إلى أن انطلق الجمل راكضا دون سابق إعلام. قلت في نفسي: وأخيراً امتثلت الدابة إلى أوامره. لكني أخطأت التقدير لأن الجمل هرول تماماً في اتجاه أقرب شجرة، ركض مسرعاً

تحت مظلّة الأوراق التي امتلأت أشواكا ولو لم ينتبه برتن صاحب ولم يطأطئ رأسه لنالت منه الخدوش التي لحقت بوجهه ولخرجت عيناه من مكانهما. لما رأى الجمل أنّ الحيلة لم تُؤتِ أُكلها توقّف ولم يُبد حراكاً. لم تفلح محاولة واحدة من محاولات برتن صاحب في إخراج الدابة من وجومها. حاول كل شيء بغية إقناع الجمل، حرّضه على السير بالعقب، لهّبه بالسّوط وضرب جنبيه بسيفه، لكن دون جدوى. قرّر الجمل من تلقاء نفسه متى يحين موعد التحرّك، إذ، لمّا حلّ الوقت المناسب في أخر الأمر، بدا أداة طيّعة. انطلق راكضا برقبة متعالية، في الظاهر متصالحا مع راكبه وهادئاً، بينما ابتسم لي برتن صاحب معبّرا عن رضاه. لم تدم الابتسامة طويلاً لأن البعير حاد عن مساره الأصلي وأسرع رأسا في اتجاه المستنقع القريب. رأينا من بعيد كيف أن برتن صاحب شهر سيفه وكأنه فكّر في أمكانية قتل الدابة قبل أن تغرق في الوحل. لكن الأوان فات لأنّ الجمل انزلق بعدُ إلى داخل المستنقع، غرقت رجلاه، انثنى وهوى جانباً بينما ارتمى برتن صاحب من على متنه وسقط في الوحل. التحقنا به بخطى حثيثة ومددنا إليه عصاً طويلة تمكّن من التشبث بها والخروج من المستنقع. ليس من الصعب عليك أن تتصوّر على أيّة حال كان حقاً. كان علينا أن نكبت ضحكنا ولم نضحك بحرية إلا في المساء.

ـ يصعب عليّ أن أسلّم بروايتك. الركوب على جمل والمسح على اللحية لا يكفيان ليجعلا من شخص ما مسلما.

ـ لا أدري إن سبق لي أن ذكرتُ شيئاً آخر. في بارودا تعلّم من غُورُوجِي أشياء عن طقوسنا والسَّانْتَانُو دَارْمَا. وقبل مغادرتنا للمدينة بقليل اصطحبه حتى إلى حفل الشِيفَاآرَاتْرِي في أحد المعابد غير بعيد عن نهر النّرمادا. قال بعد ذلك إنه قضى كامل الليل في ترديد البْهاجانَات صحبة

براهمانيي النّاندِيرَا الآخرين، ثمّ سار وراء الإله عندما أُخرج هذا الأخير من المعبد على حمّالة. ما إن بلغنا السّنْد حتى نسي كل شيء عن شِيفاآرَاتْرِي ولاَكشْمِي ـ نَارَايَان. عكف على دراسة الاعتقاد بالخرافات لدى المخصيّين وكأنه انتظره طول حياته. لا أدري ما الذي استهواه في كل ما تعلّم. قال أوّلاً إنه لا يهتم بالأمر إلاّ محاولة منه فهم الأهالي أكثر. لكنه لم يوفّق في مخادعتي لأني لاحظت بنفسي شغفه وإخلاصه في التعامل مع الطقوس، لاحظت أيضاً أنّه كان يقضّي وقتاً طويلاً في حفظ أشياء يكاد لا يفهمها عن ظهر قلب. تبيّن لي عندئذ أنّه بدا له ممكناً استبدال المعتقد كما لو استبدل المرء عباءة بأخرى، كما لو تعلّق الأمر بتصرف ما أو بلباسه أو بلغته. لمّا اتضح لي كل هذا بجلاء فقدتُ جانباً من احترامي له.

ـ أنت تهتمّ كثيراً بصغائر الأمور. المعتقد يتأقلم بحسب المكان.

ـ ماذا تعني؟

ـ لماذا نجد مثلاً أنّ لمعتقدنا أشكالا عديدة ومختلفة؟ لأنّ ما يُنتظر من المعتقد في الغابة يختلف عما يمكن انتظاره منه في السهل أو في الصحراء. لأنّ التوابل على عين المكان تغيّر طعم كل الطعام.

٢٢

أكبر من شقيقه سنّا

نأكل رملا، نتنفّس رملا، نفكّر رملا. المنازل من رمل، السّقوف من رمل، الجدران من رمل، الحواجز من رمل، الأسس من صخر ومغطاة بالرمل. أدركتم تقريباً قصدي، نحن في السّنْد. لا تنشغلوا، نحن هنا بخير. هذه الوصفة تسمح لنا بالتمويه. لو يُكتب لنا أن نلتقي وسط الخلاء لظننتم أنكم تروني أُحفُوراً منتصبا في بذلة عسكرية له شبَه ما بابنكم إن شئتم. الأحافير تُعمّر طويلاً وصحّتي في تحسّن مطرد. كاراتشي بمينائها، المدينة التي وضعت عليها إمبراطوريتنا مؤخرا يدها المرصعة بالخواتم، لا تعدو أن تكون أهمّ من قرية كبيرة بها خمسة آلاف من السكان (من يدري، لربما لها أيضاً ضعف هذا العدد من السكان لأنها لا تسكنها أجسام يمكن تعدادها بل أشباح تنفصم حينا وتندمج في بعضها حينا آخر). كاراتشي - أنا أحبّ ذكر هذا الاسم لأنه يذكّر برنين لعنة نابوليتانية، أليس كذلك، أبتاه؟ - محاطة بأسوار بها ثقوب كالمناخير يمكِننا، في حال محاصرتنا، استعمالها كفوّهات لرشّ الماء الساخن. لكن من سيحاصرنا؟ وهل يمكن سمط الظلال؟ كل منزل يشبه قلعة صغيرة، وعجيب أنّ هذه القلاع تتداخل. لا وجود للطرقات وليس هناك غير أزقة ضيقة إلى أبعد الحدود. المكان الرحب الوحيد هو السوق، ساحة يرثى لها للبيع والشراء بدكاكينها الواهية والمغطاة بأسقف من سعف النخيل لا تصمد لا أمام المطر ولا أمام حرارة الشمس. غالباً ما تملأ الرائحة الكريهة الجو لأن قنوات تصريف

المياه هي من قبيل التمني. لكن لا تشغلوا بالكم، هناك دواء ضد الكوليرا والتيفوس، كذلك ضد مواضع الإصابة بالرصاص والجروح الناتجة عن طعن السيوف والخناجر وحتى ضد الغباوة والعناد. هذا الدّواء اسمه السعادة وعثرتُ عليه بعد. عندما يكون الطقس مواتيا يمنّ علينا البحر بنسيمه المنعش، وعند الجزر ترتفع مجموعة من كوم الوحل وسط حوض الميناء تنتصب فوقها السفن التي تصبر على هذا الفاصل بأسف بادٍ للعيان. الأرض هنا من طين، عنيدة كالبشر، لذا وجب علينا تثبيت أوتادنا بالدّق القوي. لم يتمّ نصب إلا القليل من الخيام، لكن القوى العمياء والمتلعثمة التي تتحكم في مشيئتنا لم تنس أن تخطط للمستقبل. ما من شك أن ميداناً لسباق الخيل يمكن اعتباره مفخرة بالنسبة إلينا جميعاً. كيف سيكون الحكم علينا في يوم من الأيام، عندما يلمع نجم نَابْيِي - بطل الخرافة الذي لا يلينُ - مثل نجم ألكسندر الأكبر؟ كيف ستذكُر الإنسانية حضارة تنشئ ميداناً لسباق الخيل حتّى قبل أن تفكّر في بناء كنيسة أو في مكتبة؟ هل نحن غربُ المسيح أم غربُ منظومة القَطعة النجمية؟

«السّنْد - الهند» هي التسمية التي كان التجار العرب يطلقونها على هذا الجزء من العالم. «السّنْد» كانت البلاد على هذا الجانب من نهر الهندوس، أما «الهند»، أي الهند الحقيقية، فكانت البلاد على ضفة النهر الأخرى. ذهبتُ إذن من الهند إلى السّنْد، ويا ليتني لم أذهب وقنعتُ بحرف الهاء، حرْفيَ الصّامت الأمين الذي برهن حقّاً عن جدارته. غُورًا، يا لها من جُحر تعيس، يا لها من مرتفع مقفر قوامه الصخر والطين، هي كدس من المخازن القذرة شيّدت من الطين وضفائر سعف النخيل. كلّ ما ينمو هنا ويترعرع هو حصاد ضئيل من الشوك والحسد قد يكفي مرّة كعلف للإبل التي تلتهم كل شيء. أختي العزيزة، صهري المحترم، لا أدري إن هذه هي جهنّم (رؤساؤنا لا يزوّدوننا بمثل هذه المعلومات التي يعتبرونها

سرّاً يحتفظون به لأنفسهم)، لكننا موجودون في بلد الضوء المنعكس الذي يبهر الأنظار، في بلد اللمعان الساطع الذي يمحو كل شيء، في بلد القيظ عندما يغلي حتى التيبّس، إلى أن ينسلخ أديم الأرض، إلى أن يتقشّر وينفلق ويتمزق ويرسل بُثوراً كتلك التي تولّدها الحمّى. من السّهل أن تتصوروا أنّي على أحسن ما يرام، أعيش مثل السمكة في الماء وجسمي يصرخ كلّ يوم مطالباً بتحديات أخرى. وأحياناً يكون الصراخ عالياً. جِيَفُ خمسين من الجمال ـ لا يا أختاه، أنا لم أعدّها، وتقديري هنا يعتمد فقط على حاسة الشمّ ـ تتعفّن منذ أيام قرب المخيم. لمّا مررت بها، مبتعدا عنها طبعاً قدر الإمكان، فاجأني ابن آوى ثم آخر. كانا بدينين ومثقلين، خارجين من غرفة مؤونتهما في بطن إحدى الجيف بعد أن استمتعا بطعامهما اللذيذ.

أخي العزيز، كن حريصاً على ألاّ تتمّ نقلتك أبداً إلى هذا المكان. نعم، هذه البلاد لا تصلح لغير الحروب، ورغم أنّي، لا محالة، أشتمّ رائحة النصر الذي سيكون حليفنا، فإنّ الحياة في أوقات السِّلم هنا مثيرة كالحياة في مقبرة طمرتها زوبعة رملية. نعم، هذه البلاد رملها أكثر من أيّ رمل قد يغْلق بشارب رجل اسكتلندي. ابقَ في لأنْكا الجميلة ـ هذا الاسم مذكّر أم مؤنث؟ أرأيت؟ حتى الأجناس صرت غير واثق منها. في صورة مجيئك إلى هنا على غير المنتظر، سأحدثك عن مواخير قريتنا الكبيرة. عددها ثلاثة، أليس هذا عظيما؟ ميدان لسباق الخيل وثلاثة مواخير. هل الإنجليزي في حاجة إلى أكثر من كلّ هذا؟ أحد هذه المواخير هو (كما يشتهي خادمي ناوكرام أن يقول) نسخة مطابقة لمحلاّت البغاء في بُمباي وبارودا، مكان متحضر نسبيا يقدّم عروضا راقصة مقبولة وكله أناس يحلو التحدث إليهم، طبعاً شريطة أن يكون المرء قادراً على تكلّم السّنْدية أو الفارسية. لغتي في تحسن مطّرد، وحتى لا أعرّض هذا التحسّن للخطر،

صرتُ من الروّاد المواظبين على المكان. في دار البغاء الثانية لا يرى المرء إلا القليل، وهو بدون شك شيء مقصود، بخار يتصاعد والزبائن يتمّ طلاؤهم بالطين في ألوان مختلفة بحيث يسهل على الرجال الاتصال ببعضهم دون أخذ الأصل والنسب بعين الاعتبار. طالما بقوا جالسين بلا حراك، يبدون كالممثّلين في تمثيلية إيمائية حيث تختفي الفوارق بينهم. يقال إنّ الطين صحّي، وإذا بقي المرء مطليّاً به ساعة أو ساعتين فإنه لا ينقّي الجسم فحسب بل يزيد أيضاً في الرغبة الجنسية. سأجرّبه في الأيام القادمة وأُعلمك بالنتيجة، عزيزي إدوارد. أمّا محل البغاء الثالث فسُمعته هي الأسوأ، ولا يذكرها الناس إلا في الخفاء. يدعى المحل لُوبَانَار، اسم كلاسيكي حقاً، ويعرض فيه غلمان ورجال شبّان أنفسهم على الزائرين. يقال إن المحل على ملك أمير محترم ولا يؤمّه عادة إلاّ أرستقراطيو المحافظة. في لغتنا العسكرية نسميه قاعة لعب النرد، وهذا الاسم يعجبني كثيراً لأنني، كما تعلم، أحبّ هذه اللعبة. لحدّ الآن لم أزر معبد الخطيئة هذا ولا أحس برغبة في الذهاب إليه، لكني أعتقد أن المرء يمكنه أن يرى هناك أشياء لا يراها في أماكن أخرى. بالمناسبة، وعلى ذكر دُور البغاء، لقد دخلتُ هنا في نقاش حادّ ـ هكذا نقضّي أمسياتنا هنا ـ حول مسألة هل إن أفضل الحظايا هنّ من الهندوسيات أم من المسلمات. قد لا تتصوّر حدّة النّقاش هنا، وكم هو رفيع المستوى. الحجّة الأقوى، حسب تقديري، هي التي تقول إن الهندوسيات هنّ أفضل الحظايا لأنّ ظاهرة البغاء المتفشّية داخل المعابد ليست غريبة عنهنّ وأنّ إسعاد الرجل لا يمثّل بالنّسبة إليهن سوى القيام بواجب فيه طاعة للآلهة. خِبرتك في هذا المجال من شأنها أن تثري النقاش، لذلك أترجاك أن تعلمنا بحكمك في هذا الموضوع.

٢٣
ناوكرام

II أُومْ سكندابورفايا نَمَهَا/ سرفافيغنوباشنتايا نَمَهَا/ أُومْ غانيشايا نَمَهَا II

ـ اليوم أنت معكّر المزاج أكثر من العادة.

ـ زوجتي تضايقني، لا تتركني أعمل على راحتي. في المساء أنا في حاجة إلى وقت كاف، عليّ أن أتفرّغ لمكتوبك، عليّ أن أفكر، أن أختار، أن أحذف، أن أعدّل. طلبك في حاجة إلى اهتمام من نوع خاص.

ـ هل يعني هذا أني السبب في خصامك مع زوجتك؟

ـ لنواصل. إذن أنت احتقرته لأنه تنكّر في زيّ مسلم. هل شعرت بالضّيق كلّما كنت معه؟

ـ لا، لم أكن أبداً حاضراً عندما كان يتنكّر ثم يغادر المنزل. كان أحياناً يتغيب لأسابيع.

ـ لم تكن حاضرا؟

ـ لا، بل فكّر قليلا! هل يتحمّل برتن صاحب كل هذا التعب من أجل تنكّر لا تشوبه شائبة ليجد نفسه فيما بعد برفقة خادم من الكفار؟ من غُوجارات؟ مستحيل. هؤلاء الناس لا يختلطون إلاّ بأمثالهم. بقيت في المخيم الذي كنت لا أعرف فيه أحداً. أقصد أني كنت أعرف طبعاً بعض الخدم الآخرين، لأني رأيتهم أو سمعت عنهم، لكني لم أكن مهتمّا كثيراً بملاقاتهم.

ـ والسيبُوي؟

ـ كانوا لا يريدون الاختلاط بنا ويظنون أنهم أفضل منا. هل يخطر لك مثلُ هذا على بال؟ هم أيضاً ليسوا أكثر من خدم، والخدمات التي يقدّمونها لأسيادهم هي أقذر ما يوجد على الإطلاق. النهب والقتل. ورغم هذا هم يعتبرون أنفسهم أفضل من الذين يدبّرون شؤون المنزل.

ـ وزملاؤه؟ ماذا كان رأيهم في تحوّلاته؟

ـ لا أدري. لم أرهم إلا نادراً. في الخيمة لم يكن بوسعنا استقبال الزوار. سمعت فقط أنهم في النادي بدؤوا يسخرون منه ويلقّبونه بالزّنجي الأبيض. كلّما لبس لباس الهمج المتوحشين اعتبروه متنكّرا لقومه.

ـ ما كان يقوم به كانت له بالتأكيد فائدة من الناحية العسكرية، كان مستطلعاً لحساب جيش الأنغريز، ما فعله لم يقم به في نهاية المطاف إلاّ لصالح الشركة الموقرة.

ـ رغم هذا اعتبروا تصرفه غير لائق. هناك أيضاً من قالوا إنّ اختلاطاً كبيراً بالأهالي من شأنه أن يضرّ بالصحّة. وهناك آخرون اعتبروا أنّ المعلومات التي كان يحصل عليها يمكن الاستغناء عنها. حامت حوله شبهات خطيرة وبشعة وكأنه صار شخصاً دأب على إدخال الأعشاب الطفيلية إلى حديقة مزروعة، محاطة بالعناية والرعاية ومقلّمة، والكلّ يعلم سرعة ومدى تكاثر الأعشاب الطفيلية وانتشارها.

ـ الأعشاب الطفيلية، نعم، إنها تصير خطيرة إذا تخطّت السّور الخارجي ولم يتمّ القضاء عليها. حسن، لكن إذا نظرنا إلى الأمر من الزاوية الأخرى فإنه يبعث فينا الأمل، أليس كذلك؟ على فكرة، لقد نسيت بالأمس شيئاً مهمّا، لا بدّ أن نتحدث عن الأجر. المبلغ الذي دفعتَ

كعربون صار طبعاً غير كاف بالمرة. لذلك أعتقد أنه بات من الضروري أن تدفع ثماني روبيات أخرى.

ـ لتكون الجملة ست عشرة روبية.

ـ وما الضرر في هذا؟ كم يوماً وأنا منشغل بشؤونك؟ لقد اكتمل نصف القمر بعدُ، وأنت تتذمر من أجل ستّ عشرة روبية.

٢٤
محارب شجاع

كل مرة صرف فيها برتن أو ناوكرام أو أيّ غريب آخر النظر إلى السّنْد لم يروا سوى صحراء لا ترتجى من ورائها فائدة. على عكس الجنرال الذي رأى فيه أرضاً خصبة وعرف أيضاً كيف يمكن جعلها مزدهرة بطريقة تفوق دقّتها دقّة الأحلام. يجب على الفلاحين أن يحققوا اكتفاءهم الذاتي، أما كبار الملاّك الذين اتّخذوا من الأراضي على ضفاف النهر والمستنقعات منطقة خاصّة بصيدهم فيجب انتزاع نهر الهندوس من تحت سيطرتهم. كذلك يحسن تنظيف المساقي المملوءة وحلاً ـ كان حلمه واضحاً إلى درجة أنه رأى الرّفوش تُحمل على أكتاف العملة ـ كما يحسن تجميع مياه النهر وإقامة أهوِسة إضافية حتى يتسنى الحصول على مساحات جديدة للزراعة بصفة عامة وزراعة الأرزّ بصفة خاصة عن طريق وسائل ريّ يتمّ البحث عنها في أماكن بعيدة. عُهد إلى نقيب يدعى والْتر سْكوتْ بمسح الأراضي قبل الشروع في عملية الحفر. كان حلم الجنرال يشمل حتى المعاليم التي قد يتمّ توظيفها. في إطار نظام مُجْدٍ وعادل قد يتمّ أيضاً تأجير الأراضي الزراعية لمدة أربع عشرة سنة تكون السنتان الأوليان منها معفاتين من الأداء. كان الجنرال في غاية الدقة، وهو الذي قدّم حُلما مفصلاً في نسخ عديدة. لكن مديري شركة الهند الشرقية البريطانية الموقرة تخوّفوا من أنّ عملية إعادة إحياء الزراعة بهذا الحجم ستكلفهم مصاريف باهظة، في أوقات لم تكن الحسابات فيها رابحة. لم يستفق الجنرال من

حلمه استفاقة حقيقية إلاّ بعد أن قرأ جوابا بالرفض لمشاريعه، وعندما نظر من خلال نافذته لم يرَ هو أيضاً إلاّ خلاءً شاسعاً مآله الضياع. تمّ تغيير وجهة المهمة، لم يعد ضرورياً تحسين البلاد بل اقتصر الأمر على مسحها.

كان سكّان هذا الخلاء لا يعرفون الجنرال إلا باسم شيطان ـ بْهَاي، وهو ما يعني تقريباً «أخ الشيطان». أمّا أناسه فكانوا يعرفونه باسمه المدني ـ شارل نَابْيِي ـ، رغم أنّ هذا الاسم كان لا يستعمل إلا نادراً. احتقر الجنرال كل الذين يعارضونه بصرف النظر عن كونهم مرؤوسين أو رؤساء. استمتع بشتّى أنواع الغزوات وتلذّذ وخز الضمير الذي تركته وراءها. كان لا يثق في أحد وينتظر من الجميع أن يجهدوا أنفسهم فوق طاقتهم، حتى ولو كان ما قاموا به يتمثّل في سلسلة من الأخطاء. لهذا بالغ مثلاً في تهويل دسائس الأمراء المحليين، وحتى يتّقي شرهم عمل على تطوير إستراتيجية زادت في انتشار سمعته السيئة: ردُّ العدوان حتى قبل أن يقرّر العدوّ القيام بهجوم. اعتبر هذه الإستراتيجية فنّا وبالتالي لم يقرأ لكلّ التضحيات التي يتطلبها كل فنّ حسابا. لقد حقق انتصارات باهرة في معركتي مِييَانِي وحيدرْأبَاد، انتصارات عظيمة حصلت في الواقع بفضل ذلك المدفعيّ الذي استعمل المدفع الوحيد لجيش تالْبُور وأطلق النار عمدا بعيداً عن رؤوس المهاجمين البريطانيين. أضف إلى ذلك خيانة آمر الخيّالة الذي سحب رجاله وشجّعهم على الفرار. فحتى اسم هذه المعركة يبعث على الريبة، إذ إنها دارت في الحقيقة قرب القرية التي تسمى دُوبَا والتي يعني اسمها تقريباً «جلد مشحّم»، ولذلك جاب ضابط مجروح كل أرجاء المنطقة على صهوة جواده بحثا عن تسمية رشيقة للمكان الذي أُحرز فوقه ذلك الانتصار العظيم.

اندسّت التسديدات المخصّصة للخيانة العظمى داخل الميزانيات، لكن من كان على علم بتسلسل الأمور سهُل عليه فكّ الرموز ومعرفة أنّ أموال المخابرات السرية تمّ بعدُ استثمارها بشكل جيّد. لكن حتى هذا الفن، شأنه شأن الفنون الأخرى، كان متشابكا مع تفاصيل أخرى لها علاقة بماهيته. كان الجنرال نَابْيِي يحتاج إلى معلومات على قدر كبير من الدقة حتى يستطيع استباق المستقبل دوماً. ولما كان من الرماة الكبار شرح إستراتيجيته مرّة لبرتن، عندما سأله هذا الأخير عنها. قال إنّها كمن يطلق النار من مسافة بعيدة، عندما يجب على الرّامي أن يقدّر أين سيكون الهدف المتحرّك بعد جزء صغير من الثانية، عليه أن يقدّر مدى الحركة مسبّقا ليتمكّن من التّصويب تصويباً موفقا. أما اليد، مهما كانت هادئة، فلا يجديها هدوؤها نفعاً إذا تعثّرت الرّصاصة قبل بلوغ الهدف بجذور شجرة سرْو كاذبة في اللحظة التي تخرج فيها الرصاصة من الماسورة. كان الجنرال نَابْيِي متحذلقا حتى في مقارناته. الرائد مَاكْ مُورْدُو كان المسؤول عن جلب المعلومات، وهو الذي كوّن شبكة من المخبرين والعملاء والجواسيس وروّع كل واحد منهم إلى أن صاروا يسمّونه في الخفاء Mac the Murder. نقّب الرائد عن الثروة التي أمِل الجنرال في جنْيِها فباحت الأرض البور بأسرارها من خلال إشارات، توضيحات وتقارير مبهمة عديدة ، نقلها طاقم كامل من المترجمين من لغة الرمال والغبار إلى لغة السياج النباتي والأرض المعشوشبة لأنّ المخبرين كلّهم، وبدون استثناء، كانوا من الأهالي. هكذا استطاع ماكْ مُورْدو إذن أن يقدّم للجنرال يومياً تقريراً مطوّلا. غير أنّ متشككاً مثل الجنرال لا يرى في قلب السماء صافية الزرقة إلاّ إنذارا بتلبّد السحب. كان لا يثق في السِّلم مثلما كان لا يثق في أي نظام لا عيب فيه ويعمل بانتظام. بدا ذا وسوسة قسرية شأنه في هذا شأن الذين يتناولون كميات كبيرة من البْهانْج. كان يحتاط ويصرّ دائماً على

أن تكون له طلقة نارية ثانية في الماسورة، تحسباً لفرضية ألاّ تصيب الطلقة الأولى العدوّ.

كان برتن إحدى تلك الطلقات النارية الاحتياطية وورقة رابحة أخرى في يده. كان عين الجنرال البصيرة فيما يسمى بالمحيط المسالم خارج المقاطعة. كان الجنرال واثقا من أنّ الهدوء مخادع والتزم برتن بأن يفتح شخصياً عينيه وأذنيه خدمة لنَابِيِي. لمّا عاد من أوّل جولة تنصّتية له قدّم للجنرال تقريراً شفوياً غير عادي مما جعل هذا الأخير يعتبره تأكيداً لقراره الصائب والمتمثل في تكليف هذا الرجل الشاب ذي المعارف اللغوية المذهلة والطبيعة صعبة المراس بعملية الاستطلاع. ريتشارد فرانسيس برتن الذي كان أبوه أيضاً ضابطاً وجدّاه الاثنان قسّيسين. هذا الرجل الذي جاء جزء من عائلته من أيرلندا، جزئيّة لا تتماشى أبداً وسُمرة جلدته. لربما كانت الإشاعة صادقة، تلك التي تتحدث عن اندساس غجرية في شجرة نسبه. برتن هذا كان على قدر كبير من الاستقلالية الفكرية، وهو لعمري ما لم يساعده أبداً على الارتقاء في سلّم الرّتب العسكرية. كان من فصيلة الجنود الذين تحسُن ترقيتهم فوراً إلى رتبة جنرال أو فصلهم للتوّ عن الخدمة العسكرية. قدّم تقريره شفويا وباندفاع الممثل صاحب الدور الرئيسي الذي يسرد أهمّ مونولوج في قطعة درامية بلهجة خطابية. قال إن القانون البريطاني تمّ فعلا اعتماده بصفة شكلية وعلى نطاق واسع، لكن التطبيق ما زال يرزح تحت وطأة الشهقات المتتالية. ثم زاد قائلاً إنّ الجنرال أمضى بنفسه في الأيام الأخيرة على بعض الأحكام بالإعدام على مجرمين تمت إدانتهم لأوّل مرة بصفة قانونية وأنه أُعلم أيضاً بتاريخ تنفيذ الأحكام. رغم هذا ما زال المحكوم عليهم أحياء يرزقون. تسمّر الجنرال في مكانه ونظر إلى برتن من خلال نظاراته المعدنية بأنف عُقاب وعيني صقر، هذا الجنرال الذي كان لا يستطيع البقاء جالساً أمام مكتبه وتعوّد

على سماع التقارير وهو يتفقد جنوده، يمتطي صهوة جواده، يتمرّن على المبارزة أو يتنقّل عارجاً من مبنى إلى آخر. هل تريدون نشر الفوضى؟ لا، أبداً. المحكوم عليهم، سِيرْ، كانوا رجالاً أثرياء. جاؤوا بمن أخذ مكانهم في المشنقة. حضرة الرّجل الشاب، أنتم تريدون أن تتحدّوني! لا، سِيرْ، أبداً، لكن أودّ أن أنبهكم إلى أن الإنسان يفكّر في كل شيء ليبقى على قيد الحياة. هذه العملية عندها اسم: بَاذْلِي. من يقبل بأن يُشنق مكان شخص آخر؟ لا أدري، سِيرْ. إذن ما عليكم إلا أن تستجلوا الأمر، وفي أقرب وقت ممكن. انتظر برتن موعد عملية الإعدام الموالية، وقبل أن تغرق الفتحةُ تحت رجلي المعني بالأمر تقدّم وقال: مهلاً، لديّ من الشّكوك ما يكفي لأقول إنّ هذا الرّجل ليس نفس الشخص الذي حُكم عليه بالإعدام. حقّا؟ كان هذا ما سمعه من أولئك الذين تجمهروا حول المشنقة متظاهرين بالدهشة فأجابهم برتن: أنتم على علم تام بما يجري هنا. أريد أن أتحدث أوّلاً إلى هذا الأبله قبل أن يُسمح له بالعودة إلى منزله مطمئنا. هل فهمتم؟ انهال الرجل الذي نجا من حبل المشنقة بأعجوبة على برتن سبّا وشتما. صاح فيه: بتر الله أنفك، يا آكل لحم الخنزير! لم يرتح إلى كون برتن أنقذ حياته ولم يجب، لمّا سأله هذا الأخير عمّا جعله يقبل بمثل تلك الصفقة، إلا بعد برهة، عندما هدأ روعه وتراضى مع فكرة أن يعيش حياة أطول. قال بصوت هادئ: كنت طول حياتي فقيراً، فقيراً إلى درجة أني لم أكن أدري متى سأتناول ما يسدّ الرّمق في المرة المقبلة. كانت معدتي خاوية باستمرار وزوجتي وأبنائي يموتون جوعاً. هذا هو نصيبي، لكني ضقت ذرعاً بقدَر كهذا. حصلتُ على مائتين وخمسين روبية، ملأتُ بطني بجزء من هذا المبلغ وتركت الباقي لعائلتي. سوف لن يعرفوا الفاقة لمدة أخرى، وهل لي أن أحقق أفضل من هذا على وجه البسيطة؟ رفع برتن مرة أخرى تقريراً في كل هذا فبدا حاجبا الجنرال وكأنهما خيطَا قنّب.

ـ كيف نستطيع وضع حدّ لهذه الحالة السيئة؟

ـ لمَ لا نقضي على الفقر؟

ـ لو كنتُ في حاجة إلى طرافة لبحثتُ عنها عند لُوقيان. هل فهمتم أيّها الجندي؟

ـ هل Alethe Dihegemate هي أحبّ إليكم، أم أنتم تفضّلون التّعمق في Nekrikoi Dialogoi ؟

ـ إنّ رجلاً له مثل موهبتكم عادة ما تكون أبواب الدنيا مفتوحة أمامه. لكن بحكم جسارتكم، يا برتن، أخاف أن تصطدموا بعديد الأبواب. هل لديكم اقتراحات أخرى تتعلق بموضوعنا؟

ـ ليس في الوقت الراهن، سِيرْ. أرجو أن تسمحوا لي بأن أعيد للرّجل تلك النقود التي دفعها مقابل حصوله على وجبة الوداع.

ـ هل لم يتمّ في الأثناء إعدام الجاني؟

ـ بلى، وعائلته هي الآن بصدد استرجاع المبلغ الذي دفعه. لقد أرجع الرّجل الذي رفض أن تُنقذ حياته المبلغ المتبقّي إلى أصحابه، أما النقود التي أنفقها قبل أن يصعد إلى حبل المشنقة..

ـ كم؟

ـ عشر روبيات.

ـ وليمة!

ـ مرّة في حياته جاد بشيء على نفسه.

ـ على حساب الدولة، حسب ما نرى. أرجو أن تحرصوا على ألاّ يطّلع العموم على الوضع السّيئ الذي صارت عليه البَاكْس بْريتَانيكَا.

ـ نعم، سِيرْ.

٢٥

ناوكرام

II أُومْ فيراغَاناباتاي نَمَهَا/ سرفافيغنوباشنتايا نَمَهَا/ أُومْ غانيشايا نَمَهَا II

ـ تغيّرت حياة برتن صاحب في السّنْد. وحياتي أنا أيضاً. تغيّرت حياته هو من حسن إلى أحسن وتحوّلت حياتي أنا من سيّئ إلى أسوأ. مع هذا فهو لم يشغل منصبا أرقى ولم يحصل على مرتّب أعلى. منزلنا كان خيمة. بينما كان لدينا في بارودا اثنا عشر خادما لم يبق لنا في السّند غير خادمين اثنين. ظاهرياً لم يبدُ عليه أن منصبه صار أهمّ من ذي قبل. السّنْد كان يحكمه جنرال يخشاه الجميع، حتى الذين لم يلتقوه أبداً. أمر بإحضار برتن الذي طُلب منه أن يترجم. أُعجب به الجنرال أثناء ذلك اللقاء، شيءٌ كان في الحسبان. كان برتن صاحب رجلاً يفوق كلّ الأنغريز الآخرين قيمة، وهي لعمري حقيقة لم تخفَ على الجنرال. ناداه مرّة أخرى ليجري معه مقابلة على انفراد. ليس لي علم بفحوى ما دار بينهما من حديث، لكنني على علم بالصعوبات التي جدّت فيما بعد.

ـ نتيجة لتلك المحادثة؟

ـ نعم. حصلت لنا مشاكل كبيرة. لم أكن على علم بنوع المهمة التي كَلف بها الجنرال برتن صاحب. حتى رؤساؤه المباشرون وزملاؤه لم يتمّ إعلامهم.

ـ ألم يفصح لك بشيء؟

ـ طُلب منه استكشاف شيء ما، هذا ما قال لي، وهذا يعني أنه كان

عليه أن يختلط بالمِيِيًا ويندسّ بينهم. بدا مسروراً لقيامه بهذه المهمة. لما عاد إلى المنزل ـ أسمّي خيمتنا المغبرّة منزلا رغم أنّ هذا لا ينطبق عليها ـ بدا منشرحاً كما لم أتعود عليه منذ مدة طويلة. أعلن بكثير من التكلّف: سوف نقوم بجولاتنا داخل البلاد، ناوكرام، الإمبراطورية أدركت أخيراً القيمة الحقيقية لمواهبنا. كان يومها سعيداً، وما كنت أظنّه قادراً على عيش مثل هذا الشعور. كانت حاله على أحسن ما يرام، ولا أفهم لماذا وصل به الأمر فيما بعد إلى تلك النهاية البشعة. لم يكن لمهمّته الجديدة تأثير على عملي اليومي. كنت منشغلا بسدّ الطريق أمام الصحراء ومنعها من الدخول إلى الخيمة، لكنّها اهتدت دوماً إلى منفذ مكّنها من التسلل أمامي. أمّا برتن صاحب فكان يغادر البيت أكثر فأكثر، متنكّرا وإلى مكان ما. لم يقل لي ولو مرة واحدة إلى أين كان يذهب. تغيّب في أوّل الأمر كامل اليوم ثم قال إنّ الأحاديث الصريحة لا تُجرى إلا ليلاً، لذلك تغيّب بضعة أيام وفي آخر الأمر لم أره أحياناً لمدّة أسابيع. لم أستطع، طوال الوقت، أن أرتاح إلى فكرة أنه صار تحت رحمة أولئك المختونين المتوحّشين. لأوّل مرة، منذ أن دخلت في خدمته، وجدتُني عاجزاً على مساعدته والوقوف إلى جانبه. تحيّرتُ من أجله، تساءلتُ: أيّ طعام تناول وأين نام؟ ما كنت لأعلم شيئاً، زد على هذا أنه كان يخرج بدون أمتعة. كان يختفي وأبقى أنا ومشاغلي إلى أن يعود منهكا من قلّة النوم. لكن البهجة كانت كل مرة تعلو محيّاه وكنت أحسّ بالانفعال يغمره. حدّثني بعد عودته من استكشافاته قليلاً عمّا لاقاه أثناء غيابه، عن عادات غريبة وجب عليه التّعامل معها، عن احتفالات عظيمة في الأضرحة، عن صغائر من هذا القبيل أدهشتني. طبعاً لم تكن تلك الصغائر هي المعلومات الحقيقية التي طُلب منه التجسّس في شأنها.

ـ لقد أخفى عنك المهمّ.

ـ كان محجّرا عليه أن يقول لأحد شيئاً، حتى لي أنا.

٢٦
هذا الذي يعلّم التّلاميذ المهارة

النقيب والْتر سْكوتْ ـ نعم، هو من أقرباء الشاعر المعروف، لا بل هو خلف مباشر له ـ دكّ أُرفة في الأرض، أشرطةً حمراء وبيضاء لاءمت الصحراء كما يلائم الزيّ السجين. كانت التربة عبارة عن جلدة صلَبها ثم بدّدها النقرس فوق أرضية من الطين الأسود. قال: ستتعلم بسرعة. الأمر يشبه في سهولته قراءة الحظ من خلال بسط أوراق اللعب، ونحن لا نقوم بشيء آخر سوى ربط المجهول بالمعهود. نحاصر الطبيعة ثم نقبض عليها كما نفعل مع فرس غير مروّض، لكن بوسائل تقنية. نحن الطليعة الثانية لعملية التملّك. يتمّ الاحتلال أوّلاً ثم يأتي دور أشغال المسح. تأثير ما نقوم به مكانُه الورق المسطّرُ والمقسّم إلى مربّعاتٍ. أنت مغتمّ لأنك لحدّ الساعة لم تشاهد نزالا على الميدان. ليس لانشغالك مبرّر. المسح الخرائطي الذي نقوم به له أهميته القصوى من الناحية العسكرية. البوصلة ومقياس الزوايا وميزان المستوى هي أفضل ما لدينا من سلاح، لأنّ كل من يقع في أسر نظام تحديد الإحداثيات والمحاور الذي نرميه كالشبكة يمكن اعتباره قد خسر المواجهة وصار أداة طيّعة في يديْ العالم المتحضر. أغمضْ عينا واجعل من الثانية عينا ثاقبة النظر إلى أقصى حدّ. لتكون مهندسا مسّاحا أنت في حاجة إلى خاصّية واحدة فقط: عليك أن تكون دقيقاً، في أقصى حدود الدقة. نحن المشتغلون بقيس الأراضي أناس دقيقون للغاية. عوّد نفسك إذن على شيء من الحذلقة. القاعدة بسيطة إلى

حدّ كبير. نقاط التمركز الراسخة توجد داخل مثلث. نتقدم رويداً رويداً، من مثلث إلى آخر ومن مضلّع إلى آخر ولا نستطيع أن نمسح أكثر من كيلومتر واحد في اليوم. لذلك نحن نعسكر لمدة أسابيع في مكان واحد ونتقدم بمثلثاتنا في جميع الاتجاهات. علينا أن نقيس شيئين: طول المسافة ودرجة الارتفاع. طبعاً نقيس كذلك الزاوية بين مكان الارتكاز وارتفاع ما. وكيف يكون تعريف الزاوية، يا دِكّ؟ كمسافة فاصلة بين الأرثوذوكسية والزندقة؟ إن شئت كفارق بين اتجاهين. إذن كنتُ تقريباً على صواب؟ هل تعلم، يا دِكّ، ما يعني هذا في الحسابيات، أن يكون المرء «تقريبا» على صواب؟ لماذا أجد صعوبة في أن أتصوّرك مهندسا مسّاحا؟

بالتأكيد سوف لن يرتقي برتن في السلّم المهني لمجرد مسكه أُرفة، وشكوتي محقّ في هذا الخصوص. لقد تمّ إلحاقه بهذه الوحدة لأنه كان لا بد من إلحاقه بوحدة ما ولأنّ انطلاقه إلى غاراته من معسكر بعيد عن المناطق الآهلة يكون أيسر بكثير. يستطيع أن يفيد من خلال وقوفه وراء مقياس المستوى. يُغمض عينيه في ساعة من النّهار تغُور فيها الأفكار. كيف يمكن تحديد مكان نقطة ما بالتدقيق، إذا كان كلّ شيء يَمضُ. يفتح عينيه فيبصر درويشاً ماراً في خط أفقي. رداء أسود وطاقية مرقعة. أنا الذي يطير من تلقاء نفسه. العينان غارقتان في حوض من الكحل واليدان تزيّنهما خواتم ضخمة. يغمض برتن عينيه، يفتحهما من جديد وإذا بالدرويش يلبس الأخضر وبالسلاسل حول رقبته تتحوّل من الفضة والصفيح إلى أخرى مبطنة بالقماش ومرصعة بالأحجار الكريمة. أنا الذي يطير من تلقاء نفسه. شعره ولحيته مصبوغان بلون برتقالي داكن كالحنّاء. يغمض برتن عينيه من جديد ويتركهما مغمضتين لفترة أطول. يستحضر حروف جميع الأبجديات التي يعرفها ثمّ يفتح عينيه. يسأل رفاقه مناديا عكس اتجاه الريح: هل رأيتموه؟ فيردّون عليه: ما هو بيان القيمة الذي رصدتَ؟

لم يظهر الدرويش مرة واحدة فحسب. كلما اقتربوا بمثلثاتهم من القرية الموالية إلاّ ومرّ هو أكثر من مرّة أمام نظرات برتن المتفحصة، تاركا بينه وبينها مسافة أمان. كان هذا الدرويش يتخذ لنفسه كل مرة شكلا آخر ولا يبرز في مظهر ظهر فيه من قبل. غريب أن يكون الآخرون لم يروه. ذات مرة، عندما قارب يوم العمل نهايته، قرر برتن أن يقتفي أثره. تبعه حتى وصلا مسجدا بجانبه ضريح أحاط به سور وصعب الدخول إليه. جمهرة من الناس وهياج كبير. سمع لحنا أثّر فيه فدخل، لحنا حرّك فيه جوارحه وسرى إلى خفايا روحه. كان هذا التلامس إشراقة، لقد أشرق المكان أمامه، أمّا هو فقد غمره النور. كانت المناسبة احتفالية وكان قبر الوليّ محطَّ شوق لا يضاهيه شوق. استقبله الازدحام بحفاوة وكأنه ازدحام أمام باب الجنة. لم يصل إلى الضريح المكسوّ بقماش أخضر مطرّزٍ. تلهّى بأشياء أخرى. قبالة البوابة الصغيرة التي دخل منها الزّوار منحنين جلس بعض الرجال على الأرض. كانوا ينشدون اللحن الذي أثّر فيه وكان له صدى إفصاح عن حبّ تجاه كل ما هو حيّ. لم يكن صوت المنشد صوتا عاديا، أضفى بعلوّه النافذ على جدّية الموقف طابعاً فيه شيء من الحدّة وحتى الاستخفاف. كان صوتا متصاعد الوتيرة يزجّ بالنشيد في دوران يحتدّ نسقه شيئاً فشيئاً. فجأة نظر الدرويش في عينيه مباشرة. الآن تَواصل الدوران داخله. قالت العينان: اجلسْ، ابقَ معنا قليلاً. كلنا ضيوف. كلنا رحالة. لتكن واحداً منا. وأرسل النشيد نوراً إضافياً في حلكة الليل وعلى الجموع التي شقّت طريقها بعناء.

٢٧

ناوكرام

II أُومْ سرفاسيدهآنتايا نَمَهَا/ سرفافيغنوباشنتايا نَمَهَا/ أُومْ غانيشايا نَمَهَا II

ـ ألم يخزْك ضميرك وأنت تساعد إفرنجيا على التجسّس على بني جنسك؟

ـ بنو جنسي؟ لم يتعلّق الأمر ببني جنسي، ألم تستمع إلى ما قلت؟ أغلب السكان هناك مختونون.

ـ رغم هذا هم أقرب إليك من الأنغريز.

ـ كل شخص هو أقرب إليّ من أيّ من المِييًّا. هل تدري كم كوابيس عشتُ هناك؟ كنت حقاً خائفاً من احتمال أن تقطع رقبة برتن صاحب في إحدى الأزقة. كنت خائفاً من أن يتحوّل وطننا غُوجارات إلى ما أصبح عليه السّنْد. في حُلمي لم يبق منّا إلاّ القليل. كانت ‌بارودا حزينة. كان حلمي خالياً من الألحان والأناشيد والنواقيس والآرْتِي. النساء سرن في الطرقات وقد لبسن السواد وكأنهن ذاهبات إلى جنائزهن الخاصة. طوّقنا الرّجال ونحن محتشمون وخجلون، كانوا فقط يبحثون عن سبب لسل خناجرهم من أغمادها.

ـ الكوابيس هي صنيعة رأسك أنت وليس سببها جيرانك.

ـ لا يمكن أن نكون جيراناً لهم. سيحاولون طردنا من هنا بكل

الوسائل مثلما فعلوا في السّنْد. لو لم يأت الأنغريز، من يدري، لما استطعنا العيش تحت سيطرتهم.

ـ أنت تهذي حتى في اليقظة.

ـ علينا أن ندافع على أنفسنا هنا، قبل أن يتحوّل وطننا غُوجارات إلى سند آخر.

ـ وماذا عن تقارير التجسس التي قدّمها سيّدك؟

ـ قدّمها للجنرال. على انفراد. أظن أنّ كلاهما أُعجب بالآخر، أعني الجنرال وبرتن صاحب. ورغم هذا كانت لهما نقاط خلاف. كان الجنرال ينتظر من كل جندي أن يتقبل الأوامر ثم ينفذها، ألا يعبّر عن رأيه الخاص إلاّ إذا طُلب منه. أمّا برتن صاحب فلم يكن أبداً في حاجة إلى ترخيص لإبداء رأيه. خالف الجنرال في الرأي كلّما رأى ضرورة في الأمر، الشيء الذي تكرّر بانتظام. كان يرى أنّ الجنرال يريد أن يغيّر في السّنْد أكثر ممّا هو ضروري وبسرعة كبيرة. كانت نظرته إلى العدل نظرة متحجّرة وكان دائماً يسوق مثالا محبّبا إليه: الإسراع بالتغييرات هو امتهان لكرامة الأهالي. كان يحلو لبرتن أن يقول: العدل هو ذوق ينشأ عليه المرء منذ الصّغر. كم قضّينا نحن من وقت قبل أن نتعود على تناول ثريد الخرطال في الصباح، وكم يلزمنا من وقت لو أُجبرنا على تغيير عادات أكلنا واقتصرنا على تناول كبد الماعز المقلي؟ أمر الجنرال مرّة بشنق رجل لأنه طعن زوجته بسكين لمّا اكتشف أنها كانت تخونه. المشكلة تمثّلت في أنّ الرّجل تصرّف حسب ما كان منتظراً منه كرجل. الأوغاد هناك يقطّعون نساءهم قِطعاً. لو ترك زوجته على قيد الحياة لجلب على نفسه وحتى على أولاده العار. العار الذي لا يطاق ولا يمكن تصوّره. لو لم يقتل زوجته لتحوّلوا جميعاً إلى منبوذين وإلى مصبّ لكل ألوان السخرية ولابتعد عنهم

أصدقاؤهم. أراد الجنرال أن يضع حدّاً لمثل هذه التصرّفات مؤكدا على أنّ الأزمنة تغيرت. عبّر برتن عن غضبه إزاء عناد الجنرال، لا لأنه كان موافقا على تصرّف الرّجل وإنما لإدراكه للتوّ أنّ حكما كذلك الحكم سوف لن يلقى قبولا لدى الأهالي. توقّع حدوث مشاكل وكان معه حق، لأنّ الناس بدؤوا في كل مكان يلعنون الكفّار الذين وصل بهم الجنون إلى عدم السماح لرجل باسترداد كرامته. تمّت محاصرة مقرّ إقامة الجنرال من طرف مجموعات جاءت لتحتجّ ولتقدّم شكاوى. تسبّب الحُكم في موجات من الشائعات حول نوايا الأنغريز المبيّتة. ذات يوم أرسلت حتى الحظايا بعثة، ولما سُمح للنساء بالدخول كان برتن صاحب موجوداً عند الجنرال. كنّ كلّهن ملتفات في ملابسهنّ التفافاً مثالياً، تقدّمت إحداهن وطرحت شكواها. قالت إنّ الخيانة الزوجية إذا لم تعاقب فإنّ النساء المتزوجات سوف يفتكنّ منهنّ كلّ إمكانية للعمل، وهو ما يجب اعتباره سطوا على قوت الحظايا اليومي. وفي صورة تواصل الشيء على نفس الوتيرة فإنهنّ لا محالة مهدّدات بالموت جوعاً.

٢٨

هذا الذي يحتل المرتبة الأولى

في هذه الأقاصي تكون الكلمة في النهار، كما في اللّيل، للشّيطان. ألا يعجبك تأقلُمي؟ بعبارة أخرى: نحن نعيش هنا الرمضاء نهاراً ونستجير منها ليلاً بالنار. لذلك وجب على من أراد أن يقضي الوقت هنا في مرح ومسرّة أن يكون له تصوّر خاص لكل ما له علاقة بالأنس والتسلية. أنا أتكيّف مع الواقع المُعاش ورغم هذا أفتقد أشياء عديدة. لكن لا شيء يعوزني أكثر من مجالسة غُورُوجِي. أنت تتذكّره طبعاً، لقد سبق أن وصفتُه لك مرة وصفاً مستفيضاً. معلّمو اللغة كثيرون كالذباب في الإصطبل، لكن حاول أن تجد معلّما يحذق الاحتفاء بذلك الجانب المقدّس والسّاخر للحياة مثل أُوبَانِيتشِي، ذلك الرّجل المسنّ والعجيب. لقد يسَّر عليّ الحياة في بارودا. خاصة في نهاية إقامتي هناك. أنا لا أبالغ، حقّاً، كانت له موهبة التغلب على الشعور بالقنوط بإظهار تفاهته للعيان. كان فكره من جهة منغرسا في واقع الحياة اليومية ومن جهة أخرى يسبح فوق كل ما له علاقة بالإنسان وإنسانيته. نعم، سوف لن أراه مرّة أخرى. الهندوسية، يا صديقي العزيز، طُويت صفحتها بالنسبة إليّ، لأنّي الآن مهتم بالإسلام. الإسلام يتماشى أكثر وطبيعة هذه الأرض، لهذا نجد هنا كثافة كبيرة من الدراويش. أظنّ أني سوف أعوّض غُورُوجِي بفريق كامل من المعلّمين. الأسرار الظاهرة للإسلام آخُذها عن رجل يدرّسني على ضفّة النّهر. نجلس في ظل شجرة تمر هندي على سجّاد من اللّباد وحولنا الريحان يعبق بشذاه

الذكي، وبينما هو يدرّسني ينظر هذا المعلّم، الذي لم يكن درويشاً لفرط استكانته ولا علاّمة لفرط هيجانه، هناك بعيداً إلى مجرى الماء، إلى الناس المتجمعين حول زورق العبور. تمكّنت أيضاً من الحصول على معلم في الفارسية، في لغة بدت لي من أعرق اللّغات إطلاقاً، بعد أن قمت بجولة في رحابها. ثم هناك معلّم ثالث، وهو درويش حقيقي ورجل هائج في الآن نفسه، يقود تلميذه إلى المعرفة الحقيقية بمجرد أن يثير الاضطراب بداخله. لكننا، للأسف، لا نتقابل إلا نادراً، لكن، عندما نلتقي، صدفة في أغلب الأحيان، فإنه يدسّ في جيبي قصيدة وكأنني رجل فقير لا يسمح له ترفعه بالتسوّل علنا. لقد أدخل عليّ شيئاً من عدم التوازن، اتّبعته فجرّني إلى داخل لحن، لا بل إلى صنف كامل من الألحان هو في الحقيقة فريد من نوعه، يا عزيزي. إنّ دخولاً سريعاً في تخمّر كالذي سبق أن ذكرتُ لم نعهده يوماً عندنا. الموسيقى والشّعر هما نعمة كبيرة يحظى بهما هذا البلد. الأُوزْدُو، هذه اللغة ذات الرنين الموسيقي، ثرية إلى درجة أن مجرّد الحديث فيها عن البطاطس يؤثّر في نفسي كما لو كنت أحضر عرضاً مسرحياً لتشايلْد هَارولدْ. نعم، أنا أنعم بالتغيير الحاصل.

٢٩
ناوكرام

II أُومْ بْراتامشفارايا نَمَهَا/ سرفافيغنوباشنتايا نَمَهَا/ أُومْ غانيشايا نَمَهَا II

ـ لا بد أن أقول لك أني خلال السنين التي قضيتها في السّنْد تحولت من رجل مقرّب ومحطّ ثقة إلى آخر منفي ومنبوذ.

ـ هل أصبحت من المغضوب عليهم؟

ـ لقد أعرض عني ولم يتحدث معي إلا نادراً في أمر ما.

ـ وهل تجد في هذا غرابة؟

ـ ماذا تعني؟

ـ أنت تتكلم عن المسلمين بكثير من الاستهجان والكراهية، فكيف تريد منه أن يخبر شخصاً مثلك بالاكتشافات المثيرة التي قام بها خلال سفراته الجديدة؟

ـ لماذا تقول: كراهية؟ لم تكن لدي كراهية، ولمّا وصلنا إلى السّنْد كنت تقريباً لا أعرف شيئاً عن المِييًا. أنت لا تدري على أيّ شيء هم قادرون. لقد أجبروا أُناسنا على أن يصيروا مَييًا مثلهم. كانت أعمالهم المشينة لا تُحتمل. هل الكراهية تتمثل في أني أقول هذا؟ اتُّهم مرة أحد البَانِيان ظلما لأنه، على ما أظن، حصل له خلاف مع تاجر آخر.

ـ مع تاجر من المِييَّا؟

ـ طبعاً. واضح أن التّهمة كانت ملفّقة، لكن بماذا حكم القاضي؟ اقتيد الرجل إلى السجن أين نُزعت عنه ثيابه وتمّ غسله، كما يعتقد المِييَّا أنه على المرء أن يغتسل حقّاً. ثلاث مرات في هذا الموضع وثلاث مرات في ذاك ومن حين لآخر تتجدّد غمغمة بصوت متحشرج. ألبسوه بعد ذلك لباساً آخر جديداً وحملوه إلى المسجد. انهالوا عليه بصلواتهم وأُجبر على إعادة ما سمع، من أنّه يؤمن بما يؤمن به أيّ من المِييَّا. لا لشيء إلاّ لأنّ الكلمات لم تتعثّر على شفتيه ـ استمع إلى هذا جيداً! ـ تمّ نشر الخبر في كثير من الانفعال، بأنّ معجزة قد حصلت. ثم جاء الحدث الأكثر رعبا وفظاعة بالنسبة للرجل المسكين، لقد تمّ ختانه.

ـ بالموسى؟

ـ وبماذا تريدهم يختنون؟ تمّ تشويهه تشويها لا يمّحي طول الحياة.

ـ سمعتُ من يقول إنّ الختان صحّي أكثر.

ـ ألا يرقّ قلبك؟ إنه رجل بريء، واحد منا، هذا الذي تمّ تشويهه. أمّا أن يُجبر شخص على اعتناق دين آخر فهذا اغتصاب تدوم صدمته إلى ما لا نهاية له.

ـ طبعاً، طبعاً. لكني لا أظن أن مثل هذا يحدث بانتظام. حكايات كالتي تحكي الآن هي من قبيل تلك التي نسمع عنها باستمرار دون أن نعيشها أبداً بأنفسنا أو نعرف من عاشها حقاً.

ـ لأنك تُغمض عينيك، هذا هو السّبب. وإذا كُتب لك أن تفتحهما يوماً فسيكون الوقت قد فات.

ـ كفى، أمس أيضاً أضعنا جلّ الوقت في الاستماع إلى خُطبك الرّنانة.

ـ دليل آخر على أن المِيِيًا ألحقوا بي ضرراً كبيراً يلازمني حتى اليوم. لماذا لم تقاطعني؟

ـ ظننتُ أن الحديث عن كل هذا قد يعود عليك بالنفع. واضح أن هذا السمّ يلتهمك من الداخل.

ـ عليك أن تقاطعني إذا خرجتُ عن الموضوع. لم يبق لي لا وقت ولا نقود وأطلب منك أن تؤجل لي الدّفع إلى الغد. أحد إخوتي مازال يدين لي بشيء من المال. كان أحد خدم برتن صاحب آنذاك.

ـ دعنا إذن ننهي الحديث اليوم لمواصلته غدا، بدون كراهية، وبالنقود التي أنت مدين لي بها.

٣٠
سيد كلّ الدنيا

غشاءان فرّقا بينهم. بين الحكّام وأهل البلد. غشاء الجهل الكامن في النفس وغشاء سوء الظنّ وعدم الثقة الذي تستّر وراءه الأهالي. كان الجنرال يعلم أن الأغشية سوف لن يكون تمزيقها ممكناً لكنه عقد العزم على أن تكون الرؤية من خلالها أكثر وضوحا. كان، شأنه شأن كلّ إداريي الإمبراطورية، يقضّي أيّامه جالساً أمام مكتبه، لا يغادر إلى مكان ما على صهوة جواده إلاّ محاطاً بالحرس ولا يشاهد إلاّ ما ينال رضاه، على الأقل حسبما يراه الأمراء المحليون أو حتى من دونه رتبة من الضبّاط. كان يقلقه كثيراً ألاّ يعرف إلاّ القليل النّادر عن البلاد وأهلها. لقد درس مساعدوه عديد الوثائق باجتهاد كبير لكنّهم لم يحضروا ولو مرة واحدة حفل ختان أو زفاف أو حتى جنازة. أمّا حِذق الفارسية، الأوردو أو لغة السّنْد فكان يشكل في حدّ ذاته حالة استثنائية. كذلك لم تتحسّن الوضعية مع مرور السنين، فقد زادت في عزلة صغار السنّ من بين موظفيه وضبّاطه وأبعدتهم عن الأهالي تماماً. حرصوا على الظهور بمظهر البريطاني الخالص الذي لا تشوبه شائبة فكانت النتيجة أن حبسوا أنفسهم في فراغ بوتقتهم الخاصّة. استفادوا من حقّهم في التمتّع بانتظام بالعطلة في أرض الوطن. عادوا من عطلهم برفقة زوجاتهم. نما الحسّ الأخلاقي وقصد به الكلّ قبل كلّ شيء الذّود عن المكتسبات الخاصة وحمايتها من الغرباء. هذا الضرب من القوانين الأخلاقية، مهما كانت أهميته على أرض الوطن، ساهم فقط في

عمى بصيرة الضباط والموظفين الذين كانوا تحت إمرته. كانوا بمثابة الملامس العمياء لذلك الوحش الذي كان يدير شؤون نصف العالم انطلاقاً من شارع صغير في لندن. كان الجنرال يقول: معرفتنا للعدوّ هي وحدها مصدر قوّتنا ولذا وجب علينا أن نعمّق معارفنا، لأنّ حبّ المعرفة هو الذي يميّز بيننا وبين الأهالي. أم هل سمع أحد يوماً أنّ من بينهم من بدأ بعدُ في الحصول على معلومات عنّا؟ لو توصّلوا يوماً إلى التّدقيق فينا، إلى التمعّن في مواطن ضعفنا وفي دواعي قلقنا وتخوفاتنا فإنهم سيتمكنون لا محالة من التأثير فينا ومن إيذائنا أشدّ إيذاء، سيرقوْن إلى منزلة الأعداء وعندها سنكون مجبورين على إيلائهم قدراً كبيراً من الاحترام. بقيت تحذيراته بدون نتيجة واعتبره الجميع عجوزاً مهرّجاً ومشاكساً. ما كان أحد ليعتبر الجنرال حاكماً راضياً بما كان يجري حوله. كان من حين لآخر تنتابه جِنّة الغضب، وهي حالة يصل إليها بمجرّد طرح حقيقة كأمرّ ما تكون عليه الحقيقة: ما النفع من إدارتنا للهند البريطانية؟ هل هي تخدم الاحتلال، رفاهة عامّة الشعب أم العدل؟ بدون شك هي لا تخدم شيئاً من كل هذا. لنكن صادقين! ليس لها من غاية أخرى سوى جعل النهب والسرقة أمراً يسيراً. تعلّم مرؤوسوه أن يتحاشوا نظراته وأن يجمّدوا تعابير وجوههم. كلّ القتل وكلّ الموت فقط من أجل أن تحصل تجارتنا على تسهيلات وفوائد أكثر من التي تحصل عليها الأطراف المنافسة. كلّ الظّلم فقط من أجل توطيد حكم البُلهاء. «نحن نقوم بواجبنا وسط مجرّة من الحمير». تمرّد الجنرال بدون جدوى. كلّما تمادى في قول الحقيقة إلاّ ورأى مرؤوسوه في كلامه علامة دالة على جنونه المتفاقم. لا أحد غير القائد الأعلى للقوات كان ليسمح لنفسه بشيء كهذا. ذكّر كلّ منهم الآخر: الجنرال في طريقه إلى التقاعد. نحن المستقبل.

قليلون هم الرّجال الذين استطاع أن يعوّل عليهم، رجال مثل برتن،

هذا الذي أتى بأخبار الأهالي بكل ثقة وأمانة. كان الجنرال يحبّ الحديث معه لأنّ نظرته إلى الأشياء كانت دوماً جديدة وكأنّ الخَلق تجدّد معها كل مرة. لكن هذا الرّجل الشاب كان له أيضاً ولعه، ولع وخيم النتائج. لم يقنع بالتعرّف على بلاد الغربة بل أراد أيضاً أن يكون طرفاً مشاركاً في نمط حياتها. كان مشغوفاً بها إلى درجة أنه أحبّ الإبقاء عليها في وضعها المتخلف. كان لهما رأيان متناقضان تماماً. الجنرال دفعته الرغبة في التغيير والتحسين، أمّا برتن هذا فأراد ترك بلاد الغربة وشأنها لأن تطويرها لن يعني إلا اضمحلالها. هذا ما لم يتوصّل الجنرال إلى فهمه، خصوصاً وأن هذا الجندي الشاب لم يشكّ قدر أنملة في أنّ الحضارة البريطانية هي أرقى من العادات والتقاليد المحلية. أليس حريّاً بأن تكون الغلبة لِما هو أرقى وأرفع شأنا؟ أليس هذا هو المسار الطبيعي للتاريخ؟ لم يكن التفكير المنطقي ميزة من ميزات هذا الضابط. كان، كغيره تماماً، ينفعل لرؤية مظاهر الغباوة والكسل والفظاظة في كل مكان، كانت أحكامه أحياناً كلها تحامل واستهجان، كما في الطّرح الذي تمسّك به مؤخرا والقائل بأنّ كلّ مكان وصل إليه سبقه إليه الحسد والكراهية والخبث، بذور زرعها الأهالي. والدافع هنا ليست الضِّعة بقدر ما أنّ لأصيل البلاد غريزة تتماشى وطبعه الخاصّ يغذّيها ميله إلى المكر. هذا كثير! لكن، رغم كلّ هذا، أصرّ مُصدِر مثل هذه الأحكام على الإبقاء على قوانين عيش السكان الأصليين. كان الجنرال يميل أحياناً إلى الاعتقاد أنّ هذا الضابط يتصنّع حالات الاستياء تلك فقط لمجرّد الرفع من شأنه الخاص لديه وحتى لا يُقال إنه يتعامل مع الأهالي بلين مفرط. برتن هذا كان لغزاً. غالباً ما كان له موقف لا ينتظره منه أحد. لقد دافع أثناء محادثتهما الأخيرة عن فكرة أنّ المجرمين لا يجب شنقهم بل، كما جرت العادة، شدّهم بوثاق إلى فوّهة مدفع ثمّ إطلاق النّار. أُقرُّ بأنّ في هذا وحشيّة لكنني أعتقد أنه علينا أن

ننحى بمشاعرنا النبيلة إزاء الآخرين في اتّجاه الواقع المجرّب. علينا ألاّ نتغافل عن نظريّة الترهيب. القاتل إذا اندثر جسمه إرباً لا يُسمح بدفنه في هذه الأصقاع، وإذا لم يُدفن المسلم فإنه سوف لن يكون له مكان في الجنّة. أمّا إذا تمادينا في الشنق فعلينا أن نعجّل بحرق الجثة للأسباب نفسها. نفس الحقوق للجميع، هذا شيء لا يمكن تطبيقه هنا. لقد فقد قانوننا الجنائي أثناء رحلته إلى هذه الأصقاع هنا الكثير من فعاليته. انظروا، أن يُسجن شخص ما، قد يكون لهذا تأثيره في مانشسْتر مثلاً، أمّا في السّنْد فإنّه لا يقود إلاّ إلى نتائج عكسية. فالرّجال في هذه المناطق، وبصفة عامة، يعتبرون الإقامة في سجوننا لبضعة أشهر ضربا من الراحة والاستجمام: الأكل والشرب والنوم وتدخين الغليون بكل راحة. علينا، كبديل، أن نجلد الفقراء من بين الجناة، أمّا الأغنياء منهم فيجب مطالبتهم بدفع غرامة مالية. مثل هذا العمل سوف يكون له تأثيره. لا، لم يكنْ حازم المنهاج، هذا الضابط الذي كُلف بتقديم تقرير إلى الجنرال شخصيّاً.

٣١

ناوكرام

II أُومْ آفانيشايا نَمَهَا / سرفافيغنوباشنتايا نَمَهَا / أُومْ غانيشايا نَمَهَا II

ـ جئتُ اليوم إلى هنا لسبب واحد فقط. أريد، أخيراً، أن أرى شيئاً محسوسا في يدي. دليلاً على أننا نجلس هنا يومياً منذ شهر. أريد أن أرى شيئاً يدل منظره على أنه يستحق ست عشرة روبية. أريد إشارة ما تعيد إليَّ الأمل.

ـ لم ننته بعد. ليس لي ذنب في أنّك عشت الكثير.

ـ ليس لك ذنب؟ لمّا جئتك في الشهر الماضي طلبتُ منك خطاب توصية بصفحتين فقط.

ـ لم يدُر الحديث حول صفحتين أبداً.

ـ ولا أيضاً حول مائة صفحة.

ـ ماذا تريد؟

ـ أريد منك أن تقدّم لي حتى الغد صيغة أولى، بضع صفحات تحتوي على المهمّ. أريد أن أبدأ قريباً بالبحث عن عمل جديد. عندما تأتي الريح الموسمية تتوفّر مواطن الشّغل في كل بيت تُدبّر شؤونه بحكمة ويقضّي الإفرنج جلّ وقتهم تقريباً في المنزل. ولهذا سألتقيهم عندما أنتقل من دار إلى أخرى لتقديم نفسي.

ـ أنا لا أحبّ الحلول المنقوصة بتاتا. علينا أن ننتظر إلى أن يصل

عملنا إلى نهايته، وهكذا تستطيع أن تقدّم نفسك بالصيغة النهائية لأفضل خطاب توصية حُرّر على الإطلاق. الرّيح الموسمية سوف تستغرق وقتاً قبل المرور من هنا.

ـ أنا مصرّ على طلبي.

ـ إذا أنت مصرّ على طلبك فهذا يعني أن ليس هناك نقاشا؟ أنا مصرّ على طلبي؟ أين تعلّمت كل هذا؟

ـ شهرٌ بكامله هو وقت طويل ويكفي حتّى شخصاً مثلي ليتفطّن إلى الكيفيّة التي يتمّ بها خداعه.

٣٢

سلطان الشاعر

تقرير إلى الجنرال نَابِيِي

شخصي!

كلّفتموني بمهمّة جمع معلومات من شأنها أن تعطينا فكرة عن الطريقة التي يرانا بها الأهالي. قضّيت ساعات عديدة في رفقة رجال من السِّند، بلوشيين وبنجابيين من جميع الطبقات، في الأسواق والخمّارات وفي بلاط أغا خان الوقتي. استمعت بكل انتباه إلى كل صوت من حولي وتحاشيت الحكم على مغزى ما سمعت. انطلقت من مبدأ أني أرى العالم من وجهة نظري الخاصة تماماً كأولئك الذين عبّروا عن أرائهم الخاصّة إزائي. لم أكن منافقا لأني أعلم أنّ الشرقيين ينكشف لهم كل ما هو مصطنع. لم أعارض ما سمعت من آراء كما أني لم أتحمس لها. اكتفيت بدور المتفرج وأودّ هنا أن ألاحظ، بعيداً عن كل تواضع في غير محله، أني صرت على هذا النحو محطّ ودّ قلّما عرفته في حياتي. وأكبر صعوبة لديّ الآن تتمثل في تقديم ملخص مقتضب لما تمّ طرحه أثناء العديد من الأحاديث المتشعبة والمعقدة والملتوية والمزخرفة. كل أشكال التعميم ما هي في الحقيقة إلاّ ضرب من التعسّف يرمي إلى الزّج بجميع الأشياء في بوتقة واحدة ويجب علينا أن نخشاها خشية الشيطان من رجم إبراهيم، لكنّي لم أستطع الاستغناء عنها تماماً حرصاً منيَ على إنجاز المهمّة التي عهدتم بها

إليّ وليكون للمعلومات التي حصلت عليها أكبر قدر ممكن من الفائدة. إني أسمعكم تقولون: لنذهب إلى المهمّ، فأُسرع لألبّي هذه الرغبة أيضاً.

الأهالي ينظرون إلينا نظرة مختلفة تماماً عن نظرتنا إلى أنفسنا. قد يبدو هذا بديهيا، لكن علينا، رغم كلّ شيء، أن نضع هذه الحقيقة نصب أعيننا كلما تعاملنا معهم. هم لا يعتبروننا أبداً لا شجعاناً ولا أذكياء ولا كرماء ولا متحضرين، ولا يرون فينا أكثر من أوغاد. هم لا ينسون وعداً واحداً من الوعود التي لم نفِ بها، كذلك لا يغفلون عن موظّف واحد من بين الموظفين المرتشين والمكلفين بتطبيق عدالتنا نحن. هم يستنكرون علينا آدابنا وأسلوبنا في الحياة وطبعاً نبقى دائماً كفارا خطيرين. العديد من أهالي يتطلعون إلى اليوم الذي ينتقمون فيه منا، إلى ليلة شرقية تُشهر فيها السكاكين الطويلة، كما أريد أن أسميها. كلهم شوق إلى اليوم الذي يتم فيه طرد الدخيل النتن. نفاقنا ينكشف لهم، بعبارة أوضح: كل التّضاربات في تصرّفنا لا يرون فيها في نهاية المطاف إلاّ تراكما من الرّياء الخالص. قال لي مرّة رجل مسنّ في حيدرأباد: إذا صادف أن أظهر الأنغريز كثيراً من الورع والتديّن، عندما يملؤون آذاننا بخرافاتهم حول شمس المسيحية الطالعة، عندما يمجّدون انتشار الحضارة والفوائد الجمّة التي تحصل لنا نحن المتوحشين بفضلها، عندئذ نعرف أنّ الأنغريز يُحضَرون لسرقة ونهب جديدين. كلّما بدؤوا يتحدثون عن القِيم رأينا في كلامهم إنذارا بالخطر. قد نغضب ونصِف هذا الرّجل بأنّ له سخريةً لاذعة، لكنّه، بدون شك، ذكيّ وتجعل منه سخريته اللاّذعة رجلاً ذا وجاهة. وبما أنّ المَثَلِ الواحد يمكن أن يكون له من قوّة التعبير ما يفوق مئات التصريحات فإني أريد هنا أن أسوق حادثة أخرى. قبل بضعة أشهر وفي جهة قاصية من البلاد غربي كَرْشاتْ تمّ القبض على بَلوشي ورئيس قبيلة بتهمة تنظيم عمليات سطو على طرق إمداداتنا. ولمّا كان هذا البلوشي معروفاً بخبرته كمبارز محنّك

جاءت الضابط الذي كان قاد عملية القبض عليه فكرة مبارزته. لا بدّ أنه ظنّ أنّ انتصاره الشخصي سوف يكون أيضاً إبرازاً لتفوّقنا في الميدان العسكري. جيء لرئيس القبيلة بحصان متقدّم في السنّ ومتعب بينما قفز الضابط بخفة على صهوة جواد متعوّد على القتال. اندفع في هجمته الأولى التي تلتها هجمات مماثلة أخرى بكثير من الحركة والشجاعة، لكنه كلما كرر هجماته وزاد في ضرباته إلاّ وتصدى لها البلوشي بالسيف والدرع. تفاقم الإحباط شيئاً فشيئاً لدى الضابط الذي كان يثق كثيراً في قدرته على فن المبارزة. استمع من حوله إلى نداءات الأهالي المبهمة والتي كان لها رنين السخرية والاحتقار في أذنيه، السخرية من أنه سوف لن يفوز بالمبارزة وسيفقد المكانة التي كان يحظى بها لدى زملائه. هجم للمرة الأخيرة مشهراً مسدسه وعوض أن يضرب بسيفه أطلق النار على الرجل عن كثب فأرداه قتيلاً. هذه القصة يمكن سماعها في طول البلاد وعرضها، إنها تتنامى وتنشر أخباراً مسمومة تعطي الظلم الحاصل أبعادا شيطانية. هناك العديد من الروايات الحائمة لكنها كلها تجتمع حول الهيكل الذي سبق أن رسمتُ إجمالا. الأشدّ خطورة من تصرف هذا الضابط كان بالنسبة للأهالي الظلم الحاصل عن عدم حمله على الوقوف أمام محكمة عسكرية لمحاكمته من أجل جريمته. لا، بل حصل عكس هذا. لقد تمّت ترقيته وله اليوم مكانة مرموقة.

٣٣

ناوكرام

II أُومْ كافيشايا نَمَهَا / سرفافيغنوباشنتايا نَمَهَا / أُومْ غانيشايا نَمَهَا II

أخرج اللاهية حافظة الأوراق، حافظة أوراق من الجلد الجيّد. اشتراها لمّا تبادر إلى ذهنه عدد الأوراق التي ملأها بعدُ بقصة ناوكرام. كان لا بدّ من الحفاظ عليها جميعاً، نعم لقد شعر فجأة بالخوف من إتلافها، خشي أن يُضيع ولو صفحة واحدة. اقتنى هذه الحافظة بقسط من أجره وتسبب طبعاً في شجار حول المصاريف الزائدة مع زوجته التي أمسكت بحساباته. فتح الحافظة بالقدر الذي مكّنه من إخراج ورقة واحدة بأصبعين اثنين. قرأ ما بالصفحة بانتباه وبتأن. شعُر فجأة بأنه قادر على الجري وكأنه شاب، على صعود الربوة وصولاً إلى المدينة في الأعلى ـ الربوة التي جهِد مؤخرا في تسلقها لاهثا ـ ثم النزول. كاد يطير، لقد استبق حكاية هذا الخادم المضنية بتفاصيلها، تركها وراءه بعد أن أعطته الدّفع اللازم ـ هو مدين لها حقّاً بهذا الفضل ـ ووجب عليه الآن أن يطلق لها العنان. أُوهْمْبَالاغَاناباتي، أليس كذلك؟ سبعة مقاطع، سبعة أصوات من شأنها أن تعطي تقرير هذا الخادم الفاشل معناه وأن تضفي عليه شيئاً من الجمالية. أيّة جمالية؟ قليلون هم الذين يستطيعون خلق الشيء من العدم. هل كان من حقه أن يتعاطى السحر؟ يا له من سؤال تافه. هل كان من حقه أن يزوّر حياة شخص آخر؟ لمَ كل هذا الالتزام الأدبي؟ كان لا بدّ له أن يتخلص من ذلك التصلب الذي لا يليق إلا بالأبطال على الرسوم المنمنمة القديمة.

الحركة! المرونة! زد على هذا فإنّ ناوكرام كذب عليه باستمرار، كان ذلك واضحاً جليّاً، التفاصيل التي بسطها أمام اللاهية لم تكن حياته الحقيقية، كانت عرضاً في جمال العرائس استُأصِل منه كل قبح، كان مزيّنا بزواق ومقنّعاً بحساب سبع ضمادات فوق كل خدش، طبعاً، من ذا الذي ما زال يقول الحقيقة، من ذا الذي ما زال يجرؤ على الكلام في الحقيقة. كاد الأمر يبقى على حاله لو لم ينقّب أكثر. كان له من صدق الشعور ما سمح له بكشف القناع عن أكاذيب عدّة، لكنّ الشيء الكثير ممّا بدا له محرجاً قد يُسدل عليه ناوكرام ستار الصمت حتى النهاية. لم يبق له إذن، أي اللاهية، إلا أن يزيد بنفسه ما بخل به عليه صاحب الرّواية. كان من واجبه أن يكمل ما كان ناقصاً.

من كانت كنداليني؟ من كانت حقّا؟ قصد بُوجَارِي يعرف أماكن بعيدة من البلاد كان زارها خلال حجّاته المتتالية. كان الحديث معه مطوّلا للغاية وجاء مؤكّداً لظنونه. انطلاقاً من موطن كنداليني الأصلي استطاع البوجاري التخلص إلى استنتاجات معيّنة: فَالْتانْ، في مقاطعة سَاتَارَا، هو دليل على أنّ عائلتها كانت من أتباع جماعة المَاهَانُوبْهَافْ وأنّ من بينهم الكثير من الدّيفادازِي. وواصل البوجاري: كلما كنتُ هناك في المعابد قُدّمت لي واحدة منهنّ، لكنّي كنت أرفض. إنّ من وصل إلى عمر الجَدّ عليه ألاّ يتصرف وكأنّه رجل شاب يتهيأ لأن يصير أباً. كانت كنداليني من الدّيفادازِي وعديد التفاصيل أشارت إلى هذا. لا بّد أنها كانت قدّمت خدماتها في أحد المعابد ثم هربت من هناك. أوضح البوجاري: الدّيفادازِي لا يحصلن أبداً على ترخيص بمغادرة المعبد عندما يكنّ صغيرات السنّ، أي خلال السنين التي تتفتّق فيها أنوثتهن. لا يُتركن وشأنهن إلا عندما لا يجد القساوسة لهنّ عملا، لكنّهن عادة ما يتعوّدن على وجودهنّ هناك ويخفن من خوض غمار الحياة خارج المعبد. كلما

كان القساوسة رحيمي القلب سمحوا لهنّ بالبقاء في المعبد لكنس الأرضية وجلب الماء. كانت كنداليني شابة، وبما أنها تمكنت من إغراء أحد ضباط الأنغريز وخادمه في الآن نفسه، فلا بد أنّ مفاتنها كانت لا يستهان بها. لكن لماذا هربت؟ قام اللاهية بزيارة أحد أصدقائه، في الحقيقة صديقه الوحيد، الوحيد الذي لا يزعجه الجلوس إليه. كان رجلاً مهتمّا بالشعر والموسيقى، صاحب معرفة واسعة ومتمرّسا بالحياة، وهو لعمري شيء لم يعهده اللاهية نظراً لأنه لم يكتشف العالم طول حياته إلاّ من خلال أعين زبائنه. أراد في الحقيقة ألاّ يذكر ما كلّفه به ناوكرام إلاّ عرضاً، لكنّ صديقه شبك يديه فوق بطنه ـ بطن في عظمة مرجل نحاسي دقدق فوقه مغنّيا بخواتم احتلّت كلّ أصابعه ـ ثمّ طلب منه أن يسرد عليه كامل القصّة. أبدى هذا الصديق اهتماماً كبيراً بكنداليني، اهتماماً كاد يصل إلى حدود عدم اللّياقة. لقد استطاع أن يجيب عن بعض أسئلة اللاهية، لكن الشيء الذي أقلق هذا الأخير هو أنّ الصديق كان كل مرّة يبدأ كلامه بجملة مُفادها أنه من المعروف أن النّساء اللاّئي يشتغلن في المَايخَنَّات يبعن أجسادهن وأنّهن سُمّين «عشيقات» لهذا السبب وليس لكونهنّ فاتنات ساحرات. هل كنت تظنّ عكس هذا؟ ثم إنّه من المعروف لدى الجميع أن اللائي يحذقن الرقص من بينهنّ وكذلك اللائي يغنّين البهاجانات كنّ في السابق من الديفادازي. مرة أخرى يسمع ناوكرام هذه الكلمة. ديفادازي. لم يبق مجال للشك. حظيّة يتقاسمها الآلهة والقساوسة. لم يعبّر الصديق عن هذه الحقيقة على هذا النحو، شرح له فقط أنّ الديفادازي كان لا يُسمح لهنّ بالتزوّج من آدمي لاقترانهن بإله المعبد الذي دخلن في خدمته، بالإله الذي كنّ يغيّرْن ثيابه، يُأرْجِحن ويُطعمن ويعبُدن، بالإله الذي كنّ يقمن من أجله بكل ما يمكن أن تقوم به زوجة صالحة. بقي شيء واحد حُرم منه الإله الحجري أو البرونزي، لهذا وجب على القساوسة تنفيذ نكاح الزّوجية مع

الديفاديزي. قال هذا ثم أضاف أنّ الأمر معروف لدى الجميع. ارتفع البخار من حول اللاهية وكأنّ المطر هطل على الأرض الطينية الجافة، وكأن الأرض أخذت تتنفس من جديد. ودّع صديقه على عجل. كانت المسافة حتى منزله بمثابة فسحة بعد نزول أوّل مطر. دخل غرفته وأشعل عُصيّة من خشب الصندل ثم توسّل إلى زوجته ألاّ تزعجه بالمرة. أخرج ورقة بيضاء ونسخ ما تمكّن من معرفته حول الديفادازي التي تدعى كندالييني والتي تركت المعبد هربا من البوجاري - من رجل قبيح المنظر وذي بخَر - الذي لم يرقَ بثقافته الدينية إلى منزلتها. كانت على معرفة تامة بأهمّ النصوص المقدّسة، أما هو فقد اخترع السُوتْرات التي كان يجهلها بأن ألصق نهايات كلمات جاء بها من نصوص مقدسة بمقاطع عديمة المعنى، وبما أنها تفطنت إلى كل هذا، تمادى في إيذائها كلما امتلكها عقابا لها. (هل كان في هذا مبالغة؟ لا، أبداً. هؤلاء البراهمانيون القذرون وذوو الثقافة المنقوصة هم عار على كل الطبقة، وهذا الوصف ينطبق عليهم تماما). كانت تتقن التغنّي بالعديد من نصوص البْهاكْتي، كانت تقدّمها بطريقة تجعل الناسك المنغرس في اللذات ينبهر بعشقها للإله ويهيج من فرط التّمنّي أن تحقّق له رغبة جسدية. لا، لقد شطب اللاهية آخر ما كتب. كان الكلام صائبا لكنّه غير لائق. عليه ألاّ ينساق وراء هذه المرأة التي اندمج الدَّارْمَا بالكَامَا في ألحانها. هربت إذن من البوجاري الذي دأب على اغتصابها وقصدت بارودا. (لماذا بارودا بالذات؟ ليس مهمّا أن يتمّ فك جميع الألغاز). لعلها كانت تعرف ديفادازي أخرى في هذه المدينة. بدأت بالعمل في المَايخَنَّا أين التقت ناوكرام، زبوناً سلمته نفسها بأجر وقدّمها هو بدوره فيما بعد إلى سيّده. تفطّن فجأة إلى الأمر، نعم، كيف لم يتفطّن إلى كلّ هذا من قبل؟ لم يكن ناوكرام حريصاً على سعادة سيّده بل فكّر أوّلاً في نفسه، في نفسه فقط. فضّل ألاّ يذهب كلّ مرّة ليرى

كندالِيني في المَايخَنّا، أراد أن يراها قريبة منه. وكان الثمن أن أُجبر على اقتسامها مع سيده. ولِمَ لا؟ إذا كان ممكناً أن يقتسم إله وقسّيسه عشيقة واحدة فلِمَ لا يقتسمها ضابط في شركة الهند الشرقية البريطانية وخادمه؟ لا بدّ أنّ الأمر كان كما تراءى له، أو شيئاً من هذا القبيل. كان اللاهية راضيا كلّ الرّضا على ما أنجز. قال في نفسه: هكذا يكون البحث والتّدقيق الخالص، عندما يتمّ تزوير القصّة لتنطق بالحقيقة.

٣٤
سيد الأهماج السّماوية

منذ أيّام كان كلّ شيء ينتظر نزول الأمطار الغزيرة. قلّصت السحب الثقيلة والسوداء من حجم الشمس وحوّلتها إلى قطعة نقدية براقة. أمواج تحطّمت على تحصينات الرصيف، زادت علوّا وتهشّمت وراءها من جديد. كان العالم في اضطراب. انتصرت البنايات على الضباب وضلّت بعض الطيور طريقها فغرّدت بصوت نافذ وسبحت في الجوّ بلا حراك وكأنها خشيت نسيان ما تعلّمته من طيران. في بُمباي، هكذا كتبت جريدة لاَ غَازِيتْ، قفزت موجةٌ ـ مثل لسان جائع لحرباء ـ فوق حاجز كُولاَبَا وتسببت في ضحيّة أولى ولم يفلح أيّ قارب من قوارب الصيد في العثور على المرأة التي غرقت في خضمّ المياه الهائجة. طارت أوراق الجرائد في الجوّ أعلى من الطيور، الأشجار تقوّست وصارت أخفّ من التبن.

طارت أوراق متفرقة إلى داخل الأفواه مثل خبز الذبيحة. قبل سقوط القطرة الأولى لم يشكّ أحد في مجيئها الذي أعلنت عنه الروائح المنتشرة في غير لبس ولا إبهام. نزلت القطرة الأولى بهدوء، تبعتها قطرات أخرى سارت على أطراف الرِّجل محضّرة لمَا سيأتي. قطرات بريئة، في براءة الرسوم المنمنمة واللطيفة بجانب النّافذة. نقاط تجمّعت للحظة قبل السّيلان ومن ورائها حجب غشاء من الضباب الطرقات والأسواق والبنايات والأحياء. ماذا كان يُسمع؟ دقات طبول وصيحات كان لها رنين الانتشاء، ألحان عزفها الريح تدّعي أنّها أعرَف ما كان ثمّ حملَها سعف النخل بعيداً ـ

من ذا الذي استطاع أن يفرّق بين اليأس والسعادة؟ ثم يهجم المطر وكأنَ الأرض في حاجة حقّاً إلى جمرات العصا الكاوية. يتوارى الزمان وتهجم الريح الموسمية ولينْجُ بنفسه من لا يروم البقاء وراء جدران متينة البنيان أو من لا يثق في وعود السقوف.

حاول برتن، وهو ممدّد عارياً في فراشه عقب سقوطه من على جواده، أن يتتبّع أصابع كنداليني. فكّر: أريد أن أفهم سرّ لطافتها. اللغة الوحيدة التي لم يتمكّن من تعلّمها. هل للطافتها معنى معيّن؟ تحوّل هدير المطر الثّمل إلى صحوة، قطرات متفرقة تدحرجت من على شفاه الأرض المشبعة. كل شيء غرق في الماء، حتى الجذور والحُفر، التوَتْ ساق فرسه داخلها ولمّا وجد نفسه غارقا في الوحل تذكّر التحذيرات في نادي الكتيبة بعدم مغادرة المنزل إن أمكن كلّما بدأت الرياح الموسمية في الهبوب. سمعهم يقولون من وراء ظهره المعطوب: لقد نال عقابه. حتى لو فتح عينيه فإنه لن يستطيع التأكّد من أنّ أصابعها لا تقوم إلاّ بواجبها. بعد سنوات الوفْرة حلت السّنوات العجاف وكان كافياً أن يعيش كلّ شيء مرة واحدة: بعد سنة تحققت فيها الأماني جاءت سنة أخرى برز فيها من جديد شعور بعدم الرضا. خيّم خارج المنزل هدوء أشملُ فتمكّن من سماع هدير السيول الجارفة والمنحدرة بقوّة وبدون رحمة صوب المدينة. لا بدّ أنّ الأكواخ غمرتها المياه. من جديد اكتشفت هي كلّ فقرة بين عنقه وعجزه، حدّدت موضعها برسم شكل دائري دون أن تخفّف من ضغط أصابعها. كانت يدها لا تضلّ طريقها أبداً وعلى دراية كبيرة بجسم الإنسان. غادرت الغرفة. كان ضجراً ومعكّر المزاج. قدّمت له الكثير، كانت ترغب في مَلء عينيه، سرّحت شعرها كلّما اشتهاه هائجا وظفرته كلّما أراد تغييراً، كانت تمتثل إلى نزواته إلى حدّ أنها تتحوّل أحياناً إلى لَعوبٍ. رغم هذا، نعم، رغم هذا احتفظت بالكثير لنفسها. كانت هناك

لحظات نظرت فيها إلى أبعاد كان لا يعرفها. غادرته أحياناً بدون كلمة وداع أو تفسير. لم تقضِ معه قط ليلة بأكملها. أراد منها أن تحدّثه عن عائلتها، عن شبابها وحياتها قبل المجيء إلى بارودا فردّت طلبه. قالت له إنه ليس من حقه أن يقع في حبّها وكان متأكدا أنها، من ناحيتها، طوت صدرها على كلّ شعور بالميل إليه، بقطع النظر عن العرفان بالفضل الذي عبّرت عنه بنبرة وتصرّف لا يسمحان بنشأة أي نوع من الصميمية. صعب عليه أن يتحدث معها في الموضوع. تلك هي الواجبات الصعبة في الحياة: كيف أسأل عشيقتي، نعم، عشيقتي التي وفّرتُها على نفسي بالمال، لماذا لا نقع في حبّ بعضنا مثل مبتدئيْن في حفلة رقص؟ تهرّبت من سؤاله إلى أن حاصرها محاصرة شديدة في ركن، ردّت بغضب ما كان يظنّها قادرة عليه. قالت وكأنّ صوتها تحوّل إلى نبرة جادت بها آلة موسيقية ذات وتر واحد: أنا جذماء، قد أُعجبك أنت، أو أُعجب رجلاً آخر، لمدّة سنوات ، إلى أن يخونني جسدي، إلى أن يذهب كل جمالي، عندئذ لن يبقى لي اختيارٌ آخر غير الارتماء من جديد في أحضان الإله، وربحي الوحيد من هذا كلّه هو أنْ لا رجل سوف يتمكّن عندئذ من إشباع رغباته مني. الموت وحده قادر على أن يحميني من شهواتكم. سكتَ. أوَ تظنّ أني لا أريد أن أذهب في سبيلي؟ نعم، أريد. لكني لا أريد أن يكون الشرط كذبة أخرى. لم يقلْ شيئاً. تريد الحبّ؟ ما طول المدة؟ كم ستدوم إقامتك هنا؟ بضع سنوات ثم ستواصل طريقك إلى مكان آخر، وحتى لو بقيت هنا فإنك ستفضّل في يوم مَا التزوّج بامرأة من عشيرتك لتنجب لك أبناء. قاطعها قائلاً: لا، لا أريد الزواج ولا أحبّذ أن يكون لي أبناء. ثمّ خيّم صمت فصلهما عن بعضهما.

شملته رائحة الزيت مثل الموجة. لقد عادت. سال الزيت الدافئ فوق

جلدته. عرف أنّها ستقضي على ضجره للتوّ، ستحرّك فيه الشهوة وستتمادى إلى أن تتوقّف فجأة. أمسكت عن الحراك، وضعت يديها على صدره ثم بدأت بالكلام وهي جاثمة فوقه بينما خفق هو من فرط إعجابه برجولته، تكلّمت في جمل كاملة وبنبرة معهودة كانت في الظاهر تسرُد سرداً عادياً لكنّها، في الحقيقة، استقطبت كلّ انتباهه. كان عليه أن يخفّف من وقع هزاته ليتمكن من تتبع كلماتها التي كانت تصف مَلكا حكيما جازاه أحد الرجال الصالحين بأن ناوله تفاحة الخلود. سعد الملك كثيراً بالهدية إلى أن تبيّن له أنه سيكون الوحيد الذي لن يموت، بينما ستفنى كل أسباب سعادته في الدنيا. قدّم التفاحة لزوجته. تقبّلت الزوجة الهدية وكأنّها تستلم أسمى مظاهر التقدير لكنها فكرت سرّاً أنّ الملك لم يُهدها التفاحة إلا بحكم العادة. أعطت بدورها التفاحة مساعدا أثبت أنه عاشق ممتاز. أهدى المساعد التفاحة حظيّة كان يعبدها، أمّا هذه الأخيرة ـ وبعد تفكير طويل ـ فقد أهدتها ملك البلاد لأنه في نهاية المطاف أعلى مشجّعيها مرتبة وأكبر رعاة فنّها. أمسك الملك التفاحة في يده وفهم ما جرى. ولمّا لم يجد مواساةً جمع حاشيته ولعن كلّ الذين خانوه. ذهيكْ تَامْ تْشَا تْفامْ تْشَا، عادت كنداليني من جديد لتحريك خاصرتيها، مَادَانَامْ تْشَا إِمَامْ تْشَا مَامْ تْشَا، أنشبت أظافرها في أعلى فخذيه. قال برتن وهو يلهث: ألا تبيّنين لي مغزى كل هذا؟ زادت في نسق حركاتها، لعنة عليهم ولعنة عليك، اهتزّ نهداها على ثقلهما مثل إوزّتين برّيتين أثناء الطّيران، على الحبّ لعنة كما على المحبوبة، تنفّست بصعوبة، واللعنة عليّ أنا أيضاً.

بقيت بعد ذلك ممدّدة بجانبه. انفصلا عن بعضهما انفصال الماء عن الزيت وقد أرهقهما نزال الحبّ. بدا وكأنّ كل الحياة تجمّعت في تلك الغرفة بالذات. إلى أن سمع نداء الوَقوَق. زحفت أصابعها فوق صدره،

في تؤدة النّبتة تتُوق إلى نور النافذة. لو قالت الآن شيئاً في ضوء القمر المشتّت لجاء قصيدةً رائعة. قبّل عينها المغمضة ولثم الحدقة. كانت في صلابة الحجرة الكريمة التي يعسر ابتلاعها. شفتاه وحدهما أحسّتا أن عينها كانت تتحرك مثل السمكة المكوّرة تماماً عند الحدّ الفاصل عن سطح الماء، أو كالكُجّة لا تلازم مكانها. كان الجوّ خانقا. نهض رغم اعتراضها. وجد عزاءً في ظنّه أنها لا تريد فراقه حتى خلال تلك الدقيقة التي نهض فيها ليفتح النافذة. سمع الضفادع تنقنق، التفت إليها بابتسامة خفيفة فهتفت: أغلق النافذة، لكن الحشرات هجمت قبل أن يتمكّن من تلبية طلبها، نمل أبيض، عُثث، ذباب أحمر، جراد، جعلان، مئات من حشرات البيرْبَاهُوتِي في شكل قطع صغيرة من المخمل، ربضت جميعها على كل شيء، هبطت حتى على الفراش وعلى جسمها.

هطل المطر لمدّة ثمانية أيام بلياليها وبدون انقطاع تقريباً. استحال النّداء على الحاضرين لأداء وظيفة أو للإقدام على خيانة زوجية. كذلك استحال الذّهاب إلى الصّيد. لم يبق لهما غير الفراش الذي تمدّدا فيه ولم يغادراه.

٣٥

ناوكرام

II أُومْ غانادهيأكشايا نَمَهَا/ سرفافيغنوباشنتايا نَمَهَا/ أُومْ غانيشايا نَمَهَا II

ـ وقعتَ في حبّها.

ـ نعم، سبق وأن قلتُ لك هذا.

ـ كانت عشيقتك. كنتما معاً، احتضنتَها، جمع بينكما الحبّ.

ـ من أين لك هذا؟

ـ فكّرتُ مليّاً. قصتك تهمّني. ناهيك أنّ زوجتي تقول إني صرت أقصّر في القيام بواجباتي كربّ بيت.

ـ تهمّك؟ أفهمك عندما تقول: محفظة نقودك تهمّني. وما هي الصدقة التي يجود بها كلّ هذا الاهتمام؟

ـ دع كلّ ضروب الاهتمام وشأنها، المسالة كانت معقدة بينكما.

ـ كلّ هذا لا علاقة له بخطاب التوصية، أليس كذلك؟

ـ هل حظيتَ بها قبل أن تجمعَ بينها وبين برتن؟

ـ الكلمات التي تستعملها.. غير مضبوطة.

ـ أريد أن أعرف!

ـ نعم، حظيت بها، قبل وبعد ربط العلاقة بينهما.

ـ في منزله؟

ـ نعم، في منزله، بل في منزلنا. هل أنت الآن راض؟

ـ عندما كان موجوداً في المنزل؟

ـ أحياناً، في الليل، تكون عنده أوّلاً ثم تجيء عندي. لكن غالباً عندما يكون على سفر، في مُهُوِوْ، بُمباي. ومرّة سافر إلى سُوراتْ.

ـ ألم تخجل لصنيعك؟

ـ أنا الذي أخجل؟ هو الذي كان عليه أن يخجل. أنت لا تفهم. لقد اشتهاها، لقد تهافت عليها. أمّا أنا فأحببتها، أحببتها حقاً، لا أريد أن أكذب، كلما كنا أنا وهي لوحدنا تصرّفتُ كأيّ جاموس لأنّي لو صمدتُ أمام مفاتنها لكان تطلّب منّي الأمر قوّة جبّارة. أعترف بهذا، لكن ليس هذا الأهمّ. أنا بجّلتها، أمّا هو فأهانها.

ـ والآخرون؟ أقصد الخدم.

ـ كانوا على علم بكلّ شيء، ماذا كان بوسعي فعله لكتْم الأمر عنهم؟

ـ ماذا لو وشوْا بك؟

ـ كانوا تحت رحمتي. ما كانوا ليجرؤوا على شيء من هذا القبيل.

ـ كنت سعيداً إذن بالوضع الذي خلقتَ؟

ـ لا، لم أكن سعيداً. كلّ شيء حدث دون أن أتوقعه. لم أكن لأتنبأ به، أعني تلك المصيبة التي كانت أسوأ ما حصل.

ـ نعم، أعرف. هل تظن أني نسيت أنها ماتت.

ـ قبل ذلك، قبل ذلك. لقد ماتت بالنسبة إليّ مرات عديدة. فجأة تأبّتْ عليّ.

ـ جسديّا؟

ـ لم تقدّم لي تفسيراً. لم أُسئ إليها. في بادئ الأمر ردتني مرات، قلتُ: لعلها مريضة أو مرهقة وتركتها وشأنها. احترمتها. قالت لي بعد ذلك إنها صارت لا تريد أن نختلي ببعضنا في غرفة واحدة، صارت لا تريد أن ألمسها.

ـ كان حبّها للإفرنجي أقوى من حبّها لك.

ـ حبّ؟ أنت لا تفقه معنى ما تقول. كان حبّها دوماً حبّاً مصطنعاً، حباً كاذباً.

ـ لماذا أعرضت عنك وازدرت بك إذن؟ ألا يكون الحبّ المصطنع عادة بلا نهاية؟

ـ صوّرت لها نفسها أنها باستطاعتها أن تُوقع الصّاحب في فخّها، خصوصاً وأنه صار في الآونة الأخيرة خاضعاً لها، قدّرت قيمة هذا الخضوع بما يقابله من المجوهرات. أرادت ألاّ تخاطر بمثل هذه الغنيمة لأنّ هذا الصنف من النساء لا ينشد إلاّ الربح.

ـ هل فكّرتَ أنت أيضاً بهذه الطريقة قبل أن تتأبّى عليك؟

ـ كان عليها ألاّ تعاملني بتلك الطريقة.

ـ إذا كانت على النحو الذي تصفُ من توخّي المصلحة الخاصّة يمكن كذلك القول إنّها مكّنتك من نفسها اضطراراً.

ـ لقد أجللتها.

ـ لعلّها هي كانت لا تعرف غير الحبّ.

ـ لم تكن قادرة على الحبّ.

ـ أنت تحكم عليها ظلما. أنا لم أتعرّف عليها لكن إذا صحّ ما قلتَ، من أنك، كما الإفرنجي، كانت لكما مشاعر عميقة إزاءها فلا بدّ أنها هي

بدورها بادلتكما المشاعر ولو إلى حدّ معين. أم هل وقعتما حقاً في حبّ وهم؟ يبدو لي وكأنّ ضريريْن اقتسما فيما بينهما امرأة أرادت بأيّة حال من الأحوال أن تخرج للنّور.

٣٦
ذخر من الفضيلة

قبل تسعة عشر قرنا تقريباً ـ لو انتبهتَ إلى سيْر الحياة هنا، يا تلميذي العزيز، لعلمتَ في الأثناء أن المهمّ لدينا لا يكمن في قرن زائد أو آخر ناقص ـ لنقل إذن: قبل زمنٍ بعيد وُلد في أُوجاَيِينِي، المدينة الشهيرة والتي تدعى اليوم أُوجّيْن، أمير أُسند إليه اسم خوّل له كل شيء وأعطاه نفوذا كبيراً. كان اسماً أعظم بكثير من أن يسند إلى شخص بمفرده بحيث كان يُنتظر ممّن حصل له شرف حمله أن يخرج من بوتقته الضيقة كإنسان وينمو داخل هذا الاسم، وهو لعمري أمل بعيد المدى ولا يتحقق إلا نادراً نظراً لأنه غالباً ما يبتلع الاسمُ حامله الذي يظلّ في الحقيقة أصغر منه بكثير. أنت تودّ الآن طبعاً أن تتعرّف على اسم الأمير، هذا الاسم العظيم، أليس كذلك؟ فِيكْرَامَادَيتِيَا. أنت تلميذ نجيب، وسوف لن أترجم لك المعنى. هو اسم رفيع، على درجة كبيرة من الرّفعة لا تسمح بأن ينزل إلى مستوى الاستعمال اليومي، لذلك تمّ اختصاره فصار فِيكْرَامْ. لم يحصل هذا لأنّ الناس القدامى لم يكن لهم متسع من الوقت وإنما لأنّ هذا الاختصار من شأنه أن يستحثّ الرّجل الشاب على أن تأتي أعماله البطولية معقولة وأقلّ طولا وتعقيداً من اسمه الأصليّ. منذ أن كان أميراً كان بطلنا يسمّى فيكرام وبقي معروفاً بلقب الملك فيكرام عبر الأجيال. أنتم الإنجليز قد تضيفون إلى الاختصار اختصارا وتقولون: فِكّ. أمّا الكتاب الذي سأحدثك عنه اليوم، يا تلميذي العزيز، فقد تسمّونه أنتم: فِكّ ومصّاص الدماء وهو اسم

قد يذكّر بقصص الأطفال، بينما هذه القصّة هي في واقع الأمر موجّهة إلى الذين لا يخشون شيئاً. لم يكن الملك فيكرام وليّ عهد مملكة أوجايييني لأنّ هذا الامتياز كان من نصيب أخيه غير الشقيق بْهارْتيرِيهَارِي. ولربّما أصبح فيكرام ناسكاً يسافر عبر البلاد حتى لا تستهويه الخطايا التي تتسبب فيها حياة الراحة والاستجمام لو لم يسبقه أخوه بْهارْتيريهاري ليسلك أعسر السّبل وأوعرها بسبب خيبة أمل لم يتعافَ منها، خيبته في الحب. تصوّر، يا تلميذي العزيز، أنك تُهدى تفّاحة، تفّاحة الخلود التي لا تفي إلاّ بحاجة شخص واحد، أن تقدّم التفاحة إلى آخرين، إلى عشيقتك، وهذه الأخيرة - انظر كيف يبدأ السقوط - تهدي التفاحة بدورها..

- خليلها؟ الحكاية أعرفها.

- مفاجأة. من أين؟

- لا أدري. عثرت عليها في مكان ما.

- سعيد هو كلّ من يعثر على حكايات قيّمة كهذه في مكان ما. حتى ولو كان هذا المكان فراشاً.

سكت برتن، تلاطمت أفكاره وتداخلت. كيف سمع أُوبَانِيتشِي بكنداليني؟ من المؤكد أنّ ناوكرام التزم بالصّمت. الخدم الآخرون لا يجرؤون على النطق ولو بكلمة واحدة. هل كان أُوبَانِيتشِي يتردّد على ضباط بريطانيين آخرين؟ لم يجرؤ على سؤاله. شعر بالخجل ورغم هذا عرف الجواب مسبقاً: لا شيء يغيب عن أنظار المعلّم. رقّاصاً كان هذا المعلّم، رقّاصاً تمّ دفعه على سبيل المزاح فتأرجح ثمّ عاد إلى هدوئه دون أن يفقد شيئاً من جدّيته. لاحظ منذ ذلك اليوم كيف أن أُوبَانِيتشِي بدأ يُقحم حياته الخاصة مع كنداليني صلب الدّرس، تنبّه إلى هذا من خلال المواضيع التي كان يطرحها والأمثلة التي قدّمها. قال المعلم فجأة وسط

حديث سار في جميع الاتّجاهات: هناك شيء واحد يجود على المرء بالمتعة الجسدية الحقيقية، ألا وهو ما يحصل عليه بصعوبة لدى امرأة لا تكون زوجته! تعوّد برتن في الأثناء على مثل هذه المفاجآت. أمّا امتعاضه من كونه كان يسمع مثل هذا الكلام من هذا المعلّم المحترم، والذي يستحقّ كلّ التّبجيل، فقد بقي في حدود المعقول. سأل بكل لطف عن صاحب هذه الحكمة. إنه حديث لفَاتْسِياَيَانَا، يا تلميذي العزيز، صاحب مؤلَّف قد تكون لك فيه فائدة كبيرة. هذا المؤلَّف اسمه كَامَاسُوتْرَا ويحتوي تماماً على ما يشير إليه العنوان: علم الحبّ.

- هل المقصود هو الحبّ الإلهي؟

- إذا قصدتَ الحبّ الذي يجعلنا الله قادرين عليه فهو ذاك، وليس حبّ الله، لأنّ المؤلّف لا يبحث كثيراً في الباب الأخير.

- لم أكن أعرف أنك تهتمّ أيضاً بمثل هذه المواضيع.

- لا تعرف؟ أمامك يجلس أكبر أخصائي في الكَامَاسُوتْرَا.

- لماذا لم تخبرني بهذا من قبل، غُورُوجِي؟

- لكن، يا تلميذي العزيز، طريق المعرفة طريق طويلة. انظر، كلّ من صار تلميذا لرسّام مُنمنمات لا يُسمح له في السنة الأولى برسم غير الخطوط المستقيمة والدوائر والخطوط الحلزونية على ألواح. أمّا عندما يبرهن التلميذ عن إتقانه للعمل وعن مهارته فإنّه يُسمح له برسم بعض زهور اللوتس، أيْلاً هنا وطواويسَ هناك. وعندما يُفلح في رسم الزهور والحيوانات أمام نظرات المعلم الصارمة فإنه يسمح له بالمشاركة في تحسين بعض جزئيات رسم منمنم. لكنه، يا تلميذي العزيز، لا يُسمح له بكلّ هذا إلاّ بعد مرور سنين. هل تريد أن أقدّم لك كلّ كنوزنا مرة

واحدة؟ ألا تخاف أن يصيبك الملل؟ لا، ستتعرّف عليها رويداً رويداً، وبعضها سوف لن تتعرّف عليه أبداً.

- كلّي تطلعٌ، غُورُوجِي. متى أستطيع قراءة هذا المؤلَّف؟

- سيكون الأمر صعبا، يا تلميذي العزيز، سأجد صعوبة في العثور عليه بين كلّ كتبي.

- أستطيع مساعدتك.

- لديّ آلاف الكتب، غالباً ما تكون صفحاتها ملتصقة ببعضها وأحياناً تنقصها صفحة العنوان.

- لا ضير، مثل هذا العمل لا يزعجني.

- لكن يقولون إنّ غبار الكتب التي تبقى متراكمة على بعضها مسموم، أنه يعلق بالرئة، وكل من يصاب به يقضّي باقي حياته وهو يكحّ.

- سيكون الأمر هيّنا.

- آه، نسيت أن أقول إنّ الكاماسوترا محرّر بسنسكريتية قديمة.

- ما رأيك في يومين أسبوعياً لتعلّم السنسكريتية؟

- باعتماد السُوتْرات التي - بقطع النظر عن حذق اللغة - لا يفقه معناها إلاّ من له معرفة حقيقية بالأزمنة الغابرة.

- وهل تشكّ في قدرة تلميذك على الالمام بها؟

- سأفكّر في الموضوع ملياً لأنّه من السّهل عدم فهم الكاماسوترا على حقيقته.

- هل لك، على الأقل، أن تلقّنني سُوترا واحدة حتى أعرف مذاقها.

- لا بأس، سُوترا واحدة لا تضرّ. دعني أفكّر، يا تلميذي العزيز، أيّة سوترا تناسب رجلاً من طرازك. سأعلّمك شيئاً من الباب السادس، الباب

الذي يتناول الحظايا بالدرس. يقول فَاتْسِيَيَانَا ـ وهنا هو في الحقيقة لا يلخّص إلاّ ما عبّر عنه دَتَّكَا قبله، الذي بدوره استقى حكمته طبعاً من مخطوطات من سبقه ـ، تقول السُّوترَا إذن: النساء لا يظهرن أبداً على حقيقتهن ويُخفين مشاعرهن إن هنّ أحببن الرّجل أو لم يحببنه، إن كنّ يرافقنه لأنه يوفّر لهنّ التسلية أم لأنهنّ يرمين فقط إلى التّخفيف من ثقل الثّروة التي هي بحوزته.

٣٧

ناوكرام

II أُومْ شوبهاغوناكانانايا نَمَهَا/ سرفافيغنوباشنتايا نَمَهَا/ أُومْ غانيشايا نَمَهَا II

ـ جئتَ متأخرا.

ـ لا أملك أجرة تونْغا.

ـ ما زلت لم تجد عملا؟

ـ لا شيء.

ـ والمكتوب؟ لا بدّ أنه كان له مفعوله.

ـ الكلّ يطردني حتى قبل أن أتمكن من تقديمه. مكتوبك العظيم يجب، قبل كل شيء، أن تتمّ قراءته على الأقل من طرف واحد من هؤلاء الإفرنج. لقد ارتكبتُ خطأً. كنت أظن أنّ لي خبرة في التعامل مع الإفرنج وتباهيت بها أيضاً، أنا سخيف، نعم. توهمتُ أنهم سيبدون اهتماماً بي. ما الذي جعلني أعتقد كل هذا؟ هل لأني ناوكرام، الرّجل الذي عاش الكثير وتعلّم الكثير وتغيّر مع تقلّب الأيام؟ وماذا يرى الإفرنج الذين لا يعرفونني؟ هم لا يرونني، لا يرونني بالتأكيد. لو ذهبت بمكتوبي مثلاً إلى برتن صاحب لمَا كان طردني ولحرّكت قصتي فضوله. كان على الأقل استمع إليّ لبضع دقائق. أنا يائس.

ـ لا تيأس، بْهاي صاحب، لا تيأس. الأمر لا يتطلب أكثر من أن يتشمّم أحد هؤلاء الإفرنجيين ما بداخل المكتوب لتتفتّح شهيته.

ـ أي لا بدّ أن يمسك أحدهم أوّلاً بالأوراق الكثيرة، أليس كذلك؟ هل هذا ما تريد أن تقول؟ يكفي أن يبدأ واحد منهم بالقراءة. وماذا سيفعل بعد قراءتها؟ لقد رمى بها فعلا أحدهم في وجهي قائلاً إنّه لا يفهم لماذا أهوّل الأمور وأختلق من مجرّد خدمتي لضابط خرافة ضخمة.

ـ لا أظنّ أنّ هذا حدث فعلاً.

ـ بلى، لقد حدث. علقت الأوساخ بالأوراق، وهذا دليل قاطع على أنّ ذلك المنزل لا ينظّف كما يجب وفي حاجة إلى خدماتي. كان المنزلَ المجاور لمنزلنا سابقاً. أما منزلنا فلا يسكنه أحد وحديقته مهملة. وهناك إشاعة تقول إنّ البيت مسكون بشبح امرأة. أنا وأنت اختلقنا خرافة كبيرة. من ذا الذي سيغذّيها الآن باستمرار؟ كان الإفرنجيَّ الوحيد الذي قابلتُ. الآخرون أرسلوا إليّ من يعلمني أنهم ليسوا في حاجة إلى خدماتي. هل، في الأثناء، صار في المدينة كثير من الخدم الماهرين؟ هؤلاء المتكبرون المتعاظمون أصيلو غُووَا ـ أنت تعرف من أقصد ـ هذه الخلائق التي تلبس لباس الإفرنج وتعلّق صليباً حول الرقبة يعوقها عن المشي. تركني أحد هؤلاء الخدم أنتظر في الشمس متعللا بأن سيّده قال إنه، نظراً لحرارة الطقس الشديدة، لا يرغب في قراءة أيّ شيء، ثم إنّه أيضاً ليس بمقدوره قراءة جميع المكاتيب والطلبات التي يقدمها كل من جاءت بهم الطريق! لا أظنّ أن الإفرنجي صدر عنه كل هذا الكلام. سألته: متى يصادف أن يأتي شخص لينتظر بمكتوب أمام الباب؟ اتّخذ الغُووَاني من إهانتي دعابة واقترح عليّ أن أُساعد يوماً كاملاً في المطبخ يحكم صاحب البيت بعده إن كنت أصلح لشيء. كان في ذلك إهانة كبيرة لي.

ـ لا تيأس.

ـ أنت خليّ البال. نعم، أعرف جيّداً أنّ مشاكل الآخرين يهُون تحمّلها. بحثت حتى عن المعلّم، شْرِي أُوبَانِيتشِي. كان لي أمل في أن يتذكّرني رغم مرور ما يناهز خمس سنين. فتح ابنه الباب. كان رجلاً فارع الطول مقارنة بأبيه قصير القامة. كان الابن حزينا لوفاة أمّه. قال إنّ أباه ذهب إلى أَشْرام يوجد في مكان ما على ضفاف الغانْغ. كان الابن لطيفاً مثل أمّه. مدّ لي يد العون لكنّي سرعان ما انصرفت. أنّى له أن يساعدني؟ إذا صدرت المساعدة عن أناس لا يقدرون عليها أصلاً فإنّها تزيد في حجم الإهانة. الحلاق في الأسفل بجانب المدخل كان هو نفسه لكنّه لم يتعرّف عليّ. لنفترض أنّه تعرّف عليّ، هل كان بوسعه التصديق على أيّ شيء؟

ـ الأوقات عصيبة، لا أحد يشك في هذا. وأنا أشعر بالحرج في هذا الوقت بالذات لأبدأ بالحديث في هذا الموضوع، لكننا نسينا أجرتي شيئاً ما. لقد تجمّع مبلغ من المال، دين ليس بالقليل. البارحة أجملتُ الحساب: عشر روبيات. لو سمحت، لديّ اقتراح أظن أنه يخدم مصلحتك ومصلحتي. علينا أن نتفق على مبلغ جملي من شأنه أن يغطّي كل ما تبقى من عمل، بقطع النظر عن طول المدة التي قد يستغرقها.

ـ لا بدّ أنك فكّرت في قيمة هذا المبلغ.

ـ أقترح أن تدفع مرة أخرى ستّ عشرة روبية وألاّ نتحدث بعدها ولو مرّة واحدة عن النقود.

٣٨
من يسلّم بالتضحية

لم تتحدّث أبداً عن شخصها. أمّا هو فقد ارتكب خطأً عندما ألح عليها في غرفة النوم. تنصّلت من طلبه بأن هيّجته. كلّما نأت عنه بشفتيها بعد تقبيله لم يستطع صرف نظره عن فمها. بينما كانت رابضة فوقه وهي تضغط بثقل خاصرتيها حملق هو في نذير فمها والتعابير البرّاقة لبَكَمها. انحلّت ضفيرة شعرها ـ كلّما هدّد الحزن داخلها بشلّ كل شيء، اندفعت إلى داخل عالم الشهوانية، هذا ما فهمه على الأقل ـ، ثقلت أنفاسها، انفضّت القلادة في رقبتها وتدحرجت اللآلئ من على نهديها وسقطت عليه. كان ينظر في كل جهة، إلى كل شيء، كانت عيناه تتنقّلان بسرعة فوق شهوتهما المتزايدة. زادت أنفاسها ثقلا، أوحى لها بالاتّجاه الذي رام السّير فيه دون ترقّب، زادت أنفاسها ثقلا على ثقل، أمّا هو فقد فاتها بعدُ ببعض الأحاسيس لمّا أمسكت عن الحراك ووضعت يديها على صدره ثم بدأت بالكلام وهي جاثمة فوقه بينما خفق هو من فرط إعجابه برجولته، تكلّمت في جمل كاملة وبنبرة معهودة كانت في الظاهر تسرُد سرداً عادياً لكنّها، في الحقيقة، استقطبت كل انتباهه. كان عليه أن يخفّف من وقع هزّاته ليتمكّن من تتبّع كلماتها التي كانت تصف رجلاً حكيما، براهمانيا يدعى أوْدَالاكَا، لُقّن وهو شابّ كلّ أنواع الطقوس التي جاءت في نصوص فِيدَا، حتى تلك التي احتفت بالجِماع بين الرّجل والمرأة بوصفه ضربا من التضحية. لكن في يوم من الأيام اشتهى أوْدالاكَا ـ الذي كان عالماً بالقيمة

الرمزية لفروج النساء وحذِق التحدث عنها ـ إحدى الطالبات وتُسمى فِيجَايَا. تدبّر الأمر واتّحدا حسب ما أملته الطقوس، غير أن هذا لم يكفه وتاق إلى جماع خارج ما أمرت به العادات، وهكذا اتحد هذان الشابان وفاقت الشهوة واللذة اللتان وفّرا لبعضهما كلّ شيء آخر واتّخذتا معنى تخطّى في قيمته حتى الطقس نفسه الذي تمكّن الناس بواسطته من الإبقاء على اتصالهم بالآلهة. سكتت كنداليني. سأل برتن: وماذا بعد؟ حتى الآن سردْت قصصكِ حتى النهاية. ظلّت صامتة. وجد صمتها طريقه إليه واندسّ بداخله. خفض بصره فحطّ على ذلك الخط الناعم من الشّعرات وكأن صفّا من النّمل الضئيل دبّ من عظم عانتها مروراً ببطنها حتى سرّتها ومن هناك حتى المنخفض الصغير بين نهديها. مرّر يده على شُعيراتها، على هذا الرُّومَافَالِي المترفّع الذي، حسب قولها، يصِلُ سحره الأرضَ بالسماء، هذه العلامة الحقيقية لجمالها كما كانت تعتقد. لم يكن موافقا، لكنّها كانت تفضل الانتحار على أن تقتلع تلك الشعيرات. اتّبعت يده الخط الواصل بين صدرها وأسفل بطنها. لمّا نظرا إلى بعضهما من جديد ظنّ أنه اكتشف بصيصاً من المحبة في بحيرة غائرة من عينيها. ابتسم لها ففهمت من ابتسامته أن عينيها وعدتا بالكثير الكثير وعادت تتحرّك من جديد دافعة به إلى منطقة نفوذها.

كانت أكثر شراهة من المألوف، تخمش وتخدش وتعضّ وكأنّها تحاول الإبقاء على شيء من مذاق جسمه تحسّبا لانصرافه غدا، وكأنّها بإمكانها ترك زخارف على جلدته، معالم لا تمّحي. خرجا منهكين من نزال الحب، من أعذب اللحظات، من الدقائق التي لم يثقله خلالها تفكير، قال في نفسه: أجمل اللحظات هي تلك التي لم أشعر بها وهي تمرّ. أدرك أنها انقضت بعدُ. استقام جالساً وامتصّ شفتيها وكأنه يبحث عن رحيق مخدِّر. أمّا هي فأمسكت بيده اليسرى وأخذت تعبث بأصابعه،

شبكتْها، جذبتها من أسفلها حتى الطقطقة وانسابت في لحن برز معناه رويداً رويداً مع ظهور صوتها المترنّم:

في يوم صيف

في الظلّ تحت الشّجرة

استلقت، تمدّدت

وشمّرت عن الثياب

حماية لرأسها

هكذا قالت، نعم كذا قالت،

من نور القمر الوضّاء.

٣٩

ناوكرام

II أُومْ ياغناكايايا نَمَهَا/ سرفافيغنوباشنتايا نَمَهَا/ أُومْ غانيشايا نَمَهَا II

في اليوم الثّاني بدأ اللاهية يتحيّر. هذا لا يعني أنّ ناوكرام لم يسبق له أبداً أن تخلّف عن موعد. كان مرة مريضاً ومرة أخرى لم يأت لأنّه آخذه من أجل إهانة مزعومة. لكن اللاهية تمّ إعلامه في كلتا الحالتين بغيابه مسبقاً، أمّا هذه المرة فلم يكن هناك سبب لعدم مجيئه. كان في الأيام الأخيرة مكسور الجناح أكثر من العادة، خاملا وبدون إرادة تقريباً. تلك هي المعضلة إذا تعلّق الأمر بالطبقات السفلى، كلّما لقيت معارضة إلاّ واستسلمت للهزيمة. إنّه لمن المخجل أن يقضي المرء كامل اليوم جالساً على حافة الطريق في انتظار شخص وسط كلّ هذه الضّباع التي لا تترك فرصة تمرّ دون أن تسخر منه. لم يحتمل الكتبة الآخرون أن يكون له زبون منذ أسابيع متتالية، يزوره يومياً في فصل كذاك الفصل الذي اعتُبر فيه تكليفٌ بعمل لمدّة أسبوع بركة. تملّكه الخوف. ماذا لو يختفي ناوكرام، لو توقّف التّقرير الآن؟ كلّ هذا من شأنه أن يشوّه الحكاية. لا بدّ من الحيلولة دونه، لقد وصلا تقريباً إلى النهاية. الفاجعة هي أن يُوقفا الآن كل شيء. فوجئ بمدى تخوّفه الذي جعله في النهاية ينهض. عند الظهر قرّر البحث عن ناوكرام، مهمّة صعبة لا محالة. كان لا يعرف مقرّ سكناه بل فقط أنّه يقيم عند أقارب له بقرب قصر السّرْكَازْفَادَا. سأل في جميع المحلاّت التجارية للحيّ. هل تعرفون رجلاً فارع الطّول ومتأوّد الظّهر

اشتغل في السّابق كخادم لدى إفرنجي؟ هل تعرفون شخصاً يدعى ناوكرام؟ لا أحد كان يعرفه. لمّا عثر عليه في آخر الأمر، لم يكن ذلك إلاّ من باب الصدفة. لمّا آلمته رجلاه وشعر بالعطش الشديد دخل إلى مَايخَنًا. وقبل أن يطلب مشروبا رأى شخصاً يعرفه، رأى ناوكرام جالساً لوحده أمام طاولة وفاقداً تقريباً لوعيه.

ـ كنت أظن أنك لا تتناول الدَّارُو.

ـ الأيام غير العادية تتطلب مشروبات غير عادية.

ـ ماذا حدث؟

ـ لا شيء. وصلت إلى آخر الطريق، لا غير.

ـ كيف؟

ـ شيء لا يعنيك. عملنا المشترك.. كيف أعبّر عنه.. وصل إلى نهايته.

ـ لا تريد أن تواصل؟

ـ لا أستطيع. أنا الآن رجل لا قيمة له. لا أملك روبية واحدة وليست لي إلاّ الديون.

ـ لمن أنت مدينٌ؟

ـ انتقلت من أخ إلى آخر، من زيد إلى عمرو، ولا أحد أقرضني شيئاً، أمّا الذين قد يقرضونني شيئاً فيريدون قبل كل شيء استرجاع المال الذي سبق وأن أقرضوني من قبل. أريد أن أقول إنّ لي ديونا لدى الجميع تقريباً. لأنّ مدة تحرير هذه الرسالة طالت، هذه الرسالة التي هي في الحقيقة ليست رسالة.

ـ مستحيل أن تتخلّى الآن عن الموضوع.

ـ أنت، نعم أنت الذي مطّطت الحكاية لتتمكّن من تفليسي. لقد نهبتني وكان لا بدّ لي من التّداين. رهنتُ جميع الأشياء التي جئت بها من أوروبا. استجديتُ لدى أقاربي لأحصل لك على أجرك بكلّ صعوبة. ضلّلتَني ونصبتَ لي فخّا. أنا الآن لي ديون في كل المدينة، وعمّ حصلت في المقابل؟ لم أحصل على شيء في يدي. باستثناء أوراق مخطوطة لا يريد أحد قراءتها.

ـ من العبث أن تسلّم الآن أمرك. استمع إلي جيداً، بالعكس، إذا وصل الأمر بك إلى هذه الحال فعليك أن تقوم بواجبك حتى النهاية. أنت تذكّرني برجل تم القبض عليه منذ سنين بصدد السرقة. خيّرهُ القاضي بين أن يأكل كيلوغراماً من الملح، أن يُضرب مائة مرة بالعصا أو أن يدفع غرامة مالية.

ـ أنت الذي تتكلم الآن هراءً.

ـ اختار اللص الملح فأكل منه، وأكل حتى العذاب، ولمّا كاد ينتهي من أكله توهّم أنّه صار لا يقدر على أكل ولو حبّة واحدة أخرى وصاح: كفى، كفى ملحا، أفضّل الضرب بالعصا! بعد أن نال تسعين أو خمسا وتسعين ضربة صوّرت له نفسه أنّه ليس بإمكانه تحمّل ولو ضربة واحدة أخرى وصاح: كفى، كفى ضربا، دعوني بالله عليكم أدفع الغرامة المالية!

ـ أنت اللاهية الذكي، أمّا أنا فخادم أبله لا يفقه شيئاً. أنت تستطيع الكتابة والقراءة. أنت براهماني.

ـ لا يهمّ إن لم تبق لك نقود، أنا مستعدّ أن أؤجل لك موعد الدفع.

ـ يا له من كرم يأتي هكذا فجأة! لا أظن أنّ أربع روبيات ستكون كافية. هل تتذكّر؟ ثماني روبيات أخرى على الأقل.

ـ لنترك الحكايات القديمة جانباً. إنّها مهنتي.

ـ مهنة من أشرف المهن على الإطلاق. اللاهية المحترم في حاجة ماسّة إلى محتاجين يسهل عليه استغلالهم. يا للمصيبة!

ـ أرجوك! سترى النّفع الحاصل بعد أن تكون سردت كامل القصة بكل جوارحك وتخلصت منها. لننْسَ النقود.

ـ هل يعني هذا أنك تنوي أن تعيد إليّ كل ما دفعتُ؟

ـ قصّتك، كما سبق أن قلت لك، عزيزة عليّ، لذلك سأتبرع بالورق والحبر وعليك فقط أن تصبر بضعة أيام أخرى. في النهاية سأمدّك بمكتوب لم يسبق لخادم أن مسكه بين يديه.

ـ كلّ هذا لا يكفيني. ليس جيّداً بما فيه الكفاية. عليك أن تعرض عليّ شيئاً آخر.

ـ حسن، استمع الآن جيداً إلى آخر عرض لديّ.

ـ سنرى.

٤٠

بدون مقارنة

في اليوم الذي أصابها فيه المرض طلبت كنداليني من برتن أن يتزوّجها. عزا نحافة وشحوب وجهها إلى توتر أعصابها. شعُر أنه أُخذ على حين غرة ثم، بعد ذلك، رأى أنه، بحكم ردّ فعله الذي كان يدعو إلى الشفقة، ليس أهلا لها بالمرة. تورّط في عبارات صوّرت تملّصه. قاطعته بضحكة صفراء، هوّن عليك، سيّدي، سوف لن نطوف أربع مرات حول النار المقدسة ولن نتقدم إلى المذبح. طلبي يقتصر فقط على الغَانْدهَازفَا ـ فِيفَاهَا، وهو طقس متواضع لا يتطلّب أكثر من اتفاقنا وإكليلين، على أنّنا سنبقى معاً الوقت الذي نريد أن نقضّيه مع بعضنا. هو احتفال لا يعتمد غير البديهيات والعملية لا تحتاج حتى إلى إعانة الآخرين لأن القانذهازفا، أي الشعراء السّماويين منشدي قصائد الحب سوف يكونون الشّهود بالنسبة إلينا. قال: ما هذا العبث؟ بأية فائدة يعود عليك مثل هذا الاتفاق؟ ترجّته أن يفهم أنّ هذا مهمّ بالنسبة إليها. بيّنت أنها محرّم عليها أن تتزوّج بشرا. لمَ لا؟ لا أستطيع أن أفسر لك هذا، الأمر له علاقة بالعقيدة، بالولاء والإخلاص لمعبد. لم يُبد تفهّما. ترجّته بعينين ذابلتين. اعتبرْني وكأني متزوجة، من آلهة، لا أستطيع أن أقول لك أكثر. لكنكِ، رغم هذا، مسموح لك بالتّزوج زواجا ثانيا؟ هذا الزواج يعني بالنسبة إليّ تحرّرا، لن تستطيع فهم هذا في هذه اللحظة، لكن إذا وثقت بي فأنا أعدك بأنك ستفهمه فيما بعد. كان عليه أن يهدّئ من روعها

بالإعلان عن موافقته للتوّ، كان عليه أن يدخل البهجة على تلك النظرة الشاحبة والناطقة استعطافاً بقوله «نعم»، غير أنه، قبل كل شيء، شدّته الرغبة في كسر الجمود المخيّم على علاقتهما. لم يسمح له انشغاله الكبير باستغلال الموقف بأن يقدّره تقديراً سليماً. نخر بعد ذلك الندم والحيرة في نفسه وتساءل إن كانت تعلم حقّاً كم هي مريضة أو إن كان هو زاد مرضَها استفحالاً لمّا قال لها إنّه سيمدّها بجواب قريباً رغم أن الجواب كان جاهزاً. هل كان سينقذ حياتها لو اقترنا ببعضهما وشعراء الحب شهود؟ مجرّد الاعتقاد بأنّ هذا ممكن هو في حدّ ذاته تعبير عن اضطرابه.

٤١

ناوكرام

II أُومْ أميتايا نَمَهَا / سرفافيغنوباشنتايا نَمَهَا / أُومْ غانيشايا نَمَهَا II

ـ أنا الذي وجدتها ميتة. هكذا أراد قدري. كان عليّ أن أشبّك يديها. لمّا أرسلت من يأتي ببرتن صاحب كنت قد أزلت كل الآثار والمظاهر البشعة بعدُ. أراد للتوّ أن ينادي الطبيب العجوز. لا أدري كم مرّة وجب عليّ تكرار «إنّها ميتة» قبل أن يدرك مدى ما حصل. جلس على حافة السرير ولم ينهض لساعات. كان لا بدّ أن أصرف الشؤون العملية. من كان ليقوم بهذا مكاني؟ كانت الأمور على قدر من الصّعوبة لم نقرأ له حسابا. لقد رفضوا حرقها.

ـ من؟

ـ القساوسة. برتن صاحب لم يصدّق. أصابه الذهول وتملّكه الغضب إلى درجة أني كنت أظن أنه سيحصل على عملية الحرق بقوة السلاح. أردت أن أخفي عنه السبب، تجنّبت أسئلته لكنه حاصرني من جميع الجهات فأُجبرت في النهاية على أن أقول له إنّ المسألة مسألة طهارة. سأل إن كانت علاقتها به هي سبب عدم طهارتها. قلت: نعم، لهذا السبب أيضاً.

ـ هل اهتديتما إلى حلّ؟

ـ التقيتُ رجلاً غير بعيد عن مكان حرق الجثامين. كان أحد

المجذومين الذين تسكّعوا هناك. كان نصف وجهه قد تآكل وحتى النصف من لسانه. كان منظره لا يُحتمل. تكلّم بصوت من يُسلخ وهو حيّ. هل ضللت طريقك يا بنيّ؟ أردت الفرار، لكني بقيت واقفاً في نهاية الأمر. لا تسلني عن السّبب. أخبرته حتّى بما كان يشغل بالنا. قال: سنساعدكما. ائتيا بالجثمان إلى هنا، في الليل، عندما يكون الآخرون نياماً، وسنقوم بما يجب القيام به. لدينا أيضاً بُوجَارِي، إن أردتما، فحتّى بُصاقه أقدس من جميع المنافقين الذين ردّوكما. إنّهم يختبئون ليلاً ليأكلوا ما غنموا به نهارا. لم يسبق أن وجدتُ نفسي يوماً مكرهاً على تقبّل مساعدة كتلك المرّة. لم يكن لدينا حلّ آخر. كان الاقتراح جيّداً رغم أنه جاء بصوت مُرعد. قضّيتُ وقتاً طويلاً في إقناع برتن صاحب إلى أن فهم أننا لم يبق لنا خيار آخر. كل نفوذه وسلطته لم يجديا نفعا. أردت أن أبحث عن متطوعين من بين الخدم لإعانتنا على حمل الجثة إلى النهر فمنعني. قال: سنقوم بالعمل بأنفسنا. أنا وأنت فقط. هذا واجبنا. أحكمنا لفّها ببعض الملاءات. انتظرنا إلى أن ذهب الجميع ليناموا. فتحتُ باب البُوبُوخَنَا ثمّ الباب الخارجي، أمسكت برجليها وأمسك برتن صاحب برأسها وخرجنا..

دوّن اللاهية كل شيء، تتالت السطور وامتلأت بحكاية ناوكرام، لكن بين السطور رفرفت أفكاره هو، بعيداً عن هذا الوصف الباهت. العاصفة والموت ومنتصف الليل ومكان حرق الجثث، يا له من مشهد! وهذا الرّجل الذي لا خيال له وصَف الكلّ وصفاً لا يتعدّى كونه عمليّة مملّة لجرد الأشياء. أين بقي العراة وقليلو الحياء الذين تكفّلوا بحراسة أواني فاضت مجوهرات؟ مجوهرات دفنها طمّاعون بُخلاء نزع عنهم الشحّ كل خوف؟ أين بقي اليُوغي الذي يعزف موسيقى الحفلات الفظيعة وهو يطرق جمجمة بعظميْ قصبة. صار اللاهية لا يستمع إلى محدّثه ولم يصبر حتى

اللحظة التي انصرف فيها ناوكرام إلاّ بصعوبة. أسرع إلى منزله، لم يكترث بتحيّة زوجته وانزوى للتوّ في الحجرة الثانية حرصاً منه على ألاّ تتبخر ولو فكرة واحدة من أفكاره قبل أن يضعها على الورق. دوّن الصورة الأولى التي خطرت بباله على عجل، رسم سُحباً في لون الصدإ تدافعت فوق السهل العالي لقبّة السماء، سُحباً غير متناسقة كمردة ثقيلي الحركة. وأمامها، في المقدّمة وفي وسط الصّورة رسمَ رجُلين، خادما وسيّده، كلاهما غريب في هذا المكان وفي هذه الليلة وتجْمع بينهما طُرُق أوفر عددا ممّا يعلمان، ممّا يستطيعان الاعتراف به. يجهدان في حمل جثمان، في حمل الحبيبة المتوفّاة، حبيبتهما. نور الهلال ليس أكثر بريقاً من ناب فيل خارج من حفرة كلّها وحل. رفع السيّد الجثمان على كتفه، إنّه رجل قوي يقدر على تحمّل عبء حبّ ثقيل قديم وسط العاصفة. أمّا الرّجل الآخر، الخادم، فيتحسّس المسلك بخطوات مرتبكة وكأنه يتوقّع أن يتعثّر في كل لحظة. يبدأ المطر في النّزول. أرضية المسلك تتغطّى ببريق خافت بياضه مروّع. شعاع ضوئي بعيد يخترق جميع الحواجز المتشابكة وكأنه خط من ذهب، عِرق على سطح حجر المحكّ. الرجلان يتّبعان هذا الشعاع الضوئي، إمّا لأنه لا وجود لضوء آخر أو لأن الخادم شعر أنه متأتّ من نيران حرق الجثث التي شقّت الليل وكلها تساؤل. يصلان إلى السّمَاشَانَا، إلى الفضاء المفتوح بجانب النهر، إلى مكان يحسن ألاّ يذهب إليه المرء حتّى في وضح النهار. مكان مهجور، هكذا يبدو للرّجلين من أوّل وهلة، ناهيك أن الخادم يتساءل إن كان يعيش دعابة ثقيلة. لكن سرعان ما تتصاعد رائحة الموت الكريهة من الأرض. يبقى الخادم مرتبكا في مكانه. كيف سيستطيع مستقبلاً أن يتخلص من القذارة بعد أن وطأت قدماه هذا المكان؟ أما السيّد الذي، بعكس الخادم، يتّخذ من جهله درعاً واقياً، فإنّه يواصل السير بينما تثقل الجثة مشيته. يمشي فوق عظام ملقاة

على الأرض فيُحدث صوتا يشبه صرير أسنان لمارد جبّار. يحجب الخادم فاه بطرف عمامته ويتبع سيده. رقصت أمامهما ألسنة اللهب المخيفة في احمرارها القاتم وكأنها بنات آوى تلتهم البقية المتبقية من الحياة البشرية وتنهشها حتى العظام. تحوم فوق النار أطياف خفيفة عابرة تريد أن تتأكّد من أنّ الأجسام التي تم تخليصها منها احترقت وصارت رمادا، منتظرة أن يكون الجسم الجديد الذي ستسكنه لاحقاً مستعدّاً لإيوائها. هناك أيضاً أطياف أخرى حائمة تعوّدت بعدُ على تواجدها اللاّنهائي في السّمَاشَانَا. أما أرواح الذين قُتلوا غدراً فهي بدورها تجُول تائهة في المكان بأطرافها التي تقطر دما تتبعها الهياكل العظمية لقاتليها وقد شُدّت عظامها الهشّة إلى بعضها بآخر ما تبقّى لها من أوتار. في الأثناء تستمرّ الريح في نحيبها والنّهر الفائض بدماء المستغيثين ـ ولا مغيث لهم ـ لا يتوقّف عن الغرغرة.
الرجلان، اللذان يُبديان من الشجاعة ما لا يقدر عليه عدد كبير من الرجال، ليسَا وحدهما. في الطرف الآخر من مكان حرق الجثامين تجلس مجموعة من البؤساء تحت غطاء من القماش المشمّع يجهد في صدّ الريح والمطر دون جدوى. يتوسّط المجموعة الرجل ذو نصف الوجه وبجانبه عصاً مغروسة في الأرض غرسا محكما. يرتدي الرجل دْهُوتِي أمْغر اللّون بينما لا يغطي أعلى جسمه سوى شعره الطويل المنسدل على صدره في ضفائر ملوثة بالدهن ومقمّلة. إنه لشعرُ حصان. خطوط بيضاء من الكلس تُسيّج جسده ومِشدّ مصنوع من العظام يحيط بخاصرته. إنّه تمثال بلا حراك. يقف ويقول: وصلتما ـ ليس في كلامه ترحيب ـ وتريدان التخلّص من هذا الشّيء. يقاطعه السيّد: لا تذكرها بهذه الطريقة. والخادم يتعجّب لكون الرّجل لم يفقد صوابه. لقد جمعنا بعض الحطب. نحن نفضّل نباتات الظل على غيرها، أمّا بالنسبة لهذه التي لم نعرفها من قبل وصارت الآن واحدة منّا، فسنضيف إلى الحطب المحترق قليلاً من خشب

الصندل. بهذا ستكون لوداعها رائحة أذكى من رائحة أيّ بْرَاهْمَانِي نَاغَارْ. يُمدَّد السيّد الجثمان على الأرض. انتهت مهمتكما الآن. لا بل نريد أن نراكما تغادران المكان. لسنا في حاجة إليكما، إلاّ إذا فضّلتما البقاء وأردتما أن تكونا شاهدين على كابوسكما.

٤٢

بدون حواجز

ـ تعجّبت لدى قراءتي الأسبوع الماضي لبُمباي تايْمز من النّجاحات التي تقول الصّحيفة إنّنا حققناها في مجال التبشير.

ـ بالنظر إلى ما عليه الأحوال، ملازم أوّل أوْدرِي، لا أظن أننا في وضع سيء.

ـ لسنا في وضع سيء؟ عجبا. وهل هناك ما هو أسوأ؟

ـ علينا أن نتحلى بالصبر.

ـ طبعاً، الصبر هو من أقدس واجبات المواطن.

ـ هل تشكّ حقاً في كون الأمور تسير إلى الأمام؟ هي تتقدّم، لكن أعترف أنّها تسير إلى الأمام بتؤدة وتبصّر.

ـ حضرة القسّيس بُوسْتُومْ ، يبدو لي أنّ النتائج التي حصلنا عليها لا تتماشى البتة وحجم الإمكانيات التي سُخّرت للغرض. الهندوس لو أُعطوا نصف المال ونصف الوقت لتمكّنوا من إدخال المسيحيين من بيننا إلى ديانتهم بنسبة تساوي ضعف من اعتنق منهم هم ديننا.

ـ صعب جدّاً تصوّر مثل هذا، مسْتر برتن!

ـ كلام فارغ، يا دِكّ، أنت تعرف جيّداً أن الهندوس لا يعتنقون ديانة أخرى.

عشاء فاخر في نادي الكتيبة. عشاء بين رئيسين في طرفي المائدة، رجلين مسنين ذاب دماغاهما بمفعول القيظ ولم يتذكّرا إلا ما لُقنا بأكبر قدر ممكن من التّركيز، أي تلك التمارين التي تدرّبا عليها باستمرار. لم يسمحا بأن تُسمِّم أحاديث جدّية طعام العشاء، ضربٌ من الانضباط طالباً به وما كانا بدورهما ليتقيّدا به في مثل تلك المناسبة لأنّ أحد الرّجلين المسنّين كان يعاني من زكام حقيقيّ لازمه منذ أوّل أمطار نزلت ويرزح كلّيا تحت شخير أنفاسه الثقيلة، أما الآخر فكان لا يسمع إلاّ إذا صرخ المتكلم في أذنه. تبسّم لذلك الحديث المتحمّس بين ريتشارد برتن، الملازم أوّل أَمبرُوزِي أَوْدرِي وحضرة القسّيس بُوسْتوم ثمّ حشر قطعة من لحم الدّيك الرومي المطبوخ في فمه.

ـ شعب حكيم، أكثر حكمة منّا. تبشير طوعيّ؟ كيف؟ في هذا تضادّ. لماذا نجح البرتغاليون في جزيرة غُووَا؟ لأنّ الكنيسة الكاثوليكية تحذق وسائل الإقناع أكثر من الأنجليكانية؟ لا والله! ليس هناك غير تفسير واحد: القوّة. استخدام القوة دون لفّ ودوران. فَاسْكُو دِي جَامَا أخذ معه في رحلته ثمانية رهبان فرنسيسكانيين وثمانية قساوسة معاونين. كان عليهم أن يدْعوا إلى الديانة المسيحية لكنّ الكرادلة رجّحوا أنّ الوعظ سوف لن يُؤتي أكله، وبما أن التجربة تعلم الحنكة فقد قرّروا ترك مسألة اعتناق الكاثوليكية لمروا لحدّ السيف. فقبْل أن تطأ رجلاه كاليكوت أقدم فَاسكُو دي جَامَا الموفّق في أعماله، والذي يتباهى به وطنه كغاز للبلدان والبشر، على حرق سفينة كاملة من الحجّاج المسلمين. أمّا بعد هبوطه إلى اليابسة فلم يتردّد كثيراً ـ معذرة لطريقة التعبير هذه ـ وأمر بقتل جميع صيادي السّمك المعارضين لغزوه رميا بالرصاص. بين عشية وضحاها صار الهنود

يلبسون لباس البرتغاليين، اتخذوا لأنفسهم أسماء برتغالية، تناولوا من المشروبات الكحولية ما لم يشربه البرتغاليون أنفسهم وتردّدوا على القدّاس أكثر منهم.

ـ أمّا نحن فنؤمن بالكلمة، بالرسالة.

ـ واضح، سيّداي، أنّكما أكثر مني خبرة بالموضوع، ولذلك لعلّكما تستطيعان مساعدتي على الفهم أكثر. سمعتُ من قال إنّ المبشرين البرتغاليين تنكّروا، وقيل إنّهم جابوا البلاد بصفتهم نسّاكا متعبّدين في لباس رثّ ولقّنوا الأهالي أيضاً خليطاً من الإنجيل وقصص الأولياء المحلّيين.

ـ إنجيل مَاسَالاَ.

ـ وقيل إنهم أثناء مواكب الطّواف كانوا يضعون بجانب القديسين على المحامل بعض آلهة الهندوس. شيء في منتهى الغرابة..

ـ الأجدر بنا أن نقول: تجديف!

ـ لكنّه لا يخلو من مسحة فنّية ولا يفتقر إلى النّجاح.

مثل هذا الكلام يمكن احتماله، نظراً لأنّ الكلّ يرحّب بكل فرصة تسمح بتجاذب أطراف الحديث. لقد تعذّب كثيراً أثناء مأدبة العشاء الأخيرة في نادي الكتيبة لمّا تمّ تكريم أحد الأشخاص وتحدّث قائد اللواء معدّداً مناقبه وسط الحرّ الخانق متعرّضا إلى تفاصيل حياة مهنية مثيرة إثارة الذباب فوق مائدة الطّعام. من حين لآخر تقدّم أحد الكِدْمُوتغَارْ بعمامته الكبيرة في حجم تذكار صيد إلى الأمام لطرده فرفّ منديله بجانب الرؤوس المطأطأة لأولئك الذين غابوا في نومهم. ولمّا وصل قائد اللواء إلى نهاية خطبته الرسمية، الجامدة والمتملّقة ثمّ نادى: Hipp-Hipp، تحيّة لبطل الأمسية، لم يجد نداؤه آذاناً صاغية. لم يغلب النعاس أولئك الذين تعوّدوا على النّعاس في مثل هذه المناسبات فحسب بل كل الذين جلسوا حول المائدة.

بقي قائد اللواء واقفاً كالصنم في مكانه واحمرّ وجهه فأسرع برتن إلى نجدته وبيده كأس من المَادَايْرَا تكاد تكون فارغة. صاح: Hurra بملء رئتيه فخرجت كل الرؤوس من سُباتها بينما اهتزّت عضلات الوجوه مرفرفة كالطيور وقد سقط في عشها حجر. ابتسم برتن في اتجاه قائد اللواء مشجعاً إياه على أن يتكفّل بالهتاف Hipp-Hipp مرّة ثانية، ولمّا لم يتمّ له ما أراد بادر هو للتوّ بإنشاد For He's A jolly Good Fellow. حاول الآخرون اللحاق به جاهدين وهم يصيحون بأصوات متحشرجة ويكحّون في حين وقف قائد اللواء في طرف المائدة وكأنّه قائد عامّ للقوات المسلحة تشتّت جنوده بلا رجعة. تداخلت الأصوات وتصادمت، حقّاً، Nobody Can Deny، ناهيك أنّ البيت الأخير، شأنه شأن كل الأمسية التي تعكّر صفوها، تطايَر في جميع الجهات تطايُر الماء وهو يندلق.

- وهل لهذا النّجاح من معنى إذا فقد المرء ركائز إيمانه؟

- هل تفضّل أن يسخر منّا الوثنيون لأنّ مؤسس ديانتنا كان ابن بَاذَاهِي؟

- وهل مهنة يوسف مهمّة إلى هذا الحدّ؟ لنجعل منه محاربا، لنختلق له أيّة مهنة أخرى لا تكون لزاما على الطبقة الدّنيا وسيكون الوعظ أيسر لا محالة.

- شكراً لك على اهتمامك، يا برتن. لو بدأنا بهذا لوجَب علينا منذ الآن إعادة كتابة جميع النّصوص المقدّسة.

- الفكرة جيّدة. لنفترض أنّ المسيح ابن أمير من ماثُورَا وأنّ الماهاردجا الشرّير أمر بقتل جميع الأطفال في كامل المنطقة لأن نبوءة ما تكهّنت له بالويل بسبب المخلّص الذي وُلد عند منتصف الليل..

- مهلا يا صديقي، مهلا.

- مخادعة الجموع وتغذيتها بالخرافات هو في الحقيقة إنجاز عظيم،

لكننا قد نجلب إلينا الأنظار أكثر لو جعلنا مسيحنا أصيل مَاثُورًا ينتصر على غول أو مارد جبّار أو شيء من هذا القبيل. أو أن يخنق حيّة خبيثة شريرة. إنّ مثل هذا ممكن.

أثناء مناسبات العشاء هذه كانت تُقدّم كميّة كبيرة من لحم الخروف. أمّا اللّحم البقري فكان لا يُقدّم البتّة لأنّ السّبب واضح: أكل لحم البقر يُعتبر طريقة أكثر تحضّرا ومقدّمة لتعاطي أكل لحوم البشر. أما لحم الخنزير المحمّر فلا يمكن تصوّره يُقدّم في النادي لأن كلاّ من الحاضرين سبق له وأن رأى الخنازير وهي ترتع في الأسواق، وأقلّ ما يمكن أن يقال عنها إنها تستحمّ في القذارة، زد على هذا أنّ المعاونين في المطبخ كانوا كلّهم من المسلمين. من حين لآخر جيء بلحم مملّح من فخذ الخنزير اشتهاه الجميع كما يشتهون ابنة عمّ جميلة زلّت بها القدم يوماً ووجب إلباسها حلّة مبالغ في استقامتها وتسمية اللحم المملّح وِلاَيَتِي بَكْرِي، أي خروفاً أوروبيا، أو بعبارة أخرى: الحمل الوديع. طبعاً كان هناك من بين الهندوس من لم يمسّ قط لحما في حياته، تصرّفٌ غريب وجد له قائد اللواء تفسيراً على غاية من البساطة كرّره على شرف كل قادم جديد قصد الإفادة: الهندوس يؤمنون بالتناسخ، أليس كذلك؟ هم يعتقدون أن كلّ من مات ولم يعش حياة قوامها الاستقامة تُعاد ولادته في شكل حيوان، الأمر واضح إلى هذا الحدّ، لهذا السبب هم يخشون إن أكلوا لحما أن يكونوا افترسوا جدّة لهم، أليس كذلك؟

ـ لماذا لا نستعمل وسائل أخرى؟

ـ تعني مكان الإنجيل، يا أمبرُوزي؟

ـ لا. مكان الوعظ واستعمال القوّة. نستطيع الزيادة في عدد المسيحيين بتوزيعنا الأكل مجانا. بفضل سخائنا يمكننا إصابة عصفورين

بحجر واحد: تقديم غذاء صحّي ونافع للناس والرّفع من عدد المسيحيين. كذا ستلمسون صعود المُعامل بين عدد أكياس الأرزّ وحالات التعميد.

- قد يكون هذا ناجحا، لكن فكّر مليّاً في شبكة التوزيع التي سنكون في حاجة إليها لإغراء كلّ المسيحيين الجدد بالبقاء على ديانتهم الجديدة. لا! لماذا أنتم حريصون إلى حدّ كبير على أن تجعلوا من وثنيين صالحين مسيحيين لا يصلحون؟ أم هل تظنّون حقّاً أنّنا يكفينا أن نجعل الهندوس يلبسون لباس الأوروبيين وأن ندربهم قليلاً لتتحوّل أفكارهم ومشاعرهم إلى أفكار ومشاعر أوروبية؟ يا للحماقة! وماذا نقول عن السِّيبُوي؟ ألا يشعرون بكثير من عدم الراحة داخل القماش الخشن الذي حشرناهم فيه؟

- ما أن يغادرنا هؤلاء الجماعة حتى ينزعوا البذلة العسكرية ويرتدوا كُورْتا خفيفة. ماذا نعرف عنهم؟ لهذا علينا ألاّ نستغرب إن هم صوّبوا يوماً أسلحتهم في اتّجاهنا، يجب ألاّ يصيبنا الذهول، لا لشيء إلا لأنّ أنفسنا تصوّر لنا أننا نعاملهم معاملة حسنة وأنّهم بالتالي مدينون لنا بالوفاء.

- هل أنت على اتصال دائم بشياهك، حضرة القسّيس؟ هل سبق وأن تساءلت كيف يقضي هؤلاء الناس أوقات فراغهم؟ كيف يتصرّفون ويتحدثون عنا ولأيّة مؤامرات يخطّطون؟

- أظنّ أنّي سمعت ما يكفيني من النقاشات التي غلبت عليها النشوة، حان وقت الانصراف.

- استمعْ إلى ما سأقوله الآن، حضرة القسّيس. كل قوّتنا ترتكز على حقيقة واحدة تتمثّل في أنّ الأهالي يحسنون الظنّ بنا في نفس الوقت الذي يسيئون فيه الظنّ بأنفسهم. يوم يتعرّفون علينا أكثر - وهذا اليوم آت لا محالة إن هم اعتنقوا ديانتنا بأعداد كبيرة - سوف يكفّون عن احترامنا ولن يُراعوا لنا جانباً. سيتحرّرون من شعورهم بالنقص ويبدؤون مقاومتهم لنا.

سيشعرون أنّهم قادرون على الانتصار بدل الاعتقاد بأنّهم مهزومون إلى الأبد كما هو الحال الآن. بعد جيل من الآن سوف نجد أنفسنا أمام كارثة. هناك شيء نُجمع عليه كلنا: لو يتمكّن الهنود من الإتحاد ليوم واحد ومن التكلم بصوت واحد فإنّهم سيعصفون بنا عصفا.

ـ هل يعني هذا أنّه لا داعي للخوف ما داموا يهابون جانبنا؟

ـ الخوف يقود إلى عدم الثقة، وعدم الثقة إلى النّفاق. العاجز والجبان فقط يعرفان جيّداً سبب عدم ثقتهما بالجار.

ـ عبث في عبث! أنا أتعجّب حقاً. حتى ولو كنتَ مصيباً من وجهة نظر سياسية وعسكرية، فإنّنا سوف لن نسمح بترك الهنود إلى هلاكهم الأبدي. هل نبخل عليهم بحضارتنا لأسباب انتهازية كهذه؟ لا، أبداً ـ التبشير سيسير إلى الأمام، سترى، الهند البريطانية ستصبح مسيحية حتى وإن دام هذا قرنا من الزمن، وعندئذ فقط ستزدهر هذه البلاد. أمّا الآن فاسمحوا لي بالانصراف، أيّها السادة، لقد أوحيتم إليّ بفكرة جيّدة لخطبة الأحد.

٤٣

ناوكرام

II أُومْ آفيغنايا نَمَهَا / سرفافيغنوباشنتايا نَمَهَا / أُومْ غانيشايا نَمَهَا II

ـ ألم يكن يعرف أنّها كانت في السّابق ديفادازي؟

ـ لا.

ـ لا بد أنّه ساوره في أمرها شكٌ ما.

ـ لا، أبداً.

ـ إذن لم يكدّر صفوه شيء ولم ينل من مشاعره؟

ـ لم أتأكّد من مشاعره إلاّ بعد فوات الأوان. استهنتُ بما كانت تمثّله بالنسبة إليه. لم أتنبّه إليه إلاّ بعد أن توفّيت.

ـ هل حزن عليها؟

ـ على طريقته الغريبة. لم يحزن كغيره من الناس. أوّل مهمّة أوكل بها إليّ بعد حرقها تمثّلت في أن أجلب له قرَدة، أيّة قردة، لا بل قال إنّه من الأفضل أن تكون القردة من أنواع وأعمار مختلفة أو حتى من أجناس مختلفة. ظننت أنه كان في طريقه إلى الجنون. تمكّنت من الحصول على ستّة قردة حملتها صحبة خدم آخرين على عربة إلى المنزل. كانت تزعق، تقوق وتعوي ممّا جعل بستانيّي جميع المنازل يخرجون إلى الشارع ليحملقوا فينا. خجلتُ يومها كثيراً. أمّا الأمر الموالي الذي صدر عن برتن صاحب فكان دليلاً قاطعاً على أنه تملّكه الجنون. طلب منّا أن نُسكن

القردة في البُوبُوختنا ثم قال لي إنّه ينتظر زيارة في المساء وعليّ أن آمر بتحضير مائدة طعام لستة ضيوف، كما عليّ أن أوفّر نفس العدد من الخدم الذين سيقومون بتقديم الأكل لهم. كنت أبله، لم أهتد إلى جمع ستة مع ستة. أنّى لي أيضاً أن أهتدي إلى ما كان سيحدث بعد ذلك؟ لا أحد منا قرأ لذلك حسابا.

ـ كلّ شيء يتجاوز المألوف لا يتّضح عادة بجلاء إلاّ بعد فوات الأوان.

ـ ولما حلّ وقت العشاء أمر بإحضار القردة إلى المنزل. جلس في أحد طرفي المائدة وسلّم على القردة بحرارة كمن يسلّم على أصدقاء قدماء. لم يسبق له من قبل أن استقبل حتّى ضابطاً بتلك الحفاوة. بعد أن أُجلست القرَدة على الكراسي أمام مائدة الطعام الكبيرة أعلن أنه سيتناول طعام العشاء معها. قدمّها إلينا باللغة الإنجليزية فلم يفهم الخدم الآخرون شيئاً. كانوا منشغلين كلّيا بمسك القردة وإجلاسها من جديد على الكراسي. قال إنّ القردح الكبير هو الدكتور كَازَامَائِيُوزْ والقردح الصغير هو السكرتير رَاوتْليدْج وأنّ كلاهما حضر صحبة زوجته، ثمّ قدّم قرداً ثالثاً بوصفه المساعد مَاكْ كُورْدِي، أمّا القرد الأقبح منظراً فكان القسّيس بُوسْتُومْ. كنت أكبت ضحكي بصعوبة وكأنّني أقتلعه من داخل قدر احترق قاعه بينما تبعني الآخرون. أردت في الحقيقة أن أصرف نظري عن المشهد حالاً لكنّي اعتقدتُ أنّ هذا العبث سينتهي لا محالة بمجرّد أن أُعيره اهتماماً أكبر. غير أنّه صاح في وجوهنا وطلب منّا القيام على خدمة الضّيوف بكل انضباط قائلاً إنّه سوف لن يسمح بعدم الامتثال لأوامره. هدّد بطردنا جميعاً من المنزل إن نحن لم نعامل ضيوفه بأدب واحترام ولاحظتُ من خلال نبرته أنه كان يعني ما يقول. أشرتُ إلى الخدم بأن

يبدؤوا بتقديم طعام العشاء. طبعاً لم تبق القردة بعد ذلك جالسة على الكراسي، باستمرار كان لا بد من حمل أحدها وإرجاعه إلى مكانه. بدا برتن صاحب وكأنه لم يلاحظ شيئاً من كل ما كان يجري، كان مشغولا بدور المُضيف، يلحّ عليها بالقول، يناقش معها آخر دسائس البلاط، كان من الصعب علينا تصديق ما كنّا نرى ونسمع. هدر كالبركان ضدّ عصابة بْراهمانيّي نَاغَار الذين كانوا وقتئذ يشكّلون تقريباً جلّ مستشاري الماهاردجا وبالطّبع جميع الوزراء. مثّل دور الأنغريز في محاولتهم كسر سيطرة براهمانيي ناغار. سأل ضيوفه عن رأيهم، وكلّما قبع قرد أو زعق صاح مبتهجا: هل سمعتم أيها السادة وأيتها السيدات؟ يا له من رد مُقْنع! رمت القردةُ بالملاعق والشوكات والسكاكين في جميع الجهات، دلقت الخمر، خبطت بالأكفّ في الحساء، جرّبت بعض حبات البسلة ثم تراشقت بها. لم تهدأ قليلاً إلاّ عندما جاء الشّواء. قال برتن بصوت جهوري: طعام لذيذ، هلّلويّا، لتدم علينا هذه اللذّة! اضطررنا في نهاية تلك الأمسية إلى حمله إلى فراشه نظراً لأنّه كان جدّ ثملاً. خجلنا لما قام به، لكنّنا سُررنا لكون نوبة الجنون مرّت بسلام. لم نكن ليلتها ندري أنّ ذلك سيتكرّر كلّ مساء. وكلّ مساء شرب برتن صاحب حتى الثمالة ولم يهتدِ إلى فراشه. كان ما عشتُه في تلك الأيام مشينا، كان منظراً لم أقدر على احتماله.

- كان أقبح من القبح. كان عملا منافياً لقانون الطبيعة.

- ثمّ زادت الحال سوءاً. من بين الحيوانات كانت هناك قرْدة قال برتن صاحب إنّها في الواقع صديقة السكرتير رَاوْتلدْج، استمالها فصارت عشيقته وهو الذي يزيّن الآن وجهها ويضع عليه الأصباغ، يجمّل أذنيها بحُلقان ورقبتها المتجعدة بسلسلة. كانت صغيرة جدّاً، وإذا جلست اختفت تحت حافة المائدة. استعار من أجلها كرسيّاً للأطفال من أحد الضباط

وشرّفها بالجلوس عليه عند تناول الطعام. صار يناديها عزيزتي ويحتضنها. جعل من الكِذْمُوتغَازْ طرَفاً مشاركاً في طرح لُغزه. كان لا يكلّ من سؤاله: أليس جمالها أخّاذا؟ أليست ظريفة؟ ألا تريد أن أسألها إن لها أخت تتّخذ منها صديقة لك؟ كان الأمر بالنسبة للكِذْمُوتغَازْ مهينا إلى درجة أنّه فضّل الهروب رغم أنّه لم يكن له عمل آخر.

ـ وفي النّهار؟ ماذا فعل أثناء النّهار بالقردة؟

ـ ادّعى أنه يتعلم لغتها. بدأ بنسخ الأصوات. سألني في يوم من الأيام عن رأيي، عن الكتابة التي تصلح أكثر لنقل لغة القرود، الكتابة بالحروف الدّيفَاناغَاريّة، الغُوجارَاتيّة أو حتّى بالحروف اللاتينية.

ـ طبعاً هو لم يسأل أُوبَانِيتشِي صاحب في هذا الخصوص.

ـ صحيح، لم يسأله، أنت على حقّ. ما الذي يجعلك تقول هذا الآن؟

ـ لم يكن مجنونا إلى هذا الحدّ. كان تقديره سليما ولا يصل حد الوقاحة. معك أنت كان مشطّا ولا يتمالك نفسه، لكن ليس مع الغُورُوجِي. وماذا أجبتَه إذن؟

ـ لازمت الصّمت. نعم، سكتُّ خلال تلك الأيّام. قال: يبدو لي أنّ الحروف الصينية تؤدي المهمّة على أحسن وجه، لكن ما الفائدة من كل هذا؟ سوف لن أبدأ الآن أيضاً بتعلّم الصينية من أجل هذه الثدييّات. وضع قاموسا صغيراً لأصواتها قال إنّه جمع فيه ستّين من التعابير المختلفة. كان فخوراً بإنجازه وزعم أنّه سيكون في القريب العاجل قادراً على التحدّث مع القردة.

٤٤

محطّ كلّ النّدم

- ناوكرام، عندنا ضيوف رفيعو الشأن. لماذا لا تجلس معنا؟

- معذرة، يا برتن صاحب، لا أستطيع أن أجلس مع القردة.

- ماذا الذي أصابك، ناوكرام؟ وأين حسن معاملتك وتبجيلك للضيوف؟ أنت لا تبعث فيَ الأمل. ما بك اليوم؟

- اتركني وشأني، صاحب.

- اقتربْ.

- ثم إنّي حزين، صاحب.

- من أجل من، ناوكرام؟ أحوالنا طين ووحل، وكما لاحظنا، فاتنا شيء وأضعنا الفرصة من جديد، لكن، ناوكرام، انظر، نحن منبسطان مرتاحان.

- من أجلها هي.

- من أجلها هي؟ ومن عساها تكون هي هذه، الغريبة الأطوار؟

- من أجل كندالِيني، صاحب.

- بماذا تهمس يا صديقي؟ كدت أظن أني أسمع كندالِيني. مستحيل. أنت؟ لماذا أنت؟ بالنسبة إليك لم تكن في الحقيقة إلاّ، كيف يمكن قول هذا في حضرة هؤلاء السيدات بطريقة مناسبة، دعني أفكّر، عاهرة! ما رأيك في هذه العبارة، عاهرة تمكّنتَ من خداعي بها.

ـ جئت بها إلى المنزل لأنها وقعت في نفسي.

ـ وقعت في نفسه. شيء يؤثّر في القلوب.

ـ أعجبتني.

ـ بصفتها امرأة، ناوكرام؟ كامرأة؟

ـ نعم، كامرأة. وزاد إعجابي بها أكثر. كنت في حضرتها أشعر بالسعادة، وإذا ذهبت تملّكني الحزن وانتظرت عودتها بكل شوق. أنت تعرف حقاً كيف كانت.

ـ نعم، أعرف كيف كانت، أعرف هذا أكثر منك. أنت كنت تنظر إليها فقط، كنت تسمع صوتها، عجبا أن تكون أثّرت فيك إلى هذه الدرجة. ضيوفي المحترمين، أقدم إليكم رجُلا ولهانا.

ـ ماذا كنت تعرف عن كنداليني، صاحب؟

ـ معرفة كل شيء لا يمكن أن يكون مقياسا، ولا حتى هدفا. بما أنك سألت، أقول إني عرفت ما فيه الكفاية عنها.

ـ هل عرفتَ إلى أين كانت تذهب لما كانت تغادرنا؟

ـ تقصد في أيام الأعياد؟ إلى عائلتها، طبعاً.

ـ لم تكن لها عائلة. أمّها سلمتها وهي طفلة صغيرة إلى معبد ولم ترها بعد ذلك أبداً.

ـ أنت مخطئ، هناك شيء لم تفهمه. لو كان الأمر كما تقول لكانت أخبرتني به.

ـ لكانت أخبرتك؟ كيف؟ لماذا تريدها أن تخبرك به؟ كانت تخشى أن تسيء فهم كل شيء. كانت تخاف منك.

ـ أنت تكذب. كيف أسيئُ الفهم؟ أسيئ فهم ماذا؟ لو أخبرتني بالحقيقة لَكنت عطفتُ عليها.

ـ ربّما. وربّما كنت احتقرتها. من يعلم الأشياء بالتدقيق مسبقا؟

ـ أين كانت تذهب إذن؟

ـ الأفضل ألاّ أقول لك هذا.

ـ ناوكرام! إن لزم الأمر سأطردك هذه الليلة من المنزل. أقسم لك بطردك أمام كل هذه القرَدة. أين كانت تذهب؟

ـ كانت تزور المعبد الذي كبرت فيه.

ـ هل كبرت في معبد؟

ـ نعم، قبل مجيئها إلى بارودا.

ـ عاشت في المعبد؟

ـ في حجرة صغيرة، وراء المعبد.

ـ وماذا فعلت هناك؟

ـ خدمت الإله، صاحب، كانت تخدم الإله.

ـ وماذا تريدني أحتقر في كل هذا؟

ـ لا أستطيع أن أقول أكثر مما قلت.

ـ لا، بل بالعكس. ستقول لي كل شيء. لا تحمل همّا، أنا صحوت تقريباً من الثملة.

ـ أنا أخشاك أكثر عندما تكون صاحيا.

ـ ماذا جرى هناك، في المعبد؟

ـ إنّها لم تخدم الإله وحده، بل الكاهن أيضاً.

ـ ماذا فعلت؟ نظّفت؟ أعدّت الطعام؟

ـ لا، قدّمت خدمة أخرى.

ـ تعني أنها اشتغلت كامرأة؟ هل تريد أن تقول كَنَاوْتش؟

ـ شيء من هذا القبيل.

ـ وتريد أن أثق فيما تقول؟

ـ إنها الحقيقة، صاحب.

ـ وكم دام كل هذا؟

ـ لا أدري.

ـ هل عاودتْ مع الكاهن.. لمّا رجعتْ..

ـ لا، لا أظن. لا، بكل تأكيد. كانت هربت منه لأنه عاملها معاملة سيئة. لهذا جاءت إلى بارودا.

ـ وأخفيتَ عني كل هذا؟

ـ كان لا بدّ لها أن تعود إلى هناك. كان ذاك المكان الوحيد الذي شعرت فيه بالسكينة والاستقرار، رغم الكاهن. كانت تشتاق إلى فضاءات المعبد والجلوس أمام الربّ لتجلب إليه الهواء المنعش بمروحة. إنّه لأمر غريب ألاّ تشعر بالأمن والطمأنينة إلا هناك رغم أنه عاملها معاملة جدّ سيئة.

ـ أنت لم تخبرني بشيء من كل هذا. لديّ الآن رغبة في جَلدك.

ـ صاحب، كيف تريدني أن أعرف أنك لم تعلم بشيء من كل هذا؟ كنتَ في الواقع على علاقة أوطد بها مني، أمّا أنا فكنت لا أعرفها إلاّ من خلال السّاعات التي كنّا نقضّيها معاً في المطبخ. كنا من حين لآخر نتناول الطعام معاً وأحياناً أخرى نجلس في الشرفة الخارجية عندما تكون أنت على سفر. ثمّ أنت تعلم جيّداً أن هذا كان لا يحصل إلاّ نادراً. ثمّ كيف لي أن أجرؤ على الحديث معك في أسرار كنت أنت أقرب إليها منّي.

٤٥

ناوكرام

II أُومْ ديفافراتايا نَمَهَا/ سرفافيغنوباشنتايا نَمَهَا/ أُومْ غانيشايا نَمَهَا II

ـ تخطّيتَ كلّ الحدود. إنّ ما قمتَ به لا يغتفر. ما الذي جعلك تنشر أسراري في كل مكان؟ ما قلتُ لك كان خاصًا بك. هل من حق الكتبة العموميين أن يُفشوا كل الأسرار؟ هل من حقهم أن يتخذوا من الأمانة عُملة يدفعون بها ثمن ما يشترون في الأسواق؟ خيّبت ظني فيك، أنت رجل لا شرف له. وكأنّ هذا لم يكن فظيعاً بما فيه الكفاية، زدت فروّجت أكاذيب عنّي، أكاذيب سوف تعصف بي في هذه المدينة.

ـ ماذا؟ ماذا؟ أنا لا أكذب.

ـ صعُب عليّ تصديق ما سمعتُ.

ـ هناك من افترى عليّ كذباً.

ـ أنت الآن تكذب من جديد. لقد سمعت الكلام بنفسي. قدّم المغنّي في بادئ الأمر بْهَاجاَناً ثمّ تغنّى بأبيات من تأليفه هو لم تكن مقدّسة بالمرّة. كانت أبياتا سوقية مبتذلة أراد من خلالها تسلية الجمهور. تهكّم على الأنغريز والسَّرْدارْجي ثمّ تهكّم على رجل مسنّ وشهواني اتّقد حباً لغسّالة فحمل إليها ملابسه كل يوم للغسيل. كان يقول كلاماً سخيفا. ثم سخر بعد ذلك من خادم كان عبدا لسيده. تهكّم من حبه لعشيقة سيّده، لعاهرة قال إنّها سخّرت الرجلين معاً لأغراضها. تجمّدتُ في مكاني. ظننت أوّلاً

أن الأمر لا يعدو كونه صدفة، إلى أن ثبت أنّ هذا التّفسير لا يمكن القبول به. انتظرت أن يلتفت المتفرجون إليّ فجأة ويحدّقون فيَ النظر. كانت لحظات حرجة ومربكة بالنسبة إليّ. كان الأمر موجعاً. لكنه لم يكن موجعاً ولا مربكاً بالقدر الذي كان عليه ما تلاه. جاء في غنائه المرحِ ـ كان له صوت يغلب عليه غرور فظيع ـ أنّ العشيقة أنجبت ولداً لمّا كانَ السيّد في سفر لعدّة شهور. قال أيضاً إنها قتلت المولود الجديد وأنّ الخادم ساعدها على طمره في الغابة.

ـ لم أحدّثه بمثل هذا أبداً.

ـ أنت تعترف إذن بأنّ ما قاله صدر عنك.

ـ هو صديق لي وأردت استشارته. لم أكن متأكّدا تماماً من الكيفية التي أواصل بها كتابة قصّتك. ليس الأمر بالسّهولة التي تتصوّر. أحياناً أكلّف نفسي أكثر من وسعها. لم أذكر أبداً أيّ شيء عن طفل ميت. لا، بل انتظر، الآن تذكّرتُ، القرد الميت، نعم، القرد الميت الذي دفنه برتن صاحب بنفسه في الحديقة، وهذا سمعته منك. لعلّي تحدثت عن عملية دفن القرد ـ وهنا عليك أن تُقرّ أنّه كان نهاية مغامرة جنونية ـ، وعلى سبيل المقارنة فقط، طبعاً، قلتُ إنّه دفنه كما لو كان يدفن ابنا له. مقارنة بريئة، لا أكثر.

ـ وبعد؟ هل لديك مزيد من هذه المقارنات البريئة؟ من المسؤول؟ من؟

ـ مسؤول عن أيّ شيء؟

ـ عن أبيات الشعر التي قالها ابن آوى هذا الذي تحطّ من قيمته عندما تسمّيه صديقاً. تلك الأبيات التي لم أخجل في حياتي أبداً مثل خجلي عند

سماعها انتهت إلى أنّ الخادم سمّم العشيقة. لأنها لم تبادله الحب ولأنّ قلبه احترق غيرة. قتلها لأنه كان لا يحتمل رؤيتها في أحضان سيّده.

ـ لا، أبداً، مستحيل أن أقول شيئاً من هذا القبيل. ولا حتى أن أفكر فيه. أنت تخلط بين أمرين. القصّة التي جاءت على لسان صديقي لم تكن قصّتك بالمرّة. لربّما ألهمَه ما سبق أن حدّثتُه فيه، وهو ما لا أستطيع إنكاره، لا بدّ أنه ألهمه فتبنّى قصّتك وجعل منها قصّته.

ـ على حسابي.

ـ فيمَ يضرّ بك هراء مغنٍّ؟

ـ ومن سيقدر على التّمييز بين الرّوايتين؟ إنّ كل من يعرف عنّي شيئاً قليلاً سيمزجه لا محالة بسمّ النّميمة.

٤٦

ابن لأُمّين

لمّا سمع برتن لأوّل مرّة بوجوده، كان الرّجل يرزح تحت وطأة اسمه، ذلك الاسم الذي جمع بين كل الشتائم التي أشبعوه بها في المدينة. كان يلقّب بهَجين بارودا ولا يعرف له النّاس اسماً مغايراً. كما يصعب القول إنّه حمل في يوم ما اسماً آخر. كان أجذمَ وما كان لكلّ من عُني بنفسه وحافظ على صحّته ليقترب منه لولا أنه لم يُطلب منه من حين لآخر الحضور لدى المحكمة للتّرجمة كلّما كان المترجمون القارّون على سفر، مهمّة قام بها الهجين على أحسن وجه. بدا وكأنّ لحضوره مفعول المسكّن على المتهمين الذين عادة ما كانوا يشاركون في الجلسات مكرهين. كان له إحساس مرهف في تلبية رغبات رئيس المحكمة، تدفّقت جميع لهجات الأهالي من فمه كالسّيل، أمّا إنجليزيته السليمة نحويا فكان لها رنين لغة سبق لصاحبها أن حبسها داخله كما في حجْر صحّي لمدة طويلة. والسّبب في كلّ هذا هو أنّ هجين بارودا لم يكن له أي اتصال آخر مع البريطانيين. كان لا يستعمل إنجليزيته إلا أمام المحكمة، هذه اللغة التي تعلّمها من أبيه الإرلندي الذي كان فرّ من الجندية وأنجبه من امرأة من الأهالي في مكان بعيد وراء الحدود الشمالية الغربية. أمّا الاحتقار الذي كان عانى منه أبوه قبله فقد انتقل إليه هو أيضاً، لكن بفارق كبير. فبينما تخلّص أبوه نوعاً ما من كل اللعنات التي كان عرضة لها وعاش إجمالا حياة تغلب عليها السعادة، لم يتمكّن الابن من التّحرر منها أبداً. التقى

برتن الهجينَ صدفة في الشارع. تعرّف عليه من خلال ثيابه وتلك الفوضى العارمة التي شملته وسمع الناس يتحدثون عنها. ما من أحد كان ليلبس مثلاً سترة رُتقت نُقورها بخرق متعدّدة الألوان فوق بَاتَانِي طويل من القماش الخشن وليضع على رأسه قبّعة مستديرة سوداء نخرتها الثقوب، يقول المازحون إنّها تصلح لتبريد دماغه. حمل برتن جواده على ركض بطيء مكّنه من اللحاق بالرجل ووجّه إليه الكلام بالهندوستانية. دون أن يرفع المترجّل بصره قال شيئاً بالإنجليزية، أمّا برتن فقد أصرّ على الكلام بالهندوستانية. أجاب الرجل بخشونة: خاطبني بالإنجليزية! كيف؟ لأنني بريطاني. أنت؟ تعجّب برتن لسماع هذه الوقاحة. الجميع يسمّون أنفسهم بريطانيين في هذه البلاد. وقبل أن يهمز حصانه قال برتن بنبرة لا تخلو من لطف ولا تترك مجالاً للردّ أو الاعتراض: أنت هجين. ثم واصل نسج الفكرة في مخيلته: ككلّ الهجناء أنت تجمع في ذاتك الأسوأ من كلا الشقّين. كذا هو قانون الطبيعة، السّلبي تكون له دوماً الغلبة.

بدا الهجين وكأنّه عقد العزم على أن يكون تصرّفه مؤكّدا لما جاء في تقدير برتن. يوم عيد ميلاد الملكة حضر الرّجل أمام نادي الكتيبة وطلب أن يُسمح له بالدخول. قال إنّه من حقّ جميع رعاياها أن يشاركوها احتفالها بهذه المناسبة. من حسن حظّه أنّه لم يتم سوى مسكه من خناقه ودفعه خارجاً. لكن هذا الهجين لم يستسلم بسهولة. بعد ذلك بقليل سُمع نداء عال داخل النادي ثمّ علا صوت ثان ليعبّر عن اندهاشه. يا إلهي، منظر لا يُصدّق. تحلقوا كلهم حول المستطلعين أمام النافذة وحملقوا ببصرهم في وقاحة شيطانية حقّاً. جلس الهجين على حافة الطريق، في الحدّ الذي نبت فيه عشب باهت مصفرّ. فرش منديلاً أبيض ووضع عليه معدّات لتناول الشاي من الخزف المزيّن بأوراق اللبلاب على طراز الحياة في المنازل الريفية. لا أحد يدري أين وجد كل هذا. صبّ لنفسه قليلاً من

الشاي من إبريق عنقه في شكل عنق التمّ. رأوْا لوناً داكناً مخالفاً للّون البنّي الفاتح للتشاي الذي تعوّد هؤلاء الأوغاد على تناوله. أخذ فنجان الشاي بين الإبهام والإصبع الأوسط، يا إلهي، لقد أفرج حتّى عن الفضاء بين الخنصر والبنصر، لم يُعر الحرّاس الذين وقفوا حوله وصرخوا في وجهه أيّ اهتمام وترشّف الشاي مرّة أولى. تمّ إسقاط الفنجان من يده بضربة فاندلق الشاي الساخن، بقصد منه أو عن غير قصد، على وجه أحد الحراس. سقط الفنجان على الأرض ولم يتهشّم للتّو، لكن الحراس سحقوه بعد ذلك بأحذيتهم الطويلة وهم ينقضّون على الرّجل هزيل البنية. اضطرّ برتن وبعض زملائه للخروج بسرعة إلى الشارع للحيلولة دون أن تزهق روح الهجين. وجدوه داميا وملقى وسط الشظايا. لم يكن أحد يعرف أين كان يسكن، أمّا حملُه إلى داخل النادي فكان أمراً مستحيلاً. وقف الضباط حول الرجل بعض الوقت ثم عادوا الواحد تلو الآخر إلى الداخل للاحتفال مع الآخرين بذكرى ذلك اليوم. بقي برتن يسترق النظر باستمرار إلى الخارج من خلال النافذة. لم يحتمل ترك الرجل ملقى في مكانه. أرسل من جاء بسرعة بناوكرام وبعض الخدم الآخرين الذين حملوه إلى مسكن برتن ومدّدوه على الفراش الموجود في البُوبُوخَنّا. سوف لن يكون لتواجد القردة تأثير يذكر على الرّجل خائر القوى ومجرّد وعد بزجاجة من نبيذ بورتو سيكون كافياً لإقناع هنْتنجْتون العجوز بتفقّد إن كانت عظامه لحقت بها كسور وبوضع الضّمائد اللازمة. في الصّباح الموالي اختفى الهجين.

منذ ذلك اليوم لم يحضر إلى المحكمة أبداً. كان يقضّي أيامه في مفترقات الطرق دائبة الحركة ويدعو إلى حقيقةٍ لم يفقه كنهها أحد. تركه الأهالي وشأنه ولقبوه بكثير من الاحترام بالكَالاَنْدَر، بالمهرّج الذي شمله الإله برعايته. وذات صباح، في أكبر يوم تسوّق في الشهر تسلّق شجرة

عالية تُشرف على الطريق المؤدية إلى المدينة من جهة الشرق وصاح بكل ما أوتي من قوة: دُوْنيَا خُوزدُو، جِيزُو كْرِيسْتُو، بَاكْرُو. هَازْ هَازْ مَاهَادِيفْ. ازهَدوا في الدنيا وتمسّكوا بالمسيح المخلّص. الدّوام للعليّ القدير. كلّ التقارير تحدثت غير مصدّقة عن طاقته الصوتية الهائلة. لقد صرخ بهذه الجمل بدون انقطاع إلى أن رجع التجّار عند الظهر إلى قراهم المحيطة بالمدينة. ما كان أحد ليجرؤ على التنبؤ بما قد يقوم به كَالأنْدَر مستقبلاً، وهكذا فوجئ البريطانيون في يوم من الأيّام بهجين بارودا وهو يتجول في بذلة ابتلع كُمّاها يديه وتدلّى طرفًا سروالها على الأرض فجرّهما جرا. كانت رسوم البذلة تحاكي أنموذج اليُونيُونْ دْجاكْ إلى حدّ كبير. هكذا، وإلى أن أُجبر على إخلاء المكان، تجوّل الهجين يوماً كاملاً وسط بارودا ملتحفاً بعلم جلالتها وتسكّع لأوّل مرة منذ أن اعتُدي عليه بالضّرب يوم عيد ميلاد الملكة أمام نادي الكتيبة إلى أن تمّ طرده من جديد. لكنّه لم ينصرف قبل أن يقول بصوت جهوري أن لا أحد له الحقّ أن يضربه لأنّ ضربه يعتبر تدنيساً لقداسة العلَم واستخفافاً بكل القيم التي كلّما رفرف رفرفت معه. تحوّلت الدّهشة إلى غضب شديد لمّا جاء حلّ اللّغز ضمن خبر من سُوراتْ: قبل أيّام سُرق اليونيون دجاك ليلاً بعد أن تمّ إنزاله من أمام مدخل المقاطعة. لم يكن استياء الضباط البريطانيين كبيراً إلى درجة أنّه جعلهم يحنقون، لكن السيبوي الذين أُرسلوا للبحث عنه ما لبثوا أن عثروا عليه. وجدوه في الوقت المناسب تماماً لأنه كان منهمكا في إلباس كلب متشرد كان يقدّم له الأكل باطراد خرقةً فصلها عن العلم. أُودع الهجين السّجن وكثيرون هم الذين اعتبروا أنّ هذا المكان هو الأنسب بالنسبة إليه، المكان الذي سيتمّ فيه الاعتناء به على أحسن وجه، إلى أن ترتاح الدّنيا من وجوده تماماً. كان برتن الشخص الوحيد الذي سعى إلى مساعدته، وهو ما أثار دهشة الجميع. قال، يجب أن يُطلق سراح الهجين

لأنه غير مسؤول عن أخطائه. هذه الأخطاء التي ورثها عن أبويه منذ نعومة أظفاره، وعوض أن ينهال الجميع على هذا المسكين شتماً، يكون من الأفضل أن يتّعظوا كلهم بهذه الحالة التي تسدّ النفْس، بألاّ يتركوا دم الغرب يختلط بدم الشّرق، لأنّ في هذا تركيبةً تمزّق كلا الشّقين، أيّها السّادة، كما سبق وأن كان من نصيب علَمنا.

٤٧

ناوكرام

II أُومْ دفائيماتورايا نَمَهَا/ سرفافيغنوباشنتايا نَمَهَا/ أُومْ غانيشايا نَمَهَا II

بقي له أن يحجب نقطة ضعف أخيرة عن الأنظار. شيء بسيط لا يستحق الذكر. يمكن القول إنه اقترب من النّهاية. الجزء الأوّل من عمله الشّعري أشرَف على الاكتمال. ألم يكن الوقت مواتيا للشعور بشيء من الانشراح؟ ألم يصوّر كنداليني ولم يبرزها في مظهر شخصية درامية رائعة؟ ألم يجعلها ترتقي إلى مرتبة شَاكُونْتَلاَ ولم يرتقِ هو إلى مرتبة..؟ لا. لقد بالغ في المغالاة. أصابه الدّوار. لم يكن متعوداً على مثل هذه الأفكار. شكّل اقتناعه بما تمكّن من إنجازه في حد ذاته فكرة منعشة إلى درجة الانتشاء. ما الذي بقي له أن يستبين؟ لم يبق له في الحقيقة إلاّ أن يعرف الأسباب التي سُلّمت كنداليني من أجلها إلى المعبد. لا بدّ أنّ الأمر كانت له علاقة بوعد ما. متى تصدر عن البشر وعود مشطّة من هذا القبيل؟ عندما يتمنّون أن يأتيهم مولود جديد؟ نعم، هذا ما حصل، إنّه أبسط الحلول وأفضلها. كانت أمّ كنداليني عاقرا، تشبثت بصلواتها وأقسمت ـ لم تُقسم مرة واحدة، لا، هذا الضّرب من القَسَم كرّرته آلاف المرّات، وكأنّ الله يشكو صمماً أو ضعفاً في الذاكرة ـ أنها لو كُتب لها أن ترزق أطفالا فإنها ستزفّ أولى بناتها عروسا للإله. أمّا الإله الذي استجاب لدعائها فكان محدود السخاء ولم يقدّم إلا القدر الذي كان واثقا من استرداده لاحقاً. وهبها مولوداً واحداً كان بنتاً، وبهذه الطّفلة سدّدت أمّ كنداليني دينها ووفت

بنذرها. يا لها من عبادة! يا لها من خاطر رائع دوّخه! كان راضيا تمام الرضا.

ـ الجميع يسألون عنك، عن المكان الذي توجد فيه وعن حالك. ماذا أجيبهم؟

ـ ألم تفهمي بعدُ ما أنا فاعل؟

ـ لم يعُد لي وجه أستقبل به الجيران.

ـ ألا تسكتين؟

ـ أنت تقضّي جل الوقت جالساً هنا مع الأوراق والريشة. لماذا لا تخرج أبداً إذا جاءنا زائر؟

ـ لأني أقوم بما هو أهمّ.

ـ اللّعنة على كتابتك. لم يعد لك وقت للقيام بشيء آخر. استبدلتَ عائلتك بهذه الحروف. أهذا هو الاختراع العظيم الذي يجعل من الرجال نسّاكا، يعيشون الوحشة وسط جموع الناس؟

ـ أنت لا تفقهين شيئاً، أيتها الحمقاء. كنت في السابق لا أدوّن إلاّ ما يمليه عليّ الآخرون. تمثّل ذلك دوماً في رسائل جافة بلا حياة، في التماسات وطلبات أو وثائق نقل ملكية. حاولت أن أجد أنسب الصيغ وأحياناً جمّلتُ المكاتيب قليلاً، لكني بقيت، مع هذا، عبدا لنوايا الآخرين. رغم أنّي كنت أوفر ذكاءً من كلّ هؤلاء الزبائن، كان لا بدّ من تدوين لغوهم. أمّا الآن فإنّ الأشياء تتغيّر، لا بل هي تغيّرت بعدُ. ألا تدركين أهميّة الأمر؟

٤٨
ابن شِيـفَا

انتظر أُوبَانِيتشِي حتى كاد يفوت الأوان قبل أن يلقّن تلميذه أهمّ ما كان بوسعه أن يلقّنه شخصاً غريباً. انتظر حتى حلول ليلة الشِّيفَا، إلى أن تكوّر فكر برتن واتخذ، من فرط السهاد، شكلا بيضاويا. انتظر تقريباً إلى حدّ الفراغ من الابتهال إلى الله. عاد الجميع إلى المعبد بعد أن كانوا حملوا شِيفَا وصعدوا به ثلاث روابي وهم يجمعون التّبرعات كلما وضعوا الكرسي المحمول أرضاً. لم تكن لجموع الناس نفس المشاعر. احتضن الحمالون الأعمدة بكل حزم وترجم الصبيان عن ولائهم برقصة في شكل دائرة، بينما استعمل جامع التبرّعات كل الوسائل للوصول إلى حافظات النقود، من بينها حتى الدعابة الفظة. كان يتصبّب عرقا كمقدّم حفل يتلذذ مهمّته رغم شعوره بأنه يكلّف نفسه أكثر من وسعها. أمّا بقية المؤمنين فكانوا يدورون حول الكرسي المحمول في نشوة مركّزة. كان غُورُوجِي يستعدّ للنوم وقد ارتدى فانلّة بيضاء اللّون وبَاجامَا. أما سمعت بآدافايْتا، يا تلميذي العزيز؟ قال هذا بطريقة جعلت برتن يخال نفسه أمام مِيثَايْوَالاَهْ يقدّم إليه نوعاً جديداً من الحلوى. كان في نبرته خداع، وهو ما صار في الأثناء يعرفه جيّداً، لأنّ الجِدّ سوف يعقُبها خلسة على طرف اللسان. آدافايْتا يعني بكل بساطة «بدون شيء ثانٍ». استمع إليّ جيداً، يا تلميذي العزيز، ثم قُل لي إن كنت سمعت في يوم ما خاطراً أكثر دقة. حسب آدافايْتا لا توجد سوى حقيقة واحدة وبسيطة تسمّى الله ـ الذي هو في الآن

نفسه الله اللاّمتناهي، المطْلق، بْرَاهْمَان، أَتْمَان وكلّ التّسميات الأخرى التي نطلقها عليه. هذه الحقيقة ليس هناك من صفة تقوى على تعريفها. كل محاولة ترمي إلى تعريفها يجب مجابهتها برفض صريح. نستطيع أن نقول ما ليست هي، أمّا أن نقول ما هي، فلاَ. كل ما يحاكي في ظاهره الوجود، عالم أفكارنا وحواسنا، ليس في الحقيقة غير المُطلق يتراءى في شكل مستعار. الشيء الوحيد الذي له وجود وسط السيل المنهمر لأشباح الذات إنما هو الكيان الحقيقي والواحد الذي لا يتجزأ. يقول آدافايْتا: تَاتْ تْفامْ آزِي، أنت هذا! ولهذا، يا تلميذي العزيز، وهذا سيكون آخر ما أقول لك قبل أن نركن إلى النّوم، تُعتبر كل فكرة من شأنها أن تخلق انشطارا مخالفة للإرادة العليا. كذلك يكون مجرّد اعتبار أنفسنا غرباء أو مختلفين عن بعضنا ضربا من العنف.

أخلد أُوبَانِيتشِي إلى النوم. جاء رنين الصّنوج من بعيد صوتا مجلجلا، إيذاناً بترديد البْهَاجَانَات طول الليل. داهم النوم برتن، لكنه لم يعرف السبب الذي جعله يفيق من جديد. انتصب جالساً في مكانه ونظر حوله فرأى الأجساد ملتصقة ببعضها، ممدّدة في كامل البهو الذي غشّاه غطاء من النوم خفيف. كان هو أحد تلك الأجساد، مجرّد تعلية في أنفاس الكون. لا شيء تقريباً. لكن التسلية الكبرى كانت تكمن في أن يعتقد أنّه كان كلّ شيء وأنّ كل شيء كان فيه. كان هؤلاء الناس يشعرون دوماً بالأمان وسط جموع الناس، ينامون كل ليلة بين عبّاد آخرين كثيرين، متعوّدين على أن يكُونوا جسدا من بين جميع الأجساد على أرضية غير مستوية. أرهف أذنيه. انطلق لحن بْهَاجَانْ آخر. أصوات أخرى انضمّت إلى الغناء رافقتها نداءات التلذذ والافتنان والأيدي التي تدافعت إلى الأمام. إلى الاستراحة بعد دقّ الطبلة تسعاً بينما تمّ تبريد الإله بخيط من الماء دافق ورقيق، كان خافتا إلى درجة أنّه لم يسمعه إلاّ في الفترات الفاصلة بين الدّقات. لقد

جلسا لساعات قرب خيط الماء. قال له غُورُوجِي ناصحا: اذكر أسماء الله، يا تلميذي العزيز، حتى لا يجد البرد طريقه إلى رأسك. كان برتن لا يفهم السنسكريتية بما فيه الكفاية، لذلك أعياه الإنشاد على وتيرة واحدة. ركّز انتباهه ودقّق في ما أحاط به. زهور الآلهة المفضّلة منثورة على الأرض، تحوّلٌ في شكل ثلاثية من التّويجيات. جسأٌ في رجليْ البُوجَاري. شُعيرة على رأس الغُورُوجِي ما زالت لم تبيضّ بعدُ. لمّا انتهى كلّ شيء بعد ستّ ساعات، عدّد القسّيس أمام المؤمنين المناقب والفوائد التي كان حصل عليها من خلال الاحتفالات بالبُوجَا. الوجه العملي للأشياء هو دوماً أوسع وأشمل من أيّة مدونة قانون. في ليلة شِيفَا ، في الليلة التي سبقتها واليوم الذي جاء قبلها أحسّ أنه مندمج تماماً في هذا الصّنف من الحياة. لقد استهوته فكرة أن يصبح إلى نهاية أيامه جزءاً من تلك العائلة، ذلك المكان وتلك الطقوس. تملّكه الفزع لبروز هذه الرغبة لديه. بدت ساحرة وخلاّبة في البداية ثمّ صارت تنذر بالخطر كلما زادت استكانته إليها. نهض من مكانه، دار حول المعبد وعاد فجلس إلى الذين لازموا اليقظة ولم يناموا. غنّى معهم بْهَاجَاناً فجاء صوته منخفضا، كان أخفض ما سمعت سقيفة المعبد. عند شروق الشمس، لمّا كان يغتسل في النهر، سمع أحد الشبّان يسأل صديقه: من أين جاء هذا الإفرنجي؟ من يدري ما الذي سيقوله عنا عندما يعود إلى بلاده. فسأل الصديق بدوره وبكياسة: ما هي الغُوتْرَا التي ينتمي إليها؟

لمّا عاد برتن إلى المنزل ونظر إلى وجهه في المرآة لم يتعرف على نفسه. لا لأنّه طرأ عليه تغيير خارجي وإنّما لشعوره بأنّه تبدّل.

٤٩
ناوكرام

II أُومْ إيشانابوترايا نَمَهَا/ سرفافيغنوباشنتايا نَمَهَا/ أُومْ غانيشايا نَمَهَا II

ـ سبق وأن بيّنت لك أنّ سكّان السّنْد هم من المِيَّا. أو على الأقل أكثرهم. بدت أشراماتنا المتنقلة هناك لفرط ندرتها وكأنّها زائدة عن اللزوم. حقّاً، غالباً ما يكون الاستثناء مدعاةً للخجل. تبدو هذه الأشرامات المتنقلة عندنا، بعكس بلاد السّنْد، أمراً عاديا جداً. أمّا المعابد الأخرى فقد تمّ إخفاؤها في الكهوف والمغارات ويبست أكاليلها. لقد توغّلت الإلهة سِينْغُوفَانِي التي كانت تشبه دُوزْغا على متن أسدها بعيداً جداً في جهة الغرب. نعم، أنا أعلم أنّ ما أقوله لا معنى له، لكني تصوّرت الأمر على هذه الطريقة. شعرتُ برغبة في جمع الأشرامات وحملها إلى هنا. أعلمُ جيّداً أنها فكرة مجنونة، خصوصاً وأنّها أتتني في مرتفعات مَاكْلِي التي تآكلت من فرط وجود تماثيل القبور فيها. يقول المختونون إنّ مليوناً من قدّيسيهم وأوليائهم تمّ دفنهم هناك. هم طبعاً مبالغون في ادّعائهم. مليون من الأولياء الصّالحين الشّهداء والسّعداء؟ كيف كان هذا ممكنا؟

ـ أنت تتكلّم وكأننا نحن بدورنا لا نبالغ.

ـ نحن نبالغ إذا تعلق الأمر بالآلهة، أما هم فيبالغون كلّما تحدّثوا عن البشر.

ـ هل الأمر حقاً كما تقول؟ لعلّ السّبب يكمن في أنّ المسلمين مختلفون ولا يتّخذون لأنفسهم حديقة حيوانات بأكملها يملؤونها آلهة مثلنا.

ـ مع أي شِقّ أنتِ في الحقيقة؟

ـ هناك أكثر من شقّين. الأفضل أن نخرج من هذه الأدغال المتداخلة. ماذا أردتَ أن تقول لي حول هذه المرتفعات؟

ـ في كلّ مكان كانت شواهد على السَّانَتَانُو دَارْمَا. بعد كل هذه القرون من القمع والإضطهاد. بين القبور. أحجار منتصبة. لمّا اقتربت منها رأيت الشّيفْلِينْغَا بوضوح وقد رُشّت بلون زنْجفْري، تماماً كما في بلادنا. وأحواض الماء كان لها شكل اليُونّي. تعزّيتُ بمنظر عظام هؤلاء المختونين مدفونة بين الشّيفْلينْغَا واليُونّي وشعرتُ بالشّماتة.

ـ إذا كان الميّا، كما تقول، على هذا القدر من السّوء، فلماذا إذن لم يهشّموا الشّيفلينغا واليُونّي؟ من ذا الذي يسمح بتواجد مثل هذه الأشياء في مقبرته عن طيب خاطر؟

ـ كيف تريدني أن أعرف؟ لقد حفروا مليون قبر في تلك الهضاب ونحن نسعد لمجرّد أنّهم تركوا هناك بعض تماثيل شِيفَا وحالها.

ـ والأولياء الصّالحون، أيّ نوع من البشر كانوا؟ كيف كانوا يعملون وما الذي جعلهم يحصلون على كل هذا التقدير؟

وانطلق ناوكرام يعرض وصفاً آخر في خبرة تاجر قماش يعرف سلعته عن ظهر قلب ولا يشك لحظة في قدرته على إغراء الحريف وجرّه إلى مبتغاه. ظهر في حديثه ما أيقظ في اللاهية قدرةً على الخلق. وبحلول المساء تحوّل الإيحاء من مجرّد إشارة إلى فكرة. لم يغيّر حتى ملابسه ـ لحسن الحظ لم تكن زوجته في المنزل ـ، أخرج في الحين ورقة بيضاء،

بسطها أمامه وغمس ريشته في الحبر. كتب على ورقة جديدة: المعجزة تبدأ مع بروز الخطر، مع تخطّي الخطر. تبدأ بنعمة لا يدرك معناها أحد. بنعمة لا يفقهها إلا جانب واحد. صيّادو سمك في زورق يقعون في زوبعة. يقعون فريسة للعوامل الطبيعية فيتذكّرون العبادة. ترى لمن هم يصلّون وبعون من يستغيثون؟ يطلبون عون الرجل الصالح في قريتهم، الشخص الوحيد الذي يعرفون والذي لا تخيفه قوّة الطبيعة هذه. ينطقون باسمه في العاصفة، يرمون به إليها كمن يرمي بنصيحة في حِجر إنسان أو يفشي كلمة سرّ. يتمّ إنقاذهم. العاصفة تهدأ. ينجون من الموت والفضل يعود إلى الرجل الصالح. أنّى لهم أن يحسبوا أن الله هو الذي شملهم برحمته والحال أنّهم لم يذكروه إلا نادراً. يعودون إلى قريتهم. بماذا عساهم يُخبرون؟ بعاصفة نجوا من عتوّها. بمعجزة. تقاذفت الأمواج القارب الصغير ومزّقت الريح الأشرعة وكادوا يشرفون على الهلاك لو لم يهتفوا باسم الرجل الصالح. ثم يقسمون أنه تمثّل إليهم بقامته وصوته الذي شجّعهم باستمرار. خفّف وجوده بينهم من رهبتهم وهدّأ من غضب العاصفة. يعتقدون أنّه ظهر لهم. وإلاّ كيف يمكن تفسير معجزة نجاتهم. والرجل الصالح؟ كيف يكون ردّ فعله عندما يسمع بالقدرة التي تُنسب إليه؟ هل ينظر إلى أسفل ويبتسم خلسة؟ هل يكلّف أحد تلاميذه بالقول إنّه سمع نداءات الصيادين المذعورين فانتقل إليهم بروحه؟ هل سيعترف الصيادون له بالجميل؟ بالعطايا والهدايا؟ ومن باب الوقاية، هل سيتبرّكون بالرجل الصالح في المرة القادمة قبل الإبحار؟ وهل أنّ صيادي القرى المجاورة سيقلّدونهم مع مرور الأيام؟ عندما يسمعون أنّهم يعودون دوماً سالمين من البحر وبصيد وفير. لقد برهن الرجل الصالح عن كفاءته كواحد من أهل الكرامات. ألم تسمعوا؟ غرق القارب وأشرف الصيادون على الهلاك، لكنّ الرجل الصالح انتشلهم من الأعماق بقوّة ساعده الروحي. ألم تسمعوا

بأنه أرسل الدّلافين لينقلوا الناجين على ظهورهم إلى اليابسة؟ من ذا الذي يستطيع تكذيب هذه المعجزات؟ وأيّ تعليل يمكن تقديمه في صورة تفنيد كلّ هذه الخوارق؟

أسند اللاّهية ظهره إلى الوراء. استراح فترة قصيرة ثم عاد وقرأ ما كتب مرّة أخرى. قال في نفسه: شيء مفيد. سيُريه أهل ملّته من السَّاتِيَا شُودَاكْ سَمَاخْ. سيقدّرون الأمر حقّ قدره. المدوّنات حول المعجزات كثيرة، أمّا تلك التي تتحدّث من بينها عن نشأة المعجزات فهي قليلة جدّاً. رغم أن هذه الأخيرة أعجب من المعجزات نفسها.

٥٠

بآذان صاغية

تبدو هذه الدكاكين من أوّل وهلة غير منظّمة وكأنها مجرّد أماكن تجمّعت فيها الصغائر. ملاعق من الخشب وأوعية من الصفيح تتدلّى من فوق، تحجب الرّؤية عن المشاهد، علب الكبريت وقطع الصابون تغطّي طاولة المتجر فيُزيحها البائع من هنا إلى هناك كلما بحث عن قلم ليقوم بعملية جمع استعصت على الدماغ. الأكياس الممتلئة عن آخرها أرزّا وعدسا وحمّصاً والقُفف المملوءة توابل تعطّل الحركة، وهناك، في مكان ما بين كل هذا، أين لا يتوقّع المرء وجود مكان، تتكدّس الحلويات، تنتصب قُلل الزيت الكبيرة التي تستخرج منها البضاعة حسب حجم الزجاجة التي يأتي بها الزبون. أمّا على الرّفوف المسمّرة في الجدار الخلفي والتي لم يتمّ تجميع ألواحها بإتقان فيُحتفظ بسلع أثمن مثل التبغ من النوع الرفيع، الشاي الأكثر جودة أو التمر الآتي من المدينة المنوّرة. ما من زبون يستطيع أن يلمّ بكلّ ما يوجد في الدكان منذ الزيارة الأولى. سيكون مضطرّاً للرجوع مرّات وسيسأل مثلاً، من باب الأدب وليس عن اقتناع، إن كان في الدكان أيضاً عسل السكر وستتملّكه الدهشة عندما يدخل البائع يده إلى ركن بقي خفيّاً طول الوقت ويصبّ البضاعة المطلوبة في الميزان. لم يفتح البزّاز، أي البائع، الذي ليس أصيل هذه المدينة دكانه الصغير إلاّ منذ مدة قصيرة، لكنّ الفائدة الحاصلة من زيارة دكانه انتشرت بسرعة بين الناس، من أجل التمر والتبغ والزنجبيل المخلّل

والحلويات، ومن أجل البزّاز نفسه، هذا الرجل المحترم الذي يحلو الحديث معه ولا يبدو أبداً على عجل. لعلّ رحابة صدره تعُود إلى كونه ليس أصيل الجهة. يزن البضاعة بطريقة يراعي فيها دوماً مصلحة زبائنه. هذا ما تلاحظه النساء، خاصة عندما يعتقدن أنّه يستحق ابتسامة منهن. ميرزا عبد الله، البزّاز، يقال إنه أصيل بُوشيرْ، فيه شِقّ فارسي وآخر عربي، رجل نما وترعرع في عديد الجهات واشتغل في مناطق مختلفة، ممّا سمح له بتعلّم العديد من اللغات دون أن يحذق إحداها تماماً لأنه يخلط أحياناً بينها. عندما لا يكون لديه حرفاء يلعب الشطرنج مع جاره. عادة ما تكون له الغلبة رغم أنّه يفضّل الحديث على التفكير. هذا البزّاز يحب الاستماع إلى الآخرين. عيناه تكافئانك على تعبك كلما حدثته عن شيء ثم تعترف له بالجميل لأنه أصغى إلى ما كنت تقول. تأخذه معك بعد صلاة التراويح إلى مكان يلتقي فيه الأصدقاء بعد أن يكون قد طلب من ابن الجيران أن يحرس الدكان ووعده بأن يجازيه خير جزاء، هذا الولد الذي سوف لن يخطو خطوة واحدة خارج الدكان. الموسم موسم الأحاديث الجادة. تأخذه معك إلى أولئك الذين يدخنون الأفيون ويحتسون القنّب. مرافقته لطيفة ممتعة والجلوس معه في مكان ما وقضاء الوقت في التدخين حتى آخر فتات هو أمتع ما يكون. إذا كان لهذا الصديق الجديد من معابة فهي كراهيته للأنغريز. على المرء أن يكون معتدلا في أحكامه. عليه أن يقدّر مسبقاً ما هو ممكن وأن يكون متصالحا مع الآخرين. لكنّ البزّاز لا يفقه كلّ هذه الأشياء. يلعن الكفّار الذين جلبوا العار على البلاد والطفيليات التي تمتصّ دماءها. كثيرون هم الذين يشاطرونه الرأي. يجلسون في حلقات ضيقة ويفكّرون في أفغانستان. ستة عشر ألفاً من هؤلاء الكفار خرجوا من كابول ولم يصل منهم إلى جلال آباد إلا واحد فقط. يقول أحد الرجال محدقا النظر بينما تأتي كلماته معجونة كالدَّالْ

يُطبخ أكثر من المطلوب: هذه الأرقام تعجبني. ويضيف آخر: نال الأنغريز ما استحقّوا من عقاب، ولا ضرر، في رأيي، لو قدّم الأنغريز ضعف ما قدّموا من ضحايا. إنّها هِبة من العليّ القدير أن يعلموا هم أيضاً، ولو مرّة، كيف تكون الخسارة، كيف تكون الإهانة وكيف تكون الغلبة. يتناول البزّاز الكلمة لأوّل مرّة ويقول: رغم كلّ هذا هُم لم يعيشوا الكارثة إلاّ مرّة واحدة، وهذا استثناء. أمّا نحن فنعيش الكارثة باستمرار. يقاطعه رجل أصغر منه سنّا بصوت منبري: لو يُكتب للسنْد أن يصير أفغانستاناً آخر، لو نتمكّن من تطهير بلدنا بدم الإفرنج، عندئذ قد يتّعظون بالدّرس. يكتفي البزّاز بأن يُومئ بالإيجاب ويمسح بيده على لحيته الكثة. من المعروف لدى الجميع أن الرجل ذا الحدقتين الواسعتين لا يأتي إلا بفارغ القول، أمّا هذا الرجل الشاب، من يدري، إنه فيه ما يستحقّ أن يُكتشف أكثر. كذلك يذكّرهم أحد الذين سكتوا حتى الآن بمعركة مِيَانِي. يبدو مضطربا لأنه أخذ أنفاسا قبل أن يشرع في الكلام. بلغ عدد ضحايانا خمسة آلاف بينما لم يسقط للأنغريز سوى ألفين وخمسمائة. كيف نفسّر هذه الظاهرة؟ أن يفوق عدد الضحايا في شقّ واحد عدد كل الجنود في صفوف العدوّ؟ كيف يسمح العليّ القدير بمثل هذا؟ إنه خارج عن نطاق ما نقوى على تحمله. مجرّد استحضار للماضي، كلام فارغ. تقريباً لدى الجميع. قليلون هم في الحقيقة من يُبدون استعداداً للقيام بخطوات عملية، من هم مستعدّون للقتال. لا يبدو البزاز دقيقاً جدّاً في اختيار أصدقائه. إنه يلجأ حتى إلى المخبرين إذا تعلّق الأمر بالحصول على زاد من الأخبار والإشاعات، مقابل التبغ الرفيع الذي يقدّمه. المُلاّ محمد حسن، أرفع الوزراء منزلة في قَلْعَات، اسمه ملأ الأسماع. إنه بصدد حيك نزاع ضد الحاكم، ضد مِيرْ محراب خانْ. إنه ماكر، ولقد أوهم الأنغريز أنّ الخانْ يتآمر ضد مصالحهم في أفغانستان. انطلت حيلته على الأنغريز الأغبياء - ليسوا أغبياء بهذا

القدر، جناب صاحب، نظراً لأنهم لم ينتصروا علينا فحسب بل أيضاً على السّيخ ـ فضغطوا على ميرْ محراب خانْ الذي يتصدّى لهذا حالياً، وهو ما يفسّر الهجومات المتتالية. سوف لن يتحدّى الأنغريز في مواجهة مفتوحة. وصل إلى مسمعي، جناب صاحب، أنّ الأنغريز يخطّطون لهجوم على كَرْشاتْ. ما دامت الخطّة وصلت إليك أنت فهذا يعني أنّ الهجوم ليست له قيمة تذكر. هذا يعني بكل تأكيد أنه لم يبق مقاتل واحد في المدينة. خِطّة محبطة، بلا شك. سمعت كذلك أن مُحترم خانْ يكون على علم بخطط الأنغريز بمجرّد أن يبدؤوا في التّفكير فيها. ولم لا؟ أمْ هل تظنّ أنّ الخيانة تستثني جهة ما؟ لا، أنا أتساءل فقط عمّا حصل عليه الأنغريز بالمقابل، أريد أن أعرف بماذا تمّ إغراؤهم؟ هو كذا ميرزا عبد الله الذي نقضّي معه أمسياتنا. دائماً بسؤاله الحاسم على طرف لسانه.

٥١
ناوكرام

II أُومْ شورباكرنايا نَمَهَا/ سرفافيغنوباشنتايا نَمَهَا/ أُومْ غانيشايا نَمَهَا II

ـ أنت لا تنفكّ تشتم المِيبًا. ما هو نفعك في أن تهينهم إلى هذه الدرجة؟

ـ يختنون أنفسهم ليكونوا مختلفين عنا. أنا أحترم هذا الاختلاف.

ـ سبق لك وأن أكّدت أن برتن صاحب كان كواحد منهم. لكنّي لا أفهم كيف تمّ له هذا دون أن يكون هو نفسه مختونا.

ـ لا شيء يفوتك. الأجدر بنا أن نقلب المَثل ونقول: في ذكاء لاهية. نعم، لقد ارتكب برتن صاحب بعض الأخطاء. كان له في كثير من الأحيان تصرّف لا يليق بسيّد، لكن لا شيء كان مُشينا أكثر من الذي فعل. لم أصدّق. هل تتصوّر؟ لم يحاول حتى إخفاء ذلك العار عني.

ـ من الذي ختنه؟

ـ لا أدري.

ـ لا بد أنّ الختان آلمه كثيراً. أعنيه هو كرجل.

ـ آلام مروّعة. بدون شك. حرص على ألاّ يلاحظ أحد عليه شيئاً. لازم السّكينة لأسابيع وبقي طول الوقت في الخيمة. إنّه يستأهلُ ما نزل به. لقد وقع في شرّ أعماله. البلاهة ليست أهلا لأن يُشفَق عليها.

ـ بودّي أن أعرف هل إنّ الإنسان يتغيّر بعد عملية الختان. هل إنّ لها تأثيرات على الطبيعة البَشرية وعلى العقل.

ـ لم ألاحظ شيئاً. لكن تنكّره كان يؤدي مهمّته على أحسن وجه. كان سعيداً جداً. صار الفلاحون لا يهربون إذا رأوه قادما. صارت النساء الشابات لا تختفين في منازلهن إذا رأينه يقترب على صهوة جواده. وكفّ المتسوّلون عن الهجوم عليه بقصصهم التي كلها آلام. فحتى الكلاب أحجمت عن النباح عليه.

ـ الختان كانت له فوائده إذن.

ـ إن شئت. لكن التضحية كانت كبيرة.

ـ لماذا أنت مهتمّ كثيراً بهذا الموضوع؟

ـ لقد فكّرت ملياً في الأمر. كان لديّ متّسع من الوقت. الختان ليس مقيتاً فحسب بل هو كذلك لا معنى له. هل يُعقل أن يمنّ الله عليهم بشيء هم ليسوا بحاجة إليه؟ هل يُعقل أن يمنح الله أجسامهم شيئاً يكونون مجبورين على فصله عنها بعد الولادة بقليل؟ هل في كل هذا معنى؟ لو كانت الغُلْفة حقاً شيئاً لا يصلح، شيئاً فيه ضرر، هل كان الله ليتأخّر في إزالتها؟ لا، هذا أفضل مثال على سخافة دين هؤلاء المِيِيًّا. وبما أنّه سخيف إلى هذه الدرجة فهم مجبورون على الدّفاع عنه بكل ضروب العداء للآخرين.

٥٢
هذا الذي يعاقب الأشرار

تقرير إلى الجنرال نَابِي

سرّي

اليوم أستطيع أن أخبركم بنجاح يعود فيه كثير من الفضل إلينا. لقد تمّ القضاء على عادة البذْلي، على دبيْلة الطاعون هذه في جسم عدالتنا الصّلب. لأوّل مرة في تاريخ هذه البلاد فرضنا مبدأ أنّ المحكوم عليه والذي يُنفّذ فيه الحكم يجب أن يكونا نفس الشخص. في المستقبل سيخشى أثرياء السّنْد حكمنا بالإعدام وسيتعاملون مع نظامنا القضائي باحترام أكبر. إنّ النجاح في حلّ هذه المشكلة من شأنه أن يفتح أعيننا على بعض حالات سوء تفاهم أخرى. علينا ألاّ نغترّ بأنفسنا لأنّ المسافة طويلة حتى ذلك اليوم الذي سوف نرى فيه نظرتنا إلى العدالة قد غزت كل الأفئدة والنفوس في هذه البلاد. كمثال على التحديات التي ما زالت تنتظرنا أودّ أن أسوق حادثة من السّنْد الأعلى كنت شخصياً، بحكم صدفة سعيدة، شاهداً عليها. في سُكّوز تمّ القبض على خمسة لصوص كبار وبحوزتهم جزء من المسروق الذي انتزعوه من ضحاياهم قبل أن يتخلصوا منها قتلا بخناجرهم. كانت الأدلة دامغة واعترف اللصوص بما نسب إليهم. تم شنقهم، وحتى يكون للعملية مفعول أكثر ردعاً أُبقيَ عليهم معلّقين في حبل المشنقة بينما أُصدرت أوامر صارمة إلى الحراس بألاّ

يسمحوا لأحد، مهما كانت الأسباب، بالاقتراب منهم. عاد الضابط في الصباح الموالي (و كنت برفقته) ليتأكد بنفسه من أنه تمّ العمل حسب تعليماته. تملكتنا الدهشة عندما لم نر سوى أربع مشانق فوق الهضبة بينما تدلّت جثتان معاً من إحدى المشانق المتبقية. لكنّ إحدى الجثتين اختلفت كثيراً ـ من حيث اللباس وجزئية أخرى تسدّ النفْس ـ عن جثث اللصوص الأخرى. طُلب في الحين من الحراس أن يقدموا تفسيراً لما حصل. أقرّوا بأنّهم في الليلة الماضية غلبهم النوم ولمّا استيقظوا تبيّن لهم أنه لم تتم سرقة إحدى المشانق فحسب بل كذلك إحدى الجثث. كان الجسد المسروق جثمان قائد اللّصوص، ممّا فتح الباب أمام عديد الاحتمالات. ووسط فزعهم وخشيتهم من عواقب ما حصل، قبضوا على أوّل رجل جاءت به الطريق في الصباح الباكر وشنقوه من غير سؤال ولا جواب. حنق الضابط حنقاً شديداً، شأنه شأن أيّ إنسان عادي يجد نفسه أمام شيء لا يُعقل تماماً. زاد غضبه حدّة بسبب تصرّف الحراس الذين لم يبدُوا خجلين ولم يساورهم أيّ نوع من الريبة. وبّخهم الضابط طويلاً، لنقُلْ بحماس جدير بالإعجاب، ولو أنّ توبيخه لهم بقي بدون نجاح يذكر. ناشدهم بوجوب التخلّي عن احتقارهم الهمجي للحياة البشرية خصوصاً وأنهم يخدمون أرقى حضارة على وجه البسيطة. بعد أن قدّم درسا في الأخلاق وطالب بمزيد من الحكمة سكت من فرط الإعياء، ممّا سمح لأحد المكلّفين بالحراسة بتناول الكلمة: حضرة الملازم أوّل، أرجو المعذرة، لكننا وجدنا في متاع هذا المسافر شيئاً نريد أن نريكم إياه. اقْتِدْنا إلى عربة لم ننتبه إليها من قبل حيث سحب أحد الحراس من عليها الغطاء. رأينا أمامنا جثماناً مشوّهاً ولنا أنّ المسافر الذي شنقوه عن طريق الصدفة كان ارتكب جريمة القتل غدراً. صعُب عليّ عندئذ أن ألوم الحراس على شماتتهم لمّا قالوا: أخبرونا الآن، من هو أعلى القضاة؟ الله

القدير والمعصوم من الخطأ أم أحد أولئك الحكام من بلادكم الذين يتصبّبون عرقا وتُترجم لهم جميع تفاصيل القضية من طرف أشخاص يقولون الحقيقة التي تخدم مصالحهم. إني لا أبالغ عندما أقول إن الضابط قُطع عليه الطريق في تلك اللحظة، لا بل ألمّ به قنوط لا حدود له. أقسمَ ألاّ يلقّن مستقبلاً هؤلاء الناس شيئاً وأغلب الظنّ أنه سيلتزم بقسمه. تركتُه برفقة أفكاره العبوسة لأني لم أكن أدري في أيّ مجال كان عليّ أن أسانده.

٥٣
ناوكرام

II أُومْ أوداندايا نَمَهَا / سرفافيغنوباشنتايا نَمَهَا / أُومْ غانيشايا نَمَهَا II

ـ أخذني مرّة معه. إلى زِهْوَان. لم يكن متنكراً. بالعكس. كان الهدف من الذهاب إلى هناك التعرّف على ما عساه يكون ردّ فعل المختونين إزاء ضابط من الأنغريز جاء لزيارة أحد مقدّساتهم. كان برتن صاحب واثقا تماماً من أنّ الأخطار التي بُولغ في تصويرها هي في الحقيقة ضئيلة. كان يظنّ ـ وهنا تلاحظ كيف أنّ الانجذاب إلى الشيء من شأنه أن يُبطل عمل العقل ـ أنّ الاعتقاد السّائد بأنّ المختونين هم عدائيون وغير متسامحين هو اعتقاد باطل.

ـ هل تبدأ بالنهاية؟

ـ أريد فقط أن أحُول دون أن تنتهي أنت إلى أفكار سخيفة. في زِهْوانْ كان قبر الصقر الأحمر. هكذا يُلقّب أحد دراويشهم. كان في مساحة أحد معابد شِيفَا. وقاحة لا متناهية كهذه يجب معاقبتها. سنضطرّ في يوم من الأيام إلى الكشف عمّا كان في الأوّل حقيقةً. كان هذا الولي الصالح غريباً. جاء من مكان غير معروف، استقرّ في زهوان وعاشر العاهرات. يُقال إنه أتى بالمعجزات.

ـ هل لا تقول بالمعجزات من حيث المبدأ؟

ـ لا، أعلم أن بعض السَّادُو لهم من القدرات ما يعجز المرء عن فهمها.

ـ كذلك بعض الدراويش.

ـ لا، ليس هذا النّوع من الدراويش. لم يعترض سبيلي هناك إلا المتسوّلون. متسوّلون تنبعث منهم رائحة كريهة. تسعة من بين عشرة أشخاص في ذلك المكان كانوا متسوّلين.

ـ كما في معابدنا.

ـ السّادُو عندنا يترقبون بكل صبر الصدقة التي نقدمها إليهم. أمّا المختونون فإنهم يجذبونك من ثيابك ولا يتركونك وحالك. جلسوا في كل مكان، كانوا يدخنون، نعم، مثل السّادو، لا فرق، الجميع كان بأيديهم شِيلُومْ. كانوا يطلقون أصواتا متحشرجة، أمّا الشّيء الذي كان لا يُحتمل حقّاً فكانت تلك النداءات المدوّية باستمرار. مَاسْت كَالنْداز، نعم، هذا النّداء. إني لا أحتمل سماعه أكثر.

ـ أفهم، أفهم ما تعنيه. لديّ نفس الشعور.

ـ حقّا؟

ـ بكل تأكيد. نحن نسكن بقرب معبد. سِيتَا-رَامْ سِيتَا-رَامْ سِيتَا-رَامْرَامْرَامْ. يكفي أن أسمع هذا عن بعد لتغثى نفسي.

ـ فطنت إلى خدعتك. أنت تُبالغ في تعداد ما هو مشترك وتتخفّى على الفوارق. هل تظن حقاً أن هذا يحلّ المشكلة؟

ـ ليست خدعة. أنا أنظر فقط إلى ما يختفي وراء الوهم الذي يتراءى لك.

ـ أنت ينكشف لك كل شيء؟ لماذا نجلس إذن معا؟ أنا ذاهب الآن.

ـ هوّن عليك. لا شيْ يدوم أبداً. نتخاصم وكأننا بحوزتنا شيء واضح ومحسوم فيه. لنعد إلى قصّتك. سوف أقتصر على الكتابة فقط. لكن دع المختونين وشأنهم. إنّ كراهية بدائية كهذه لا يمكن أن تكون من خصالك.

ـ حقا! أنت لست مخطئاً تماماً. لكن أريد أن أضيف أنّ الدراويش كانوا يحملون نوعاً من الأثقال على أجسامهم حتى يُضفوا على الحياة أكثر مشقة. الجميع كانوا يسمّونهم مَالأنَج، أي أسرى الإله، لأنهم كانوا يحملون سلاسل ثقيلة على أجسامهم. لقد ذكّرني المنظر بالسّادو عندنا. كما ترى، أخذ المختونون كلّ هذا العبث عنّا.

ـ وبرتن صاحب، كيف تمّ استقباله؟

ـ كما يُستقبل الصديق. نعم، أنا لا أُقرّ بهذا إلاّ على مضض. كان المختونون لطيفين مؤدّبين. مكّنوه من مشاهدة كل شيء. زادهم اهتمامه فخرا. شيء واحد فقط لم يُسمح له به، ألا وهو الاقتراب من القبر. لكنّ هذا لم يزعجه. غمزني لمّا أعلموه بالأمر متأسفين. قال فيما بعد، في طريق العودة إلى المخيّم، إنّ ميرزا عبد الله سيتوجّب عليه زيارة المعبد. قال: المرء يرى أكثر عندما يكون برفقة شخص آخر.

٥٤

إجلالا وإكبارا

كحّ المؤذن فتنخّم قطعة من الكفتة بقيت طول الليل عالقة بحنجرته. مرّ بعد ذلك إلى المقطع الأوّل ومطّطه، كذلك فعل بالمقطع الثاني وكأنه يجذب إليه شريط مقلاع مستهدفاً نوم الناس. سمع برتن وقع أقدام في طريقها إلى بيت الاستحمام. لم ينم جيداً وكانت له أحلام مضطربة. رأى رجلاً من الخلف ملتفاً بعباءة وواقفاً على قبر في أرض قليلة النبات. مرّ من أمامه كلب تنقصه ساق وهو يعرج. حُفر على شاهد القبر اسم بكتابة متداعية، رِيشْ بَارْتُونْ. اقترب أشخاص آخرون من القبر، نظروا صامتين وبدون حراك إلى شاهد القبر.

سأل كل واحد منهم: من هو الرّجل المدفون في هذا المكان؟ ما من أحد كان له جواب. قال الأشخاص: أمرٌ مُحزن. وقبل أن ينصرفوا غطّوا القبر بقطعة من القماش. أردف أحدهم دون أن يتوقف: دُفن بعيداً عن تربة أجداده. لم يبق إلا الرجل الملتحف بالعباءة واقفاً على القبر دون حراك. لم يرفع حتى يده ليردّ إلى المتوفى ديْنا يبدو أن لا أحد صار يتذكره. ما فائدة أن حمل شاهد القبر ذلك الاسم؟ أشار إليه أحد الرجال الشبان المتواجدين في المنزل أنه بإمكانه أن يتوضأ. الصلاة خير من النوم، هذا ما حاول المؤذن أن يُقنع به سكان الحي. الصلاة خير من النوم. كانت صلاةُ النهار الأولى صلاة قصيرة. كانت الصورة الروحية

لذلك الماء البارد الذي بلّل به وجهه. ليس من أجل أن يُفيق فحسب، بل ليسهل عليه الوقوف أيضاً، ليركع بإخلاص وليتقبل اليوم بوقفة معتدلة. تناول بعد ذلك الشّاي مع مضيّفه. ميرزا عزيز. كانا تصادقا بعدُ. لقد جنى، بصفته ميرزا عبد الله، ثمار كرامته وصبره لأسابيع. انتقل من ضيافة منزل إلى ضيافة منزل آخر. كان أهلا للتكريم. ألم يقل الرسول صلى الله عليه وسلم: كن في الدنيا كالمسافر. كان ميرزا عبد الله هذا المسافر الغريب. لقد تعلّم في الأثناء كيف يتودّد إلى الناس، تعرّف على كلّ ضروب المزاح، وعلى القذْر الذي يسمح بأن يكون لها مفعول إيجابي. هذا المسافر رفيع الشأن والذي حذق فنون المحادثة تمّ استقباله بعدُ من طرف الكثيرين. وجد في ميرزا عزيز، الجدير بالاحترام والذي سبق طبعاً وأن تآخى معه، خير مُخبر. كان يتاجر بكل شيء، حتى بالأخبار، ساعدته في كل هذا روابط قرابة بالعديد من أهم العائلات. كان برتن معجبا به. رغم أنه كان يعلم أنه قد يكون في يوم من الأيام مضطراً لخيانته. لا غرابة في الأمر لأنّ ميرزا عزيز كان له تصرّف متقلب يضر بالمصالح البريطانية. كان ملمّا خير إلمام بجميع الأخبار المتعلقة بخطط البريطانيين - بقي على برتن أن يعرف الجهة التي تمدّه بها - ويبيعها الغير، إلى الثوار في بلوشستان. لم تكن هذه، إلى حدّ تلك الساعة، سوى احتمالات ومجرّد إشارات تفاقمت. كان عليه، بصفته ضيفه المبجّل، أن يتحلّى بالصبر إلى أن تتأكد ظنونه تماماً - بقطع النظر عن أنّ الجنرال لا يعوّل أبداً على مجرّد مؤشرات. كان ضجرا. لم يكن ميرزا عزيز متآمرا فحسب بل أيضاً رجلاً موفور الحال ينظّم أجمل الأمسيات الموسيقية في المدينة. أخذ برتن نفَسا من النرجيلة وأغمض عينيه مستسلما للألحان. قد يطول الوقت قبل أن يعلم الحقيقة. علِق مقطع بذهنه. لا نخلق الشّمس

بمجرّد أن نزيح ستار النّافذة. كان في غناء الصّوت النسائي اعتداد بالنفس يغلب عليه الإنهاك. الشمس لا تُخلق بمجرّد فتح الستار. شعُر ريتشارد برتن بأنّه أقرب إلى السعادة عندما يكون ميرزا عبد الله، البزّاز أصيل بوشير، وليس الضّابط في خدمة شركة الهند الشرقية البريطانية الموقرة.

٥٥

ناوكرام

II أُومْ ياشسكارايا نَمَهَا/ سرفافيغنوباشنتايا نَمَهَا/ أُومْ غانيشايا نَمَهَا II

ـ المِيِيَّا يدّعون أنّ محمدا هذا جاءهم بالسُّنة الإلهية، لكنهم لا يسمحون بالسؤال لماذا هي تحتوي على نقائص كثيرة، السنة الإلهية. إلى درجة أنّهم يضطرّون إلى سدّ النّقائص باللّجوء إلى عادات البلاد. هذه العادات ـ استعِدَّ الآن لسماع قول لاذع ـ هي غالباً على قدر كبير من الفظاعة لأنّها غالباً ما تتناقض مع السنّة الإلهية.

ـ وكيف تريدها أن تكون؟ إنّها من تشريع البشر.

ـ كمن استعمل أردأ أنواع الخيوط لترقيع قماش مقدّس. هل هذا ممكن؟

ـ كيف تفسّر إذن، إن صحّ أنّ كل ما في المِيِيَّا يتّسم باللامعقول، أنّ برتن صاحب، الذي قلتَ عنه مراراً إنه رجل علم وثقافة، استهوته هذه العقيدة؟ أم هل إنّ كلّ ما تعلّم وما فعل قام به بنية التجسس؟

ـ لا، كان له اهتمام حقيقي بالموضوع وكذلك ميل واضح، وهو ما بقي مبهما بالنسبة إليّ. لم يكن معلّموه، باستثناء أُوبَانِيتشِي في بارودا، مؤثّرين بالمرة. كان يصلّي حتى مع المِيِيَّا، هل تستطيع أن تتصور شيئاً مثل هذا؟ برتن صاحب، الرجل الوقور ركع، مسح الأرضية بركبتيه وجبينه. ليس هناك من تفسير. ربما لأنه وجد سهولة في كلّ هذا. كان

وحده قادراً على ولوج عالم أيّ إنسان آخر دون تعب. تمكّن من تعلّم آداب المعاملة والعمل بقيم الناس الذين عاشرهم. بدون أن يرهق نفسه. أحياناً بدون إرادته.

- هل كان بدون قيم خاصّة به؟ بدون قواعد كان مقتنعا بها؟

- كان يتحرّك داخل قوانينه الخاصة. حقاً. كان ينتظر من الآخرين الوفاء الكامل. اغتاظ لكون الأنغريز، كلما أخلوا مكاناً، تركوا السكان الأصليين الذين كانوا حاربوا في صفوفهم لوحدهم. كان يزمجر غاضبا ويقول: اشتهرنا، وبحق، باستغلال الشخص عندما نكون في حاجة إليه وبالتخلّي عنه عندما يصير عديم الفائدة. ثم تثور ثائرته ويضيف: إذا دخل المرء في تحالف مع الغير فيجب الالتزام ببنود هذا التحالف واحترامها. ليس من حقنا ترك حلفائنا فريسة للأقدار، للمنفى، للفقر أو حتى للعذاب والموت.

- كان يعي جميع التناقضات التي نعيشها كلنا، وكان يسمّيها باسمها.

- كان كل شيء ممكناً إذا ما فعل شيئاً.

- كان كالطقس عندما تهبّ الرياح الموسمية.

- كان مُباغتا. في غالب الأحيان مُباغتا إلى حدّ كبير. كان أحياناً يفعل عكس ما سبق أن دعا إليه. كان يهزأ ممّا اعتبره من قبل مقدسا.

- أعطني مثالا؟

- ألم نتحدث عنه بما فيه الكفاية؟

- رجاءً، أعطني مثالا أخيراً.

- لما كنّا في زِهْوَان التقى صدفة قرب المدينة بعض الأنغريز يقومون بحفريّات بحثا عن كنوز قديمة، عن بقايا معسكر لإسكندر الأكبر. كانوا

منهمكين في عملهم تحدوهم النّية الحسنة. لكنّهم، لسبب من الأسباب، أغضبوا برتن صاحب. نعم، كان هكذا. لم أعرف أبداً متى يثير شيء ما غضبه. مرّ أسبوع على قيام الأنغريز بحفرياتهم فباع المِيِيّا الموجودون في تلك الجهة هؤلاء المغفّلين قطعاً نقدية مزوّرة. لكن كل الذين صبّوا جمّ سخريتهم على من قاموا بالحفريات اضطروا ذات يوم إلى سحب كل ما قالوا من كلام مسموم، والسّبب هو أنّ الأنغريز عثروا على لقية: شظايا أواني من الخزف تحمل صُوَرا تعود إلى بلد إفرنجي قديم وغابر في التاريخ كان يسمّى بلد الاتْرُوسْكيين. جاء القائمون بالحفريات إلى مخيّمنا بغية عرض الكسب الذي ظفروا به. خجلتُ لأجلهم وخجلت لصنيع برتن صاحب الذي كان أخفى تلك الشظايا بنفسه في الأرض.

ـ هل كنت معه؟

ـ لا، لكني واثق من أنه قام بهذا العمل.

ـ كيف؟

ـ كانت بحوزته زهرية تبخّرت في تلك الأيام. حتى صديقه شْكوتْ صاحب اشتبه في أمره، لكن برتن صاحب قال إنّه بريء. هو أيضاً سبق له أن حفر في كل مكان وأخرج أشياء مختلفة من باطن الأرض، لكنه لم يجد حرجاً في أن يطلق دعابته الثقيلة على من كان لهم نفس الولع.

٥٦
صاحب النّفوذ

ما كان ليخطر ببال أحد أن يُشفق على الجنرال رغم أنّه كان نصف مقعد. هل يعود هذا إلى أنّ الثناء عليه أو لومه كانا دوماً بلا حدود؟ كانت تتمّ مهاجمته من جميع الجهات. كلما طال حكمه للسند إلاّ وازداد التهجّم عليه حدّة. حتى انتصاراته في ساحة المعركة وُضعت في وقت لاحق موضع الشك. كلّ الذين كانوا برفقته استمروا في مساندته بدون تحفظ، أمّا أولئك الذين لم يشاركوا في الأحداث إلاّ عن طريق الرّواية فقد عارضوه الطّرح في أدنى تفاصيله. كان الجنرال يبدي تفهّما إزاء القواعد المرنة للأخلاق السياسية لكنه صعب عليه أن يكون طرفاً في نشر أخلاق كاذبة. كان لا يدخّن، لا يقامر، لا يشرب الخمر ـ لماذا أنت تعيش إذن؟ هذا ما أراد برتن أن يسأله مرة لكنه تكتّم على سؤاله.؛ لقد ساهم منذ سنوات شبابه في وضع حجر الزاوية لسمعته السيئة، لمّا جعل العُرفاء داخل كتيبته يُشفَون من إدمانهم على تناول المشروبات الكحولية عن طريق الجَلْد.

ـ بماذا جئتم؟

ـ تعرّفت في الأثناء على وسيط يزوّد قادة البلوشيين بمعلومات ضافية. لكني، لحد الآن، لا أدري كيف يحصل على هذه المعلومات. أنا في حاجة إلى مزيد من الوقت.

ـ مِا دامت الثورة لم تندلع قبل أن تنتهوا أنتم من تحرّياتكم.

ـ الوضع يبدو هادئاً في الوقت الراهن.

ـ كيف يتم إبلاغ المعلومات؟

ـ في أغلب الأحيان عن طريق السِّيدِي.

ـ السِيدي؟ اشرحوا ما تقولون أيّها الجندي عوَض استعمال المفاهيم بلا حساب.

ـ هم أحفاد العبيد الذين جاؤوا من شرق إفريقيا. نراهم في كل مكان بقِرَبهم فوق ظهورهم ومحمّلين بأثقال لا يقدر عليها إلاّ فحل الجاموس. الواحد منهم يسمّى سِيدي والمجموعة السّيدي.

ـ ولماذا يستعمل المتمردون هؤلاء الناس بالذات؟

ـ لأنهم خارجون عن النظام. ليسوا مُدمجين في النسيج العام للعائلة والعشيرة والقبيلة الذي غالباً ما يعقّد كل شيء.

ـ أسرعوا، أيها الجندي! أنا مشتاق كل الاشتياق إلى فكّ كلّ هذه الألغاز قريباً. لدي شعور أني سوف لن أبقى طويلاً هنا.

ـ في السّنْد، سِيرْ؟

ـ فوق هذه الأرض.

ـ مثل هذه المشاعر غالباً ما تكون كاذبة.

ـ ما زلت على قيد الحياة لأنّ حياتي لا معنى لها.

ـ ماذا تعنون، سِيرْ؟

ـ لقد خرقت رصاصة الشقّ الأيمن لأنفي واندسّت داخل الفكّ في أعلى الأذن. كنت ملقى على الحشيش بينما بذل طبيبان عسكريان جهداً كبيراً في استخراج الرصاصة. كانت مدفونة داخل العظم ورغم أنهما

حاولا طويلاً جذبها، لم يفلحا في إخراجها من مكانها. فشلا في مهمّتهما حتى بعد أن أحدثا حفرة بحجم ثلاثة إنْشات في خدي. أدخل أحدهما إبهامه في فمي ثمّ ضغط بقوّة بينما استمرّ الثاني في الجذب إلى أن وثبت الرصاصة في آخر الأمر من مكانها ومعها كمية كبيرة من الشظايا. منذ تلك الحادثة يلازمني دوماً شعور بالاختناق. سبق أيضاً أن كُسرت رجلي فأوثقها أخي نوعاً ما برباط إلى أن تعافت. لكنّها، في الحقيقة، لم تتعافَ تماماً وتمّ كسرها بعد سنين من جديد لتقويمها مرّة أخرى. إنّها تؤلمني مع كل خطوة أخطوها. وفي الليل لا أستطيع النوم من أجل الروماتزم الذي يسكن مفاصلي. هل ما زال بعد كل هذا معنى للحياة؟

ـ أنتم تقومون بعمل مفيد.

ـ جميل، إن أنتم تعنون حقاً ما تقولون، أيها الجندي. لكنّ الأغلبية تبدو وكأنها تخلت عني.

ـ سِيرْ، هل تسمحون بأن ألقي عليكم سؤالا فيه شيء من الإحراج؟

ـ افعلوا، أيها الجندي.

ـ المسؤولية التي عُهد بها إليكم بخصوص بلد معقّد، يكتنفه الغموض ومتنوّع إلى هذه الدرجة، ألا تثقل كاهلكم أحيانا؟

ـ لا. هذا لا يقلقني أبداً. ممارسة الحكم ليست مزعجة بالمرّة.

٥٧

ناوكرام

II أُومْ براموديايا نَمَهَا / سرفافيغنوباشنتايا نَمَهَا / أُومْ غانيشايا نَمَهَا II

ـ اليوم سأكشف لك عن الكيفية التي أنقذتُ بها حياته. أنت حقيق بهذا. لقد انتظرت بكل صبر. لا بدّ أن قلبك احترق شوقا إلى معرفة هذه الجزئية. بدأ كل شيء لمّا سمعتُ أن برتن صاحب أُودع السجن. لا، بل سمعت في الحقيقة أن بعض تابعي ميرزا عزيز تمّ القبض عليهم. كنت أعلم أنّ ميرزا عزيز كان محطّ ثقة برتن صاحب. كان ينوي قضاء أيام عنده. ولمّا لم يعُد ظننت أنه لربما تمّ القبض عليه مع الآخرين.

ـ كُضابط أنغريزي؟ هل هذا ممكن؟

ـ تماماً. لذلك تحدثتُ في أوّل الأمر إلى نقيبه. أظهر النقيب أنه غير مكترث بالمرة. قال: الملازم أوّل برتن يختفي باستمرار، فما هو الجديد إذن في اختفائه هذه المرة؟ ثم تذكّرت أنه كان متنكراً في لباس المِيبِيًا ولم يستطع الجهر بالحقيقة في حضرة الآخرين. لأنّ هذا كان من شأنه أن يُريق ماء وجه ميرزا عزيز وأن يفضح برتن صاحب في تنكّره إلى الأبد.

ـ كان بإمكانه التعريف بنفسه في السجن.

ـ أنا أيضاً جاءتني هذه الفكرة في أوّل الأمر. لكن كلما أمعنت في التفكير إلاّ وازدادت شكوكي. كانوا كلهم في زنزانة واحدة، ولو طَلب أن يتحدث إلى المكلف بالحراسة على حدة لظن الآخرون أنه أراد الوشاية

بهم. لهذا السبب، وهو ما بدا أكثر احتمالا، بقي ينتظر حتى إطلاق سراحهم جميعاً. لم يكن سيّدي من أولئك الذين يخشون قضاء ليلة في السجن. بالعكس، لربما كان أيضاً يجد في هذه التجربة متعة.

ـ لكنه قضّى أكثر من ليلة في السجن.

ـ بعد مرور ثلاثة أيام تحيّرتُ كثيراً. كنت لا أدري مع من أتكلم. كان النقيب سْكوتْ مع فريق المسّاحين في السّنْد الأعلى. وكان برتن قد كفّ عن العمل معهم منذ مدّة طويلة لأنّ عينيه أصابهما التهاب. ما عدا هذا لم يعرف أحد شيئاً محددا عن مشاغله. باستثناء الجنرال. ماذا كان بوسعي أن أفعل؟ هل كان عليّ أن أذهب إلى مقر القيادة وأطلب مقابلة مع حاكم السّنْد؟ انتظرت يوماً آخر ثم ذهبت إلى السجن. لقد سجن الأنغريز خصومهم في القلعة القديمة المنتصبة فوق هضبة شرقي المدينة. حقاً، كان مجرّد النظر إليها من الخارج يبعث على الخوف، كانت بناية كالجبل. وجب عليّ تسلّق عديد الدرجات. جرّدتني البوّابة التي لم تكن مفتوحة إلاّ من جهة واحدة ممّا تبقّى لديّ من شجاعة. كانت مرصّعة في أعلاها بقضبان عظيمة من الحديد المدبّب من شأنها أن تصمد أمام فيَلة الأزمنة الغابرة. لمّا مررت أمامها اخترقتني رعشة. اضطررت إلى طرح قضيتي على اثنين من السيبُوي بدا عليهما الملل واضحاً. طلبت مقابلة الآمر لكنهما لم يسمحا لي بالدخول إليه. أرادا أن يعرفا مني الموضوع الذي جئت من أجله. رفضتُ. أضفت أني خادم لأنغريزي، خادم أحد الضباط. أخذوني أخيراً إلى الآمر. جميلة حقاً كانت تلك الغرفة التي اتخذ منها الآمر مكتباً له. كانت نوافذها صغيرة لكنها أشرفت على جميع المناطق المجاورة. أعلمتُه أنّ أحد الأنغريز وأيضاً برتبة ضابط تمّ القبض عليه خطأً. أجاب الضابط بخشونة أنه لو حصل هذا لكان علم به.

عارضته بكل حذر: لا أظنّ، لأنه جاسوس متنكّر ويصعب التعرّف عليه. لم يثق بكلامي، غير أنّ إلحاحي وقع في نفسه. وصفتُ له برتن صاحب، حتى الملابس التي كان يرتدي لمّا غادر المنزل. اغتاظ الآمر لمّا شعر أني جررتُه صيداً بطُعم. قال في النهاية وهو ينهض من مكانه: سنرى. طلب مني أن أنتظر أمام البوابة الخارجية. بعد مرور بعض الوقف طُلب مني الدخول من جديد. لمّا عبرت البوابة الثقيلة مرة أخرى انقبض قلبي وكأنه حاول المرور عبر فتحة ضيّقة. قال الآمر: كلّ شيء كما توقعتُ. الرجل الذي وصفتَ ليس أنغريزيا قطعاً. اندفعت قائلاً: كيف توصلت إلى معرفة هذا؟ ابتسم الآمر بشماتة. طلبنا منه بكل أدب أن ينزع ثيابه. تبيّن أنه مختون، زد على ذلك فهو لا ينطق بكلمة واحدة من لغتنا. قلت معترضاً إنّه لا يريد إظهار هويته الحقيقية أمام الآخرين، ثم إنّه مختون لأنه أقدم على هذا العمل منذ مدّة قصيرة. لهذا الغرض بالذّات. هراء! الإنجليزي لا يسمح بأن يُختن. لكن ما يهمّني أكثر هو معرفة ما ترمي إليه من خلال أكاذيبك. كان لصوت الآمر رنين فاق في حدّته كل تهديد. لا بد أن نتعرف على ما في جعبتك من نوايا عدوانية. ظننت في تلك اللحظة أنّي هالك.

٥٨

من لا يعرف الغلبة

امتلأ الجوّ شيئاً فشيئاً برائحة الموت. الحقول القليلة غطّاها غلاف رقيق من الرّماد الأبيض نشر في الأرجاء بريقاً مبهماً والنباتات القليلة تفتّقت نضارتها كشعرات غير حليقة تناثرت على جلدة متجعّدة لرجل عجوز. تبخّر الماء في قاع الأنهار مخلّفاً أكواماً من الغرين العفن. يبست الأشجار. كان ميرزا عبد الله يأخذ قسطاً من الراحة، شأنه شأن الآخرين. كانت الغرف أكثر برودة والجسم أكثر ثقلا بعد غداء على غاية من الجودة. صراخ. أثرّ طارده ولوّث غفوته. تكاثفت الأصوات وشكّلت ضبابا. كانت عالية أكثر ممّا يحتمل الكابوس، اقتربت. فُتح الباب دفعة واحدة، اقتحم بعض الرجال الغرفة. أمسكوه من ذراعيه، طرحوه أرضاً وانهالوا عليه ركلاً. ضربة على الرأس. قبل أن يغمى عليه شعر بالأيدي وهي تتحسسه. كانت الأرضية تحته زلقة وكان رأسه في البرد. مرّ مزيد من الوقت قبل أن يتمكّن من تحسس رجليه في الظلمة. من آخَر هنا؟ بدا له صوته مُريباً. شعر وكأنّه أصابه الجمود.

ـ آه، لقد استيقظ صديقنا.

ـ لقد تمّ أسرنا.

ـ من طرف من؟

ـ هل سمعتموه؟ كم هم سعداء هؤلاء الغرباء بجهلهم. من أسّرنا يا ترى؟ طبعاً، الأنغريز.

ـ الأنغريز!

ـ نعم. هناك خبر سارّ. ميرزا عزيز تمكّن من الهروب. كان الوحيد الذي لم يخلد إلى الراحة لما هجموا على المنزل.

ـ ما شاء الله.

ـ وهناك خبر سيء. بما أن ميرزا عِزيز هرب فإنّ الأنغريز يريدون أن يعرفوا المكان الذي يختبئ فيه. وسيعذبوننا إلى أن يعرفوا هذا المكان.

ـ وهل نعرف أين يختبئ؟

ـ لا. لا أحد منا يعرف. وسوف لن يجنّبنا هذا الآلام التي تنتظرنا. أمّا بالنسبة إليك فالوضع يختلف شيئاً ما. تستطيع أن تحاول إقناعهم أنك مسافر وفي طريقك إلى مكان آخر، أنك من بلاد فارس وتواجدت صدفة في منزل ميرزا عزيز.

ـ وهل سينفعني كل هذا؟

ـ أخشى ألاّ يأتي بنفع. حتى وإن صدّقوك فأغلب الظنّ أنّ شكّا ما في علاقة لك بالشاه سيبقى قائماً.

ـ حان الوقت لدفع ثمن الصّداقة مع ميرزا عزيز.

استسلموا إلى الصّمت من جديد. لم يتمكنوا حتى من الصلاة بصفة مرضية. كان السقف واطئاً ولا يسمح بالوقوف. لم يهتدوا إلى تحديد الجهات الأربع. صرير. شعاع ضوئي. شعلة تضيء لأوّل مرة المكان الذي وُجدوا فيه. زنزانة. جدران سميكة. أرزّ مُرتخٍ في تَاوًا وضعها أحد السّيبُوي في الوسط. اضطرّوا إلى الأكل بأيديهم الوسخة. ألقى عليه المسجونون الآخرون نظرات متفحصة. تساءلوا إن كانوا حقاً يستطيعون التعويل عليه. ما لبثت الشّعلة أن انطفأت. تمّ بعدها إخراج أحدهم. بقي

طويلاً خارج المكان. كانوا لا يدرون إن كان الوقت ليلاً أو نهاراً. بعد أن أُرجع الرّجل إلى مكانه لم يقدر على إعلامهم بما حصل له. زاد الخوف الزنزانة ضيقاً.

٥٩

ناوكرام

II أُومْ دُوزْجاياَيا نَمَهَا/ سرفافيغنوباشنتايا نَمَهَا/ أُومْ غانيشايا نَمَهَا II

ـ أومأ الآمر إلى السيبُوي الذي وقف ورائي. لو لم احتط للموقف من قبل لكان ضربني حتما. أخذت معي دليلاً قاطعاً إلى هناك. صحتُ في تلك اللحظة التي كانت من لحظات الصحوة النادرة في حياتي: رجاءً، انتظر، رجاءً، أودّ أن أُريك شيئاً. أدخلت يدي إلى مخلاتي وأخرجت منها بذلة برتن صاحب العسكرية. وأشياء أخرى صغيرة. ثق فيما أقول، أنا لا أكذب، تستطيع أن تسألني، أنا أعرف أشياء عن آلاي المشاة الثامن عشر. أعرف أسماء الضباط الآخرين. رجاءً، أخرجه إلى هنا واسأله على حدة. قال الآمر ببطء: حسن، لكن يجب أن تأتي معي. رافقنا عونان آخران من السيبُوي إلى داخل غرفة أرضيتها عارية، ليس فيها قطعة واحدة من الأثاث. لم يمرّ وقت طويل حتى أُدخل برتن صاحب الحجرة. فزعتُ لمنظره. سأله الآمر: هل تعرف هذا الرجل؟ لم يتفاعل برتن صاحب مع السؤال. طلب الآمر من أحد السيبُوي ترجمة السؤال. أجاب برتن صاحب نفياً ودون تردّد. أرسل الآمر إلي نظرة كلها ريبة قبل أن يوجه الكلام إلى برتن صاحب من جديد. لكن هذا الرجل يقول إنه يعرفك، إنه القائم على خدمتك. ويقول أيضاً إنك ضابط بريطاني. كان على السيبُوي أن يترجم ولذلك جاءنا جواب برتن صاحب بعد شيء من الإنتظار. لا أدري ما الغاية من وراء هذه الحكاية، لقد سبق وأن قلتُ لك أني تاجر من بلاد

فارس ولا علاقة لي بكل هذا. فكّر الآمر قليلاً ثم أشار إليّ بمغادرة الغرفة صحبة رجال السيبُوي. لا أدري ماذا كان موضوع حديثهما. برتن صاحب لم يذكر لاحقاً ذلك اليوم في حضرتي أبداً. لم يخرجا إلاّ بعد مرور نصف ساعة. تجاهلني الاثنان. عاد الآمر إلى مكتبه بينما عبر برتن صاحب البوابة الثقيلة، نادى على تُونْغا، ركبها وغاب عن الأنظار. لم ينتظرني. لمّا وصلت إلى المنزل وجدته نائماً. بثيابه الوسخة. هيأتُ حمّاما. كنت خائفاً من غضبه المفاجئ والذي لا موجب له. بعد أن أفاق من نومه عاملني كالعادة. بدون عداء. لم أجد الشجاعة الكافية للعودة إلى ذلك الحدث العابر ولم يتعرّض هو إليه يوماً بكلمة. لم تصدر عنه ولو إشارة.

ـ ولم يصل إلى علْمك شيء ممّا جرى؟

ـ بلى، لأني تنصتّ. لمّا كان مرة يتحدث إلى أحد معلّميه. قال له المعلم: الأفضل أن تكشف عن هويّتك. المعركة ليست معركتك. هل تظن أنه من السهل استبدال جبهة بأخرى؟ ما قمتَ به كان فقط لإرضاء غرورك بنفسك. ردّ برتن صاحب على ذلك: أنتم هنا تفكرون دائماً حسب مقاييس جامدة لا تعرف غير الصديق والعدو، ما هو لنا وما هو لكم، الأسود والأبيض. هل ليس بإمكانكم أن تتصوّروا أنّ هنالك منزلة بين المنزلتين؟ عندما أتقمّص شخصيّة إنسان آخر أستطيع أن أُحسّ بحقيقة ما معنى أن أكون هو. قال المعلم: هذا يتراءى لك فقط. التنكر باللباس لا يجعلك تمتلك الروح. لا، طبعاً لا. لكنّي أمتلك مشاعر هذا الشخص، بكل تأكيد، لأنّها متوقّفة على تصرّف الآخرين إزاءه، وهو ما أقدر على الإحساس به. لمّا سمعتُ كلّ هذا أثّر في حقاً. كاد برتن صاحب يترجّى محدّثه لفرط اقتناعه بحقيقة ما كان يقول. لكنّ المعلم لم يكن رحيما. بإمكانك أن تتنكر كما تشاء، لكنك سوف لن تتمكن أبداً من

أن تعيش ما معناه أن تكون حقّاً واحداً منا. تستطيع، متى شئت، أن تنزع عنك لباس التنكر. هذا المخرج الأخير سيبقى دائماً مفتوحا أمامك. أما نحن فسنظلّ أسرى لبشرَتنا. الصّوم والجوع ليسا نفس الشيء.

٦٠

منظر رهيب

تمّ بعد ذلك إطلاق سراحه. ساورته الشّكوك بأنّ الآخرين تنبؤوا بخيانته. قطع على نفسه عهداً بأن يبقى وفياً لتنكّره. ماذا سيكون مآل هذا التنكّر لو انسلخ هو عنه في أوّل مناسبة تتطلب مقاومة، في أوّل امتحان صعب يجتازه لتعود سفينته إلى الرسوّ بكل أمان في ميناء الحماية الإمبراطورية؟ لن يكون هذا إلاّ عملا بخسا. سوف لن يستطيع بعد ذلك النظر في عيني أيّ من بين أولئك الذين اتخذ منهم أصدقاء. كانت القاعة التي سيُستنطق فيها كبيرة جداً، كانت أرضيتها غير مسطّحة وجدرانها منبعجة في أكثر من موضع. تعرّف على الإنجليزي الذي جلس وراء الطاولة الوحيدة في القاعة: مساعد للرائد مَاكْ مُوزدو. بعد أن يمرّ كلّ شيء سوف يتذكّر أن هذا الإنجليزي لم ينهض مرة واحدة من مكانه بل ظلّ جالساً قبالة النافذة يدرس الملفات ويكتب شيئاً من حين لآخر. كان من المفترض أن يُظهر لنفسه أنه محرّك جميع الآلام، لكنه، تقريباً، لم يكن له باع في خلقها. سأله أحد السيبُوي، عن اسمه أوّلاً، عن بلده الأصلي. عن علاقته بميرزا عزيز. كانت في أجوبته حقيقة تتراءى من بعيد. كما كان منتظراً زاد اهتمام مستنطِقيه لمّا عرّف بنفسه كفارسي. رفع الإنجليزي بصره بعد أن نقل المترجم قصير القامة فحوى المعلومة. اكتشف ميرزا عبد الله في نظرته طمعا في نجاح ما لم يكن في الحسبان، في ترقية. هل اكتشف هذا الضابط للتوّ مؤامرة تتعدى حدود بلوشستان

وتصل إلى بلاد فارس وبذلك طبعاً إلى أفغانستان، ثم - من يدري - لربما كذلك إلى روسيا؟ إنّ الكشف عن مؤامرة كهذه لا بدّ أن يأتي معه بمكافأة سخية رتبةً ومَعاشاً. شرع في تطويق هذه المؤامرة بأسئلته. أراد أن يسمع ما كان أقرب إلى توقّعاته. بصبر نافد تجاهل كل الأجوبة التي قادت في اتجاهات أخرى. قرّر ميرزا عبد الله أن يُبلغ عن ذلك الضابط الذي أشعل سيجار مانيلا لتقصيره. ولمّا صار لا يحتمل جسارة العناد الذي طفحت به الأسئلة شتم الضابط. لاحظ أنّ المترجم خفف من حدّة عباراته. لكنّ المستنطِق لقف بعدُ النّبرة ورفع بصره مرّة أخرى. أمّا ميرزا عبد الله فقد اتّضح له شيء آخر ليس بالجديد عليه: غضبُ الضّابط من أن يخرج واحد من الأهالي عن القاعدة ويسمح لنفسه بمخالفة الرّأي. بأن يقول كلمته عالياً. قلة حياء لا يمكن القبول بها، قلة حياء قد تستثير ثائرة أكثر من شخص. في اللحظة الموالية أُفرغ على رأسه من الخلف دلو من الماء البارد. قال أعلى رجال السيبُوي رتبة: في السابق كان الأسرى تُنزع ثيابهم على آخرها. أنا لا أفهم هذا العمل. بثياب مبللة يكون الشعور بالبرد أكبر. قال الضابط من وراء المكتب: أنا واثق من أنك سوف لن تقول ما تعرف عن طواعية. لهذا سوف لن نضيع مزيداً من الوقت في الدردشة والمجاملات. سنريك ما نحن عازمون فعله معك. لم تكتمل التّرجمة بعدُ لمّا أحس بالضرب في بطن الركبة، في الظهر وفي مستوى الكليتين. أحس ميرزا عبد الله أنّ كل الأحاسيس الأخرى، باستثناء الألم، قد تبدّدت. انثنى وسقط جانباً على الأرضية الباردة. تملكته الرعشة. وضع أحد الساهرين على تعذيبه حذاءه الطويل فوق وجهه وبقي هكذا مدّة قبل أن يقول بكل هدوء: سنحرق أباك. سكت الجميع برهة ثم ألقى الضابط سؤالا آخر جاء في صيغة دقيقة وغير معتادة في الآن نفسه بحيث ما كان باستطاعة ميرزا عبد الله أن يجيب عنه حتى ولو رام الجواب. تلوّى على

الأرضية. نهض. شعر بشيء يتمزق في مستوى كتفه اليسرى. حاول أن يقدّم تفسيراً لكونه يجهل ما طُلب منه. وأنه كان مجرد بزّاز أثناء السفر. سمع الصّوت الذي كان يترصّد مباشرة وراء أذنه يقول: نستطيع أن نجرّب معك أشياء أخرى. نستطيع أن نحوّلك إلى امرأة، وهذه العصا ـ أحسّ الشيخ عبد الله بوجع بسيط في فتحة الشّرج ـ نستطيع أن ندكّها في مضيق خيْبر الذي لديك. أنت تحب كلّ هذا، أليس كذلك؟ في تلك اللحظة فهم ميرزا عبد الله أنّ أعلى رجال السيبُوي رتبة كان بنغاليا، وأغلب الظن هندوسياً. كذلك أدرك طبيعة التّحالف وخيم العواقب الحاصل بين طموح الضابط البريطاني وساعده الأيمن. اشتمّ رائحة السيجار وكأنه يمسك به، اشتم رائحة أديم الغابة الرّميم وكأنها ستتحول قريباً إلى رائحة العفن. آخر ما أحسّ به كانت أذنه، كذلك لم يتذكر فيما بعد سوى رائحة اللّحم المحترق.

٦١

ناوكرام

II أُومْ فيكاتايا نَمَهَا / سرفافيغنوباشتنايا نَمَهَا / أُومْ غانيشايا نَمَهَا II

ـ تعافى من جراحه بسرعة غير متوقّعة. لكنه بقي مرهقا. صار البلد لا يستأثر اهتمامه. بقي أحياناً أياماً بأكملها ممدّداً على الفراش. كان من حين لآخر يقرأ جريدة. ولا شيء آخر. كان مستلقياً دون أن يغمض حتى عينيه. المروّعُ حقّاً هو أن يتصرف الشخص بعكس رغباته. كنت لا أشعر بوجوده لدى قيامي بشيء ما في غرفته. فاجأني مرّة عندما قال: ناوكرام يجب أن نغادر هذا المكان. نعود إلى بارودا، صاحب؟ لا، ليس ممكناً. إذا أردنا أن نبْرح هذا المكان فيجب علينا أن نعود إلى إنجلترا.

ـ وما هو العمل الذي كان بإمكانه القيام به كضابط في إنجلترا؟

ـ كنت أنا أيضاً في حيرة. وقتَها. لكن فهمت بسرعة لـمّا بدأ برتن صاحب يتظاهر بالمرض. بدا في أوّل الأمر وكأنه يعاني من وجع ما. كان يشكو حاله ويتذمّر من مرضه في حضرة الآخرين، يتخلّف عن نداء الحضور الصباحي ولا يذهب إلى نادي الكتيبة. ذهب لعيادة طبيب الحامية متّكئاً على بلوشيَيْن عظيمين يبلغ طول كل واحد منهما ستّ أقدام على الأقل. بدا الطبيب منشغل البال. سأل إن كان يشرب الخمر أو يدخن. أقسم برتن صاحب أنه لم يدخّن ولو سيجاراً واحداً، واعترف أنّه من حين لآخر يتناول كأسا قال إنّه من النّادر أن ينهي شرب ما فيها.

ـ هل قال الحقيقة؟

ـ كان في تلك الفترة بالذات يُفرغ بعض الزجاجات في المساء لكنه لم يدخّن، تلك هي الحقيقة. صار لا يطيق رائحة سيجار مانيلا منذ أن أخرجتُه من السجن. لا تسلْ، أنا لا أعرف السبب. شغّلَ شخصاً آخر وكلفه بالحراسة أمام بابه، بالإعلام بكل الزائرين في الإبان حتى يجدوا برتن صاحب دوماً في فراشه. جعل زملاءه يرسلون من يبلغه تمنّياتهم بليلة سعيدة وذلك في الثامنة مساء. وصل كل هذا طبعاً إلى عِلم الطبيب. بدأ برتن صاحب يتحدث بكثير من الحنين عن الفيلق وعن حياته التي قد تُدمّر لو يكون مجبرا على مغادرته. منعني من ترتيب غرفته، وأيضاً من التنظيف. تناثرت الفناجين هنا وهناك بينما ارتخت شرائح الخبز المقمّرة فوق المائدة. كان المنظر يبعث على الاشمئزاز. لم يبق لي كثير من العمل في تلك الأسابيع. أعطاني النقود لأرفّه عن نفسي في المدينة. لم تبق لي إلا مهمّة واحدة، في آخر المساء، عندما لا يراني أحد، كنت آتيه بصينية عليها سلطة، بهارات، مثلّجات ونبيذ بُورتو. كل هذا كان يحضّره أحد أصدقائه الذين وثق بهم. كان في النّهار يجرّ ستائر الغرفة لتبدوَ مظلمة وفي الليل لا يُشعل مصباحا أبداً. يبتلع شيئاً ما فتتدهور حاله ليرسلني في الثانية صباحا في مناداة الطبيب. حرّر وصيته وطلب من الطبيب أن يكون المنفّذ لإرادته الأخيرة، هكذا يسمّي الأنغريز الوصيّة. قبل الطبيب بدون معارضة لأنه، حسب ظني، كان لا يريد التفريط في نومه. لم يمرّ وقت طويل حتى اقتنع بأنّ برتن صاحب غير كفء للخدمة. أعطاه إجازة مرضية بسنتين. سنتان! الأنغريز يعتنون كثيراً بأهل بلدهم. استمرّ في تسلّم مرتّبه كالعادة. قضينا في أوّل الأمر سنة بأكملها في السفر داخل البلاد ووصلنا حتى أُوتِي. إلى مكان لا أظن أنك تعرفه لأنه يقع في الجبال. في الجنوب، بعيداً جداً عن مكاننا هذا. كلّ هذا يبيّن لنا بوضوح أنّ برتن

صاحب كان في الحقيقة في صحّة وعافية. لكن، بعد ذلك، كان القِصاص الذي لا يلبث أن يأتي إذا ما بقي المرء على قيد الحياة. مرضَ برتن صاحب. مرض مرضاً حقيقياً. مرض مرضاً كاد يقوده إلى الموت.

٦٢
ولا موت في الأفق

تقرير إلى الجنرال نَابِيِي

سري للغاية

كنتم كلفتموني بمهمّة تتمثل في تقصّي الأسباب التي كانت وراء تمكُّن أمراء قبائل البلوشيين العنيدين بقيادة مِيرْ خانْ من الإطلاع مسبقاً على خططنا أكثر من مرّة، وبالتالي، من الفرار والاختباء. أنا أنتقل منذ شهور من مكان إلى آخر في هذا الشأن، زرت أماكن لا تحصى يلتقي فيها البلوشيون، أنصتّ بكامل الانتباه إلى كل صوت، لكن، حتّى وقت قريب، لم يكن هناك ما يشير إلى خائن داخل صفوفنا. كذلك أمرتموني أثناء لقائنا الأخير بالتحقيق فيما إذا كان هناك ضباط بريطانيون يتردّدون على دار البغاء لُوبَانَار وبتحديد عددهم. بالتأكيد أنتم لم تفكروا أبداً في إمكانية أن تكون لهاتين النقطتين علاقة تربط بينهما. نعم، لقد قمت بعملي في هذا الخصوص أيضاً وأخشى أن تقتصر مهمّتي المحرجة الآن على إحاطتكم علما ببعض الأخبار غير السّارة تماماً. اللُّوبَانَارْ لا يختلف عن دُور البغاء الأخرى لا من حيث التأثيث ولا الضّيافة، وإنما فقط لكون الحظايا داخله لسن نساءً بل غلمان ورجال يرتدون لباس النساء. تكلفة الغلمان هي ضعف ما يكلّفه الرجال، ليس فقط لأنهم أجمل المخلوقات وأنبلها وحبّهم يعتبر من أنقى أنواع الحب ـ وهي نظرة يبدو أنّ الصوفيين

هنا ورثوها عن الأفلاطونيين ـ وإنما أيضاً لأنّ صفنهم يمكن استعماله كزمام. دار البغاء هذه، وهو ما أستطيع إيراده هنا بكل تأكيد، يتردّد عليها بعض ضباطنا بانتظام. أغلبهم يذهبون إلى هناك بدافع الفضول والسأم، ويمكننا القول إنهم بصفة عامة يصمدون أمام المغريات. غير أنّ البعض منهم يعثرون هناك على ضالّتهم وما يناسبهم تماماً. وما يستحق الذكر أكثر من غيره هو مثَل أولئك الذين أُجبروا على القيام بأشياء معيّنة، ربما ما كانوا هم أنفسهم ليسمحوا بها. الأمير الذي على ملكه اللُّوبَانار هو خبير في شؤون الرجال الشبان ذوي البشرة البيضاء، وحسب ما أعلمني به مخبريَّ فقد سبق له مرات عديدة أن ملأ بطون زائري محلّه من البريطانيين بالمشروبات الروحية إلى أن صاروا في خدمته، مسلوبي الإرادة أو فاقدين للوعي تماماً. يغلب الظن أنه بهذه الطريقة يريد أن ينتقم للإهانة التي ألحقها به حُكمنا، لكن، حسب رأيي، ليس كل هذا إلاّ مثالا على نهمه وشغفه بجمال الغلمان الشّقْر والمُلس. لقد بُلّغت أن طيراً من تلك الطيور الأسطورية عبّر في الصباح الموالي عن استغرابه قائلاً إنّ المشروبات الكحولية المحلية تحدث التهاباً في العجُز. كل هذا من شأنه أن يسدّ النفْس شيئاً ما، لكنّه، بلا شكّ، غير مضرّ بوضعنا الأمني طالما لا يتمّ انتزاع معلومات من بعض ضباطنا في اللُّوبَانَار، هم مطالبون حتما بالاحتفاظ بها لأنفسهم. لقد وعدتُ مخبري الذي يتردّد على دار البغاء هذه بانتظام وتجمعه بمدير المحلّ علاقة قرابة بألاّ أذكر أسماء. أقسمَ أن الأمير حصل مرات عديدة على معلومات ثمينة فرّط فيها أحد الضباط أثناء نشوته وافتنانه أو أثناء العلاقة الجنسية التي تلت كلّ هذا. وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار أنّ الأمير المذكور، أمير اللوبانار، هو صهر لميرزا عزيز، فإننا نستطيع أن نتعرّف على النسيج المعقّد والمتداخل الذي يسبّب لنا أيّما صداع.

٦٣

ناوكرام

II أُومْ مُريتونجاياايا نَمَهَا/ سرفافيغنوباشنتايا نَمَهَا/ أُومْ غانيشايا نَمَهَا II

كتب اللاهية: نصّي هذا هو عبارة عن قلادة لآلئها منتقاة أودّ أن أزيّن بها رقبتك، أيها القارئ العزيز، وأملي أن تحظى منك بلفتة كلها عطف واهتمام. حكايتي هذه هي عبارة عن زهرة فوّاحة أضعها في يدك، أيها القارئ، لتذكي فيك الشعور القلبي الفياض. عملي هذا، أيها القارئ العزيز، هو نسيج من الحرير الخالص، أُسدله على رأسك، مكمنِ حكمتك الثاقبة وبعيدة المدى.

وضع بعد ذلك الريشة جانباً وقرأ كامل النصّ مرة ثم مرة أخرى. أظلمت الدنيا في الأثناء بينما كاد هو يبكي من فرط تأثّره لقدسيّة ما كتب. لا لأنّ النص كان خالياً من كل ضعف وبدون أخطاء. لو كان بإمكانه البداية من الأوّل لَ. . فكرة سخيفة حقاً. واضح أنّ النص طغى عليه، صار قويّاً وغريباً وكأنه لم ينبع منه، وكأنه لم يُدر هو الدفّة في خلقه منذ البداية، ثم إنه تذكّر تلك الجملة التي ضمّنها المهندس المجهول الذي صمّم معبد كَايْلاَش في إيلورا إنجازه المعماري، وهي أعظم جملة تركها مبدع على مرّ العصور: كيف تمّكنتُ من إنجاز كل هذا؟

بقي شيء واحد يجب القيام به. الخاتمة، وحتّى لو اقتصر الأمر على فصل أخير، يحسُن ألاّ يكتبها هو بنفسه. لا أحد من حقه أن يعرف كامل

القصّة. كما لم يتمكّن أحد أبداً من الاطّلاع على كامل معبد كَايْلاَش.
نادى اللاهية على زوجته ـ سمعها منذ برهة تقوم بالأعمال المنزلية الصباحية ـ وعرض عليها طلبه. عجبت له ثمّ فكّرت، في لحظات غلب فيها العناد، في رفض مبتغاه. لكنّها ما لبثت أن وافقت. كانت تأمل أنه بمجرّد وصول تلك المهمّة إلى نهايتها فإنّ حياتهما المشتركة ستعود إلى ما كانت عليه، قبل ظهور هذا الذي يدعى ناوكرام ليلعب برأس زوجها.
شكرها بإسهاب ثم نهض من مكانه بمشقة وغادر المنزل. سوف لن يذهب في هذا اليوم إلى شارع الكتبة العموميين، سوف لن يكتب شيئاً. ولربما يكون غدا نفس الشيء. وفي الأيام الموالية. من يدري؟ ألم يقل ناوكرام إنّ برتن صاحب ـ وقد حرّكت ذكرى غير واضحة المعالم أفكاره ـ أبدى ذات مرّة استغرابه من أنّ الهندوستانية فيها كلمة تعني في الآن نفسه أمس وغدا. ماذا كان يمكن استنتاجه من حالة كهذه؟ ألم تكن الكلمة التي تعني أوّل أمس كلمة مختلفة عن تلك التي تعني بعد غد؟

تعجّب ناوكرام لتأخر اللاهية عن موعد مجيئه الاعتيادي. لم يسبق أن حصل هذا أبداً. رأى امرأة تسير على طول الطريق المغبرّة. كل شيء فيها كان يوحي بالقوّة. حيّاها بعض الكتبة الآخرين. نظرت إليه متفحصة قبل أن تسأله عن هويّته. قدّمت نفسها بصفتها زوجة اللاهية. قالت إنه سوف لن يأتي اليوم وإنه يعتذر لعدم المجيء. أرسلها لأنه لا يريد أن يعلم نهاية القصة بنفسه.

ـ ولم لا؟

ـ عادة قديمة. كما يُستحسن ألاّ يقرأ شخص لوحده كامل المَهَابْهَارَاتَا.

ـ لم أكن أعرف كلّ هذا من قبل. سمعت مرّة برتن صاحب يتحدّث

عن شيء من هذا القبيل. قال لي إنّ العرب يعتقدون أنهم قد يموتون في ظرف سنة لو استمعوا إلى جميع حكايات ألف ليلة وليلة.

- اعتقاد بالخرافات.

- ألا ينتمي إلى السَّاتِيَا شُوداكْ سَماجْ؟ كنت أظنّ أنّه يمقت كل أنواع الاعتقاد بالخرافات.

- يسمّي هذا تقاليد. كل الناس يعتقدون بالخرافات. هناك من الناس من يطلقون على اعتقادهم اسماً آخر. هل نستطيع أن نبدأ؟ ليس لديّ متسع من الوقت. اليوم بعد الظهر سيزورني أحفادي.

- والأجرة؟ ماذا قال لك عن الأجرة؟

- لم يذكر شيئاً. لعلّه نسيَها. أظن أنه حصل منك على ما فيه الكفاية. لننسَ الأجرة.

- ليس المقصود أجرته هو بل أجرتي أنا.

- أجرتك أنت؟

- نعم، هو الذي يدفع لي أجرة.

- لا أفهم.

- هكذا كان اتّفاقنا. يدفع لي نقوداً لأقصّ عليه الحكاية حتى النهاية.

- يصعب عليّ تصديق كل هذا. لقد أضاع صوابه. منذ متى والأمر على هذا النحو؟

- ليس بدايةً من أمسِ بل منذ أسابيع. ما كنت لأقول شيئاً بدون أجرة. أنت تعرفينه جيّداً، إنّه فضولي.

- مجنون تماماً. هل سبق وأن سمع أحد مثل هذا الكلام؟ لاهية يدفع لزبائنه أجرة. إنه يتصرّف تصرفاً غريباً منذ أن جئته أنت. شيء كهذا يجعل منه أضحوكة تماماً.

ـ فقط عندما تخبرين الغير بهذا. اتّفاقنا يقضي أيضاً بألاّ نقول شيئاً في هذا الخصوص للغير.

ـ تأكّد أنّي سأقول له ما يجول بخاطري.

ـ أرجو ألاّ تقولي شيئاً لأنّ هذا سيهدم الكثير بالنسبة إليه.

ـ هل صرت الآن حليفه؟ أنسيتَ أنكما كنتما دوماً تتخاصمان؟ أنا على علم بهذا، لقد اشتكى لي منك.

ـ قطعنا مسافات سويّة، وهو ما يدخل حقاً في الاعتبار. اتركي الأمر على حاله.

ـ حسن. والآن ماذا نستطيع فعله من أجل نهاية القصة؟ هي في الحقيقة لا تهمّني، وبما أني ليس معي نقود..

ـ أنا لا أطالب بشيء. النهاية ستكون هدية الوداع مني إلى زوجك. حتى ولو أنه سوف لن يقرأها. من يدري، لعله يعدل عن رأيه. اكتبي، لم يبق الكثير، ليس من المعقول أن نبتلع النهاية.

ـ حسن، هل للخاتمة عنوان؟

ـ على متن السفينة. اكتبي: على متن السفينة. ثم اكتبي: الحلول ببلاد الإفرنج.

ـ عنوان جميل!

ـ هل ستبدئين مثل زوجك بإبداء تعليقات لا نهاية لها؟

ـ لا، أبدا! سأسكت من الآن فصاعدا. سترى، سوف لن تصدر عني ولو زفرة واحدة.

ـ كان اسم السفينة إِيليزَا، وكنت أظن أنها سفينة لحمل الأموات. بدا برتن صاحب خائر القوى، كان جسمه هزيلاً، كانت وقفته منحنية وعيناه

ذابلتين، أمّا صوته فكان أجوف. لقد حصل على ترخيص بالعودة إلى بلاده ليأخذ هناك قسطاً من الراحة وليستردّ قواه قدر الإمكان. نعم، ظننت أنّ السفينة هي سفينة للموتى. لم أكن الوحيد الذي ساورتة مثل هذه الظّنون. لقد سبق وأن قال له أحد أصدقائه في بُمباي: أقرأُ على ملامحك أنّ أيامك معدودة. استمع إلى كلامي وعُد إلى بلادك لتموت هناك. بعد الإبحار مباشرة كفّت الريح عن الهبوب. سطح الماء الأملس جعل برتن يقول إنّ البحر صار حقاً مقبرة للأمواج. عُنيت به قدر المستطاع، سألت نفسي عمّا يمكنني عمله في بلد غريب لو يموت سيدي. هل سأموت أنا بدوري؟ لم يدم انشغالي طويلاً. هبّت ريح من الجنوب الشرقي فأسرعت بنا السفينة إلى عوالم أكثر عافية. استعاد برتن صاحب قواه بسرعة مذهلة، وحتى قبل أن نصل إلى بلاد الأنغريز كان استردّ صحته تماماً. كنا في تلك الأيام قريبيْن من بعضنا كما لم يحصل من قبل ولا حتى بعد ذلك. أسرّ إليّ بما حصل في بلاد السّنْد، بالأسباب التي دفعت به إلى التّظاهر بالمرض دون أن يعلم في الحقيقة أنّه سيمرض مرضاً شديداً. سَرت إشاعات بين الأنغريز حول زياراته لدار البغاء، أرجو المعذرة، دار البغاء التي عرض فيها الرجال أنفسهم. هناك من ادّعى أنّ برتن صاحب استكشف الأمر هناك بجدّية مبالغ فيها. قيل إنه لم يقم بتقصّي الأشياء فحسب بل هو جرّبها أيضاً. ساءت سمعته ولم يدافع عنه رؤساؤه الذين كانوا على علم بالحقيقة. كانوا غاضبين لعدم وفائه اللاّمشروط. أحسست بألمه وكأنه ألمي الشخصي. لم أعرف مرة في حياتي شعوراً بالتضامن مع إنسان وصل إلى مستوى ما طالبنا به معلمونا القدامى مثل شعوري إزاءه. توقفت السفينة في ميناء اسمه بْليماوْث وتمكّنت أخير من مشاهدة إنجلترا. رأيت خضرة يانعة غضّة وهضابا ناعمة في الأفق. أمّا الركّاب وخاصة من بينهم أولئك الذين خدموا لمدّة طويلة في أماكن حارة أو في الصحراء فقد

تخمّرت نظراتهم. أنا على يقين من أن لا أحد من بينهم فتح عينيه مثلي. لم أصدّق أنّ البلاد التي تُسمّى إنجلترا كانت على ذلك القدر من الجمال. التفتّ إلى برتن صاحب وأتذكّر إلى اليوم ما قلت له بالتحديد: أيّ جنس من البشر أنتم الأنغريز حتى تغادروا جنّة كهذه دون أن يرغمكم أحد على الرّحيل ودون حاجة ملحّة إلى السّفر إلى بلاد موحشة ومهجورة مثل بلادنا؟

٦٤

وعي إلى أبعد الحدود

قرأ الجنرال هذا التقرير مرّات عديدة كما لم يفعل من قبل مع مكتوب آخر في حياته. كان يبحث عن مخرج يقي هذا الجندي من عواقب قيامه بواجبه. إنّه لم يقع في مستنقع فحسب - أقلّ ما يمكن أن يقال عنه إنه يسدّ النفْس شيئاً ما - بل كشف كذلك عمّا لا يجب الكشف عنه، وهو ما قد يجعل النتائج الوخيمة لمثل هذه الحالة تعود عليه شخصياً بالوبال. وما زاد الطين بلّة أنه امتنع، كتابيا على الأقل، عن الإعلام بجزء ممّا كان يعلم نظراً لأنه، حسب قوله، وعد أحد الأهالي بعدم الكلام. قد لا يجد هذا المنطق من يسانده. أعرب مَاك مُوزْدو عن رغبته في التحدّث إلى هذا الذي يسمّى برتن والذي كان سمع عنه أخباراً غير سارّة. طلبوا من الملازم أول الحضور بمكتب الجنرال. تعجّب لرؤية العديد من الضباط السامين. تكلّم الجنرال ببطء وقد بدا عليه التّعب.

- الرائد مَاك موزْدو يرغب في مواصلة الأبحاث التي بدأتم بها، ولذلك هو في حاجة إلى معرفة أسماء مخبريكم وأسماء الضباط الذين يترددون على هذا المكان.

- ليس باستطاعتي أن أقدّم إليكم أسماء ضباطنا لأني لا أعرفها. كلّما كنت موجوداً في اللُّوبَانَار لم أر أحداً منهم، أمّا أسماء المخبرين فلا أقدر على أن أكشف لكم عنها.

ـ ولمَ لا؟

ـ لأني وعدتهم بهذا.

ـ لكنهم مجرّد أهالي.

ـ أقسمت برجولتي وبالقرآن.

ـ إنه يمزح، يا إلهي، يمزح في وقت لا يحتمل المزاح.

ـ لا أستطيع نقض هذا القسَم.

ـ أنتم تمزحون، أيها الجندي، قولوا لنا أنّكم تمزحون حقاً.

ـ أتكلّم بكل جِدّية، سِيرْ.

ـ عهد تقطعونه على نفسكم إزاء أحد الأهالي البسطاء هو أهمّ بالنسبة إليكم من سلامة جنودنا؟

ـ اسمحوا لي، سير، بالتذكير بأني قمتُ بالشيء الكثير من أجل سلامة جنودنا وأنا واثق من أننا سنتوصّل قريباً إلى معرفة كل الحقيقة عبر طرق أخرى. لا أستطيع أن أخون ثقة هذا الرجل.

ـ عليكم أن تحسموا في الأمر، يا برتن، إمّا هو أو نحن.

ـ أعتقد أنه من الممكن، سيّدي الرائد، الولاء لجهات مختلفة في نفس الوقت. أنتم تختلقون نزاعا لا حلّ له.

لم يقولوا كلمة أخرى، السادة المجتمعون والمنتمون إلى الصّفوف الأولى، الجنرال، كلبه ذو الأنف المرهف مَاك موزْدو ومساعدوه. تبادلوا النظرات، وبنظراتهم تلك وضعوه جانباً لما تبقّى في حياته من أيّام، رفتوه من الجندية واستبعدوه من حلقتهم. عرف في تلك اللحظة أنه سوف لن يتخطّى طول حياته رتبة نقيب. خصوصاً بعد تدوين ملاحظة في ملفّه إثر تلك المحادثة. ملاحظة تنصّ على أنه لا يمكن الاعتماد عليه، ملاحظة

ستلازمه أينما ذهب. من الممكن أن يغيّر المرء من طبيعته، من السّهل على المرء أن يغيّر كل شيء بداخله، لكن من المستحيل إدخال تغيير ما على الملفّ الشخصي. سوف يكتبون ما من شأنه أن يحطّمه مستقبلاً، شيئاً على شاكلة.. فهْمُه للأهالي، لطريقة تفكيرهم، لعاداتهم وللغتهم هو فهم عميق يَمكن أن يعود علينا بالنفع. لكنّ المصدر الذي يزوّده بالمعلومات خلق لدى الملازم أول برتن تذبذباً فيما يتعلّق بولائه وصار هذا التذبذب يتعارض ومصالح العرش. نلاحظ بكلّ أسف أننا، مستقبلاً، سوف لن يكون بوسعنا تقدير مدى وفائه التقدير الصّحيح.

•

عودة إلى البرودة

كان الاستقبال مروّعا. هو وناوكرام كانا بمثابة حبّتي زبيب أُلقي بهما في عجينة مخمّرة. كان الجوّ مكفهرّاً وامتلأ الهواء دخاناً وهباباً لا يصلح للتّنفس. ارتجفا لرؤية السّماء الغائمة. كلّ شيء في المدينة كان صغيراً، محدود الأفق، ضيّق التصوّرات ومقتّراً بخيلاً. كانت المنازل صغيرة جداً وتوحي بالخضوع والخنوع، بينما بدت الأماكن العامة مجالاتٍ تشابكت فيها مظاهر الاكتئاب. أمّا الأكل فكان بدائيا، غير مكتمل الطبخ ولا طعم له. كان الخبز عبارة عن فتات بدون قِشْر، أمّا المشروبات فكانت لها رائحة دواء قوية وتسمّى جِعة أو آل. كلّ ما تمّ تقديمه إليهما من أكل وشرب برهن لهما نهائيّاً على أنّهما تواجدا في بلاد أجلاف همجيّين. كان الشتاء الذي تلا وصولهما لا يطاق. كل شجرة من الأشجار كانت بمثابة شمعدان له صليل. موجات باردة من الضباب اندسّت في الثنايا وجاءت معها بالالتهاب الشُّعَبي والأنفلونزا. نفد الفحم باستمرار وهبط مستوى ضغط الغاز إلى الحدّ الذي جعلهما يستغنيان عن تسليتهما الرئيسية: لم يتمكّنا من طبخ التشاي الذي كان ليمكّنهما بعد الظهر من قتل بعض الوقت. صار برتن ينتظر بفارغ صبر اليوم الذي يغادر فيه ذلك البلد ليزور عائلته المقيمة في فرنسا، البلد الأقل قسوة. كان مصمّما إلى النهاية ولا يروم التأقلم مع الرداءة. لبس ثيابا أراد من ورائها إزعاج الآخرين، كورتات في ألوان صارخة زاهية، سراويل من القطن فضفاضة إلى حد

كبير، قلاشين ضيّقة وصنادل سائقي الجنادل التي انتعلها رغم شعوره بالبرد. هكذا كان يسير في شوارع لندن، وعلى هذه الحال كان يزور النوادي برفقة ناوكرام الذي، ما إن تأكّد من اهتمام الحاضرين بوجودهما، بدأ يتحدث معه بصوت جهوري بلغات ما كان لأحد غيرهما ليفهمها. كان من حين لآخر يميل إلى المبالغة ويستغلّ التساهل والتسامح اللّذين عادة ما يحظى بهما رجل سبق وأن خدم في الهند. سئم أعضاء النادي استفزازاته وأطردوه من المحلّ. كاد في يوم من الأيام أن ينهال عليه أحدهم ضربا. النّظرة المتوحّشة في عينيه هي وحدها التي حالت دون أن يُقدم أهل بلده الغاضبين والسكارى على مثل هذا العمل. كانت أمسيةً تبادل خلالها الحاضرون الحكايات من شتّى جبهات الإمبراطورية. بعد استعراض عديد الذكريات الممزوجة حنينا ومبالغات قال رجل عجوز بعينين بلّلهما الدمع بيتاً شعرياً من سطرين يعرفه الجميع: *Such is the patriot's boast, where'er we roam, his first, best country ever is at home*. ثم رفع كأسه ليشرب وبقيّة الحاضرين على نخب الملكة والوطن. فعل برتن ما فعله الآخرون. ما إن وضع كأسه في مكانه حتى دوّى صوته كالرّعد وحمل الحاضرين في الحلقة على السكوت. هذا الهتاف ثلاثا يذكّرني أيها السادة بنكتة على قدر كبير من الحقيقة لا بدّ أن أُسمعكم إياها. أنا أضمن لكم عدم نسيانها. إنها تتحدث عن دودتين شريطيتين، عن الأمّ وابنتها. تخرجان من فتحة شرج رجُل مع الوساخة ـ معذرة، هكذا تقول النكتة ـ فترفع الدّودة الشريطية الأم رأسها من الوساخة، تمدّ عنقها، تتنفّض قليلاً، تنظر حولها وتقول راضية لابنتها: هذا هو الوطن على كلّ حال.

أبحرا إلى فرنسا، انتقلا إلى القارّة. قال لناوكرام واعدا إيّاه، سترى، الحياة في القارّة يمكن احتمالها أكثر. أنا لا أستقبح الحياة في بلادك، صاحب. كان والداه يقضّيان الصيف في بُولُونِيِي. كانا يعيشان حياة

متواضعة. سمحت لهما جراية تقاعد الأب باستئجار منزل صغير به بناء ملحق وغير كبير للخدم. كان طباخ إيطالي في خدمتهما منذ السّنوات التي كانا قضّياها في بِيزَا. توجّب على ناوكرام وسَبّاتِينُو أن يقتسما نفس الغرفة. لا بل قد احتلها الطّاهي بروائحه بعدُ.

كانت روائح لا تطاق بالنسبة إلى ناوكرام. هو والطاهي كانا لا يتكلّمان لغة واحدة، أمّا شهيتهما فقد جعلت منهما منذ البداية عدوّين لدودين. كان سبّاتينو رجلاً يعلّق أهمّية كبيرة على ما درج عليه من تعوّد ولا يشكّ أبداً في أن للطّاهي المنزلة الأرفع بين جميع الخدم. كذلك اعتبر أنّ مهمّة بقية الخدم تتمثل في تيسير مهمّته هو. نادراً ما كان برتن يوجد بالبيت. كان يقضّي وقتاً طويلاً في الفسحة وينعم بمرافقة نساء شابات من بنات بلده. لم يكن ناوكرام على بيّنة كاملة من دوره في ذلك المنزل الصغير. تحاشاه والداً الصّاحب ولم يطلبا منه عملا قطّ. لم تكن له الشجاعة الكافية للخروج وحده خوفاً من أن يضلّ طريقه. لم يبق له في النهاية سوى المكوث في غرفته والانتظار. بعكس هذا كان الطّاهي مشغولا طول اليوم، ونادراً ما ذهب ناوكراكم ليشاهده أثناء عمله. كلّما تجرأ على الدخول إلى المطبخ، في أغلب الأحيان لتحضير طعامه المتكوّن من الخضراوات ـ لم يكن يثق في طهي أحد، وخاصة في طعام هذا المْلتْشا ـ، بدأ الطّاهي في السبّ والشّتم بصوت خافت وفي لغته. كان يلعن ويسبّ بلا انقطاع وكأنه يتبّل طعامه بما قال. لم يتفاجأ ناوكرام البتة لما رأى أن برتن صاحب يتكلم أيضاً لغة الطاهي. حفظ النُّطق ببعض الكلمات وطلب من برتن صاحب أن يترجمها له ثمّ حفظ بعد ذلك مزيداً من الشّتائم عن ظهر قلب. *Corbezzoli! Perdindirindina! Perdinci!* كانت عبارات لطيفة نوعاً ما مقارنة بتلك التي كان تعلّمها من المختونين من قبل. يا لها من مصيبة! ربّاه! يا سبحان الله! سَدّ الطريقَ على الطاهي

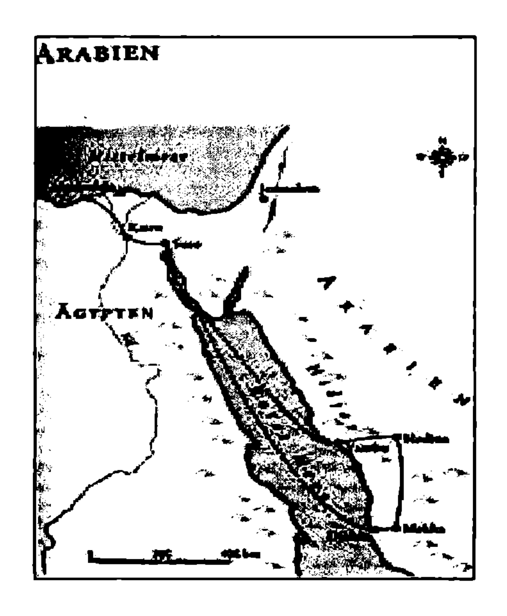
في ظهيرة أحد الأيام فلم ينتظر هذا الأخير حتى يعتذر أو يفسح له المجال وصاح في وجهه: *E tè le lé io lè zecche di dòsso!* لم يستطع ناوكرام الردّ لأنه لم يفهم طبيعة السّباب الذي انهال عليه بينما ضحك برتن صاحب. إنه يريد أن يريحك من براغيثك ويهدّد بضربك. كان ناوكرام لا يعرف الكثير من عبارات الشّتم حتى يكيل للطاهي بالمثل. ذات مساء، لمّا نسي ناوكرام أن يأتي بطعام تمّ تحضيره في الفرن (كان الطاهي فخوراً بمثل هذه الأنواع من الأطعمة) انطلقت اللعنات من فم الطّاهي كالشّرر. *Bellino sì tu faresti gattare anche un cignale!* لم يتمكّن ناوكرام من الإنتباه إلى نصف ما قيل فاضطرّ برتن صاحب إلى أن يسأل الطاهي. أطلعَ بعد ذلك ناوكرام على ما قيل بابتسامة كلها تعجّب. قال لك أنت جميل إلى درجة تحمِل فيها حتّى الخنازير البرّية على القيء. سأل ناوكرام عمّا يخوّل للطاهي قول مثل هذا الكلام. لا تهتمّ بما يقول، هو دوماً هكذا. وبعد أيّام أخرى كان ناوكرام على يقين من أنّ الإيطالي حرّك طعاماً قوامه اللحم عنوة بملعقته هو الخشبية التي احتفظ بها في إناء بلوري خاص بها ولا يستعملها إلا عند تحضير أكلاته النباتية. شرح برتن صاحب كلّ هذا للطّاهي بإسهاب. الملعقة صارت لها رائحة لا تحتمل ومن حسن الحظ أنّ ناوكرام تفطّن للأمر في الوقت المناسب. تبيّن له أيضاً أنّ الطبّاخ لا يفهم لغة أخرى غير لغة الخشونة. ضربه ناوكرام بالملعقة على مؤخرة الرأس. ظلّ الطاهي يضرب هنا وهناك وهو يصيح. كان يمسك بسكين فنكش بها في الهواء وهو يسب ويشتم. ولاّه ناوكرام ظهره ثم غادر المطبخ والملعقة في يده. لم يبق له إلاّ أن يتعلّم الشتم بالإيطالية. ساعده برتن صاحب في الحصول على ما أراد. قال إنّه يعتبر مساعدته له مجرّد تسديد دين متخلّف لمَا تعلّمه منه من كلام بالغُوجاراتيّة. البداية تكون بالمبادئ الأولية. *Stronzo. Merda. Strega*. بدأ ناوكرام يمشي داخل المطبخ جيئة وذهاباً

وهو يردّد إحدى هذه الكلمات بكلّ ما أوتي من قدرة على الأذى وبدون أيّ ضبط للنفس. أجابه الطّاهي ببطارية كاملة من القذائف ذات مقاطع عديدة ومسترسلة. *Cacacazzi* . *Succhiacazzi* . *Vaffanculo* . *Leccaculo* . صار ناوكرام لا يعلّق أهمّية على التّرجمة. كان يعلم أنه ما زال دون الإيطالي. قال له برتن صاحب، إذا أردت حقّاً أن تغضبه، عليك أن تقول: *Quella puttana di tua madri!* وهو ما صرخ به ناوكرام في أول فرصة في وجه المُلتْشا. كان لهذا الشّتم تأثيره ومفعول أقوى ممّا كان يتصوّر. خرس الطّاهي وشخص بنظره إلى بعيد. وفي اليوم الموالي طلب سبّاتينو من ناوكرام أن يلتحق به أمام الفرن لأنه يودّ أن يريه شيئاً. ارتسمت على محياه علامات لطف ومجاملة غير معهودة. اقترب ناوكرام من الطاهي بحذر. وقف الاثنان أمام قِدر هائل. رفع الطبّاخ الغطاء فأطلّ من داخل القدر رأس ثور وهو يُطبخ على نار خفيفة وقد شخص بعينيه الباهتتين إلى ناوكرام. *Ti faccio sputare sangue!* لم ينته سبّاتينو من قول هذه الكلمات حتى شعر بالرّجل أسمر اللّون وهو يمسك بخناقه ويجرّه فوق الفرن الذي اتّقد فيه الحطب. أحسّ بالنار وهي تحرق شعيرات ساعده. ضرب وجه الرجل الأسمر برأسه. سقطَا على الأرضية وقلبا القدر، ولما أسرع برتن إلى المطبخ قادما من غرفة الأكل وقد نبّهه الضجيج، رأى على الأرضية الطاهي، الخادم ورأس ثور بينما لم يعلُ على صياح الايطالي إلا النحيب الذي انبعث من أعماق ناوكرام.

صار من غير الممكن التّمادي في استضافة ناوكرام. تعوّد والدا برتن على طبخ سبّاتينو الجيّد، أمّا وجود ناوكرام في منزلهما فكان زائداً عن اللّزوم. دفع له برتن ما يكفي من النقود لتغطية مصاريف العودة ولشراء مسكن صغير في بارودا. كان أيضاً بإمكانه أن يحرّر له خطاب توصية مميّز لو أنّ هذا الوغد الوقح لم يصرّ على أنّ سيّده كان السّبب في كلّ ما

حصل. لماذا لم تحرّر لي.. فصاح في وجهه بأن يخرس. كانت تلك هي المعضلة دوماً مع هؤلاء القوم. كانوا غير قادرين على تحمّل مسؤولياتهم شخصياً. بتبرّم أكّد برتن في مكتوب مقتضب أنّ رمْجي ناوكرام، أصيل بارودا، قام على خدمته من نوفمبر ١٨٤٢ إلى أكتوبر ١٨٤٩. ثم أمضى بحماس.

بلاد العرب



الحاجّ، المرازبة
وخاتم التّحقيق

إلى الوزير الأكبر
رشيد باشا
قصر توبكابي
اسطنبول

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.
سلام الله عليكم وعلى جميع محسوبيكم!

نودّ أن نلفت انتباهكم إلى موضوع قد يبدو من أوّل وهلة غير ذي أهمية كبيرة ولا يهدّد، طبعاً، المصالح العليا للدولة مباشرة، لكنه رغم ذلك، حسب رأيي المتواضع، يتطلب أن تُوليه الحكومة أكبر قدر ممكن من اهتماماتها. أنتم تذكرون ولا شك أني أعلمتكم قبل سنة من الآن أنّ ضابطاً بريطانياً أدّى فريضة الحج وأمتَع بفعلته هذه الصحافة المحلّية هنا أيّما إمتاع، ممّا جعلها تحتفي به بطلاً للموسم. وقبل بضعة أسابيع أصدرت دار لُونجمان ڤرينْ للنشر التقرير الشخصي لهذا الرجل الذي يُدعى ريتشارد فرانسيس برتن، وهو ملازم أوّل في الجيش البريطاني، حول مناسك حجّه المُنكر التي قام بها متنكراً في زيّ رجل بشتوني قادم من

الهند. خصصت الصّحف هنا لهذا الكتاب فضاءً كبيراً على صفحاتها وهي الآن تُغالي في التنويه به كعمل جريء وإنجاز رائع وتتنافس في مدحها المتزلّف له. يبدُو أن لا شيء في هذا الزمان صار يحفِز خيال القرّاء في المملكة المتحدة أكثر من الاستكشافات الجسورة لمناطقَ خارجة عن بوتقة تصوّراتهم العامة. كُتبٌ على شاكلة «كنتُ هناك وشاهدتُ بأم عيني» نراها تُباع هنا بأعداد أوفر بكثير من مجموعة الحكايات حول نصر الدين خوجة عندنا.

من جهة يبدو لي سرّ هذا النجاح سطحياً وعلى غاية البساطة ومن جهة أخرى خفيّاً إلى حدّ بعيد. إنّ رعايا الإمبراطورية البريطانية يريدون المشاركة في مغامرة غزْو العالم، يريدون أن تتمّ تغذيتهم بأساطير العصر التي قد تساعدهم على تثبيت هويّتهم. لذلك أميلُ إلى الاعتقاد أنّ منشورات من هذا القبيل من شأنها قبل كل شيء أن تحضّر الأرضية لمستقبل على الأبواب تصبح فيه هذه المناطق غير نائية ومعروفةً، أي جزءاً من الإمبراطورية، وتسمح بالتالي بنوع من التعوّد المبكّر على أصقاع جديدة تنوي الإمبراطورية البريطانية ضمّها إليها قريباً. إنّ هذا الموضوع الذي يبدو في حد ذاته ثانويا يعكس حسب تقديري للأشياء تطوّرا غير عادي يبعث على القلق ويتطلب عناية فائقة، خصوصاً وأنّ الأمر لا يتعلق هذه المرة بمناطق صحراوية في إفريقيا أو أدغال في الهند وإنما بأقدس مقدّساتنا، بالأماكن المباركة مكّة والمدينة، أعلى الله شأنهما.

أنا على عِلم تامّ بأنّ السفير فيسكَاوْنت ستْراتْفورْد دي ريدْكليفي يحظى بثقتكم كما يحظى بثقة السلطان وأنّ مساعدته لكم ضرورية في مجال تنفيذ الإصلاحات التي بدأت بها دولةُ الوزير الأكبر المحترم تحدوها الرعاية وبُعد النظر، لكن لو سمحت لي دولتُكم بتقديم اقتراح بكل تواضع

وخشوع، فإنني أدعو إلى الكشف بكامل الحزم وفي سرّية تامة عن الأسباب التي قادت إلى حالة كالتي سبق ذكرها. فالنّوايا الحقيقية للملازم أوّل ريتشارد ف. برتن ومستخدميه (حسب ما يقال، الجمعية الملكية للدراسات الجغرافية، وهي منظمة مشكوك في نزاهتها رغم أنّها تدّعي أن ليس لها من اهتمام آخر غير البحث في خطوط الطّول والعرض) لا تبرز من خلال مدوّنات رحلته رغم أنّ هذه الأخيرة نُشرت في ثلاثة أجزاء وتتألّف من ألف ومائتين وأربع وستين صفحة. ثمّ إنّنا، بعد البحث والتمحيص بكل دقة في المستندات التي تجدون صحبة هذا، لم نتمكّن من تسليط الضوء على دوافع هذه المغامرة المزعومة ـ عندما يتعلق الأمر بالاكتشافات لا يُجازى عادة إلا من يأتي في المرتبة الأولى، وكما نعلم، سبق وأن أدّى العديد من المسيحيين فريضة الحج خِداعا واحتيالاً ـ أو حتى على النتائج الحقيقية التي انتهت إليها هذه الرحلة الاستكشافية كما يسمّونها. وحتّى يتسنّى لكم الحصول على فكرة دقيقة حول الموضوع، أُرسل إليكم الأجزاء الثلاثة دون أن يساورني الشكّ لحظة في أنّ لغة النص الإنجليزية، كالعادة، سوف لن تشكّل عقبة بالنسبة إليكم.

حفظكم الله ورعاكم.

أبو بكير رتيب أفندي

سفير الباب العالي في لندن

* * *

ـ أعرفك!

ـ أنا؟ تعنيني أنا؟

ـ نعم، أنت، أعرفك.

ـ مستحيل، أفندي.

ـ انتظر!

ـ أنت على خطأ.

ـ وجهك، نعم، وجهك ليس وجهاً عاديا.

ـ أنت مخطئ، كلّنا لنا نفس المنظر.

ـ هل أنت ذاهب إلى الإسكندرية؟

ـ لا.

ـ إلى أين؟

ـ أنا في طريقي إلى الحجّ بمشيئة الله.

ـ على متن باخرة بريطانية؟

ـ كنتُ في بلاد الإفرنج.

ـ كنت تشتغل خادماً هناك؟

ـ لا، تاجرا.

ـ رحلة بحرية طويلة، أليس كذلك؟

ـ نعم، رحلة بحرية طويلة.

ـ البحر هائج اليوم، لا بدّ أن طقساً كهذا لا يلائم أناسا مثلك، أليس كذلك؟ لكن قريباً ستطأ قدماك اليابسة.

ـ هذا لا يؤثّر فيّ، لكنّ اليابسة هي طبعاً أفضل.

ـ مهلا، أنت أصيل الهند، أليس كذلك؟

ـ لا.

ـ غير صحيح، سبق وأن التقينا هناك.

ـ لا، لم أسافر طوال حياتي مرّة واحدة في الهند.

ـ إنجليزيَّتك. أنت تتكلم الإنجليزية بلكنة الهندي.

ـ إنجليزيتي ليست جيدة.

ـ لماذا تصرّ على كوننا لم نلتقِ من قبل أبدا؟

ـ لنقل إنّنا نعرف بعضنا، لكن بما أننا لا نتذكر أين التقينا، يكون الأمر في النهاية وكأننا لا نعرف بعضنا.

ـ ما اسمك؟

ـ ميرْزا عبد الله.

ـ من بلاد فارس، أليس كذلك؟ أصلك فارسي! ميرزا؟ أنت شيعيّ، أليس كذلك؟

ـ وما هو اسمك المُحترم؟

ـ وقاحةٌ من الصّعب أن تحصل في الهند.. كابْتن كيرْكلانْد، إن كنت مصرّاً حقاً على معرفة اسمي.

ـ بما أنّ الحديث وصل بنا حتّى إلى ديانتي فلا بأس، على الأقلّ، أن يكون كلّ منّا قد قدّم نفسه إلى الآخر.

ـ نعم، عبد الله، وجهك ينمّ عن نبل. لا جدال في هذا، وأنا لا أنسى أبداً وجها فيه أصالة. السفينة سوف لن تصل إلى الإسكندرية إلا غدا، وحتى ذلك الحين لا بد أن أتذكّر أين سبق لنا أن التقينا.

ـ إن شاء الله، كابتن كِيرْكلانْدْ. قد يُسعدنا عندئذ أن نعْلم ما يجمع بيننا.

* * *

يا له من جلف متكبّر. عجباً، لمّا كان في بُمباي كان أكثر تواضُعا.

كان أحد أولئك الذين يقبعون في أسفل المراتب ولا يصلحون لغير سدّ الثغرات. كان مسخة الجميع في النادي ولا يتذكّر أبداً أسماء من دونه رتبة. كان أحد الحقراء الذين تزداد شهيّتهم مع كل ترقية، وكذلك اعتدادهم بأنفسهم. ألمْ يعامله منذ حين معاملة مشينة؟ هذا العاجز الفاشل والمتعاظم يتوهّم أنه أفضل من الآخرين. إنه يستحق ركلة في العجُز، لكنه هو، كميرزا عبد الله، لن يسمح لنفسه بمثل هذا، ليس الآن، لأنّه من شأنه أن يسلط عليه، بلا داع، كل الأضواء. هو الآن أسير، أسير هذا الدّور الذي يقوم به وتحت رحمة كل من هو غبيّ. كان ارتداء اللّباس المواتي أمراً سهلا ولم يكن من الصعب أيضاً تذكّر قواعد السلوك وأصول اللياقة، أما الآن فعليه أن يتعوّد على تحمّل الإهانات. وجه ينمّ عن نبل؟ ماذا تعرف هذه الفزّاعة المخصيّة، ماذا يعرف هذا القزم الحقير عن الوجوه عريقة الأصل؟ عجيب أن تمكّن هذا الهمجي أصيل الوايلْتشايْر من التعرّف عليه من جديد بعد ستّ سنوات بأكملها لم يرَ خلالها أحدهما الآخر. كيف استطاع، بمجرد نظرة، أن يخترق الأزدية التي كان يلبس وزيت الجوز الذي دهن به جلدته واللّحية الكثة التي غطت وجهه؟ قد تكون مشيته هي التي خانته أو ربما وِقْفته، إذ لا شك أنّ شخصاً مثل كيرْكلانْد الذي يقضّى حياته في ميدان التمرين يهتمّ كثيراً بمثل هذه الجزئيات. رغم ذلك فهو، كما صرّح بنفسه، لم يكن متأكداً تماماً. كذا هو شأن هؤلاء القوم بأدمغة العصافير: ينتفخون وينتفشون عندما يكونون غير واثقين من أنفسهم. أمام الأهالي، طبعاً، أمام الأهالي فقط. بلا شك كانت تلك المقابلة بالنسبة إليه بمثابة التحذير، كانت إشارة دالّة أَرسلت بها الأقدار: كنْ حذرا واحترسْ من الصّدف، إنها، لا محالة، محبطةٌ لكل من بالغوا في الاعتداد بأنفسهم.

* * *

ـ أريد أن أستخرج جوازاً.

ـ من أي بلاد جئتَ؟

ـ من الهند.

ـ لماذا تحتاج إلى جواز؟

ـ للذهاب إلى الحج.

ـ الاسم؟

ـ ميرزا عبد الله.

ـ العمر؟

ـ ثلاثون سنة.

ـ المهنة؟

ـ طبيب.

ـ طبيب؟ طبيب من الهند؟ أليس من الأفضل أن أكتب: دجّال يدّعي أنه طبيب؟

ـ في هذه الحال أنا أُفضّل عبارة مشعوذ.

ـ هل تجرُؤ أيضاً على مخالفتي الرأي؟

ـ بالعكس، أنا أؤكد لك حكمك عليّ فقط.

ـ هل لك أوصاف أخرى باستثناء الوقاحة؟

ـ لا شيء.

ـ المعلوم دولار واحد.

ـ دولار بأكمله!

ـ لكنّك تحصل بالمقابل على حماية الإمبراطورية البريطانية العظمى. ألا يستحق كلّ هذا دولارا؟

- وهل الإمبراطورية البريطانية العظمى في حاجة إلى دولاري أنا بالذّات؟

- اخرس يا دجاجة وإلا أمرتُ برمْيك خارجاً. وقّعْ هنا إن كنت تعرف الكتابة، أمّا إذا كنت أمّيا فيكفي أن تضَع أيّة علامة أخرى، دليلاً قاطعاً على غباوتك. نعم، هكذا. والآن عليك أن تذهب إلى الضابط لأنّ على الشرطة المحلية أن تُصادق على الجواز لتثبيته وإلاّ بقي عديم الجدوى.

* * *

سوف لن يكون طبيباً فحسب، بل كذلك درويشاً، وهي لعمري مُلاءَمَة مميّزة. كطبيب سيتمكن من اكتساب ثقة الناس إذا استطاع إعانتهم، نعم، إذا استطاع إعانتهم فقط. إنه يعتبر نفسه قادراً على الكثير بعد حصوله على مبادئ في التطبيب. لقد عكف في الأشهر الماضية على دراسة المادّة في العديد من الكتب وتمكّن من توسيع دائرة معارفه. أمّا الآن فهو في حاجة إلى الممارسة ولا بد أن الفرص ستكون سانحة في القاهرة. لقد مرت قرون منذ كان الطبّ المحلّي يعيش عصره الذهبي، زد على ذلك أن معظم الناس في هذه المناطق تتم مداواتهم بطريقة الإيحاء والإيهام، وهو لعمري الاختصاص الذي برع فيه براعة المعلّم. أما ظهوره كدرويش فسيَقيه على كلّ حال من تهجّم المتزمتين. سوف يُسمح له بالتمتّع بما يشبه حرية الدراويش ولن يُؤاخَذ من أجل بعض التصرفات غير العادية. فالدراويش مسموح لهم بأن يستمدّوا خلاصهم الشخصي كدراويش من خلال عدم احتكامهم للقانون. لقد أحسنَ التخمين: اسمه ميرزا عبد الله، ودرويش وطبيب في الآن نفسه.

* * *

انتقل من مكتب الضابط إلى مكتب المحافظ أين قبع برهة قبل أن

يجود عليه موظف بمعلومة مفادها أنّ الحصول على الإثباتات يتم في ديوان الشؤون الخارجية. وجد طريقه إلى مبنى ذي هندسة مشوّشة، عظيم جداً وطُليت جدرانه الخارجية بلون ناصع البياض يؤلم النّاظر في نور الشمس الساطع. في الممرّات كان المنتظرون يتلوّوْن. اتّضح له فيما بعد أنه من الخطأ اعتبار أبواب الغرف المفتوحة نوعاً من الإيذان بالدّخول. رفع الموظف رأسه من على منصّته ليضفي على صياحه مزيداً من الحدّة وسط أكوام من الملفات وصلت إلى مستوى السقف تقريباً. خرج ميرزا عبد الله من جديد ليجد نفسه في فناء يتوسّط المبنى تعرّت أشجاره القليلة من أوراقها. ما من نِسْمة استطاعت أن تتخطّى الحراس المنتصبين في الباب الخارجي وتتسلّل إلى الداخل. رفع طلبه إلى ضابط كان ينعم بالجلوس على راحته في مكان ظليل فردّت عليه عينَا الرجل المغمضتان ورجلاه الممدودتان ووجهه الفخور بسمِنته: لا تزعجنا! منذ مبادرته الضابط بالكلام شعر السائل بتفاهة مسعاه. غمغم الضابط بصوت يكاد لا يُفهم ودون أن يرمش له جفن: لا أدري. كان بإمكان ميرزا عبد الله أن يحاول استخدام الرّشوة، لكنه رأى في ذلك استباقا للأحداث وتكلفة كبيرة في نفس الوقت. كان بإمكانه أيضاً أن يستعمل التهديد، لكن هندامه الرثّ ما كان، في موقفه ذاك، ليُسرع حقّاً لنجدته. لم تبق له إذن سوى إمكانية واحدة غالباً ما يلجأ إليها مُقدّمو الالتماسات كخيار من لا حول لهم ولا قوة: استطاع أن يلحّ في إزعاج الضابط إلى أن فضّل هذا الأخير القيام بشيء يريحه من الرجل. تقدم خطوة إلى الأمام وألقى سؤاله فجاء جواب الضابط بصوت جهوري انفتحت معه عيناه المغمضتان أصلاً: عليك الآن أن تنصرف! تسمّر صاحب السؤال في مكانه وبقي واقفاً مطأطئاً رأسه في تواضع لا ينثني. انحنى إلى الأمام وجاهر بطلبه للمرة الثالثة فصاح فيه الضابط: آن الأوان أن تنصرف أيها الكلب! عند ذلك همس ميرزا عبد

الله: وأين هي الأخوّة التي تجمع بين المسلمين.. لم يتمكّن الرَجل من إنهاء مرافعته لأنّ الضابط خرج فجأة من عالم أحلامه وأمسك بعدُ بسوط من جلد فرس النّهر.

واصل ميرزا عبد الله البحث عن معلومات في كل مكان بدا له الحصول فيه عليها ممكناً، لدى أعوان آخرين للشرطة، لدى الكتبة، لدى السوّاس والحمارين والمتسكعين. شعُر وأنه بدأ يضيع داخل موسوعة كبيرة قِوامها الإشارات المتقاطعة والمتناقضة. وسط حيرته المضنية عرض على أحد الجنود تبْغا ووعَده بقطعة نقدية ثمينة إن هو هبّ لمساعدته. استحسن الجندي التبغ والقطعة النقدية التي وُعد بها فأخذ ميرزا عبد الله من يده وقاده من كبير مقام إلى آخر حتّى صعدا درجاً هائلاً ووجدا نفسيهما في حضرة عباس أفندي، نائب والي الإقليم. كان عباس أفندي هذا رجلاً قصير القامة، منتصب الرأس وذا عينين ذابلتين تترصّدان كل شيء. سأله عباس أفندي: من أنت؟ ولمّا قدّمه الرجل بصفته درويشاً في طريقه إلى الحج فقدت عيناه كل حيوية، بصق في احتقار وأردف: إلى أسفل! لمس مقدّم الالتماس في تلك العبارة جوابا غامضا، لكن الجندي اكتفى بها ليواصل البحث عن غرفة أخرى من شأنها أن تهتمّ أكثر بالقضيّة.

انتظر ميرزا عبد الله أمام الباب بين رجال من البوسنة، رُومِيليا وألبانيا، كلّهم حُفاة، عريضو الأكتاف، بحواجب حالكة السواد وأسارير كلّها امتعاض. كان هنالك أيضاً قرويون من الجبال بمسدساتهم وخناجرهم المدسوسة في أحزمتهم، أسدلوا قطعاً من القماش على أكتافهم وعبّروا عن استيائهم المتفاقم لمّا خرج موظف تابعٌ ليُعْلم الحاضرين أنّ سيده، أي المسؤول، سوف لن يستقبل زوارا أكثر في ذلك اليوم. قبض المنتظرون مبشّرهم بهذه السخافة من عنقه واتّهموه ورئيسه بالكسل بينما أَجبرت

الشتائم المنهالة على الموظف والتي جادت بها الحناجر المزمجرة هذا الأخير على اختلاق أعذار ومسكّنات كلامية على غرار من روّض الحيوانات وفقد فجأة السيطرة على وحوشه الضارية.

في اليوم الموالي حصل ميرزا عبد الله على ترخيص يسمح له بالسفر إلى أية منطقة في مصر وبكل حرية.

* * *

لم يكن الصّعود إلى الغُرف في مستراح القوافل سهلاً. كانت ردهة السلّم ضيّقة ومشغولة والدّرجات غير مريحة إلى حدّ أنّ الحمالين كانوا في صعودهم ونزولهم يترنحون من جدار إلى آخر. تلت الحمالين مجموعة كبيرة من النساء نزلن الدرج بتؤدة وهن يواصلن حديثهن مع وطْء كلّ درجة بينما ملأ أبناؤهن الثّغرات بينهن وهم يمرّرون أيديهم على الجدران الوسخة. ما أن مرّت آخر امرأة أمامه حتى برز في أعلى الدرج ثلاثة جنود تقاسموا في ضيق المكان نكتة فيما بينهم. وقفوا برهة لسماع مغزى النكتة ثم واصلوا نزولهم وهم يصيحون ويعربدون. بعد مرورهم مباشرة لم يُطِل ميرزا عبد الله الانتظار وتسلل إلى داخل الدرج. اعترضه في منتصف الطريق رجل مسن ومفرط في البدانة لم يكلّف نفسه البتة مشقّة الالتصاق بالجدار قليلاً. قدّم ميرزا عبد الله نفسه وكذلك فعل الرجل: الحاج والي، تاجر ومن روّاد هذه الوكالة الدائمين. هل تسمح لي بدعوتك إلى تناول فنجان من الشاي عندي؟ قبِل ميرزا عبد الله الدعوة بأدب. قال التاجر إنه سيكون في غرفته بعد أن يُصدر بعض الأوامر لمعاونيه وأشار إلى الفناء الذي يتوسّط الوكالة وهو يضحك ضحكة غلب عليها الانضباط. في الأسفل كانت الوُرش والدكاكين والمخازن. فقال ميرزا عبد الله: وأنا عليَ

أن أصعد الدّرج، لكن التاجر أردف: أنت الأصغر سنّا وصعود هذه الدرجات القليلة سوف لن يكلّفك مشقّة تذكر. ثم عاوده الضحك فبدا وكأن عينيه الغارقتين في الكآبة وفمه الثرثار لم ينسّقوا فيما بينهم.

الغرفتان الاثنتان اللتان وُضعتا تحت تصرّف كلّ نزيل كانتا غير مؤثثتين. الجدران كانت مزركشة ببُقع الواحدة منها في حجم البعوضة الممعوسة. من دعائم السقف السوداء تدلّت أنسجة العنكبوت السميكة وعبر النوافذ تسلل الهواء ممزوجا بالغبار ولم يبق من الزجاج الأصلي غير ثغرات تم سدّها بالورق واللزاق. اتكأ ميرزا عبد الله إلى خارج النافذة وفهم أن الغرفة، رغم كلّ النقائص، هي أفضل بالنسبة إليه من وجوب اقتسام الفناء الداخلي مع دواب مربوطة، متسوّلين يُولولون وخدم ممدّدين على لفّات ضخمة من القطن مُغرِقين في أفكارهم وهم يحكّون أجسامهم باستمرار. عبَر الحاج والي الفِناء ولمّا رأى ميرزا عبد الله متّكئاً على النّافذة لوّح إليه بيده مذكّرا إيّاه بدعوته. مرّ قليل من الوقت ثمّ جاء خادم واصطحبه إلى غرفة التاجر الخارجية المؤثثة تأثيثاً مريحاً.

هذه المدينة، القاهرة هذه، هي بمثابة الطاعون ـ هذا ما قاله الحاج والي وهو مضطجع على الكليم بينما لم يتوقف رأسه عن الحراك فوق الوسادة المستديرة ـ، من تُراه يكون هذا الذي جاءه الوحي المشؤوم يوماً فشيّد في هذا المكان مدينة بين مجرى ماء عفن وصخور جامدة؟ كلّ ما يهبّ ويدبّ في هذا المكان إمّا يعضّ أو يلسع. أنا لا أحبّ مغادرة الإسكندرية، لكن الأعمال لا تستطيع تجنّب المرور عبر القاهرة، فنحن في الحقيقة لا نجني هنا سوى المتاعب والبلاء مقابل ما نقدّم من فضل ونِعم. وأنت، ما الذي جاء بك إلى هنا؟ أرى جيّداً أنك لست أصيل هذه

الحفرة المغبرّة وأسمع ذلك أيضاً. دخّنْ إن شئت، دخّن ولا حرج، أنا لا أحتمل فقط طعم الورد، أمّا رائحته فمن شأنها أن تنسيني للحظات على الأقل أنّي موجود هنا. أرى أيضاً أنْ ليس لك مظهر رجل عادي من بلاد فارس. أفهم ذلك، نعم، أنا أفهم ذلك. أنت سافرتَ كثيراً وبالمقابل تبدو لي سفراتي الشخصية وكأنها مجرد زياراتٍ للجيران. لكن من واجبي أن أنبّهك إلى أنك ترتكب خطأً، أنا أعرف جيداً أهل بلدي، عندما يضعُف إيمانهم ينهضون فجأة لينهالوا على الفُرس الذين ضلّوا السبيل سبّا وشتما وفي بعض الأحيان ضربا. أؤكد لك أنك ستدفع ثلاثة أضعاف ما يدفعه الحجيج الآخرون وستكون من السعداء إذا لم يتمّ ضربك أثناء الحج على الأقل مرة واحدة ضربا مبرّحا. اشرب فنجاناً آخر من الشاي، اشرب وتخلّص من لقب ميرزا هذا فأنت غير مطالب بالظهور بكامل هويتك الأصلية، إذا اعتمدت لقب شيخ صار طريقك أسلم بكثير. وبما أنك عالم بأسرار الطب، الأجدر بك أن تضع معلوماتك حيّز التطبيق، رغم أن الأطباء عندنا يدبّون كالنمل. الناجح في عمله فقط يصبح معروفاً ومحطّ احترام يعود عليه بالنفع، طبعاً إذا أحسن التصرّف. أرى أنك قرّرت بعدُ أيّ نهج تسلك في الحياة، وهو ما ينال كل تقديري، لكن الفرصة تكون نادرة كلّما تعلّق الأمر بشرح هذا النّهج للآخرين. المغفّلون يخلطون الحابل بالنابل، هم يرمُون بكل شيء في نفس القِدر ثم يهشمون هذا الأخير لأن شكله لا يعجبهم. شيخ عبد الله، سأكون لك صديقاً، لكن اجتنب الصراحة والصدق. لا تُفصحْ لا عن أفكارك ولا عن نواياك ولا عن مشاريعك! هذا ما تعوّدنا قوله في رُبوعنا.

* * *

إلى والي الحجاز

عبد الله باشا

جدة

حسب المعلومات التي وصلتنا، سبق للكافر الذي أدّى فريضة الحجّ وألّف في ذلك كتاباً أن اشتغل كجاسوس في بلاد الهند. لذا نستطيع أن نخلص إلى القول إنّ الجمعية الملكية للدراسات الجغرافية يتمّ توظيفها كغطاء لاستكشاف المناطق التي ما زالت لا تخضع لملكة بريطانيا. الأهمَ بالنسبة إلينا الآن هو ليس الحيلولة دون تدنيس البقاع المقدسة بقدر ما هو الحرص على تقصّي النوايا المبيّتة للإمبراطورية البريطانية. إن التقرير الذي يتستّر وراء سَفَرْنَماه كوصفٍ لرحلة عادية هو عبارة عن مَعين من الملاحظات والتقديرات الدقيقة ويحتوي على معلومات مذهلة، وقد أكّد لنا علماؤنا بعدُ أنّ الكاتب علاّمة لكنهم أردفوا أنّ المعرفة ليست إيمانا. علينا أن ننطلق من حقيقة أنّ هذا الكاتب لا يقول للقارئ العاديّ كل شيء في كتابه، وأكبر ظننا أنّ الملازم أوّل ريتشارد فرانسيس برتن تمكن بعدُ من التجسّس على مواقعنا في الحجاز، على قوة جيشنا وعلى الحالة التي عليها وسائلنا الدفاعية، كما نعتقد أنه بحث في موقف البدو من حكمنا وفيما إذا كانوا مستعدّين لحمل السلاح ضدنا. ونمدّكم صحبة هذا بجميع الوثائق اللازمة: بقائمة في أسماء الأشخاص الذين سافروا معه، بنُسخ من مواضع النص الأكثر أهمية مُرفقة بتعليقاته المطوّلة أحياناً وهوامشه، الخ. حقّقوا بكل عناية في الأمر وتحقّقوا إن كان هذا الرجل سافر لوحده أم إنه ربما كان له معاونون وأعوان، هل إنه كان بطريقة أو بأخرى مُلفتا للأنظار وهل يمكننا، من خلال تصرّفاته، أن نستشفّ ما يسمح لنا بالتعرف على نواياه.

بفضل الوثائق التي تحيطنا عِلما بتصرّفاته أثناء مواكب الحج سنتوصّل إلى معرفة فحوى مهمّته وفي أي اتجاه تتحرّك النوايا السياسية لمستخدِميه. اعلموا أيضاً أنّ السلطان يميل إلى الاعتقاد أنّ في كل هذا إشارة إلى وجود طوفان هائل تحت سطح الأرض يهدّد بتقويض أسس نفوذنا في الحجاز. لا تنسوا أنّ الذّكاء الحاد الذي يتمتّع به عبد المجيد سبق له مراراً وأن تخطّى الحدود الضيّقة لإدراكنا جميعاً. أنشطوا، كان الله في عونكم.

الإمضاء: الوزير الأكبر رشيد باشا

* * *

على الشمس أن تغرب وعلى القمر أن يتقلّص قبل أن تنفتح القاهرة كالصدَفة وتعرض جمالها أخيِلةً تتهادى. نجومٌ صيفية تناثرت على بساط من الفاقة خفيٍّ تتحدّث عن خَلق أجمل. واجهات المنازل تفصلها عن بعضها أشرطة في لون النّيلة. مع كل خطوة يخطوها يزداد تعبه وكذلك جسمه ثقلا. هل هذا ما يستهويه دائماً ويجرفه بحثا عن الإحساس المجدّد بالغربة ـ هذا العمى المؤقت؟ في انجلترا كان كل شيء في متناوله، جاهزا للاستعمال بلينه وخضرته وأدبه. هل يوجد بلد واحد على وجه الأرض أقلّ سحراً من بلده؟ شرُفات سميكة أحاطت بها قضبان خشبية تشابكت إلى ما لا نهاية له، كل طريق يُخفي في ثناياه عطفة مسدودة. لا يستطيع أن يرى غير ما انسلخ عن عناق الليل الشديد في ضوء الفوانيس الخافت. ممرّات، مداخل، عيون ذهبية من النور الخالص تنساب والدّرج إلى أسفل. ما من خطّ واحد يستقيم، في هذه الربوع يُؤْثر الناس الشكل المقوّس، يعبدونه حتّى. الاستدارة هي الشّكل الذي لا نقاش فيه، إنّها تشحذ الإيمان أكثر من الزاوية القائمة. خصوصاً عندما تزدان بكتابة مقدّسة

حروفها رقيقة أخّاذة. بناياتٌ تنخر جانبي الزقاق، أعمدة متقدمة تخرج عن النّسق وتنتصب فجأة كالحراس الوديعين. لا يَرى في البداية سوى الصومعة ترتفع من على حافة السّطوح ثم تتراءى له بعد ذلك فجأة دعوةُ عالم الأقبية الوضّاءة. حان الوقت لأداء صلاة أخرى. يتنصّت أنفاسه وهو يغطس يديه في الميضأة ويغسل أصابعه إصبعاً بإصبع. البلبطةُ في الماء تسكّن الأعصاب. مع كل خطوة يخطوها على الأرض المفروشة بالسجّاد تجفّ ساقاه المبللّتان أكثر. يجد مكاناً قرب أحد الأعمدة. كلّ كلمة تُقال تكون بلا معنى إذا خلت من عَقد النيّة الذي يسبق الصلاة ويكون بمثابة عقرب البوصلة. الشّمعة القريبة منه ترسل بريقاً خافتاً على يديه اللتين وضعهما فوق بعضهما. تتبدّد كل ضروب القلق من وراء عينيه المغمضتين تقريباً. يتبخّر ما تبقّى له من أفكار تبخّر قطرات الماء على حاجبيه ولحيته. يستسلم إلى إيقاع الحركات. ينسى كلّ شيء باستثناء قواعد الصلاة. شيء بديهي، لا أكثر. يشعر بعد ذلك وهو يغادر المسجد أنّه تصالح مع كل شيء. بعض أشجار النخيل تعلو برؤوسها في الريح والليل بجميع مقاطعه يبدو آية في الغرابة بفضل ما نَشر من أشباحه الخاصّة ومن أشباح جاءت من بعيد. أمّا هو، الرحّالة المتجول الذي ترافقه الوحشة، فلا يستطيع في تلك السّاعة أن يتصوّر حياة في وضح النهار، قذرةً، على عجل، تبهر الأعينَ ومُقبضة.

* * *

هناك من نصحه باختيار الشيخ محمّد علي العطّار معلّما له، وفعلاً، لما دخل هذا الرجل المسنّ الغرفة بدا لبرتن وكأنّ محاضرةً ارتسمت على جبينه المجعّد. أيْوَه، أيوه، أيوه، كان هذا كل ما ردّده قبل أن يبدأ بإلقاء درسه، بموضوع كلّه مسائلُ قانونية متداخلة وعويصة. ترك الشيخ عبد الله

المعلّم يتكلم إلى أن بدا عليه الإنهاك دون الوصول إلى نهاية ما أراد قوله. عند ذلك أخذ الكلمة ليصفَ طبيعة الغذاء الرّوحي الذي أراد التّزود به هو شخصياً ورجا العلاّمة الشيخ محمّد علي العطّار أن يتقيّد بصلب الموضوع وألاّ يزيد شيئاً عليه. نزل الشيخ محمد عند رغبته عبر طرق ملتوية ولم يتأخر في طرق الموضوع من جميع جوانبه وفي كلّ مجالات الحياة مُغدقا بنصائحه على تلميذه تارة ومعاتباً إيّاه تارة أخرى. أيوه، أيوه، أيوه، ماذا تعني كلمة حجّ؟ توْق! إلى ماذا؟ إلى العالم الأفضل. وماذا عسانا نكون على وجه البسيطة إن لم نكن مسافرين ذوي هدف أسمى؟ وما قيمة تعبنا في الدنيا مقارنة بجزاء الآخرة؟ من كان منّا في صحّة جيدة عليه أن يقوم على راحة المسافرين أثناء السفر، ومن كان موفور المال يتكفّل بشراء الماء في جميع مراحل السفر ودفع مصاريف الرّحلة.. ماذا تُدوّن طول الوقت دون انقطاع يا صاحبي؟ يا لها من عادة جدّ سيئة. لا بدّ أنك تعلمتها في بلاد الفرنجة. تُب إلى الله قبل أن يفوت الأوان، تُب. أيوه، أيوه، أيوه، إذا لبست الإحرام يُحرّم عليك قصّ شعرك ولو قصّاً قصيراً أو نتفه، سواء في الرأس أو الإبطين أو العورة أو اللحية أو في أي موضع آخر من الجسم. أمّا إذا حدث أن ارتكبت إثماً في هذا الشأن فعليك أن تعوّض على خطيئتك بصدقة قدرها ٠،٥١ لترا من الطعام لفقراء مكّة على كل شعرة واحدة والضّعف بالنسبة لشعرتين. دعني، يا بني، أنصحك بعدم إتلاف ما جمعتَ من ثمين العِلم لأنك عليك أن تعُول نفسك وخادميك الاثنين. أطبّاء مصر لا يكتبون حرفاً واحداً بدون أجر. وأنت، هل تخجل لخدماتك إلى درجة أنك لا تطلب مقابلا؟ ما الذي تريد إثباته لنفسك ولنا؟ الأفضل هو أن تعتزل الدّنيا وتعيش في أحد الجبال ترتّل صلواتك ليل نهار. أيوه، أيوه، أيوه، لا تنس، عليك أن تنطلق من صفاً وتتجه إلى مروى ثمّ تكرّر سير هذه المسافة سبع مرات، كل المسافة، دون نقصان

خطوة واحدة، أمّا إذا انتابك شكّ في عدد المرات التي قطعت فيها المسافة فاحتسب العدد الأدنى وأقرأ القرآن الكريم وعندما تصل العلامة الفاصلة الخضراء في نصف المسافة عليك أن تسرع وتقطع ما تبقّى من خطوات حتى العلامة الفاصلة الثانية جرياً. لا أفهم، يا صديقي، لقد سجّل خادمك أنه اشترى رطلين من اللحم وأنت تُطلق له العنان ولا تطلب منه تفسيراً. إلى أين سيقودنا كل هذا؟ ألا تقول أبدا: ربّنا قِنا شرّ خطيئة التبذير! أيوه، أيوه، أيوه، عليك أن تحضّر سبع حجرات للعمود الأوّل، الأقرب من مسجد الخيف، وترميها الواحدة تلو الأخرى، عليك أن تركّز على العمود وإذا أخطأت الهدف عليك أن ترمي مرة أخرى وعندما تنتهي من ذلك تنتقل إلى العمود الموالي. هل لك امرأة؟ لا؟ في هذه الحالة عليك أن تقتني جارية يا ولدي! لأنّ تصرّفك سيكون محلّ ريبة الرّجال الآخرين الذين سيقولون عنك ـ أعوذ بالله ـ إنك تشتهي نساء غيرك من المسلمين.

كذا درّس الشيخ محمد تلميذه الشيخ عبد الله في الغرفة الأمامية لمقر سكناه بوكالةٍ في القاهرة كما أبدى استعداده في آخر لقائهما مرات وبصوت عال أن يصطحبه إلى كل مكان، حتى إلى ما وراء جبل القاف من عالم مظلم.

* * *

المسألة مسألة صبر وتقتضي أن يُترك الوقت اللازم للسانه حتى يتأقلم، يتمطّى ويمتدّ إلى الأصوات الحنكية والحلقية الضيقة. أن يُأرجِح نصفه الأعلى ويعوّده على تعلية وخفض نسق ترتيل مسترسلٍ. أن يتعلّم استعمال يمناه فقط فيما هو حقّ وطُهر وأن يشرب جالساً وفي ثلاث جرعات يتخللها الحمد. أن يجعل من لحيته علامة تدلّ على الرفعة

والرصانة. أن يُفصح عن كل رجاء وكل نية مستقبلية بعد قول: إن شاء الله. أن يتعوّد على كونه صار الآن، بعد تفكير عميق، بشتونيا وُلد وترعرع في الهند البريطانية، ولذلك وجب عليه أن يعتبر الهندوستانية لغته الأمّ قبل اللهجات التي ورثها عن أجداده الأفغان. نعم، لقد تعوّد على ذلك، صار الأمر عاديا بالنسبة إليه، شيئاً بديهيا. لقد قطع أشواطاً منذ تلك السنين التي كان فيها طالباً يحاول تعلّم الحروف العربية بمجهوده الخاص ثم يستعرض وكلّه فخر أمام رجل إسباني كيف أنه صار يكتب بدون تعثّر. كيف أنّ الرجل، عوض أن يُثني عليه، سخر منه. لقد نبّهه هذا السّنيور الذي كان يحمل اسماً إسبانياً منمّقاً إلى ضرورة بدء الكتابة من اليمين. لم تكن العربية تُدرّس في أكسفورد، لم يكن هناك بديل للاتينيةِ كان رجال طاعنون في السن ينطقون بها غلطاً ولا يقبلون أيّ نقاش.

الأصعب من كلّ هذا بكثير هو أن يكون في مستوى ما ينتظره النّاس عادة من درويش. الكلام المعسول لا فائدة منه. كذلك عادة ما يكون للسلوك المدروس والمتحفّظ تأثير سلبي. عليه أن يبدو متعجرفاً وقليل الأدب، غريباً عن كل مظاهر التحضّر، محتقرا لكلّ ما صغُر من الهموم البشرية وبمعزل عن كل تفكير منطقي. القرب من الله لا يمكن قياسه بمعايير تُستعمل في الأسواق. إذا فرغ من صلاة الصّبح عليه أن يبدأ بترديد الذّكر حتى يصل انهماكُه فيه طورَ الغليان وترتسم نداءاته في أسماع جيرانه مُثقَلي الجفون. كلّ من يعترض سبيله عليه أن يرشقه بنظرة عبوسة كلها تهديد مبهم. ألاّ يترك فرصة واحدة تمرّ دون تنويم من راموا التنويم طوعاً - كلّما تحوّلوا إلى أشخاص مسلوبي الإرادة يطلب منهم القيام بأشياء تزيح عنهم الغشاء وتظهرهم على طبيعتهم، مخلوقاتٍ سخيفة. إنّ الدّروس التي يُلقنها الدّراويش لمؤلمةٌ حقّاً بالنسبة للأغبياء وضيّقي الأفق. عليه ألاّ ينتظر طويلاً قبل أن يعيد المنوَّمين إلى الواقع ويطلب منهم أن يؤكّدوا للحاضرين

أنهم في صحة وعافية. السِّحر يجب أن يكون طرَفاً في معادلة طرفها الآخر الشفاء.

* * *

عجيب، في أسرع وقت ممكن صار طبيباً محبّباً لدى الكثيرين في القاهرة. إثر وصوله إلى مستراح القوافل جلس إلى أحد الحمّالين في آخر الفناء، قطّر له في عينه الباهتة من حجر الكيّ وهمس في أذنه أنّه هو، الشيخ عبد الله، لا يطلب أجرا أبداً من الذين لا يقدرون على دفعه. طبعاً، الدراويش لا تليق بمقامهم إلاّ غنائم أكثر اكتنازاً. في اليوم الموالي دقّ الحمّال على بابه وشكره قائلاً إنّ حالة عينه قد تحسّنت، بينما وقف صديق له وراءه جاء بمرض آخر. أمره بتناول بعض الحبوب فتحسّنت حاله أيضاً وتحسّنت معها سمعة الطبيب الجديد. تجمهرت أمام باب غرفته الأمامية ـ كان لا يترك أحداً يدخل إلى حجرته الداخلية ـ مجموعة من المساكين حضروا لعيادة الطبيب بعدَ أن كان فحَصهم بعدُ وشُفوا من علتهم ليمدّهم بالوصفة التي تُبقي هذه المرّة إلى الأبد على حياة سبق له أن أنقذها فقط. لمّا رأى مقدّمو الالتماس أنّ الطبيب تملّكه الغضب الشديد انصرفوا على عجل قبل أن يخطر بباله أنه ليس قادراً على درء الأضرار فحسب بل كذلك على أن يتسبّب فيها.

بعد أن صيّره عامّة الناس مشهوراً طلب عيادته آخرون ينتمون إلى طبقات أرفع، كانوا الأوائل من بين الذين أسرعوا للتّحقق من صحة الإشاعات السارية حوله. نُودي عليه للتوجه إلى منزل أحد الأغنياء، ولولا الحاج والي الذي اعترضه في الفناء الداخلي لكان ارتكب هفوة. سأله الحاج والي إلى أين هو ذاهب على قدميه ثمّ أضاف مبيّنا أنّ رجلاً في منزلته يحقّ له أن يطلب خادما ومعه بغل، يأتيه ليصطحبه إلى مكان

المريض حتى ولو كان على بُعد بضعة أمتار منه. قال أيضاً إنه سيكلّف أحد أعوانه بإيصال الخبر ونادى للتوّ على أحد المتسكّعين.

حصلت له فائدة وهو في طريقه إلى منزل الرّجل الثريّ، وهكذا، مع مرور الوقت، تعلّم كيف يستدرج خدم كل الأثرياء إلى الحديث عن أسيادهم دون أن يردّوا له طلباً. معرفة الوضع العائلي والأحوال بصفة عامة شكّلت نصف العلاج. كان يدخُل في خشوع كبير، ينحني أمام جميع الحاضرين ثم يمرّر يده اليمنى من فمه إلى جبينه. إذا سُئل عمّا يريد شربه طلب شرابا غير متوفّر ليقنَع في آخر الأمر بفنجان قهوة ونرجيلة. كان في أول الأمر يجسّ نبض المريض ثم يتفحّص لسانه وأخيراً ينظر في حدقتيه. كان يسأله مطوّلا ثم يستعرض عِلمه ومعرفته أمام الجميع. كانت تفسيراته مرصّعة مرة باليونانية ومرة أخرى بالفارسية، أو على الأقل، عندما يكون إلمامه بالأمر غير كاف، ثريّة باللواحق اليونانية والفارسية. تحدّث المريض عن أوجاعه بدون توقّف وأظهر التشخيصُ وهَنا وقتيا في إحدى الوظائف الأربع التي تمّ التحقّق منها، ممّا جعل الطبيب الهندي يأمر بتناول دواء قويّ: اثنا عشر قرصاً كبيراً من الخبز تُغمس في عصير الصّبر أو ماء القرفة، ضد عسر الهضم لدى الرّجل الثّري، وكان لا ينسى أبداً أن يقول «باسم الله الرحمان الرحيم» ثمّ أن يضيف إلى ذلك علاجاً موجعاً يتمثل في حكّ الجلدة باستمرار، لنقلْ بفُرشة لفرك شعر الخيول. انتهى الفحص كالعادة بالمُفاصلة على الأجر. طلب الطبيب خمسة قروش، تذمّر المريض، تشبّث الطبيب بطلبه إلى أن ألقى المريض ببعض القطع النقدية على الأرض وهو يلعن طمع الهنود الذي لا نهاية له وواصل شكواه إلى حد أنه شكّك في جدوى علاجه وختم كلامه بقوله: الحياة الدّنيا جيفةٌ ورخَمٌ هم الذين يتهافتون عليها. لم يسكت الدرويش لسماعه مثل هذا الكلام غير اللائق وهدّد بعدم معالجة أيّ مرض في ذلك البيت مستقبلاً

وباجتنابه إلى الأبد. ثمّ قال إنه سوف يحيط كل المختصّين في مهنة الطبّ علما بما تعرّض إليه هناك من عذاب نفسي.

لكنه كان عليه في آخر الأمر أن يترك وصفة دواء، لذلك طلب ريشة، مداداً وورقاً ثم كتب بخط صعُب عليه أن يحدّ من زخرفاته.. باسم الله.. الحمد لله رب العالمين.. المُعالج والشافي.. والسلام على آله وصحبه.. أمّا بعد فعليه أن يخلط العسل والقرفة والجنطيانا بنفس نصف المقدار وقسطاً كاملاً من الزنجبيل المطحون يتمّ مزجه مع خليط العسل ثم تُصنع من الكلّ كُريات في حجم ظُفر الإصبع توضع منها كل يوم كريّة على اللسان لتذوب فوقه وتسري مكوّناتها مع اللّعاب. لعمري، إنّ النتيجة ستكون عجيبة.. وعليه أن يتحاشى أكل اللّحوم والأسماك والخضر وتناول السكّريات وجميع أنواع الأطعمة التي تتسبّب في الغازات أو تكوّن أحماضا.. وهكذا سيشفى بعون الله الشّافي الرّقيب.

سلام الله.. والسلام!

كلّما توصّل الطبيب إلى ختم الوصفة في أوّل النص كما في آخره فيمكن القول إنّ زيارته انتهت بنجاح وإنّ التّوديع تمّ في كنف الاحترام المتبادل.

* * *

إلى شريف مكة،

عبد المطلب بن غالب،

وإلى قاضي القضاة،

الشيخ جمال

أودّ أن أحيط أخويّ في الإسلام المحترمين علما بما وصل إليه

التحقيق في شأن الضابط البريطاني ريتشارد فرانسيس برتن الذي قام قبل سنتين بأداء مناسك الحج، على الأرجح بغرض التجسّس على الحجاز والبقاع المقدّسة. وانطلاقاً من الأوصاف المفصّلة التي دوّنها في تقريره تمكنّا من العثور على بعض الرّجال الذين كانوا سافروا معه وقضوا أياماً وشهوراً عديدة في رفقته كما استقبلوه واستضافوه في منازلهم في المدينة ومكّة ـ أعلى الله شأنهما. ننوي استجواب هؤلاء الرّجال للحصول على معلومات تتعلق بهذا المدنّس للحرمات. نحن على يقين من أنّكما ترغبان في حضور جلسات التحقيق هذه وسنقدّر في شخصكما حكمتَكما التي ستكون لنا خيرَ مستشار.

الإمضاء: عبد الله باشا،

والي جدة والحجاز

* * *

قطع في ميدان التطبيب شوطاً كبيراً. انتقل من معالجة الإمساك إلى معالجة الحصوات الصفراوية، فتح دمّلا لأول مرة، حصل على نجاحات في معالجة الأرق وأوجاع مستدق الظهر. ثم بدأ الناس يتحدثون عن الشيخ عبد الله كطبيب يستشعر العاهات ويشخَص الأمراض بمجرّد التحسّس. في الأثناء صار أكثر زبائنه من الأعيان، أرسلوا من يحضره، رجال بنبرة حازمة وميل إلى السّمنة، أنهكهم النقرس وأثّر فيهم الضّجر. أسياد استقبلوه كما يستقبل الملوك ودفعوا له أجرا لا يحصل عليه غير المزوّرين. آباء وضعوا حياة أبنائهم بين يديه.

في يوم من الأيام أرسل أحد الأعيان في طلبه ليسأله في تعابير غلب عليها التلطف إن كان مستعدا أيضاً لمعالجة ربّة بيته. أمّا الطبيب الذي تخيّل نفسه منذ زمن وهو يُسمح له بدخول الحريم، إلى المكان الأخير

والوحيد الذي بقي موصداً في وجهه، فقد أخفى ابتهاجه وراء كلام مفاده أنّ من واجبه مساعدة كل البشر، دون النظر إلى أصلهم، دخلهم أو جنسهم. عندئذ بدأ الرّجل رفيع المقام يتحدث عما تشكو منه زوجته، عن أوجاعها وحالات القيء المتواترة لديها، علامات يمكن ملاحظتها في جميع الأمراض تقريباً. فردّ الطبيب قائلاً: فحصي لها هو وحده الذي يعطينا صورة عن طبيعة المرض. لقد سبق له مرة، حال وصوله إلى القاهرة، أن عالج نساءً، جواري من بلاد الحبشة. طلب آنذاك صاحب الجواري الذي كان يسكن قبالة مستراح القوافل من الطبيب أن يساعده في أمر قال إنه يصدع دماغه. خشي الشيخ عبد الله أن يتعلق الأمر بداء عضال فيكون فيهَ إخفاقه. حُشرت الجواري في غرفة كلها بؤس، نظرن إلى الطبيب مباشرة ثم تضاحكن. أشار تاجر العبيد إلى إحدى الجواري الشابات وقال: إنها جميلة وثمنها يساوي خمسين دولارا على أقلّ تقدير. لكن علتها تخفض من قيمتها. لم أتفطن إلى العاهة عند اشترائها، نعم كان عليّ أن أتفطن إليها. الطبيب أيضاً لم يلاحظ شيئاً خارجاً عن المعهود لدى المرأة، بقطع النظر عن عجُزها الضخم الذي كان التّاجر اعتبره طبعاً علامة مميزة ترفع من ثمنها. سأل التاجرَ: ألا تبيّن لي فيما تتمثل عاهتها؟ طبعاً، أنت لا تستطيع الاهتداء إليها هكذا في وضح النهار. ثمّ ابتسم تاجر العبيد ابتسامة لا تطاق وقال: إنها تشخر! تشخر كالكركدن. قهقه الشيخ عبد الله من فرط الارتياح. كركدن؟ أليس ما تقول عجيبا؟ الجاريات الأخريات يجدن في كل هذا تسلية، هنّ أيضاً شابات ويستطعن رغم ذلك أن ينمن. هذا العيب الطفيف لدى واحدة منهن لا يشكل تحديا بالنسبة إلي، أنا مشهور في بلدي وأحد أسمائي هو غَازْغَارِيشَا، وسوف تتعجب للأمر عندما تعرف معناه: قاهر الشخير. بدا الارتياح على تاجر العبيد، كذلك شفيت المرأة الشابة من شخيرها بعد حصّة تنويم مغناطيسي. كان

هذا على الأقل ما صرّح به الطبيب. وعد تاجر العبيد بدفع أجرة الطبيب بعد أن ينتظر مرور اللّيلة القادمة وشكّلت تلك الحادثة أحد أسهل نجاحات الشيخ عبد الله.

بادره أحد خدم الرجل رفيع الشأن بالكلام ورجاه أن يتبعه فعرف الطبيب أنه يسير في طريق تحقيق أمنيته: شعر طويل وأجعد في سواد الحبر الصيني، بشرة في نعومة المخمل، ذراعان نحيفتان رأى فيهما امتداداً لابتسامات العيون التي سبق وأن خاطبته في الأزقّة بمفاتن أخرى. كان لا يعرف عمر المريضة ولعل تهيّجه جاء قبل الأوان. سار وراء الخادم، صعد بضع درجات ثمّ تقدّم وحاجز الشرفة الحديدي قبل أن يجد نفسه أمام باب. وقف الخادم ثم التفت إلى الطبيب وسأله عن عينه التي يرى بها أكثر. لم يعرف الطبيب الذي لم يتهيّأ للسؤال أيّة عين يفضّل. انتصب الخادم وراءه وحجب عين الطبيب اليسرى بغِماءٍ أسود اللون ربطه في مؤخرة رأسه بإحكام. تأكد أوّلاً من أن الغِماء ثابت في مكانه ثم فتح بعد ذلك الباب الذي وقفا أمامه. خمّن الطبيب: بما أن النساء ليس لهن سوى نصف قيمة الرجال فلا غرابة إذن أن يراهن الرجال بعين واحدة. حسِب في أول الأمر أنهما يوجدان لوحدهما في الغرفة لكنه سمع همسا جعله يرجح أن وراء الحجاب الفاصل بعض النساء. كان أمامه سرير منخفض بجانبه مخدات عريضة وسميكة. قال الخادم: تفضل، اجلس أيها الشيخ! اتخذ الطبيب جلسة أضفى عليها ما استطاع من الهيبة والوقار. أحس بشخص يقترب من الخلف. بسهولة وبدون أن يتفطن إليه أحد تقريباً أدار رأسه إلى اليمين فأبصر خلسة ثلاث نساء، ثلاثة أزواج من الشباشب وثلاث عباءات. بدت امرأتان وكأنهما تساعدان ثالثة على الوقوف. سمع الخادم على يساره يقول: أرجو أن تستعمل هذا يا شيخ . ألقى الطبيب نظرة على الشيء الذي وُضع في يده. كان مِشكالا. قال الخادم: ضعه

على عينك. نادِ بصوت عالٍ إن كنت في حاجة إلي، سأنتظر وراء الباب. ألصق الطبيب الأسطوانة بعينه اليمنى. انكسرت الألوان، شكّلت أجزاء اختلطت ببعضها ثم تطايرت متفرقة. أزاح المشكال عن عينه بقوة - هل بإمكانه المواصلة هكذا؟ -، لكن صوت الخادم نبهه: لا تُبعد المشكال، اصبر قليلاً، سترى في النهاية ما فيه الكفاية. وضع الفسيفساء السائحة على عينه من جديد. سمع حفيف قماش، أحس بوجود ضجر تسبب فيه مرض مزمن. هناك من لمس المشكال. وثبت الألوان، أبصر يداً صغيرة، سجادة حائطية، أنفاً اختفى وسط وجه، وجها سافرا لفتاة ركّزت على الطبيب نصف الأعمى من جهة وبعينيّة واحدة من جهة أخرى نظرة كلها تهكم وفضول. ابتسم ثم وجه آلته صوب شفتي الفتاة اللتين كانتا تتحركان. قالت الفتاة: لست أنا المريضة بل أمي. انتقل المنظار في يده إلى المرأة الممدودة على الفراش. كل شيء فيها كان مختبئاً باستثناء أوجاعها. قال الطبيب: كيف لي أن أفحصها؟ ثم ضحك مكشرا. كان بإمكاني أيضاً البقاء في المنزل وتشخيص مرضها من هناك. قالت الفتاة: بإمكاننا أن نفعل ما يقوم به الأطباء الآخرون. تقول لي ما الذي تحتاجه للقيام بعملك وأنا أساعدك. قال الطبيب: لو نمرّ إلى جس النبض فستكون في ذلك بداية حسنة. أوصلت إليه الفتاة ذراع المريضة. بعد المعصم جاء دور العينين ثم الحلق. أمسك المشكال بيده اليسرى بينما شرع يتحسس مواضع الأوجاع التي سرت على طول ظهر المرأة متخطية مستوى الكليتين والكبد ووصلت حد البطن المغضّن أين انتهى فحصه. وضع مرّة المنظار جانباً ليتحسس انتفاخاً بكلتا يديه. لم تنبّهه النساء إلى عواقب ما فعل.

لم يكن سعيداً لما كان يقوم به من فحص. أصدرت المرأة من حين لآخر أصواتا متكدرة ردت عليها البنت بعبارات فيها تهدئة متكلفة. لم يحرّك ألمها فيه ساكناً. أراد فقط أن ينتهي من خيبة الأمل تلك في أقرب

وقت ممكن، خصوصاً وأنه، قبل أن يفكر في شفاء المريضة، كان لا يمتلك حتى الوسيلة التي يخفف بها من آلامها. بدأ يحاضر حول نظام غذائي للمريضة ثم قال إنه سيحرر وصفة دواء يقدّمها إلى صاحب البيت. أراد الخروج لمّا طلبت منه المرأة الثالثة التي ظلت صامتة إلى تلك اللحظة، بما أنه موجود في البيت، أن يبقى مدة أطول لأنها هي أيضاً تشكو أوجاعا، أبسط من أوجاع أمها، لكن قبل كل شيء عليها وأختها أن تُعيدا أمهما إلى فراشها. وافق الطبيب على ذلك. بقي جالساً يتذوق ما تبقى من نبرات الصوت الذي تكلم أخيراً. كانت المرأة الثالثة أكبر سنا من أختها، كاملة النمو، ممشوقة القد، على قدر من الوقار ومعتدة بنفسها. عادت المرأتان الشابتان. قالت الكبرى: أنا متزوجة. وقالت الصغرى: أرجو أن ترجع المنظار إلى مكانه. زوجي ينتظر مني أن ألد له أبناء ـ بدت وكأنها لا تستطيع الكلام إلا بعناء كبير ـ والصبر ليس من خصاله. أزاحت الحجاب عن وجهها وتخلصت من عباءتها. قال الطبيب مغمغما: كل شيء بيد الله. قالت: طبعاً، أيها الشيخ، لكن ربما هناك شيء مندسّ فيَ أنا ليس على أحسن ما يرام، شيء بيدك أنت! كان لباسها أحمر قان. جميل أن يؤكد لي طبيب ذائع الصيت مثلك أنه بإمكاني أن أنجب أطفالا. صعب على الطبيب أن يحوّل مشكاله من على وجهها. قال مغمغما: طبعاً، ثم تاه في أساريرها التي غلبت عليها مسحة من الحزن. هل تسمحين بأن أنظر في عينيك؟ اقترب من وجهها على بعد نصف ذراع، طول المنظار. كانت عيناها بسوادهما الحالك سمكتين تسبحان في مدى بعيد الغور. هناك بعيداً في الأعلى على وجنتها وتحت عينها اليمنى أطلت شامة كدمعة سوداء نسيت صاحبتها أن تمسحها. بدت الشامة عن قرب وكأنها زائدة رغم أنها شكّلت جزءاً من كمال وجهها. تمدّدت. ابدأْ، أيها الشيخ. أبدى تردّداً. ماذا عليه أن يفعل ليتحقق من قدرة امرأة على الإنجاب؟ بدأ بجس النبض ربحا للوقت، لكن الوقت لم يزده إلا ترددا.

لم يكن باستطاعته أن يعدها بالحمل. ألقى عليها بعض الأسئلة البسيطة المتعلقة بالشهية وبعملية الهضم وحصل على مهلة إضافية. الاتهامات المتبادلة بعدم القدرة على الإنجاب بين زوجين غريبين لا دخل له فيها، حتى بوصفه طبيباً. كيف يستطيع أن يؤكد شيئاً بهذه الأهمّية؟ قاطعت أفكاره قائلة وقد قرُب بُعدها منه: أحسّ انّك وجِل، أيّها الشيخ. عليك أن تفحصني كما يجب، الأمر يتعلق بأكثر من حياتي. نعم، أعرف أنك الآن لا تشعر بالراحة، لكن أرجوك، أجهد نفسك وافحصني. جثت أختها على ركبتيها بجانبها وبدأت في نزع الثياب عنها. وإذا ضايقتك الآلة فما عليك إلا أن تضعها جانباً. بإمكاننا عدم احترام القوانين عند الضرورة، أليس كذلك؟ ثمّ تفرست فيه بنظرة تمنى لو قرأ ساعات في أسرارها. ألقى نظرة على بطنها ببشرتها البيضاء والمكوّرة قليلاً. أمسكت الأخت بيده ووضعتها على السرّة. رأى يده من خلال المنظار فبدت له وكأنها جزء لا يتجزأ من صورة حياة هادئة قوامها أعضاء مشرّحة. لم يجرؤ على تحريكها من مكانها. أحسّ ببشرتها الباردة والناعمة. كما كان ينتظر. انزعج لشعوره بتهيّج الرغبة لديه. هل يظهر شيء من تحت جلابيته؟ لم يستطع والمشكال في يده أن يلقي نظرة على نفسه. يا له من موقف حرج. سوف تواصل نزع ثيابها وقد لا يستطيع الردّ على ألمها إلاّ برغبة شهوانية. اضطرّ إلى الهروب. انتزع يده. معذرة، يجب أن أذهب. نظرت إليه الأختان مندهشتين. لكنه وقف بعدُ، ترك المشكال يسقط من يده ونظر صوب الباب. معذرة، ليس للأمر علاقة بك أنتِ. وصل إلى الباب. ليس لديَّ ما أقدّمه كاعتذار. نادت الأخت الكبرى: انتظر، إذا لم تستطع القيام بعملك على هذه الحال فتستطيع أن تزيح العصابة من على عينك. لكن الطبيب فتح الباب بقوة واندفع إلى الخارج. هكذا غاب عن الأنظار وطعم التقصير على لسانه.

* * *

في شهر محرّم من سنة ١٢٧٣

شملنا الله بنعمته وبرحمة من عنده

الشريف: نشكر الوالي على دعوته. حقاً، لا يسعنا إلاّ أن نقول إن هذا الأمر له من الأهمية ما يتطلب أكبر قدر ممكن من اهتمامنا، من اهتمامنا جميعاً.

الوالي: قبل أن نتفرغ إلى هذا الأمر ربما وجب علينا أولا، ما دمنا في حالة تسمح لنا بتفكير سليم، أن نبدأ بحسابات نائب الحرم.

القاضي: طبعاً، طبعاً. المعهود قبل المجهول. أنا والشريف راجعنا هذا الصباح جميع قوائم حسابات حراس الكعبة. لقد زادت المداخيل ولله الحمد بنسبة اثنتي عشرة بالمائة.

الشريف: في هذه الوثيقة تجدون عدد الأكياس التي سنرسلها هذه السنة إلى اسطنبول مسجلا. وسنوافيكم كالمعتاد وكما طلبتم بجميع الوثائق التي لها علاقة بالموضوع وليس فقط بتسوية الحسابات النهائية، كذلك بتفاصيل حول كل المداخيل، كل التكاليف القارّة وجميع المصاريف التي لم تكن في الحسبان، الترميمات وكل ما يعسر عليّ استحضاره الآن، لكي لا تقع علينا شبهات أيّ انحراف أو أية خروق. سنقدم حساباً مكشوفاً كما علمتمونا تقديمه.

الوالي: ممتاز. يبدو وأن الخصْية يمكن الاعتماد عليهم. مفرح، تعاوننا في هذا المجال مفرح حقاً.

القاضي: مفرح بالنسبة إليكم، لأننا نحن الذين ندفع الثمن في النهاية. سروركم أنتم مستوجب، أمّا سرورنا نحن فهو واجب.

الشريف: القاضي يعني..

الوالي: أفهم جيداً ما يعنيه القاضي المحترم. إنه لا يرى الثمن الباهظ الذي تكلفنا إياه البقاع المقدسة. حمايتها تكلفنا سنويا ما يسمح لنا بالقيام بغزوة، وبما أننا في حرب هذه السّنة فإن الوضع المالي للباب العالي جد صعب.

الشريف: نجاحات باهرة، حقاً، في ساحة القتال، لقد استجيب لصلواتنا وأوقفنا الكفار عند حدودهم.

القاضي: رائع. لكن وصل إلى علمي أن الانتصارات ضد موسكو تحققت قبل كل شيء بفضل الجيوش البريطانية والفرنسية.

الشريف: وبإرادة الله العلي القدير..

القاضي: والحمد لله.

الشريف: وهكذا يكون لنا من الأسباب ما يجعلنا نثمّن السلم المنتشر في ربوعنا.

الوالي: القاضي صغير السنّ ويعسر عليه تذكّر الأوقات العصيبة التي كنا فيها غير قادرين على تقديم الحماية التي نوفّرها اليوم. لمّا هجم أربعون ألفاً من الهمجيين على مكّة أعلى الله شأنها. لقد استهان الشريف غالب، ابن الشريف مساعد، بالوهابيين. نهبوا وقتلوا، دمروا أماكن مقدسة بدعوى أنها تنشر الزندقة والضلال. ما هو الدرس الذي نستخلصه من كل هذا؟ يجب ألا نعود إلى حالة الضعف التي كنا عليها وقتها والتي أجبرت جيشنا آنذاك على التحصّن في القلعة، جيشنا الذي كان مستعدا للدفاع عن نفسه لكنّه لم يكن قادراً على حماية المدينة.

القاضي: والشريف غالب؟

الشريف: كنت طفلا صغيراً، لذلك لا أستطيع أن أعوّل على ذكرياتي، غير أني قيل لي إن والدي المحترم، سلام الله عليه، سارع عند ذلك بالتّوجه إلى جدّة لينظّم المقاومة انطلاقاً من هناك.

الوالي: سمعتُ هذا الكلام، رغم أنّ إشاعات متواترة تقول إنه ذهب إلى هناك ليختبئ.

الشريف: كل ما زاد شرفُ عائلة إلاّ وكثر أعداؤها. هناك من ضروب العداوة ما يعمّر أجيالا.

الوالي: أعتقد أنّ سهرنا على حماية ربوعنا هو أهم بالنسبة إلينا من أن نشغل بالنا بمثل هذه الأشياء. شهية الوهابيين لا حدود لها، شأنها شأن شهيّة البريطانيين. نحن مطوقون بشراهة كبيرة، لذلك وجب علينا أن نكون كلّنا فطنين. إذا أردنا ألاّ نخسر كل شيء.

القاضي: فينا من قد يخسرون أكثر من غيرهم. الوهابيون يُبالغون من حين لآخر، لكنّ أيمانهم قوي، وهو ما لا نجده بكثرة في زماننا هذا.

الوالي: حان الوقت لنتفرّغ إلى الموضوع الذي جئنا للنظر فيه. هل قرأتم الوثائق التي أرسلت بها إليكم؟ الضابط البريطاني وصف الأشخاص الذين اصطحبوه إلى الحج وصفاً دقيقاً جداً. ويذكر حتى أسماءهم. حسبناها أوّلاً أسماء مستعارة، لكن الأمر ليس كذلك: تمكنا من العثور على أغلبيتهم وسنستجوبهم خلال الأشهر القادمة إن شاء الله. وبما أن اثنين منهم يعيشان في مصر، طلبنا من إخوتنا هناك أن يسائلوهما. الجواب لم يصلنا إلا هذا الصباح. الخبر السار يقول: الاثنان ما زالا على قيد الحياة ـ ومدّانا بالمعلومات عن طيب خاطر.

القاضي: والخبر السيّء؟

الوالي: سترون. في الحقيقة لا أدري ما الذي تريد هذه الشهادات أن تقوله لنا. لكن اقرؤوا بأنفسكم.

الشيخ محمد

طبعاً أتذكر هذا الرجل. أنا فخور بأن كنت معّلمه. أيوه، أيوه، أيوه. الشيخ عبد الله كان رجلاً مثقفاً ووجيهاً وطبيباً ممتازاً. لم أكن شخصياً، والحمد لله، في حاجة إلى مساعدته، لكن روايات كثيرة حول قدرته على التطبيب تناقلتها جميع الأفواه. كان طبيباً يعالج مرضاه حقاً. كان مسلما صالحا كاد يتيه وسط مسائل تتعلق بالإيمان، لم يكن له ميل كبير إلى الأشياء العملية، كنت دوماً أنبهه لأنه، لولا مساعدتي، لكان وقع ضحية مزيد من الكذب والاحتيال. بما أنكم تسألونني بإلحاح، أودّ أن أقول إن شيئاً واحداً كان يقلقني فيه، كان بدون زوجة ـ هل تعلمون إن هو تزوج في الأثناء؟ ـ، ومنذ ذلك الوقت وأنا أصلي من أجل أن يعثر على امرأة صالحة. لم تعجبني النظرات التي كانت بعض النساء ترسلنها إليه، كان رجلاً فارع الطول، وسيم الوجه، وضاح الملامح ولا أحد يستطيع أن يصمد أمام المغريات طول حياته، فالنبي، صلى الله عليه وسلم، كان خير العارفين بأن الابتعاد عن الخطيئة لا يكون إلا بإزالة المغريات. ثم ماذا، بقطع النظر عن الاهتمام بهذه النقطة؟ لا، أبداً، لديكم شكوك لا مبرر لها، وهذا ليس غير لائق فحسب بل هو خطير أيضاً. كان أكثر التلاميذ جدية على الإطلاق، دقيقاً في عمله، تصوّروا أننا أحياناً، عندما لا أفلح في تحاشي مقطع صعب من القرآن الكريم، كنا نقرأه مرات سوية ثم يحملني على تفسيره فأقدّم ـ وهنا يجب أن أعترف بأنّ المعّلم نادراً ما يستطيع في حالات مماثلة أن يتظاهر بالمعرفة ـ، دون أن أعشى تماماً لكن

بعينين شبه مغمضتين أضعفتهما السنون، تقديراً للمعنى ثم أنتظر رد الفعل لدى التلاميذ الآخرين، أنتظر أن تمرّ خدعتي الصغيرة وتدخل بسرعة طيّ النسيان لتبقى سمعتي كما هي، لكن هذا الطالب الذي كان يزن كل كلمة أقولها تفطن إلى الغشّ وفقد ذات مرّة التّحكم في أعصابه. صاح بأعلى صوته: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. عندئذ تملكني الحياء وهمست، بعد أن عدت إلى التواضع الذي من اللائق أن يتّصف به كل واحد منا: اتق الله أيها الرجل! اتق الله! والآن قولوا لي، هل يعقل أن يحمي كافر الكتاب المقدس من عجرفة معّلم عجوز؟

* * *

أحسَّ من أوّل وهلة أنه عليه ألاّ يثق في هذا الرجل. أمّا الآن، وهو يصيح ويعربد كما لا يقدر على ذلك إلا باشيبازوك ألباني بدين، فقد فات الأوان. لكن ما الذي جعله يرتكب هذا الجنون؟ قريباً سيعلم كل من كان في مستراح القوافل أن الطبيب الوجيه صار صديقاً لجلف غشيم. والأخطر من ذلك بكثير هو أن الدرويش المحترم شارك في حفلة سكر. كان من حقه، كدرويش، القيام بأشياء كثيرة، لكن ليس بمثل هذا! حتى وإن لم يسكر حد الجنون، بعكس الألباني الذي ظل يتخبط وكأنه أراد الذود عن شرف أخته بعد أن باعها بنفسه محل بغاء.

لم يتعرّفا على بعضهما إلا يوماً قبل ذلك. مرّ الشيخ عبد الله بغرفة الحاج والي ليسلم عليه فوجد عنده علي آغا، رجلاً عريض الكتفين، بحاجبين سميكين، عينين تتقدان ناراً، شفتين نحيفتين وذقن يصلح لأن تُوثَق به المراكب الراسية. سبق لهذا الرجل وأن جلب انتباهه وهو يمشي الخيلاء بحركاته العسكرية داخل المستراح وقد شدّ إحدى يديه إلى حزامه وكأنه يحمل سلاحا. تعطّلت مشيته بسبب عرج بينما حاول أن يخفي ما

تعلّم من آداب اللياقة وراء خشونة مبالغ فيها. كان الحديث معه بطيئاً ومتعثراً. كان لا يتكلم العربية إلا إذا توجّب عليه تبليغ ما أراد قوله، فيما عدا ذلك تدفقت التركية طول الوقت من فمه. لما نودي على الشيخ والي وخرج إلى الفناء انحنى علي آغا على الشيخ عبد الله وهمس في أذنه: راكي؟ فأجابه الشيخ عبد الله بكل حذر: في هذا المكان لا يوجد شيء من هذا القبيل. عند ذلك ابتسم ضابط القوات غير النظامية الألباني ساخرا ونعت الشيخ بالحمار.

لكن في اليوم الموالي قام علي آغا بزيارته في غرفته وكأن شيئاً لم يكن. لم يتوقف عن الكلام حتى لاسترجاع النفس، تهافت على النرجيلة وأخذ منها أنفاسا متتالية وهو يطلق فيضا من الكلام باللغة التركية رافقها بحركات يديه التي كانت تمزّق الهواء الذي غصّ بالدّخان. عندما نهض في آخر الأمر من مكانه وفعل الشيخ مثله طوّق حزام هذا الأخير بذراعيه وكأنه أراد أن يختبر قواه. لم يثق الضابط الألباني في قوة الطبيب الهندي كثيراً لأن قبضته كانت رخوة وضعيفة. لكنه ما لبث أن طار في اللحظة الموالية في الهواء، سقط برأسه على الحشية بينما وقع بعجزه على الأرضية وتمددت رجلاه قريباً من النرجيلة. نهض من مكانه ونظر إلى مضيفه باهتمام لأول مرة. نحن الاثنان سوف نتّفق في آخر الأمر! انتصب واقفا. لا بأس أن تدعوني إلى تدخين نرجيلة أخرى عندك. ثبّت قبضتيه في خاصرتيه. أريد البقاء قليلاً. بعد أن استعاد ثقته بنفسه أمام الشيخ انتقل إلى العربية واستمر بكل حماس في رطانته المعهودة، لكنه تحدث هذه المرة طبعاً عن البطولات التي قام بها في حياته. وتوضيحاً لما كان يقول، طوَى كمّيه وساقي سرواله إلى أعلى وأشار إلى نُدوب. تتبّع بإصبعه خارطة جروح قديمة ساعدته على الافتخار بها وقول ما شاء. في الجبال عندنا حتى الأطفال يخاطرون بحياتهم. كل من أغاظ تركيا كسب احترام

الآخرين. كنت الأطول لسانا، سدّد التركي سلاحه في اتجاهي فلم أخف، هشمت الرصاصة عظم القصبة. زاد فمجّد عظمته ثلاثا ثم صرح بأن الطبيب صار الآن رفيقاً له ولذلك هو مضطر لأن يطلب منه خدمة طفيفة تتمثل في مدّه بقليل من السمّ، سمّا بقدر ضئيل جدّاً، قوي الأثر وفعال، قال إنّ له عدوّا يجب حمله على السّكوت. لم يتفاجأ عندما فتح الطبيب علبة صغيرة للتو ومده بخمس حبات أسقطها بحذر في كيس صغير تدلى من رقبته. لو سأل الطبيبَ عن الحبات لقال له الحقيقة، أنه لم يناوله سوى محضًرا من كلوريد الزئبق، مُدرّاً للبول ومُنشّطاً للحوصلة الصفراوية وكذلك مسهلاً لا يضاهيه آخر. وقبل أن يخرج احتضن الباشيبازوك الشيخ غصبا عنه وناشده أن يتناولا كأسا سوية. ليس الآن وإنما في المساء، في آخر المساء تجدني في غرفتي.

لمّا عمّ الهدوء في مستراح القوافل تسلّل الشيخ عبد الله، والخنجر في حزامه، إلى غرفة آغا خان. سوف لن يتفطّن أحد إلى شيء، ثم إنه يستطيع العودة إلى غرفته متى شاء. هو ذاهب فقط لشرب كأس، من أجل الحكايات الشيقة التي قد يرويها الألباني مرة أخرى. ثم إنه في حاجة لأن يرفه عن نفسه مرة دون تستر أو خوف. لما وصل وجد أن التحضيرات للوليمة قد انتهت: في وسط الغرفة انتصبت أربع شموع أمام فراش يشكو العزلة، وجدت بجانبها سلطانية بها شربة وأخرى بها لحم مدخّن، بعض أنواع السلاطة وصحفة بها لبن زبادي. صُففت المأكولات حول زجاجتين، الأولى نحيفة وطويلة والثانية في شكل قنينة قصيرة ومسطحة. لُفت كل من الزجاجتين في خرقة مبللة لتبقي على برودتها. حياك الله، يا أخي. هل أدهشك ما على المائدة؟ هل ظننت أن ألبانيا لا يحذق فنون الشرب؟ تعال، اجلس بجانبي. جرد خنجره من غمده ورمى به جانباً، ففعل الشيخ مثله قبل أن يجلس. تناول علي آغا قدحا صغيراً، تفقده بكل

دقة، مسح داخله بسبابته، ملأه تماماً بعرق الزجاجة الطويلة والنحيفة وقدمه إلى ضيفه بانحناءة طفيفة. أثنى الشيخ عبد الله على المضيف وهو يتناول منه القدح الذي أفرغه في جرعة واحدة. وضع القدح على الأرض في وضع مقلوب ليعبر عن استعداده للشرب وأن الأمور تسير على أحسن ما يرام. تواصل الحفل بتوالي الأقداح بينما خفّفت جرعات الماء من حرقة الحلق وتناولَ النّديمان الأطعمة بالملاعق. كان الضابط الألباني في الحقيقة ابتدأ الحفل قبل مجيء الشيخ عبد الله وغادرت سفينته الميناء منذ أمد وها هي الآن تنشر أشرعتها في عرض البحر، لكنه، رغم ذلك، واصل ابتلاع القدح تلو الآخر دون أن يفقد التّحكّم في نفسه أو ينسى شوقه إلى الملاحم. عندنا، في الجبال، عندما يتشاجر اثنان فإنهما يخرجان سلاحهما ويهدد كل منهما بقتل الآخر. وهنا توقف علي آغا عن الكلام توقفاً دراماتيكياً. وهكذا يواصلان شجارهما إلى أن يتفقا، أمّا إذا حدث أن ضغط أحدهما على الزناد مسبّقا فكثيرون هم الذين يُردونه بدورهم قتيلاً.
ما إن انتهى الباشيبازوك من كلامه حتى أخذ يتفرّس في وجه نديمه لعله يكتشف علامات غير ملائمة تنمّ عن ذعر أو احتقار. لكنْ نظراً للمرح الذي بان على وجه الشيخ عبد الله، أمسك بالقنينة وكله رضىً، صب في راحتيه عطراً وبلل به خديه. كذلك فعل الشيخ عبد الله. انتظرْ، لا تأت بحكاية أخرى! لقد ملّ مظاهر الخشونة، كان يحن إلى السحر، يريد أن يتخلّص من إملاءات الجلاد وشذا العطر العبق بقول بيت من الشعر يتماشى واللحظة، شعرا كان لكلماته الأولى مفعول طلقات المدافع وجعل الألباني يحجم عن فعل شيء آخر:

جنّ الليل، يا صاح

فأجّجْ نارنا خمرا.

كذا، عند سبات الدّنيا،

نقبّل الشّمس في الدّجى.

قال السّطرين الأخيرين كمن يفصح عن حبّ. يا لها من قصيدة! أخذ وجه علي آغا في البريق. هل توجد قصائد مثل هذه حقا؟ قبّل الشّيخ على خديه مرّات متتالية إلى أن أمسك هذا الأخير وجه الألباني بين يديه وأبعده عنه بكل لطف. أفرغا قدحا آخر واتكآ إلى الخلف وهما يأخذان أنفاسا من النرجيلة وينفخان بكل تلذّذ سحاباً سميكاً من الدّخان في الهواء. قيّم علي آغا النتيجة التي توصّلا إليها وعبّر عن كامل رضاه بخصوص المراحل التي مرت بها معصيتهما المؤدّبة. لكن ما لبث الرضى أن تبدد، صار الباشيبازوك مضطربا وبدا في حاجة إلى أعمال مميزة أخرى. انتصب واقفاً، ألصق راحتيه ببعضهما وصاح بأعلى صوته: الآن عرفتُ، يا أخي. علينا أن نقوم بشيء عظيم، بشيء عظيم حقاً. سأل الشيخ بدون اكتراث: وهل من شيء أعظم من هذا؟ من واجبنا أن نهدي صديقنا الحاج والي إلى العقيدة القويمة. إنه لا يعرف كيف يكون التمتع بالحياة. لاحظ الشيخ أنها فكرة مضحكة حقاً. هل تعرف ضحيّة أخرى في حاجة إلى هذا أكثر منه؟ لا! هكذا عبّر الباشيبازوك عن تصميمه. لا بدّ أن تكون الضحية الحاج والي ولا أحد غيره. سنعلّمه السكر أوّلاً بأوّل إلى أن يحذقه. وسيشكرنا عندما تصير حاله مثل حالنا، على أحسن ما يرام. ولِمَ لا؟ هكذا بدأت أفكار الشيخ تصوّر له الأمر، من يدري؟ لعلّ هيئته تؤهله لاعتناق الديانة المسيحية سرا، لعلّه لا ينتظر إلا دعوة فقط. دعوتنا. نهض من مكانه وقال في تسام إنه سيذهب لإحضار الحاج والي.

كان التاجر قد أوى بعد إلى فراشه. تعجب للرائحة القوية التي انبعثت من صديقه الشاب وكذلك من المفاجأة التي وعده بها الطبيب الهندي بصوت يغلب عليه تحمس الأطفال. تبعه مكرهاً حتى غرفة علي آغا التي

لم يدخلها من قبل. انتفض الباشيبازوك واقفاً، أمسكه من كتفيه وأجلسه بقوة على إحدى المخدات. لم يلبث أن وجد نفسه ممسكاً بقدح لم يلبث أن امتلأ. ارتاع الحاج والي بعد أن أدرك أن الضابط قدّم له خمرا. دفع عن نفسه ما قُدّم إليه بتقزز. تقلّصت عضلات وجه الباشيبازوك مبرزة شعوره بالإهانة وبقي متشبثاً بدعوته. رفض الشيخ والي بكل ثبات. برزت على وجه علي آغا الذي صار مخيفاً أصلاً علامات الازدراء ثم أوصل القدح إلى شفتيه. جرع ما في القدح ثم زاد فلعق شفتيه، فرض على ضيفه نرجيلة وبدأ يخطط للهجوم الموالي. احتج الحاج بدون جدوى، قال إنه، طول حياته، اجتنب هذه المعصية ووعد أن يشرب معهما في الغد، هدد بالشرطة واستشهد بالقرآن. ما إن انتهى من ذكر آيته حتّى تنفّس علي آغا تنفساً عميقاً. المعصية هي المعصية وغدا هو غدا، أمّا ما يقوله القرآن فأنا أعرفه أيضاً، بل أعرفه أحسن. ثم لوح بساعديه إلى الأمام وكأنه يوزع صدقات على حضور. قال في نبرة المعلّم، وكأنه عالم من علماء الأزهر، إن القرآن حكم على الخمر مرات عديدة. ثلاث مرات. أبرزَ ثلاثة من أصابعه ثم رفع يده عالياً. وفي كل مرة من المرات الثلاث نجد قولاً مختلفاً. كيف؟ المرة الأولى: الله يحذر من المبالغة في السكر. ونحن نسأل: متى كان ذلك؟ كان ذلك قبل أن يتناول طعام العشاء. المرة الثانية: الله تناول طعام العشاء بعد، الله. . نعمْ، شرب بعض الكؤوس وغثت نفسه، لذلك نجده يأمرنا بكل صرامة. . ألا نسكر. . أبداً. وهذا ما ينوي القيام به كل من يتناول الخمر ولا يتحمله. ثم تأتي المرة الثالثة: الله يحرم السكر بتاتا. . وبدون رجعة، وهل تعرفان متى كان ذلك يا أخواي العزيزان؟ حدث ذلك في الصباح الموالي لما أفاق الله من نومه بخُمار هائل. ههْ! كيف تعمل إذن بقواعد من صدَع رأسَه الخُمار قبل أن تجرب بنفسك ولو جرعة واحدة؟

قبل أن يصل علي آغا إلى مغزى حكايته التي أعجب بها هو نفسه انتفض الحاج والي من مكانه وغادر الغرفة بسرعة دون أن يقرأ للخسارة حسابا - ترك طاقيته، شباشبه وغليونه وراءه. لم يجرؤ الباشيبازوك على ملاحقته. شرع، عوض ذلك، في رش العطر على الطاقية والشباشب والغليون وأخذ يشتُم التاجر بنعته بالحمار في أكثر من لغة كان يحذقها. دعا ضيفه المحترم إلى عدم إتلاف ما تبقى من طعام العشاء وهكذا تناولا ما فيه الكفاية من الشربة واللحم المدخّن ثم ساعدا المعدة على الهضم بتدخين نرجيلة أخرى. عمّت لحظات من السلم والهدوء لم يلبث الباشيبازوك أن أحبطها من جديد. فجأة وبنبرة مثيرة أعلن أنه مشتاق إلى راقصات جميلات، إلى شيء من الفرجة حتى يستطيع إمتاع عينيه وإسعادهما. قال الشيخ عبد الله: مثل هذا محجر في الوكالة. صاح علي آغا غاضبا: من الذي منع هذا؟ أجاب الشيخ: الباشا شخصياً، الباشا بكل ما أوتي من حكمة. قال علي آغا بينما كانت أصابعه تفتل شاربه المشوش في شكل شوكتين قائمتين: إذا كان الأمر كما تقول فيجب على الباشا أن يرقص لنا بنفسه. ثم اندفع خارج الغرفة.

أطلق الشيخ عبد الله زفرة من الأعماق ثم نهض من مكانه. لقد خرجت الأمسية عن نطاق السيطرة. ألح عليه صوت سكران بداخله: هذه هي فرصتك الأخيرة. عد إلى غرفتك وأغلق الباب من الداخل ثم اركن إلى النوم. لكن الشيطان حرّك نفس الوتر وأوهم الشيخ بوجوب الوقوف إلى جانب الباشيبازوك في لخبطته تلك، وهكذا التحق به في الرواق، أنزله من على الدربزين وترجاه بالكلمات وبقبضة قوية من ثوبه الأحمر المتكسّر أن يعود إلى غرفته. لكن علي آغا لم يستمع إليه إلاّ بالقدر الذي يستمع به إلى ما قد تقوله زوجته. استاء من تلك النصائح المحزنة واحتد غضبه. أخذ يتخبط ويضرب هنا وهناك كملاكم مجنون لا تنال لكماته إلاّ من

الهواء. ظلّ يلطم في الهواء ثم توقف لحظة طأطأ بعدها رأسه وبدا وكأنه يتنصت، أو ينتظر الوحي. تركه الشيخ عبد الله وشأنه. لعل العاصفة مرّت وبإمكانه أن يذهب. لا، أبداً، اندفع الباشيبازوك صوب الباب الأقرب منه، فتحه بقوة مستعملا كتفيه ودخل مترنحا إلى فضاء غمره ما يكفي من نور قمر قد انتصف ونامت فيه امرأتان جاوزتا سنّ الشباب على الأرض بجانب زوجيهما. استيقظتا من نومهما ومن يدري ما الذي تصورتا رؤيته. لكن مهما يكن من أمر فإنهما لم تبديا خوفاً بالمرة، دافعتا عن نفسيهما ـ وهما تنهضان من مكانهما ـ بوابل من الشتائم الهمجية كان لها وقعها حتى على ضابط من القوات غير النظامية. ارتدّ على أعقابه أمام المرأتين المغمغمتين ومضى متمايلاً عبر الدرج الضيّق إلى الأسفل ثمّ ارتمى على حارس الليل الملفوف في ثيابه والذي انتقل من الشّخير إلى الزّعيق. كان من بين الخدم الذين ناموا في الفناء وبدؤوا في الحراك أيضاً مساعد علي آغا، ذلك الشاب الألباني قوي البنية الذي طلب من الشيخ أن يساعده على إرجاع مخدومه إلى غرفته. غير أنه بات من الصعب تهدئة الباشيبازوك، كان يركل ويبصق ويتخبط ويصيح.. أيها الكلاب، لقد هتكتُ أعراضكم! .. إلى أن جاء خدم آخرون وأحكموا إمساكه. صعدوا به الدرج وأرغموه على الدخول إلى غرفته أمام أعين جميع المقيمين في مستراح القوافل الذين خرجوا من غرفهم بسبب الانزعاج أو فضولا وصاروا بدورهم عرضة لشتائم الألباني الثمل: أيها المصريون! أنتم جنس من الكلاب! لقد هتكتُ أعراضكم، هتكت عرض الإسكندرية والقاهرة والسويس! كانت تلك كلماته الأخيرة، قالها بعد أن ارتمى في فراشه وقبل أن يغرق في سبات عميق. أثناء العراك قلب أحد أولئك الذين هبوا للمساعدة زجاجة الراكي فاضطر الخدم الذين ارتاحت نفوسهم للخروج حفاة من الغرفة والسير وسط ذلك السائل ذي الرائحة الكريهة. رفع الشيخ عبد الله القنينة ورش

كمية كبيرة منها على الفراش وعلى الأرضية ثم ناولها خادم علي آغا خارج الغرفة. طمساً للآثار، كما قال. لما عاد إلى غرفته شاهد في الجهة الأخرى من الرواق الحاج والي وقد نظر إليه طويلاً وبيده مصباح. لم يكن في نظرته لوم كما كان يتوقع. كانت فقط كلها خيبة وأكثر نظرات القاهرة كآبة.

* * *

في شهر صفر من سنة ١٢٧٣

شملنا الله بنعمته وبرحمة من عنده.

الحاج والي

لم تبق لي إلا نصيحة واحدة قدمتها إلى صديقي الذي ضل الطريق الصواب. قلت له: انطلق إلى الحج توا. كنت أعلم جيداً ما سيأتي بعد ذلك. كل المقيمين في مستراح القوافل سوف لن يكون لهم حديث إلا عن تلك الليلة، عن الباشيبازوك الألباني الذي لم يكن لخبثه مثيل وعن الطبيب الهندي الذي اتضح أنه منافق إلى أبعد الحدود. سوف لن يحاول أحد أن يتذكر أن هذا الطبيب الأجنبي شُفي الكثيرون على يديه دون أن يطلب منهم أجرا. لقد شُوّهت سمعته. لو بقي في القاهرة لكان لزوما عليه أن ينتقل إلى حي سكني آخر. من ذا الذي كان يستطيع أن يفهم تصرفه ذاك؟ كان رجلاً طيّبا. ورغم ذلك، لما كذب عليه الشيطان، ضرب بشرفه وسمعته الطيبة عرض الحائط مقابل تناول بضعة أقداح من الخمر برفقة ألباني مجنون. يا لها من خسارة!

القاضي: شيء فظيع من شأنه أن ينير لنا الطريق بما فيه الكفاية. إلاَّ إذا رأى حضرة الوالي المحترم أن مواصلة قراءة مثل هذه البشاعات يساعد

على الوصول إلى الحقيقة. لسنا في واقع الأمر في حاجة إلى أدلة إضافية - كان إيمانه تمثيلية.

الوالي: لو اعتبرنا كل من شرب خمرا من حين لآخر خارجاً عن الدين الحق، لتقلصت أمة المؤمنين منذ أمد.

القاضي: هل هذا هو اليوم الموقف الرسمي للباب العالي؟ يقال إن السلطان عبد المجيد يعشق السمّ الأحمر القادم من فرنسا.

الوالي: أنا أتحدث عن وقائع ملموسة. هناك من أخبرني هنا أن الرّاكي يباع حتى في هذه المدينة المباركة.

الشريف: ما الذي نستطيع فعله للحول دون القيام بمثل هذا؟ العقوبات..

القاضي: ..لا يتمّ تطبيقها بحزم.

الحاج والي

نعم، صحيح أني كنت نصحته بعدم انتحال شخصية رجل من بلاد فارس نظراً للاحتقار الذي قد يكون عرضة له في كل مكان وأنه، في الحجاز، ربما يكون كذلك عرضة للضرب أو حتى للموت. عمِل بنصيحتي بكلّ طواعيّة، نعم، لكن لماذا كانت النتيجة أنه لم يكن ذلك الرجل الذي ادعى أنه هو؟ رغم أنه، وهو ما لم أتبيّنه حتى اليوم، ادّعى أنه شخص بعينه! لقد اكتنفه الغموض . تكلم عديد اللغات. لكن حيلته لم تنطل عليّ. عرفتُ طبعاً أنه كان من المنحرفين. لا، ليس كما تقولون أنتم، لا أظن ذلك. لقد أخفى شيئاً من نوع آخر. تصرّف كامل الوقت وكأنه كان ينتمي إلى مذهب الشّافعية، لكن الأمر لم يكن كذلك. فهمتُ أنه كان يطبّق التقيّة كما علّمته عاداته وتقاليده. أتعلمون أن الشيعة يعتبرون

أنه من حقهم إخفاء إيمانهم الحقيقي إذا اقتضت الظروف ذلك، مثلاً إذا كانت حياتهم في خطر. كان ذلك منطلقه الحقيقي. كان شيعياً. وكان بدون شك صوفياً. ولا أظن أنه كان شيئاً آخر عدا هذا.

الشريف: كان صوفياً، نعم، أدركنا الحقيقة. نحن نعرف طبعاً أن الصوفيين يتغنون بالخمر.

الوالي: يتغنون به كصورة، كصورة فقط. وهذا لا يعني أبداً أنهم يعاقرون الخطايا أو يشجعون عليها.

القاضي: ولماذا يختارون الصورة المنكرة؟ لنترك كل هذا ـ ما النفع من معرفة إن كان شَرِب الخمر أم لا والحال أنه كان شيعياً. تكرار اللعنة لا يضيف إليها شيئاً جديداً.

الشريف: إذا كان شيعياً وأخفى هذه الحقيقة ليس عن الذين سافروا معه فحسب بل أيضاً عن قرائه، فهذا لا يغيّر في شيء كونَه أدّى فريضة الحج بوصفه مسلماً وليس، كما كنا نخشى، كمدنس للحرمات.

الوالي: هذا شأن بينه وبين الله. السؤال الأهم يبقى: هل قام بعملية تجسس؟ لعله في هذا الخصوص، وهنا قد تكونون في افتراضكم على صواب، قدّم أيضاً لرؤسائه معلومات مزورة.

القاضي: هل أصبحنا الآن نعتبر كذب الشيعة خصلة من خصالهم؟

الوالي: قد يخدم هذا مصلحتنا.

الشريف: هم أيضاً يحبّون الأماكن المقدّسة، لا شكّ في هذا.

القاضي: يحبّون الأماكن المقدّسة إلى درجة أنّهم يريدون وضعها تحت سيطرتهم.

الوالي: علينا أن نتعمّق أكثر. ريتشارد برتن هذا بارع في التكتم على

الأسرار، وهذا ما يقلقني. أناس من هذا القبيل يخفون شؤونهم ومشاغلهم عن أقرب النّاس إليهم. حتى عن أنفسهم. هل كان حقاً درويشا؟ واحداً من بين أولئك الذين اختاروا طريق الضلال؟ هل كان، فضلاً عن كلّ هذا، مخلصاً لهذا الطريق؟ يقول في موضع ما من تقريره شيئاً جلب انتباهي: بقي لي الآن أن أسكت لأن الطريق التي يسلكها الدرويش لا يجب أن تكتشفها أعين دنيوية. هل يقول الحقيقة في هذا الموضع؟ أم تراه كتب هذه الجملة لمجرد جلب الانتباه إلى نفسه؟ البشر يتلهّفون دوماً إلى المعرفة التي تغيب عنهم. فكّروا جيّدا: إنه على كل حال يرفض علناً أن يمدّ بني وطنه بالمعلومات، وكما نعلم، فإن البريطانيين مدمنون على الاستنارة واستجلاء الأمور إدمان اليمنيين على القات. إنه يضلل حتى بني جنسه. هو يطبّق التّقية إذن!

القاضي: يبدو أنه يضللنا كلّنا.

الشريف: الله أعلم.

* * *

في اليوم الموالي لم يصدّق ما جادت به عليه ذاكرته. هل من المعقول أنه فعل كل ما فعل؟ أيّ شيطان ركبه؟ إنه رزمة معقدة التركيب: إنسان وشيطان، يحمل بين جنباته مخرّبا كبيراً وممثّلا ساميا للشيطان يعطّل سيره كلما نجح في قطع ثلاث خطوات. ما من أحد تبلغ به السن منتصف الثلاثينات دون أن يكون خاب أمله في شخصه مراراً وتكراراً. لماذا ينتظر حتى يكون محل شك الآخرين إذا كان يستطيع أن ينكشف لنفسه بنفسه؟ يا للدناءة، لكنه يكاد يكون فخوراً بكل هذا. شعر بقدر كبير من الأمان، من عدم الخوف، وكاد الخوف ينصحه بتحاشي الشيطان قدر الإمكان. الشيطان الذي يسكن بداخله. أمر عسير. في الصباح الموالي، لما كان في

غرفته وبدا مطوقا بمدينة صاخبة من جميع الجهات، أحس بالخوف يقترب وكأنه وجع يجود به جرح مزمن. الخوف من تصرفه الخارج عن نطاق السيطرة والمفاجئ. هناك أشياء قد يُغَضّ عنها الطّرف في القاهرة، أمّا في مكّة فإنه قد يخسر كل شيء مرة واحدة. تفسّحْ في جلستك أيّها الخوف ومرحباً بك كرفيق لي. الحاج والي كان على صواب: الأعقل هو مغادرة المدينة في أقرب وقت ممكن. سيجد أهل الحي في الطبيب الذي سقط من الأعالي موضوعاً كافياً لأحاديثهم.

* * *

قضّى يوماً كاملاً في عبور الصحراء قبل أن يتخلّص من المدينة وتلك الذكرى التي يندى لها الجبين. ظنّ الأفق الذي سار في اتّجاهه لساعات نذير خير، نشطت حواسّه بمفعول الهواء والحركة وصارت في حدّة السكين. كانت الصحراء أرضاً شوهتها العاهات، أرضاً خراباً وعرة مرتفعاتها مغضّنة كقشرة الجوز لكنها نشّطت خيال الشيخ عبد الله الذي شعر في المعسكر الليلي بأكثر حيوية من الصباح الباكر وهو ما زال لم يبرح فناء مستراح القوافل بعد، برفقة حجيج آخرين ساقوا جِمالهم إلى نقطة التجمّع قبل الانطلاق. كان الحاج والي والشيخ محمد رافقاه حتى باب المدينة بلفتة وداع كلّها لطف جعلته للحظة يأسف لفراقهما اضطراراً. طلبا منه فقط أن يصلّي مكانهما مرّة عند قبر الرسول وأغدقا على الصديق والتلميذ بالدعاء والتبريك. لم يشبع من رؤية المناظر الطبيعية القاحلة، الصخور الزرقاء الداكنة التي كانت تغيّر لونها كلما اقتربوا منها. بدا له وهو يسير في عمق الأودية وكأنه يتفحص أحشاء الصخور، خصلات شعرها وطبقاتها المختلفة، عُقدها. نموّ لا يقدر على رؤيته إنسان. كانت الأرض جرداء في الصحراء، والسماء شفّافة. استمتع بإحساسه أنّ له جسماً وسط

جساءة العضلات وبعد أن تعوّد على أوجاعه. عبروا بعض الأودية، مجاري أنهار في عرض الفيضانات العارمة التي أغرقتها بين يوم وليلة. كانت مقفرة مجدبة حتى آخر ما تبقى من ذكريات قتلها اليُبس. كانت السويس على بعد ثلاثة أيام فحسب، وأحس الشيخ عبد الله في المساء أن هذه الأيام الثلاثة ستبعث فيه الحيويّة من جديد. بدأ من الآن يشعر بالتحرر. كان مستعدا لتحمل الأتعاب وكذلك المخاطر التي غابت تقريباً على طول هذه المسافة لكنّها كانت بدون شك تنتظره مستقبلاً في صحراء الحجاز. قست عليه القاهرة. أخيراً تخلّص من ذلك التكلف والنفاق اللذين فرضهما عليه القيام بدور الطبيب، تمكّن من العودة إلى حياة ذلك النوع من الرجال الذين أجلّهم من أجل صدقهم، كرمهم وتصميمهم. التفت إلى ما حوله فرأى معالم الضيافة على بداهتها تغزو جميع نيران المعسكر. بقيت الحضارة في الخلف، لم تكن لها الشجاعة الكافية لتخطّي أبواب المدينة. بعد أيام قليلة ستسقط كل آداب اللياقة المتحجرة، كل ضروب التصرف الدالة على ضيق الأفق. لو لم يكن الأمر صعبَ التصوّر لصعد إلى أعلى الربوة التي عسكروا في أسفلها ولأسمعَ أرجاء الدنيا نشوته منتظراً صدى أو إثباتا لوجوده. عوض كل هذا شرب قهوة مركّزة. لم يكن في حاجة إلى منشطات إضافية. مجرد التفكير في المشروبات الكحولية كان بالنسبة إليه شيئاً مقيتا. هل سيكون للباشيبازوك الألباني أيضاً نفس الشعور عندما يعود إلى مركز عمله في الحجاز؟ زادت شهيته، التهم وجبات ربما اعتبرها بالأمس القريب غير مستساغة. استلقى على التراب، أَفضلِ فراش على الإطلاق، في هواء سوف يسهم في تعافيه. أبقى على عينيه مفتوحتين إلى أن اختفى آخر ضوء اصطناعي داخل المخيم وهو يرتعش والتهم الظلام البسيطة.

في الصباح الموالي، بعد أن جهّز دابته للخروج، مرّ به رجل شاب،

أمسك برسن الجمل وحياه بحرارة ملحوظة. ألم تتعرّف علي؟ كان ذلك الطّفيلي الذي فرض عليه نفسه في القاهرة. قال له الحاج والي ـ الذي برع في اشتمام رائحة كل ضروب المكر براعةَ الصقر في اكتشاف فريسته ـ آنذاك منبّها، إنّه يبحث عن أكتاف قويّه تحمله إلى مكّة. سوف لن يتأخّر في أن يبيّن لك الفائدة التي سوف تجنيها من اصطحابه لك عندما تكون في مدينته مسقط رأسه. فعلا، لم ينتظر الرجل طويلاً وادعى قائلاً: أعرف مكة كما أعرف منزلي. انتقلت معالم وجهه كما في المرّة السّابقة من الوقاحة إلى التملّق وكأنّها أرجوحة غير مضبوطة على الوجه المطلوب. نعم، أنا هو، محمد البازيوني، ويمكنك اعتبار لقائنا من جديد بركة من البركات. غمغم الشيخ عبد الله: العناية الإلهية تحدوك دائماً. ثم أردف بصوت جهوري: ما الذي جاء بك إلى هنا؟ هل من المعقول أن تلقي سؤالا كهذا أيها الشيخ؟ أنا في طريق العودة إلى بلدي بعد سفرة قمت بها إلى اسطنبول. إلى أين؟ كيف يا شيخ؟ يبدو أنك نسيت كل شيء. إلى مكّة المكرّمة، أعلى الله شأنها. سمعت الكثير عنك، أنت تتمتع بشهرة كبيرة. أنا أراقبك منذ البارحة، بكل إعجاب، ومقدَّر أن أرافقك في سفرتك إلى الحج، ستكون لك فائدة في مرافقتي لك، ليس في مكة، أم القرى، وحدها التي أعرف فيها كل حجر. وأهلها؟ أعرفهم طبعاً أكثر من معرفتي للحجر. سأل الشيخ: ألست صغير السن شيئاً ما للإلمام بكل هذه المعرفة؟ لم يصدر عن الرجل الواقف أمامه بدون لحية، والذي كان وجهه بارز العظام أشبه ما يكون بجمجمة الموتى، أي تردّد. لقد سافرت كثيراً. وعندما أسافر أكون دوماً يقظا وأقدّر الإنسان حق قدره. تعجّب الشيخ عبد الله من مثابرة هذا الرجل وإلحاحه. لا بدّ أنه انحدر من عائلة موسرة. ثقتُه بنفسه كانت مؤشرا على أنه ترعرع في وسط تكتنفه رعاية كبيرة. قال

الشيخ متأملا: العبد في التفكير والرب في التدبير. حقاً، عجائب الدنيا كثيرة. مرحى لكلّ الذين ألمّوا بها، المجد والشرف لهم. أرجوك الآن أن تطلق سبيل جملي، إني لا أريد أن أكون آخر من في القافلة. سنلتقي هذا المساء، بدون شك، من جديد، يا شيخ. كسابقيه سار هو أيضاً بعدهم بقليل في طريق محفوف بالنّخيل بدا وكأنه شارع نصر يمتد إلى العدم. في مساء الغد سيصلون إلى السويس، إلى البحر. أحس الشيخ أن مناسك الحج ستبدأ حقاً هناك.

* * *

في شهر ربيع الأول من سنة ١٢٧٣

شملنا الله بنعمته وبرحمة من عنده

محمد: ساورني الشّك في أمره من أوّل وهلة. من جاب الدنيا مثلي يشتمّ رائحة الدّجل حتى في عكس اتّجاه الرّيح. اعلموا أنّي أعرف اسطنبول، كنت في البصرة وسافرت حتى الهند، وهذا الرجل يدّعي أنه أصيل الهند. شيء فيه جعلني أدهش للتوّ.

الوالي: ماذا؟ رجاءً، تكلّم بأكثر دقّة!

محمد: ليس شيئاً معيّنا، مجرد إحساس، تخمين. كان مختلفاً نوعاً ما، كان يراقب كل شيء دون أن يجلب الانتباه، لكنه جلب انتباهي، كان دائماً يتكلم ببطء، بحذر. مثل رجل حكيم، هكذا بدا الأمر لبعض الرّجال الآخرين، لكني قلت في نفسي إنه يحتاط كثيراً، ربما خوفاً من أن يقول شيئاً في غير محله.

القاضي: هل تستند في شُبهاتك فقط إلى تخمينات من هذا القبيل؟

محمد: لكني لا أختلق كل ذلك. سيتبيّن لكم أني كنت مصيباً حقاً.

الشريف: للإيضاح فقط: اسم أبيك يدل على أن عائلتك ليست أصيلة مكة.

محمد: نحن أصيلو مصر، لكننا نعيش هنا منذ زمن طويل، منذ بضعة أجيال، نحن مكّيون حقيقيون.

القاضي: كن أكثر تواضعا، أيها الشاب. عائلة الشريف تسكن هذه المدينة منذ عهد القُصير. بضعة أجيال لا يقام لها وزن تقريباً.

الوالي: أرجو أن نتركه يواصل الحديث.

محمد: أثناء الصلاة المشتركة الأولى وقفتُ وراءه بالضبط. لأتمكن من مراقبته بطريقة أنجع. أعرف أن كل من ليس منا واعتنق ديننا يقوم بهفوات حتى بعد عديد السنوات. كنت أعلم أنه لو أخفى شيئاً لتبيّن لي من خلال طريقته في الصلاة.

الوالي: وماذا كانت النتيجة؟

محمد: لا، مع الأسف، لا شيء. لا بد أنه تعلّم كما يجب. شيء ممكن، أليس كذلك؟

القاضي: ما الذي هو ممكن؟

محمد: أن يكون تعلّم الصلاة بجميع تفاصيلها ثم طبّق ما تعلّم بكل عفوية.

القاضي: هناك طرق عديدة لتعريض النفس للخطر، منها استغلال الصلاة لأغراض شخصية.

محمد: لم أغفل مرة واحدة عن صلواتي وأنا متأكد من أني أثناء أدائي

لها لم أخطئ أبداً. أليس من واجبي أن أكشف القناع عن مدنّسي الحرمات والمنافقين عندما ألاقيهم.

الوالي: حسنا فعلتَ. لكن الوقت حان لتمدّنا بأكثر ممّا قلت. حتى الآن لم تفلح في إقناعنا بأنك تمكنت من كشف القناع عن الشيخ عبد الله كمدنس للحرمات ومنافق.

محمد: لماذا تسائلونني إذن؟ هل ترضون بضياع وقتكم الثمين بدون مبرر؟ لا! أنتم تعلمون مثلي تماماً أنه منافق. لكنه كان ماكراً، ماكراً كما هو معهود لدى الهنود. في السويس كنا كثيرين في غرفة واحدة، عانينا من الضيق القاتل وكان الكل متجهّما لأننا قضينا عدة أيام في انتظار السّفينة، أمّا هو فاستغل الوقت أحسن استغلال. لقد أقرض الآخرين المال بسخاء. أقرض أناسا قتلهم الشحّ ومقتّرين إلى أبعد الحدود. ما إن استلموا منه بعض القطع النقدية حتى صاروا لطيفين جدّاً وعاملوه بحرارة. أطروا عليه الثناء. قدّموا له الحلويات. خاطبوه بعبارات منمقة وتملّقوا إليه حتى عندما كان خارج الغرفة. هذا الشيخ عبد الله، يا له من رجل عظيم، يا له من رجل رائع! اختلفوا حتى فيما بينهم بخصوص من سيكون له شرف استضافته في مكة.

القاضي: وأنت، هل أهداك مالا؟

محمد: قليلاً جداً، بضعة قروش فقط. إلى ماذا كان سيؤول الأمر لو أني كنت الوحيد الذي رفض سخاءه؟ نعم، لكنت بذلك أثرتُ شكوكه! لكنّ ذلك لم يجعلني أنام، رغم قصة القروض أبقيت على عينيّ مفتوحتين. وذات مساء وجدت آلة في صندوقه الذي نسي إقفاله. وجدتُ جهازا كنت أعلم تماماً أن لا درويش من الهند يحمله معه. كانت قطعة

عجيبة لم أر مثلها من قبل. كانت ضربا من صنع الشياطين. سألتُ من هو أدرى بالموضوع.

الوالي: وماذا كانت النتيجة؟

محمد: كانت آلة السّدس.

القاضي: وما تراها تكون؟

محمد: جهاز معقّد جداً تقاس به النجوم. يقال إنه يصلح على متن السفن، لكن الشيخ لم يكن قائد سفينة بل رجلاً صالحا ـ حسب الظاهر. انتظرتُ حتى غادر الغرفة ثم قلت للآخرين إن الشيخ عبد الله كافر.

الوالي: ليست لنا معلومات في هذا الخصوص.

محمد: لم يثق الآخرون فيما قلت لهم. ارتكبتُ خطأً وحيداً تمثّل في أني ما كنت أبداً لأحسب أنهم سيحجبون أنظارهم عن الحقيقة الساطعة ولا يصدقون أنه كان كافراً. انتظرت أن نتشاور في الطريقة التي سنتصرّف بها إزاءه لكنهم، بالمقابل، هاجموني. حفنة من الانتهازيين الحقراء.

* * *

السّويس لا يمكن البقاء فيها إلا قسرا. بدا للشيخ عبد الله وكأن الحضارة تردّ العدوان بالعدوان في قرية غصت أزقتها وأكواخها بآلاف الحجيج وجب عليها إيجاد مأوى لهم. لا شيء يكون أسوأ من مجمع سكني لا تتمّ تهيئته تهيئة كاملة. وليس هناك من مكان أقل راحة من هذه المضيفة التي لا توفر أي نوع من الرفاهة باستثناء سقف يُؤوى إليه. ونظراً لأنّ المطر لا يهطل في هذا المكان فإنّ جميع الأسقف تكون عديمة الجدوى. الأفضل أن يقضّي المرء الليل في البالوعات عوض البقاء بين هذه الجدران التي تراكمت عليها الأوساخ. على أرضية تشققت بأكملها

وسكنت داخلها الصراصير، العناكب، النمل وحشرات أخرى. المضائف البسيطة تعوّد عليها منذ طفولته. لمّا كان يغيّر مع عائلته محل السكنى لأنّ أباه كان دوماً يعاوده الحنين إلى التنقل ولا يطيق إطالة البقاء في مدينة إيطالية صغيرة أو في منطقة فرنسية للاستشفاء. لكنه لم يزر قط مكاناً أُجبر فيه على تحمّل مثل هذه المكاره. وأقلّ ما يستطيع احتماله هي الأصوات: هديل الحمام في الخزانة التي ليس لها باب، صوت جِدّ مبحوح ومتحشرج من فرط التودّد إلى الحبيب، القطط العظيمة التي تطارد بعضها في خشب السقف وتعوي بمفعول شهوة لا حدود لها. فحتى الماعز المتسكع والبغال تدخل إلى المضيفة. لا تغادر هذه البهائم المكان إلا مكرهة، بعد أن تكون اقتربت كثيراً من أحد الأشباح الآدمية المستلقية أرضاً فضربها. وبدون داع يرتفع طنين البعوض كل ليلة ليروي على الأجسام الممددة قصة عذاب مريم العذراء وهي تقف أمام الصليب. ليقصّها أيضاً على نومه المرير.

* * *

كان لا بد من اقتسام الغرف مع مسافرين آخرين. في اليوم الأول قدّموا بعضهم لبعض وتناظروا بعين الريبة. حميد السمّان، شارب مسرف في العرض وصوت خافت، تعوّد على أن يستمع الآخرون إلى ما يقول؛ عمر أفندي، وجه مستدير وبدن هزيل؛ سعدٌ ـ نعم، هكذا، بدون اسم ثان ـ، الرّجل الذي له أسود بشرة رآها الشيخ عبد الله في حياته؛ صالح الشكّار ببشرته البيضاء على غير المعهود وتكلّفه. قضوا اليوم الثّاني في التّدخين وفي التّعرف على بعضهم. كان كلّ الرّجال أصيلي المدينة المنوّرة باستثناء صالح الشّكار الذي كان يعيش بين مكة واسطنبول، في عاصمتين كبيرتين من العالم كما يليق بأرستقراطي من الأعيان. كان الشيخ عبد الله

الوحيد بينهم في طريقه إلى الحج. عمر أفندي هرب من البيت لمّا أراد أبوه أن يزوّجه، رغم أنه لم يُخفِ أبداً احتقاره الكبير للنساء. وصلت به طريقه إلى القاهرة حيث سجل نفسه بجامعة الأزهر كطالب يعيش على الصّدقة. أما الآخرون فكانوا كلهم تجارا جابوا أطراف الدنيا وصنّفوا مخاطبيهم حسب ما لديهم من حكايات حول العالم. سافر سعد إلى بعيد، لقد وصل حتى روسيا، جبل طارق وبغداد. أما صالح فكان يعرف «سطنبول» كما يعرف الفناء الخلفي لمنزله. لم يكن الجزء الشرقي للبحر الأبيض المتوسط غريباً على حميد بحيث استطاع أن ينصح بمستراح للقوافل في كل مرفأ.

في اليوم الثالث فتحوا صناديقهم وأخرجوا ما اقتنوا من بضاعة ثمينة ليبدي فيها كلّ رأيه. من حين لآخر كان محمد يتصرّف مثل الصغار، تعجبه تحفة فيجعلها تنزلق بين أصابعه وتختفي إلى أن يضطر صاحبها طلبها منه بصوت جهوري، الشيء الذي لم يزعج أحداً مثل حميد الذي جلس على صندوقه المملوء هدايا لابنة عمه، أي لزوجته. بقطع النظر عن الصّندوق فقد كان حميد الحقارة عينها ـ لم تكن رجلاه في حاجة إلى حذاء، كان جلباب يشكّل لباسه الوحيد الذي تراكمت عليه الأوساخ فاختفى لونه الأصفر المائل إلى السّمرة وصار لا يبرز إلا إذا صادف أن انقلبت رقبته. ترك مواعيد الصلاة تفوته حتّى لا يُخرج ملابس نظيفة من صندوقه. كان حاجباه يتموّجان امتعاضا كلما دار الحديث حول المشروبات الكحولية في حين عبّر طرْفا شفتيه عن ولع غير معلن بها. كان يدخّن بشغف تبغ الآخرين ومن أحد جيوبه انطلق دوماً رنين ثلاثة قروش تصوّر أنه سينفقها يوماً ما. أما عمر أفندي فكان، على عكس حميد، فقيراً بدون موارد رغم أنه كان حفيد مفتي المدينة المنورة وابن الضابط الذي

كانت فرقة الحماية المرافقة للقافلة تأتمر بأوامره. عوّض عن فقره المؤقت برصيد قار قوامه التحيّز والنفور عبّر عنهما بدون ضوضاء وبكل رزانة وكأنه سبق له أن درسهما وقاسهما بحكمة. تبيّن أن سعداً الذي لم يتركه لحظة كان في السابق عبداً وخادماً وعميلاً ثم صار فيما بعد شريكاً تجارياً لأبيه. لقد كلفه هذا الأخير بجلب ابنه الهارب وزوّده بما يكفي من المال ليقوم على نفقاته. أما بالنسبة إلى احتياجاته الخاصة فكان سعدٌ يتصرف بأكثر صرامة حسب مبدأ: كن سخيا إذا اقترضت مالاً وبخيلاً إذا أرجعته إلى أصحابه. كان هدفه المنشود أن يسافر بدون أية تكاليف وكل شيء دلّ بصفة ملحوظة على أنّه بلغ مبتغاه. كانوا يسمّونه إبليس نظراً لسواد بشرته. كان يرتدي مجرّد قميص بسيط وطويل من القطن، وكنت تراه في أغلب الأوقات ممددا فوق صندوقيه اللذين كانا قبل كل شيء يحتويان على أقمشة ثمينة، له ولزوجاته الثلاث في المدينة. بجانبه هيّأ صالح رقيقُ البنية فراشه واتّخذ منه جلّ الوقت مستقرّاً له، تحاشيا منه لكل ضروب العمل الجسدي. كان يرى هيبته مصانة عندما يكون مستلقياً في فراشه. كنصف تركي كان لباسه بحسب ما أملته الموضة في اسطنبول حتى وإن وُجد في السويس، ينبُع أو أيّة حفرة مغبرّة أخرى في السّلطنة. إذا صادف أن تكلم فإنما ليتحدث عن نفسه وكأنه مثال يحتذى بالنسبة لكل الآخرين الذين رأى فيهم من حيث الأصل والذوق والثقافة وخاصة لون البشرة ـ كان يجد في بشرته البيضاء على غير العادة قوة سحرية ـ بشرا أقل منه قيمة. هم أيضاً أقلّ منه طمعا وشحّا. قبل أن يمد يده كان يقول: حبيب الله هو الكريم حتى ولو كثرت معاصيه. وإذا لم يعطه أحد شيئاً، كان يلاحظ: الشحيح عدو الله حتى وإن كان أتقى الأولياء الصالحين.

* * *

في شهر ربيع الثاني من سنة ١٢٧٣

شملنا الله بنعمته وبرحمة من عنده

عمر: هذا اللقيط المشوّه وقليل التربية! تكبُّر مكة وتعاليها ترعرعا في قلبه. انتفش وادعى بكل تعاظم أنه، هو، محمد البازيوني، لديه أدلة قاطعة على أن الشيخ عبد الله دجال. بل أكثر من هذا: إنه كافر. لقد صدمنا. سألناه: أية أدلة؟ أرانا آلة مصنوعة من المعدن كان سرقها من صندوق الشيخ. هذه الآلة يتم بواسطتها قيس الأبعاد. ما حاجة درويش إلى آلة كهذه؟ لازمنا الصمت، غرقنا في التفكير. أتمنّى أن يكون الجميع فكّروا ملياً كما فعلتُ. بدا لي واضحاً أن اتهامات هذا المراهق كانت واهية ووقحة. كان الشيخ عبد الله رجلاً محترماً فعامله الجميع باحترام. رغم أنه لم تمرّ على معرفتنا به آنذاك إلا أيام قليلة، فقد تمكنّا من أن نلمس طيبته ودماثة خلقه.

الوالي: هل يمكن القول إنه كان رجلاً سخيا؟

عمر: نعم، بالتأكيد.

الشريف: هل استفدتم من سخائه؟

عمر: كيف لا؟ كل العالم يستفيد من سخاء رجل كريم.

الوالي: العالم لا يهمّنا في هذه الحالة بالذات وإنما عمر أفندي وعلاقته بالشيخ عبد الله هذا. ماذا أعطاك إذن؟

عمر: ماذا أعطاني؟ اقترضت منه مالاً فقط أرجعه إليه والدي في المدينة. أم هل تظنون أن احترامنا له كان لهذا السبب؟ كان رجلاً ذا علم، وهو ما رفع من شأنه لدينا. لا أدري إن كان عالماً لكنه كان ملمّاً بالكثير من الأشياء. كان قبل أن أقترض منه المال بقليل أراني إحدى رسائله

الموجّهة إلى أستاذه في القاهرة وطلب مني مراجعتها. كانت الرسالة من تحرير مطّلع على الأشياء يسأل فيها أستاذه في خصوص بعض المسائل العويصة التي لها علاقة بالدين، كانت أسئلته لا تخطر إلا ببال من بلغ درجة عالية من الإيمان. أنا شخصياً درست في جامع الأزهر لكن بعض تلك المسائل لم أكن أعرفها من قبل.

القاضي: ما من أحد صار عالماً بعد قضاء سداسية في الأزهر.

عمر: ما أعرف اليوم وما عرفت آنذاك يكفيان لأقول دون أي شك إن الشيخ عبد الله لم يكن مؤمناً حقيقياً فحسب بل كذلك مسلماً معتبرا وواسع المعرفة. طبعاً، كلام كهذا لا يقوله محمد هذا. اسألوا الشيخ حميد السمّان، نعم، لا بد أن تسألوه، إنه من أهل المدينة المعتبرين. اسألوه، لقد ثارت ثائرته إلى أبعد الحدود.

حميد: محمد؟ محمد، ذلك الفتى، نعم، كيف لي أن أنساه؟ شخص قبيح الخلق ولئيم بطبيعته. رغم صغر سنّه. إنه لا يرى إلا ما هو سيّء في الإنسان. كان كجمل ذي سنامين يعيب على جمل ثان أن يكون له سنام واحد فحسب. كنّا كلنا نعلم أن الشيخ عبد الله كان على قدر كبير من المعرفة ـ وأن معرفته كانت شاملة ودقيقة. لماذا إذن كان لا يحق له أن يمتلك آلة لا نعرفها. كانت التهمة تدعو إلى السخرية، هذا ما لم أشك فيه لحظة واحدة. قلت آنذاك: نور الإسلام يشعّ بداخل هذا الرجل. كل من بمقدوره أن يرى النور يستطيع أن يلمس هذا بوضوح. للأسف لم يكن كل هذا كافياً لإسكات محمد صغير السنّ ـ كان في شراسة كلاب الفيافي. كان له من الوقاحة ما جعله يقول لي إنّ من لا يحافظ على مواعيد الصلاة ليس بمقدوره أن يرى نور الإيمان. كان كل هذا زائداً عن اللزوم، ولو أنّ الآخرين لم يمنعوني لكنت صفعته.

* * *

كان انتظارا كما لو كان المرء وسط عذاب أبدي. حُدّد موعد الانطلاق ليكون في أوّل الصباح ـ عند الظهيرة كانت الشمس تعشى لها كل العيون المفتوحة. الصناديق المرفوعة والمحمولة، المجرورة منها والمحمّلة فوق طاقتها باللعنات اكتسحت الشاطئ، شكّلت خطوط دفاع صغيرة تحصّن وراءها المسافرون الذين قد يرفضون حتى النهاية أيّ إلزام بالدّفع، الشيء الذي كان تجار السّويس يعلمونه جيّداً فجاؤوا بعدد غفير ثمّ شقّوا طريقهم وكلّهم تصميم وسط الجموع بمعية عبيد وخدم حملوا السلاح قصد الترهيب. وقف التجار أمام أولئك المسافرين الذين لم يدفعوا لهم ثمن آخر ما تمّ لفُّه وربطه من بضاعة بينما وجد اللصوص في شجار الباعة مع الزّبائن فرصة سانحة لاختلاس ما لم يكن محروسا من الأمتعة.

وقف الشيخ عبد الله وراء جبل من الصناديق والأكياس والقِرب. صالح الشكّار الذي كان في تلك اللحظات في حاجة ماسة إلى مساعدة خادمه، الذي ذهب بدوره إلى السوق لقضاء حاجاته الشخصية، أخذ يغمغم مؤاخذا أنه ليس من الحكمة في شيء أن يكون الإنسان رحيما وسخيا. قضوا الوقت في تأمل السفينة التي ستأويهم وتنقلهم إلى يَنبع. قدّر الشيخ عبد الله وزنها في حدود الخمسين طنّا، الصارية الرئيسية هي أثقل بكثير من صارية المؤخرة. ودون أن تُعطى أية إشارة للانطلاق تحرك فجأة كل شيء. الكل أسرع في اتجاه الماء. أمسك سعد بأحد الزوارق من المقدمة بقوة بحيث لم يتجرأ سائقه على قول شيء وكأنّ هذا الرجل الأسود والقوي البنية أمسك بخناقه. رغم ذلك لم يكونوا أول من بلغ السفينة. لم يكن للسفينة غير سطح واحد، صغير وعال في مؤخّرها بجانب القمرة الوحيدة التي استولت عليها بعدُ مجموعة من النّسوة والأطفال. شقوا طريقهم بصعوبة وسط الزحمة في هيكل السفينة ثم صعدوا إلى سطح مؤخرها. حمل الخدم الصناديق إلى أعلى ثم عادوا

ليَبقوا في الهيكل. لم يبق في الأعلى إلاّ ما سدّ حاجة الأسياد من أماكن. في الساعات الموالية صعد على متن السفينة عدد من الركاب فاق العدد الذي كانت تستوعبه حقاً وأعلن عنه قائدها.

ما إن انتهى الشيخ عبد الله من التعبير عن فكرته، من أنه لم يبق في السفينة مكان لمسافر إضافي واحد، حتى صعدت إليها مجموعة من المغاربة، رجال طويلو القامة وبأطراف ثقيلة، بنظرات كلّها امتعاض وبأصوات زاعقة وكلّهم مدجّجون بالسلاح. كانوا حفاة ومكشوفي الرأس. طالبوا بأماكن لهم في هيكل السفينة شغلها أتراك وسوريون. لم يمرّ وقت طويل حتى صار كل واحد يتخبط ويضرب من حوله، يخدش ويعضّ، يدوس ويركل الآخرين. تحوّل هيكل السفينة إلى قِدر كبير غلى فيه الحنق والغضب.

قال صاحب السفينة إنه يتفهّم الوضعية السيئة التي يوجد فيها المسافرون، لذلك فهو مستعدّ أن يُرجع إليهم كلّ ما سبق أن دفعوه كعربون على ثمن تذكرة السفر مقابل المغادرة. كان عرضاً لم يقبل به أحد. قالوا إن السّفينة القادمة ستكون هي بدورها غاصّة بالمسافرين وكذلك الشأن بالنسبة للّتي ستليها. لمّا نُشرت الأشرعة بعد ذلك بقليل هبّوا كلهم واقفين ليتابعوا عرضاً راقصاً صُمّمت فصوله في السرّ. تلوا الفاتحة وأيديهم مرفوعة إلى السماء وكأنهم أرادو تلقف بركة نازلة من هناك على السفينة. قالوا آمين ثم مرّروا راحات الأيدي على وجوههم تبرّكا. عند ذلك رفع رجل مسنّ صوته مرتلا دعاءً. سخّرْ لنا البحر الذي هو على ملكك في الدنيا وفي الآخرة، في عالم المحسوس وفي عالم الغيب، بحر هذه الحياة الدنيا وبحر الحياة الآخرة. سخّر لنا كل هذا، أنت الذي بيدك جميع الملك.

لاحظ الشيخ عبد الله بعد الانطلاق بقليل أن الربّان كان لا يقود سفينته إلا محاذاةً للساحل. كان تحسساً بطيئاً. قال الشيخ عبد الله في نفسه، لا بد أن السفن قبل قرون سارت بأكثر سرعة من مثيلاتها اليوم، كانت بحوزة ربّانيها الآلات اللازمة والمعرفة بأعماق البحار وكان لهم مدير دفّة يساعدهم على القيادة ويأتمر بأوامرهم ليل نهار. بدا ساحل سيناء جداراً قائماً من الصخر على وتيرة واحدة تجلب الانتباه، وظهر في الأيام الموالية للعيان متوّجا بمرتفعات جبل سِرْبال المسنّنة وفي البعد بحدود جبل موسى، أي جبل سيناء. رسوا قبل أن تغيب الشمس وراء إفريقيا. تقاسموا لدى تناولهم طعام العشاء جلدة ناقة ومجفّف معجون المشمش الذي سهُل مضغه مقارنة بالبسكويت الجافّ والصّلب الذي بدا وكأنه اقتُلع للتوّ من صخر الضفّة.

كانوا بصدد الاتفاق حول من سيتولّى حراسة المجموعة ليلاً لـمّا وصلهم ضجيج من أسفل السفينة قرب سطح المؤخر. نادى أحدهم: ساعدوه على الصّعود! من؟ الرجل المسن! أيّ رجل مسن؟ هنا، إنّه هنا. وماذا سيفعل هنا في الأعلى؟ إنه قاصّ، نريد أن يقص علينا شيئاً. انحنى سعد إلى الأمام وأمسك برجل طاعن في السّن وهرم من إبطيه ثم رفعه إلى أعلى بتؤدة وكأنه قُدّ من رقّ. جلس الرجل على أحد الصناديق وأشار إلى أسفل. مُساعدي، ائتوا به أيضاً إلى هنا! كان سعد قد مدّ ذراعيه بعدُ لرفع رفيق القاص إلى أعلى. سأله سعد مرتابا: لماذا أنت في حاجة إلى مساعدة؟ فرد عليه الرجل العجوز مستنكراً وبنبرة زاجرة: هل تريد مني أن أجمع النقود بنفسي؟ هل يجمع نقودا؟ نادى صالح: عليه أن يجمع النقود في الأسفل. الحجيج في السفينة كثيرون وسيجازونه خير جزاء. عند ذلك ترك سعد المساعد يسقط في مكانه. لما بدأ الرجل المسن روايته تعجّب كلّ من استطاع رؤيته من ضخامة صوته. قال دعاءً قصيراً في الوقت الذي انتشر فيه الصّمت مداداً أسود من سطح المؤخّر إلى كامل السفينة.

يا منقذ الأرواح في هذا الهيكل، أنت يا حامي الهيكل في هذا البحر بلا نهاية، صُن هذه السّفينة التي اسمها «سلك الذهب». قولوا، ماذا تعرفون عن الزمن؟ ماذا تعرفون عن العمر؟ كلّ هذه الجبال وُجدت منذ بداية عصرنا والخلجان التي رأيناها أمس، نراها اليوم وسوف نراها غدا. وُجدت الضفّة القائمة كالجدار، وُجدت الشعاب، كوم الرمال تحت الماء، الصخور الناتئة، وُجد الذهب، وُجد الأزرق والأرجوان، اللّون الذي لبسه أول الملوك وستفرش به الجنّة. كان هناك أناس بحثوا عن الحق وأناس ارتكبوا الآثام. كان هناك قوّاد أفاضل وطغاة جناة. كان هناك موسى وكان هناك فرعون. تعرفون كل القصص حول هروب موسى وشعبه، القصص حول مطاردتهم من طرف جيوش فرعون، القصص التي تتحدث عن البحر الذي انشقّ أمام الصادقين وانطبق على المنافقين. لكن هل تعرفون أن حوادث هذه القصة دارت في هذا المكان؟ بين الجبل في هذه الجهة والصّحراء في الجهة الأخرى. في هذا الماء تحت سفينتنا والمحيط بها، هنا، في المكان الذي سنقضي فيه ليلة طويلة. هنا غرقت جيوش فرعون في الأمواج العاتية. جيش عرمرم قوامه مائة ألف رجل وأقوى من جيش الخليفة. لم يصل جندي واحد منهم إلى الضفة الأخرى ولم يعد واحد منهم يوماً إلى أهله. حاصرهم البحر كلهم ولم يتمكنوا بعد ذلك من النجاة أبداً. لو كان باستطاعتنا أن ننظر في العمق بما فيه الكفاية لرأينا في القاع المائة ألف محارب. إنهم لا يكفّون عن المشي، يزحفون إلى نهاية الدهر، محاربون بدروعهم السميكة، يغرقون مع كل خطوة يخطونها إلى الأمام في بحر من الرمال. يُجبَرون على التنقل من ضفة إلى أخرى. ثعابين الماء المتموجة مع التيار تسخر منهم. لقد حلّت بهم اللّعنة، لذلك يستحيل عليهم بلوغ الهدف أو العودة إلى بلادهم. لذلك يكون التيار في هذه الخلجان شديد الخطورة. لذلك تكون الأعماق في هذه المياه في غاية

الاضطراب. لذلك لا تكف الريح بين هاتين الضفتين عن الخفقان بجناحيها الأسودين. لا تخافوا، لأن الله الذي يفعل ما يشاء، وهو لعمري خير راع وخير عون، أرسل إلينا من يرعى جميع المسافرين وجميع البحارة ويحرسهم في هذه المياه الخطيرة. الحديث هو عن الوليّ الصالح أبو سُليمة وأنتم سمعتم به كلكم. لكن هل تعرفون أيضاً أنه موجود في إحدى مغارات الجبل الذي ورائي؟ هناك من يُعنى بشؤونه في المغارة. كجزاء على حسناته تُقدّم له القهوة، ليست أية قهوة بل قهوة من البقاع المقدسة. عصافير خضراء براقة تنقل إليه في مناقيرها حبّات القهوة من مكة، السكر من المدينة وأثناء الطيران بين المدينتين المقدّستين ومغارته الموجودة هناك، في الجدار الصخري ورائي، تنسخ الطيور القرآن الكريم برمّته في السّماء وتحضّر له الملائكة القهوة بأيادٍ طيّعة، الملائكة التي لا يضاهي سرورها سرور عندما يطلب منها أبو سُليمة فنجاناً آخر من القهوة. لهذا لا تنسوا أن توجّهوا هذه الليلة دعاءً إلى أبي سُليمة لنواصل رحلتنا لاحقاً على الأرض وليس على القاع الرملي لهذا البحر المعتم. لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

* * *

يفيق النهار على كومة من الأجساد البشرية المكبّبة. يعتدل هو في جلسته. تمطّطوا الواحد تلو الآخر. كان عبء الساعات الأخيرة من نصيبه. يسأل نفسه لأول مرة إن كان ارتكب خطأً. إنّ ليلةً بلا نوم وغير مريحة تخلق ما تخلق من شكوك. محمد الذي ينام بجانبه يحيط ركبتيه بذراعيه ويضع رأسه على صدره بينما تبدو عيناه خاليتين من كل تكبّر. منذ أمس فتح له صدره قليلاً. حميد ممدّد في حدود السور الخشبي للسفينة. الشيخ عبد الله لا يفهم كيف أنّ هذا الأخير تمكّن خلال الليل من الزحف

إلى هناك، رغم عديد الأجساد التي كانت في طريقه. ممّا لا شك فيه أنه يشكو ارتباكا في المعدة، لذلك هو يتّكئ من حين لآخر على سور السفينة. قليلون هم الذين يصلّون صلاة الصبح في موعدها. أمّا البقية فتكفيهم مشقّة أن يرفعوا رؤوسهم ليتفرّسوا بكل ريبة في وجه النّهار الجديد الذي لا يرون فيه غير بوادر شؤم.

عند الظّهر تتحوّل الشمس إلى نار مُحرقة، يترك الملاّحون أماكن عملهم ويستنجدون بأشرطة الظلّ التي تجود بها الصّواري. كلّما تنفخ الريح ترميهم بوهج صخور الساحل. تذوب كل الألوان فتُورث السماء كفنا بينما يعكس البحر فُتوراً أملسَ. يتحوّل الأفق إلى ذلك الخطّ الذي تُرصَد في مستواه الحسابات. الأطفال لم تعدْ لهم قدرة على البكاء. قرْب الشيخ عبد الله رضيع تركي صامت في حضن أمّه، لم يتحرك منذ ساعات. يتشاور في الأمر مع الآخرين. لا يُعقل أن يتركوا الطفل الصغير يموت أمام أعينهم. يُخرج حاجٌّ سوري شريحة من الخبز ثم يغمسها في قدح من الشاي أمامه. تدسّ الأم قطعة الخبز المشبعة شايا في فم ابنها. يمدها حميد ببعض الفواكه المجففة ويعرض عليها عمر رمانة يبدأ بتقشيرها وفتحها. تفتح الأم فم صغيرها فينحني عمر إلى الأمام ويعصر فيه الثمرة. قطرات متفرقة تسقط على اللسان المرتعش ثم يخرج من فم الرضيع خيط دافق أحمر، لقد أُطعم أكثر من اللازم. ينساب العصير على جانبي شفتيه وفوق لحيته. بعد ذلك بقليل يبتسم الطفل الصغير لأول مرة بفم أحمر قان ويسعد الشيخ عبد الله لرؤية تلك اللّطافة التي يعكسها وجه عمر.

كم يوماً وليلة سيبقون على قيد الحياة؟ يقنع أولئك الحجيج الذين ما زال باستطاعتهم الوقوف على أرجلهم قائد السفينة أن يرسو في المساء قرب الساحل ليتمكنوا من قضاء الليل على الشاطئ. يخوض الشيخ عبد

الله في الماء فيمشي على جسم صلب وحادّ في آن، يحسّ بوخز مؤلم في إصبع قدمه. يجلس بينما يشكّل النور إفصاحا عن حب لا مثيل له، يتفحّص الجرح ويُخرج منه شظية. لعله مشى على قنفذ البحر. يهيّئ لنفسه حوضا في الرمل الطري. السفينة الراسية أمام ناظريه تخلّص منها لليلة على الأقل.

* * *

في شهر جمادى الأولى من سنة ١٢٧٣

شملنا الله بنعمته وبرحمة من عنده

الوالي: حقّقنا تقدّما.

القاضي: حققنا تقدما لا يستهان به. هل ألخّص؟ الشيخ عبد الله هو بدون شك الضابط البريطاني ريتشارد برتن، صاحب علم وربما مسلم، ربما شيعي، ربما صوفي، وربما يكون أيضاً دجالاً فقط، قدم نفسه بصفته كذا وكذا قصد أداء مناسك الحج بنية أو بأخرى. صحيح، لدينا الآن أكثر معلومات من البداية، لكن ما قيمة هذه المعلومات؟

الوالي: أريد أن أعرف، والسؤال يشغلني منذ البداية، هل تعتقدون بأنّه من الممكن أن يخادع إنسان شهوراً ويوهم الغير أنه مؤمن؟

القاضي: الياقوت والمرجان لهما نفس اللون والقلادة التي يختلطان فيها تبدو في الظاهر وكأنها لا تتكون كلّها إلاّ من الأحجار الكريمة.

الوالي: لا بدّ أنّ هناك طريقة للتفريق بينهما.

القاضي: قد أُفلح في التفريق بينهما إذا أخذتُ اللّويْنة بعين الاعتبار. لكن للتوصل إلى هذا يجب عليّ أن أتفحّصهما مليّاً، وعن قرب.

الوالي: بواسطة عدسة مكبرة؟

القاضي: الأفضل بعدسة مكبرة.

الشريف: المسيحي هو المرجان؟

القاضي: لا، الذي لا يؤمن.

الشريف: وهو ما أعنيه تماماً.

القاضي: الفرق كبير. أعتقد أن مكان هذا الرّجل يوجد خارج بوتقة الإيمان. لا أقصد بهذا إيماننا نحن فحسب، الشيء الذي سوف يسمح له بالذهاب إلى أي مكان يريد دون شعور بالذنب ويجعله ينهل كما يشاء من إيمان الآخرين، يقبل بما يقبل به ويرفض ما يرفض، يلتقط ما يلتقط ثم يضع جانباً ما يعنّ له وضعه جانباً وكأنه في سوق. وكأنّ الجدران التي تحيط بنا سقطت، وكأننا نوجد في الخارج في سهل لا حدود له ونجول ببصرنا في جميع الاتجاهات. وبما أنه يؤمن بكل شيء ولا شيء في نفس الوقت فإنه يستطيع، في الظّاهر على الأقل وليس في الصميم، أن يتحوّل إلى أيّ حجر كريم.

الوالي: كلّ من يسمعكم يظنّ أنكم تحسدونه.

* * *

إنّه وقت الفصال. تجمهَر الرجال حول كل جَمل. راحاتُ الأيدي الممدودة. الظلال انكمشت وكأنها تستعد لأخذ مكانها في الصناديق. حبال مربوطة. وصلوا إلى الأراضي المقدسة. أطياف لبست البياض وأخرى سوداء. انتصبت، جلست القرفصاء. يترشّفون الشاي بين آثار حوافر خيل في الرّمل وما أوتوا من صبر. الحدّ غير المعلن لبداية الصحراء. إصبع قدمه المتورم، ألَمٌ يعُوقُ عن الحركة عليه أن يتجاهله.

صبيّ يعرض عليه حلويات. محمد الذي يقيم الدليل باستمرار على أنه لا يمكن الاستغناء عن خدماته. منذ شروق الشمس وهم يقبعون في حالة فراغ يقظ. يتبادلون الأخبار. يتحدثون ثمّ يتحدثون. الصفقة التي هي بصدد التبلور لا يأتون على ذكرها إلا عرَضا. كمن فعل شيئاً عن غير قصد. آمال تُعقد، تُودَع الاقتراحات الأولى الرّمل بلطف. الصّبي يعرض حلوياته داكنة اللون والصلبة من جديد. اتفقوا على ثمن باهظ بشأن ثلاثة من الجِمال. همس إليه محمد: الجمّالة كلهم نشّالون ولصوص. الجِمال لا تأتمر إلا بأوامرهم ولا تعترف بغيرهم أسيادا. الصّبي وحلويّاته من جديد. يشترى منه ثلاث قطع من الحلوى ويدفع له الثمن بسخاء. يبتسم الصبي بشماتة وكأنه يريد أن يقول: كنت حقّاً أعرف أنك ستلين في النهاية. يتم تحديد موعد للانطلاق ويطول التوديع كما تقتضيه العادة. في اليوم الموالي وجدوا أنفسهم على الطريق من جديد.

* * *

جلب الانتباه كلما دوّن شيئاً في أوراقه. إذا أراد تفادي الشبهات فعليه ألاّ يُفاجَأ والقلم في يده. كان مجبرا على الانزواء لغرض الكتابة. كان الخلوّ بالنفس أمراً يسيراً في القاهرة لكنه لم يحصل إلاّ نادراً أثناء تلك السفرة. الكتابة في حضرة الآخرين، وخاصة البدو منهم، لم تكن ممكنة إلا عندما ادعى أنه بصدد وضع تركيبة طالع أو تحرير تعويذة، قدرات من المنتظر أن يمتلكها درويش.

كان في البداية يدوّن ملاحظاته، البريئة منها وكذلك السرية، بالإنجليزية لكن بحروف عربية. قبل أن ينقل انطباعاته إلى مفكرته كان يتأكد من أن لا أحد يراقبه. مع مرور الأيّام، وبعد أن وثق من أنّه صارت

له سمعة طيبة ولم يعد محلّ شكّ بالمرّة، بدأ يتجاهل إجراءه الوقائي هذا. تغيّر شكل الحروف وصارت لاتينية، أصبح يدوّن شيئاً ما في ضوء النهار خلسة وهو راكب ظهر البعير وقد أخفى في راحة يده قصاصة من الورق. ماذا تكتب أيها الشيخ في قلب الصحراء؟ اقترب منه حميد من الخلف على ظهر جمله خلسة. آه يا صديقي، إني بصدد تحديد قيمة ديْن جديد. لكي لا تتملكنا الحيرة يوم يتوجّب الخلاص. فقال حميد قبل أن يبتعد من جديد: إن رجلاً مثلك يجد في كل شيء نفعا.

أثناء سفرات كهذه غالباً ما كان كل منقسماً على نفسه ووحيداً مع جمله، هذه الدابة المتجهمة المتكدرة والعنيدة التي لا تعرف مجاملة أخرى غير الضّراط من حين لآخر. كانت علاقة الشيخ عبد الله ببعيره علاقة عداوة مستمرة، وهو ما يجعل المرء يتساءل هل إن هذا لا يتناقض وما يعرف عن هذا الحيوان من جلد وصبر. كان خبيثاً، ذا نزوات مفاجئة وأحياناً خطيراً. كان يرتاب من كل ما هو غريب والأصوات التي كانت تصدر عنه ـ الزفير الذي غلب عليه الشخير أو الهدير الذي أتى متذمراً ومتكدراً في نفس الوقت ـ كانت لا تحتمل. كان يتذمّر من كل كيلوغرام يحمله. صدرت عن الشيخ عبد الله في المساء الأول بعض الملاحظات المستهجنة في خصوص المطية وجّهها إلى الجمّال. أجابه هذا الأخير: أظنّ أنّك تحسن التّصرف مع البشر، أيها الشيخ، والجمال لا تختلف عن البشر. في صغرها لا تعرف الطريقة التي تتصرف بها. وعندما تكبر تصير عنيفة ويعسر التحكم فيها. في وقت التعشير بإمكان الذكر أن يستشعر الأنثى المُضبعة عن بعد عشرة كيلومترات فيصير عنيداً ويرتعد لسانه رغبة. ومع التقدم في السن تصير الإبل مشاغبة، حاقدة ومقرفة.

سُمع دويّ طلقات نارية ـ الوادي الذي كانوا بصدد عبوره بدا وكأنه

خُلق خصيصاً لنصب الكمائن. بدوٌ وكلاب قذرة. اختبأ محمد بينما ردّ الشيخ عبد الله طلق النار. صاح في وجهه الجمّال: كفى! لو قتلنا واحداً من هؤلاء اللصوص فستتّحد كل القبيلة ضدنا وستعتدي على القافلة قبل أن نتمكن من بلوغ المدينة. وستكون تلك نهايتنا كلنا. قال الشيخ: لكن الآخرين يطلقون النار أيضاً. في الهواء، في الهواء فقط، حتى يوفّر لنا الدخان شيئاً من الحماية. البلد اللعين، العدالة المقلوبة. شحن الشيخ سلاحه من جديد وواصل إطلاق النار دون تحديد الهدف. لكن ما لبث أن اختفى دويّ طلقات البارود. وصلوا إلى المكان الذي يسمّى شهداء. افتقدوا بعض الجمال وبعض البغال. يا له من حصاد هزيل بدّدوا من أجله اثنتي عشرة من الأرواح، اثني عشر رجلاً اضطرّوا لدفنهم على عجل قبل أن يواصلوا طريقهم.

* * *

طالما كانت القافلة تسير لم يكن مجبرا على حراسة أدباشه لأنها كانت في عهدة الجمّالة. أما في المخيم الليلي فكان على كل شخص أن ينتبه إلى أمتعته الثّمينة بنفسه. لم ينتظروا طويلاً حتى جاءت الهجمات الأولى على أملاكهم غدراً. هذه الهجمات قام بها الجمّالة أنفسهم، أولئك الذين كانوا حرّاساً نهاراً ولصوصاً في الليل. هؤلاء الثيران المخصيّون - ألح محمّد على أن يتكفّل بأوّل حراسة -، هؤلاء الجبناء، آه، جمّد الله أطرافهم وشلّ أصابعهم. استمرّ محمد في سبابه ليبقى يقظا. أيّها الأبطال بشوارب مستعارة، يا أحقر أناس من بين عربٍ نصبوا في يوم ما خيمة. حقاً، إنكم تنحدرون رأسا من منبع النذالة والدناءة! في الصباح الباكر نظر إليه الجمّالة في منتهى الغضب وغمغموا: والله ثم والله ثم والله، أيها الولد! لو يكتب لك أن تقع في أيدينا لوحدك في الصحراء فسوف نجلدك

كما يجلد الكلاب. طالما بقيت الشمس مشرقة حرص محمد كلّ الحرص على أن يتبع جملُه ظلّ دابتيْ الشيخ عبد الله وسعد الملقّب بإبليس.

في الليلة الموالية جاء دور الشيخ عبد الله للحراسة. فك ضمادته. كانت الأوجاع شديدة إلى درجة أنه أراد حرق الجرح الملتهب. قد تخفّف من أوجاعه ضمادة مبللة ومخضبة بوريقات شاي. كان عليه، بأيّة حال، أن يتلهّى بأشياء أخرى حتّى ولو باستحضار أسماء النّجوم، الأسماء اللاتينية أوّلاً ثم الإنجليزية وقريباً سيصلون إلى المدينة العظيمة. إلى دار الهجرة التي تصونها الخرافات ويحرسها مردة أقوياء، فارسات محاربات لهنّ حوافر الماعز وجبابرة بعين واحدة تسبّبوا في خضمّ ولعهم في أكثر من تحرّك جيولوجي. عندما يصل إلى المدينة ـ كما هو معروف لدى الجميع، مدينة أهل الحِلم الطيّبين ـ سيرى بعيني رأسه إن كان ضريح النبي معلقا حقاً في الهواء. في المحفظة قرمزية اللون التي حصل عليها هديّة من الحاجّ علي حمل مكان مجلّد قرآن صغير ساعة وبوصلة، مطواة وأقلام رصاص. من تسلّح بكل هذا عليه ألاّ يخشى المردة الجبابرة بل، في أقصى الحالات، البشر. تمشّى قليلاً. لما عاد وجلس مكانه، صعد الألم إلى أعلى ساقه في سرعة البرق.

أفاق سعد من نومه بعدُ. هو أيضاً لم ينم ملء جفنيه. كان يقول دائما: لن أنام بما فيه الكفاية إلاّ بعد أن أنتهي من القيام بكلّ ما ينتظرني من واجبات. وضع إناء طبخ الشاي على النار وجاء ليجلس بجانب الشيخ عبد الله. جملتان فقط كانتا كافيتين لتلخيص ما جرى في تلك الليلة الهادئة. قال له الشيخ عبد الله: أنت طبعاً مسرور بالعودة إلى مسقط رأسك ولقاء أفراد أسرتك. ردّ عليه: أنا مسرور، مسرور جدّاً، لكن هذا السرور سيمرّ. لمَ كل هذا التشاؤم، سعد؟ أسعدُ لبضعة أسابيع ثم يتملكني

القلق والاضطراب ويخيّل إليّ أن الأعمال تناديني وهو ما يدفعني إلى الرحيل من جديد. قال الشيخ عبد الله: كلّ هذا ليس غريباً عليّ، إنها سعادة الطريق. نعم، الطريق. إنها لا تعوّض. نعم، رغم كل المتاعب تظل هي الوحيدة التي ترفع في نسق دقات قلبي. لسنا في واقع الحال إلاّ خيّالة نصل بين المحطات، قدرنا هو أن نصل إلى مكان ما ثمّ لا نلبث أن نرحل عنه. أضاف الشّيخ قائلاً: هكذا تتوزع آمالنا العريضة على حياتنا القصيرة. غدا، بقدرة الله العلي العظيم، سأكون في منزلنا، أما أنت، أيها الشيخ، فما زالت طريقك طويلة. تمنيّت لو كنت مكانك. ما زال النهار لم يطلع بعد، ألا تريد أن تستلقي قليلا؟ سأقوم بالحراسة.

غفا الشيخ عبد الله وراح بأفكاره إلى القبّة الخضراء. لما أفاق لاحظ أن الجميع بدؤوا بعد في التحضير للرّحيل. فتح عينيه ففاجأ محمدا وبيده محفظته قرمزية اللّون. ما زال لم يفتحها بعد. أحسّ محمد بالنظرة الموجهة إليه وأدار رأسه ببطء. حدّق كل منهما في الآخر. حاول محمد، وقد باغته الشيخ، أن يقدّم تفسيرات بصوت متلعثم. لم أجد النسخة التي أمتلكُها من القرآن الكريم أثناء الصلاة هذا الصباح، لم أكن متأكدا من مقطع. أية سورة يا صديقي الشاب؟ لعلي أستطيع مساعدتك. السورة التي تتحدث عن الخيانة المتبادلة. السورة الرابعة والستّون إذن؟ لماذا تعدّ السّوَر؟ تلك هي العادة عندنا في الهند ـ نحن نحب الأرقام، ألم نخترعها نحن؟ صحيح. وما هي الآية التي نسيتها؟ بدايتها تقول: ﴿يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن﴾. تريد أن تعرف البقية؟ لا، أنا أعرفها، نسيت فقط الآية التي تليها، أردت أن أتأكد منها في النص، معذرة، لم أطلب منك إذنا لأنّك كنت نائماً. لستَ بحاجة إلى إذن، يكفيك شرفاً أنك تريد محْو جهلك دون انتظار. سأقول لك الآية التي غابت عنك. الأفضل أن تسمعها على لسان صديق وليس أن تقرأها على الورق، أليس

كذلك؟ ﴿والذين كفروا وكذّبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير﴾. صحيح، شكر الله لك فضلك. ما كان عليّ أن أنساها. لا تغتمّ فأنت دقيق بما فيه الكفاية. هلاّ أعطيتني محفظتي، علينا أن نجمع أمتعتنا. القافلة ستنطلق قريباً.

* * *

في شهر جمادى الثاني من سنة ١٢٧٣

شملنا الله بنعمته وبرحمة من عنده

الوالي: لعله تجسس لحساب قوة خارجية!

الشريف: أنتم تعوّلون كثيراً على التخمينات.

الوالي: لماذا لم يُكرّم التكريم اللازم في بلاده؟ لماذا لم يسارع بالعودة إلى هناك عقب مناسك الحج بل بقي بعد ذلك، كما تعلمون، شهوراً أخرى في القاهرة؟

الشريف: أيَةَ جهة يكون خدمَ يا ترى؟

الوالي: الفرنسيين.

الشريف: تعنون أنّ البريطانيين أرادوا أن ينتقموا منه فبثّوا الإشاعات القائلة بأنّه مسيحي.

القاضي: وهو ما يمكن اعتباره، رغم ذلك، حقيقة.

الشريف: أو بهتانا، بغية فضح عميل مزدوج.

الوالي: لقد بقي وقتاً كافياً في هذه الربوع يسمح له بوضع الخطط اللازمة التي تُبيّن كيف يمكن إضعاف تواجدنا في الحجاز.

القاضي: وأين تكمن مصلحة الفرنسيين؟

الوالي: هل لي حقاً أن أفسر لكم كل هذا؟ شرفاء مكة بارعون في استبدال تحالفات بأخرى. يُوقِعون بين القاهرة واسطنبول، يبحثون عن حلفاء في كل مكان، حتى في اليمن. ثم ماذا يمنع الفرنسيين من التآمر مع الشريف ليُوقِعوا بين سعود والسلطان ثم بين السلطان والبريطانيين. هكذا يتسنّى للشريف في نهاية الأمر أن يحكم مكة المكرمة بمفرده، برضا ومساندة أصدقائه الجدد، الفرنسيين.

الشريف: هل تتهمونني بالخيانة؟ إني لا أسمح بهذا أبداً. أؤكد لكم أنّ وفائي لا تشوبه شائبة.

القاضي: عليكم أن تتخذوا من أبيكم قدوة. يقال إنه كان رجلاً أبيّاً. لا يقبل النفاق والتملق. وهو ما يجب أن يكون عليه من اضطلع بالسهر على أقدس المقدسات.

الشريف: كان بطلاً وحامياً لحمى الدين. أنا واع كل الوعي بواجباتي.

الوالي: عن أيّ واجب من بين الواجبات الكثيرة التي سبق وأن أخذتها أسرتكم على عاتقها أنتم تتحدثون؟ عن واجب المصلحة السياسية؟ هل تظنون أننا لم نلاحظ الصداقة المتينة التي تربط بينكم وبين القنصل الفرنسي في جدّة؟ هل تملّق إليكم، هل صوّر لكم أنه بإمكانكم في المستقبل أن يكون لكم دور سياسي أهم؟

الشريف: لطفُنا وأدبنا، لطف وأدب بني قتادة، كان دوماً مشهوراً، حقاً، لطفنا وأدبنا لم يستثنيا يوماً شخصاً معيناً، حتى لو كان غريباً أو كافراً. نعامل الجميع بكلّ احترام كما نعامل إخوتنا. لكن يبدو، مع الأسف، أنّ هذا التصرّف يقود إلى سوء تفاهم.

الوالي: مؤسف إلى حد كبير.

الشريف: لماذا نخلق أسطورة حول برتن هذا؟ لعلّه كان فضولياً فحسب، ألا تتفهّمون شخصاً يعيش في بلدنا ويسافر فيتقابل باطّراد مع الحجيج ثم يسمع عن الحج؟ كيف تريدون ألاّ تنشأ لديه رغبة في رؤية هذا الحدث العجيب وكل هذه الأماكن المقدسة بنفسه؟

القاضي: الله العلي القدير خلق كل الناس، ولهذا يمكن لأيّ إنسان أن ينجذب نحو مكة المكرمة.

الوالي: سلَمتُ أمري. أنتم، أبناء مكّة، شغُوفون كثيراً بالأخبار السارّة التي تُفشونها بأنفسكم شائعاتٍ.

الشريف: وأنتم، الأتراك، تتوقعون وجود عقرب تحت كل حجرة.

* * *

يتملك الاضطراب مرافقيه. جلسوا في البداية بلا حراك فوق دوابهم والتحموا معها مقدّمين مثالا للجلد والثبات، أما الآن فنراهم يمدّون أعناقهم في جهة الشرق ويقودون جمالهم في اتجاه الشمس التي تشرق بعيداً من وراء سلسلة من الهضاب تعوّدوا عليها. يتوجّه إليه سعد بالكلام من تلقاء نفسه لأوّل مرة. بستانه الصغير وتمرُه الشهيّ ـ يأخذ تمرة ويطوّقها بأصابعه ـ سيقدّمه إليه بنفسه، سيكون أشهى ما ذاق طول حياته. إنّ مجرد تصوّر نخلة في هذا البحر من الحِمم البركانية لهُو كذبة بلقاء. لا شيء يشير حتى الآن إلى ازدهار الإسلام الذي سيتفتّح أمام ناظريه قريباً. طبعاً، بقطع النّظر عن الاضطراب الذي تملّك مرافقيه. هزّت القافلة رجّة زادت في نسق السير ورفعت في الأصوات. يهرع بعض راكبي الجمال دون مبالاة إلى الأمام، الآن، والجميع يقتربون من الهدف، يتراجع التخوّف من عمليات السّطو. صعود طفيف عبر واد جاف تتلوه درجات نُحتت في البَازَلْت الأسود وتقود في الأعلى إلى ممرّ. هذه شُعَب الحاج ـ

يمرّ عمر بجانبه في مكان وعر ويتجاوزه ـ، قريباً سترى أيّها الشيخ ما اشتقتَ إليه طويلاً. قريباً ستعشق الصحراء، ومع الصحراء كل الدّنيا.

يتوقّف المسافرون في الممرّ ثمّ ينزلون من على جمالهم. يرى أخيلة تركع، يسمع صيحات عالية، ترفرف النشوة في قمة الوادي راية ترفل أرجواناً وذهباً. يقترب. تمتدّ أمام ناظريه مائدة حجرية طويلة حفلت بساتينَ ومنازلَ، خضرةً يانعة ونخيلاً. ترتفع على يساره مجموعة من الصخور الرمادية وكأنّ انهياراً هائلاً خلق منها كدساً واحداً. تعلو التّهاليل من حوله يتبعها ترديد في مدح الرسول كما لم يُمدح أحد من قبله. ليعمّرْ إلى الأبد كبقاءِ ريح الغرب الهادئة تهبّ على نجد ومثل البرق يخترق سماء الحجاز فيملأها نوراً. حتى أشعّة الشمس التي خفّف النّدى من حدتها تبايعُه. رغم أنه يدقّق فيما يرى ولا يجد في المنظر ما يخرج عن المعهود ـ المنازل هي منازل عادية وأشجار النخيل كذلك ـ فإنه يريد أن يكون طرفاً في النّشوة. ليس الظاهر للعيان هو المؤثّر وإنما الرّموز التي يراها كلٌّ بباطنه، هم لا يرون إذن مدينة صغيرة وبسيطة أو واحة صغيرة وسط الخلاء، لا يرون المدينة كبناء ـ، هم يدركون عظمة الإيمان غير منقوصة، المنهلَ والمصدرَ. هو أيضاً ينظر بدوره إلى المدينة الزاهرة المجيدة في الأسفل، هو أيضاً تنطلق صيحاته مدوّية بين الصخور، ورغم أنّه لا يجهش بالبكاء كما يفعل بعض الحجيج الآخرين فإنّه يضمّ سعداً إلى صدره بقوّة ويغرق بين ذراعي هذا الرّجل العملاق مغمغما بعض عبارات الشّكر والعرفان بالجميل. يقول سعد: هذه هي قمّة السعادة على وجه الأرض، نعم، أقصى السعادة على وجه البسيطة إطلاقاً. يبقى لحظات طويلة في قمّة المنحدر متّحداً مع كل ما حوله، مشمولا بعطف أخوّة تخلقها أبّهة الاحتفال وتؤسّس لها رؤية المدينة، ولو يسأله أحد الآن عن انتمائه لجَهَر من الأعماق وفي لهجة منغومة بالشّهادة، بركن الإسلام الأوّل. وبدون

حواجز لا تلبث أن تملك عليه المدينة أفكاره: انتظرْ، أنت لست واحداً منهم. لماذا تُهلّل إذن؟ طبعاً، أنا واحد منهم. عليك أن تراقب ما يجري أوّلاً. لا، بل أريد أن أشارك. يواصل المسافرون سيرهم إلى أسفل عبر الطرق المتعرّجة وتبدأ عيناه في اختراق عالم من السّحر، تحلّقان فوق المدينة الصغيرة، تُشرّحانها ويرسخ كل شيء في ذاكرته: تصميمها وتضاريسها، السّور، المباني الرئيسية، الباب مربّع الشكل، باب العنبرية الذي سيدخلون منه إلى المدينة. وعندما يريح نفسه قليلاً من كل هذا التمعّن المضني والدقيق، يدرك أن أريحيّته قد تبخّرت.

* * *

خرج الكثيرون من سكان المدينة إلى الشارع للترحيب بالقافلة. أغلب المسافرين ترجّلوا، مما سمح بتحية أقربائهم وأصدقائهم، باحتضانهم وتقبيلهم. ما من أحد تكتم على فرحته. لم تكن اللحظة لحظة التحكم في النفس. ألقى الذين بقوا في المدينة وابلاً من الأسئلة على العائدين إليها ولم ينتظروا أجوبة للتوّ. ساروا على مطاياهم في شكل مجموعة ملتحمة لم تلبث أن تفرقت كل مرة من جديد. لم يكن حميد السمّان من بينهم. لقد سبقهم ليستمتع بلقاء زوجته وأبنائه لوحده، ليهيّئ المنزل لزائره. ظفر ببغيته بعد أمسيات طويلة من المشاورات لم تخل أحياناً من الشجار. سيحلّ الشيخ عبد الله ضيفاً عليه هو. قبل ذلك كان عمر أشار إلى العرفان بالجميل الذي لا بد أن يسديه أبوه إلى الرجل سخيّ النفس الذي ساعد ابنه. وافقه سعد على رأيه وأضاف، إذا دعت الحاجة إلى الانتقال إلى منزل ثان، إذا أراد الشيخ أن يكون لوحده تماماً فإنه بدوره يضع مسكنه المتواضع تحت تصرفه. غير أن حميد لم يقبل كل هذا الكلام وقال إنه من حقه وحده استضافة الشيخ ولم يتنازل عن هذا الحقّ. مرّوا من باب

العنبرية وواصلوا السّير إلى أسفل على طريق عريضة ومغبرّة. سار عمر وسعد وبينهما الشيخ عبد الله، ظنّا منهما أنّه يريد أن يتعرّف على اسم كل زاوية في المدينة. حارة العنبرية في حيّ المناخة. جسر ساقية السّيح. ساحة برّ المناخة الشاسعة. الباب المصري في المقدمة، أمّا على الجهة اليمنى، على بعد خطوات قليلة، فيوجد منزل حميد السمّان. أناخت الجمال، نفض المسافرون الغبار من على أنفسهم وخرج من المنزل سيّد أنيق لم يتعرّفوا عليه إلا بصعوبة. كان حميد حلق ذقنه، سرّح شعره، فتل طرفي شاربه في شكل فاصلَيْن ودبّب لحيته في شكل نقطة تعجّب. غطّى رأسه بعمامة من المُوصلين ولبس طبقات مختلفة من الحرير والقطن. وضع رجليه في جوارب مطّاطة من الجلد ولبس شباشب أكثر متانة دلّ لونها وشكلها على أنها أحدث ما جاءت به موضة «سطنبول». بدا وكأنه شخص آخر. أما كيس التبغ الذي تدلى من حزامه فلم يكن فقط موشّى بطراز من ذهب بل كان أيضاً ممتلئاً على آخره. بدا واضحاً للعيان أن حميد السمّان كان خلال سفراته رث الهندام كالمتسوّل وسيّداً وقوراً في داره. فحتى آدابه بدت وكأنها تغيرت. فمكان الكلام السوقي والصّوت العالي حلّ الآن ضرب من اللّطافة جاءت بأقساط مدروسة. أخذ ضيفه من يده ودخل به إلى غرفة الاستقبال. النّرجيلات كانت مشحونة والكنبات مفروشة بينما غلت القهوة بلطف على نار فحم هادئة. ما إن جلس الشّيخ عبد الله في مكانه وقُدّمت له النّرجيلة مع القهوة حتى دخل أوّل الزائرين من أصدقاء العائلة. بدا حميد محبوبا لدى النّاس. تيّار زاخر من الزائرين مرّ عبر منزله وتمتع كل واحد منهم بالتحدث إلى الشيخ أصيل الهندوستان. كانت الأحاديث لتدوم كامل اليوم لو أنّ الشيخ عبد الله لم يخطر بباله تصرف غير لائق إذ عبّر بدون التباس عن شعوره بالجوع والتّعب، مما جعل مضيّفه يسرّح زائريه، يحضّر فراشاً ويسدل الستائر

ليظلم الغرفة. قال الشيخ عبد الله في نفسه، أخيراً أجد فراشاً وثيراً، أخير أستطيع أن أكون لوحدي. ثم ما لبث أن سمع أصواتا نسائية تعبّر عن إعجابها. لعلّ مضيفه رحّب بتصرّفه الفظّ لأنه وجد بعد ذلك الوقت ليفتح صناديقه وليوزّع هداياه.

* * *

نال نصيبه من الراحة، اغتسل وتناول طعام العشاء. لم يعد هناك سبب يبعث على إرجاء زيارة المسجد النبوي إلى موعد آخر. الوقت ليل، وفي الليل يكون المسجد ـ حسب ما قال حميد ـ أجمل من أي وقت آخر. ما إن يخرجوا من المنزل حتى يكوّنوا مجموعة صغيرة. يصلون إلى المسجد النّبوي في شكل جماعة متراصّة. ينادي المؤذن لصلاة العشاء. تجمد الحركة وتتجه الزحمة صوب المدخل الوحيد حيث يكون باستطاعة الجموع أن تنساب إلى داخل عالم آخر. يأخذ كل حاجّ مكانه، كل يحاول أن يقف الوقفة المناسبة والملائمة للإخوة المحيطين به. ليس من عادته في الواقع أن يكون بمحض إرادته جزءاً من نظام أشمل. أثناء الصلاة فقط يكون التّصرّف مغايراً. وهذا يكفي لئلاّ يشعر بأنّه دجّال. لم يصطفّ الحجيج بعد واضعين أرجلهم في خط مستقيم حتى تلا تعدد الأصوات الخافتة سكونٌ بدت فيه الأرض لازمة الصمت قبل أن يرمي بها صوت الإمام بوحشته في مدار مختلف تماماً. تعالى من وسط السكون غناؤه وافتتح الصلاة فوق رؤوسهم. قبل أن يسجد الشيخ عبد الله ويمسّ الأرض بجبهته وقع نظره على بطن قدمي مجهول، على بعد أقل من شبر منه. كل شخص يركع لله، لكن دوماً من وراء بطون أقدام إخوانه البشر الخشنة والمشقّقة.

* * *

في شهر رجب من سنة ١٢٧٣

شملنا الله بنعمته وبرحمة من عنده

حميد: أيّ واحد منكم، لو كان مكاني، لكان استضاف هذا الرجل. أيّ واحد منكم كان فتح له منزله. لقد أجلّه الجميع واحترموه. حتى أمّي التي نادراً ما تنظر إلى الأشياء بعين الرضى حمدت له رقة مشاعره.

القاضي: وهل هناك ما هو أيسر من خدع امرأة؟

حميد: هذا غير ممكن داخل منزلي. أمي تشتمّ رائحة الكذب عن بعد. تقول إن رائحته كريهة مثل رائحة اللبن الفاسد. إن أنتم تشكّون فيما أقول فسأعطيكم مثالا آخر من شأنه أن يقنعكم. علمنا في المدينة أن الشيخ عبد الله سبق له وأن دافع عن الدين الحق بحدّ السيف. في وطنه. وأثناء المبارزة قتل أيضاً بعض العجم. لذلك هو تجنّبهم كامل الوقت. أراد ألاّ يعرّض نفسه لخطر الانتقام.

الوالي: كيف توصّلتم إلى كل هذه المعلومات؟

حميد: الجميع كانوا على علم بهذا، كل الذين عرفوه.

الوالي: خبر كهذا لا بد أن يكون هو مصدره، أليس كذلك؟

حميد: معكم حق. لم يكن هناك من عرَفه في الهندوستان. أما أنا فلم أسمع هذا الحديث منه شخصياً. من جهة أخرى فقد كان إنساناً متواضعاً وليس في حاجة إلى التبجح بمثل هذا الكلام.

الشريف: ما الذي جعلكم إذن تصدّقون هذه الرواية؟

حميد: كان يقاتل إذا اقتضى الظرف القتال. زد على ذلك، لما سمعنا ببطولاته عرضنا عليه كلنا الوقوف إلى جانبه في صورة تعرّضه لهجوم فقبل

عرضنا شاكراً. هل كان ليبدي سروره الكبير لو لم يكن مهدّدا؟ لا! أنتم لم تعرفوه. كان صلباً كالصخر وملمّا بفنون القتال. حمدا لله الذي جعل منه لنا صديقاً.

القاضي: تحمدون الله على تصديقكم السريع لكل شيء.

الشريف: علينا ألاّ نحكم على الأشياء بتسرع، حقاً، نحن لم نعرف هذا الرجل ولذلك نحن لا ندري مدى تأثيره على مرافقيه. لعلّه كان له تأثير كبير؟

حميد: نور الإيمان، سبق وأن قلت لكم هذا، ولا شيء غير هذا.

الوالي: لا يمكنكم أن تعلموا شيئاً من كل هذا لأنكم لم تقرؤوا كتابه. هذا الضابط البريطاني يكثر من الحكم على الأشياء وبرغبة واضحة، أحياناً يكون حكمه متعقلا وأحياناً أخرى نتيجة كراهية مشطّة. ولست واثقا من أنكم، لو اطّلعتم على هذه الأحكام، ستتعرّفون على صديقكم من جديد. يقول في موضع من كتابه، سيأتي اليوم الذي ستفرض فيه الضرورة السياسية على البريطانيين احتلال منبع الإسلام بالقوة. نحن تهمنا بالخصوص فكرة من أفكاره يعرضها في الجزء الذي يتحدث فيه عن المدينة. نظرة مثيرة للدهشة أودّ أن أقرأها على مسامعكم: «ليس من النبوءة في شيء أن يرى المرء هذا اليوم سلفاً، اليوم الذي سيقوم فيه الوهابيون بهبّة شاملة ويحررون البلاد من المحتلين الضعفاء». هذا ما كتبه شيخكم عبد الله. هل تشاركونني امتعاضي؟ هل لكم أن تفسّروا لنا كيف توصّل إلى هذا الاستنتاج، في الأيام التي كان ينعم فيها بضيافتكم؟

حميد: لا أدري. لم أصرّح برأي كهذا قط. ولا أيّ شخص آخر من عائلتي.

الشريف: لكن ماذا فعل في المدينة؟

حميد: ما على كل حاج أن يفعله. صلّى كل صلواته في مسجد الرسول صلّى الله عليه وسلم. زار الأماكن المقدسة، مسجد القبّة، مقبرة الباقية، ضريح الشهيد حمزة.

الوالي: من هم الأشخاص الذين عرّفتموه بهم؟

حميد: لم أعرّفه بشخص معيّن. أنا رجل محترم، كثيرون هم الذين يعرفونني في المدينة وكثيرون أيضاً هم الذين يقومون بزيارتي عندما أعود من سفرة طويلة.

الوالي: هل أتيحت له فرصة التحدث إلى كل الناس؟

حميد: كان ضيفي وكان يجلس في غرفة الاستقبال، كان رجلاً لطيفاً ووسيماً.

الوالي: ما هي المواضيع التي تناولها الحاضرون بالحديث؟

حميد: إذا لم تخنّي ذاكرتي ـ لقد مرّ في الأثناء وقت طويل ـ كان ذلك بعد اندلاع الحرب بقليل. كنا كلنا متفقين حول أن جيوشنا سوف تنتصر بسرعة على جيوش موسكو. كان هناك حتى من اقترحوا أن يتم بعد ذلك اتخاذ إجراءات ضد الوثنيين من قبيل الإنجليز، الفرنسيين واليونانيين.

الوالي: وبرتن؟

حميد: تقصدون الشيخ عبد الله؟

الوالي: شيء واحد.

حميد: لا أعرف شخصاً يُدعى برتن.

الوالي: الشيخ عبد الله إن شئتم!

حميد: تكلّم بحصافة كما لم يتكلم أحد مثله. قال: ليس بإمكان غير

المسلم أن يرقى إلى مستوى ديننا، لكن للأسف نرى الإفرنج قد طوّروا أسلحة فتاكة كتعويض عن ضعف إيمانهم، وإذا أردنا الخروج منتصرين من ساحة الوغى وجب علينا أن نجمع أكبر قدر ممكن من المعرفة حول هذه الأسلحة، أن نمتلكها وأن نصنعها يوماً ما بأنفسنا. عندئذ ـ بقوة الإيمان والسلاح ـ سوف لن نهزم.

القاضي: هل تعتقدون أن الله مع السلاح الأقوى؟

حميد: أنتم تعرفون أكثر مني مع من هو الله.

الشريف: مع كل الأبرار الصادقين، طبعاً، ونحن نجتهد أيضاً لنكون منهم، أليس كذلك؟ نحن نجتهد. لكن قولوا لنا، هل بقي أكثر الوقت لوحده خلال الأيام التي قضّاها في منزلكم؟ هل حدث أن خرج من المنزل دون أن تكونوا عرفتم إلى أين؟

حميد: أبدا. قطعاً لا. محمّد، الفتى أصيل مكّة كان يلازمه، هو أيضاً أسكنته عندي رغم أن شعوراً كان لدي بأن الشيخ عبد الله كان لا يرى مانعا في التخلص منه.

الوالي: كيف؟

حميد: لقد ضاق ذرعا بعادات هذا الوغد السيئة.

القاضي: عادات سيئة؟

حميد: إن ما فعله ليبعثُ على الدهشة. كان طويل اللسان وغير مكترث، لا يحضر الشعائر الدينية ويسمح لنفسه بالدخول إلى المسجد النبوي بدون جبّة. وأثناء إحدى الصلوات دفعني من الجانب. تجاهلته طبعاً.

الشريف: مغرور شيئاً ما، وما زال على هذا الطبع، لكن هذا يتماشى وسنّه.

حميد: هو يباهي بكونه أصيل مكة.

الشريف: لا نريد مؤاخذته على هذا، لكن أخبرونا، ما هي قصة النقود التي أقرضها هذا الشيخ الجميع عن طيب خاطر؟

حميد: إنه سخاؤه وكرم أخلاقه، نعم، سخاؤه وكرم أخلاقه اللذان لا مثيل لهما. عند الوداع الذي غرس سكاكين في صدورنا قال لنا إنه سيتنازل لنا جميعاً عن الديون كتكريم مجدد منه لصداقتنا وحتى نذكره في المستقبل بخير.

الوالي: بقي سؤال لم تجيبوني عنه حتّى الآن. كيف جاءت الشيخ عبد الله فكرة أنّ الوهابيين سيضعون قريباً حدّاً لحكمنا في الحجاز؟ لا بد أن المنطلق كانت ملاحظات أو محادثات.

حميد: مهما كرّرتم سؤالكم فإني سوف لن أكون قادراً على الإجابة عنه. لا أدري!

الوالي: هل هذا هو الحديث الذي يدور في أسواق المدينة؟

حميد: لست على علم بهذا.

الوالي: هل لكم أصدقاء أو معارف..؟

حميد: من الممكن أن أحد الذين زاروا منزلي عبّر عن رأي كهذا. عند غيابي. الآراء كثيرة ومختلفة في المدينة ولا أحد يستطيع تذكّرها كلّها.

الشريف: لكن أخبرونا ـ وأظنّ أنّ علاقتنا وديّة ـ، هل إنّ أناسا كثيرين لهم نفس هذا التقييم؟

القاضي: كونوا صادقين إذ لا لوم عليكم.

الوالي: أنتم لستم متّهمين.

حميد: لأقلْها إذن بصراحة - عموما لم يكن الأتراك يوماً محبوبين في مدينتنا، لكنهم في السابق كانت لهم على الأقل هيبتهم.

* * *

أوى الشيخ عبد الله إلى فراشه منهكا. ليس بسبب الإرهاق وإنّما بسبب التّخمة. لقد رجا مضيّفه ألاّ يوقظه في الصباح الموالي.

الضجيج الذي يوقظه لا يمكن أن يكون متأتيا من المدينة الصغيرة التي تعرّف عليها قبل يوم. يفتح عينيه كارها وكذلك ظُلّة النافذة الخشبية بتردد. أثناء الليل وصلت بغداد، اسطنبول والقاهرة. الساحة المجاورة التي كانت قبل ذلك فراغاً شاسعاً ومغبرّاً هي الآن مكتظة بالخيام، الأحمال، البشر والدواب - تبدو وكأنها تغطّت بكليم متعدد الألوان. تصطفّ الخيام في نسق منظّم وكأنّها الحجيج أثناء الصلاة، في صفوف طويلة في المكان الذي يجب ألاّ تتوقّف فيه حركة المرور بينما تتكتّل في الأركان أين لا تكون ضرورة للعبور. يخرج رجال مستجمّون من خيام دائرية الشكل، أطفال ينطلقون مسرعين كالريح بين خيام مستطيلة الشكل، أحمال ترفع على ظهور خفية. باعة متجولون يعرضون مبرّدات وتبغا. باعة الماء وباعة الغِلال يتشاجرون من أجل الزبائن. شياهٌ وماعز تتجوّل عبر صفوف الخيول الشاخرة والمحركة للغبار بحوافرها ثمّ تمرّ بجمال تُراوح مكانها. كوكبة من الشيوخ المسنّين تحتلّ آخر مكان بقي شاغرا وهي تؤدي رقصة الحرب. يطلق بعضهم النار في الهواء أو صوب الأرض ويشكّلون خطراً على أرجل الآخرين بحركاتهم السريعة وهم يلوّحون بسيوفهم ويرمون رماحهم الطويلة والمزينة بريش النّعام إلى أعلى دون انتباه إلى المكان الذي تسقط فيه. تتغير الزخارف باستمرار بينما يقف هو أمام النافذة ويحاول رسم المنظر. خدم يبحثون عن أسيادهم، أسياد يبحثون عن خيامهم.

الوجهاء يُخلى لهم الطريق وسط الجموع المتراصة، من طرف فِرق لا تتردد في أن تُرفق صيحات الإنذار بالضّرب. نساء يهدرن غضبا لأن هوادجهن المحمولة يتمّ صدمها من جميع الجهات. سيوف تلمع في ضوء الشمس، الخيام ترنّ نواقيسها النحاسية الصفراء. من القلعة يأتي دويّ طلقة مدفعية. فجأة تصل القافلة الكبيرة والآتية من دمشق.

* * *

انضمّوا الواحد تلو الآخر إلى المجموعة الذّاهبة لزيارة الشّهداء. كان مقرراً أن يرافق حميد وبعض أقاربه الشيخ عبد الله، لكن التخلص من محمد لم يكن ممكناً، سئم صالح حياة الأقاليم وعُمر رغب في أن ينعم بمرافقة الشيخ عبد الله مرة أخرى، لذلك كان لسعد سبب وجيه للالتحاق بهم. سيكون هذا آخر خروج جماعي لهم على متن الدّواب. كانوا يعلمون أنّ القافلة ستغادر في اليوم الموالي إلى مكة ومعها الشّيخ الغريب. خرجوا من المدينة مارين عبر طرق ملتوية متفادين بذلك ملامس أخطبوط يسمّى القافلة. اتجهوا نحو جبل أُحد. قصدوا سفح الجبل. المكان الذي كانت فيه خسارة المعركة. سار حميد وأقاربه في المقدمة، بقي لهم أن يتداركوا ما لم يتحدثوا في شأنه. سأل الشيخ عبد الله: متى ستتزوج يا عمر؟ أقنعتُ أبي بالعدول عن فكرته. وأضاف سعد: لقد لاحظ أن للأزهر تأثيراً إيجابياً على ابنه ولذا قرر أن يرسله إلى القاهرة من جديد. لكن ليس كطالب علم يعيش من الصدقة هذه المرة. قال محمد: إذا أردت أن تتعلّم فتعال إلى مكة. فقال سعد: مثل هذا الكلام ليس فيه نفع ويذكّر فقط بتقلّبات مزاج أبيه. اقتربوا من ميدان القتال وهم يضحكون. بقيت المدينة وراءهم تسبح في غيم من الغبار وبدت على بعد تلك المسافة كالقلعة. المتكبّرون والمتعجرفون فقط يخاطرون بالخروج منها بحثا عن القتال في

فضاء مكشوف. خاصة عندما يكونون أقل عددا من العدو. هدر أحد الجمال وضرب الأرض بحوافره. إعلان عن توقّف حميد وأقربائه.

هنا، نعم، هنا بالضّبط، قالها حميد وأشار في انفعال إلى بعض الأحجار التي لا قيمة لها، هنا كانت الخيانة. كيف تعرف هذا؟ جدّي هو الذي أراني هذا المكان. وكيف عرف هو الأمر؟ أنا أيضاً ألقيت عليه نفس السؤال. لقد مدّني بجواب عجيب. قال إنّ أحد أجدادنا الأوائل كان من بين الثلاثمائة الذين تخلّوا عن الرسول وخذلوه. سألته: وهل ما زلت تتذكّر كل هذا؟ أجاب بالنفي، لأنّ شيئاً كهذا لم يستطع حتى جدّ جدّه أن يتذكره. إنّه رآه في الحلم. سألته: وكيف كانت نهاية الحلم؟ هربنا من ساحة القتال في اتجاه المدينة، شعرت بالألم، اضطررت للنظر ورائي، تعثرت في خطاي مراراً، لكني لم أفلح في صرف نظري عن النبي. بقي هادئاً في مكانه لكن صوته الذي نزل كالصاعقة لاحقني قائلاً: الخوف لا يُنجي أحداً من الموت. أفقتُ من نومي فجأة فركبت مطيّتي وخرجت لأسير في الظلام ما بقيَ حُلمي المنقوص يدمَى. وتعرّفت على هذا المكان. كان ذلك هنا؟ هنا بالضبط.

واصلوا طريقهم حتى جنبات الجبل القائمة التي انتصبت وكأنّها ألواح الصّلب المسنّنة والحارقة. وصلوا إلى مستراح، المكان الذي بقي فيه النّبي مغرقا في أفكاره لبضع دقائق قبل أن يخوض غمار المعركة. مساحة مستطيلة أحاط بها سور أبيض استطاع الحجيج أن يصلّوا داخلها. اقترح الشيخ عبد الله أن يصلّوا ركعتين. صار ميدان القتال لا يبعد عنهم إلا مسافة صعدة صغيرة. جزء من ذكرى تلك المعركة الخَسارة بقي هناك، من ذكرى دم الضالّين الحاقدين والمتشفّين الذي سال على تلك الأرض. هناك، في ذلك الخلاء، مرّ جيش من الكفار إلى الهجوم، خرج محاربو مكة من قاع واد تلوّى في البعد.

ـ لا بدّ أنهم لم يفهموا شيئاً من خطط الحرب.

نظروا كلّهم إلى الشيخ عبد الله في استغراب. كيف؟ ماذا تقصد؟

ـ كان على المعركة أن تسير بطريقة أخرى. إن مكاناً كهذا، تتوفر فيه مثل هذه الحماية الطبيعية، يمكن أن يتحول في نفس الوقت إلى مكان غير مُوات تماماً.

ـ أنتم الهنود دائماً مقاتلون أكثر دهاءً ومكراً من غيركم، أليس كذلك؟

ـ كان بإمكان النبّالة أن يقفوا وراء جلاميد الصخر وعلى طول الجبهة.

ـ هل تسمعون ما يقول؟ أخونا هذا يكسب واقعة أُحد بعد فوات الأوان. يا لسوء الحظ، هذه المدينة لم يكن لها مستشارون هنود.

ـ لا يهمّ إن كانت الخطة جيدة أو لا تصلح، لقد سارت الأمور في البداية لصالحنا. رغم أنّ النساء المكيّات كنّ يحرّضن رجالهن على القتال. كانت أصواتهن تخترق الصفوف وتصل حتى مقاتلينا. كنّ يصحن كالطواويس قائلات: إذا قاتلتم فسوف نحتضنكم ونفرش لكم الأغطية الناعمة، أمّا إذا وليتم الأدبار فسوف لن نمكّنكم من أنفسنا بعد اليوم. كنّا سبعمائة وكان عدد الكفار ثلاثة آلاف، ورغم هذا فرّوا من أمامنا. لعل العدوّ تراجع عن قصد؟ لا، إنّهم قاتلوا بكلّ ما أوتوا من قوّة. خسارة، ليت نبّالتنا امتثلوا لأوامر النبي. اعتبروا أنفسهم منتصرين حتى قبل أن يصلوا إلى معسكر العدوّ، تركوا مراكزهم وبدؤوا ينهبون، ممّا مكّن العدوّ من مباغتتنا من الخلف.

ـ أقول: الخطّة هي كلّ شيء.

ـ إنّ أعظم قائد حرب ليس بمقدوره أن يفعل شيئاً إذا شقّ رفاقه عصا الطاعة.

- تمّ صدّنا لكننا قاتلنا كما يقاتل المسلمون، متّحدين وبلا هوادة. لم نتفرّق، تجمّعنا أمام خيمة الرسول، صلاة الله عليه وسلامه، ومضينا قدما في قتالنا اليائس. أصيب الرسول بجروح بعد أن كان أقسم خمسة من الكفار أن يقتلوه. قذف أحدهم - ويدعى ابن قُميّة، صبّ الله عليه جمّ لعناته - الحجر تلو الآخر فانكسرت من خودة النبي، صلاة الله عليه وسلامه، حلقتان وانغرستا في وجهه. سال الدّم على خديه ونزل إلى شاربه فمسحه بطرف عباءته حتّى لا تسقط منه قطرة واحدة على الأرض. ثم قذف كافر ثان - ويدعى عتبة بن أبي وقاص، لعنة الله عليه، حجرا كبيراً ومدبّبا أصاب الرّسول في فمه. انفطرت شفته السفلى وخسر إحدى أسنانه الأمامية، لا، بل العديد من الأسنان الأمامية. كلّ هذا لا يرِدُ في الروايات. هل تشكّ في كلام مفتي؟ لا، أبداً، خصوصاً عندما يكون المفتي من يفشي مثل هذا الكلام. لنتّفق على سنّين اثنتين. بُترت اليد اليمنى للرجل الذي رفع رايتنا فحملها باليد اليسرى، بُترت أيضاً يده اليسرى فضغط عليها بما تبقى من عضويه المبتورين وألصقها بجسمه. عندئذ اخترقه رمح لكنه واصل رفع الراية قبل أن يسقط شهيداً، وكان في هذا إعلان بخسارة المعركة.

- وهذه القبّة؟ لنصلِّ ركعتين لأن هذا هو المكان الذي قُتل فيه حمزة برمح العبد وحشي.

وقفوا بعد الصلاة الواحد بجانب الآخر وتفرسوا في أهوال ما حدث في الضباب بين تلك الصخور والمدينة المقدسة. عاشوا النهاية في قرارة أنفسهم. ما من أحد كان ليفصح بهذا الجزء من الرواية. كان على قدر كبير من الفظاعة جعله يغزو العقول ويسيطر عليها. المعدة المفتوحة، الكبد المقتلع، ثمّ قضمة يكون فيها وفاء للقسَم، ثم يأتي الأنف، الأذنان

وأعضاء التناسل. وحشاً كانت هندُ، زوجة أبي سفيان، فارسة مسترجلة وأبا الهول في آن، امرأةً تجسّدت فيها كلّ مخاوف الرّجال.

تركوا المكان حزانى وسلكوا طريق العودة. مرّة أخرى خسروا فيها واقعة أُحد، بعد أن دنّست نساء العدوّ من حولهم جثث أجدادهم الأموات.

* * *

كانت السماء زُرقةً ملؤها الفراغ. وهذه الصحراء التي امتدّت إلى ما لا نهاية له كانت جدّ صغيرة وضاقت بتلك القافلة. بقافلة حجمها لا يتصوّره الخيال ـ لما انطلق آخر جمالها من مصدره كان أوّلها قد وصل بعد إلى مكان المخيّم الليلي. جمع غفير من البشر ساروا عبر الصحراء النّديبة. كان من بينهم أثرى الحجيج الذين تمايلوا داخل هوادجهم المشدودة بعصيّ من خشب بين جملين وقد أحاط بهم جيش من الخدم والدواب. وكذلك التكروري، وهم الأفقر بين المسافرين ولا يملكون غير وعاء خشبيّ يتقبّلون فيه الصدقات. لم تحملهم دابّة وإذا كسُحوا واصلوا طريقهم عارجين ومتّكئين على هراوات ثقيلة. كان هناك أيضاً باعة القهوة وباعة التبغ المتجولون. سهر على سلامة القافلة ألفان من الباشيبازوك الألبان، الأكراد والأتراك الذين اطمأنّ إليهم الشيخ عبد أقلّ بكثير من اطمئنانه إلى الضّابط في مستراح القوافل في القاهرة. كلٌّ من هؤلاء الجنود كان يحمل ما عنّ له من سلاح وكأنهم أرادوا أن يُضفوا على القذارة وعدم الاكتراث اللذين اشتهروا بهما جميعاً طابعاً شخصياً. كانت الجمال السّورية حيواناتٍ عظيمة بدت إبلُ الحجاز بجانبها في نموّ الأقزام. كان الشيخ عبد الله يصعد من حين لآخر بجمله إلى مرتفع صغير ليرى القافلة وهي تمرّ أمامه في توالي الصّوَر المتراصّة. مشهد مذهل ـ خادم يجري أمام جمل وهو

يحمل نرجيلة يدخنها سيّده بكل راحة بواسطة خرطوم طويل وهو جالس في كرسيّه الخيزراني. مشهد مؤلم جدّاً وكلّه شقاوة: قضت أوّل دابة نحبها بمفعول حرارة الطقس والتكروري والصقور يتناحرون من أجل الجيفة.

كلّما كانت القافلة ثريّة إلا وازدادت عمليات السطو عليها. قال سعد: قافلتنا هذه هي بمثابة لحم محمّر يتمّ جرّه على الأرض. النمل وكلاب الفيافي، جميعها ستحاول أن تقتطع لنفسها منه قطعة. سنكون عرضة لسطو البدو، لسطوهم الغادر طبعاً، دون أن تتاح لنا فرصة نزال عادل. ليلاً سيتسلل اللصوص فرادى إلى داخل المخيم، سيقفزون من الخلف على جمال الحجيج النيّام، سيسدّون أفواهها بعباءاتهم ويرمون إلى رفاقهم بكلّ شيء ثمين يجدونه على ظهر البعير. في صورة التفطّن إليهم سيسلّون خناجرهم ويفتحون لأنفسهم طريقاً. في الليلة الثانية تمّ القبض على بدوي شاب. لم يشتكِ بل بقي جالساً القرفصاء بدون حراك منتظراً عقابه الذي كان يعرفه جيداً. قبل انطلاق القافلة تمّت خوزقته وتُرك مكانه ليموت متأثرا بجراحه ولتفترسه الوحوش الضّارية. لقد فاجأ الشيخ عبد الله الجميع لما عبّر عن ذعره واستيائه. أضاف سعد أنّ هذا العقاب، رغم صرامته، لا يزجر البدو ولا يخيفهم، أنهم فخورون بشجاعتهم وبمهارتهم كلصوص ويعيدون الكرّة باستمرار.

* * *

غبار، ضجيج ورائحة كريهة ـ المدينة تحاملت على نفسها وجرّت جسدها المتثاقل إلى داخل الصحراء التي رافقتها في تنقّلها. رغم أنّ مرافقيه حذّروه من البدو الذين يقومون بأعمال السّلب والنهب صعد الشيخ عبد الله عند غروب الشمس والوجع يعرقل خطاه ـ إصبع القدم الملعون ما زال به التهاب ـ على ربوة قريبة. زلق فأمسك بحجر انفصل عن بقية ما

لدحرج من حصى إلى الأسفل وسقط قبل أن يتشبث بنبات شوكي. كان في حاجة إلى بضع دقائق لاقتلاع الشوك من يديه. تمتع بالوقت الذي تبقّى له فوق الهضبة، بالفرصة الفريدة التي يكون فيها لوحده بعد أن تبنّاه مرافقوه نهائيا وبدون رحمة. محمّد كان بالنسبة إليه بمثابة ابن العمّ صغير السنّ، نشطاً دؤوبا من حوله ومشطّا في تزلّفه إليه. سعدٌ هو أيضاً وجد في السفر نوعاً من المؤانسة التي تلائمه واستبدل فجأة قِلّة كلامه بثرثرة لا تنتهي. كلّما اقتربوا من مكة إلاّ وأغدق صالح على الآخرين بمزيد من نصائحه. كلما أراد الشيخ عبد الله الذهاب إلى مكان إلاّ وسألوه بحزم عن وجهته وكأنّ من واجبه أن يخبر مسبّقا بكل ما ينوي عمله.

في الأثناء غاب آخر ما تبقّى من أشعة الشمس وتغطّى بقطران اللّيل. اشتعلت بعض نيران المخيم فأنارت قاع الوادي وتناثرت فيه كالنجوم. سيقوم في وقت لاحق بجولة داخل المخيّم وسيجلس مع الآخرين حول نار من النيران. الكثير ممّا كان يصل مسامعه لمس فيه دليلاً على الغرور والغباوة، لكنه كان أحياناً يرهف السمع جاهداً أن يفهم كل كلمة. من ذلك مثلاً روايات رجل غير معروف من مصر كان سابقاً في خدمة محمّد علي باشا قال إنّ هذا الأخير كلّفه باستكشاف الطّرق التي تمر منها قوافل العبيد في اتجاه الجنوب، كما أنه سافر كثيراً وتوغل في عمق بلاد الزنوج، هناك وراء الصحراء، أين لا يعرف الناس الجفاف، حتى وصل إلى البحيرات الكبيرة التي لم ير شخصياً لها نهاية، غير أن الزنوج تحدّثوا عن ضفاف غير معروفة لها وقالوا إنّ البحيرات تسمى نِيَاسًا، شَامَا وأُوجِيجِي. أمّا البحيرة الأكبر فكانت في الشّمال وتسمّى أُوكيرِيفي، كانت عبارة عن بحر مستدير الشّكل وسط اليابسة. أحكم الشيخ عبد الله لفَّ عباءته حول جسمه. هذه الليلة، ورغم أن محمدا لا ينام إلا قليلاً، عليه أن يدوّن كل شيء، على قطع متفرقة من الورق سوف يخفيها في صندوق أدويته ويدفنها

تحت علب الحُبيبات. من يدري، لعل مثل هذه المعلومات تُثبت نجاعتها فيما بعد.

* * *

كان على الحجيج أن يتحمّلوا العديد من عمليات السطو البسيطة، لكنّهم بعد أن نزعوا ثيابهم والتحفوا بقطعتين من قماش الحجيج الأبيض ـ القطعة الأولى تُدار حول الخاصرة بينما تُلفّ الثانية حول الكتفين ـ حصل الهجوم الذي خشوه طول الوقت، منذ مغادرتهم المدينة. في الزّريبة تمّ حلق رؤوسهم وتصفيف شعرهم، قلموا أظافرهم واغتسلوا قدر المستطاع. شعروا وهم يدخلون جوّاً جديداً أنّ رحلتهم إلى مبتغاهم بلغت نهايتها. لأوّل مرة تردّدت الهتافات التي سترافقهم منذ تلك اللّحظة حتى اليوم المشهود فوق جبل عرفة ـ لبيك اللهم، لبيك كان النّداء الذي جاء من كل صوب.

كانت مجموعة الشيخ عبد الله أثناء المدّة التي قطعت فيها المسافة بين المدينة ومكة مصحوبة بحجيج كثيرين ومختلفين. لقد اعترضت في طريقها مرّة كوكبة من الوهابيين يتقدمّها طبل نقاري وراية خضراء ظهرت عليها الشهادتان بوضوح وكتبتا بحروف ناصعة البياض. كانوا يتقدمون في صفّين وبدوا وكأنهم سكان الجبال المتوحشون في تصوّر أهل المناطق الساحلية: كانوا سُمرا، عبوسين، بشعر تدلى في شكل جدائل سميكة، كان كلّ واحد منهم مسلحا برمح طويل، ببارودة أو بخنجر. جلسوا فوق جمالهم على سروج خشبية خشنة، بدون وسائد أو رُكب. النساء كنّ كالرّجال: امتطين دوابّهن الخاصّة أو جلسن على وسائد صغيرة وراء أزواجهن. كنّ لا يقدّرن الحجاب حقّ قدره ولا يتصرّفن بالمرّة كما يتصرّف الجنس اللّطيف عادة.

وصلوا برفقة هذه المجموعة المخيفة إلى واد آخر. يميناً صخرة عالية عملاقة في أسفلها مجرى ماء ضعيف ومن اليسار جدار صخري سحيق. بدا الطريق أمامهم وكأنّه مسدود بأشباح من الهضاب تلاشت في الأفق اللازوردي. أشرقت الشمس في الأعلى، أمّا في الأسفل، أين كانوا يسيرون، فقد عمّت الظلال الداكنة. خفتت أصوات النساء والأطفال واختفت نداءات لبيك اللهم، لبيك شيئاً فشيئاً. برز من جهة اليمين ذيل صغير من الدخان في قمّة الصخرة ودوّت بعد ذلك مباشرة طلقة بارود. غير بعيد عن الشيخ عبد الله سقط بعير كان يسير متباطئاً وانثنى على جانب الطريق. ارتعشت السّاقان مراراً ثم جمدت الدابة. فقدت القافلة تماسكها وتفرّقت قبل أن تنفجر طلقات نار أخرى كادت لا تسمع وسط الصياح والعويل. كلٌّ أراد أن يدفع بمطيّته إلى الأمام خارج مضيق الموت ذاك. تداخلت الألجمة. تناطحت رؤوس الدّواب. تسمّر الجميع في أماكانهم وأسفرت الطلقات النّارية عن موت بعض الحيوانات ووفياتٍ بين الأشخاص دُوسوا أرضاً حتى الموت وسط الهلع واضطراب الحركة. أسرع الجنود في كل صوب وأصدر كلّ منهم أوامره إلى الآخرين. الوهابيون كانوا الوحيدين الذين تصرّفوا عن رويّة وبشجاعة. اقتربوا بجمالهم وبجدائلهم المتراقصة في الهواء. توقّف بعضهم وصوّبوا بنادقهم إلى أعلى، مكان تمركز المعتدين. بدأ مئات منهم في تسلق الصخرة وما لبث الطلق الناري أن تراجع ليصمت كلياً. ما كان بوسع الشيخ عبد الله أن يفعل شيئاً غير مراقبة كل ما كان يجري عن كثب بينما وقف صالح بجانبه. قال: كلّما اقترب المرء من هدفه في الحياة إلاّ وازداد الخطر. تصوّرْ أنه يقدّر لك أن تموت على مسافة يوم فقط قبل بلوغك الكعبة! قالا دعاءً مقتضبا ثمّ امتطيا راحلتيهما. هدّد ظلام حالك بابتلاع القافلة. دون أن يكون أحد أصدر أوامر معينة أُضرمت النار في الأجمات اليابسة على

جانبي الطريق. الصخور المشققة والوعرة يمنة ويسرة انتصبت وكأنها مردة سكنها العبوس والضجر. انفتح أمامهم طريق يؤدي إلى أسفل الوادي. كوّن دخان المشاعل والأجمات المحترقة مظلة فوق رؤوسهم وقسَم وهجُ النار الدنيا إلى نصفين معتّمين فصلتهما عن بعضهما حُمرة في لون جهنّم. تعثّرت الجمال من فرط الظلمة وأيضاً بتأثير الضّوء السّاطع الذي بهرها. بعضها انزلق والمنحدر حتى قاع الوادي. أمّا الدواب التي أصيبت من بينها بجروح فلم تستطع قوّة بشرية إخراجها من هناك ـ إذا وُجد أصدقاء للمساعدة كانت الأمتعة تُنقل من على الدّابة ويتواصل السفر على متن دابة أخرى أو على الأقدام. لمّا خرجوا من الوادي في الصباح الموالي كان الإرهاق قد أخذ منهم مأخذه بعد. خرجوا متعبين جداً ولم يشعروا بالرّاحة.

في اليوم الموالي دخلوا مكّة.

* * *

في شهر شعبان من سنة ١٢٧٣

شملنا الله بنعمته وبرحمة من عنده

القاضي: لم نحرز تقدّما. الأفضل هو أن نترك هذه القضية جانباً وأن نشغل أنفسنا بما هو أهمّ منها.

الوالي: بالعكس. ما تعرّفنا عليه حتى الآن يتطلّب منّا مواصلة تحرّياتنا. لم أر في حياتي قضية أكثر غموضا من هذه.

القاضي: هل بقي لنا من نستجوبه؟

الوالي: الأهمّ هو ليس أن نستجوب أحداً بل كيف نستجوبه.

الشريف: من الممكن أيضاً أن لم يقل لنا أحد الحقيقة. من يلقي الأسئلة بأدب لا يحصل إلاّ على أجوبة مؤدّبة.

الوالي: نستطيع أن نسأل بأكثر إلحاحا.

الشريف: علينا أن نكون حذرين وأن نختار من نستجوبهم.

القاضي: عمر أفندي لا يمكن استدعاؤه، إنه حفيد المفتي..

الوالي: طبعاً، نعلم ذلك.

الشريف: ربما صالح الشكّار؟

الوالي: لا أحد غيره يقول الحقيقة.

الشريف: كيف؟

الوالي: إنه تركي، يجلّ السلطان ويحب اسطنبول.

القاضي: هل ترون في هذا ضماناً كافياً ضدّ النفاق؟

الوالي: الأنسب هو حميد السمّان. لقد اقتسم منزله مع الرّجل الأجنبي.

الشريف: لقد ترك لديّ أثرا طيّبا.

الوالي: كان متحفّظا وكانت معلوماته لا تسمن ولا تغني من جوع، شأنها شأن اللحم المدخّن.

الشريف: هذا لا ينطبق على حميد.

الوالي: ولمَ لا؟

الشريف: لأقلْها إذن، بما أنكم تصرّون. علمتُ أنه تجمعه علاقة قرابة بإحدى زوجاتي، والعلاقة بعائلتها هي في غاية الأهمية بالنسبة إليّ.

القاضي: وسعد؟

الشريف: كان فيما مضى عبدا.

الوالي: الزنجي.

القاضي: إبليس. كنية تخلو من اللطافة.

الوالي: يسافر كثيراً ويذهب أيضاً إلى بلدان الكفّار. حتى إلى روسيا! وهذا من شأنه أن يضعه موضع الشك. من يدري لمن هو مُوَالٍ؟

الشريف: سوف لن يكون له شفعاء أقوياء.

الوالي: تجارته تقوده دوماً إلى مكة.

القاضي: سنرى إلى أيّ مدى تصل تقواه.

* * *

قرأ لكلّ شيء حسابا. حتى لفرضيّة أن ينكشف أمره ويُقتل، لكنّه لم يتوقّع أبداً أنّ مشاعره قد تغمره وتسيطر عليه. لا يستطيع مواصلة السير، يضطر إلى التوقف باستمرار. لا شيء بداخله يقف حجر عثرة أمام شعور بالسعادة في طور النشوء. جاشت مشاعر الإجلال والعبادة من حوله وطغت على كل الوجوه. رمز ينتصب أمامه، الكعبة، رمز واضح وجلي، ملتف بالسواد، قماشه طرحة عروس، الطّراز من ذهب، أنشودة حبّ. يا ليلة في منتهى السعادة. يردّد الجُمل التي كلها سحر، إنه يفهمها. يا عروسة كل ليالي العمر، يا عذراء كلّ عذارى الزمان. دوامة الحجيج تدور بعكس اتجاه عقارب الساعة. الشيخ عبد الله متأثر. وكأنّ ما يتحقق حوله من أمنيات العمر يمرّ إليه هو ويشحنه بطاقة لا حدّ لها. يسلّم أمره للدّوامة ليطوف بالمكعّب الصلد سبع مرات. حسبما تقتضيه الفريضة. بخطًى سريعة في البداية، كما نصح بذلك المرشد، الأفضل أن يبقى في أحد المدارات الخارجية ويبتعد عن المدارات الداخلية أين يكثر الزحام وتتجمّد

الحركة. الأفضل في الحقيقة ألاّ ينظر إلى الكعبة ـ هذا المحور المذهل وبعيد المنال. كيف؟ وهو الذي لا يستطيع صرف نظره عنها. فيما بعد، وهو يقترب منها مع الآخرين ويتمكّن من لمس ثوبها بذراع ممدودة، يذوب وسط الزّحام ويتملكه شعور مؤلم يعذّبه ولا ينتهي إلاّ عندما يكفّ عن مقاومته. تيّار الطواف هو الذي يحدّد كل شيء، الاتجاه، السرعة، لحظات التوقف التي يتمّ فيها تقبّل البركة المتأتية من الحجر الأسود ويُنادى فيها: بسم الله والله أكبر. بعد الدّورة الأخيرة يتقدم إلى الحجر مزاحما ـ محمد يساعده على شق طريقه ـ وينحني إلى الأمام ما استطاع إليه سبيلاً في اتجاه الحجر البراق، يلمسه ويفاجأ بصغر حجمه، هذا الحجر الذي يقال عنه إنه كان فيما مضى في بياض الكلس قبل أن تصيّره أَسودَ وأسودَ من السّواد شفاه وأيادي آثمة ما زالت تقبّله وتُمرّر فوقه. الخرافات تقدّم تفسيراً يتماشى ومزاجه، هذا التفسير سيدوّنه في المساء، كما سيدوّن افتراضه، أنّ هذا الحجر بالذات ليس إلا حجرا نيْزكيا.

بصفته واحداً من بين كثيرين تحوم أفكارهم وصلواتهم حول الكعبة، يشعر بأنّه جزء من حلقة تتولد عنها حلقات أخرى تغطّي مكة مروراً بالصحراء ومحطاتها وتصل إلى المدينة، إلى القاهرة، وأبعد من ذلك، إلى كراتشي وبُمباي، ثم إلى ما هو أبعد من كل هذا. يكفي أن يسقط حجر واحد في بحر الإنسانية لتغمر الأمواج أقصى الأراضي المقفرة. انتهى من طوافه بالكعبة سبع مرات. الصلاة عند أثر قدم إبراهيم. يشرب من ماء زمزم. حجيج، حجيج من الهند، يهنئون بعضهم بعضاً. يعتبرونه واحداً منهم ويشملونه بعناقهم. يبقى قليل الكلام. محمد يراقبه. طبعاً، شيء جميل أن يتخيّل المرء أن جميع الناس إخوة وأخوات. لكن شكّا يبدأ دورانه حول الكعبة ويزداد كثافة مع كل دورة. ماذا لو كانت علاقتنا بجميع الناس وثيقة؟ بمن عندئذ سنعتني ولألم من سنتألّم؟ قلبُ الإنسان ليس إلاّ

إناءٌ محدود السّعة، أما الذات الإلهية فهي حكمة لا حدود لها. وهذان عالمان لا يلتقيان. النّظام الذي توحي به الكعبة يبدو له فجأة مريباً. يدير ظهره لجميع من تربطه بهم علاقة وثيقة ويشرب مرّة أخرى من ماء زمزم. هل لا بدّ من وجود مركز وسط؟ من أجل الشّمس؟ من أجل المَلِك؟ من أجل القلب؟ ألم يسأل غُورُوجي من قبل: أرني الوجهة التي لا يوجد فيها الله؟ صدح بسؤاله عندما قيل له إنّه كلّما كان نائماً أو مضطجعاً في فراشه أشارت رجلاه بكلّ وقاحة في اتّجاه مكّة. لقد تكلّم إعلاءً لمنزلة الخالق، أو بالأحرى: إجلالا للذي لم يُختلق ولم يُخلق. فالشّكل بكل ما فيه من سطحية لا يحتاجه إلاّ الذين لا خيال لهم. أولئك الذين لا يقووْن على تصوّر كلّي للوجود إلاّ إذا رأوه منحوتا في الحجر، مطرّزا في القماش أو مجسّدا في لوحة. ماء زمزم كبريتي وبه ملوحة لكنه لا ينضب. الماء جادَ على هذا المكان بالحياة وصار لهذا السبب حقاً جزءاً لا يتجزّأ من عالمه الخرافي. لو كان باستطاعته الاستغناء عنه فلن يشرب منه مجددا ولن يفعل كما يفعل الرجل الملقى على أرضية المسجد الذي نبّهه إليه محمد، رجل مريض قطع على نفسه عهداً بشرب ما يلزم من ماء زمزم إلى أن يسترجع قواه. سأل محمدا: وإذا لم يُشف؟ سيكون السبب بالتأكيد أنه لم يقدر على شرب كمية أكبر من الماء. هكذا يأتي جواب محمد، وكما هو الحال عادة فإنّ الشيخ عبد الله لا يعرف هل إن الشاب يردّد فقط حماقة أجداده أم إنه يهزأ منهم. ثم يضيف محمد: كثيرون هم الحجيج الذين يكلّفون من يحمل لهم ماء زمزم إلى مكان سكناهم فيصبونه على أجسامهم لأنه يطهّر قلوبهم كما يطهّر أجسامهم. من الظاهر إلى الباطن. نحن أهل مكّة نقوم بالعكس.

تزداد شكوك الشيخ عبد الله مع كلّ خطوة يبتعد بها عن الكعبة.

* * *

في شهر رمضان من سنة ١٢٧٣
شملنا الله بنعمته وبرحمة من عنده

الوالي: غير مقبول. أنتم تعتدّون بأنفسكم أكثر من اللازم. سنجبركم على سحب هذه الفتوى.

الشريف: أملي وطيد في أن نتمكن من التوصّل إلى حل وسط يرضي..

الوالي: لعن الله كلّ تسوياتكم المريبة.

القاضي: سوف لن نجعل حكمنا العادل رهن إرادة فرعوني.

الوالي: كلامكم هذا جنون. أنتم تضعون إرادة الخليفة موضع الشك.

القاضي: هو أيضاً يخضع بدوره للسنة الإلهية.

الشريف: حاولوا أن تفهموا، عبد الله باشا، لقد اشتكى جميع كبار تجار المدينة لديّ ولدى القاضي، ولا أحد من بينهم راض على إجراءاتكم.

الوالي: هم غير راضين لدوافع أنانية.

الشريف: يخشون إلغاءً كاملاً للعبودية.

الوالي: هم يعلمون جيداً أن تجارة الرقيق فقط تمّ حظرها.

الشريف: بدون تجارة رقيق سوف تلغى العبودية على المدى البعيد.

الوالي: حتى وإن اختلفنا في الآراء، أرى أنه ليس من المعقول أن يعلن القاضي على الملأ أنّ الأتراك، بسبب هذا المرسوم، صاروا كفارا.

القاضي: هل من شيء آخر تريدون فرضه؟ هل تظنون أننا لسنا على علم بما يجري في أماكن أخرى؟ ما الذي ستمنعون لاحقاً، أيّة بدع تجلّ

عن الوصف ستُجيزونها إن نحن لم ندافع عن أنفسنا؟ هل سيُعوّض الآذان قريباً بطلقة بارود؟ هل سيُسمح للنساء بالظهور سافرات؟ هل سيكون لهنّ الحق في طلب الطلاق؟

الوالي: أنتم تبالغون مبالغة مشطّة. تجارة الرقيق فقط تمّ حظرها.

القاضي: كيف؟

الشريف: أظن أن الخليفة يتمّ الضّغط عليه لأنّ الفرنجة يطالبون بحقهم الذي نصّ عليه الاتفاق بعد أن ساعدوه على كسب الحرب ضدّ موسكو.

القاضي: ما تتمّ المساومة بشأنه في اسطنبول لا يمكن اعتباره مقياسا يقاس به خير وسلامة البقاع المقدسة.

الوالي: لا تستطيعون أن توقفوا عجلة التاريخ.

القاضي: عجلة التاريخ؟ حتى وإن وُجد شيء كهذا، يجب علينا أن نتصدى له. إذا تواصلت الأمور على هذا النحو فسيأتي الكفّار ذات يوم إلى الحجاز ليستقروا فيه، سيتزوّجون مسلمين ومسلمات وفي النهاية سيتغلغلون داخل الإسلام ويضعفونه.

الوالي: العرب أنفسهم سيتكفّلون بكلّ هذا. إنهم يعيشون بلا شرف ولا يحترمون الخليفة. نحن نتعامل معهم بنية حسنة، لكن ما هي النتيجة؟ ندفع لرؤساء قبائلهم ضرائب من الحبوب والقماش بينما هم يسلّحون رجالهم بهدف السّطو على القوافل.

الشريف: في إطعام العدوّ هذا سوء تقدير من جهتكم.

القاضي: انقرض العدل منذ أن احتللتم بلادنا. الآن تحصدون ما زرعتم. كلّما تمّ القبض على لصّ لا تكون لكم الشجاعة الكافية لضرب

عنقه. كلّ هذا له دلالاته الخاصّة. لقد جعلتم من التسلّط قضاءكم الوحيد.

الوالي: صار الحجّ أكثر أمنا، ولو نسقنا جهودنا لاستطعنا نشر السلام وفرضه حتى على البدو في المناطق النّائية للبلاد.

الشريف: نحن لا نتوقف عن مساعدتكم، قدر المستطاع، لكنّنا مقيّدون، لا تنسوا أننا لم يبق لنا كثير من النفوذ كما في السابق.

الوالي: وما الذي تغيّر؟

الشريف: السّفينة. السفينة هي عدوّ لم نقرأ له حسابا. كم كانت رائعة تلك الأيام التي رعى فيها أجدادنا مناسك الحج، عندما كانت ست قوافل وحشود من البشر تسير وراء حكّامها إلى الحج. هل تعلمون أن آخر الخلفاء العباسيين خيّم في جبل عرفة ومعه مائة وثلاثون ألف دابة؟ واليوم؟ أين نحن اليوم؟ يا للتعاسة! ثلاث قوافل فقط تصل إلى مدينتنا، أعلى الله شأنها، وتعُدّ ما يناهز عشرة آلاف من الحجيج فحسب، أمّا قافلتا اسطنبول ودمشق فسوف لن يبقى منهما قريباً سوى المظهر الاحتفالي الرّسمي. إذا تواصل الأمر على هذه الشاكلة فسوف لن نجد في القريب العاجل المال الكافي الذي يمكّننا من القيام بواجباتنا.

القاضي: قد يكون فقركم عندئذ رحمة. لأنّ الوهابيين سوف لن تستهويهم كل هذه الكنوز.

الشريف: الوهابيون سوف يحاولون إخضاعنا لحكمهم حتى وإن لبسنا كلّنا خِرقا.

الوالي: ألا تبالغون في وصف حاجتكم؟ أنتم تحصلون على ربع دخل الضرائب، وحسبما أعلم فإنّ القادمين بالسفينة يحملون معهم هدايا للمسجد الحرام، أجلّه الله ورفع من شأنه. ثم تأتي التراخيص التي يقتنيها

منكم كل مرشد، هل لم يعدْ هذا تجارة مربحة؟ السلطان غير راض على النفوذ الكبير الذي ما زال بحوزتكم.

الشريف: حسن، لو أنّ جنودكم على الأقل يساعدوننا على تأمين سلامة الطّرُق. القوافل يتمّ نهبها باستمرار، إنها تذوب وكأني بها مكعبات من الثلج ننقلها عبر الصحراء ولا يبقى لنا منها إلا بعض القطرات.

القاضي: علينا أن نجدّد الإيمان. بما أنّ المرتدّين يحكمون العالم، يتوجّب علينا الرجوع إلى مسلك الطاعة العمياء.

الوالي: كفى لغوا. دعوني فقط أحكي لكم حكاية تُعجب سلطاننا كثيراً. ذهب أسد وذئب وثعلب معاً إلى الصيد فاصطادوا حمارا وحشيا، غزالا وأرنبا. طلب الأسد من الذئب أن يقسّم الصيد فيما بينهم قسمة عادلة. قال الذئب دون أي تردّد: حمار الوحش لك أنت، الغزال لي والأرنب من نصيب صديقنا الثعلب. رفع الأسد كفّه وضرب الذئب بخفّه ضربة اقتلعت رأسه. ثم التفت إلى الثعلب وقال: عليك أنت الآن أن تقسّم الصيد. انحنى الثعلب أمام الأسد انحناءة كبيرة وقال بصوت رخيم: يا جلالة الملك، القسمة هي على غاية البساطة. الحمار الوحشي سيكون غداءك، الغزال سيكون عشاءك والأرنب لا بد أنك سترحب بها كأكلة شهية بين الوجبات. هزّ الأسد رأسه معبّرا عن رضاه ثمّ قال: أراك تبدي أدبا وتفهّما كبيرين، قل، من علّمك كل هذا؟ فأجاب الثعلب: رأس الذئب.

* * *

أثناء النّهار تبدو الألوان في الصحراء وكأنها ممحوّة بينما تتّخذ الصحراء لنفسها في مكّة مقاماً رغم البنايات العالية والأزقة الضيقة. فترة الانتقال من النّهار إلى الليل قصيرة، لحظات تعود فيها لمسات الألوان

فيتراضى الإنسان مع جدب النّهار. يبدو للشيخ عبد الله، الذي اتخذ لنفسه مكاناً مناسباً تحت الأروقة، وكأن تشكيلة من الألوان سقطت من يد شبح آدمي لم يلبس إلاّ البياض. يعجب لدرجات اللون الأبيض المختلفة التي يكتشفها فجأة في الإحرامات. يتمّ بعد ذلك بقليل إيقاد المشاعل فيشرق المسجد الحرام نوراً بينما تغرق السماء في الظلمة. الصّلوات التي تقام من حوله تنبعث منها العدوى، هو أيضاً يريد أن يركع، أن يغُوص، لكنّه لا يدري فيمَ الغوص. عند تلاوة القرآن تقف أمامه أفكاره دوماً حجر عثرة فيتساءل عن مغزى السورة. يبدأ الصلاة لكنّه سرعان ما يقطعها لاقتناعه بأنّه لا يقبل بها إلاّ بوصفها عملاً جماعياً. ليس من السّهل أن يحمل المرء نفسه قسراً على الصّلاة في انفراد. ينتصب واقفاً ويبحث عن مكان عال يسمح له بمشاهدة ما فوق رؤوس الغارقين في طوافهم، بأن يرى الكعبة. بما أن اللسان يرفض أن يصليّ فسيصلّي بعينيه. البشرية تدور حول المحور الرّمز في نسق منتظم وكأنها وقفت كلها فوق مخرطة الخزف الإلهية. باستطاعته أن يتأمّل هذا الدّوران لساعات كاملة. مرّة يبدو له كسباق متواصل بين الإخلاص والولاء ومرّة أخرى لا يرى فيه غير شطحات عمياء.

يشعر أنّ هذا المكان يحتضنه، يدثّره لينام بعيداً عن كل فخاخ الدنيا وكيدها. تعوّد على الإسلام والتحم به أسرع ممّا كان يتوقّع. ترك التكفير عن الخطايا والحرمان جانباً ودخل مباشرة إلى هذا العالم السماوي. ما من تراث أحدث مثل هذه اللّغة الجميلة لقول ما يجِلُّ عن الوصف. بدءاً بترتيل القرآن ووصولاً إلى تلك الأشعار الآتية من كُونيا، بغداد، شيراز ولاهور والتي يتمنّى أن تُدفن معه بعد مماته. الله في الإسلام غنيّ عن كل وصف، وهذه النظرة تبدو له سديدة. والإنسان حرٌّ مخيّر، لا يخضع للخطيئة الأصلية ودليله العقل. طبعاً، هذا التقليد هو كغيره من التقاليد

ليس بقادر على إصلاح الإنسان وتمكين الضّعيف المتهاوي من الوقوف على رجليه. لكن العيش ضِمنه هو مفخرة حقّاً، مقارنة بالعيش في القيعان المحزنة والكئيبة للمسيحية. لو يستطيع أن يؤمن بتفاصيل هذه التقاليد ـ ليس ضرورياً أن يؤمن المرء بكلّ ما هو عامّ وشمولي، هذه نقطة مهمّة جدّاً وأساسية ـ، لو بإمكانه أن يتصرّف بمحض إرادته ثم لو يُسمح له بأن يأخذ ما يحتاجه، لسوف يختار الإسلام قبل غيره. لكن هذا غير ممكن لأن الطريق كلها عقبات ـ قوانين بلاده، قوانين الإسلام وتردّده الشخصي ـ، وفي لحظات كهذه يبدو أسفه واضحاً. يستمتع بالجنّة التي تحيط به، لكن، رغم كل شيء، لا يمكن القبول بحياة بعد الموت، كذلك لا يمكن القبول بالحسابات التي يقال إن الله يسوّيها ليعمّر ملكوته. الله هو كلّ شيء ولا شيء ولكنه ليس كاتب حسابات.

* * *

في تلك الليلة طلع الهلال الجديد على مكّة. جلسوا قرب أثر قدم الجدّ الأول إبراهيم. سأل محمد: بماذا تشعر الآن؟ فأجاب كما كان منتظرا: هذا هو أسعد هلال جديد أراه في حياتي. قال هذا ثم عاد فتفحّص كلامه وخلُص إلى أنه كان مصيباً. ثم أضاف ليَسمع سندُه الشابّ ملء أذنيه، سندُه الذي سوف لن يكفّ عن ترصّد هفواته: نتوسل إلى الله العلي القدير أن يهدينا إلى شكر نعمته علينا وتقدير ما خصّنا به من جمّ خيراته حق قدره، من ذلك دخول الجنّة وجزاؤنا بما عهدنا من حسناته عونا وسندا لنا ورحمة بنا. قال محمّد بصوت خافت: آمين. لكنّ الشيخ عبد الله سارع ليغلق كتاب الأسئلة الذي فتحه محمّد مردّداً بدوره: آمين، كلمةً صادقة من الأعماق ارتفعت دعاءً في الأجواء وكأنها حمامة من حمائم مكّة.

بعد ذلك، بينما ذهب محمد لشرب قليل من ماء زمزم، وضع رسماً للمسجد ثم قصّ الورق إلى عدّة أشرطة صغيرة رقّمها وأودعها محفظته.

* * *

في شهر شوال من سنة ١٢٧٣

شملنا الله بنعمته وبرحمة من عنده

الوالي: هل أنتم مستعدّون لمساعدتنا على التوصّل إلى الحقيقة؟

سعد: جئت مسالما إلى مدينتكم. قصد التجارة. أودعتموني السجن. نلتم من شرفي.

الشريف: ننتظر منكم بعض الأجوبة الصادقة قبل أن نطلق سراحكم.

سعد: ماذا فعلت لأستحقّ كل هذا العذاب؟

الوالي: رفضتم مساعدتنا.

سعد: أنا لم أرفض.

الوالي: نودّ أن نثق فيما تقولون، لكن عليكم أن تنزلوا عند رغبتنا.

سعد: نعم، هناك شيء لم أذكره من قبل.

الوالي: شيء أخفيتموه عنا.

سعد: ما كنت لأعلم أنه مهمّ. لقد كَتَبَ على إحرامه.

القاضي: على القماش مباشرة؟

سعد: نعم.

الوالي: ماذا كتب؟

سعد: لم يكن ما كتبه واضحاً.

الوالي: هل يعني هذا أنك لم تستطع رؤية ما كتب أم أنك لم تتمكن من قراءته.

سعد: لم أحاول.

الوالي: ولماذا لم تعتبر هذه المعلومة على قدر من الأهمية يجعلك تخبرنا بها؟

سعد: كان في بعض الأحيان غريب الأطوار. شأنه شأن جميع الدراويش. ظننت أنه كان فقط يدوّن دعاءً أو تبريكاً سمعه أمام الكعبة.

الوالي: هل رأيته يكتب داخل المسجد الحرام فقط؟

سعد: رأيته أيضاً مرة أخرى.

الوالي: أين؟

سعد: في الطريق العام.

الوالي: أين؟ بصفة أدقّ!

سعد: قرب الثكنة.

الوالي: ماذا كنتما تفعلان هناك؟

سعد: كنّا نتفسح.

الوالي: ولماذا في هذا المكان بالذات؟

سعد: ليس في هذا المكان فقط.

الوالي: ماذا؟ هل من شيء آخر أخفيته عنا؟ تكلّم!

سعد: لقد قتل شخصاً.

القاضي: ماذا؟

سعد: أثناء تنقّل القافلة من المدينة إلى مكّة. رأيتُه وهو ينظف

خنجره. في صباح اليوم الموالي عُثر على حاج مقتول بطعنة خنجر.

القاضي: إنه مجرم!

الوالي: هل ساعدته على القيام بفعلته؟

سعد: لا!

الوالي: لكنك لم تخبر أحداً بهذا.

سعد: لم أشاهد غير خنجر ملطّخ بالدم. لعلّه تمّت مهاجمته فدافع عن نفسه، لعلّ النّزال كان عادلا.

الشريف: هل سألتَه في الموضوع؟

سعد: لم يكن من حقّي أن أسأله.

الوالي: كم دفع لك؟

سعد: لا شيء. ثمّ ما الذي يجعله يدفع لي مالا؟

الوالي: مقابل خدماتك.

سعد: لقد اصطحبته مراراً بمحض إرادتي.

الوالي: هذا أدهى وأمرّ! خائن عن عقيدة وإيمان.

سعد: هل خنتُ أحدا؟

الوالي: الخليفة ودينَك.

سعد: لم أخن أحداً.

الوالي: أنت تكذب.

سعد: لم أخن أحداً.

الوالي: سنعلّمك ترك الكذب. خذوه!

* * *

الوالي: سمعنا أنّك نادم وتريد أن تعترف لنا بكل شيء.

القاضي: لننتهِ بسرعة من هذا الموضوع.

سعد: نعم، لقد ساعدته.

الوالي: كيف؟

سعد: هو ألقى أسئلة وأنا أجبته عنها. وعندما لم أعرف الجواب حاولت أن أبحث عنه.

الوالي: بماذا تعلقت الأسئلة؟

سعد: بكل شيء. كان فضولياً إلى حد كبير.

الوالي: أمثلة، أعطنا أمثلة قبل أن نعيد إليك أوجاعك.

سعد: تقاليدنا، عاداتنا، أسرار القوافل والتجارة.

الوالي: والسلاح؟

سعد: نعم، كان جدّ مهتما بالسلاح.

الوالي: بأي نوع من السلاح؟

سعد: بالخناجر المزيّنة بالذهب.

الوالي: هل تسخر منا؟

سعد: لا، أبداً. الخناجر القديمة ومتقنة الصنع كانت تثير اهتمامه.

الوالي: متى بادرك بالكلام لأول مرة؟

سعد: قبل أن نصل إلى المدينة بقليل. كان عليه أن يقوم بنوبة الحراسة وكنت استيقظت باكراً. بادرني بالحديث.

الوالي: لماذا فعلت كل هذا؟

سعد: لم يكن لي دافع محدد.

الوالي: هل أردت الانتقام؟

سعد: ممّن؟

الوالي: منّا جميعاً.

سعد: وأيّ ضرب من الانتقام يكون هذا؟

الوالي: لا بدّ أنك كان لك دافع أيها الزّنجي الملعون.

سعد: دافع المال؟

الوالي: نعم، لا بدّ أنّ الدافع كان المال..

سعد: تجارتي كانت كاسدة.

القاضي: منذ البداية كان لديّ مثل هذا الشعور، كونك لا تتورّع عن بيع وفائك وشرفك لمن يدفع لك أكثر مالاً.

الوالي: أرأيت بكمْ من الأسرار أنت مُخبرنا عندما تكون لك الإرادة الصادقة.

سعد: نعم، إرادتي صادقة.

الوالي: هل ذكر من الذي أرسله؟

سعد: لم يقل شيئاً أبداً. لم يذكر موسكو مرة واحدة.

الوالي: موسكو؟ لماذا موسكو؟

سعد: أقصد الذين كانوا كلّفوه بالمأمورية، لم يقل عنهم شيئاً.

الوالي: ماذا؟ هل لمّح في حضرتك إلى أنه روسي؟

سعد: لا، كان هنديا. لكن إذا كان حقاً تجسّس ف..

الوالي: لحساب موسكو؟

سعد: ليس لحساب موسكو؟

الوالي: قل لنا الحقيقة . .

سعد: ذاك ما أنا بصدد قوله في الواقع، أؤكد على أنه كان جاسوسا. لا أعلم بالضبط من أيّ صنف كان. قلت في نفسي إنْ لم يتجسس لحساب موسكو فقد يكون تجسس لحساب نائب الملك.

الشريف: إنه لا يعرف شيئا!

الوالي: ماذا؟

الشريف: واضح أنه يجهل كل شيء. كل ما قاله إنما كان من نسج خياله.

الوالي: هل هذا صحيح؟ سآمر بسلخ جلدك أيها الكلب القذر.

سعد: الآلام هي التي جعلتني أقول ما قلت. أجبرتموني على كل هذا.

الوالي: كذبت علينا مرتين!

سعد: لا أبداً، أبداً.

الوالي: أخيراً أريد أن أعرف الحقيقة.

القاضي: الحقيقة ليست ثقيلة السّمع، أيّها الشيخ.

الوالي: أرى أنّ كل هذا يرضيكم تماماً، أليس كذلك؟ أنتم تتلذّذون ما نعانيه نحن من صعوبات.

القاضي: التوصّل إلى الحقيقة صعب بالنسبة إلينا جميعاً، يا شيخ. لا يمكن استثناء أحد وليس من بيننا من يسرّه مثل هذا الوضع المتردّي.

الشريف: اعترافه لا قيمة له.

القاضي: كان شعرا منظوما، رغم أنّ الفكرة لم تكن جيّدة. كان وحياً مكّيا بحق.

الوالي: ماذا تعنون؟

القاضي: عفوا، لقد نسيت أن الإلمام بالشِّعر القديم لم يعد حاجة ملحة لتقلّد أعلى المناصب. وهذا يعني أن اعترافه كان أُحادي الجانب إلى درجة أن لا أحد غيره هو والله يستطيعان فهمَه.

الشريف: حان موعد صلاة الظهر.

القاضي: وهذا الرّجل؟

الوالي: ما به؟

القاضي: أطلب بإلحاح أن يُغسل وأن تقدّم له ملابس لائقة. هل يؤدي صلواته وهو على هذه الحال؟ لا نريد اقتراف أيّ ذنب من الذنوب!

الوالي: لا أظن أنه قادر جسدياً على أداء الصلاة.

القاضي: لنترك الأمر بين يديه. من واجبنا فقط أن نوفّر له إمكانية الصلاة، إن أراد الصلاة.

* * *

لبيك اللهم لبيك. تكررت الأدعية والنداءات ليل نهار، نطقت بها جميع الأفواه وتعالت في كل مناسبة ومكان. بها اقترب الحجيج من المسجد الحرام، بها دخلوا دكان الحلاق، بها سلّموا في الطريق على من يعرفون ـ لبّيك هي نغمة ردّدتها الجوقة باستمرار بمناسبة الحج الأكبر والحجّ الأصغر، نغمة أضفت حتى على فترات الاستراحة مسحة من النّور. أمّا في اليوم الثامن من شهر ذي الحجة فقد كان للنداءات وقع أناشيد السّير ردّدها جيش عرمرم. انطلقت الجموع الغفيرة بعد خروجها من مكة في اتجاه جبل عرفة، قمة فريضة الحجّ، لتقف أمام الله وتلتحم به وجوداً حاضراً، غير عابئة بالحرّ والإعياء.

توقّع الشيخ عبد الله، بعد الإقامة في المسجد الحرام والإطلالة على الكعبة، أنّه سوف يعيش في سفح جبل عرفة وفي القرية العالمية العفراء منى أحداثا في منتهى الأهمية، سيعيش مزيداً من تأثيرها عليه، لكن ما حصل في الصحراء خارج المدينة المقدسة جعله يندم على مغادرته مكة رغم خروجهم منها في هوادج محمولة مريحة وفي ساعة مبكرة، حسبما نصح به محمد. قال هذا الأخير إنّ من يصل متأخّرا إلى جبل عرفة لا يجد مكاناً قريباً ومناسباً لنصب خيمته. الحيوانات الميتة على حافة الطريق كانت بادية للعيان. جيَفٌ لا يحصى عددها تم إلقاؤها بكل بساطة في الخنادق الجانبية. من كانوا من البدو داخل مجموعتهم سدّوا مناخرهم بقطع من القطن وآخرون ألصقوا مناشف بأنوفهم وأفواههم. وصلوا إلى عرفة، هضبة في الأطالس وجبل عظيم من الميتافيزيقا. كان الخلاء المحيط به يغصّ بالعدد الهائل للحجيج. نصبوا خيامهم في السفح واستسلموا لحواراتهم شبه البكماء، أملا في أن يروا أنفسهم قد بلغوا نهاية ذلك اليوم. كان بعض الحجيج يغمغمون وآخرون يتمتمون وهم يحركون شفاههم في هدوء. من المؤكد أن أفكارهم كانت تقوم بتسجيل أدنى ضعف أو هفوة، من المؤكد أنهم كانوا يصلحون كل ما في هذه القائمة الشخصية من نقائص ويوسّعونها لتحوي أكثر من معنى جديد من معاني التّقوى. هل ذُعروا لرؤية كلّ ما تجمّع في الأثناء من خطايا؟ هل أرادوا أن يكونوا صادقين إلى درجة أنهم اختصروا قائمة ما كانوا ينوون القيام به، خوفاً من أن يعِدوا بشيء أمام الخالق وألاّ يُوفوا بوعدهم في يوم الحساب هذا، يوم الحساب الحقيقي.

دوّت فجأة طلقة مدفعية وسط صمت وخشوع الحشود معلنة موعد صلاة الظهر. لم تلبث بعد ذلك أن انطلقت دقّات الطبول وعلتْ أصوات حادّة. نادى محمد: تعال معي، موكب الشريف وصل. تسلّلا مندسّين

إلى المقدمة وسط الزحام إلى أن شاهدا الموكب يتسلق مسلكا يقود إلى أعلى الجبل تتقدمه فرقة موسيقية تتكون من انكشاريين تبعهم حملة الشّعار الرّسمي الذين أخلوا الطريق من الناس في تشنّج. تبعهم العديد من الفرسان وقد أمسك كل واحد منهم برمح بالغ الطول ومزيّن بأهداب همزوا بها جيادا، تربّت في إسطبلات الشّريف، لحثّها على السير، خيولا عربية أصيلة بلبادات قديمة ومهترئة. سار وراء الجياد عبيد من الزنوج على الأقدام حمل كل منهم بارودة بجانب الأعلام الخضراء والحمراء التي رُفعت منتكسة حماية للرّجل رفيع الشأن، شريف مكة وحاشيته وعائلته. استطاع محمد أن يتعرف على كل فرد داخل هذه المجموعة رفيعة الشأن. اتضح أن الشريف رجل مسنّ، ناسك بجلدة شديدة السمرة ورثها عن أمه، تلك الأمة من أصل سوداني ـ بدا محمد على أتم المعرفة بأحوال العائلة. قال وكله إعجاب إنّ منظر الشريف لا يوحي بالشيء الكثير لكن ليس هناك من يضاهيه دهاءً ومكراً. سار جنباً إلى جنب مع الشريف، الذي مرّت عيناه الجامدتان فوق الجموع في سرعة العقرب عندما تتحرك فوق الرمل، رجلٌ يفوته طولا قدر شبر، لم يُغطّ الإحرام كامل جسمه الفظّ ومثّلت لحيته الصغيرة على ذوق العصر تضاربا صارخاً مع لحية الشريف الكثة. قال محمّد، هذا هو الوالي التركي، لا أحد يحبه، وأظن أنه هو نفسه لا يريد شيئاً آخر. بعكس الشريف بدا الوالي وكأنه يتجاهل وجود الناس المجتمعين. على بعد بضع خطوات كان رجل أصغر من الأوّليْن سنا بوجه مستدير ذي ملامح لطيفة زادت أنوثتُها بروزا بمفعول شعر لحيته الخفيف الذي انتشر هنا وهناك على محيّاه. كان الوحيد من بين أفراد المجموعة الذي بدا منطوياً على نفسه، كجزء من الموكب وغريباً عنه في نفس الوقت. كان محمد لا يعرف الشيء الكثير عنه ما عدا أنه القاضي وأحد مقرّبي أعظم علماء المدينة شأنا في الماضي القريب وأنه، هكذا، وصل

إلى مراتب الشرف والتبجيل منذ صغر سنه، إلى مراتب صمدت أمام الأقدار. ابتلعت الحشود الغفيرة الموكب وبرزت من ورائها شامخةً صخور جبل عرفة الصوّانية التي بدت وكأنها ذكرى بعيدة للحدث الجلل. تسلّق الحجيج جانبي الهضبة إلى أعلى وفجأة حلّ صمت شمل جميع الأرجاء، كان إشارة إلى أن الخطبة قد بدأت بعدُ رغم أن محتواها لم يصل إلى المكان الذي وقفَا فيه. شاهد الشيخ عبد الله رجلاً مسنا راكبا جمله وهو يحرّك يديه من حين لآخر على نسق ما كانت تنطق به شفتاه. علم بعد ذلك أن الخطبة ذكّرت ككل سنة بقصة آدم وحواء وبالدموع التي ذرفها آدم في ذلك المكان بالذات أثناء صلاته التي دامت شهوراً بأكملها إلى أن تكونت بحيرة انتعشت الطيور بمائها العذب. بعضٌ من مقاطع الخطبة تمّ التأكيد عليها بواسطة نداءات الحجيج المنتصبين في أماكنهم، بواسطة هتافات من قبيل آمين ولبيك جاءت في أول الأمر متفرقة، خافتة وفي أناة لتزداد قوّتها ويرتفع نسقها فتجرّ إليها حتى أولئك الذين كانوا بعيداً جدّاً عن مكان الخطبة. في نهاية الأمر اغرورقت أعين أولئك الذين أحاطوا بالشيخ عبد الله بالدموع ـ دفن محمد وجهه في منديل أبيض ـ وكثيرون هم الذين أجهشوا بالبكاء رغم أن لا أحد منهم فهم كلمة واحدة ممّا قيل. كان مضمون الخطبة المؤثر على النفوس معروفاً لدى الجميع. إنّ ما تفشّى في البداية كنار أُضرمت في القشّ ما لبث أن تحوّل إلى حريق هائل. كلما ازداد العشيّ احمراراً إلاّ وتكثّف تضرّع الحجيج أكثر. طلبوا المغفرة، طلبوا الهداية والطّاعة، طلبوا موتاً يسيراً والحِلم يوم الحساب، طلبوا الاستجابة لدعائهم في الحياة الدنيا. لم يتخلّف حاج واحد في تلك الساعة عن صفّ الجموع الراكعة.

مع غروب الشمس جاءت التّهاني.. عيدكم مبارك.. عيدكم مبارك. اكتمل الحجّ بنهاية ذلك اليوم. غُفرت الذنوب ووُلد الحجيج من جديد

وصار من حقهم أن يطلقوا على أنفسهم لقب «حاج». عانق الشيخ عبد الله سعدا، محمدا وعمّه. أحسّ بفخر حقيقي وغرق في سحره بكل بساطة وعلى حسن نية. كلهم كانوا مرتاحين وبدوا وكأنهم يحلّقون في الجوّ. ما لبثت أن غادرت أول دفعة من الحجيج المكان. جمع كلّ أمتعته على عجل، ألقى بالخيام المحزّمة تحزيما غير كاف على ظهر الدواب وانهال على هذه الأخيرة ضربا بالسوط والعصا. نسمّي هذا سباق عرفة، هذا ما قاله محمّد الذي راقه أن يتكفّل بدور المعلّق المتعقّل. نزل الحجيج من الربوة بسرعة وهم يصيحون بأقصى ما أوتوا من قوّة ونشاط: لبيك اللّهم لبيك. رغم أنّ كل واحد في مجموعتهم ساعد على الإعداد للرحيل، لم تنطلق الجمال إلا بعد أن جنّ الظلام. الكلّ يتدفق صوب الطريق المؤدّية إلى منى. كانت الأرض مزروعة بالأوتاد التي تركها أصحابها. شاهد الشيخ عبد الله وسط الزحام هودجا يُرفس، كيف أن بعض المترجلين وقعوا تحت الحوافر، كيف أن جَملا خرّ، كيف أن حجيجاً صدّوا حجيجاً آخرين ضربا بالهراوة، سمع أصواتا تبحث عن حيوان أو عن امرأة وابنها. تدافعَ الحجيج داخل الوادي الذي بدا مع حلول الليل أضيق وأعمق من ذي قبل. وصلوا المضيق المعروف باسم المعزُوميْن والمعلّم عليه بعدد لا يُحصى من المشاعل كانت تحترق بقوّة وكأنها استمدّت طاقتها من هيجان الجموع الغفيرة. تطاير الشرر بعيداً وتخطّى السهل وكأنه شهاب أرضيّ ساقط. توالت طلقات المدافع، جنود أطلقوا العنان لبنادقهم احتفالا بالمناسبة وطاقم الباشا الموسيقي عزف مقطوعاته بعيداً، في مكان ما وراءهم. صعدت الشّماريخ إلى السماء، أطلقها موكب الشريف، حسبما أَعلم به محمد، أطلقها أيضاً بعض الحجيج الموسرين الذين أرادوا إحاطة السّماء علما بأنّهم صاروا يحملون لقب «حاج»، ولعلّهم ظنّوا كذلك أنّ رسالة المفرقعات هذه كان من

الممكن مشاهدتها في مسقط رؤوسهم. ركضت الدواب بسرعة وكانت للعجلة أسبابها، وأيضاً للصياح الذي أصمّ الآذان وعبرت به الجماهير ممرّ المعزومين في اتّجاه مزدلفة ومنى. لم يسيروا أكثر من ساعتين حتى وصلوا إلى مخيّم غير منظم تماماً. حطّ كلّ رحاله في أفضل مكان حصل عليه. لم تنصب خيام أخرى غير خيام الباشا بمصابيحها العالية التي أضاءت كامل اللّيل بينما واصلت المدفعية طلقها الناري بدون انقطاع، كان بمثابة آخر مقطع لأغنية لا تصل إلى نهايتها. وسط الاضطراب الذي تسبّبت فيه مغادرة جبل عرفة فقدَ الكثير من الحجيج جِمالهم، وبينما كان الشيخ عبد الله يبحث عن النوم بدون جدوى وهو ملتف بإحرامه وغطاء خشن، سمع أصواتهم المبحوحة وهي غارقة في تيهها.

* * *

في شهر ذي القعدة من سنة ١٢٧٣

شملنا الله بنعمته وبرحمة من عنده

محمد: راقبته باستمرار. كنت على يقين من أنه سيرتكب هفوة في يوم ما. أردت أن أكشف عنه. طلبت من أحد أعمامي أن يرافقنا إلى عرفة ومنى حتى يكون بجانبي ليساعدني. وحسناً فعلتُ. في جبل عرفة انقطعت الصلة بيني وبين الآخرين. اقتربت من مكان الخطبة لأنّ هذه الأخيرة لم تكن لتُسمع من المكان الذي كنا فيه، غير أن الشيخ عبد الله كان شديد الحرص على ألاّ يكون خروجنا من عرفة متأخرا ولذلك أمر بانطلاق الجِمال. لما عدت إلى مكاننا لم أجد أحداً. اضطررت إلى قطع المسافة حتى منى على قدميّ. بحثت عن الآخرين لساعات ثم أسلمت أمري واستلقيت على الرمل لأنام. شعرت بالبرد لأنّ الإحرام لم يكن كافياً

كغطاء. لحسن الحظّ أنّ عمّي كان مع الشيخ عبد الله في نفس الهودج وتمكّن من مراقبته أثناء غيابي. حدث شيء غريب، شيء مفاجئ. بدأ الشيخ عبد الله يتلوى ويرتمي يمنة ويسرة وكأنه يتألم بسبب كلّ المعاصي التي كان اعترف بها قبل ذلك. أخذ يهذي واشتدّ ارتعاده، صار الهودج مهددا وحاول عمّي تهدئته، ألحّ عليه بالكلام لكن الشيخ عبد الله لم يتوقف. لا بل صرخ في وجهه وجاءت كلماته بُصاقا. الذنب ذنبك، والله أنت المذنب. عندما تأخذ لحيتك إلى خارج الهودج وتتركني وحالي، سييسّر الله علينا الأمر. امتثل عمّي إلى طلبه، نظر إلى خارج الهودج وأرهف السمع ليتحقق فيما كان يجري في الخفاء. بدا الشيخ عبد الله بعد ذلك مضطربا للحظات ثم تراجع ارتعاده. انتابني الشكّ منذ البداية في كون الشيخ عبد الله كان درويشاً، وزادت هذه الحادثة من شكوكي.

الوالي: يبدو أنّ عمّك ليس له مثل عقلك الثاقب. كانت نوبة الشيخ مجرّد تمويه!

محمد: كيف عرفتم ذلك؟

الوالي: قرأته في كتابه. تظاهر بالنوبة لينظر بكل راحة إلى الوراء ويستطيع رسم جبل عرفة.

محمد: إذن كانت شكوكي منذ البداية في محلّها. لماذا لم أضبطه ملتبسا بفعلته، كان عليّ أن أضبطه.

القاضي: لقد أُجبر على الأقل على أن يكون أكثر حذرا.

الوالي: أكثر حذرا؟ يبدوا أنه كان يتحرك بكل حرية، ناهيك أنه يقدّم في كتابه مقاييس وتقديرات أبعاد دقيقة. يبدو أيضاً أنه تمكّن من قيس المسجد الحرام، قدّس الله رحابه. هل لك أن تفسّر لنا كيف كان هذا ممكنا؟

محمد: لا أدري.

الشريف: لعلّه قام بعدّ خطاه؟

الوالي: عدّ الخطى لا يعطي قياسا مضبوطاً، زد على ذلك صعوبة القيام بهذه العملية وسط الزحمة.

الشريف: فكّرْ ملياً، أنت فتى ذكي، فكّر ملياً.

محمد: قاس كل شيء بعصاه التي كان يتكئ عليها. كان يعرَج شيئاً ما، قال إنه أثناء السفر من المدينة إلى مكة سقط من على جمله. لم أشاهد هذا السقوط شخصياً لكنّه كان لا يحذق البتّة ركوب الجِمال. ترك عصاه تسقط مراراً على الأرض، كان كلّ مرّة يجلس بجانبها ويبدأ في تحريكها في جميع الاتجاهات. أراد أن يقضّي ليلة كاملة عند الكعبة. بعد أن تعبّدنا طويلاً وتحدّثنا إلى التجّار غلبني النعاس فنمت. عندما أفقت من نومي - بعد أن تعثرت قدم أحد الحجيج وارتمى عليّ - لم أجد للشيخ عبد الله أثرا. نهضت من مكاني وبحثت عنه فوجدته أخيراً قريباً من الكعبة يسترق الخطى حولها. كان من حين لآخر يمسّ كسوة الكعبة من أسفلها، أين نسلت أطرافها بعدُ، وأعتقد أنه أراد أن يقتلع منها قطعة. كان لا يكفّ عن الالتفات والنظر في اتجاه الحرّاس، لكن هؤلاء، كما تعلمون، كانوا جدّ منتبهين ويحبذون الاتجار بقماش الكعبة بأنفسهم، لذلك اقترب أحدهم من الشيخ عبد الله مشهّرا رمحه. أمسكتُ بذراع الشيخ وجذبته جانباً بعيداً عن الكعبة. نعم، كثيرون هم الذين يقتطعون خرقا صغيرة من قماش الكعبة، شيء تافه في الحقيقة، ورغم هذا لا أفهم كيف يَسمح رجل محترم لنفسه بالقيام بهذا الصّنيع.

القاضي: الغريب في الأمر فقط هو أنّ هذا الأجنبي يقول في كتابه إنك أهديته قطعة من ثوب الكعبة.

محمد: يقول هذا حقًا؟

القاضي: نعم. كتب أشياء كثيرة عنك.

محمد: صحيح، لكن هذا حصل فيما بعد، عند الوداع.

القاقي: من أين جئت بقطعة القماش؟

محمد: اشتريتها من أحد الضباط.

القاضي: وكان لديك المال الكافي؟

محمد: أمّي هي التي أعطتني النقود، أرادت أن نهديه شيئاً يبقى.

القاضي: وهكذا دفعتْ أمّك كل النقود التي حصلت عليها من الزّائر مقابل قضائه اللّيل في بيتكم ثمنا لهدية وداع. هذا كرم لا مثيل له.

محمد: كانت تعزّه كثيراً. نعم، الآن تذكرت شيئاً آخر ولا بد أن أقوله لكم، شيئاً مهمّا بدون شك. ذات يوم رأينا في الشارع الكبير في منى ضابطاً ينتمي إلى القوات غير النظامية كان على درجة كبيرة من السّكر ويسدّد لكل من اعترضه في الطريق ضربة بمرفقه، كان أيضاً يشتُم كل الذين اشتكوا من عمله هذا. لمّا وصلنا أمامه كفّ عن الضرب، أطلق صيحة واحتضن الشيخ عبد الله الذي دفعه. سأل السكران بصوت عال: ما بك، يا صديقي؟ لكن الشيخ عبد الله التفت للتوّ إلى الوراء وانصرف مسرعا. لم يقرّ بأنه كان يعرفه، لكن الأمر بدا لي رغم ذلك غريباً.

الوالي: كان يعرفه.

محمد: أنتم على علم بهذا؟

الوالي: منذ القاهرة.

القاضي: كان نديمه هناك.

محمد: كنت واثقا من معرفته له.

الوالي: الأمر ليس بسيطاً، مع الأسف. واضح أن هذا الرجل له من جوانب القوة ما يجعل نقاط الضعف لديه غير قادرة على فضحه تماماً. الآن تستطيع أن تذهب في سبيلك، أيها الفتى. لقد خدمت الله وعاهلك خير خدمة. سنجازيك على صنيعك.

الوالي: على فكرة، هل صحيح أنّ سعداً، الزنجي، تم القبض عليه مجددا؟

الشريف: نحن في حيرة ولا ندري ما الذي نفعله إزاءه، أظن أنه أصيب بخلل كبير في مداركه العقلية. الحرّاس قبضوا عليه داخل المسجد الحرام لأنه كان يدور حول الكعبة دون انقطاع، ليل نهار ـ شيء مبالغ فيه حتى وإن لم يتأتّ منه ضرر ـ لكنه كان مع كل خطوة يصيح كالحيوان المتوحش: لقد دنّستُ الحقيقة، نعم، ذهبت عنّي الرجولة. لم يتمكّن أحد من إقناعه بالعدول عمّا كان يفعل، عن عملٍ كان حقاً في غير محلّه وأزعج كذلك الحجيج الآخرين. أخبرني سماحة شيخ الحرم أنه كان يصيح بألم كبير جعل كبير الخصيان تثور ثائرته، كان يصيح متألما ألما كبيراً وكأنه رأى جهنّم.

* * *

قال محمد بعد صلاة الصبح وكلّه رضى: اليوم سنرجم الشيطان. الحجرات التي كانا جمعاها في الليلة الماضية كوّنت أمامهما أكداسا صغيرة في كل واحد منها سبع حجرات. أخفى الشيخ عبد الله ابتسامته لمّا رأى أنّ القذائف التي جمعها محمد حجمها مفرط في الكبر، أمّا هو فقد وَجد منذ البداية صعوبة في أخذ عملية رجم الشيطان مأخذ الجدّ. رأى أنّ هذه العادة ساهمت في طمس كلّ إمكانية تتيح رؤية واضحة داخل الطقوس، أنّ الحجيج وجدوا بذلك أنفسهم فجأة داخل فوضى شبيهة بفوضى

المهرجانات الشعبية عندما تجذب أجنحتها المخصّصة للرّماية، كوسيلة ترفيه أساسية، جمهوراً غفيراً، عندما يُسمح لكلّ شخص برمي حجراته سبع مرات على شيطان من حجر. درّسه محمد: لا تُتلف حجراتك في الطريق، وفي صورة حصول هذا، فلا تجمع حجرات تمّ رميها بعدُ من طرف آخرين. قال الشيخ عبد الله في نفسه: يجب أن تسير الأمور على هذا المنوال لأن الحجرات إذا تمّ استعمالها ولو مرة واحدة لا تؤذي الشيطان بعد ذلك. ثمّ نظر إلى محمد مباشرة بعينيْ من كان وصولياً. خلال الإثني عشر شهراً التي تفصل بين موسم حجّ وآخر تُشحن الحجرات من تلقاء نفسها لأنه لا يمكن تصوّر أنّ كل سنة لا يتم إلاّ استعمال حجرات جديدة فقط. فحتى زادُ الصحراء من الحجرات محدود. واصل معذّبُه: تأكّد من أنك تصيب العمود مع كل رمية. امسك الحجرات هكذا بين أصابعك.. أحس الشيخ عبد الله بقليل من الشفقة إزاء هذا الشيطان حتى قبل أن يلتقيه في وادي منى الضيق والخبيث، هذا الشيطان الذي يتعرّض بدنه سنويا لأذى مئات الآلاف من الحجرات. لكن بما أنَ الشيطان هو بدوره من حجر، فإن كل الحجرات تقع على مثيلها ولا يطرأ أي تغيير. بقي توازن القوى دائماً على ما هو عليه والحجرات لم تنل من الشيطان في شيء، شأنها شأن حفنة الماء التي لا تفلح في تحويل الصحراء إلى أرض خصبة. قال وكلّه حماس، لنذهب أخيراً، فتقبّل محمد طلبه بنظرة كلّها ارتياح.

نظراً لأنّ محمدا، بصفته حاجّا، تمسّك بكلّ دقّة بالمواعيد الرسمية، وجدَا نفسيهما بعد مغادرة المكان بقليل وسط تيار جارف من البشر ـ علم الشيخ عبد الله بعد ذلك أنّ أولئك الذين يفاصِلون مسبّقا مع الله والشيطان ويتوصّلون إلى حلّ وسط يستطيعون الخروج قبل حلول الوقت المحدد إلى رجم الشيطان أو المغادرة وسط الليل ليقوموا بواجبهم على ضوء القمر

الهادئ خير قيام. الخروج عن القانون على هذه الشاكلة يعدّ أمراً مستحيلاً لا يمكن تحقيقه مع محمد. لكنّه في السرّ ـ هذا ما كان الشيخ عبد الله يعتقده منذ أمد ـ قد لا يرى هو أيضاً مانعا في القيام من حين لآخر بفسحة داخل أدغال الحلول الوسط. سدّ رجل طريقهم، رجل ذو وجه نحيف تطايرت النّشوة من عينيه. أمسك الشيخَ عبد الله من ذراعه وخضّه. لا تتعب نفسك يا أخي، لقد فقأتُ عينيْ الشيطان. ردّ الشيخ عبد الله أنّ الشيطان يخطّط لإغواءاته الخطيرة حتى لو كان أعمى، تماماً كما يكون الرجل الأعمى غير محصّن ضد الآثام. وأضاف محمد: مُحدّثك درويش كبير من الهند، يتّقي شرّ الشيطان بفضل حكمته. عندئذ صاح الرجل: فقأتُ عينيه الاثنتين، عينيه الاثنتين! ثمّ اختفى وسط الحشود.

لمّا اقتربوا من العمود ورأوه، تحوّل الحجيج إلى كتلة هائلة تسقط داخل الوادي فتحدث دوياً هائلاً. أحس الشيخ عبد الله أنه تتمّ محاصرته من جميع الجهات. صارت الحشود بمثابة سفينة تقاذفتها الأمواج العاتية فواصلت طريقها إلى داخل المجهول بينما تعالت الصيحات متتالية بعد أن تمّ القضاء على آخر ما تبقّى من مراعاة الجانب ومن صبر، خصوصاً من طرف جِمال الأسياد رفيعي الشأن وبغالهم. كان العمود مخيّبا للآمال، كان لا يوحي بالخطر، شأنه شأن أية علامة على حافة طريق أثري قديم، كان كحجر من أحجار العمالقة أو ضريح بدون عنوان. لكنّه، رغم هذا، هيّج خيال الحجيج الذين تجمهروا حوله وتحوّلت وجوههم إلى وجوه غاضبة وهم يقذفون حجراتهم من أبعاد كبيرة جداً. كثيرون هم أولئك الحجيج الذين لم يصيبوا الشيطان بل إخوتهم وأخواتهم. سرعان ما استنفد الشيخ عبد الله ذخيرته. بدَل أن يقول دعاءً قبل كل رمية، غمغم ما يلي: أعوذ بالله من عنف الحشود وبطشها ومن جموح الرغبات. لكن لم يكن هناك مَخرج. لم يكن هناك مخرج وسط حشود من البشر كان كل فرد فيها عدوّ

الآخرين اللدود ولا يفكّر في غير بلوغ نهاية عملية رجم الشيطان حيّاً. تمّ دفعه باستمرار إلى الأمام، لم يتفطّن إلى الخطر، كان بمثابة الرغوة، يسبح على أمواج هائجة تقذف به في اتجاه العمود. حجرات تساقطت على رأسه ولم تخطئ إحداها عينه إلاّ بقيد حاجب.

كان الخروج بسلام من باحة الرّجم أصعب بكثير من الهرولة إليها. بعد الانتهاء من رمي الحجرات السبع بحث الحجيج عن مسالك للهروب من وسط الجموع الغفيرة فبدؤوا بالدّفع إلى خارج الكتل البشرية رغم مقاومة الآخرين. اتكؤوا على من كان أمامهم، رجالاً كانوا أم نساء، بكامل ثقلهم، لم يسمحوا لكلّ من أراد السير في اتجاه آخر بالمرور. مجرّد ضربة في مؤخرة الرأس جعلت الشيخ عبد الله يفقه المعنى الحقيقي لمثل هذه الطّقوس: عملية رجم الشيطان كانت مجرّد تمرين في حدود ما هو بشري بحت بعد التحليق عالياً في عوالم الطّهر. كلٍّ غذّى الشيطان المندسّ بداخله، عادت القلوب إلى انغلاقها وتصلّبها من جديد، ولذا ليس من الخطأ أن سقطت الحجرات على رؤوس الحجيج. لا بل بالعكس، لقد أصابت الشيطان في الأخ الإنسان نفسه وليس في العمود الذي نصبه إبليس صرفاً للأنظار. لقد عاش أثناء مراسم الحجّ حركة دائمة لمظاهر الطاعة والتسليم لكنه الآن صارت تتقاذفه حركة دائمة لمظاهر العنف، ممّا جعله، هناك في قلب الإسلام النّابض، يتذكّر كلمات أوبانيتشي عندما شرح له تعاليم آدافايْتا: لو تمادينا في اعتبار أخينا في الإنسانية مجرّد الطّرف الآخر، فإننا سوف لن نكفّ عن الإساءة إليه وخدش مشاعره. وهكذا بدا له أنّ المعضلة كمنت في الفروق التي أنشأها الناس فيما بينهم. زادت فكرته هذه رسوخاً لمّا سقط على وجهه سيل من البصاق.

* * *

بعد ثلاثة أيّام فقط من انتهاء فريضة الحج تكدّس في الساحة الكبيرة، في الأركان والزوايا بين الخيام والمنازل وفي مخازن الحجيج كلّ ما هو كريه. مُخرَجات تغطّي الأرض، بقايا خضر متعفنة وغلال فاسدة. يتقزّز كلما يتوجّب عليه المرور وسط كل هذا. خاصة في هذا اليوم بالذات الذي تُسمّم فيه الرائحة الكريهة الهواء، رائحة مأتاها ذلك النّحر العظيم. آلاف مؤلفة من الحيوانات، من رؤوس الماعز والجِمال قُطعت رقابها. اللّحم يُهدى، يُقلى ويُؤكل، أمّا البقايا من أمعاء وأحشاء أو قطع الجلد والشحم وكذلك مجاري الدماء الجافة فإنّها تترك آثارها في الأرض. إنّ وادي منى لَيبدو للشيخ عبد الله أزعج مكان يمكن تصوّره على وجه البسيطة. عندما يموت أحدٌ يترك وحاله، وعندما تصل الجثة حدّ التعفّن فإنها يُرمى بها في أحد الخنادق التي تمّ حفرها قصد التخلص من بقايا الحيوانات المذبوحة. سمادُ لحم مطعّم بالطاعون. عدد الموتى في تصاعد، شيء لا يمكن تفاديه نظراً للصّعوبات الجمّة التي ترافق مراسم الحج، نظراً للباس الخفيف، السّكن غير الملائم، الطعام غير الصحيّ والتغذية النّاقصة. هناك من بين الحجيج من ذهبوا ضحيّة رجم الشيطان، لمّا أرادوا التصدّي لإبليس مرة ثانية بعد أن صار له بين يوم وليلة ثلاثة أعمدة ووجب عليهم رمي سبع حجرات ثلاث مرّات. كان الأمر لا يُحتمل بثلاثة أضعاف وأخطر بثلاثة أضعاف من اليوم الذي سبقه.

يحسّ أنّ الوقت الذي يقضّيه في منى إنّما هو اختبار قاس. والحجيج الآخرون ليسوا في وضع أحسن. ينفد ما تبقى من طازج الطعام وينفد معه ما بقي من حماس داخل النفوس. يخيّم ضرب من الظّلمة على كامل اليوم. كل من يتحرك يتحامل على نفسه ويجرّها عبر ساعات تتمطّط

متكاسلة فوق عباءة من الواجبات تمّ القيام بها. حالات الموت في ازدياد - في الأثناء لا تنتهي صلاة جماعية واحدة دون إقامة صلاة جنازة على أولئك الذين لا يمضي على موتهم وقت طويل. يقرّر الشيخ عبد الله أن يقطع المسافة الأخيرة على ظهر بغله حتى مكة أين يطغى موضوع الساعة، المرض والموت، الذي جعل حتى المسجد الحرام يغصّ بالجثث وبمرضى يُحملون إلى الأروقة ليُشفوا بمجرّد مشاهدة الكعبة أو ليموتوا راضين في الحرم المكّي. يشاهد الشيخ عبد الله حجيجاً هزيلين يجرّون أجسادهم خائرة القوى إلى الأماكن الظليلة تحت الأروقة. وكلّما يعسر عليهم مدّ أيديهم للحصول على حسنة يجيء من يرحمهم بوضع صحفة صغيرة قرب الحصيرة التي يستلقون عليها ليتجمّع فيها كل ما ندر من الصدقات. عندما تشعر هذه المخلوقات البائسة أنّ ساعتها قد دقّت فإنها تتغطى بملابسها الرثّة من تلقاء نفسها، وكما يقول له محمد، قد يمر أحياناً وقت طويل قبل أن يكتشف أحد أنها فارقت الحياة. في اليوم الثاني، وبعد طواف آخر، تعثر أقدامهما في هامة منثنية، لا بد أنّها لشخص يحتضر بعد أن سقط خائراً في أحضان النبي والملائكة. يقف الشيخ عبد الله مكانه وينحني صوبه. بصوت تطغى عليه الحشرجة وبإشارة ضعيفة لكنها مفهومة يطلب الرجل أن يتم رشّه بقليل من ماء زمزم. وبينما هما يلبّيان له هذه الرغبة، يفارق الحياة. يُغمضان عينيه ويذهب محمد للإعلام بموته فيأتي بعض العبيد بعد رفع الميت ويغسلون المكان غسلا كاملاً ثمّ لا تمرّ نصف ساعة حتّى يتم دفن الرّجل المجهول - صعبٌ هو مجيء الإنسان إلى الحياة الدنيا لكنّ الحياة تتخلص منه فور تحوّله إلى مجرّد مادّة. تشغل الفكرة بال الشيخ عبد الله لكنه يحسّ أن هذا هو المكان الذي قد يجعله يتصالح معها. يستقيم في جلسته، يتأمّل الكعبة ويتصوّر نفسه مكان الرّجل الملقى

على الأرض وفي حالة احتضار. هل ما زال سيحسّ بقطرات الماء تسقط على وجهه؟ وما الذي يجب عليه أن يودّع في مثل هذه الحال؟

* * *

في شهر ذي الحجّة من سنة ١٢٧٣

شملنا الله بنعمته وبرحمة من عنده

الوالي: معذرة إن كنت دعوتكما لحضور لقاء أخير هذه الأيام، لكنّي، بعد عيد الأضحى مباشرة، سأسافر إلى إسطنبول وعليّ أن أحمل معي التقرير النهائي إلى هناك.

الشريف: لقد مرّت تقريباً سنة كاملة منذ أن بدأ اهتمامنا بهذا الموضوع الذي له طبعاً أهمّيته. أنجزنا ما أمكن إنجازه، ورغم هذا ـ واسمحا لي هنا بهذه المقارنة ـ نحن أيضاً انتظرنا دون جدوى طلوع هلال الحقيقة.

الوالي: بقي لنا شاهدٌ أخير علينا أن نسمعه، لعله يساعدنا على فكّ العقدة. هذا الشاهد هو صالح الشكّار، لقد عثرنا عليه أخيراً بعد أن عاد إلى مكة مع القافلة الكبرى. أكثر من عشرة من رجالي تكفّلوا بالبحث عنه. ساءلتُه بعض الشيء لكني لم أعلم منه جديداً، ولعلّ حديثاً جماعياً معه في إطارنا هذا من شأنه أن يساعد على بروز شيء على السطح.

القاضي: حتى وإن تغطّت السماء بالسواد سنواصل البحث عن الهلال.

الشريف: للمرّة الأخيرة، كما قال الوالي، للمرّة الأخيرة. اعلما أنني

سأفتقد لقاءاتنا هذه، لقد وجدتُ فيها نوعاً من التسلية، كانت مفيدة وممتعة.

القاضي: ممتعة؟

الشريف: بطريقة غير عادية.

الوالي: سأطلب المناداة على الرّجل.

الوالي: فكّروا قليلاً. لا بدّ أنه كان أبدى بعض الآراء. كل إنسان يُصدر من حين لآخر حكما في خصوص شيء ما.

صالح: كانت له نظرة جدّ متفحصّة إزاء الظلم في هذا العالم، لقد عبّر حقّاً عن الكثير من مشاعر التضامن مع الحجيج الأكثر فقرا وكأن الأمر تعلّق بأقرباء له.

الوالي: هكذا..

صالح: كانت تثور ثائرته ويغتاظ كثيراً. لقد أبدى مرّة امتعاضه حتى من الخليفة.

الوالي: حقّا؟

صالح: كان يزجر غنى الطبقة العليا والسخاء إزاء قوّاد القوافل الكبيرة. كان سخطه عارماً على الفساد الذي رآه متفشّيا في كل مكان. أمّا الفقراء من بين الحجيج فكان دائماً يكرّر أنهم متروكون لحالهم، لا يحصلون على مساعدات ولا يُبذل أيّ مجهود حفاظا على سلامتهم.

القاضي: وما الذي يجب القيام به حسب رأيه؟

صالح: يقول إنه لا يكفي أن يتمّ ترميم الآبار وتحسينها. يجب أن يُسمح أيضاً للحجيج الفقراء باستعمال مائها دون مقابل. إنها لجريمة كبيرة

أن يُباع الماء حول الآبار وأن يُطرد الذين لا مال لهم من طرف الحرّاس. يجب ألاّ يموت أحد جوعاً أو عطشاً.

القاضي: قال كلام مسلم حقيقي.

صالح: الأعداد الكبيرة من المرضى والمحتضرين على جانبي الطريق شغلت باله كثيراً. أتذكّر هذا لأني سألته إن كانت بلاده الهند ليس فيها معاناة فأجابني أنه يوجد هناك حقّاً أفقر الفقراء وأن عددهم أكبر بكثير من عدد الفقراء هنا لأن الحكّام في الهند، سواءٌ أكانوا أسيادا من بين الإنجليز أو ملوكا محليين، لم يؤمنوا في يوم من الأيام بأنّ البشر متساوون. أمّا في بلاد الدّين الحق، زد على ذلك على مقربة تامة من بيت الله الحرام، فمثل هذه الأشياء هي أقرب منها إلى التجديف ويمكن اعتبارها كفراً.

القاضي: عبارات كلها قوّة. كلماتٌ شجاعة. نجد اليوم من بين العلماء الشبّان من يقول كلاماً كهذا.

الوالي: هل ترون هنا علاقة بين هذا وذاك؟

القاضي: لا، أردت فقط أن أقول إنه ليس من الصّعب فهم الأسباب التي تحيد بالإنسان عن الطّريق الصّواب وتجعله يسلك طريقاً أخرى تقوده بكل ثبات إلى هدفه المنشود.

الشريف: واصلوا.

صالح: كان يرى أنه لا بد من إحداث مشافٍ. ستّة على الأقلّ بين مكة والمدينة. كذلك إحداث فنادق بسيطة وبعدد كاف يؤمّها عامّة النّاس. قال إنّ التكاليف سوف لن تكون باهظة.

الوالي: التكاليف لا تكون قليلة إلاّ بالنسبة لمن ليست لهم نفقات بالمرة.

القاضي: وماذا أيضا؟

صالح: التبذير كان شوكة في عينه وكان يحب أن يكرّر الجملة: إن الله لا يحب المسرفين.

الوالي: ثمّ ماذا؟ ما الذي لم يعجبه أيضا؟

صالح: الأمراض..

الوالي: الأمراض؟

صالح: نعم، لا بدّ أنكم تعلمون أنه كان طبيباً.

الوالي: شيء مهمّ حقّاً، ماذا قال عن الأمراض؟

صالح: قال إنّ الحجيج يجب أن يتمّ فحصهم طبيّاً من طرف الجهات الرسمية حال وصولهم إلى جدّة أو يَنبع، كذلك يجب اتخاذ كل التدابير لتوفير ما يكفي من الماء حتى تعمّ النظافة. المرضى يجب عزلهم للتوّ عن الحجيج الآخرين والجثث والجيف يجب رفعُها في الحال ونقلها إلى مكان بعيد. قال الكثير في هذا المضمار لكني الآن لا أتذكّر كل التفاصيل. لا يخفى عليكم أن الأمر يعود إلى سنوات خلت.

الوالي: كلام على غاية من الأهمية. أشكركم، شيخ صالح الشكّار. سنجازيكم على أتعابكم، أمّا الآن فتستطيعون أن تذهبوا في سبيلكم.

الشريف: ما هو المهمّ في كلّ هذا؟

الوالي: لقد عبّر لي الوزير في آخر مكتوب له عن قلقه من أن يتخذ البريطانيون والفرنسيون مستقبلاً من خطر انتشار الأمراض تعلّة لفرض مصالحهم في المنطقة. لقد سبق وأن زعموا أن الأوبئة التي يكون مأتاها الحجّ تتفشّى في بلدانهم بطريقة خطيرة، أنّ مكة، كرّم الله شأنها، هي مصدر العديد من حالات العدوى، وأنّ الحجيج الذين يأتون بها يحملونها إلى شتّى أصقاع الدنيا.

القاضي: قولهم هذا فيه قدر كبير من الحقيقة. صارت الكوليرا الرفيق الوفيّ والملازم أثناء فريضة الحج.

الشريف: ومن جاء بها إلى هنا؟ من أين أتت هذه الكوليرا؟ من الهند البريطانية، لأننا في الماضي كنا لا نعرف هذا المرض. اليوم نجد حجيجاً يصِلون إلى مكة وهم مرضى، ويأتي آخرون على قدر كبير من الوهن، وهكذا تنتقل العدوى من المرضى إلى ضعفاء البنية. هل الذنب هنا ذنب مكة، عظّم الله شأنها؟

الوالي: سبق وأن ادّعى البريطانيون مرات أنّهم، بسبب هذه الأخطار التي تهدد الحالة الصحية، لهم الحق في التدخّل عسكرياً في جدّة.

الشريف: لماذا لا نحاول الانتفاع بما لديهم من معارف ونكفّ عن رفضنا لها، لا لشيء إلاّ لأنها متأتية عن كفّار؟ ألا يتعلّق الأمر في النهاية بإخوتنا وأخواتنا؟

الوالي: أنا أعلم كم أنتم حريصون على التّفاهم مع الإفرنج. تتوهّمون أنّكم، بتصرّف كهذا، تستطيعون الحفاظ على استقلاليتكم. غير أنّكم لستم مصيبين في تقديركم بالمرّة! البريطانيون سوف يبتلعونكم بكل ما لديكم من امتيازات. وفي حال أشفق عليكم مبعوثهم هنا فستحصلون منه على تعويض صغير يتمثّل في وضع حاشية صغيرة تحت تصرّفكم وإسنادكم أنتم مهمّة غير ذات بال. أمّا قصركم الفخم في المعابدة فسيتوجّب عليكم إخلاؤه للتوّ.

الشريف: ما هذا الكلام؟ أنا لا أفهم المغزى ممّا تقولون، أنا أقدّر الباب العالي كل التّقدير وليس لي أية نيّة من النّوايا التي تنسبون إليّ، يجب أن أقول، عن سوء نيّة.

الوالي: والباب العالي يقدّر بدوره شريف مكّة. علينا أن نحافظ على

هذا الاحترام المتبادل. وكدليل على حسن نوايانا قرّرنا توسيع وحدة الجيش المتمركزة في جدّة.

الشريف: علينا أن نواصل هذا الحديث عند عودتكم من اسطنبول. نرجو أن تبلّغوا الخليفة عند استقباله لكم أعمق مشاعر تقديرنا وجزيل شكرنا. وكذلك الأمر طبعاً بالنسبة إلى صديقنا القديم، معالي الوزير.

الوالي: وبأي قرار أخير في خصوص موضوعنا بالذات أستطيع أن أعلمه؟

القاضي: علينا في هذه الأيام بالتحديد، في أيام طهارة النفس، ألاّ نغفل عمّا يلي: إنّ الله إذ يمنّ في رحاب البقاع المقدّسة على الإنسان ببركته، إنّما يكرّم من خلاله الكافر أيضاً. يفتح قلبه ليحرّك فيه المشاعر النبيلة ويفتح عينيه ليصير بصيراً. الرّحمة الإلهية لا نهاية لها ولا تقف عند الحدود الضّيقة التي يرسمها الانتماء والأصلُ أو تتقيّد بها النيّة. من نحن حتى نضع لرحمة الخالق مقياسا؟ نحن نجهل متى وكيف تحوّل الشيخ عبد الله هذا، هذا الذي يُدعى ريتشارد برتن، إلى مسلم، نحن لا ندري إن هو بقي مسلما، إن كان بدأ فريضة الحج وهو مسلم، على أيّ قدر من الصّفاء كان قلبه وإلى أيّ حدّ كانت نيّته صادقة. لا شكّ أنه عاش الكثير أثناء سفره، أشياء أثّرت فيه وأخرى غيّرته. لا شكّ أنه خبِر الرّحمة الإلهية التي لا حدود لها.

الوالي: لم يشغلنا خلاصه بقدر اهتمامنا بمهمّته السرية. أعتقد أننا تأكدنا تماماً من أنه لم يجد في أرض الحجاز لا مساعدين ولا أعوان، وهذا من شأنه أن يبعث فينا الرضى والارتياح. لكنّنا رغم جميع الجهود المبذولة لم نتوصّل إلى معرفة هل إنه جمع فعلا معلومات من شأنها أن تعود علينا بالضرر.

الشريف: وبما أننا سوف لن نتمكن من معرفة الحقيقة علينا أن نبتّ في الأمر بتحكيم عقولنا. هذا الأجنبي لم يكن في واقع الأمر أكثر من شخص بمفرده. فبقطع النظر عمّا يكون قد عاش أو جمع من معلومات، ماذا يستطيع شخص بمفرده أن يُغيّر؟ حتى لو كان جاسوسا، جاسوسا على قدر كبير من المهارة والمكر، عمّ كان باستطاعة حاج بسيط أن يتجسّس؟ أنّى له أن يشكّل خطراً على مستقبل الباب العالي والبقاع المقدسة، زادها الله شرفاً وأعلى من شأنها أكثر.

القاضي: حمدا لله مُجلّها إلى يوم يُبعثون.

الوالي: نأمل أن تكونوا على حقّ، أيها الشريف، لأنه لو خسر الباب العالي نفوذه في الحجاز فإنّ قوى أخرى ستحلّ محلّه، وهي لعمري قُوى لن تتفهّم عاداتنا بالمرّة.

القاضي: سوف نتصدّى لها.

الوالي: بالسلاح أم بالدعاء؟

القاضي: بالسلاح وبالدعاء إلى الله، كما فعل نبيّنا سلام الله عليه. جهاد من هذا القبيل فيه تجديد لديننا.

الشريف: الأفضل ألاّ تصل الأمور إلى هذا الحدّ. علينا أن نحترس من كل تجديد فيه تسرّع.

الوالي: علينا أن نضع مدى الخسارة التي قد تلحق بنا جميعاً دوماً نصب أعيننا.

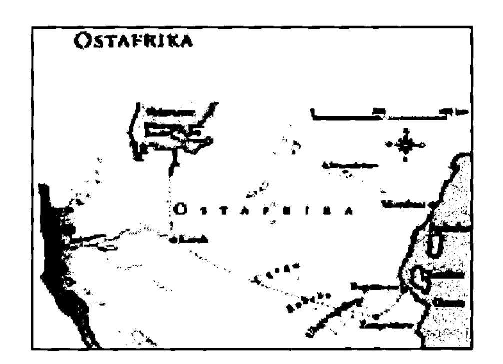
* * *

البدر يُريحه هذه المرّة من مشقّة الانتباه الذي يتطلبه منه السير عادة في طرقات مكّة التي تعوزها الإنارة. يستطيع أن يغرق في أفكاره دون

أن يشوّش تركيزه شيء. يغادر مكّة وكلّه ارتياح وأسف في الآن نفسه. سوف لن يفتقد محمدا ومرافقته المضجرة له. مساءَ أمس فقط حاول الضّغط عليه ليعترف له بأنه ليس ذلك الرجل الذي انتحل شخصيته كامل الوقت، فأجابه: هل حاولتُ مرّة واحدة أن أظهر بمظهر الرجل الطيّب؟ لوّح محمد بيديه إلى أعلى وقال مناديا: أنتم الدراويش لا تنفع معكم الكلمات. سيفتقد الهدوء في المسجد الحرام الذي كان بودّه لو قضّى في رحابه وقتاً أطول. ليس إلى ما نهاية له، كما يفعل بعض الحجيج، وإنّما بضعة أيام أو أسابيع أخرى. العودة في انتظاره، وككل عودة هي سفرة بدون فترات ذروة. تنقّل سريع على متن الجمل إلى جدّة. ما من أخطار محدقة في الطريق، مرّة أخرى برهن محمد عن درايته بالأمور، قال له: احذر رجال الجمارك، هم الذين علّموا البعوض امتصاص الدماء. ثمّ تأتي الرحلة البحرية إلى السّويس التي يأمل أن تكون مريحة أكثر من ذلك العذاب على متن «سلك الذّهب». يفكّر في البقاء مدّة في القاهرة ليودّع شيئاً فشيئاً أجواء الحجّ. في القاهرة سيفكّ شفرة ما دوّن من جزئيات، سيجمّع ما تفرّق من قصاصاته وينسخ ملاحظاته على طولها نسخا طبيعياً. إذا كان هناك شيء ينشرح له صدره حقّاً فهو هذا النوع من استحضار الماضي كتابيا. سوف لن ينسخ كلّ شيء، لن يُودِع كل شيء مخطوطَه. سوف لن يبخل بالتفاصيل والأوصاف الخارجية، سيفتح المجال واسعاً أمام العلوم الطبيعية ويتدارك بذلك أخطاءَ نشرها من سبقوه وروّجوا لها. إنّه يمقت عدم الدقّة أيّما مقت. أمّا مشاعره الخاصّة فسوف لن يفصح بها. لن يفصح بها كلّها، خصوصاً وأنه لم يسبق له أن وثق فيها تماماً. لا يريد نشر المزيد من الأشياء غير الدقيقة. قد لا يكون هذا لائقا، بقطع النّظر

عن موقفه الذي لا يسمح له بمثل هذا العمل. من في إنجلترا سيروم اتّباعه إلى داخل عالمِ ما بين اللّيل والنّهار، من سيدرك أنّ الأجوبة أكثر غموضا من الأسئلة؟

شرق إفريقيا



الكتابة تغِيمُ داخل الذّكرى

سيدي مبارك بُمباي

جزيرة زنجبار ذهبت ضحية مينائها. انفتحت الشّعاب المرجانية انفتاح بوابة وسط سدّ منيع. اقتصرت مهمّة الغُرباء على جمع أشرعتهم ثمّ رفع أعلامهم. تمّ ترقيع الأشرعة ثمّ ربطها في انتظار إبحار آخر. رفرفت الأعلام مؤقّتا، إلى حين طردها من طرف أعلام أخرى حلّت مكانها. تمّ إنزال راية السلطان بينما أرسل سيدي مبارك بُمباي الذي جلس على الرّصيف في مكانه المعتاد ضحكة هازئة وجدت طريقها إلى باطنه وكأنّه لا يصدّق التّواتر المطّرد لأنماط الغباوة المختلفة التي شاهدها في حياته. قال صوت على يساره: كلّ شيء يغرَقُ. وردّ صوت أكبر سنّا على يمينه: لن يتغيّر شيء. راية أخرى تمّ رفعها فتسلقت الساريةَ حاثّة الخطى وكأنها إفصاح عن نيّة يروم بلوغ هدفه بسرعة: الأحمر تنحّى عن السّلطة وحلّت مكانه أشعة شمسية مدببة الأطراف وكأنها نصال لأسهم تطايرت في جميع الاتجاهات على خلفية سماء صافية زرقاء. على مقربة من كل هذا انتصب صليب أسود على شَرف تلك السّفن الضخمة والثقيلة التي رست خارج الميناء. انتصبَ الصّليب رايةً لذلك الحاكم الذي كان البِيض يسمّونه قيصرا. غمغم الرجل المسنّ، لعمري، إنّ الأيام لا تتشابه، ما من يوم يتّخذ لنفسه مكاناً في ذات المكان الذي سبق وأن جلس فيه آخر. ترك الرجالَ الذين كانوا شاركوه حيرته وعاد أدراجه إلى المدينة العتيقة بأزقتها الضيّقة التي رفضت أن يكون لها ترحابُ الشّعاب المرجانية.

كان كلّ من انتهى به المطاف في زنجبار لم يبلغ هدفه بعدُ. بلوغ الهدف هذا كان يتطلّب مزيداً من الوقت، والوقت كان يُعوز البِيضَ. تبخّر كلّ ما كان لديهم من فضول قبل أن تنصدّ نفوسهم عن الأكل. كانوا أبرعَ في مقاومة الرّيح والأمواج من تصدّيهم للمتاهة التي قدّمتها واجهات البنايات المنتصبة أمامهم. دبّ الرجل المسنّ وصفٌ مبانٍ مجمّدة من الصخور المرجانية بينما استحثّه أشخاص طووْا آخر العشيّ مشياً. تحاشَى المرور عبر سُوق الملح دائبة الحركة، اختصر الطريق بعبوره سوق اللّحوم التي خلت من كل شيء إلاّ من الرّوائح الكريهة. الآن صارت الأزقّة أقلّ اكتظاظا والأشباح القليلة التي اعترضت طريقه حيّتْه عند مرورها أمامه. بلغ مسجد حيّه. سمع ترتيلاً جماعياً لإحدى السّوَر وصل أسماعه من المدرسة القرآنية الملاصقة للجامع. توقّف الرجل واستند بكلتا يديه إلى الجدار. كان حجر الجدار بارداً ومغضّنا، كان مريحاً ويبعث على الاطمئنان وكأنّه وجهٌ مألوف. أغمض عينيه. جاء ترتيل سورة الإخلاص وكأنّه خرير خالص أو وعد خلاّب: لا شيء قدَره الدّوام، حتّى وإن ترنّمت به وردّدته حناجر الصّغار. الحقيقة التي تبخّرت بين يوم وليلة وجب البحث عنها مجدّداً كل صباح. اقترب منه شخص. آن الأوان أن ترى المسجد من الداخل. قالها الإمام بصوت غامض. لم يفتح الرّجل المسنّ عينيه. خشي أن يُدخل ارتباكا على الإمام الذي انتظر أن يرى فيهما بريقاً. ألا تعرف الخوف، بابا سيدي؟ قريباً سيأخذك الموت. حَكّ الرجل العجوز راحتيه على الجدار الخشن. قال بعد برهة وبتريّث، وكأن الرّهبة سيطرت على كل كلمة من كلماته: أنا مضطرب، لا أدري هل إني سأتحوّل إلى جثّة أم إلى روح. أفكارك عشواء، بابا سيدي، وتقودك إلى الهاوية. فتح الرجل المسنّ عينيه. أعرفُ المسجد من الداخل. كيف؟ سبق وأن صلّيتُ فيه، مازلت أنت آنذاك لم تغادر عُمان. ثمّ بعد ذلك كان عليّ أن أسافر،

قضّيت ثلاث سنوات في الترحال، جُبت نصف العالم على قدميّ. أعرف، الكل يعرف حكاياتك، بابا سيدي. لا، أبداً، أنت لا تعرف الحكاية، لا تعرفها حقّاً، وأنا من جهتي سوف لن أقصّها عليك. ممّ أنت خائف، بابا سيدي؟ من لغة السذّج والمغفّلين التي تترجِم إليها أنت وأمثالك كل شيء. إنّ كلّ ما شاهدتُه في حياتي لا تتسع له العوالم الصغيرة والجرداء التي تُقيمها أنت.

استدار الرجلُ العجوز وسار ومنحدر الزقاق الذي يقود إلى منزله. صاح الإمام من خلفه: الكفّار لعبوا بأفكارك، الكلّ يعلم هذا! عايشتَهم مدّة طويلة وعن قرب، بقيت تحت رحمتهم فنِلت جزاء سوء تصرّفك. كتفك اليسرى أثقل من كتفك اليُمنى. وواصل الشيخ سيره إلى أن غاب الصوت عن مسمعه. أُضيفت إلى كل حالات الغموض حالة أخرى: لماذا لم يكفّ الإمام أبداً عن ترصّده له وكأنه يجسّد الدّيْن الوحيد الذي لم يتمّ تسديده بعدُ داخل جماعته. سار في الأثناء وهو يفكّر مبديا شحّا في تحية المارّة إلى أن وقف أمام باب مقوّس كان مصراعه الأيمن مفتوحا. سبحت على الخشب أسماك بين أمواج، لوحةٌ حفرتها يدٌ قديرة وهادئة هدوء الريح عندما تسكن. أشجار النخيل زيّنت الإطار وفي مستوى عينيْ حفيده الأصغر تفتّحت زهرة لُوتس. مع كل سؤال ألقاه عليه الحفيد كان يكتشف الباب من جديد. تدلّت من القوس قصاصات من الورق ملأتها زوجته كل صباح بكتابات فيها أدعية وكأنها لا تثق تماماً في قدرة الكتابة المزخرفة على الباب على ردّ الجنّ. نادى الشيخ بأعلى صوته مقدّما طلبه عبر فناء المنزل الذي تجمّع فيه كل ما لم يُعتبر نظيفاً بما فيه الكفاية ليجد مكانه في الطابق الأول ثمّ جلس على المقعد الحجري عند الجدار الخارجي. كان الوقت مبكّرا، الأصدقاء تعوّدوا على المجيء في وقت لاحق، لكنه لم تكن له رغبة كالعادة في التمدّد ساعة والنوم قليلاً قبل أن تبدأ متاعب

المساء. لن يلبث سليم أن يأتيه بشيء من لبن جوز الهند. سوف ينادي على أصغر أحفاده ليداعبه ويتمتّع قليلاً بصفاقته. بعد ذلك سوف يتمدّد على المقعد وسيُسند رأسه على الذراع الحجرية.

نُودي لصلاة أخرى استوجبها اليومُ. نظر الشيخ انطلاقاً من الدّكة أمام بيته إلى سيل الأحداث الهزيل الذي مرّ نزّا أمامه. داهمت الأفكار رأسه المثقّل بالنّوم، تغييرُ الأعلام، إنزال راية السلطان التي كان تبعها في السابق إلى حدود المجهول وقد انتقلت إليه عدوى الغرور والاعتداد بالنفس اللذين لمسهما لدى ذينك الغريبيْن ـ الأوّل أشقر الشعر وذو بشرة حمراء والثاني أسمر الجلدة كالعربي، ندوبها كندوب جلدة المُحارب ـ اللذين وثقا وثوقا كاملاً من أنّ عظمتَهما وراية السلطان سوف يكون لهما التأثير اللازم والوقع المنتظر في داخل البلاد. وكما تبيّن له لاحقاً، كانت تلك الثقة في محلّها. لقد نجا من الموت أثناء تلك الرحلة وثلاث رحلات أخرى. نعم، بقي على قيد الحياة.

ثمّ، بعد ذلك بكثير، بعد أن صار جَدّاً لأول مرّة بقليل، جاء مْزُونغُو آخر، بشرته أكثر بياضا من بشرة من سبقه ـ لا بدّ أنّ شهرة الرجل العجوز هي التي هدته إلى هناك. كان رجلاً لا يتوقّف عن الحركة، في لخمة بْوانا شبيكي وله طموح بْوانا ستانْلاي. طلب من سيدي مبارك بُمباي أن يقوده إلى داخل البلاد. جلسا آنذاك في فناء المنزل لأنّ الوازُونغُو كانوا يعتبرون استقبالهم في الشارع نوعاً من قلّة الأدب، لكن كلّما دخلوا فناء منزل إلاّ وبدا على وجوههم التقزّز من الكلاب المتسكعة والدجاج المتجوّل ومن العبد الذي شرد ذهنه في أحد الزوايا وسال اللعاب من فمه الذي انفتح دون إرادته. جلسا في الفناء وفكّر يومها في إمكانية القيام برحلة للمرّة الخامسة عندما سمع الصوت الذي هوى عليه من الطابق العلويّ كالهراوة.

لو تتركني مرّة أخرى لوحدي. . (طبعاً، لم يفهم المْزُونغُو ما قيل من كلمات، لكنّ نبرة الصوت هدته إلى المقصود). . فسأمحو كلّ ما تبقّى من بهجة في حياتك! فجأة تملّكه خوف، خوف التصق به وكأنه أَنبجةٌ بالغة النضج ولزجة. لم يكن السبب تهديد زوجته له وإنّما الخشية لأوّل مرّة من أنه قد لا يعود من السّفر. أراد المْزُونغُو التزوّد بمعلومات كانت لها رائحة الدم وطعم الوبال ـ كلّ شيء فيه كان غير معقول. بدا وكأنه يظنّ أنّ الدّنيا هي حقّاً كما يصوّرها له فكره. وماذا لو خيبت الدّنيا ظنونه؟ هل سيكون بوسعه تغييرها؟ ردّ على زوجته: لا تخافي، سوف لن تتخلّصي منّي! فكّر برهة في إمكانية تزويد ذلك المهجوس بمعلومات مغلوطة وبالتّالي في تضليله، غير أنّه سرعان ما ترك الفكرة لأنه لم ير فيها جدوى. سبق له وأن جرّب مزاحه مع الوازُونغُو لكنهم كانوا كلّ مرّة يبلغون هدفهم. شارفوا على العمى أحياناً وأحياناً أخرى صارت عقولهم مختلة تقريباً، فقدوا نصف قدرتهم على الحركة وتعذبوا أيّما عذاب، لكنهم كانوا في نهاية الأمر يعيشون ما حققوا من انتصارات بكامل الوعي. وفي أحد أيّام انتصاراتهم رفعوا حتّى علمهم فوق زنجبار. لم يجد الرجل العجوز هذه المرّة غرابة في اكتشافه لبْوانا بيترْس، هذا الرّجل المشطّ في طلباته، قرب الصارية الرئيسية وهو مشدود القامة داخل بدلته الأنيقة ووجهه يتّقد مباهاة وفخرا بين كل أولئك الوازُونغُو رفيعي الشأن، بْوانا بيترْس الذي كان زاره في ما مضى في منزله. وهكذا بدا له العالم حقّاً كما كان تصوّره.

ـ لماذا تهزّ رأسك؟

ـ أهزّ رأسي من أجل سيّد معيّن دأب دوماً على إزعاجي بأسئلته الغبيّة.

ـ قد لا تفهم أسئلة أخرى.

ـ من أين لك أن تعرف؟ إنّك لم تحاول أبداً.

ـ السلام عليكم.

ـ وعليكم السلام.

ـ هل الدنيا بخير؟

ـ هي بخير وليست بخير.

ـ هل العائلة بخير؟

ـ كلّ المنزل يزخر بالصحّة والعافية.

ـ كما يزخر بالذّهب؟

ـ كما يزخر بالذّهب والمرجان واللّؤلؤ.

ـ وكما يزخر بالسعادة؟

ـ أيضاً!

ـ مرحباً.

ـ مرحباً.

ـ أشتهي قهوة مركّزة.

ـ أهلا وسهلا.

ـ وإذا وجدتُ القهوة لذيذة أخبرتك بما سمعت من أسرار عن أمين مال السلطان.

ـ راية السلطان لن تصلح قريباً إلاّ لنفض الغبار من على الأثاث.

ـ لهذا عرض أمين المال خدماته على الوازُونغو.

ـ الحسب والنسب وحدهما لا يكفيان لدى الوازُونغو، العمل وحده له قيمة عندهم.

- هم أيضاً في حاجة إلى مصّاصي دماء، ولا أحد مؤهّل لهذه الخدمة أكثر من أمين المال المجرّب. من تفانَى في خدمة الأوّلين لن يخدم اللاّحقين إلاّ بأكثر تفان.

- أنت على حقّ، أقرُّ لك بهذا حالاً. أمّا الآن فاتّخذ لك مكاناً وإلاّ ظنّ القوم أنّ بيننا خلافاً، وأوّل ما يبدؤون به هو تصديق هُرائك.

- أنت معروف بطيبة قلبك.

- عادة قديمة لا أستطيع التخلّص منها بسهولة. كنتُ قبل قليل بصدد التفكير، لا تقل الآن شيئاً، لا تقاطعني للتوّ، بصدد التفكير في اعتماد الوازُونغُو على أنفسهم وثقتهم بها.

لم أعرفهم في أوّل الأمر على حقيقتهم، لم أفهمهم، واليوم أروْنا رايتهم مرفوعة على أعلى صارية في الجزيرة. لا، لا، بصفة عامة كان كل شيء أثناء الرحلة الأولى بالنسبة إليّ بمثابة الوحي. . ها أنت، يا سليم، تعال إليّ، تعال يا ولدي، اجلس معنا. . بمثابة الوحي الذي لم يكن مفاجئاً تماماً، لأنّ الشيء الذي جعلني في الحقيقة أشارك في الرحلة هو ذلك الشعور بالثقة الذي أوحى لي به أحد الرّجلين، المْزُونغُو صاحب البشرة الأكثر سمرة، منذ البداية، شعور بالطمأنينة أوحى إليّ بمرافقته إلى أيّ مكان. لم أفهم إلاّ بعد مرور وقت طويل أنّهم كانوا في حاجة إلينا ليصلوا إلى أهدافهم، لكنهم كانوا، رغم هذا، يتمتّعون براحة البال، يُوحون بالشعور بالثقة وينشرون الطمأنينة من حولهم. هل فهمتَ؟

- هل كنتَ آنذاك تعرّفت على جدّتي بعدُ؟

- لا، يا سليم، ما زلت وقتها لم أتعرّف عليها بعدُ، لكن عليك أن تثق في شيء: لم أخرج آنذاك إلى العالم بنيّة التعرف عليها. سارت الأمور وكأنّ أجدادي الأوائل نادوني لأرجع إلى بلادي الأصلية التي لم أعدْ إليها

أبداً بعد أن كنت غادرتها وأنا صغير. كان لي تقريباً عمرك الآن، يا قرّة عيني، لمّا تصيّدوني، قبضوا علي ثمّ اقتادوني بعيداً، عرب بثياب سميكة ثقيلة وبنادق مدوّية، كنّا سمعنا عنهم من قبل، نعم، لقد تمّ حتّى تحذيرنا منهم، لكن المرء لا يؤمن أبداً بوجود الجنّي قبل أن يراه. هل سبق لك وأن رأيت جنيّا؟ ماذا بوسعك أن تفعل لو هاجمك، يا نور حياتي؟ لا تدري! انقضّوا علينا وكانوا أسرع من الموت، كانوا في كلّ مكان، كانوا يطلقون النّار من بنادقهم المدوّية ويصرُخون وهم يصدرون أوامرهم، أوامرَ رسخت في أذنيّ، أوامر اختلطت بالدماء وامتزجت بصرخات أمّهاتنا، جدّاتنا وأخواتنا وبقيت في أذنيّ، ناهيك أنّي إلى يومنا هذا كلّما أسمع صيحة تشبه صيحات ذلك الوقت، كأنْ يشتُم سمْكريّ خادمه أو يبدأ صائد لؤلؤ في الصياح، وقد عاد إلى المنزل معكّر المزاج، فإني أعود لأسمع كل صيحة ولأرى كل شيء من جديد، لأرى أرجلنا تطير في اتّجاه البحيرة، نعم، لأرى رجليّ اللّتين جسّمتا خوفي الكبير. ومن يدري لماذا بحثنا عن النجاة من جهة البحيرة عوض أن نختبئ في الغابة كما فعل آخرون، حسبما أعتقد، لأنه بعد ذلك، لما وقفنا في صفّ واحد وأيدينا مشدودة بسلاسل إلى خشبة، تغيّب بعض الإخوة ولم يكونوا معنا، الشيء الوحيد الذي أدخل عليّ ساعتها البهجة. كنتُ صغيراً في عمرك وفي سنّ الصّبية الذين حلّ موعد ختانهم. كنتُ عصفوراً يتنقل من هنا إلى هناك، لا يعرف المدرسة ولا البقاء في فناء منزل، عصفوراً يقفز بكل حرّية في الغابات والمروج، يغطس في ماء البحيرة كلما كان هناك من ينبّهه إلى اقتراب التماسيح بخبطة على سطح الماء. ثمّ جاء اليوم الذي تقنّع بقناع المجهول، اليوم الذي كُسر لي فيه الجناحان والسّاقان وصرتُ لا أدري إن كنت أكثر من قطعة من اللحم تمّ جرّها فوق الأرض التي اتّقدت ناراً. تكلّمت الأقنعة المجهولة لغة السّوط. يا عزيزي، أنت لا تعرف لغة

السّوط، ولا حتى لغة الهراوة، أبوك ينسى، عندما تكون أنت برفقته، كلّ حالات الغضب، أنت لا تعرف كيف أنّ لغة السوط هذه تهينك قبل أن تُوجعك، كيف تعاقبك قبل أن تهدّدك، كيف تقطّع حواسّك شيئاً فشيئاً، تكبح جماحك وتُرضخك، تتركك لدوارك وترنُّحك، لغة أردنا اقتلاعها لكنّ أيدينا كانت مقيّدة، وإذا صادف أن استرحنا ليلاً ـ قضّينا ليالي بأكملها ونحن نمشي ـ فحتّى أرجلنا كان يتمّ قيدها، أمّا اليوم، بعد مرور ثلاثة أجيال، إذا نظرتَ إلى معصم جدّك فإنك ترى هنا آثار جراح تلك الأيّام التي مات خلالها عمري الأوّل، حياة طفولتي، الحياة مع أجدادي، عائلتي وأقاربي. لم ألتق منذ ذلك اليوم أبداً أحداً كان عرف قريتي أو صلّى لنفس الأجداد الذين كنت صلّيت لهم، ومضت فصول ثمّ فصول قبل أن ألتقي لأوّل مرّة من تكلّم لغتي.

بداية من ذلك اليوم صرت وحيداً. زادت وحشتي خاصة في الليل لأنّ الضباع كانت تحوم حولنا، كنا نسمعها والعرب أيضاً كانوا يسمعونها، كانت الحجارة التي قذفوا بها في الظلام مرّة تقفز على سطح الأرض ومرة أخرى تصفُر. غير أنّ العرب سرعان ما كانوا يركنون إلى النوم حول النار التي كانت تقيهم شرّ الوحوش الضّواري، أمّا نحن فكان علينا أن نتمادى في الصّراخ الذي كان سلاحنا الوحيد أمام الضباع التي حامت حولنا. كان صراخنا سلاحا ثلماً، زاد فقط من شدّة فزعنا والضباع تقترب منّا. إنّك يا صديقي لا تستطيع أن تتصوّر القدرة الحقيقية للإنسان على الصياح بقوّة قبل أن تعضّ الضواري وتذهب بصوته، أو أن تسمع ما لم تسمعه أبداً من قبل، ما لا يجب أن تسمع. لم نستطع في اليوم الموالي النظر في وجه الصباح الممزّق، تحوّل إخوتنا من بشر إلى قطع من اللحم اقتُطعت من أجسامهم، إلى جيَف ومشت أرواحهم على رؤوسها أو اخترقت الأشجار كالصاعقة فأقعدتها وشلّت حركتها، وفعلت نفس الشيء مع كل من مرّ

بها. لدى بلوغنا السّاحل كنّا كلّنا أمواتا، أمواتا كالأشباح، أمواتا أحياء، أمواتا حملتهم أرجل بقيت وحدها على قيد الحياة، أمواتا بأعين كالثّمار المهروسة. لم أشتمّ رائحة البحر، لم أشتمّ رائحة الطحالب المتعفّنة، لم أسمع هدر وصخب الأمواج، لم أذق طعم الهواء المثقّل ملوحة.. هنا، في هذه المدينة وفي السّاحة التي يبني عليها اليوم الوازُونغُو بيت صلاتهم تمّ عرضي للبيع وبقيت ثلاثة أيّام كاملة تحت أشعة شمس لا ترحم قبل أن يبتاعني أحد البَانِيانْ مقابل بضع قطع نقدية. أخذني معه إلى منزله أين وجدتُ آخرين مثلي لم أستطع أن أتكلّم معهم كلمة واحدة لكنهم قدّموا لي شيئاً آكله وأروني المكان الذي اغتسلت فيه.

الرجل الذي امتلك الفترة الثانية من حياتي كان رجلاً محترماً ونبيلاً يا ولدي، كانت عاداته وتقاليده الضاربة في العراقة لا تسمح له مثلاً بالاتّجار بالحيوانات كما حرّمت عليه أشياء أخرى. كان يعيش داخل بوتقة تعجّ بالنواميس الخفيّة التي من شأنها أن تحميه كما يحمي الحبل المعدني المشبّك والمثبّت فوق بابنا منزلنا من اللصوص، غير أنّ قوانينه كانت تحميه وتُبقي عليه سجينا لها في نفس الوقت. لقد سكتت نواميسه سكوت النصّابين عندما يتمّ ضبطهم متلبّسين بفعلتهم، سكتت كلّما اشترى بشرا وكأنّه ابتاع لحما، قوانين حرّمت عليه الاتّجار بحلزون الكَاوْري لأنه بعمله هذا قد يتسبّب في موت حيوان رخويّ فالتزم بها، لكنّه تاجرَ بقرون الكركدن وجلد فرس البحر، كذلك تاجر بالعاج فخرَق بهذا العمل تلك المبادئ التي تربّى عليها أصلاً. أمّا إذا اشترى بشرا فكان يُعتبر على حقّ لأنّ قوانينه سكتت عن العبودية. لم يبعني هذا البانيان بدوره، ولم يرسلني لأجهد نفسي في مزرعة من المزارع بل احتفظ بي للعمل في منزله. كلّفني بعمل أعاد إليّ قوّتي، وفي يوم من الأيام أخذني معه إلى المدينة التي انحدر منها، هناك وراء البحر وعلى مسافة أيّام عديدة لم نتناول فيها إلاّ

أكلا غلبت عليه الرطوبة، أيامٍ سيطرت عليها أحلام كلّها عفن. أمّا إذا أردتَ أن تعرف اسم هذه المدِينة، يا طالعي السعيد، فما عليك إلاّ أن تنطق باسم جدّك. لا، الاسم الآخر. . الاسم الأخير! بُم - باي، نعم، هكذا. الحمد والشكر للأجداد الأولين على تلك النعمة، على ذلك الرجل الطيّب الرحيم وقوانينه العجيبة، الرّجل الذي لولاه ما كنت لأجلس اليوم في هذا المكان وفوق هذه الدّكة. أبحرنا على متن داوْ كبيرة وليس بأحد تلك القوارب الحقيرة التي تعرفها وتسمّى مْتيبي، أي القوارب الشراعية التي تسافر إلى شَنْجَانِيقَا. كانت سفينةً كبيرة، متينة وعظيمة تزحلقت فوق الماء ممتطية صهوة. .

- وكأنها كانت لها قوّة كلّ خيول هذا العالم.

- السلام عليك، بابا إلياس، لقد انتظرناك.

- كيف، بابا إلياس؟ صرت الآن تختلق خيولا خاصة بالماء؟

- أعلمُ أنّ السفن لا تركب الخيول وأنّ الخيول لا تعبر البحار، لكن بما أنه يمكن القول إنها تفعل هذا فأنا قلتُ ما قلتُ، وكثيرون هم الذين يحبّون هذا النوع من الكلام، باستثناء بابا إسماعيل الذي نُعّلت أذناه. صار التّفاهم معه لا يتمّ عن طريق الكلام وإنّما بواسطة المسامير.

- أنت بارع في الكلام، بابا إلياس، إنّها لخسارة كبيرة ألاّ تقول الخطبة في المسجد.

- دفع الله عنّي مثل هذه المغريات.

- بابا إلياس يُفلح أحياناً في استهوائنا بكلامه، لكنّ الكلمات في حدّ ذاتها لا تطاوعه.

- لعلّ ماما مُبارك هي، من جهتها، تطاوعني وتأتيني بالقهوة التي وعدتني بها.

ـ ربّما، ربّما.

ـ هل حزنتَ يا جدّي عندما فقدت اسمك الأوّل؟

ـ حزِنَ؟ لماذا تريد أن يكون أبونا بابا سيدي حزنَ؟ لقد اتّخذ لنفسه اسماً آخر بدون مشقّة.

* * *

يقف برتن في الماء حدّ الكعبين منتظراً انطلاق الرحلة الموالية، الرحلة التي انتظرها منذ وصوله إلى زنجبار قبل ستّة أشهر. عليهما أن ينطلقا أخيراً في رحلتهما إلى داخل البلاد، أن يبدآ أكثر المشاريع طموحا في حياته. أكبر اعتراف له بإنجازاته يتراءى له، يُغريه: لعلّه يحصل على لقب شرف وعلى راتب معاش. فكّ لغزِ منابع نهر النيل، هو اللّغز الذي يُذهل جميع المهتمّين بالموضوع ويشغل بالهم منذ ألفين من السنين. بفضله ستنفتحُ القارة بأكملها على العالم الخارجي. لن يكون الهدف شيئاً آخر غير إعطاء تلك النقطة البيضاء على الخرائط معنى. هذا الانتظار الملعون سوف يمرّ قريباً، كل هذه المفاوضات والمناقشات التي تدوم طويلاً سوف تصل إلى نهايتها. عندئذ ستزول الأغلال التي تُقيّد بها العادة كلّ حراك، سيتمّ التخلّص من أعباء الرتابة ومن عبوديّة المساكن الثابتة.

ليس في الإمكان تنظيم رحلة استكشافية بأكثر دقّة ممّا فعلاَ. قامَا بكل شيء ـ لا، بل هو وحده الذي قام بكل شيء كان بمقدوره. مرافقُه، جُونْ هَانينْج سْبيكِي، تحاشى لحدّ الآن، وبكل ترفّع، المشاركة في أيّ عمل. لعدم معرفته بالموضوع وإلمامه بالمعلومات اللازمة، حسبما قال. فكرٌ أرستقراطي بحتٌ. سوف لن تكون الأمور سهلة معه. لقد سبق وأن شكّلت تجربة الصّومال إنذارا أوّلاً، عندما تمّت مهاجمتهما ليلاً ولم ينجوَا من الموت إلاّ بصعوبة. انهال سبيكي وقتها باللوم على الجميع لكنّه نسي

أن يلوم نفسه. إنّه رجل صلبٌ، صعب المراس ورامٍ ممتاز، ودون أن يُجاهر بكلّ هذا علنا، بدا وأنه لا يمانع في قبول برتن كقائد للرحلة. سوف لن يضع سلطة هذا الرّجل موضع الشكّ. إضافة إلى هذا فإنّ لبرتن مرتبة اجتماعية رفيعة، وهو الذي يموّل الرحلة بقسط لا بأس به من ماله الخاص. هُما في ضائقة مالية والوضع مُزرٍ في حد ذاته، كما يبعث على السخرية: تغطية البقع البيضاء على الخريطة قد لا يتمّ في نهاية المطاف بسبب نقص مبلغ صغير من المال. كلّ هذا يعود إلى أنّ عملية غزو العالم يُوكل بها إلى فئة يغلب على تفكيرها عامل الرّبح والتقتير ولا تدّخر المال إلاّ في المكان غير المناسب.

يتجوّل على طول الشّاطئ. الشمس تغيب وراء البحر. يبدو الشاطئ وكأنّ رمله ملح دقيق الطّحن ومغطّس في الذّهب. يغطس يديه في موجة طويلة ويبلّل وجهه. يمسح بعد ذلك شعره بيديه إلى حدّ مؤخرة الرأس. يقف حتّى الكعبين في ماء المحيط الهندي بينما يتخطى بصره كل ما تخلّف الأمواج من أكاليل الزّبد والرّشاش، ماراً فوق ظهرها المتقلب الأزرق الذي يندثر داخل بريق من الوعود الساحرة تتموّجُ وتكوُّرَ الأرضِ، يتخطى بصره كل هذا ليصل إلى مينائي بُمباي وكراتشي، إلى خليجيْ خامبْهات والسّويس ثمّ إلى بحر العرب. لقد عاش برتن الكثير وكتب الكثير، منه ما قدّمه لمن كلّفوه بذلك ومنه ما نشره لعموم القرّاء. لكن هل حصل على مكافأة من أجل ما قام به؟ لقد سكت بشأنه أولئك الذين بيدهم تقييم أعمال من هم من الرعيّة ولازموا الصّمت بخصوص إنجازاته.

تركت الشّمس الشاطئ فسرى فوقه غشاء رمادي اللون. صار برتن لا يشعر بالوحدة، يقترب من سرب من الكلاب تداعب كفوفها المياه وأفواهها ملطخة بالدم، وقبل أن يشغل فكره بكل هذا يشاهد الجثة المنحلّة

التي كانت الكلاب انقضّت عليها شاكرة على الهديّة وأعينها كلها ريبة تودّ التّحقق من أنّ الغنيمة، في بياض سمك التّونة، في مأمن من هذا الدّخيل. يقول في نفسه: سلعة فاسدة يُلقي بها تجّار العبيد من على ظهر السفن في البحر الذي يتكفّل فيما بعد بالموت وبالحياة. إذا قُدّر لعبد أن يبلغ الشاطئ على متن قارب فإن صحّته تتحوّل إلى قيمة مالية بحتة، أمّا الخسارة التي يُحسب لها حساب منذ البداية فإنّ الأمواج تحملها إلى الشاطئ متأخرة عن الموعد. يُدير برتن ظهره للمشهد ـ حان الوقت حقّاً لتوديع زنجبار.

كما هو منتظر، يجلس في الشرفة الأرضية لنزل أفريكا جون هانينج سبيكي الذي يناديه أصدقاؤه جاكْ. يستمتع بمنظر المدينة الصغيرة وبيده كأس المشروبات. لعلّه الآن أيضاً ذلك الذي يرفّه بحكاياته حول الصيد في الهيمَالايَا عن أهل بلده الذين جمعهم محفل الشّرب وأغلبهم من التجّار ووُكلاء الشركات الملاحية. إنّ ما عاشه في التّيبتْ ليبعث على الدّهشة ويتناقض تماماً مع شغفه بالجلوس في هذه الشّرفة. تبدو الكلاب فوق الشاطئ من هذا المكان وكأنها أطفال يمرحون. لو يُطلع سبيكي على ما جال بخاطره للتوّ فسيجيبه بكل جدّية: زنجبار صغيرة جدّاً وتنقصها الحيوانات البرّية، لماذا تريد مني إذن أن أُجهد نفسي وأخرج إلى عذاب الحرّ الشديد. يكاد برتن يصل إلى الطاولة بيضاوية الشكل عند الحاجز، يقف النُدل متسمّرين في الخلفية ـ يرتدون ملابس كتلك التي تعْلق بالذّهن بعد قراءة سريعة لألف ليلة وليلة ـ في اللحظة التي يُدير فيها سبيكي رأسه ويلمحه. يقطع حديثه للتوّ ثمّ يرسل تحيّة بصوت أعلى من المعتاد وكأنه يريد أن ينبّه المجتمعين حول المائدة إلى حلول الزائر الذي لا ينتظر أحد وصوله.

ـ هل لديك أخبار سارّة؟

ـ سمعنا أنّ الرحلة على وشك الانطلاق.

ـ وتلك هي المشكلة. أخيراً سننطلق.

ـ أتمنّى إذن حظّاً سعيداً.

ـ عندما تعودان إلى زنجبار، سيّداي، سأقيم حفلاً لم تريا له مثيلاً من قبل.

ـ إذا أخذنا شُحّه بعين الاعتبار، نستطيع القول إنّه في الحقيقة يعوّل على عدم رجوعكما من الرحلة.

ـ وكأنّي أشتمّ في هذه اللحظة الرّائحة التي تكون عليها ريبة العرب.

ـ نحن في حماية السلطان شخصياً.

ـ هذا صحيح إلى حدّ ما فقط، يا جاكْ. كلّ كلمة شرف تصدر عن صاحبها في الشرق في شيء من الاحتفالية ما هي في الحقيقة إلاّ مجرّد إفصاح عن نيّة أو نوع من الضّمان لتصرّف ممكن.

ـ صحيح، كلام على قدر كبير من الصحّة! لو كنت مكانكما لما وثقت دقيقة واحدة في هؤلاء البلوشيين الذين سيرسلهم السلطان معكما. حتّى وإن كانوا رجالاً طيّبين، وهو ما أشك فيه كثيراً، لا أدري أيّة نشوة جعلت السلطان يفكّر في مدّهم ببنادق الفتيلة لأنّ كلّ واحد منهم لا يشتغل في الحقيقة إلاّ لحسابه الخاص.

ـ بالمناسبة، لقد أعلمني أحد مُخبريّ أنّ في البلاط من لا يدّخر جهداً في حيك الدّسائس ضدّكما. بعض مستشاري السلطان المقرّبين أوهموه أنّ رحلتكما الاستكشافية هذه ما هي إلاّ ذريعة بالنسبة للإمبراطورية، تتستّر وراءها لترسّخ قدمها في شرقيّ إفريقيا. على طول المدّة. والنتيجة النهائية ستكون لا محالة تجريد المنطقة من كلّ سلطة وسيادة.

ـ هم يخشون أن تُفلت السيطرة على شؤون التجارة من أيديهم.

ـ يخافون بالخصوص أن يستأثر غيرهم بتجارة الرقّ المربحة. هم يتتبّعون الأخبار الآتية من أوروبا وعلى دراية بالأمور أكثر ممّا نظنّ.

ـ جميل أن يخافوا. أنا من أكبر المدافعين عن الخوف.

ـ ريتشارد، لقد سمعنا الكثير عن إنجازاتكم المدهشة. ثقُوا أننا جدّ معجبون بها. لكن، رغم هذا، الأفضل أن تلازموا الحذر لأنكم حتى الآن، وبصفة عامّة، لم تسافروا إلاّ عبر مناطق متحضّرة في مجملها. إلى مناطق كان فيها أناس قادرون على الكتابة وأبنية تعود إلى ما قبل موسم الأمطار المنصرم. أمّا الآن فأمامكم رحلة ستقودكم إلى بلاد التوحّش الحقيقي وحتّى إلى أرض أكلة لحوم البشر.

ـ توحّش حقيقي؟ هل يوجد مثل هذا أصلا؟

ـ أنتم ما زلتم لم تدخلوا هذا الشّقّ من العالم. لا تنخدعوا بزنجبار. وراء صحاري داخل البلاد لا توجد مدن خلاّبة في انتظاركم، لا مكّة ولا هرار ولا غيرها. أرض متوحّشة فحسب لم تُروّضها بعدُ يد الإنسان.

* * *

سيدي مبارك بُمباي

ـ هل إن كلّ الناس الذين جاؤوا من الجانب الآخر للبحر اسمهم بُمباي يا جدّي؟

ـ لا، كان من بيننا من سمّوا أنفسهم حسب المكان الذي جاؤوا منه أصلاً وبقي في ذاكرتهم. سمّوا أنفسهم كُندوشي، مالِنْدي أو بَاجَامُويُو. أمّا أنا فقرّرت أن أحمل اسم المدينة التي بدأ فيها عُمري الثالث: بُمباي. في البداية كان هناك من سمّاني مبارك مِيكافًا لأنّي أنحدر من السكّان

أصيلي الياوْ، الشيء الذي كنت أجهله شخصيّاً، نعم كنت من الياو دون أن أعلم. في طفولتي لم أسمع قطّ بالياوْ. لم يقل جدّي مرّة: نحن ننتمي إلى الياو، وأيضاً أبي، ما سمعته مرّة يقول: نحن من الياوْ. لم أعلم هذا إلاّ عندما صرتُ عبدا، لكنّ كلّ هذا لم يكن لي فيه نفعٌ بالمرّة. كلمة ياوْ لها رنّة جميلة، لكنّي فضّلت ألاّ أتذكّر طوال حياتي البلد الذي أنحدر منه والذي ضاع بالنسبة إليّ، أردتُ ألاّ أتذكّر، في كلّ مرّة يُنادى فيها عليّ باسمي، أنّني سبق لي وأن متُّ من قبل. كانت الطريق أمامي أهمّ بالنسبة إليّ من تلك التي تركتُ ورائي. هل تفهمون ما أقصد؟

ـ طبعاً، نحن نفهمك، الأمر جليّ مثل قِبلة الصّلاة.

ـ عند شروق الشمس لا يفكّر أحد في غروبها.

ـ بابا إلياس، أقوالك المأثورة غير مواتية، تماماً مثل ثياب بابا إسماعيل التي لا تُلائمه.

ـ العبيد الآخرون بقوا في بُمباي وتزوّجوا من نساء وجدوهنّ هناك وعاشوا بلقب سِيدِي راضين بعيشهم.

ـ سِيدِي؟ ما كنتُ أظنّ أنّك قادر على خلق شعب كامل انطلاقاً من اسمك.

ـ سِيدي هو الاسم الذي يُطلق على كل من كانت بشرتهم سوداء وجاؤوا من الضفّة الأخرى للبحر. وكان من بينهم، بالنسبة إليّ، من هم أغربُ من أهالي بُمباي أنفسهم، غير أنّ النّاس هناك لم يفرّقوا بيننا إذ رأونا متّحدين بعامل لون بشرة واحد وفي وجه واحد، بقطع النّظر عن البلاد التي جاء منها كلّ واحد منّا.

ـ هل كانوا كلّهم مؤمنين حقّاً؟

ـ لو كنتُ أعلم ما الإيمان الحقّ لاستطعت الإجابة على سؤالك، بابا

قدّوس. كانوا يؤدّون فريضة الصلاة، لكن ليس بانتظام، كانوا أيضاً يقرؤون القرآن الكريم من حين لآخر، كلّما شعروا بحاجة إلى ذلك، أمّا في المناسبات الاحتفالية فكنّا نجتمع في منزل، وفي أكبر غرفة في هذا المنزل كان يوجد ضريح رجُل، مغطّى بقماش أخضر، كما عُلّقت على الحائط هراوات، وهي قرعات تشبه كثيراً تلك التي كنت عرفتها في قريتي، أدوات وليّ صالح يسهر من زمان على حماية كل من هو سِيدِي. كان الحفل يبدأ بقرع الطّبول التي لم يُسمح بقرعها إلاّ لمن كانوا من سلالة صاحب الضّريح، كنّا نرقص ونغنّي حول القبر ثمّ نخرج مندفعين إلى الطريق الضيّق لنواصل رقصنا وغناءنا وكان لكل هذا صدى الطفولة في أذنيّ، صدى عمري الأوّل. كنتُ أشعر فجأة أنّي بين أهلي في تلك المدينة الغريبة.

ـ والأدعية؟

ـ قلنا أدعية، لكنّها لم تكن موجّهة إلى الله، لا، كانت موجّهة إلى ذلك الذي لم تصلّوا له أبداً، أنا واثق من هذا، ولن يخطر اسمه ببالكم حتى ولو تركت لكم كامل الليل لمحاولة التذكّر. رغم أنه، لو فكّرتم قليلاً، لعلمتم أنه جدّ قريب منّا.

ـ هل تظنّ أنّ ذاكرتنا ضعيفة إلى هذا الحدّ؟

ـ لا تقولوا شيئاً، سأتذكّر اسمه حالاً.

ـ وكيف تنسى اسمه؟ ألم ينسَه مؤخّرا بابا سيدي نفسه وكنت أنت الذي نطقتَ به؟

ـ نعم، كان هذا مؤخّرا.

ـ قلْ، قل الاسم، قل!

ـ صلّينا لبِلال، لأنّ بلالاً كان بالنسبة إلينا أقدم وأعظم الجدود.

ـ هذا شِركٌ!

ـ لا، أبداً، بابا قدّوس! ثمّ من يستطيع أن يحدّد طبيعة ما هو شرك وما هو ليس شركا؟ ثمّ ماذا كان منذ البداية حقيقةً وما الذي سيظلّ على مدى الدّهور حقيقة؟

ـ القرآن الكريم، أنت تعلم هذا جيّداً.

ـ بلال لا يعوّض أبداً القرآن العظيم، إنّه يتمّمه، هو رفيق أولئك الذين هم عبيد أو كانوا عبيداً، رفيق أناس في حاجة إلى ابتداع لغة خاصة بهم، كلمات يتغنّون بها فتشجّعهم وتواسيهم. ثمّ لا تنسَ أنّي تعلّمت الصّلاة عند السّيدِي، هؤلاء النّاس الذين تعتبرهم أنت مستخفّين بالدين، حفظت عنهم السّور القرآنية والتقيت عندهم أناسا فسّروا لي أجزاء من القرآن.

ـ كيف رجعتَ من هناك، يا جدّي؟

ـ لقد مرض البانِيانْ. في اليوم الأول جاءه المرض وفي اليوم الموالي ارتحل به الموت وفي اليوم الذي تلاه تمّ حرقه على شاطئ بُمباي، أمّا أنا فألححت على حضور المراسم رغم أنّ المنظر جعلني أشعر بالحزن. وبقطع النظر عمّا حصل لي وعانيت بصفة عامّة، أسديتُ إليه شكري بينما كانت ألسنة اللّهب تلتهمه وهو ينكمش وينفلق إلى أن تحوّل أخيراً شيئاً فشيئاً إلى رماد. دامت العملية من الظّهر إلى غروب الشمس، دامت وقتاً طويلاً خدمتُه فيه لآخر مرّة، وحتى بعد كلّ ذلك الوقت لم يحترق تماماً، فلقد بقي منه عظم الزنّار الحوضي.

ـ يا للفظاعة!

ـ تصوّروا هذا الزنّار الحوضي تائها لوحده في جهنّم ومع كلّ حركة تصدر عنه يتساقط منه الرّماد.

ـ وكيف تريده يتحرّك إذا كان زنّارا حوضيا لا أكثر؟

ـ أمر عجيب.

ـ جاد الله على هؤلاء المساكين بمزيد من العقل.

ـ لا أظنّ أنّكم على صواب. لا يعتبرُ العُواء مع الذّئاب ضربا من الخُبال إلاّ لدى من ليس ذئبا.

ـ بابا إلياس، لعلّك تفسّر لنا ذات مساء علاقة الذّئاب بحرق الجثث.

ـ وأنا ما زلت لا أدري كيف رجعتَ إلى زنجبار.

ـ لقد أوصى سيّدي بأن يُطلق سراحي بعد موته..

ـ قهوة، كم قهوة؟

ـ هناك امرأة واحدة تجرؤ على مقاطعتي.

ـ أنت تتكلّم بما فيه الكفاية. اتركني على الأقلّ أقدّم لضيوفنا شيئاً يستطيعون تذوّقه براحة. مَادافو، من منكم يريد مَادافُو؟ جاءنا ابننا اليوم بجوز هند طازج.

ـ قولوا لها ما الذي تريدون تناوله. سوف لن أرتاح إلاّ بعد أن تحصل هي على جواب من كلّ واحد منكم.

* * *

دخلت القوارب الميناء واصطفّت ملتصقة ببعضها كرؤوس الماعز في الحظيرة. خصلات من السحاب تغزو السماء، تتنافس الأصوات من أجل تجارة أوفر ربحاً. أيادي نسائية تنظّف سمكاً إسقُمريّاً، تلقي بالأحشاء بجانب الشّباك التي جفّت بعدُ وببقيّة السمك في القفّة. بعض الرجال يطبّبون قواربهم بحركات بطيئة وكأنّ عليهم أن يتفقّدوا كل شيء من جديد في وضح النهار. وسط كلّ هذا يقف الرّجل الغريب. يقف فقط، دون أيّ حراك. لا بدّ أنه يقف هناك منذ وقت طويل لأنّ الصيّادين والبائعات يبدون

غير مهتمّين به. وكأنّه جزء لا يتجزّأ من كامل المشهد. لم يعلق به إلاّ الأطفال الذين يحاولون قلْب طرف سترته، بحثا عن أقصر مسافة توصلهم إلى جيوبه الكثيرة. إنّه بمثابة الإسفنجة التي تمتصّ كل شيء، يستمع بكلّ حواسّه وكلّه يقظة ونهم. قضى ليلة متقلّبة قبل أن يحلّ آخر يوم بقي له في هذه الجزيرة. غادر المنزل باكراً، غادر صندوقَ النبيذ هذا، ذا السمرة الرمادية والذي يأوي القنصلية البريطانية التي تعبق من الدّاخل برائحة القنصل، هذا القنصل الذي لم يقرّر بعدُ شقّ عباب البحر والتخلّص من الموت الذي يلاحقه. لمّا كان برتن بصدد مغادرة البناية استوقفه صوت القنصل الذي جلس في الشرفة الخارجيّة متدثّرا بالأغطية.

ـ صباحكم سعيد، يا دِكّ.

ـ الأسعد في هذا الصّباح هو أنّه أعلن نهاية الليل.

ـ أحلام مزعجة؟

ـ لا أحلام بالمرّة.

ـ لعلّ في هذا فأل يُمن.

ـ يُمن؟ أفضّل أن أصنع اليُمن بنفسي. على فكرة، أنا مسرور جدّاً لقراركم العودة إلى ذويكم.

ـ إلى ذويّ؟ طبعاً، سأعود في يوم ما إلى بلدي.

ـ في يوم ما؟ مساء أمس فقط كنتم على وشك إصدار أمر بحزم الأمتعة.

ـ تحدّثنا فقط في غمرة النّشوة يا عزيزي. قبل كل شيء يجب أن أطمئنّ على أنكم أنتم أخذتم طريقكم بسلام.

ـ ليست لكم غير مهمّة واحدة، وهي تتمثّل في تعافيكم من المرض. والعودة إلى البلد هو أفضل شفاء.

ـ الصّحة، نعم، إنّ حالها في المناطق الاستوائية ليست بالجيّدة تماماً. هل تعرفون ، بالمناسبة، سبب موت الأثرياء من الزنجباريين؟ أعني عندما لا يُصابون بالكوليرا، بالجدريّ أو بالملاريا.

ـ التسمّم؟

ـ لا ، يا صديقي. لكُم ميلٌ إلى التصوير المأساوي. يموتون بإمساك البطن. كان لي قبل سنوات صديق فرنسي، كان طبيباً وبيّن لي أنّ السبب هو خمولهم. يموتون بسبب الخمول، وهذا الخمول لا ينعمون به إلاّ لأنهم أثرياء. فهم إذن ضحيّة الطبقة التي ينتمون إليها. ألا تبرز العدالة الإلهية من خلال هذا المثل بجلاء؟

ـ قد يكون لهذا تفسير آخر، تفسير أكثر واقعيّة وإن بدا غير ذي بُعد أخلاقي كبير. أعني كل مهيّجات الرّغبة الجنسية التي يتناولونها والتي لا يمكن اعتبارها بريئة تماماً.

ـ هذا اختصاصكم، يا دِكّ، اختصاصكم.

ـ تعنُون أثرياء هذه الجزيرة؟ هم مدمنون على المنشّطات وكأنّ زنجبار ترزح تحت غشاء قوامه العجز الجنسي. المستحضَر المفضّل لديهم؟ حبّةٌ ثلاثة أرباعها من العنبر والرّبع الباقي من الأفيون، مع الملاحظة أنّ كمّية الأفيون يجب تحديدها حسب درجة إدمان متناولها. لكن الجميع يتناولونها، سواء كانوا في حاجة إليها أم لا.

ـ الخمول ودافع الشهوة، هذا هو كلّ الأمر. وبين هذين القطبين يفنى الكثيرون.

ـ عودوا إلى البلد أيّها القنصل، حان الوقت لأن تعودوا إلى هناك.

* * *

سيدي مبارك بُمباي

ـ أخبرني، بابا سيدي، أنا لم أفهم أبداً ما فعلتَه بالضبط أثناء السّفر.

ـ سؤال في محلّه.

ـ لم تحمل الأثقال..

ـ صحيح.

ـ لم تقاتل..

ـ صحيح.

ـ لم تطبخ الطّعام..

ـ صحيح.

ـ لم تغسل الثياب..

ـ تكفّل آخرون بمثل هذه الأعمال.

ـ ماذا فعلت إذن؟

ـ كنتُ دليلهم.

ـ ماذا؟ أعد ما قلتَ يا أخي.

ـ كنت مرشد الرحلة الاستكشافية.

ـ أنت؟ لكنك لم تذهب من قبل إلى البحيرة الكبيرة التي بحثوا عنها.

ـ لا، لم أذهب.

ـ ورغم هذا كنت مرشدهم إلى هناك؟

ـ إذا استحالت معرفة الطريق على الجميع يستطيع كلّ شخص أن يتكفّل بالقيادة.

ـ كنت حقّاً لا أعرف الطريق، لكن الاهتداء إليه لم يكن صعبا. كان

هناك طريق واحد يشقّ البلاد، طريق القوافل التي تتاجر بالعبيد. لا تظنّوا أنّ ما غاب عنكم أنتم لا يعرفه غيركم. كان هناك عرب جابوا هذا الطريق أثناء سفراتهم مراراً وتكراراً وكأنّهم تجّارنا نحن في طريقهم إلى بيمْبَا. كان هناك حمّالون اقتاتوا وعائلاتهم من حمل لفّات بأكملها من السّاحل إلى داخل البلاد، لمدّة خمسين أو مائة يوم ثمّ رجوعاً إلى الساحل. لا تنسوا أنّ المسافة التي يتمّ قطعها خلال يوم واحد ليست في حاجة إلى مُرشد. لقد كُلّفتُ بمهامّ عديدة أخرى، بمهامّ أكثر من اللاّزم. كان عليّ أن أقوم بأعمال وساطة واستكشاف، كنت السّاعد الأيمن بالنسبة إلى بْوانا سبيكي، كنت المنظار بالنسبة إلى بْوانا برتن. .

ـ ماذا تعني كلمة منظار؟

ـ آلة تجعل كل ما هو بعيد جدّاً يقترب منّا.

ـ مثل الزّمن إذن؟

ـ هل تستطيع أن تتحقّق من الزمن بعينيك؟

ـ هل تستطيعون تخيُّل يدَ بْوانا سبيكي اليمنى وهي تمتدّ لتأخذ منظار بْوانا برتن ثمّ. . ؟ كم هو معقّد كلام بابا سيدي.

ـ لماذا لا تخصُّ نفسك بسخريتك هذه؟

ـ لا، أنت تعلم جيّداً أن موسى الحلاقة لا تستطيع أن تحلق نفسها بنفسها.

ـ معك حقّ. كانت هناك مهمّة أخرى ذات قيمة كبيرة. كان عليّ أن أُترجم لأنّ بْوانا برتن وبْوانا سبيكي كانا غير قادريْن على التفاهم مع الحمّالين، كانت لدينا لغة مشتركة واحدة، لغة البانيان، وكنت الوحيد من بين أهل زنجبار الذي تكلّم هذه اللغة. .

ـ وكيف، يا جدّي، كان الوازُونغُو الاثنان يتكلّمان لغة البانيان؟

ـ الاثنان كانا أقاما في المدينة التي..

ـ اسمها يشبه اسمك.

ـ نعم يا عزيزي، لقد انتبهتَ جيّداً. عاشا في المدينة التي أحمل اسمها. كان بْوانا برتن يتكلّم وكأنّه بانيان، بطلاقة ودون أخطاء، كان يحذق ثنيَ لسانه وكأنه أحد أولئك العراة ومختلّي المدارك العقلية الذين تعجّ بهم بلاد البانيان عندما يُبدعون في لوْي أجسادهم. أمّا بْوانا سبيكي فكان يتكلّم وكأنّه شيخ عجوز سكنته الرّعشة، كان يبحث عن الكلمات كمن يبحث عن قطعة نقدية في صندوق تعدّدت زواياه، كذلك كان لا يقدر على ربط الكلمات ببعضها. تصوّروا إذن البطء والصّعوبة التي كانت تسير عليها المحادثات بيني وبين بْوانا سبيكي، خصوصاً في البداية، قبل أن يتعلّم هو قليلاً وقبل أن أتعلّم أنا قليلاً ليصير الخليط الذي تكوّنت منه لغتنا أكثر ثراءً إذ إنه كان من الصّعب فهمه لأنّ هندوستانيته كانت أكثر رداءة من هندوستانيتي. كنت أترجم ما اعتقدتُ فهمه إلى الكيسُوَاهِيلي، أمّا في داخل البلاد فقد اضطررنا إلى البحث عمّن يحذق الكيسواهيلي ليستطيع نقل أسئلة بْوانا سبيكي إلى لغة الأهالي الأصليين. وجدنا شخصاً أبدى كثيراً من الاستعداد وحسن النيّة لكنّه، مع هذا، لم يتمكّن من فهم كلّ شيء. ما كان منه إذن إلاّ أن ترك كلّ ما لم يفهم جانباً وأتى بتكملة حسب تخميناته الخاصة، وهكذا كانت الأجوبة التي حصلنا عليها في آخر الأمر لا تختلف في غالب الأحيان كثيراً عن الأسئلة نفسها. استغرق كل هذا وقتاً طويلاً، وكلّ من لم يتحلّ بالصبر لم يستطع تحمّل نسق تلك المحادثات البطيء. كانت الرّحلة بالنسبة إلى بْوانا سبيكي تتّصف بالوحشة لأنّه لم يستطع التحدّث في لغته الأصلية إلاّ إلى شخص واحد، إلى بْوانا

برتن، وبعد أن فرّق بينهما خصام، كفّا عن الحديث مع بعضهما لشهور كاملة. أُجبر بْوانا سبيكي إذن على السكوت وأفسح مجال الكلام لبندقيّته.

- هل قتل بشرا؟

- كم قتل؟

- أطلق النار على الحيوانات، على الحيوانات فقط، يا صغيري. على عدد هائل من الحيوانات. لو وُجد مثوًى أبدي للحيوانات لكان امتلأ بها كما يغصّ المسجد بالمصلّين في شهر رمضان.

- كان غير قادر على الحديث مع أيّ شخص، لعلّ كل هذا جعله يُسرف في القتل.

- لو أنّ ما تقول صحيح، بابا آدم، لكان الخُرس أشنع القتلة المجرمين.

- كان في غالب الأحيان وحيداً، نعم، وازدادت وحدته كلّما طالت الرّحلة. أمّا بْوانا برتن فكان يهتدي تقريباً مع كل شخص إلى لغة مشتركة ومناسبة يتكلّمها معه. تكلّم العربية مع تجّار العبيد، السّندية مع الجنود البلوشيين، وأمام صديقه فقط، أمام بْوانا سبيكي، ذهب عنه الكلام. تعلّم أيضاً الكيسُواهيلي بخطى بطيئة لأنّ لغتنا لم تعجبه.

- ما الذي لم يعجبه فيها؟ إنّها أفضل اللغات.

- هذا ما يقوله كلّ من لم يتكلّم لغة ثانية.

- العربية هي أحسن اللغات.

- الكيسُواهيلي هو بمثابة عالم يزخر بالمناظر الطبيعية المختلفة والخلاّبة.

- ماذا تعني بقولك هذا، بابا إلياس؟ هل يعني كلامك أنّ الأنهار جاءتنا من بلاد فارس والجبال من بلاد العرب والغابات من الأُولُوغُورُو..

ـ تقريباً. بدأتَ تفهم.

ـ والرّمل من زنجبار.

ـ والسّماء؟

ـ السماء لا تشكّل جزءاً من منظر طبيعي.

ـ ألا يبدو أيّ منظر طبيعي عارياً بدون سماء؟

ـ يبدو مثل الكَنْغَا الملفوفة حول أصلاب الأرض.

ـ عند غروب الشمس.

ـ ماذا قلتُ لكم؟ هل سمعتْ آذانكم كم هي جميلة رنّة الكيسواهيلي، حتى ولو تكلّمت به أفواه ثرثارة؟

ـ الحديث لا يدور حول ذوقكم أنتم وإنّما حول ذوقه هو. كان لا يحبّ أن يرى الكلمات مسبوقة بما قد يكبح من جماحها، بشيء يشبه الكمامة، كما قال هو، حيث تصير بعيدة كلّ البعد عمّا كانت عليه في الأصل. ورغم هذا تعلّم، تعلّم قدراً كافياً، ولمّا رجعنا من الرحلة تكلّم الكيسُواهيلي بما اقتضته منه الحاجة.

ـ والرّجل الآخر؟

ـ ولا كلمة. ولا حتّى «أسرغ» أو «قف».

ـ رجلان مختلفان.

ـ مختلفان تماماً. لكن من الذي سيفهم أنّ رجلين مختلفين إلى هذا الحدّ قاما معاً برحلة كان على كل واحد منهما أن يضع خلالها حياته بين يدي الآخر؟ فحتّى مظهرهما الخارجيّ كان مختلفاً. كان أحدهما قويّ البنية وأسمر البشرة والثّاني أهيف القامة، رشيق الحركات وبشرته بيضاء في لون بطن السّمكة.

ـ هذا لا ينطبق إلاّ على أنواع معيّنة من السّمك.

ـ كان طبعهما مختلفاً، الأوّل كان مندفعا، تكلّم بصوت عال وجهر برأيه، أمّا الثاني فكان هادئاً، متحفّظاً وصموتاً. كانا أيضاً مختلفين في تصرّفهما، فبينما كان الأوّل هجومياً ومتسامحا كان الثاني منضبطاً وضغِناً. الأوّل كان نهماً، سكنته رغبة جامحة في كل شيء وعاش دوماً حسبما أملاه عليه نهمه ورغبته، أمّا الثاني فكانت له أيضاً رغباته وشهواته، لكنّه شدّها إلى رباط، وكلّما حاولتْ فكّ عقالها تمّت السيطرة عليها وإرجاعها إلى الجادّة.

ـ بما أنّهما استطاعا أن يسافرا سوياً ولمدّة سنوات في أصقاع الدّنيا فلا بدّ أن شيئاً ما جمع بينهما.

ـ الطّموح والعناد. كانا أكثر حِراناً من الأحمرة الثلاثين التي غادرنا بها بَاجَامُويُو. وكانا ثريّين، في غاية الثراء. احتجنا إلى أكثر من مائة رجل لحمل ثروتهما، رجالاً مشوا حُفاة ولم يمتلكوا شيئاً.

* * *

تجمّعوا كلهم في بَاجَامُويُو، المكان الذي كانت تنطلق منه جميع القوافل إلى داخل البلاد والذي ـ كما يشير إليه اسمه ـ ترك فيه عدد لا يحصى من العبيد مشاعرهم وقلوبهم إلى الأبد. إنّهم ينتظرون إشارة الانطلاق. الحمّالون حفاة ويرتدون لباسا رثّا حتى في يوم انطلاق الرحلة، لا تزيّنهم سوى أشرطة من الجلد أو حزمات من الرّيش. منهم من ربط نواقيس في أسفل الفخذ ممّا جعل الأطفال يتوقّفون عن لعبة الخُبَّيْأَى وراء جذوع أشجار عظيمة ليستمتعوا برنينها. حوّلوا الأقمشة التي سيتاجرون بها إلى لفّات تُحمل في القفا بطول خمس أقدام تمّت تقويتها خارجيا بأغصان الشّجر، وهي لعمري حمولة يصل وزنها إلى سبعين رطلاً. ليس من

الممكن تحميلهم أكثر، خصوصاً وأنّهم سيحملون أيضاً بعضا من أمتعتهم الخاصة. الصّناديق تُعلّق على عودين من الخشب (الخفيفة منها في طرفي العمودين والثقيلة في الوسط) ويتمّ حملها من طرف رجُلين.

برتن يتشاور مع الكِيرَانْغوزِي سعيد بن سالم الذي سيسير في مقدّمة القافلة وسيقوم بدور رئيس التشريفات بالنسبة لكلّ الرّحلة. مبعوث السلطان هذا، هو رجل ثرثَار لا يخطر بباله أبداً، حتّى في الحلم، أنّ قيمته الشخصيّة ليست في واقع الحال تلك التي يحاول إيهام الغير بها. هو في الحقيقة تلك الأداة التي تخترقها الأوامر قبل أن تصل إلى هدفها، لكنّه يبلّغها بطريقة تُوهم المُتلقّي أنّها صادرة عنه. ولاؤه هو قبل كلّ شيء مدروس ويذعن لليد التي تسدّ رمقه. يُصدر أمراً فيُدقّ الطبل النّقاري لأوّل مرّة ويغادر موكب الحمّالين الأماكن الظليلة في الساحة ويتسلل ببطء ومتثاقلا كالثّعبان المكتنز إلى وسط الطريق العريض والمشجّر الذي يقود إلى داخل البلاد. أشجار المَانغو ملتصقة ببعضها وأغصانها المتداخلة تكوّن مظلّة كثيفة لا يبدو النّهار تحتها نهارا أبداً. ينضمّ برتن إلى سبيكي الجالس إلى القنصل الممدّد على فراش تحت سقف متقدّم. عِوض أن يركب سفينة ويعود إلى بلاده، رافقهم إلى بَاجَامُويُو. قال إنّه أراد تفقّد الأمور. لكنّ ما يجول بخاطر برتن هو الآتي: ليوّدعنا إلى الأبد، وكأنه يريد أن يقول: أنتما تسافران إلى المجهول وأنا إلى الموت.

يقول سبيكي: انظرا إلى الكِيرَانْغوزِي، إلى هذه الدّمية المتحركة. هل من الضّروري أن يلبس لباسا أرجوانيا كهذا؟ وكل هذا العبث الذي نرى فوق رأسه؟ فيُردف برتن: كأنّه عشّ عنقاء، ثمّ يضحكون معاً، ضحكة قصيرة في غير محلّها. لا أثر البتّة للتّمويه، سنلفت الأنظار على بعد أميال. أضاف القنصل: هذا هو المُراد بالذّات. لهذا الغرض هو يحمل

راية السلطان الحمراء عالياً، ليعلم كلّ من يراها عن بعد أنّ هذه القافلة آتية من زنجبار وتتمتّع بحماية السلطان مباشرة. هذا الرّجل لا يقلقني، إنّ ما يشغل بالى هي الفرقة المكلّفة بحمايتنا. يمرّ البلوشيون الثلاثة عشر من أمامهم وهم مسلّحون ببنادق الفتيلة، بالسّيوف والخناجر وأيضاً بكيس من البارود ربطه كلّ واحد منهم بجسمه على طريقته الخاصّة. يسيرون وراء قائدهم جِيمَادار مَالُوكْ، هذا الرّجل الأعور، بجلدته التي كستها آثار الجدري وبذراعيه الطويلتين. قال القنصل: وعدتُهم بمكافأة إن هم عادوا بكما إلينا سالميْن. يشدّ البلوشيون بنادقهم إلى أكتافهم ويبدؤون خطواً منتظما يغلب عليه الاختلال وكأنّهم يريدون أن يسخروا من كلّ ما هو استعراض عسكريّ. يُذكّرون برتن بفرقة السّيبُويْ في بَارودَا والتي وجد صعوبة في تكوينها، يذكّرونه أيضاً بالباشيبازوك الذين كانوا تحت إمرته أثناء حرب القرم ولم يمتثلوا لأوامره إلاّ بعد عناء. غير أنّ السّيبُويْ، مقارنة بهذه الطّغمة العرجاء التي تمرّ أمامه، كانوا منضبطين حقّاً، بينما كان الباشيبازوك أكثر جموحا وضراوة من هذه الذرّية لفقراء الهنود، للبحّارة والحمّالين وجامعي التّمور والمتسوّلين واللصوص، كلّهم أصيلو بلاد مقفرة أطردت الكثير من أبنائها، لكنّ هؤلاء ما يزالون، رغم كل هذا، يتغنّون بها في ألحان كلّها حنين، لأنّ الوهد المجدب الذي كان أجدادهم ولّوه ظهورهم في الماضي لا يزال مزهراً في الذّاكرة.

يسلّم القنصل برتن خطاب التوصية الصّادر عن السلطان. يقول: إنّه مهمّ، على الأقلّ فيما يتعلّق بالقسط الأوّل من المسافة. بعد ذلك ستدخلان مناطق لا يعلم فيها أحد أنّ هناك سلطانا، أو، على أقصى تقدير، قد يكون سمع أحدهم مرّة بوجوده، كمن يسمع خبرا أتت به خرافة من بلاد أجنبية. يطوى برتن المكتوب بكل عناية ويضعه في جرابه الجلدي أين يوجد أيضاً جوازًا سفره، رسالة التّبرك من لدن الكاردينال

وَايْزمان وشهادة شيخ مكّة التي تقضي بأنه أدّى فعلا فريضة الحجّ. إنه مستعدّ كل الاستعداد ولجميع الاحتمالات. يودّع القنصل بمصافحة سريعة يخجلُ لها بعد ذلك مباشرة، لأنه يعترف في قرارة نفسه بتقزّزه من بشرته المبقّعة.

أثناء قطع الأميال الأولى لا يستطيع أن يفكّر في شيء آخر غير إمكانية أن يكونوا قد نسوا شيئاً ما. هل أخذوا معهم ما يكفي من السّلع للمقايضة؟ وعندما ينفد اللّؤلؤ والقماش، ماذا سيفعلون للحصول على موادّ غذائية؟ يتركّز بصره على اللفّات التي تتأرجح فوق رؤوس الحمّالين، لفّات من المَاريكَاني ـ قماش من القطن غير مبيّض جاء من أمريكا ـ، لفّات من الكَانيكِي ـ قماش مصبوغ بالنّيلة جاء من الهند. لا بدّ أنّ اللفات ستكفيهم وإلاّ سيموتون جوعاً. هناك، أين يختفي الطريق العريض المشجّر في منعرج الأدغال غير المتناسقة، يختفي البحر ويصير في عداد الماضي. تلتهمهم الأعشاب التي تصلهم حدّ الكتفين. يسيرون وضفّة نهر لا يتمكّنون من رؤيته إلاّ نادراً. الأرض صلبة والأدغال تمتدّ بعيداً إلى ما لا نهاية له. يبدو واضحاً أنّ الأهالي يتحاشون القوافل. يمرّون بكوخ خرب ومتداع، يمرّون بقرية أولى تُجفّف فيها أسماك صغيرة أمام الأكواخ وتتكدّس فيها غلال حديثة الجني. يخرجون من القرية فيلتهمهم الفضاء المعهود من جديد، يلتهمهم عالم من الوجل الغريب لا شكل له ومخيف إلى حدّ ما. تشغل بال برتن فكرة: علينا من الآن فصاعدا أن نتغلّب يوميّاً على هذه الحقيقة، إنّها تشكّل تحدّيا بحقّ، تحدّيا لم ينبّه أحد إليه من قبل.

حتّى تُولْسي لم يقل شيئاً، تولسي، أكبر المنبّهين للأخطار وأحد الهنود المتذلّلين الذين صوّروا لنا أنّهم سيكونون في عوننا بينما أثقلوا في

الحقيقة كاهل ميزانية الرّحلة أكثر من اللاّزم وجاؤوا بالمقابل بأنباء السّوء وكأنّ لهذه الأخيرة دوراً وقائياً ناجعاً ضدّ الأهوال التي تنتظر الجميع في داخل البلاد. عشيّة أمس، قدّم تُولسي في منزله في بَاجَامُويُو إلى جانب الغُولابْ جَامُونْ حلوة المذاق كذلك بعضا من خرافات العجائز اللزجة التي تتحدّث عن المتوحّشين الذين يجلسون فوق الأشجار ويطلقون سهامهم المسمومة بمهارة فائقة، ناهيك أنّها عند سقوطها تخترق أدمغة المسافرين حتّى الرّقبة. وهكذا يموت هؤلاء المباغَتون وفمهم مغلق. سأل برتن عن الطريقة التي يمكن الاحتماء بها من شرّ السّهام. ابتعِدوا عن الأشجار! وسط الغابة؟ هل علينا أن نجتنب السماء أيضا؟ أسرع لَدْهَا دَمْهَا، وهو هنديّ آخر يستخلص الرّسوم الجمركية لحساب السلطان، لمساعدته بلباقة. قال إنّ بعض رؤساء القبائل أقسموا ألاّ يتركوا البيض يدخلون أراضيهم. لقد نصحهم أحد الكهنة قائلاً: اقتلوا الجرادة الأولى التي تدخل أرضكم إذا أردتم اجتناب البلاء. وبدأ بذلك تعداد لا نهاية له للمخاطر: وحيد القرن إذا ثارت ثائرته باستطاعته أن يقتل مائة رجُل. من الممكن أن يهاجم جيشٌ كامل من الفيلة المخيّم اللّيليّ. هناك عقارب تلدغ ولا تترك للملدوغ وقتاً ليدعوَ ربّه. عليهم أن يتحمّلوا مشقّة البقاء لأسابيع بدون طعام.

كان الهنديّان واثقين من أنّ الرّجلين البريطانيين لن يتمكّنا حتّى من قطع نصف المسافة التي تنتظرهما. ذكرا هذا في حضرته، وبكلّ صراحة، ظنّا منهما أنّه لا يفهم اللّهجة الغوجاراتية التي تكلّما. سأل لَدْهَا دَمْهَا: هل سيكتب لهما يوماً الوصول إلى بحيرة أُوجيجِي؟ ويُجيب القائم على حساباته وماسك دفاتره بعد أن رفع مُخاطه إلى أعلى: طبعاً لا! من هم حتّى يظنّوا أنّهم باستطاعتهم عبور بلاد الأُوجُوجُو أحياء؟ عندها قال برتن مودّعا وبلغة غوجاراتية مهذّبة لقّنه إيّاها أوبانيتشي: أنتم الغُوجُو تظنّون

أنكم جدّ أذكياء. سأعبر بلاد الأثوغُوغو، سأصل إلى البحيرة الكبيرة وسأعود، وعندها سأتوقّف هنا مرّة أخرى.

يستلقي إلى الوراء. أصبح هذا الآن بإمكانه نظراً لأنّ كلاً صار يعلم أيّة طريقة يتّخذ في سيره. يخفض في نسق خطاه إلى حدّ يمكنه معه سماع ما يصدر عن أبعد الحمّالين منه مسافة دون رؤيته. مائة وعشرون رجلاً تحت إمرته. هذه الرحلة الاستكشافية لا بدّ أن يكتب لها النجاح. لم يصل إلى هذا المكان الذي صار له فيه ممكناً أن يمدّ يده لجني الشّهرة التي هو جدير بها إلاّ بعد أن ضرَب بالأوامر عرض الحائط، أوامر رؤسائه في شركة الهند الشرقية البريطانية، بعد أن تداين كثيراً وخاطر بأن أتّخذ من شخص لا يرتاح إليه رفيقاً له أثناء الرّحلة. لم يكن القنصل مخطئاً تماماً، بداية الرّحلة لا تحمل في طيّاتها ما يكفي من إشارات اليُمن والتّبرك. لقد تعذّر على صديق له، وهو طبيب ممتاز، أن يُرافقه في رحلته بسبب توعّك ألمّ به. أمّا السلطان سيّد سعيد، وهو حليف كان يمكن الاعتماد عليه حقّاً، فقد توفّي قبل وصولهما إلى زنجبار بقليل، في حين أنّ القنصل، الذي يمكن اعتباره أكبر سند لهما، هو حتّى الآن جاثٍ في أرجوحة الموت. في حال فشل مهمّته هذه ستكون الكتيبة المتمركزة في الهند في انتظاره. العودة إلى هناك؟ أبداً. لا، عليه ألاّ يفكّر في الأمر إطلاقاً. جميل ألاّ يعرف المرء الخوف إجمالا، لكن يجب أيضاً القضاء على كل تخوّف من الفشل.

يعبرون بسرعة منطقة خضراء تغطّيها الأدغال، غير أنّهم سوف لن يتمكّنوا من المحافظة على مثلِ هذا النّسق. أرجلهم سيصيبها الوهنْ والطبيعة ستسدّ عليهم طريقهم. سيتعثّرون وينزلقون ثمّ يغُوصُون ويغرقون في الوحل. ستتكعبلُ أقدامهم في الأحابيل. قد يواصلون السير لمدّة ساعة أخرى قبل أن تصدر إشارة بالتوقّف. يُسرع الخطى.

أجاد سعيد بن سالم اختيار المكان الذي سيقضّون فيه الليلة. جذوع محزوزة، أغصان مفحّمة، مساحة من الغابة جرداء - سبق لآخرين أن قضّوا الليل قبلهم في هذا المكان. بعد أن أخرجوا الأمتعة وقاموا مجدّداً بجرد ما أخذوا معهم للرّحلة لاحظوا أنّهم تركوا إحدى البوصلات في بَاجَامُويُو. لا أحد غير برتن يعرف أين يجد البوصلة. عليه أن يعود كل المسافة إلى الوراء. فاجأه سيدي مبارك بُمباي بأن أظهر استعداده لمرافقته. رغم أنّ الأمر تعلّق تقريباً بقطع مسافة ستّة أميال مشياً. بُمباي - كذا كان يذكره عندما يجول بخاطره وكذا كان أيضاً يتوجّه إليه بالكلام - ليس غريباً بالنسبة إليه، لقد سبق لهما أن تحدّثا مع بعضهما مرّات، أمّا الآن، أثناء قطع هذه المسافة التي سوف تتطلّب مجهوداً جبّاراً وتساوي ثلاثة أضعاف ما وجب عليهما سيره يوميّاً، سيكونان لأوّل مرّة معاً بمفردهما. قال برتن في نفسه: حديث مع شخص على حدة هو من الأشياء النادرة حقاً في بلاد الشرق. يسيران لمدّة نصف الساعة الأولى جنباً إلى جنب وهما يلازمان الصمت، بينما يسير برتن بخطى عريضة يرتفع النسق لدى بُمباي. يفتتح برتن الحديث قائلاً إنّه يأسف لعدم تمكّنه من الكيسواهيلي بما فيه الكفاية، ما يجعله غير قادر على التحدّث في لغة سيدي مبارك بُمباي. يجيبه بُمباي: الكيسواهيلي ليست لغتي، لغتي أنا اندثرت، ثمّ يبتسم ابتسامة لطيفة تنمّ عن رضاه على ما يقول. كلّما تحرّكت تقاسيم وجهه، بقطع النّظر عن الاتجاه الذي تذهب فيه، فإنّها تبعد مسافات عن عالم القبح. وكأنّ بُمباي، مع كلّ ابتسامة، يريد أن يُصلح من أساريره - بقطع النظر عن أسنانه التي نخرها التآكل الأبدي. هو رجل ممتلئ العود ويبدو غير عاديّ وسط هؤلاء القوم. رجل تخلّص بلا رجعة أثناء إحدى سفراته في بلاد الغربة من ذلك الميل الطبيعي إلى الرّاحة. العبودية هي بلا شكّ شيء بشع، في الحقيقة شيء دميم، لكن بدونها لكان بقي سيدي مبارك بُمباي

مثل كل هذه المخلوقات الهامدة، الرابضة على حافة الطريق والتي تُرغم نفسها حتّى على التحيّة ولو مرّة.

* * *

سيدي مبارك بُمباي

هناك من الأسئلة الملحّة ما يتدافع إلى الصّدارة، أسئلة تجرّ وراءها حبّ اطّلاع خاصّ بها وكأنّه حطب سريع الالتهاب. من أين جئتم؟ كانت الإجابة سهلة. من زنجبار، من السّاحل، من بَاجَامُويُو. لكن من طبيعة الأسئلة أنّها تجرف معها أسئلة أخرى، وهو لعمري مسلكٌ لا نهاية له، وهكذا لم يجد لا بْوانا برتن ولا بْوانا سبيكي جوابا مقْنعا على السؤال الثاني: إلى أين أنتم ذاهبون؟ اعترضنا هذا السؤال في ظلّ كلّ شجرة مْبُويُو ومْتُمبْوي ومِيِيُومْبُو، رفرف فوقنا كسرب من الطيور تمّ إزعاجه، جاء كلّ مرّة بعد السّلام في بداهة الموجة عندما تنشأ على رفات موجة أخرى، كان لا بدّ منه، شأنه شأن تعاقب الكَازِي والكَزْكَازِي. هناك من الأسئلة ما يشبه الكلاب كثيرة النباح وهناك من الأسئلة ما يشبه رأس الشّوك عندما ينغرس في الجلد ويعسر استخراجه، أسئلة محيّرة تشغل البال على الدّوام.

ـ كالأسئلة التي تلقيها النّساء على أزواجهن.

ـ إن كنتَ تريد مواصلة سرد الحكاية، بابا بُرهان، فما عليك إلاّ أن تواصل.

ـ لا، لا، أبداً، أنا أتمّمها فقط، كما تتمّم الأذنان اللّسان.

ـ هل سيكون بإمكاننا سماع ما سيأتي بعد أن تكونا قد تمّم أحدكما الآخر؟

ـ هل أنت تجهل كلّ هذا، بابا علي؟ هل أنت حديث العهد بالسّكن في هذا الحيّ؟

ـ الحكاية تتّخذ كل مرّة شكلا آخر.

ـ من أين جئتم؟ إلى أين أنتم ذاهبون؟ هذان السّؤالان كانا في انتظارنا في ظلّ كلّ شجرة مْتُمبْوِي ومِييُومْبُو. قد تقولون إنّهما سؤالان في غاية البساطة، فحتّى الأطفال يعرفون إلى أين هم ذاهبُون. يعرفون على الأقلّ في أيّة وجهة هم يريدون الذهاب.

ـ بدون شكّ، الأطفال قادرون على الإجابة على سؤال من هذا القبيل، والكبار؟

ـ كلّما فضّل الوازُونغُو عدم إعطاء جواب قالوا: إلى البحيرة الكبيرة، لكنّهم كانوا لا يعرفون البحيرة الكبيرة، أمّا أولئك الذين سمعوا عن بحيرة كبيرة فإنّهم لم يفهموا كيف يمكن لشخص ما أن يعبر كامل البلاد بمائة من الحمّالين وعشرين جنديّ، أن يعرّض نفسه لجميع الأخطار المحدقة في الغابة، فقط من أجل الوصول إلى البحيرة الكبيرة. وما الذي تريدونه من هذه البحيرة؟ هكذا استمرّوا في إلقاء أسئلتهم. أجاب بْوانا برتن: لا نريد شيئاً من البحيرة الكبيرة، نودّ فقط أن نراها بأعيننا لأننا نريد أن نعلم أين تُوجد وما هو حجمها. حرّك الرجال الجالسون في ظلّ شجرة المْبُويُو والمْتُمبْوي والمِييُومْبُو رؤوسهم معربين عن استغرابهم ـ وهم الذين سرعان ما كانوا يعلمون إن صدقت الوجوه أو كذبت ـ وتفاقم لديهم الشّك. غمغموا، هؤلاء الغرباء نواياهم ليست بالطيّبة، تهامسوا، هؤلاء الغرباء جاؤوا لنهب بلادنا. كانوا خائفين، نعم، كانوا خائفين منّا وكانوا أكثر خوفاً من عواقب وصولنا إليهم. هؤلاء الغرباء سيجلبون علينا الويل! بعد أن نصبنا معسكرنا بقليل تُوفّي رجلٌ في إحدى القرى، رجلٌ شابّ كان بالأمس اشتغل في حقله. أخذ القوم يتذمّرون: ألم تروْا؟ أَقِرّوا بأنّ هذه هي الأولى من بين كلّ المصائب التي سيجود بها قدومكم على البلاد.

اشتكوا على هذا النّحو، وإذا بخوفهم يندثر شيئاً فشيئاً فلا يبقى له أثر في شكواهم. ولقد أصاب بْوانا برتن عندما استحثّنا في الصباح الموالي على مغادرة المكان. لم يصطحبنا إلى خارج القرى غير الأطفال، كانوا يجرون بجانبنا، كانوا يصيحون: «مْزُونغُو!»، كانوا يردّدون: «وازُونغُو!» «وازُونغُو!»، كانوا يضحكون ويلوّحون بأيديهم. سألني بْوانا برتن: ماذا تعني كلمة «مْزُونغُو»؟ أجبته: تعني ذاك الذي يهيم على وجهه، يتخبّط ضالاّ ويدور في حلقة مفرغة. تملّكته الدّهشة وقال: هكذا يروْننا؟ لكنّنا نسير صوب هدفنا مباشرة. فأجبته: هؤلاء النّاس يبدو لهم وكأنّنا ضللنا طريقنا.

ـ وأنت؟ هل اندهشتَ لاندهاشه؟

ـ قافلةُ المندهشين!

ـ لماذا أخذتم معكم مائة من الحمّالين؟ ألم يكن لديكم ما يكفي من الدّواب لنقل الأمتعة؟

ـ لو سألتَ بابا إسماعيل لبَاعكَ بغاله الثلاثة طويلة السّاقين والمُدمنة على القات أكثر منه هو.

ـ كانت معنا دوابّ، طبعاً كانت معنا دوابّ لنقل الأمتعة، كانت لدينا خمسة بغال وثلاثون حمارا، ثلاثون من الحمير نصف المشلولة، العنيدة والتي لا يمكن الاعتماد عليها. بعد مرور ثلاثة أشهر لم تبق لنا سوى دابّة واحدة بعد أن نفقت كلّ الدّواب الأخرى. لكن دعُوني أقول لكم إنّ البشر ما كانوا ليصلُحوا لهذه الرّحلة أكثر من الحيوانات. لنبدأ بالكِيرَانْغُوزي الذي سار في المقدّمة ولم يخدم غير مصلحته الخاصة ومصلحة السلطان. ثمّ يأتي وراءه البلوشيون الذين تمثّل دورهم في الحقيقة في السّهر على حمايتنا، لكنّهم، عكس هذا، دافعوا عنّا بجُبنهم، وهو شيء لم نفهمه في

بادئ الأمر وظلّ كذلك حتّى النهاية. لكن سرعان ما علمنا أنّنا لا يمكننا الوثوق فيهم لأنّهم مستعدّون حتّى لبيع أمّهاتهم لمن يدفع أفضل ثمن. سار وراء البلوشيين الحمّالون، الحمّالون الصّادقون، الذين لم يعوّل عليهم بْوانا برتن وبْوانا سبيكي أيضاً. لقد حمَلوا الكثير وتحمّلوا الكثير إلى حدّ الليلة التي اهتدت فيها نفوسهم إلى الرّفض وهربوا أو حاولوا الهروب. كانوا، كما تعلمون، ينتمون إلى قبائل النّيَمْويزِي واشتغلوا بصيد الفيَلة قبل أن يقرّروا الحصول على قوتهم عن طريق حمل الأثقال فوق رؤوسهم وسيراً على الأقدام عبر كامل البلاد، مع أنّهم كانوا يعلمون جيّداً أنّ نصفهم فقط سوف يتمكّن في النهاية من العودة إلى الأهل وبأجر في الجيب سيدفع بهم للرّحيل من جديد، بلفّة كبيرة أو برزمة فوق الرّأس وباحتمال الموت. حياة كهذه لم يستطيعوا تحمّلها باستمرار فلاذوا بالفرار، وبعضهم باللفّة الكبيرة التي كان وجب عليهم حملها فوق رؤوسهم، هربوا، نعم، فرّوا من الجنديّة، هكذا كان بْوانا برتن وبْوانا سبيكي يصفان ما فعلوا. وزاد كلّ هذا من حيرتي لأنّ لغتهما تعبّر عن هذه الحالة بما معناه «فَرّوا إلى الصحراء»، ورغم أنّي أجهدتُ نفسي على الفهم لم أستطع أن أرى علاقة بين الصحراء والهروب في حدّ ذاته. كلّ من تمّ القبض عليهم تمّ جلدهم باسم العدالة التي عملت بها قافلة الرّحلة الأولى ثمّ قافلة الرّحلة الثانية. أمّا أثناء الرّحلة الثالثة التي قادها رجُل يحكم بالموت على كلّ من لا ينصاع إلى إرادته فكان أحياناً يتمّ شنقهم.

ـ لا لشيء إلاّ لأنهم هربوا؟

ـ كلّ من يهرب في الخلاء يعرّض كامل القافلة إلى الخطر، هذا ما شدّد عليه ونبّهنا إليه الرّجل الذي أمر بإعدام كلّ من لا ينصاع إلى إرادته. كان بْوانا سْتانْلي يقول: الفرار هو محاولة لقتل الآخرين. وكنّا نتهامس من

ورائه: والبقاء في القافلة يُعدّ انتحارا. أمّا أنا فبقيت، كان لا بدّ أن أبقى. بعد أن كنت نجوت من الموت بعد الرّحلة الأولى والثّانية عرفت أنّي سأكون قادراً على أن أنجو بنفسي بعد كلّ رحلة. أمّا الحمّالون من قبائل النّيَمْويزِي الذين كانوا فخورين بعملهم وأيضاً بسمعتهم فكانوا أقلّ ثقة فيما كان ينتظرهم. كانوا يفرّون في ظلام الليل وكنّا أحياناً نلاحقهم وأحياناً أخرى نتركهم وسبيلهم. وكانوا في بعض الأحيان يُقبض عليهم من طرف قوافل أخرى تعيدهم إلينا فيتمّ جلدهم بكُرباج مضفور من جلد فرس النّهر، وهو لعمري سلاح رهيب، خصوصاً عندما يكون حديث الصّنع، مُقضّبا وفي حدّ السّكين. كان يتمّ جلدهم إلى أن يدمى الظّهر بأكمله أو يتمّ شنقهم. دعوني أقول لكم: الذي ابتدع العقاب لم يميّز في يوم من الأيّام بين الذّكاء والغباوة. لأن لا سوط في الدّنيا يستطيع أن يمنعك من سلوك الطريق التي يدفعك إليها قلبك دفعاً. عندما يطغى الخوف أو القنوط أو الحِنق أو الشّوق على الأفكار، التي هي أهمّ ومن شأنها أن تميّز بين الأشياء، فإنّك تفعل ما يُمليه عليك قلبك، حتّى وإن انتظرك كلّ عذاب الدّنيا والآخرة. إنّ من اختلق العقاب كان لا يعلم إلاّ الشيء القليل عن قيمة البشر.

ـ بابا سيدي، أنت أيضاً تعلم ما قيمة الإنسان، طبعاً، لا أحد يشكّ لحظة في هذا، لكنّك أنت أيضاً لا تستطيع أن تتعرّف على كلّ ما يمكنك التّعرف عليه حقّاً. بدون التلويح والتوعّد بأقصى العقاب يصير الإنسان عديم الكرامة فيخرق الحدود ويُمعن في الشّطط.

ـ لقد عشت بنفسي، بابا يوسف، كيف أنّ من حصل لهم أن نالوا عقابهم أعادوا الكرّة وقاموا بنفس الشّيء الذي كانوا عوقبوا ضرباً من أجله. السّوط لا يُخلّف في الحقيقة آثارا دائمة على جلدة تبرّأ منها

صاحبها، خلعها وتخلّص منها. ثقوا فيما أقول، يا إخوتي، الإنسان يستطيع أن يبدّل جلدته كالحيّة. هناك إمكانية واحدة تمكّنك من حمله على العدول عمّا يخطّط لفعله: عليك أن تقتله.

ـ وهو ما فهمه نْوانا سْتانْلي على ما يبدو.

ـ لكن ما نفعُه من وراء كل هذا؟ كان كلّ مرّة يخسر حمّالا.

* * *

من كينْغاني ألى بُومَاني، من بُومَاني إلى مْكْواجُو لاَمْغُواني، كلّ مساء كان يدوّن الأسماء بدقّة وعناية. أسماء المناطق، المدن والقرى تشكّل الخلفية التي ينسج عليها تقريره. من كيرَنْغا رَنْغا إلى تُومْبا إِيهِيري، من تُومْبا إِيهِيري إلى سِيغِيسِيرَا: ما زالوا يُوجدون في مناطق الأسماء المعروفة، هذا ما تؤكّده له مراجعه وما يقول مُخبروه على طول الطريق ـ في خصوص المناطق القريبة من السّاحل هناك اتّفاق تامّ فيما يتعلق بالمصطلحات العلميّة. من دِيغي لاَ مْهُورَا إلى مَادِيغِي مادُوغُو، من مَادِيغِي مادُوغُو إلى كِيرُوري في خُوتُو. كلّ قرية أو مدينة يتمّ تحديدها هندسياً وبواسطة مقياس الارتفاع ـ القائمة المضبوطة بإحكام لا تترك مجالاً لعدم الوضوح، إنّها تُقصي كلّ ما قد يشكّل خطراً مفاجئاً. ما زالوا في بداية الرّحلة، إنّه يواجه كلّ مشكل يجدُّ بكلّ ما أوتي من ثقة في النفس لحلّه بقبضة يد أو بحركات قليلة، بتأقلم بسيط. ما زال الوقت يسمح بإصلاح الفاسد من الأمور. إنّ الطبيعة لتسمحُ بعديد الاكتشافات. الأشجار التي تأقلمت تأقلماً تامّا مع فترات الجفاف الطويلة اسمها مِيُومْبُو، وهنا يستطيع أن يفرّق بين ثلاثة أنواع: الجُولْبِينارْديَا، البْراخِيسْتيغيَا ثمّ الإيزُوبَرْلينِيَا التي تتّخذ منها الفيَلة غذاءً لها. هناك الأشجار العالية ذات الجذوع المستقيمة والقشرة الصفراء (تاكسُوس إيلُونْغاتُوس أو ما يشابهها)،

النّخيل في طول الأقزام بأوراقه في شكل المراوح (بدون شكّ الشامَايِيرُوبْس هُومِيلِيس)، نخل التّمور الصّيني (سيزيفُوسْ جُوجُوبا، بالعامّية: شجر جُوجوب)، الأنواع المحلّية من شجر الهِيفَائينَا ونُوكس فُوميكا، الأنواع المختلفة للأشجار المُورقة: السّترْكولِيَا بقشرتها الصفراء الفاقعة ورأسها المكوّر وكثيف الأوراق، الكابُوك بقرونها الكبيرة، خارجها بنّي قاتم وبيضاء وزغباء من الدّاخل. عندما يكون بصدد تأمّله لكلّ هذا لا يسمح لنفسه بأيّ توان أو تهاون: الثّمار الصفراء لا يتمّ قطفها بل التقاطها من الأرض، لحمها له لون وطعم ثمرة المَانغُو وحبوبها الكبيرة مسمومة ومُرّة المذاق - ألم تنبّهنا الطبيعة دوماً إلى كلّ ما هو مسموم بابتداع المذاق المرّ؟ -، يبصقها كلّ من يذوق طعمها. اللّون الأخضر الذي يعترضهم في هذه الأسابيع الأولى للرّحلة هو لون الفلاحة واستصلاح الأراضي. قِطع الأرض على جانبي النّهر مزروعة بالأرزّ، الذرّة، المَنيهُوت، البطاطا الحلوة والتّبغ. إنّه حقّاً بلد خصب - بدأ برتن يرى بوضوح بوادر نموّه وتطوّره، وأنّه أيضاً في حاجة أكيدة إلى يد ترعاه وترتّبه.

كلّما زادت معرفته ببلاد الغُربة إلاّ وزادت مقدرته على فكّ ألغازها وسهُل عليه درء أخطارها المحدقة أو إبطال مفعولها. يتعوّد شيئاً فشيئاً على دقّ الطّبول المستمرّ وبلا هوادة في البُعد، هذا الدّق على الطبول الذي يرى فيه اليِمَدَار سبباً رئيسيّاً لكلّ ضروب الأهوال، لا لشيء إلاّ لأنّه يسمح له بتكليف جنوده الثلاثة عشر بالقيام بافتعال مناورات غامضة. يتعوّد على أناة رجال تقدّمت بهم السّنون، عُمد قرًى ترنّ أسماؤهم في الآذان وكأنّها يُنطق بها غلطاً. في كيرَنْغا رَنْغا يهطل المطر لأوّل مرّة، في تُومْبا إيهِيري يشاهدون شجرة مانغُو لآخر مرّة. في سِيغِيسِيرَا يشبّ لأوّل مرّة خصام بين البلوشيين: يجب تفريقهم قبل أن تطالب خناجرهم بالجزية. في الغابات المتاخمة لدِيغَا لاَ مْهُورَا يشاهدون قردة طويلي الذّنب تقفز

بسرعة فائقة من رأس شجرة إلى آخر ممّا يجعل طلقات سبيكي النّارية المدوّية لا تصيب غير الأغصان. مع كلّ صدًى يفقد سبيكي احترام الآخرين لأنّه يصوّب بارووده نحو قردة ولأنّه، أيضاً، يُخطئ هدفه كلّ مرّة. في مَاديغي مَادُوغُو يموت أوّل حمار، وفي الأيام الموالية تَنفَق حيوانات أخرى، يختفي حمّال لأوّل مرّة، جوّ الرحلة العام في انخفاض البارُومتر. عليهم أن يعجّلوا، أن يحمّلوا المطايا قبل الأوان بالأمتعة، وسيضطرّ حتّى الذين يقودون الرّحلة إلى السّير على الأقدام.

رغم أنّ برتن عندما يسير على قدميه ليس أقلّ سرعة من الأحمرة فإنّ طريقة استيعابه لما حوله تتغيّر بمجرّد نزوله أرضاً. تستحوذ خطاه على كلّ انتباهه، مئات وآلاف من الخطى المتعاقبة. بعد مرور برودة الصّباح الباكر التي يغْلَقُ نظرُه خلالها بكلّ شيء ويبدو فيها فكره وكأنّه يستوعب كلّ جزئية، يركّز انتباهه رويداً رُويداً ـ وقد نال منه الحرّ وغابت عنه الرّغبة ـ على خطاه إلى أن ينسى كلّ شيء باستثناء ما يعترض سبيله من حصًى، أشواك وأوراق أشجار تُزيّق وتُخشخش تحت قدميه، علامات طريق بسيطة للغاية، تضفي على الخلاء وجها متغيّرا باستمرار، تغيّرات ثانويّة ينتبه إليها لمجرّد الانتباه إلى شيء ما، إلى الثّمار المتعفّنة التي سقطت من أغصانها، غير مكتملة الاستدارة وليست صفراء تماماً، ممعوسة، متعفّنة، ثمار مبقّعة بالأسمر تنبعث منها رائحة تخمّر قويّة.

في الأسابيع الأولى وأثناء وقت الفراغ، بين حصّة مراقبة وأخرى للملاحظة، يقوم بعملية تنظيف داخل أفكاره، يدفع خارج دماغه بكلّ الذّكريات التي خلّفت وراءها رؤوسا ناتئة تلوّت لتثبّت عروقها فيه. لا يدري إن كان سبيكي ـ الذي يسير في الطليعة عندما يكون بين المتخلّفين ـ له نفس الشعور. مسائل كهذه المسألة فيها من الأمور الشخصيّة المحضة

ما لا يستطيع أن يتشارك فيها معه. جروح الماضي مؤلمة وكأنّها حديثة العهد: يعود إليه الغضب كما في السابق، لمّا علِم بخيانة رؤسائه في بلاد السّند ـ يحمله الغضب الذي يعاوده من جديد إلى ما وراء سلسلة الهضاب القريبة. يجرّ وراءه حزنه العميق على موت كندالبني كما في السّابق، يحمل معه حزنه حدّ خطّ الأفق القريب الذي نبتت فيه شجرة بَاوْباب، نصب تذكاريّ راسخ وصامد أمام الأيّام. يخشى أن يُكشف عنه القناع فيبدو في دور مدنّس الحرمات كما كان الشّأن في الصحراء بين المدينة ومكّة. خطواته تتحامل على نفسها وسط عالم من الغيظ والألم والخوف لساعات وأيّام وأسابيع. كلّ ما سبق له أن أفِل من حياته وغاب عن السّطح يطفو من جديد، كلّ إهانة، كلّ خيبة أمل وكلّ تجريح. يشعر وكأنّه وسط البحر في قارب بلا مقود، عليه أن يتّكئ جانباً ليجمع ما جاد به اليمّ، ليجمع كلّ شيء ، حتّى وإن خنقته الطحالب أو تآكلت جلدته بسبب الأملاح، يمسك به برهة بين يديه، يجسّه ويقلّبه من كلّ جوانبه ليكتشف أنّ هذا الجانب منه أو ذاك قد تغيّر تماماً، ولا يتركه من يده إلاّ بعد أن يُدرك أنّه صار لا يُحسّ به، بعد أن يكون قد تبدّد فتحوّل إلى صبر وراحة بال، لا إلى نسيان.

* * *

سيدي مبارك بُمباي

ما كان أحد في أوّل الأمر ليدري بما كان ينتظره، لا أحد منّا كان ليتنبّأ بالذي سنعيشه لاحقاً، ولو كنّا علمنا بالذي سيحدث لما تكبّد واحد منّا مشاقّ تلك الطريق، طريق الندوب والحرمان. كان يحدونا الأمل البريء، في البداية، في الوقت الذي لم تتحوّل فيه جراحنا بعدُ إلى ندوب، لم يكن لنا من عدوّ غير أخٍ لنا وكانت فيه أمانينا أكبر بكثير من

تجربتنا. لا أحد منّا كان مستعداً لاستقبال كلّ الذي دهمَنا، ناهيك أنّ الحمالين أنفسهم لم يتفطّنوا لشيء، هؤلاء القوم الذين انحدروا من النّيَمْويزي وسبق لهم وأن عبروا تلك البلاد مشيا على الأقدام مرّة على الأقل. حملوا أثقال قوافل كانت وراء الرّبح ولم يدفعها أبداً الطّموح للوصول إلى بقاع لم يبلغها إنسان من قبل. رضي الحمّالون بأوامر رجال أفظاظ، نهمين وخبثاء لكنّهم لم يكونوا مختلّي المدارك. لم يكن بيننا من سبق له أن حمل أثقال قافلة كان يقودها الوازُونغُو، والوازُونغُو، يا إخوتي، هم أناس غريبو الأطوار، أستطيع أن أتعرّف عليهم بدون صعوبة ، أستطيع أن أميّز بينهم، لكني سوف لن أتمكّن أبداً من فهمهم. يعتقدون أنّ أقصى ما يستطيع أن يبلغه الإنسان في حياته، أي قدَره الأعلى، هو أن تطأ أقدامه أماكن لم يصلها أجداده من قبله. فكيف لنا، نحن الذين نخاف من الذهاب إلى أماكن لم يدخلها أحد من قبلنا، أن نفهم شيئاً كهذا؟ كيف يمكننا أن نبدي تفهّما إزاء السعادة التي تغمرهم عندما يفلحون في القيام بواجبات يفرضونها على أنفسهم بأنفسهم؟ آه، لو رأيتم علامات الفرحة على وجوههم، كانوا في سعادة الأب الذي يحتضن مولوده الجديد لأوّل مرّة، سعداء مثل المُتيّم يعيش حبّاً جديداً ويرى محبوبته تقترب..

- مثل وجه بابا إسماعيل عندما يعود بزورقه من صيد وافر.

- أو كوجوه الأطفال عندما يهطل أوّل مطر.

- ما رأيكم في هذا: كملامح بابا سيدي عندما يتمكّن من أن يقصّ على أصدقائه انتصاراته.

- أنتم تعرفون إذن هذا النوع من السعادة، حسن، لست في حاجة إلى أن أصفها لكم أكثر. شعور بالسعادة كهذا كان بيّنا على وجوههم كلّما بلغوا هدفاً لم يصل إليه مْزُونغُو آخر من قبلهم. لكنّ كلّ شيء له أيضاً

سلبياته، إذ أنتم لا تستطيعون أن تتصوّروا كيف أنّ وجوههم امتعضت كلّما تيقّنوا من أنّهم ليسوا أوّل من يبلغ مكاناً ما وأنّ هناك من سبقهم، كانت السّحب تتلبّد كلّ مرّة فوق وجوههم لأقلّ شعور لديهم بخطر أن يكون سبقهم أحد إلى مكان معيّن. ولن أنسى ما حييتُ دهشة بْوانا سبيكي وبْوانا غرانْت لمّا التقيَا على ضفّة أكبر بحيرة على الإطلاق مْزُونغُو آخر، كان يعيش على تجارته هناك منذ سنوات، تاجرا يُدعى أمابِلِي دي بُونُو لم يأت من بلادهم مباشرة ولكن من جزيرة كانت مِلِكتُهم احتلّتها في السّابق. من الصّعب عليكم أن تتصوّروا انشغال وحيرة بْوانا ستانْلي اللذين ارتسما على وجهه لأشهر عديدة بسبب شعوره بأن يكون بْوانا كَامِرُنْ قد سبقه ويتقدّمه بقافلة أخرى، أن يكون بْوانا كَامِرُنْ أوّل من يعبر كامل البلاد من مكان شروق الشّمس إلى مكان غروبها. سكَنه نوع من التوتّر جعله كلّ ليلة يسبّ شخصاً ما ويذمّه بأقبح الأوصاف، شخصاً لم يكن تعرّف عليه من قبل أبداً. حاولت أن أهدّئ من غضبه، سألته: هل إنّ بْوانا كَامِرُنْ يجني حقّاً كل ما يعترضه على طول الطريق من ثمار؟ هل تخشى ألاّ يبقى لك أنت شيء؟ أجابني بخشونة: هذه أشياء لا تفهمها. اغتظت يومها لجوابه، أمّا اليوم فأعترف عن طواعيّة: إنّي لا أفهم الوازُونغُو.

- أعرف ما تقصد بكلامك، بابا سيدي، تريد أن تقول إنّ هناك دائماً من يسبقنا في فهم الأمور. لمّا كنتُ رجلاً شابّا كان أبي يعمل لحساب رجل عربيّ قادته رحلته مع عربيّيْن آخرين وأربعين من الحمّالين في اتجاه البحيرة الكبيرة التي أنت بصدد الحديث عنها، ساروا طول الوقت في اتجاه الغرب، ولمّا بلغوا البحيرة صنعوا مركبا عبروها بواسطته، بعد ذلك زاروا بلداً كان يُسمّى مُوَاتّا كازيمْبي، نعم، بقي هذا الاسم عالقا بذاكرتي، مُوَاتّا كازيمْبي، لأنّه كان له وقع هتاف التشجيع في أذني، ثمّ، بعد ستّة أشهر أخرى، وصل هؤلاء العرب إلى الطرف الآخر من البلاد، إلى

السّاحل المقابل، وإذا بالشمس تغرب أمام أعينهم، كذلك وجدوا هناك وازُونغُو آخرين سبق لهم أن أحدثوا مركزاً تجارياً، وازونغُو آخرين، مختلفين عن أولئك الذين كانوا يُعرفون في زنجبار، أناسا من بلاد البرتغال، أمّا المكان الذي كان أحدثه هؤلاء الناس فكان اسمه بِنْغيلاَ.

ـ عظيم، هذا يعني أنّهم عبروا كامل البلاد. لو يصل هذا الخبر إلى مسمع بْوانا ستانْلي أو بْوانا كَامِرُنْ فسيسمّم كلّ ما لديهما من اعتزاز بما توصّلا إليه وسيكفّان عن التبجّح بكونهما أوّل من عبر البلاد من شرقها إلى غربها. عليهما أن يتعوّدا على حقيقة أنّهما في الواقع لم يتّبعا إلاّ طريق من سبقهما، عليهما أن يرضيا بفكرة أنّهما وصلا متخلّفين. كلّ قرية، كلّ نهر، كلّ بحيرة وكلّ غابة كانت كلّها بالنّسبة إليهما بمثابة العذارى بينما كانت تسكنُهما رغبات العمالقة الذين لا يتمّ إشباع نهمهم إلاّ بعد استحواذهم عليها جميعاً. وحتّى يتمّ لهما إشباع كل هذه الشّهوات تحمّلا كلّ شيء، البرد والحمّى ولسع القُراد والبعوض والذباب، لسعات سبّبت لهما تورّمات برزت فجأة وخلّفت أُكالاً كاد يذهب بعقولنا جميعاً. هذا، بقطع النّظر عن أنّ كلّ ما عانى منه الوازُونغُو كان يؤلمنا نحن أيضاً. كان ذلك اليقين المروّع الذي سكنني منذ البداية، يا إخوتي، منذ أن انطلقت رحلتنا بقليل. كنّا في الحقيقة سجناء قافلة رزحت تحت خُبال اثنين من الوازُونغُو، تحت جنونٍ يقضي بالسّير عبر الجحيم للوصول إلى هدف ما كان أحد منّا يدري أين يوجد، كيف كان أو فيما يتمثّل. كذلك لم يكن لنا أمل في الخلاص، كلّ ما كنّا ننتظره هي أجرة، أجرة ضئيلة، تمّ دفع نصفها لنا مسبّقا وتركه من كانت لهم عائلة في زنجبار لدى أبنائهم ونسائهم. مع كلّ وخز صادر عن الكريات المشوّكة لشجرة الطّلح بدا لي الطريق الذي رضيتُ بسلوكه أكثر وضوحا. كان بالنسبة إليّ طريقاً لا رجعة فيه. الحمّالون كان باستطاعتهم الهروب لمعرفتهم بطريق العودة إلى

ديارهم، لأنّنا كنا نسير في اتّجاه منازلهم، لأن لا أحد في قريتهم كان ربّما سيحاسبهم، أمّا أنا، حتّى وإن تمكّنتُ من شقّ الغابات وصعود الجبال لبلوغ السّاحل، حتّى ولو قُدّر لي أن أنجوَ من الهلاك خلال رحلة تغلُب عليها الوحشة، حتّى وإن لم يمزّقني حيوان مفترس ولم أقع في مخالب تجّار العبيد، فقد كان من غير الممكن بالنسبة إليّ أن أعود إلى هنا فيرى النّاس وجهي بعد أن كان السلطان اختارني لمرافقة أولئك الوازُونغُو ومساعدتهم، إلى أن يعُودوا من رحلتهم أو حتّى النهاية. كان عليّ أن أواصل طريقي وأن أتحمّل الوخز، إذ لم يبق لي غير مخرج واحد، وهو الطريق التي تمرّ عبر الجحيم.

ـ ألستَ الآن بصدد التّباهي بنفسك؟ ألا تُغالي فيما تقول؟

ـ ماذا سمعتِ يا امرأة؟

ـ حسنٌ، لو أنّك في يوم ما من حياتك أعرت شيئاً آخر اهتماماً أكبر من اهتمامك بحكاياتك لتبيّن لك كيف أنّك وأصدقاءك تسدّون الزّقاق الذي يغصّ بكم.

ـ دفّتا الشبّاك تطقطقان تحت وقع خطبتك المسهبة. ما الّذي تريدين قوله؟

ـ أرى كثيراً من المستمعين ملتصقين بترّهاتك ولا أحد يستطيع المرور عبر الزّقاق. ألا ترى العربة المُحمّلة أمامك؟ لو نهضتَ من مكانك لرأيتها، الرّجل المسكين ينتظر منذ مدّة نهايةَ كلامك الفارغ.

* * *

كلّما يقتربون من قرية يكون التغييرُ وتكون التسلية. يتمّ إطلاق النّار في الهواء من بنادق الفتيلة ممّا يجعل أكثر الحمّالين تعبا يتماسكون ليسيروا من جديد وبكلّ فخر في صفوف ونسق القافلة التي تُسلّطُ عليها أنظار

النّساء والأطفال ـ وبدون شكّ أيضاً أنظار الرّجال الّذين يبقون في الخلف. أثناء مناسبات الدّخول هذه إلى القرى ينتاب برتن شعور بأنّ الجميع يشاركون في تقديم عرض مسرحيّ، بحركات درامية يتخلّون عنها بمجرّد أن يُولّوا القرية ظهورهم. عندئذ تسقط الأكتاف ويعودون إلى جرّ أرجلهم متثاقلين فيتعكّر مزاج الرّحلة العام وينزل إلى الحضيض.

يكون التعويض عن كلّ هذا في المساء، عند الالتقاء حول نار المخيّم. أحياناً لا يفهم حتى كلماته عندما يتحدّث مع سبيكي بسبب صخب الألحان والقهقهات. تُدقّ الطبول، ترنّ الأجراس ويُشخشخ ما قدُم من حديد. يُخرج أحد البلوشيين، ويدعى عُبيد، سرنْجي ويجمع كلّ أوغاد المخيّم حوله ويشرع في عزف موسيقى كلّها نشاز وكأنّه ينظّف سمكة عظيمة من قشورها. أمّا هُلّوكْ، مهرّج القافلة، فيقوم بدور مومس ويرقص بدعارة فائقة. بعد تقديم عرض سخيّ تتالت خلاله الالتواءات والتّكشيرات يبدو وأنّه مصمّم على أن يجرّب ما هو أصعب، أن يضفي على قوامه مزيداً من الحركات التعبيرية. يتنصب على رأسه ويشرع في تحريك خاصرتيه، في جعلهما ترتعشان بينما يتكوّر عقباه النّحيفان ويبدوان وكأنّهما رغيفان أضيفت إليهما كمّية كبيرة من الخميرة. يبقى منتصبا على رأسه ويشبك بعد ذلك رجليه محاكيا جلسة القرفصاء ثمّ يقلّد، وهو في هذا الوضع، نداء كلب جائع، مواء قطّة حزينة، قهقهة قرد طويل اللّسان، رغاء جمل عنيد ونداءات جارية وهي تغري كلّ رجال المخيّم ليلاً بوعودها. أخيراً يتدحرج هُلّوكْ بحركات مفاجئة، مذهلة ومتواصلة على الأرضيّة إلى أن يعود ليجلس، وهو منثنٍ كما ينثني الحَياءُ، أمام برتن ويقلّد أيضاً هذا الأخير بصوت تنبعث منه صرامة من أصدرَ الأوامر بحزم، ولا يكفّ إلاّ بعد أن يحصل على دولار جزاءً على أتعابه الوقحة، يُعطيه برتن إيّاه لأنّ رجال المخيّم وأدوا، بفضل كلّ هذه العروض، يوماً من

السّير في ضحكهم الجماعي. لكن لمّا يطلب المهرّج قطعة نقديّة أخرى لا يحصل إلاّ على ركلة ـ ينصرف وهو يصأى بلا انقطاع فيعبّر صوته عن شتّى الخيبات التي يخلّفها العشق وتتبعه الضّحكات كما تفعل الكلاب المشرّدة.

* * *

سيدي مبارك بُمباي

الأيّام التي أتتنا بالجراح وتسبّبت في نُدوبنا الحالية كانت أيّاما مضنية وكلّها غدر، أيّاما جرّتنا إلى ليالي أكثر عذابا. كان الهواء ساكناً وكان البعوض يرفّ في كل مكان، كذلك تحسّسَنا البردُ بأيد غليظة، كان لصّا يفتّش ضحيّته باستمرار. كان الأمر وكأنّ الليل أراد أن ينتزع منّا كلّ ما فينا. ذات مرّة أخرجتنا جيوش من النّمل الأسود من خيامنا، كان يلسعنا بين أصابع الأرجل وفي كلّ موضع ناعم من جسمنا. البغال التي كانت جلدتها أرقّ من جلدة بابا علي أخذت تنهق ثمّ تنهق إلى أن تملّكها الخبال، إلى أن ظنّ كلّ واحد منّا أنّ اللّسعة القادمة سوف تأتي معها بالجنون لا محالة. فحتّى البِيمَدار الذي عادة ما كان يقضّي وقته في التبختر وكأنّه الأخ الأصغر للوازُونغُو فقد مشى متسلّلا داخل المخيّم وكأنه أحد الأجداد القدامى ضلّ طريقه وأضحى في طيّ النسيان. لم يكن الوحيد الذي تملّكه الاضطراب، بل إنّ الجميع كانوا في مثل حاله، البلوشيون والحمّالون. كثُر التهامس حول النّار وكان إسداء النصائح، أمّا النتيجة فكانت كالتالي: الهروب. سكتُّ وأدرتُ أذنيّ في اتجاه آخر لأنّي كنت لا أريد المشاركة أو الكذب على بُوانا برتن. وفي آخر الأمر، لمّا غلبنا النّعاس، نعاس له طعم التّشاي عندما يكون بارداً وبدون سكّر، عرفنا ماذا كان ينتظرنا: سيحلّ علينا الصّباح الجديد بقنوط جديد ووحشة جديدة.

- كوحشة الأرملة.

- كوحشة الأرملة التي لم يمرّ على موت زوجها الثّاني وقت طويل والتي قرّرت ألاّ تتزوّج بعده أبداً.

- بابا إلياس، ما هذا الوحي الذي جاءك فجأة؟ أتيتنا الآن بصورة لا أجد صعوبة في تصوّر أنّ لها تجسيما في الواقع حقّاً.

- الصّورة ليست صورتي وإنّما هي لصديق من بلاد الصّومال.

- إذن عليك في المستقبل أن تستحضر حِكم أصدقائك عوض أن تعتمد على حِكمك الشخصية.

- لماذا كان الأمر كما ذكرتَ، بابا سيدي، هل تعذّبتم وتألّمتم كامل الوقت؟ هل تظنّ أنّني لا أعرفك؟ لا أتصوّر أبداً أنّك لم تتمتّع أيضاً بأوقاتك أثناء الرحلة.

- طبعاً، أنت على حقّ. أتعاب الليل والنّهار ما كنّا لنتغلّب عليها لولا المتعة التي كنّا نعيشها مساءً. لا أقصد بكلامي هذا الأكل، لا أبداً، كان الأكل في البداية متوفّرا، متوفرا، لا أكثر، ومن وجب عليه السير كثيراً وحمل الأثقال مثلنا، كان يأكل بما فيه الكفاية ولا يأنف ممّا يجد في صحنه من الصفيح، لا، أنا الآن بصدد التفكير في الوقت الذي كان يلي الأكل، عندما كنّا نستعيد كلّ السعادة التي أعوزتنا كلّما ظلّت الشمس مشرقة. كنّا نرقص ونغنّي وكلّما لاحظنا قلّة الاهتمام لدى بْوانا برتن وبْوانا سبيكي بما كنّا نقدّمه من غناء ورقص، انتقلنا إلى التهكّم عليهما. أحد الراقصين كانت له رجلان مقوّستان حرّكهما أثناء الرّقص في جميع الاتجاهات، كنّا نضحك للّخمة التي سيطرت على حركاته ولغنائه الرديء الذي كان من قبيل:

أنا فرَج، أنا فرَج،

وأخي سبيك، أخي سبيك،
مضى في سبيله، مضى في سبيله،
لنتبرع له ببقرة مكتنزة،
لعلّه تعود إليه طمأنينته.

ولمّا وصل اللّحن إلى نهايته قلنا كلّنا بكلّ صدق وبصوت جهوريّ: آميييييين! وكأننا سمعنا دعاءً دحَر كلّ الجِنّة. بعد أن سمع بْوانا سبيكي أغنيتنا و، طبعاً، لم يفهم منها شيئاً، ظنّ أنّنا غنّينا لحنا على شرفه مدحنا فيه خصاله، إذ أنّه نهض من مكانه أمام خيمته وجاءنا إلى المكان الذي أُشعلت فيه النّار وغنّى لنا إحدى أغانيه، أغنية تصلُح لأن تُحمل على كتفيْ محزون، أغنية تصلح لأن تُغنّى أثناء جنازة. لكنّه غنّى ملء حنجرته وبكل جوارحه، ولمّا فرغ من غنائه عبّرنا له عن إعجابنا بصوت عال، ممّا جعله يقوم أمامنا ببعض الخطوات الرّاقصة سرعان ما توقّف عنها، لربّما لأنّه سمع ضحكنا. حقاً، يا إخوتي، لقد زادنا كل ذلك جلَداً وقوّة، لمّا اهتدينا إلى معرفة أن الوازُونغُو يمكن أن يكونوا على قدر كبير من التفاهة.

* * *

يدخلون الأدغال الاستوائية. سوف لن يبقى شيء كما كان من قبل. اختفى الأفق، ابتلعته الأرض والسماء. السبيل مشبّك بالنّباتات المعرّشة، كلّ نبتة متسلّقة في سُمك الحبل. كوّنت أعالي الأشجار العريضة سقوفاً مضفورة وخضراء قاتمة تحملها أعمدة رمادية اللون وكأنّها في أيْكة مقدّسة لا يصلها من الأصوات غير عمقها الدّفين وظلّها. الأرض السوداء والزَلِقَة المندسّة تحت الأدغال تبتلع كلّ خطوة من خطاهم. في الأماكن التي يكون فيها مستنقع ليس لهم من اعتماد على غير جذور الأشجار. نبات الحشيش في حدّة الموسى حديثة السَّنّ، الأشجار داهمتها النباتات،

طفيليات تتقدّم على شاكلة الزواحف وتتفرّع في أعالي الأشجار لتكوّن أعشاشاً مزيّفة. يختنق المسلك تحت وطأة النباتات الزاحفة أرضاً وأخرى متسلّقة. يغمغم الحمّالون: كل ما يقتُل الطريق يقضي أيضاً على المتجوّل. كانت الرائحة نتنة إلى درجة أنّك تخال أنّ وراء كلّ شجرة توجد جثّة لأحد أولئك الأشقياء الذين لم يسعفهم الحظّ. تسقط الحُزَم من على الأحمرة ويلعن البلوشيون سوء الطّالع ويتركون مهمّة تحميل الدّواب من جديد للآخرين. إذا قُدّر لهم أن يروا من السّماء ما هو أكثر من خرقة اقتُطعت من كفَن غيّرت لونَه القذارة، فإنّها تكون كثيفة السّحب، رمادية اللون وعلى ارتفاع قليل مثل الدّخان عندما يعسر عليه أن ينقشع. يغطّي الهواء جلدتهم بغطاء من الوسَخ، بضرب من الغشاء الواقي الذي لا يمكن التخلّص منه عن طريق الغسل، حتّى وإن وجدوا الماء الكافي أو دعكوه باستمرار.

كانا يعلمان منذ البداية أنّ المسألة مسألة وقت فحسب، إلى أن يحين الموعد الذي قد تعشّش فيه الأمراض. لكنهما لم يتنبّآ قطّ بأنّ الملاريا قد تهزِمهما معاً في وقت واحد. تتوقّف القافلة بعد نهاية الأشجار مباشرة، أين تبدأ مساحة جرداء وتمتدّ حتّى السّباسب. برتن مُلقى على الأرض ولا يقدر على الحراك، يشعر أنّ بداخله شخصاً آخر يكنّ له العداء ويريد أن يحبط كلّ مخطّطاته. وهكذا يصيح في لحظة ما: قبل أن أواصل أريد أن أعلم ما الذي ينتظرني. لن تُفلحوا في إرغامي على خوض هذه المعركة التي لا نهاية لها بلا مقابل. تجيبه، دون أن تمدّه بجواب مُقنع، تلك الرّؤوس التي تنتأُ من صدور وتشتهيه بألسنة يكسوها الشَّعر، نسوة تجعّدت جلدتهنّ ينهلْن عليه ضربا بالسّوط فيصيح بهنّ إنّهنّ يخلطن بينه والغير، لكنّهن يبتسمن بشماتة ويردّدن بصوت أجشّ أغنية لا يفهمها في البداية ثمّ يُدرك منها أجزاءً متناثرة. تسقط الكلمات سقوط الفراشات يُعوزها

الجناحان فيحاول القبض عليها بشرَك ينمو انطلاقاً من يديه، وإذا حصل له أن جمَع كلّ الكلمات العابرة فإنّه يُمعن النّظر طويلاً في الشّرك إلى أن يُفلح في جعلها تكوّن معنًى: أجمل بهجة وأكبر سعادة هي تلك التي نعيشها لدى طقطقة العظام التي نكسرُها من الصّباح الباكر إلى آخر النهار. يرفع بصره فتهزّ السّاحرات رؤوسهنّ في افتنان، لقد فهمتَنا، ناولنا الآن إذن أطرافك. سنحدث بها ثُقوبا، سنبصق داخلها، ما أجملك والشَّعرُ يكسوك، سنقتلع منك كلّ شُعيرة. أعطنا أطرافك ونحن نعدك بألم لا نقصان فيه.

يستيقظ. يشعر أنّ كلّ ما شربه تحوّل لديه إلى عرق. صار لسانه بمثابة اليُسروع عندما يعتزل العالم ويلتفّ بغشاء من المرارة. رجلاه لا تمتثلان لأوامره إلاّ عن مضض. يمدُّهما من جديد. ينادي على بُمباي فيأتيه بماء. يسأل عن سبيكي. يُقال له إنّه نهض بعدُ من فراشه.

يتحامل برتن على نفسه، يبلغ مدخل الخيمة ويلقي نظرة إلى الخارج. السّماء مغيّمة. يشعر وكأنّه أُعفي من تسديد دين كبير. سبيكي غير بعيد عنه. رؤيته من شأنها أن تجعله يشعر بشيء من الراحة. يُحيّيه. الكلمات تخرج منه بصعوبة. وجه سبيكي منقبض إلى درجة أنّ المرء يخال جلدته قد شُدّت إلى طبل لتجفّ. يصل مدخل الخيمة، ينحني صوب برتن ويقول: رددنا الهجوم الأول على أعقابه. يمدّ يده ويلمس خدّ برتن بلطف. تغلب على حركته هذه اللّخمةُ لكنّها تقدّم دليلاً واضحاً على تضامنه. يسري الأمل في قلب برتن. يقول: سأستريح قليلاً. نستطيع أن نواصل فيما بعد. إلى اللّقاء. ثمّ يعود ليدبّ إلى داخل الخيمة.

سبيكي، يا لُغزي المحيّر يا سبيكي، هذا ما يفكّر فيه أثناء الهدوء الهشّ الذي يلي نوبة الحمّى. ليس من حقّه أن يحكم عليه جوْرا لأنّ الحكم عليه صعب جدّاً. تبيّن لحدّ الآن أنّه جدير بالثقة. إنّه يقوم بواجباته بثبات وإخلاص ولا يشتكي من مصاعب السّفر ـ إذا كان هناك حقّاً نوعان

من البشر أحدهما سْبارْتي والآخر أثيني فمن الواضح أن يكون سبيكي من فصيلة السّبارْتيين. فهو غاربُ البال، هادئ ومتّزن. رغم أنّه نادراً ما يكون منشرح الصّدر فإنّه أيضاً لا يعرف الضّجر أو تعكّر المزاج أبداً. طبعاً، هناك أشياء فيه تغيظُه. أقلقه منذ البداية أن يرى سبيكي يتعامل مع العالم حوله بعدم اكتراث لا حدود له. كلّ المناطق التي مرّوا بها إلى حدّ تلك الساعة وجد أنّها لا طابع لها، السّكان بدوا له مملّين ـ الشيء الوحيد الذي يستقطب ولعه هي الوحوش الضّارية التي يستطيع قتلها، وكأنّه لا يقبل بالحياة إلاّ بعد إحكام السّيطرة عليها.

لقد سبق أن تمّ تحذير برتن: بعد أن تعارفا بقليل، لمّا عاد سبيكي من رحلة قصيرة داخل البلاد إلى السّاحل الصّومالي، كان رجاله يرزحون تحت الأثقال وكأنّهم كُلّفوا بتحميل سفينة نُوح أخرى، لكن هذه المرّة بنتيجة عكسية تماماً. جيء من كل فصيلة من الحيوانات بنسخة واحدة في غاية الرّوعة لم تكن ميّتة فحسب بل أيضاً مفتوحة وبدون أمعاء. قال سبيكي موضّحا لمّا صعد إلى السّفينة: أنا صيّاد وجمّاع، لذلك تعجبني الحياة في هذه الرّبوع أيّما إعجاب.

للأسف لم يدم هذا الإعجاب طويلاً. لم يكن مؤشّر خير أن تداهمه السّآمة بعد أسابيع قليلة فقط. كيف ستكون عليه الحال إذن بعد بضعة شهور؟ ابتسم سبيكي في وجهه، نعم، ابتسم له حقّاً، شيء جميل، لقد برهن عن حسن نيّته، كلّ شيء هو في الحقيقة على ما يرام، لماذا إذن كلّ هذا الشّك الذي ينخر باطنه، لماذا لا يتوقّع غير الخيبات، خيبات سوف تفضح فِراسته في النّاس، تُبيّن مرّة أخرى أنّها غير كافية.

الحمّى ثارت ثائرتها. يتناول بضع جرعات في انتظار حلول النّوبة.

* * *

سيدي مبارك بُمباي

كانت هناك أيّام استيقظنا فيها باكراً قبل شروق الشمس وأوّل شيء شعرنا به كان الألم الذي سوف يسبّبه لنا اليوم. إنّ النهوض من النوم في الصباح الباكر يتطلّب منك شجاعة، لأنّ كلّ ما ترعرع لديك من آمال يسخر منك ساعة البرد، تُحسّ بثِقل الحمولات التي تُرفع على أكتاف المعذّبين مثلك، تنافس غيرك وسط الصّخب من أجل الحصول على اللفّة الأقلّ وزنا، تشعر بأنّ رجليك أصابهما الكساح، تريد أن تلمّ أطرافك وتكبّب جسدك كما يفعل من لا حول له ولا قوّة عندما يعيا من تحمّل لكمات الأيّام، وتشتاق إلى هوّة دفينة تبتلع كلّ شيء. أثناء أكثر من صباح كهذا كانت رؤيتُنا واضحة: تركنا البداية بعيدة وراءنا وكنّا في الآن نفسه أكثر بعدا من النهاية، رأينا حالة الذّبول والفناء التي كنّا عليها وأدركنا كم كنّا في حاجة إلى يد المساعدة. حجبت الأرض عنّا ابتسامتها وحلّ الوقت المناسب للبحث عن مْغانْغا.

- سترك يا ربّ!

- لا، سيدي، لا تقصّ علينا من جديد الحكاية المعهودة، تلك الفضيحة!

- عجبا، لماذا كلّ هذا الانفعال، بابا قدّوس؟ أظنّ أنّ إخوتنا هنا مستعدّون لاستساغة قليل من العار، خصوصاً عندما يكون على حساب الآخرين. ثمّ إنّ الاقتراح لم يأت مني شخصيّاً لأنّي كنت وقتها لا أعرف شيئاً عن المْغانْغَا. سعيد بن سالم هو الذي طلب إحضاره، وأيضاً كل النّيَمْويزِي أرادوه. تريدون المجيء بمشعوذ؟ ألا تستطيعون الانتظار ريثما نكون قطعنا هذه المرحلة؟ لم يكن ردّ فعل الوازُونغُو مُغايراً لِما قد يكون فكّر فيه بعضكم، تصرّفوا كما كنت أتصوّر أن يفعلوا. أخصّ بالذّكر بْوانا

سبيكي الذي لم يكن يعلم أو يفهم الشيء الكثير لكنه كان يعتقد أنّه ما من شيء لا ينكشف له سرّه. كذلك تعرّض بْوانا برتن إلى الموضوع في البداية بازدراء، قال إنّه ليس سوى مضيعة حقيقية للوقت، غير أنّه أمعن لاحقاً في الأمر مليّاً - كان رجُلا يراجع نفسه من حين لآخر كما يتفقّد القرويّون منازلهم بعد موسم الأمطار، وكان أحياناً يغيّر نظرته فعلا وأحياناً أخرى يعيد حتّى بناء منزل من جديد. سأل بصوت خافت: ما الضّرر في هذا؟ فأجبت بأنّي لا أرى أيّ ضرر. واصل بصوت بدا أكثر وضوحاً: بالعكس، قد يعود علينا هذا بالنّفع. تحدّث إذن إلى جميع الرّجال مبارِكا الاقتراح بعبارات متحمّسة، ولمّا عثرنا على مْغانْغَا انتحى بي جانباً وطلب منّي أن أعد الرّجل بهديّة ثمّ أضاف: إلاّ إذا جاء بنبإ سعيد، بينما أمسك بيده إحدى تلك القبّعات المضفورة من الهند، قبّعة بيضاء جميلة واصل مداعبتها بإبهامه وكأنّه يتلذّذ ملامسة قماشها. كان المْغانْغَا الذي وضعنا فيه ثقتنا رجلاً كريم المولد، وقاره أطول منه هو قامة بقدر رأس، وربط حول جبهته قماشاً مزركشاً بالألوان بينما تدلّت حول رقبته قلائد عديدة كانت كلّ واحدة منها مرصّعة بلآلئ مختلفة وعديد الأصداف. كان رجُلا تمنّيتُ أن يكون مساندا لنا لأنّي شعرت أنّ قوّةً كانت محبوسة داخله وأنّها بوسعها الظّهور في أيّ وقت. لمّا خيّم علينا الصّمت جميعاً تناول شمّةً قويّة من النّشوق، أخرج يقْطينا به دواء وشرع يرجّه بينما كانت تُسمع بداخله شخشخة وكأنّه مملوء بالحصى. كان صوته يدوّي آتيا من أسفل الأعماق وكأنه ضرب بجذوره في الأرض. كان صوتا لم أسمع مثله من قبل. كان الصّوتُ صوته لكنه لم يكن مِلكا له دون سواه. صَفا بعد ذلك تماماً وشيئاً فشيئاً، صار في خفّة الهواء. ثِقوا فيما أقول، يا إخوتي، إنّي لم أعش في حياتي من قبل شيئاً كالذي عشتُ يومها. أدهشني الرّجُل وبدا لي عاديا في نفس الوقت، كرجل تلتقيه لأوّل مرّة رغم أنّ وجهه مألوف لديك. كنتُ

مأخوذا. ولمّا علا صوته وصار أخفّ وأسرع من الطّيور تحلّق في الجوّ، وضع المْغانْغَا اليقطين على الأرض فتدحرج جانباً شيئاً ما، ارتعش القرع، أمّا أنا ـ لا أدري لأيّ سبب لأنّي كنت في تلك اللّحظة غريباً عن نفسي ـ فأردتُ أن أسكّنه، أن ألمسه، مددت يدي إلى القرع لكنّه كان بعيداً جدّاً عنّي ولم أتمكّن من تحريك شيء آخر غير يدي. أخرج المْغانْغَا قرني ماعز من جرابه، من جراب من القنّب لم أكن أتوقّع رؤيته في ذلك المكان ولا بدّ أن أحدّثكم بشأنه لاحقاً. كان هذان القرنان مربوطين بجلد ثعبان ومزيّنين بنواقيس حديديّة صغيرة. أمسك القرنين من طرفيهما ولوّح بهما في الهواء باستمرار في شكل دائريّ، أدارهما في اتّجاه بْوانا برتن، صوّبهما نحوي، في اتّجاه الحمّالين والبلوشيين بحيث لم أر شيئاً آخر غير هذين القرنين اللذين كانا يرقصان أمام عينيّ، كذلك لم أسمع شيئاً آخر غير غمغمة وهمْس وبُصاق المْغانْغَا الذي كان يمُوج بنصفه الأعلى يمنة ويسرة ويحرّك القرنين في نسق سريع فأسرعَ، بينما رنّت الأجراس بصوت عال فأعلَى. تملّكتني الرّعشة. علمت بعد ذلك أنّ الآخرين أيضاً تملّكتهم الرّعشة، هم أيضاً صاروا كالمشلولين. لو مدّ المْغانْغَا يده في اتّجاهي لكنت اتبعته. أحسستُ أنّه كان يعيش حالة وئام وتناغم مع الأرواح، كان متّحداً مع أرواح الأجداد الأوائل بينما شعرت أنا بألم داخلي، وكأنّي بأجداد لي منسيّين شرعوا في اقتلاع قلبي منّي. خمّنتُ: المْغانْغَا على اتّحاد تامّ مع روح أبيه ثمّ مع روح جدّه، أمّا أنا فلا أتذكّر لا منظر أبي ولا منظر جدّي ولا أستطيع أن أتذكّر صوتيهما. ترجّيته في صمت: افتح قلبي، أرني طريق العودة إلى الجذور. لكنّ المْغانْغَا فرغ بعدُ من كلّ شيء، فتح عينيه اللّتين لم أر قطّ أجربَ منهما، عينين لا يأنس إلى الأسرار المتوهّجة وراءهما إلاّ المغفّل. استدار جانباً ونطق بحُكمه الذي كان له وقْع كلام وليّ صالح. قال إنّ لنا أعداءً لكنّ أعداءنا ليس لهم مثل

قوّتنا وليست لهم رباطة جأشنا، كما أنّ رحلتنا سوف تُكلّل بالنّجاح. استرجعنا أنفاسنا على مهل وكأنّنا لم نتأكّد من أنّ لنا الحق في ذلك. سينشأ كثير من الخصام وسوف لن تكون هناك غير جرائم قتل قليلة. سنحصل على كمّية كبيرة من العاج. سنعود إلى زوجاتنا وعائلاتنا. من بين الذين لا زوجة لهم سيحصل واحد على زوجته خلال الرّحلة وآخر سوف يُجازي تلك التي انتظرته طويلاً على وفائها، أمّا الثّالث فسيهجر المرأة التي قد تُقدّم إليه هديّة. وقبل أن نجرؤ على بدء رحلة عبر بحيرة كبيرة ولجّية يتعيّن علينا تقديم قربان يتمثّل في ذبح ديك متعدّد الألوان. كانت تلك مهمّة سهلة، كانت الرّؤى المستقبلية تبعث على الاطمئنان، غمرتنا السعادة وشعرنا بالارتياح.

ـ والجراب؟ ماذا كان من أمر الجراب؟

ـ كان جراباً مصنوعاً من القنّب كالذي يستعمل لحفظ الأرزّ والتوابل، جرابا من زنجبار كتب عليه اسمٌ، اسم أكبر تجّار هذه المدينة، أنتم كلّكم تعرفونه، كان اسم البَانِيان الذي ابتاعني وأنا صبيّ في سوق الرقيق مقابل بضع قطع نقديّة.

ـ وقعتَ في ذلك اليوم ضحيّة للجِنّة التي غلبتْكَ، بابا سيدي. صلواتك التي جاءت بعد ذلك هي التي حرّرت عقلك من جديد.

ـ لم أُصلّ بعد ذلك أبداً، لم أُصلّ كما ترى أنت الصّلاة.

ـ كما فُرضت علينا!

ـ ليس الأمر بالنسبة إليّ على هذه الشاكلة، علمتُ هذا لمّا حرّك المْغَانْغَا القرنيْن في اتّجاهي. أن أخضعَ لحكم الله، نعم، أمّا الصلوات الخمس فلم تُفرض عليّ أنا. قد تكون فُرضت عليك أنت، بابا قدّوس، أو ربّما على من هو من أصل عربيّ، أمّا عليّ أنا، فَلاَ. لديّ أجداد،

وهؤلاء الأجداد لا يُسمّوْن محمّدا أو أبا بكر أو حتّى بِلالاً، أجدادي هم أناس آخرون لكنّي لا أعرف أسماءهم. الدّين الحقّ ليس بوسعه أن يذكر لي أسماء أجدادي، لا حول له ولا قوّة. الدّين الحقّ يعدني بغدٍ أفضل لكنّني أريد أن أعثر على الطّريق المؤدّية إلى الأمس. الدّين الحقّ يقول لا توجد إلاّ وجهة واحدة، هي اتّجاه القِبلة لأنّه لا يوجد غير مركز ومحور اهتمام واحد وهو العليّ القدير، لكنّي أبصرتُ في عينيْ المْغانْغَا اتّجاها آخر، لا بل اتّجاهات أخرى كثيرة، أنت على حقّ، ربّما كان عقلي في دوخة، أمّا قلبي فقد عرف الخلاص.

ـ حين يبكي القلب لفقدان شيء يضحك العقل لأنّه عثر عليه. مثلٌ عربي قديم.

ـ لهذا السّبب، يا أخي، لهذا السّبب إذن أنت لا تقرب المسجد للصّلاة حتّى يوم الجمعة. ما وضّحتَ لنا هذا من قبل بهذه الطّريقة.

ـ هذا المساء لا بدّ أن أقول لكم أشياء سكتُّ عنها لحدّ الآن، سأقولها لكم لأنّها مهمّة، رغم أنّها محزنة ويجب أخذها مأخذ الجدّ.

ـ لا تؤاخذني، بابا سيدي، سأواصل الصّلاة من أجلك. ليكن الله الحكم فيما لا نستطيع الحسم فيه.

ـ صلّوا في سرّكم ما شئتم واتركوا لنا الفضاءات بين الصّلوات، إنّها تزخر فُضولا وأنا أريد أن أعرف بقية الحكاية. هل وقَعت قوّة المْغانْغَا في نفسيْ الوازُونغُو؟ هل أثّرت فيهما؟

ـ ابتسم بْوانا برتن ابتسامة رضى، رضاه على ما شاهد وأيضاً رضاه على نفسه. ربّتَ على كتفي ـ عادة مقيتة لدى الوازُونغُو ـ وقال: هديّة في الوقت المناسب قد تقطع بالمسافر مسافات طويلة. حاولتُ أن أشرح له ما ليس في حاجة إلى شرح. أنّ رجُلا صالحا مثل المْغانْغَا لا يمكن استمالته

بإهدائه قبّعة، حتّى وإن تمّ صنعها في سُورات نفسها. قلتُ بتأنّ وكأنّي أخاطب طفلا: الكلّ رأى أنّ المْغانْغَا كان مسكونا من طرف الأرواح. ردّ بْوانا برتن بابتسامة دسمة اكتنزت شماتة تمنّيتُ لو ذبحتُها: هكذا يكون الأمر أفضل! في هذه الحالة تكون هديّتنا رشَت الأرواح! قلتُ: الأرواح لا يمكن أن تُرشى، لكنّه ردّ: إذا أمكن التحدّث إليها فهذا يعني أيضاً أنّ رشْوها ممكن. كان بْوانا برتن مخطئاً في رأيه، أجل، كنت واثقا من أنّه كان على خطإٍ لكنّي لم أتمكّن من أن أقيم له الدّليل عليه. لم أقدّم القبّعة إلى المْغانْغَا بالمرّة لأنّي استحيت وفضّلت عدم إهانته. زد على ذلك فقد لاءمت رأسي تماماً.

ـ هذا الرّجل لا يخشى الأرواح إذن؟

ـ لا. لكنه كان يعرف استخدامها عند الحاجة. شرع بعد تلك الأمسية في تهديد كلّ من عارضه أو خالفه الرّأي بالدّواء. الدّواء له اسم غريب في لغته، هم يسمّونه سحر الشياطين. أعتقد أنّه، فيما مضى، أراد أن يصبح معلّما في سحر الشياطين هذا. قلتُ له: سخرتَ من المْغانْغَا رغم أنّك تؤمن حقّاً بقدرة الدّواء؟ فأجابني بلغة قال إنّها في بلاده لغة السّحر الأسود: Ignoramus et ignorabimus. قال كلماته التي كان لها وقع حسن في أذنيّ فرأيتُني في الأيام الموالية أقضّي الوقت بتعديل خطواتي على نسق هذه التعويذة: Igno-ramus-et'igno-rabismus.

ـ وماذا تعني هذه التعويذة؟

ـ لا أدري، نسيت ما تعنيه.

* * *

هُونغُو. دائماً. في كلّ مكان. ما أن يصلوا إلى مكان حتّى يُطلب منهم الهُونغُو. وكأنه جزء لا يتجزّأ من مراسم التحيّة. يا له من استقبال!

ادفعوا الهُونغُو وإلاّ لا نترككم تمرّون. في كلّ مكان يتوقّفون فيه. رؤساء قبائل بدائيون يستبيحون حقوق وامتيازات الأمراء لأنفسهم. هُونغو! هذا اللّقيط من بين جميع ما عُرف من ضرائب جمركيّة على وجه البسيطة. عليكم أن تدفعوا. من أجل لا شيء ثمّ لا شيء. لهؤلاء الطّغاة الأقزام في الأدغال. لعددٍ لا يحصى من الطمّاعين النّهمين. كلّ قرية لها ممثّلها ويسمّى فَازِي. أو شيئاً من هذا القبيل. الألقاب تتغيّر كلّما يتوغّلون أكثر في داخل البلاد. أمّا المطامع الأشعبيّة فتبقى على حالها. وبينما يقدّم إليهم هو الهديّة التي جاء بها الضّيوف يحملقون هم في أمتعته لمعرفة إن كان يحمل معه أكثر ممّا جاد به. لرؤساء القرى مستشارون. مْوِيني غُوهَا هو كبير أمناء الخزانة - يا لها من تسمية مخالفة للمنطق، القائم على الأكواخ يكون في هذه الحالة اللقب الأنسب، أو حارس بيوت الطّين -، هو السّاعد الأيمن لرئيس القبيلة وأشرهُ أكول لديه، يُصدر أوامره إلى ثلاث درجات مختلفة من النّواب، ضربٌ من مجلس الشيوخ تحت شجرة طلح ظليلة. المُثول أمامهم يعني طلب تقديم المزيد من الهدايا. من أجل مجرّد عبور آمن. الهُونغُو يتنكّر مرّة في شكل طلب بسيط ومرّة أخرى يبرز في شكل تهديد. تحيّة الاستقبال يمكن أن تكون كالتّالي: أيّها الغرباء، بأيّ شيء جميل جئتمونا من السّاحل؟ وبعد أن ينتقل الشّيء الجميل بين جميع الأيادي، هناك من يقول: ما زلنا لم نتعارف على الوجه المطلوب رغم أنّ شعورنا بالوحشة قد تراجع. يزمجر برتن غاضبا: هذا ابتزاز! لكن لا أحد يترجم كلماته. هداياه رائعة. مرّة أربعون لفافة من القماش ومرّة أخرى مائة قلادة مرصّعة بلآلئ مرجانية، لكنّ كلّ هذا لا يكفي لأنه يجب اقتسامه مع أصحاب الدّرجة الأولى والدّرجة الثّانية والدّرجة الثّالثة، ثمّ إنّ الرؤساء - من بينهم مثلاً رئيس يعاني كثيراً من حمْل لقب قيصريّ صار يشكّل عبئاً بالنّسبة إليه، الرئيس الرّجل العظيم رفيع الشّأن، ناهيك أنّه لا يظهر أمام

قومه أبداً في صحوة - عليهم أن يُطعموا قرية كاملة بنسائها وأطفالها. إذا نظرنا إلى الأمور من هذه الزّاوية فإنّ الهدايا تبدو متواضعة تقريباً، مجرّد لفتة صغيرة من لدن الضّيف المقيّد. يهدر برتن غاضبا، أنّى لهذه المخلوقات أن تتطوّر والحال أنّها تجرّد كلّ زائر من متاعه، كلّ شخص جاء لزيارة بلادها بنيّة حسنة. من مصلحة هؤلاء النّاس تطوير التبادل التّجاري، والطريق الصحيح ليس طبعاً خلق ظروف عيش هُونْغولية. لا غرابة في أن يبدو برتن متحيّرا. ما زالوا بعيدين عن كَازِيهْ، بينما بدأ مخزون المؤونة يقترب من نهايته. عليهم فقط أن يصلوا إلى كَازِيهْ. وانطلاقاً من هناك سيتمكّن من إصدار الأمر بجلب إمدادات من السّاحل. كان عليه منذ البداية أن يأخذ معه ألفاً من الحمّالين ليكون عند حسن ظنّ من عوّلوا على جوده وكرمه. إنّه لصنيع مقيت أن يُجبر المرء على حشو هؤلاء الطّفيليين بكل هذه الكمّيات من المأكولات. إنّهم يستعبدون حتى أناسهم. عندما يكون وضعهم الاقتصادي في حالة سيّئة يقومون بعمليّات سطو على القبائل المجاورة، يختطفون أطفالهم ونساءهم ويبيعونهم أوّل قافلة عبيد تعترض سبيلهم - بينما يتمّ تعويض جميع الخسائر المختلفة والناتجة عن عمل من هذا القبيل عن طريق رفع ضريبة الهُونغُو. أمّا رعاياهم هم فلا يحقّ لهم بيعهم كعبيد إلاّ في حالة الخيانة الزوجية أو عندما يتعاطون سحر الشياطين حسب حجم الجريمة. المْغانْغَا وحده يستطيع أن يحدّد إن كانت هناك جريمة أم لا، غالباً باعتماد تجربة الماء السّاخن. إذا ظهرت على اليد المغطّسة في الماء حروق فهذا يعني أنّ الجريمة تمّ اقترافها. الساحرات اللاّئي تثبت جريمتهنّ يتمّ حرقهنّ في الحين. لقد سبق لهم أن مرّوا في طريقهم عديد المرّات بأكداس صغيرة من الرّماد، بعظام بشرية محروقة وبقايا من الفحم المنطفئ. هذا أيضاً ضرب من الهُونغُو، ضريبة يدفعها المساكين الذين كُتب عليهم العيش في

هذه الأصقاع الملعونة. إلى الأمام. عليهم أن يجتازوا أزمة الهُونغو سالمين ليصلوا إلى كَازِيهْ.

* * *

سيدي مبارك بُمباي

لا شيء كان أهمّ بالنسبة إلى بوانا سبيكي من بنادقه. كان ينظّفها كلّ مساء، كان يشحّمها ويعاملها بأكثر لطف من معاملته للدّواب التي حملت الأمتعة. كان خلال النّهار لا يترك البندقية من يده ويترصّد شيئاً واحداً باستمرار. بينما كان بعضنا مهتمّا بالطّريق، بالسّماء أو بالنّساء اللاّئي وقفن على حافتي الطريق أو حتّى بالجذور البارزة على وجه الأرض، لم يترصّد بْوانا سبيكي سوى الحيوانات. كنّا فجأة نسمع طلقة نارية، وعندما نتمكّن من الاستدارة بالسّرعة المطلوبة كنّا نرى طائراً يهوي من السّماء أو ظبيا يركض فزعا فينهارُ وسط الأدغال. كان هذا يتكرّر مراراً خلال اليوم ممّا جعلنا نتعوّد عليه ونعتبره شيئاً عاديّاً. كان بْوانا سبيكي لا يحضّر نفسه، كان فقط يقترب من فريسته، وإذا تطلّب الأمر، لا يبتعد في أقصى الحدود إلاّ بضع خطوات عن الطّريق ثمّ يطلق النّار. وكان دائماً يصيب هدفه الذي اقتصر في أوّل الأمر على غنائم متفرّقة. لكن بعد وصولنا إلى بلاد الصّيد الوفير، بعد أن عبرناها وجُبنا أطرافها، تركنا وراءنا أرض الحيوانات الميتة التي لا حصر لها.

ـ كيف؟

ـ هل ترى في هذا لغزا تريد منّا أن نعينك على فكّه؟

ـ لا وجود للغز، يا أصدقائي، لا بل هناك لغز، لغز حول ماهيّة الإنسان وما هو فاعل.

ـ صار اللّغز أكثر صعوبة.

ـ يا إخوتي، أكثركم لا يعلم شيئاً عن الصّيد. أنتم لم تغادروا زنجبار وفي زنجبار لا تحوم الحيوانات المفترسة إلاّ في الجوّ. أنتم أبطال في صيد الأسماك، والصّيد في الماء يختلف عن الصّيد في البرّ والجوّ. أكبر عملية اصطياد للحيوانات يقوم بها أهل زنجبار تتمثّل في طرد القردة من حقولهم. أجدادي كانوا ماهرين في صيد الحيوانات، تحلّوا بالصّبر أثناء صيدهم لأنّ الغابة لا تجود بحيواناتها إلاّ على الصيّاد الصّبور، كذلك اصطادوا بأسلحة لم تكن أحدّ من أسنان الوحوش الضّارية. كانوا يختلُون إلى أنفسهم قبل الذّهاب إلى الصّيد ويختلون إلى أنفسهم كلّما عادوا منه. إذا أفلحوا مثلاً في قتل ظبي كبير كان الاحتفال في قريتنا بنفس الحجم. هؤلاء الصّيادون كانوا أجدادي، وكلّ إخوتي الذين عرفتهم أثناء عمري الأوّل هم إلى اليوم صيّادون على طريقة الأجداد، أنا واثق ممّا أقول.

ـ بدون شكّ، بابا سيدي، بدون شكّ. لكن ما الذي تنوي عمله؟ هل تريد أن تربّينا الآن وتجعل منّا، نحن العجائز، صيّادين؟

ـ أنا جدّ مسرور لكوني لست مطالباً بمعرفة أي شيء عن صيد الحيوانات. هل تعرفون قصّة الخوجة الذي ذهب لصيد الأُسُود ولمّا عاد منه كان وجهه يشعّ إشراقا، سأله الجماعة: كم أسدا أرديت قتيلاً؟ أجاب: ولا واحداً. زادوا فسألوه: كم أسدا طاردت؟ فأجاب: ولا واحداً. ثمّ سألوه مرّة أخرى: كم أسدا رأيت؟ أجاب: ولا واحداً. عند ذلك سألوه: لماذا أنت مبتهج إذن؟ قال: عندما يذهب المرء لصيد الأُسُود يكون «و لا واحدا» كافياً وزيادة.

ـ حقّاً، بابا إبراهيم، حكاية جميلة، لقد نسيتُها، إنّا حقّاً رائعة.

ـ استمعوا إلى ما أقول واتركوا الخوجة وشأنه. لمّا وصلنا المراعي التي انتشرت فيها القطعان وحوّلتها إلى بساط أصابني الذّهول وكدت أن

أفقد لساني. طلب مني بْوانا سبيكي أن أرافقه فسرنا متمهّليْن فوق السّهل إلى أن وجدنا مكاناً مناسباً، مرتفعا أو صخرة مثلاً أو شجرة باؤباب. صوّب سلاحه ثمّ شرع في إطلاق النار إلى أن شعرت بألم في أذنيّ، وكلّ من استطاع أن يرى ذلك المشهد رأى الحيوانات تسقط، الحيوان تلو الآخر، كما تسقط اللّفات عندما يُقذف بها أرضاً. بعد الطّلقة الأولى كانت الحيوانات تحاول الفرار، كانت تشخر وقد تملّكها الهلع، كانت بعيدة عنّي ورغم ذلك شعرت بالخوف وهو يخترق مناخرها، كانت لا تدري إلى أيّة جهة تفرّ. كانت القطعان وافرة العدد وبْوانا سبيكي كان له متّسع من الوقت لإطلاق النّار مرّات ومرّات أخرى. الحيوانات التي أصابها الرّصاص والحيوانات التي سقطت عددتها بالعشرات. لم أحتمل مواصلة رؤية تلك الحيوانات التي غابت عن الأنظار أصلاً بعد أن ابتلعها الغبار الذي حرّكته حوافرها ولم تبق في آخر الأمر غير كتلة قوامها الحياة وأخرى أتى عليها الموت برمّتها بينما ارتفع بينهما غبار كثيف في اتّجاه السّماء.

- ﴿والعاديات ضبحا

فالموريات قدحا

فالمغيرات صبحا

فأثرن به نقعا

فوسطن به جمعا﴾

- واصل، بابا قدّوس، واصل، إنّها لآيات مجيدات، كلّ كلمة تبلغ مبتغاها، تماماً مثل الأعيرة النارية التي أطلقها بْوانا سبيكي:

﴿إنّ الإنسان لربّه لكنود

وإنّه على ذلك لشهيد

وإنّه لحبّ الخير لشديد﴾

ـ صدق الله العظيم.

ـ كلّما كان بوسع بْوانا سبيكي أن يطلق عياراً ناريّاً يحمل الموت في طيّاته إلاّ وفعل. كان بمثابة الطّفل المضطرب وفي بعض الأحيان قاده هذا الاضطراب إلى مطاردة القطعان، سار وراءها بحزم وبخطى عريضة وأطلق النّار وسطها. لم يصوّب بندقيّته في اتّجاه حيوان معيّن، لأنّ هذا لم يكن ممكناً، وإنّما فقط في اتّجاه المكان الذي بحثت فيه رصاصاته عن مزيد من سيل الدّماء. كان وجهه يشعّ وهو يقوم بعمله هذا، كان وجها كوجه بَابا بُرهان يوم بَكري عيدْ، يطفح سعادة ونشوة.

ـ وأنت؟

ـ كان عليّ أن أناوله البنادق، كان عليّ أن أحملها وأن أحرسها، كانت أيّاما عصيبة تلك التي تفرّغ فيها بْوانا سبيكي إلى صيده.

ـ وأيّة فصيلة من الحيوانات كان يصطاد، يا جدّي؟

ـ كلّ شيء، كلّ شيء تحرّك. كان جدّ قنوعاً. قتل حتّى التّماسيح وأفراس النّهر، كان منظراً مريعاً إلى حدّ كبير لأنّنا وجب علينا الانتظار على الضّفة إلى أن تطفو الجثث على سطح الماء.

ـ لماذا لا تبقى الحيوانات في الأسفل؟

ـ لأنّ الهواء يبقى محبوسا في معدتها، الهواء الذي يخرج منك أيضاً عندما تُطلق ريحاً يا نور عيني. تصوّرْ، آلاف من حالات طلق الرّيح تتجمّع فينتفخُ فرس النّهر إلى أن يصير في صلابة واستدارة واحد من أعزّ أصدقائي.

ـ أعرف من تقصد يا جدّي، أعرف تماماً.

ـ جميل يا عزيزي، لكن احتفظ بما تعلم لنفسك.

ـ كيف؟ هو أيضاً يعلمُه.

ـ حصلتم إذن على كميّة هائلة من اللّحم.

ـ لا! والآن ستتملّككم دهشة أخرى. لْبوانا سبيكي كان لا يهمّه اللّحم، وحتّى القرون كانت لا تهمّه. واصلنا سيرنا الحثيث إلى الأمام، تركنا الحيوانات الميتة وراءنا ولا أدري إن أكلها أحد لأنّ القرى لم تكن دائماً قريبة من مكان صيدنا. أظهرَ اهتمامه باللّحم مرّة واحدة، لمّا اصطاد ظبية عشراء وأمرنا بفتحها ثمّ بطبخ الجنين له.

ـ يا إلهي!

ـ رفضْنا، الحمّالون الذين طلب منهم هذا أوّلاً رفضوا، وجّه بعد ذلك طلبه إليّ فرفضت أيضاً، قلتُ: كيف لي أن أفعل شيئاً كهذا؟ قد أتسبّب بعملي هذا في خلق أشباح تعذّبني طوال حياتي. تملّكه الغضب وضربني على وجهي.

ـ ضربك!؟

ـ فقدتُ بمفعول الضّربة إحدى أسناني القواطع، هنا ترون المكان الشّاغر الذي أدين به لِبْوانا سبيكي.

ـ ورضيتَ بما فعل؟

ـ ماذا كان بوسعي أن أفعل؟ ألم يكن قائد القافلة وسيّدها؟ ثمّ زاد وشتمنا قائلاً إنّنا مجانين لاعتقادنا ببعض السّخافات.

ـ والمْزُونغو الآخر؟

ـ نأى بنفسه عن هذا الجدال. غالباً ما كانت عباراته عنيفة، وهُو؟ هل كان عنيفا؟ لم أشاهد أبداً أنه قتل. لا أدري ما الذي جال بخاطره

بخصوص قتل ومطاردة بْوانا سبيكي للحيوانات لكنّه ردّ عديد المرّات طلبه بتوقّف القافلة في أماكن معيّنة بسبب وفرة صيدها. كان بْوانا سبيكي يغضب كلّ مرّة لكنّه أخفى غضبه على بْوانا برتن. كان لا يعبّر عن امتعاضه إلاّ عندما أكون برفقته لوحدنا، ورغم أنّي لم أفهم شيئاً ممّا كان يقول، كنتُ أسمع الغضب من خلال نبرته. كلّما طالت رحلتنا إلاّ وزاد اختلافهما. أعتقد أنّ بْوانا سبيكي كان يجد صعوبة كبيرة في أن يأتمر بما يقرّره غيره. القافلة كان لها قائدان، هكذا كان يرى الأشياء، قائدان كانا في نفس الوقت غريمين. لقد أخطأتُ التقدير، ظننتُ في أوّل الأمر أنّهما صديقان لكن بعد ذلك، بعد ذلك بكثير وخلال الرّحلة الثّانية، لمّا تحسّنت انجليزيتي وصار بْوانا سبيكي يتحدّث إليّ بأكثر صراحة، أدركتُ أنّه، أثناء الجزء الأوّل من الرّحلة، كاد الأمر يصل به إلى حدّ الكراهية، أنّ طموحه المفرط أتى على مشاعر الصّداقة والعرفان بالجميل لديه، ولمّا اندلع الخصام الذي وضع كلّ شيء موضع الشكّ، طغت عليه الكراهية وأغرقت الباقي. وحتّى قبل نهاية الرّحلة، أي قبل أن نصل إلى ساحل الخلاص من جديد، اتّهمني بأنني ساعدتُ بْوانا برتن على تسميمه. إلى هذا الحدّ وصلت به الكراهية.

ـ ورغم هذا أخذك معه في الرّحلة الثّانية؟

ـ لا أفهم كيف استطعت مرافقته من جديد. هل نسيتَ أنّه اعتدى عليك بالضّرب؟

ـ عاد إليه رشده. ثمّ إنّه كان أيضاً يحتاجني ويقدّر خدماتي كلّ تقدير. كنّا نشكّل فريقاً جيّداً. أشعرتُه بأنّه هو القائد، تعلّمت أن أصبر وتعوّدتُ على الانتظار كلّما بحث عن الكلمات وحاول تركيب جُمله في لغة البَانِيان، بعد ذلك فقط صار بإمكاني مدّه بالمعلومة التي كان يطلبها دون

أن يضطرّ إلى طلبها من بْوانا برتن. بدأ يثق فيَ أكثر فأكثر. وخلال الرّحلة الثّانية علَمتُ كلّ ما خفي عليّ أثناء الرّحلة الأولى. كان بْوانا سبيكي رجلاً مرهف الأحاسيس لكنّ بْوانا برتن داس مشاعره. أظهرَ له أنّه يعتبره على قدر كبير من الحماقة. كان يحذق فنّ معاملة الآخرين معاملة فيها إهانة. غير أنّ بْوانا سبيكي انتقم لنفسه في الخفاء بأن نمَّى في نفسه كُرهاً إزاء كلّ ما فعل بْوانا برتن من قبلُ وكلّ ما قام به أثناء الرّحلة. كانت علاقتهما كالتّالي: بْوانا برتن احتقر بْوانا سبيكي لأنّه كان لا يعرف شيئاً آخر غير إطلاق النّار على الحيوانات، أمّا بْوانا سبيكي فإنّه احتقر بْوانا برتن لعدم اكتراثه بالصّيد.

* * *

مهما أضناه النّهار وقسَا عليه، يجلس بْوانا برتن في المساء ـ بعد أن يكون بُمباي هيّأ له رُكناً وقتيّاً للعمل داخل خيمته بفتح كرسيّ ومنصّة ـ ليدوّن كلّ شيء شاهده، قاسه أو جرّبه. لا يهمّه إن هبّت العاصفة في الخارج، إن تجمّع الماء في حذائه أو بلغت مسمعه أوامر سبيكي الذي يراقب عمليّة وضع غطاء من القماش المشمّع على السّلع. يكتب حتّى عندما ترتعش أصابعه بمفعول الحمّى ولا تستطيع إمساك القلم إلاّ بصعوبة كبيرة أو عندما لا ترى عيناه الملتهبتان الدّواة التي عليه أن يغمس فيها ريشتة. يكتبُ حتّى عندما يحنّ إلى لحظات يتمدّد فيها قليلاً لينسى أتعاب يومه.

لا يشكّل الأمر بالنّسبة إليه مجرّد تمرّن على التّحكم في النّفس بل هو يعتقد أنّ من واجبه جعل هذا البلد يحيَا من خلال الكتابة. رجل مثله لا يخشى التّحديات الكبيرة لكنّه، رغم هذا، عندما يستعرض الأهمّية التي تكتسيها مدوّناته، يشعر بشيء من الخجل. يحاول أن يقاوم عدم الثقة

بالنفس هذا بإيراد تفاصيل، كلّ التفاصيل التي يفلح في جَمعها على آخرها خلال محادثاته، بحيث لا يترك معلومة واحدة ذات قيمة تفلت منه.

بُمباي يحتلّ المرتبة الأولى بين مخبريه. عندما يُجهدان نفسيهما معاً يُفلحان تقريباً في تبادل جميع أفكارهما، يتكلّمان الهندوستانية معتمديْن على بعض الرّكائز من العربيّة والكيسواهيلي. خصوصاً عندما يتعلّق الأمر بالعادات المحلّية والاعتقاد بالخرافات السّائد في كلّ مكان يكون بُمباي سنده الأوّل لأنّه يتقبّل كلّ ما يعترض القافلة في طريقها بنوع من التّعوّد وأيضاً بقدر مستحبّ من الاستغراب. بعد حديث مركّز آخر مع بُمباي ـ يبقى برتن جالساً ويستمع باهتمام إلى محدّثه، يسجّل كلّ ما قد لا تحتفظ به ذاكرته بينما يقف بُمباي وراءه ليتمكّن في نفس الوقت من تدليك كتفه وقفاه ـ يفتح كنّاشته ويدوّن ما يلي:

وبالتّالي يقول الفَانِيكَا، تماماً مثل فلاسفتنا، إنّ الغيبوبة لا تشمل إلاّ الحياة الشّخصية للفرد وليس الحياة الموضوعية ذات صبغة عامّة، رغم هذا يظلّ السّحر منطلقهم ومعتقدهم الأوّل. جميع أمراضهم تتولّد عن هذا الولع المتسلّط عليهم، كذلك لا يموت أحد منهم بالطّريقة التي قد نعتبرها موتاً طبيعيّاً. كل طقوسهم وشعائرهم تقتصر إمّا على درء الشّر عن النّفس أو على الّدفع به إلى الغير، والمحرّك الأوّل والوحيد لجميع قرابينهم هو ما ينال رضى المْغانْغَا، الطّبيب العرّاف. عندما يحين الوقت المناسب تُسمّي الرّوح التي طُلب منها في الأوّل مغادرة جسم الشّخص المهووس أيَّ شيء، يعبّر عنه تقنيّاً بكلمة كِيهِي، أي كرسيّ، تأوي إليه فتسكُنه محمولة حول الرّقبة أو معلّقة في أحد الأطراف دون أن تتسبّب في أيّ إزعاج لحامله. هذه الفكرة ترتكز عليها العديد من الممارسات: تصوُّر الزّنجي لـ «دواء مناسب فيه شفاعةٌ» ينحصر مثلاً في مخالب فهد أو قلائد

من اللآلئ البيضاء والسوداء، تُسمّى مْدوُغو غَا مُو لُونغُو (لآلئ الرّوح) وتُعَلّق عل الكتف، أو تلك الخِرق التي يُؤتى بها من مريض ثمّ تُعلّق أو تُربط في شجرة يسمّيها الأوروبّيون «شجرة الشّيطان». تحبّذ روح الجنّ «كيهي» الشّخص المريض بحيث، إذا تمّ الوفاق بين الجهتين، تكون سعادتهما كاملة. هناك أشخاص، وخاصّة منهم النّساء، يتحكّم في حياتهم الجِنّة، كذلك يكون لكلّ جنّي تَميمتُه الخاصّة به. من بين التّمائم واحدة تحمل، يا للسّخرية، اسم «بَركات» ويوافق هذا الاسم اسم العبد الأثيوبي الذي ورثه النبيّ محمّد.

يسند برتن ظهره إلى الوراء، يقرأ الفقرة مرّة أخرى ثمّ يغلق الدّفتر وكلّه رضًى. يبدو له في هذه المرحلة الأولى من أبحاثه أنّ الموضوع تمّ طرقه بما فيه الكفاية. علْم الإنسان يشكّل بلا شك أرضية مواتية للعمل المباشر في هذه الربوع، في الوقت الذي يجب فيه القيام بمسح للعديد من القبائل وتصنيف خصوصياتها الثّقافية. أمّا الدّيانة، إذا صحّ الحديث حقّاً عن ديانة في هذا السّياق ـ أكّد له بُمباي أنّ لهجاتهم ليس لديها كلمات تعبّر عمّا يُوازي كلمة «دَارْمَا» أو كلمة «دِين» ـ، فإنّها لم تكن لها أبداً أهمّية تذكر، لذلك هو لا يظنّ أنّ الباحثين الّذين سيأتون بعده ويسيرون على الطّريق التي هو بصدد فتحها لهم خلال هذه الرّحلة سوف يهتمّون اهتماماً كبيراً بهذا الموضوع.

ورغم كل هذا، عندما يأتي المبشّرون إلى هنا، سوف لن يبقى من اعتقاد السّكان الأصليين بالخرافات شيء يذكر. إفريقيا ليست الهند والكِيهِي ليس له وزن وأهمّية الكَامَا وخُدّام الإله سوف ينقضّون كالنّسور على كلّ روح لا يشتمّون فيها رائحة المسيحية. إلى هذا الحدّ يبدو له كلّ شيء واضحاً تماماً ولا تُزعجه سوى جزئيّة واحدة: بُمباي، نعم، بُمباي

الذي ليس أبلهاً بالمرّة ويحمل اسمه «مبارك» في طيّاته وعدا كبيراً وساميا، بُمباي المتشبّع بتعاليم الإسلام، يبدو واضحاً أنّه أثرت فيه كلّ هذه الشعوذة تأثيراً كبيراً وأنّ هؤلاء الدّجالين وقعوا في نفسه. هل إنّ سمّ التّربية في سنين الطّفولة تفشّى في أعماقه إلى درجة أنّه صار لا يقدر على التّخلّص منه، رغم أنّه تعرّف في حياته على حقائق أخرى أكثر إقناعا؟ أم إنّه تملّكه الجنون، نوع من ردّ الفعل على مصاعب الرّحلة ومشاقّها؟ سوف يتوجّب عليه مراقبته عن كثب، لأنّه عندما يغيب عنهم بُمباي سوف يفتقدون فيه رجلاً مهمّا.

* * *

سيدي مبارك بُمباي

اسمعوا يا إخوتي، استمعوا جيّداً، الآن سيأتي الجزء الذي يهمّ كلّ واحد منكم، الآن ستأتي قصّة النّساء أثناء هذه الرّحلة، قصّة نساء قافلتنا. لمّا انطلقت قافلتنا كنّا تقريباً رجالاً فقط، باستثناء بعض زوجات الحمّالين القليلات، كنّا تقريباً أكثر من مائة رجل ولا أحد منّا كان كبير السّن أو ضعيفا. لم يكن من الصّواب في شيء أن نُجبَر على السّير في طريق لا نعرفه، أن نصبر على كلّ المتاعب، التي غالباً ما فصلت بين الحياة والموت، وأن نُحرم من مرافقة النّساء لنا. لم يكن من الصّواب في شيء أن كان ليلنا أكثر وحشة وحرمانا من نهارنا. لكن لم تلبث القافلة أن كبر حجمها، أن صارت استداراتُها بارزة للعيان، كذلك ارتفع عدد أولئك الرّجال الذين صاروا لا يشاركوننا في المساء أغانينا أو رقصاتنا، وكلّما طالت الرّحلة إلاّ ورافقنا المزيد من النّساء، ممّا جعل بْوانا برتن وبْوانا سبيكي يخشيان تأثير النساء السّلبي على القافلة.

ـ من أين جاءت كلّ هؤلاء النّساء؟

ـ أغلبهنّ تمّ شراؤهنّ من تجّار العبيد الذين اعترضوا طريقنا، منهنّ من قبِلت اصطحاب رجل، إمّا لأنّه أقنعها هي أو أقنع أبويها، بالمال أو بمعسول الكلام. لقد شكّل الصّنف الثّاني ضرباً من الجماع دام أطول، لأنّ أولئك الّذين حصلوا على نسائهم مقابل المال ما كانوا في الحقيقة ليعرفوا طبيعة ما اشتروا، وما من أحد ساء حاله مثل ذلك الرّجل المسكين الذي ابتاع امرأة اسمها «لا أدري». كانت قويّة البنية كالثّور، كأروع ما يكون عليه الثّور من الاكتناز عندما يفتخر كلّ رجل بامتلاكه، لذلك كلّفت صاحبها ستّ لفّات من القماش ومِطوّى كبيراً من أسلاك النّحاس الأصفر. اشتراها سعيد بن سالم، وفي الحين تأكّد من أنّه أضرّ بنفسه لأنّها كانت شرسة الخُلق وأكثر مشاجرة من جاموس يموت وحشةً. بما أنّها كانت تنتمي إلى تلك الفئة من البشر الذين يحشرون اسطوانات عظميّة داخل الشّفة العليا، أطلّت شفتُها إلى الأمام وكأنّها منقار بطّة. كان مجرّد النّظر إليها كافياً ليجعل كلّ واحد منّا يحترمها، أمّا تصرّفها فكان بدوره يبعث فينا الرّعب. تخلّص منها سعيد بن سالم وسلّمها أقوى رجل من بين الحمّالين يُدعى جُحا لكنّه هو أيضاً بدا أمامها وكأن لا حول له ولا قوّة. عاملَتهُ منذ البداية باحتقار ولست أدري إن هي مكّنته مرّة من دفء جسمها، لكنّي أعرف جيّداً ما كان يعلمُه آنذاك كلّ واحد منّا، أنّها جاءت جحا المسكين فيما بعد باثني عشر من المنافسين. كانت تهشّم كل شيء يُقدّم إليها حتّى لا تكون مجبرة على حمله معها من مكان إلى آخر، جلبت معها الفوضى إلى داخل القافلة وصارت موضوع حديثنا الوحيد. كلّ واحد منّا اشتبه في الآخر أنّه يشتهيها سرّاً، إذ، يا إخوتي، مهما يبدو الأمر لكم غريباً، كلّما زاد تصرّفها تعنّتا وكبرياءً إلاّ وزدنا اشتهاءً لها. أنتم لم تروا ذراعيها المُجمّدتين وفخذيها المكتنزين اللّذين أطبقا على الجنّة بينهما. أجل، هكذا كنّا نفكّر، وكان على هذا التّفكير، لا بل على هذه الرّؤيا، أن تسكن داخلنا وترافقنا في وحدتنا لبعض الوقت أثناء سيرنا في الطرقات المغبرّة.

لا شيء ممّا كانت تفعلُه أفلح في إطفاء لهب ما كان يتأجّج في داخلنا، لا إهاناتها ولا خشونتها. كانت تهرب كلّ ليلة، وكلّ مرّة كان يتمّ القبض عليها بواسطة رجال تطوّعوا للقيام بهذه المهمّة المقيتة، وكانت بعد أن يتمّ إرجاعها إلى المخيّم لا تُبدي ندما ولا يظهر عليها حياء. كانت فريدة من نوعها ولا مثيل لها من حيث صعوبة المِراس، كانت لو ركبت على متن أيّ مركب لأغرقته. وهكذا قرّر سعيد بن سالم في آخر الأمر أن يستبدلها في كَازِيهْ مع رجل عربيّ ببضعة أكياس كبيرة من الأرزّ فكان لهذا التّاجر المتمرّس في ذلك أسوأ صفقة عرفها في حياته، إذ جاءنا في اليوم الموالي واشتكى بمرارة من أنّها هشّمت جمجمته. ضحكنا ثمّ ضحكنا وسُررنا لذهابها لكن، في الخفاء، كانت أصلابُنا تحلم بما قد كان يحدث يا ترى لو أنّها أخذتْنا في أحضانها.

- أعرف هذا النّوع من الأحلام، إنّها لا تمّحي إلاّ ببطء، شأنها شأن الحروق على الجلدة.

- مثل التّورم في الرّأس!

- إذن لا بدّ من أحلام أخرى جديدة.

- ما إن تطلّ امرأة جديدة حتّى يتمّ فسخُ القديمة تماماً كما يتمّ محو أثر ورق الأشجار فوق الرّمل.

- أرني أثرا لورقة واحدة، بابا إلياس.

- هذا ما أريد قوله بالذّات، أيّها الغبيّ، أعني أنّ ذكرى المرأة تصير فجأة عابرة كالأثر الذي تتركه ورقة فوق الرّمل.

- هناك شيء يجعلك تتصرّف على غير عادتك، بابا إلياس، أنت تحاول باستمرار شرح ما تريد قوله.

- هذا يتوقّف فقط على المستمعين، بابا يوسف. من يتعمّد عدم الفهم يتعثّر قبل كلّ شيء في أسئلته.

ـ اقتربوا يا إخوتي، اقتربوا! سليم أوى إلى فراشه والتّهديدات التي تنزل على رؤوسنا من حين لآخر خرست، ومهما يكن السّبب فعلينا أن نبارك هذه النّعمة ما استطعنا إليه سبيلاً. كلّكم تعرفون أنّي عدتُ من رحلتي الأولى وبرفقتي امرأة، امرأة شابّة فتنتني فولعتُ بها من أوّل وهلة رأيتها فيها عند النّهر أين كانت تغسل ثيابنا مع فتيات القرية الأخريات. كان الصّباح يعبق بشذى النّبات وهو يستيقظ بعد السّبات وبرائحة النوّار بلّله النّدى. لم يكن لي عمل معيّن أقوم به فحملتني رجلاي إلى النّهر عبر طُرق ملتوية، مررتُ عبر منحدر ضيّق وإذا بي أقف فجأة أمام الماء وغير بعيد عنّي كانت شابّات القرية منحنيات يخبطن الغسيل على حجر مسطّح كالمائدة. أقول: شابّات القرية، لكنّي في الحقيقة أعنى امرأة بالذّات استحوذت على اهتمامي. لم أتمكّن من رؤية وجهها، لكن ما استطعت أن أراه منها أعجبني كثيراً فأردتُ ألاّ أكفّ عن مشاهدته. لازمتُ مكاني وركّزت نظري على هذه المرأة التي لمع جسمها بمفعول قطرات الماء التي داعبتها أولى أشعّة الشّمس الصّباحية. كانت بشرتها سمراء، سمراء مثل بشرتي وكانت حركاتها نشطة وثابتة مثل حركاتي آنذاك. وقفتُ طويلاً على الضفّة، وقد أسّرني منظر تلك الفتاة، إلى أن تجرّأتُ واقتربت قليلاً. ما كنت أظنّ أنّ الفتيات لم يرينني بعدُ، لذلك فوجئت لمّا أطلقت الفتاة الأولى التي رأتني صيحة حادّة بينما دارت الفتيات الأخريات في الماء كالدّوامة فزعاتٍ وكأنّهنّ سمكات أرادت تلقّف لُقمة. بقيت واقفاً في مكاني وحاولت يداي أن تجد لي اعتذارا، فالتفتت كلّ النّساء في اتّجاهي ليتمكنّ من التّحديق في مليّاً ثمّ استدرن من جديد إلى الخلف وهنّ تُخفين عوراتهنّ. كنّ مضطربات مذعورات، أمّا الفتاة التي ولعتُ بها فقد بدت عادية ونظرت إليّ، رغم كلّ شيء، على حين غرّة بعينين مبتسمتين فأحسست أنّ تلك النّظرة حملت في طيّاتها أكبر غنيمة لي في حياتي.

أردتُ أن يكون بإمكاني رؤية ذينك العينين طوال حياتي، أجل، أردت أكثر من هذا، أردت أن أمتلك الفتاة ذات العينين المبتسمتين إلى الأبد. سألتني إحدى الفتيات الأكبر سنّا: من أنت؟ قلتُ: أنا سيدي مبارك بُمباي، مرشد القافلة. فتكلّمت المرأة الشّابة التي فتنتْني: الثّياب التي نحن الآن بصدد غسلها هي إذن ثيابك؟ ثمّ رفعت السّروال الذي كان في يدها عالياً ولوّحت به في الهواء. ضحكت جميع الفتيات وضحكتُ معهنّ لأنّي لم يبق لي شيء آخر أستطيع فعله، وبما أنّ الضّحك يزيد الإنسان جمالا أردتُ أن أضفي على وجهي المهلهل والمهترئ من الجمال ما استطعت إليه سبيلاً. لمّا تراجع الضّحك قلتُ: لا ألبس لباسا كهذا. ردّت عندئذ على كلامي واحدة من البنات الأخريات بصوت جهوري: هكذا! أنت إذن ليس لك من القيمة ما يخوّل لك ارتداء لباس الأسياد. همهمتُ قائلاً: إنّها ليست مريحة. سألت الفتاة التي أعجبتني: ماذا تلبس إذن أيّها الرّجل القادم من السّاحل؟ قطعة من القماش كهذه، وعندما يكون الطّقس بارداً أو في أيّام الأعياد أرتدي كَانْسُو. هتفت فتاة أخرى قائلة: من يدري، لعلّي الآن بصدد غسل ثيابك؟ ثمّ رفعت كَانْسُو إلى أعلى. قلتُ: أشكركِ، حتّى وإن كانت هذه الكَانْسُو ربّما ليست لي. قالت الفتاة التي فتنتْني للأخرى: لنتبادل الثّياب، وهكذا كوّرت كل واحدة منهما القماش ورمت به إلى الأخرى بينما ارتفع صياح وقهقهة الفتيات الأخريات وتحوّلا إلى صخب عارم استُثنيتُ منه. نادت إحدى الفتيات الأخريات: تأكّدي قبل كلّ شيء من أنّ الكَانْسُو على قياسه! عند ذلك فتحت فتاتي الكَانْسُو، أمسكت بها نصب عينيها بذراعين ممدودتين ونظرت إليّ مباشرة من وراء رقبة الثّوب ثمّ قالت: المسافةُ بيننا لا تسمح لي بتقدير صحيح. ما إن انتهت من كلامها حتّى عادت الفتيات الأخريات إلى صخبهنّ وهتافاتهنّ التي ظلّت تخترقني كالمطر عندما يهطل بغزارة، كلّ تلك الهتافات المشجّعة

والمتحدّية في نفس الوقت والتي لم أُفلح في التمييز بينها. سمعتُ من قالت: ألا تذهب إليها؟ وسمعتُ من قالت: هل أنت خائف؟ ثمّ أخرى: مكّنها من أخذ قياسك، وأيضاً: إنّه يخشى دخول الماء! لكن فجأة وجدتُني واقفاً أمام الفتاة التي فتنتني وقد أمسكتْ بكَانسُو. حاولتُ الابتسام لكنّ المرأة الشّابة أطلقت ولولة كتلك التي يطلقها سكّان تلك المناطق أثناء مراسم الدّفن، بينما عاد الضّحك حواليّ أقوى ممّا كان عليه لمّا هتفت بأعلى صوتها: يا إلاهي، إنّه حقّاً قصير القامة. فعلاً، لم أنتبه أبداً إلى كونها أطول منّي قامة، أطوَل منّي بكثير، وبما أنّ الكَانسُو وصلتها إلى حدّ أرنبة الأنف، تأكّدتُ أنّها لم تكن ثوبي. انطبق قلبي لذلك المنظر لأنّي تمنّيتُ لو أنّها أمسكت بثوبي حقّاً. ثمّ قالت لها فتاة أخرى محذّرة: انتبهي ولا تتركيه يسقط من الكَانسُو إن هو لبسها. تحوّل الضّحك في الأثناء إلى شلاّل منحدر من نهر جارف. لكنّ الفتاة التي وقفت أمامي ـ لم تكن جميلة بأنفها المائل والطّويل بعض الشّيء وبذقن مدبّب ـ كانت فتاة لم أر مثلها من قبل، كانت لها عينان ترقصان وتقفزان وتمرحان وكأنّهما ظبيتان. كفّت عن الضّحك ثمّ نظرت إليّ مطأطئة رأسها قليلاً إلى الأمام ومتأمّلة، بينما انزلقت الكَانسُو من يدها إلى أسفل. كانت النّظرة التي عبّرت عن اضطرابنا المتبادل بمثابة سقف من جريد النّخل وقانا من كلّ ذلك الضّحك الذي هطل علينا غزيراً كالمطر. مكثنا واقفيْن إلى أن طلبت إحدى الفتيات من الأخريات العودة إلى عملهنّ واستدارت فتاتي لتعود إلى شغلها وهي تهزّ رأسها عجبا، كذلك ولّتني كلّ الفتيات الأخريات فجأة ظهورهن وانحنين فوق الماء يُخرجن منه الملابس. لم أقدر على المكوث هناك منتصبا وكأنّني شجرة صفصاف وغادرت المكان. توجّب عليّ الذهاب رغم أنّه كان باستطاعتي النّظر إلى تلك التي فتنتني لساعات.

عدتُ إلى مخيّمنا بخطى بطيئة وأفكاري تطبخ على نار خفيفة لم

تسمح لها بالغليان ولا جعلتها تهدأ وتأسّفت وأنا في طريق العودة كثيراً لأنّي لم يكن لي في ذلك اليوم بالذات عمل أقوم به في القرية. رأيت المرأة الشّابة والفتاة الضّاحكة أمامي في كلّ جهة ألتفتَ إليها، رأيتها ممسكةً بسروال ثمّ بكَانْسُو، رأيت نظرتها التي طغى عليها الجدّ تحلّ فجأة مكان الضّحك ورأيت سافِلتها ـ نعم، أنا أعي تماماً أنّي أتكلّم الآن لغة من كان يوماً في سنّ الشّباب ولم يهذّب عباراته بعدُ ـ، سافلتها التي طردت كل الأفكار الأخرى من رأسي. هل كان اللقاء مصيبة أم صدفة سعيدة؟ الجواب يتغيّر بحسب من تُلقون عليه السّؤال، عليَّ أنا أم عليها هي، وكذلك بحسب التّوقيت الذي تسألونني فيه أنا أم تسألونها فيه هي.

* * *

ماذا تكتب؟

سبيكي من جديد. ستار الخيمة المنسدل لا يمنعه من إزعاج الغير. لا يدري كيف يقضّي وقته؛ بعد حين سيأتيه بمشكلة يحاول حلّها معه سويّاً، مشكلة اختلقها من فرط شعوره بالملل. أنا مشغول، يا جاكَ، أنا بصدد تدوين ما حصل أثناء آخر مرحلة من رحلتنا.

سال سبيكي: هل هناك حقّاً ما يستحقّ الذّكر أو الوصف؟ كلّ شيء كالعادة، رتابة مملّة وحساء له نفس المذاق، لا يهمّ إن عبرنا البراري أو الغابات. أمّا البشر فهم أكثر مللا من الطبيعة، منظرهم واحد لا يتغيّر في أيّة منطقة ووجوههم لها في كلّ مكان نفس التّقاسيم والتعابير البليدة. لِمَ ضياع وقتنا إذن في رسم خارطة أخرى لهذه البلاد؟ ـ ألا تُترجم البقعة البيضاء والجرداء على خارطتنا ما نشاهد هنا على أفضل وجه؟

يحسّ برتن أنّه بدأ يضيق ذرعا بما أوتي من صبر وتحفّظ. لم يتعلّم أبداً السّكوت على ما يقلقه. قال: هل تدري، يا جاكَ أنّك، خلال عشر

سنوات كاملة قضّيتها في الهند، لم تتعلّم غير تمتمة بعض الكلمات بالهندوستانية. لا تختلق أعذارا لعَماكَ الذي حكمتَ به على نفسك. البشر هم بالمناسبة أهمّ ما يوجد في هذه البلاد، ستهتدي في يوم من الأيام إلى ما أقول، علم الإنسان سيشكّل بالنّسبة لهذه القارّة علم المستقبل.

أنت تحبّ النّكش في كلّ الأوحال، هذا ما تبيّن لي حدّ السّاعة، تُحس بانجذاب فيه شذوذ إلى الأعشاب الطّفيلية والحشرات الضّارة، هذا معروف لدى الجميع، والآن اشرح لي من فضلك ما كان مهمّا فيما شاهدناه اليوم، ما كان مهمّا في هذه القرية التي وجدنا فيها جميع سكّانها ثمِلين إلى أقصى حدّ؟ أنت لاحظتَ هذا، يا دِكّ، أليس كذلك؟ من غير المعقول أن تكون فطنتك قد تغافلت عن مشاهدة قرية ثملة على آخر نفر فيها في وضح النهار.

نعم، أنا متأكّد أنّ كتاباً كاملاً يمكن كتابته حول هذا الضّرب من السّكر، حول استخراج الجعة من الذّرة البيضاء مثلاً. كلّ واحد من سكّان القرية هو في حدّ ذاته مُحضِّر جعة، هل سمعت بهذا من قبل؟ النّساء هنّ اللائي يتكفّلن في غالب الأحيان بهذا العمل. نصف كمّية الذّرة البيضاء يتمّ نقعها في الماء إلى حدّ التّنبيت..

لا تهمّني الطّريقة التي يتمّ بها إعداد هذا النّوع من الجعة، ما يهمّني هو تأثيرها فقط. رؤساء القبائل صارت أصواتهم غليظة وأعينهم حمراء كاللّهب ابتداءً من منتصف النّهار، كذلك كانت لهم التّصرفات المزعجة والمعروفة لدى السّكارى.

يسأل برتن: والسّبب الكامن وراء سُكرهم، هل تعرفه؟

نعم، أعرف السّبب، وهو ما يزيد الطّين بلّة ولا يساعد على تحمّل الأمر برمّته. في الصّباح الباكر كانت هناك جنازة، رجلٌ طاعن في السّن

تمّت مواراتُه التّراب، وبعد مراسم الدّفن بقليل ـ لمّا وصلنا إلى هنا ـ لم نلاحظ أثرا لمظاهر الحزن، لا بل بالعكس، كان هناك كثير من الضّحك والمرح والدّردشة.

قال برتن: كما في إيطاليا، أعظم حدث يحتفي به الإنسان في هذا البلد في حياته هو الجنازة. في جنوب البلاد يتغنّى لحن تقريباً بما يلي: آه، يا له من مرح ذلك الذي عشتُه أثناء مراسم دفني.

مجرّد كلام فارغ، يا دِكّ. هؤلاء المتوحّشون لا يتحكّمون في شهواتهم. كيف تسمح قرية بأكملها لنفسها بالسّكْر في وضح النّهار؟ لا غرابة إذن إن هم بقوا على هذه الدّرجة من الفقر.

فقراء؟ نعم، هم فقراء لكنّهم أيضاً ظرفاء وخفيفو الرّوح. هل تعرف ماذا كان جوابهم لمّا سُئلوا بتكليف منّي عن مصدر المرح الذي لمسناه في احتفالهم؟ قالوا إنّ المصدر هو الميْت نفسه، نحن تغمرنا الفرحة من أجله لأنّه بلغ مُبتغاه في آخر المطاف، المكان الذي كان تمنّى بلوغه منذ مدّة.

* * *

سيدي مبارك بُمباي

بقي مخيّمنا بضعة أيّام على مشارف تلك القرية لأنّ بْوانا برتن وبْوانا سبيكي أصيبا بنوبات حمّى متتالية وقويّة وكان علينا جميعاً أن نأخذ قسطاً صغيراً من الراحة، وهكذا تمكّنتُ كلّ يوم من الذّهاب إلى النّهر لرؤية الفتاة التي فتنتني، وكلّما تماديت في رؤيتها ورأيت منها أكثر زادت رغبتي في امتلاكها إلى أن قرّرتُ عدم مغادرة القرية بدونها. حصلتُ على معلومات من عند فازي القرية الذي أوصلني إلى بيت أبويها. جلستُ أمام ذلك البيت وتحدّثت إلى أبيها الذي شجّعني بجوابه الأوّل إذ قال لي إنّه مستعدّ أن يزوّجني من ابنته، أمّا جوابه الثّاني فقد سرق منّي الأمل لأنّه

طلب منّي مهراً لم أكن قادراً على دفعه، حتّى وإن تمكّنت من الحصول على المبلغ المتبقّي من كامل أجري. لم أفلح في التخلّص من الحنين إلى تلك الفتاة وكنت أعلم أنّه سيتوجّب عليّ توديعها إلى الأبد. في الليل كُلّفتُ أخيراً بمهمّة تمثّلت في حراسة المعسكر. تجوّلتُ قليلاً وتنصتّ ثمّ جلست على جذع شجرة، وكان جذع الشّجرة هذا ـ هذا ما أراده الخالق الذي بيده قدَرنا ـ يوجد بقرب مخزوننا من أسلاك النّحاس الأصفر. جلستُ إذن هناك وكان بصري يتوقّف كلّ مرّة عند الأسلاك، كذلك كنت بعد كل جولة حول المعسكر أعود لأجلس في نفس المكان، لأُحدّق مجدّداً في أسلاك النّحاس الأصفر ولأقول في نفسي: ما الذي جاء بالنّحاس الأصفر إلى هنا؟ إلى المكان الذي أجلس فيه؟ ثمّ قلت في نفسي: إنّها لكمّية كبيرة من أسلاك النّحاس، ومن ذا الذي سينزعج يا ترى لو نقُص قليل منها؟ من ذا الذي سيتنبّه إلى الأمر لو أنّ قدراً ضئيلاً من النّحاس الأصفر تمّ أخذه من كلّ هذه الكمّية الهائلة؟ استرقتُ السّمع بعد ذلك مرّة إلى داخل اللّيل حالك الظّلمة ومرّة أخرى إلى داخل أفكاري الكئيبة فسمعت اقتراحا مقبولا جاءني بحلّ على غاية البساطة. طبعاً، لقد اتّهمني بُوانا سبيكي لاحقاً بالسّرقة لكنّه لم يستطع تقديم أيّ دليل عليها، ولمّا سألني عن الكيفيّة التي حصلتُ بها على الفتاة التي ارتحلت معنا في اليوم الموالي، ادّعيتُ أنّي ربحت ما يكفي من المال بعد القيام بعمليّة تجارية صغيرة مع الفَازِي مكّنتني من دفع المهر، ورغم أنّه لم يصدّق ما قلت له، لم يستطع فعل شيء لأنّي بقيتُ هادئاً وأجبته بكل ثقة في النّفس، لا لأنّي كنت فخوراً بما فعلت وإنّما لأنّي كنت مقتنعا بأنّي أجدتُ التّصرف. زد على هذا فإنّ الوازُونغو صارا في الأثناء يثقان في تماماً، ولو خسراني لكانا خسرا كلّ علاقة تربط بينهما وبين البلاد. بهذا تمكّنت من أخذ تلك الفتاة معي، الفتاة التي تعرفون جميعاً، بعضكم عرفها بعدُ وهي

امرأة شابّة والبعض الآخر عرفها وقد تقدّمت بها السنّ. تبيّن أنّ الفتاة التي فتنتني كانت كسباً جيّداً، ليس فقط بالنّسبة إلى السّفرة الطويلة التي كانت يومئذ أمامنا وإنّما أيضاً في منزلنا في زنجبار الذي بنيناه بعد عودتنا وملأناه حياة، وهكذا أستطيع اليوم أن أقول لكم إنّي يوم قرّرت أخذ هذه الفتاة معي حقّقت أكبر غزوة قمتُ بها في حياتي.

ـ هل تثقون فيما يقول؟ هل تثقون في هذه الخرافة المهترئة؟

ـ يا للتّعاسة، لقد وصل همسي إلى أبعد ممّا كنت أظنّ.

ـ آذانكم عار عليكم. إنّها تبتلع كلّ شيء. صارت مصبّا للزّبالة. ألا تميّزون بين الحكايات التي يفرزها افتخاره بنفسه، الذي هو أضخم من القافلة التي زعم أنّه قادها عبر كلّ البلاد، والحكايات التي يمليها عليه خضوعه وخشوعه من حين لآخر؟ لماذا لم تسألوا، ولو مرّة واحدة، كيف عشتُ أنا تلك الغزوة؟ لماذا لم تنبهروا ولو مرّة واحدة بتلك الفتاة الشّابة والجميلة ـ أن يكون هو رغب فيّ فهذا يعني أنّ آخرين فعلوا مثله ـ التي كانت مستعدّة لاتّباعه، للذّهاب معه، مع هذا المتسكّع الذي رافق مجنونيْن من الوازُونغُو إلى بحيرة كبيرة، أو إلى بحيرتين كبيرتين أو، إن شئتم، إلى آخر الدّنيا. مع رجلٍ ـ ثقوا حقّاً فيما أقول ـ لم يكن وقتها أوسمَ بالمرّة من اليوم. بالعكس: الشّعر الأبيض الذي يحيط بوجهه اليوم ـ نعم، بهذا الحقل من البطاطا الحلوة الذي نسمّيه من باب المجاملة وجهاً ـ يضفي عليه شيئاً من الحسن واللّطافة. كان في الماضي يشبه التّمساح، ولو أتيحت لي آنذاك فرصة التّعرف على طبيعته أكثر لكان ذكّرني، وبدون صعوبة، بضبع. أنصتوا إلى ما أقول، لعلّ هذا سيساعدكم على الوقوف على حقارة الموقف عندما لا يسمع المرء غير نصف الحكاية. والداي كان لهما أبناء كثيرون، وكان إخوتي كلّهم على قدر لا بأس به من القوّة

والصّحة، كنّا نستهلك كمية لا بأس بها من الطعام وكان من الصّعب على والدي الذي تقدّمت به السنّ أن يوفّر لنا الغذاء جميعاً. ساعدنا أحد أعمامي لكنّ ذلك لم يكن كافياً. هذا لا يعني أنّنا كنّا مهدّدين بالموت جوعاً، لم تكن قريتنا مثل هذه المدينة التي نعيش فيها الآن، وما من أحد في قريتنا كان ليشعر بالسّعادة لمجرّد علمه أنّه هو الوحيد الذي ملأ بطنه. لكنّنا، رغم هذا، غالباً ما كنّا نشعر بالجوع. لهذا السّبب، نعم لهذا السّبب فقط، قُوبل العرض الذي جاء به هذا المتسكّع بالتّرحاب وكأنّه هديّة جاد بها علينا الأجداد الأوّلون. فكّر أبي أنّه لمّا يدفع الرّجل ما يطلبه منه من مال فإنّ العائلة سيكون لها ما يكفيها كلّها حتّى موسم الحصاد المقبل، أمّا أنا فسوف لن أعيش في خصاصة ما حييت. هكذا ارتأى أبي الأمر ولم تعارضه أمّي. أمّا أنا فتملّكني الخوف. عندما تروني الآن ربّما تفكّرون: هذه المرأة لا تعرف الخوف، لأنّكم لم تتعوّدوا إلاّ على القوّة التي حاولت دوماً أن أظهر عليها. تصوّروا أنّي في ما مضى كنت ممشوقة القدّ رقيقة وخشيتُ العبء الذي قد يُحمّلني هذا الرّجل. لم أرغب في تزويجي منه وعبّرت عن رأيي هذا لأمّي، غير أنّ كلّ هذا لم يُجد نفعا. طلبت منّي أمّي أن أسكت وأن أثق فيما كان قرّره أبي. هذا الرّجل قبيح المنظر والغريب دفع لأبي الثّمن المطلوب في الصّباح الموالي ـ طبعاً لم نعرف آنذاك بأيّة وسيلة دفْع حصل عليّ ـ فكان عليّ أن أودّع الجميع، أخواتي وإخوتي، الفتيات اللاّتي كنّ في سنّي ثمّ والديّ. وبما أنّ هذا الرّجل يسمح لنفسه بالحديث عن عجُزي علناً في الشارع فأنا أودّ أن أضيف شيئاً آخر. إنّه لم يغزُني بحركاته الخجولة وبأسلاك النّحاس الأصفر التي قدّمها لأهلي، لا، لم أسمح له بأن يغزوني، لقد قلت له في الليلة الأولى: لا تمسّني إلاّ عندما أسمح لك بذلك، وفي الأثناء لينَمْ كلّ منّا

بعيداً عن الآخر، وحذار إن أنت لم تحترم إرادتي هذه، أقسم لك أني أقطعُ لك ما يجعلك تعتقد أنّ لك رجولة.

ـ لكن، ماما سيدي، لو سمحت، هل كان أبوك مخطئاً حقّا؟ ألم تعيشي حياة هنيئة؟

ـ قولي الحقيقة يا امرأة.

ـ لقد تكهّن أبي بما لم يستطع أحد رؤيته. رغم أنّ هذا الرّجل واصل تنقّله من مكان إلى آخر، إلاّ أنّه كان كلّ مرّة يُعاد إلى منزله في أمان. أمّا إذا أردتم سماع الحقيقة فهي كالتّالي: لم أعرف قطّ في حياتي رجلاً سواه، لذلك تعسر عليّ المقارنة ويصعب التّنبؤ بما عساه كان يطرأ مع غيره.

* * *

نفدت لديهم كمّية الماء. في صحراء أُوجُوجُو. منطقة ظروف الحياة فيها صعبة. غيوم كوّنت غشاء وتصاعدت إلى أعالي السّماوات فاستحال على كلّ الأماني والطّلبات الوصول إلى هناك. استعَر تحتها كلّ شيء في فرن احتجب عن الأنظار. هذا البلد بلدٌ متسوّل، هذا ما توصّل إليه سبيكي وبرتن بعد أن تفرّسا في جسمه النّحيف من على قمّة جبل رُوبيهُو. متسوّل مصفرّ الجلدة غطّت ضلوعه النّاتئة أديم الأرض وحفرت فوقه المياه مجاريها. آثار فيضانات موسمية لفحت هذا الجسم منهوك القوى. لقد أطالا التّوقف على حافة الجُرف العالي. لا شيء غير جهاد النّفس جعلهما ينزلان إلى أسفل أين الخلاء. الحمّالون الأكثر خبرة حذّروهما من هذا البلد. سوف يقضّي الجميع هنا شهراً كاملاً قبل أن يروا مرتفعاً أو وهْدا. كان على مخزون الماء ألاّ ينفد رغم كلّ الصّعوبات القائمة والظّروف غير المواتية. كان أمراً بلا موجب. بعض الحمّالين الذين قصُر نظرهم وتعمّدوا

ترك القِرب الأخيرة والمملوءة ماءً وراءهم في مركز متخلّف ـ كان هذا على الأقلّ ما اعتقده برتن. أقصى ما قد يكون خطر ببالهم في هذا الشأن (إن هم حقاً اهتمّوا بالأمر) هو أن يكونوا قالوا إنّ المستقبل سيتكفّل بحلّ المشكلة، كلاماً وثقوا فيه كلّ الوثوق. تمّ التفطّن إلى الخسارة بعد يومين كاملين من السّير، لمّا أشرف الماء في القِرب الباقية على النّفاد. خمّن في أوّل الأمر أن لا داعي للقلق. سيقسّمون ما بقي من ماء بحكمة وسيكتفون بأقلّ ما تعوّدوا على استهلاكه. ما كان ليعلم أنّ أقدامهم قادتهم إلى قلب اليُبس. كلّ قرية يدخلونها لاهثين تكون آخر بئر فيها قد نضبت، تكون فيها آخر بِركة قد تبخّر ماؤها. لا توجد في الحقيقة آبار وإنّما أحواض عميقة مسيّجة في أعلاها ببناء وقتيّ. الأكواخ مهجورة والنّاس القليلون الذين يعترضون سبيلهم ليسوا في الواقع سوى قامات مغضّنة شفاهها مشقّقة تشقُّق الأرض. يشْخَص هؤلاء النّاس ببصرهم صوب شجر الطّلح المألوف وينتظرون إلى أن يحلّ بهم الموت. أصدر أوامره بألاّ يُستعمل ما تبقّى من ماء إلاّ للشّراب. قال إنّهم لو اقتصدوا الماء وأحسنوا التصرّف في الكمّية المتبقية فسيتمكّنون من العيش ثلاثة أيّام إضافية، أو ربّما أربعة. يأمر بالاستفادة من ضوء القمر والسّير كامل اللّيل. هدّد بترك كلّ من يحتجّ على قراره بدون قطرة واحدة من الماء إلى الوراء. ليلَ نهارَ يشقّون طريقهم بصعوبة وسط السّهل. يعبرون أودية عميقة القاع، يغرقون في الرّمل القصِف فيصعدون بصعوبة إلى الضّفة الأخرى متشبّثين بعروق الأشجار المتداخلة ـ هكذا يتعلّمون كُره الأنهار التي لا ماء فيها. ما من شيء يسمو فوق كل هذه الرّتابة غير أشجار الباؤباب. تأخذ الشّمس في الهرير ابتداء من السّاعة التّاسعة صباحا. شُعيرات عشب المراعي السُّهبية تنغرس كالأشواك في أرجلهم وذباب تْسِي تْسِي يلسع في كلّ لحظة يقلّ فيها الانتباه مخترقا أسمك أنواع القماش. الأشواك يفوق عددها عدد

أوراق الأشجار. تتبخّر كلّ أنواع الرّطوبة وتجفّ الأفواه. في العاشرة تبدأ الشّمس في النّباح. يعدّون الخطى حتّى موعد تجفيف قادم للعرق على وجوههم. يحلّ التشاؤم مكان الأغاني التي دأبوا من قبل على الترنّم بها. صاروا غير قادرين على أن يبلّلوا شفاههم بألسنتهم. في الحادية عشرة تعضّ الشّمس. قبل أن يرفع برتن رأسه المتثاقل يشرع في مصارعة أفكار عصيّة ويتساءل عن الفائدة من كل هذه الأتعاب. مِلاطٌ ينكسر من سقف الحلق ويتساقط كُتلا على لسان متورّم. حلَّ الوقت حقّاً للاستراحة لكنّ الأشجار التي تعوّدت على البقاء حيّة بدون ماء لا توفّر غير ظلّ تجود به هياكل عظمية. تبدو القرية الموالية وكأنّها لا يقطنها غير صفير الرّياح. لم يبق من أشجار الباوْباب التي ضُربت أعناقها ـ ماذا فعل الذين هجروا المكان بالأغصان؟ ـ غير رؤوس ناتئة ومنتصبة بدون انتظام. قرية للموتى وتهامس الحمّالين يدلّ في واقع الأمر على أنّهم يعلمون أنّ المساء الذي يسبق يوم عودة الأرواح قد حلّ، تلك الأرواح التي تعلن الحداد كلّما انقضت سنة بدون أمطار وحزنا على الأنهار التي سكنها الجفاف. فجأة يتحرّك شيء من وراء منزل من الطّين ثقيل، يمرّ بسرعة، يطلق حشرجة ويعود فيمرّ سريعاً كديك مذعور، أحمر في لون الدّم وأبيض كالسّحابة لا تُمطر. يطير عرف الدّيك فوق الأرض المنفقعة. لا أحد يتحرّك باستثناء سبيكي الذي يصوّب بندقيّته بتؤدة ثمّ يطلق النّار. ليس في الدّيك من اللّحم ما يستحقّ الذّكر، لا أحد من بين الحمّالين يريد أن يأكل منه شيئاً. يتناول كلٌّ جرعة الماء التي من نصيبه ثمّ يواصلون سيرهم المترنّح. يعلم برتن جيّداً أن لا فائدة سوف تحصل لو عارضهم ووضع خشيتهم من القرية المهجورة موضع الشّك. كلّ الرؤوس مطأطَأَةٌ. فاصِل الدّيك جعلهم يفقدون كلّ أمل في أن يُبعثوا للحياة من جديد.

يظلّ برتن واقفاً، ينتظر إلى أن يلتحق به سبيكي. يتفرّس كلّ منهما

في الآخر طويلاً. ليس لهما ما يتحدّثان فيه. الأخطار التي تنتظرهما لاحقاً لا يمكن التّقليل منها ولو بكلمة واحدة. يتّفقان على استبدال تعابير وجهيهما المتجهّمين بابتسامة فيها بوادر تشجيع. يقول برتن لسبيكي: واضح أنّك تحبّ تعذيب نفسك. فيجيبه هذا الأخير: شيء نشترك فيه على الأقلّ.

* * *

سيدي مبارك بُمباي

يا إخوتي، يا أصدقائي، وسط بلاد الوَاجُوجُو كاد أجدادي الأوّلون أن يأخذوني إليهم. فكّروا طويلاً، وبينما كانوا يفكّرون تصلّب لديّ اللّسان، سقف الحلق واللّثة، صرت لا أشعر أنّ لي لسانا، تمزّق اللّحم في فمي وانفلق، لكنّ الجروح لم يخرج منها دمٌ، حاولتُ أن أعضّ على شفتيّ لأحسّ على الأقلّ بتحلّل دمي وبطعمه الخفيف، لكن شفتيّ لم تدميا، لعلّني لم أعضّ بالقوّة الكافية أو لعلّ دمي تبخّر كلّيا. قلتُ في نفسي: هكذا يصل عمري الثّالث بدوره إلى نهايته، لقد سُلبت عمري الأوّل، أُعيد إليّ في نهاية عمري الثّاني شيء من الحياة والآن أنا مهدّد من جديد بأن يؤخذ منّي كلّ شيء في قلب بلاد الوَاجُوجُو. نقول هنا إنّ القنوط رجُل، ونقول أيضاً: الأمل هو امرأة ولعلّه أيضاً مْغانْغَا. مثل ذلك المْغانْغَا الذي سبق أن استعنّا به فتنبّأ لنا بأشياء أخرى مختلفة خلال رحلتنا. قلت في نفسي: المغانغا لم يخطئ بالضرورة، سينكمش اللّسان ويقصُر ورغم هذا سيكتب لي الخروج من هذه الصّحراء. ونجونا فعلا عندما لحق بنا منقذونا المنتمون إلى قافلة أخرى كانت تعرف تماماً أين يمكننا الحصول على الماء على بعد أقلّ من مسافة يوم من السّير. لم تكن تلك القافلة قافلة عادية، كانت قافلة العُماني خلفان بن خَميس، وإن أنتم لم تسمعوا بعدُ بهذا

الرّجل فاعلموا أنّه كان الهول والرّعب في آن ولا شيء غير هذا، رغم أنّه أنقذنا في صحراء الوَاجُوجُو، بعد يومين وليلتين بدون قطرة واحدة من الماء. عندما تسمعون اليوم اسم هذا الرّجل تفكّرون طبعاً في التّجارة والثروة، أمّا من كان آنذاك على سفر فقد ارتعد لسماع هذا الاسم. كان هذا الرّجل حليف الصّاعقة، كان فرعونَ قافلته. بعد أن عشنا أعماله الوحشية برفقة عبيده همس إلينا هؤلاء أنّ قلبه لم يكن في جسمه وإنّما كان ملفوفاً في مناديل سميكة ومخبّأً في صندوق مع أمواله ولا يُخرجه من هناك إلاّ في اللّيل بعد آخر صلاة ـ كان يحضر هذه الصّلاة وكلّ الصّلوات الأخرى دون أن يشارك فيها ـ، إذ، عندما يكون وحيداً في خيمته، يبسط المناديل ويتأمّل قلبه لأنّ الإنسان ـ هذا ما أسرّ به إلينا عبيده بعد أن تناظروا مراراً وفي نظرتهم ازدراء واضح ـ، حتّى وإن كان بلا رحمة يكون من حين لآخر في حاجة للتّأكّد من أنّه ما زال له قلب.

رافقْنا قافلة العُماني خلفان بن خَميس بضعة أيّام، كان علينا أن نسير في نسق قافلته لأنّ مصيرنا صار مرتبطاً به. حرّم الاستراحة ولم يسمح باسترجاع النّفَس، سرنا في سرعة الجواميس عندما يتملّكها الفزع أو الأسود وهي تطارد فريستها، لم يكن سيرنا سير بشرٍ أكتافهم هزيلة وأرجلهم في نحافة فروع الحسك. كان يُجبر حمّاليه على السّير الحثيث بجميع الوسائل، كان لا يعوّل فقط على تأثير كلماته التي لا ترحم وهوتْ على مستمعيه كما يسقط الرّجم، استعمل كلّ ضروب المكائد الممكنة، قدّم لكلّ واحد قَدراً من الطّعام لا يكفي إلاّ لثلاثة أيّام وقال إن الحمّالين سوف لن يحصلوا على وجبة أخرى من الطّعام إلاّ بعد الوصول إلى نقطة على بُعد مسافة أسبوع من السّير. كان الجوع بالنّسبة إلى الحمّالين بمثابة المهماز، كانوا يرتدون أشرطة من الجلد وخِرقاً، منهوكي القوى يدفعهم الجوع إلى الأمام دفعا. لكنّ الإرادة، مهما قويت، لا تبلغ هدفاً إلاّ وكان

الجسم أوصلها إليه، لذلك هذّ الإعياء بعضا منهم فهووْا أرضاً. لم يساعدهم أحد على النّهوض، لا بل أُخذت عنهم الأعباء التي تمّ توزيعها على البقيّة وتُركوا على الطّريق، لا يهمّ إن تواجدوا على مقربة من قرية أو في منطقة تقاسموها مع الوحوش الضّارية. حاول بعضهم الهروب لكنّه أرسل زبانيته لملاحقتهم ثمّ معاقبتهم عقاباً دمويّاً. العُماني خلفان بن خميس، انتبهوا إلى هذا الاسم، إنه اسم معروف، لتتمكّنوا في يوم من الأيّام، أي عندما يُطلب منكم أن تذكروا أسماء الطّغاة الذي يحوّلون العالم إلى جحيم ويفتكّون من النّاس ما وهبهم الخالق، عندئذ اذكروا هذا الاسم ثمّ اذكروه ثانية، لأنّه لم يقدّم غير المشين من الأعمال. رغم كلّ هذا نحن مدينون له بحياتنا، لقد أنقذنا بمجرّد أنّه لحق بنا وقادنا إلى مكان وجدنا فيه ماءً. بعد أن استرجعنا قوانا انفصلنا عن قافلته. فحتّى بْوانا برتن، الذي غالباً ما يحلو له أن يترك انطباعا لدى الغير بأنّه الأخ الأصغر للشّيطان، قال لي إنّنا علينا أن نحتاط من رجال لا نعلم إن هم حقّاً لهم أمّهات. بْوانا برتن نفسه تحدّث في بعض الأحيان وكأن ليست له أمّ، لكنّ ذلك كان مجرّد كلام لأنّ أفعاله كانت مناقضة لكلماته، كان في الواقع أكثر مرونة وليناً، عطفاً وحناناً من الشّخص الذي حاول أن يتقمّص دوره ويظهر بمظهره.

- في الأيّام الأخيرة جاء بعض الوَاجُوجُو إلى زنجبار ويقال إنّهم يتسبّبون دوماً في مشاكل.

- هكذا هم الوَاجُوجُو. أو هكذا وُصفوا لنا قبل أن نعرفهم. نعم، لقد تمّ تحذيرنا منهم بما فيه الكفاية. لقد تبيّن أنّهم كذّابون حقراء ولصوص أشرار، هؤلاء الوَاجُوجُو أصيلو الغابات التي لا أشجار فيها، هؤلاء الوَاجُوجُو الذين سمعوا الكثير عنّا كما سمعنا الكثير عنهم واستقبلونا

بأسئلتهم التي دلّت على فضول كبير ولم يقدّموا لنا قليلاً من حليب الماعز إلاّ بعد أن نفدت أسئلتهم. سألوني: هل صحيح أنّ هؤلاء البيض ليس لهم غير عين واحدة لكن أربع أيدي؟ أجبتُ: لا، ليس صحيحاً. سألوا: هل صحيح أنّ هؤلاء البيض يعرفون كلّ شيء؟ قلتُ: لا، فحتّى السّحر لا يعرفونه. سألوا: هل صحيح أنّهم كلّما تنقّلوا عبر البلاد إلاّ وهطل أمامهم المطر بينما بقي الجدب والقحط وراءهم؟ قلتُ: لا، هم أيضاً مجبورون على عبور مناطق جدباء. سألوا: هل صحيح أنّ هؤلاء البيض يتسبّبون في مرض البُقع الجلدية لأنّهم يطبخون البطّيخ الأحمر ويرمون بحبوبه جانبا؟ أجبت: لا، هذه خرافات تأتي بها النّساء الحبالى. هل صحيح أنّهم يتسبّبون في الطّاعون البقري لأنّهم يطبخون اللّبن ثمّ يتركونه ييْبس؟ أجبتُ: هذا أيضاً لا أساس له من الصّحة. سألوا: هل صحيح أنّ هؤلاء البيض بشَعرهم المسترسل هم أسياد الماء الكبير؟ قلتُ: لا، إنّهم يسافرون في البحر على متن زوارق قد يتّسع الواحد منها لقريتكم بأكملها، لكن عندما تأتي العاصفة هم أيضاً قد يموتون غرقا مثلي ومثلكم. سألوا: هل صحيح أنّهم جاؤوا لنهب بلادنا؟ هراء، كلام فارغ حقّا! هكذا كان يقول بْوانا برتن كلّ مرّة يمتعض فيها من كلام شخص آخر. كان يقول أيضاً: هؤلاء المتوحّشون كلّما امتلكوا الشّيء القليل إلاّ وزاد خوفهم من أنّ هناك من ينوي تجريدهم منه. هم يذكّرونني بالرّجال هزيلي الجسم في الصّومال الذين كانوا شيئاً فشيئاً يموتون جوعاً أمام أعيننا لكنّهم كان لهم ما يكفي من القوّة ليتّهمونا بأعلى صوتهم بالتجسّس على ثروات بلادهم. أيّة ثروات كانوا يقصدون؟ لا أدري لماذا كان بْوانا برتن يستشيط غيظاً كلّما تعرّض إلى هذا الموضوع. صاح مرّة في وجهي قائلاً، وكأنّني كنت سبب كلّ ما تملّكه من ارتياب: ألا تقدّرون حجم التّضحية التي قد نجبر على تقديمها لو قرّرنا الاستقرار في بلادكم؟ هل تفقهون ما سيجلب لكم كلّ

هذا من منافع؟ قلتُ له: إنّها ليست بلادي، ولهذا أنا غير قادر على معرفة مدى تخوّفات هؤلاء النّاس أو إيجاد تفسير لها. لكن، يا إخوتي، بعد كلّ ما شاهدت اليوم، بدأتُ أشكّ أكثر في كلمات بْوانا برتن التي فضحتْها الأعلام والرّايات التي تمّ رفعها اليوم من طرف الوازُونغُو هنا. صنيعهم هذا، وكلّ ما أعرفه عن الوازُونغُو، يبيّن بلا شكّ أنّهم غير مستعدّين للتّضحية من أجلنا.

ـ لكنّهم جاؤوا، ويبدو أيضاً أنّهم ينوون البقاء هنا.

ـ يبقى السّؤال: هل سيفتكّون من الفقراء الشّيء القليل الذي بحوزتهم أم هل إنّ الفقراء ليسوا في الواقع فقراء كما يبدون؟

ـ الاحتمال الأخير هو الأرجح، بابا آدم، الاحتمال الأخير، هذا ما لا شكّ فيه. لا بدّ أنّ بْوانا برتن كانت له دوافعه لمّا قال لي عديد المرّات: يمكن لهذه البلاد أن تصير غنيّة، أن تصير غنيّة إلى حدّ كبير. لكنّي فكّرتُ فقط في غنًى مثل غنَى بُمباي وغنى زنجبار ثمّ شخصتُ بعينيّ إلى أسفل أنظر إلى فتيتٍ من التّراب تشقّق عن الأرض ولم أُعر ما قاله اهتماماً كبيراً. كنتُ مخطئاً في تقديري.

* * *

بعد أن جابوا البراري، غابات المناطق الاستوائية، الصّحاري والأراضي البلقع، تبدو لهم كَازِيهْ، كَازِيهْ الصّغيرة، المغبرّة والجافّة، وكأنّها واحة، وكأنّها مدينة عظمى. بعد ألف ميلٍ ومائة وأربعة وثلاثين يوماً من انطلاقهم. يدخلون المدينة مرفوعي الرّؤوس وكأنّهم لم يتعرّضوا في طريقهم إلى إهانة واحدة أو تجريح واحد. كان البلوشيون أخرجوا منذ الصّباح الباكر من مخاليهم اللّباس الأنيق الخاصّ بمثل هذه المناسبات الاحتفالية، لبسوه ليظهروا في مظهر مختلف تماماً وليقودوا قافلة تعرضُ

نفسها بكلّ فخر أمام أعين سكّان القرية المجتمعين، تتقدّمها الرّايات وتدفعها إلى الأمام، يرافقها دويّ الأبواق والمزامير وبنادق الفتيلة التي تتتالى طلقاتها المحيّية حدّ الصّمم. أمّا الأهالي الذين يصطفّون كبيرهم وصغيرهم على جانبي الطّريق فيُرجعون بالمثْل ويجيبون على الصّخب دون أن ينسوا صيحة أو نداءً أو تصفيرة واحدة. القرية كلّها تحيّيهم، ورغم هذا لا يتعرّف برتن في أوّل الأمر على من يستقبلهم استقبالاً رسميّاً. يشاهد بعد ذلك ثلاثة من العرب يرتدون لباسا أبيضَ فضفاضا.

يتقدّم الرّجال ويرحّبون ببرتن بأحرّ ما يكون عليه التّرحيب في لغتهم. لا بدّ أنّ العُماني خلفان بن خمِيس كان سبقهم إلى كَازِيهْ ومدّ العرب بما يكفي من المعلومات حول هذا الرّجل الغريب الذي يحذق العربية ويتكلّمها بطلاقة، لا بدّ أنّه أخبرهم بما فيه الكفاية. يسعدون بهذه الفرصة النّادرة ويستعملون كلّ العبارات المنمّقة التي تفرضها آداب التحيّة. يطلبون منه، لو تفضّل بالقبول، أن يتبعهم فيلحظ برتن أنهم ـ نظراً لتصميمهم وإذعانهم في صمت ـ قد بتّوا بعدُ في قضيّة من سيحصل له شرف ضيافته. يمسك برتن عن الكلام. لقد نسي شيئاً. يلتفت إلى الوراء ويرى سبيكي على بعد عشر خطوات منه بوجه كلّه برودة وبأسارير غلب عليها الجمود. يسرع إليه ويعتذر، يشرح: عليّ أن أنال رضاهم، سنحتاج إليهم كثيراً. ردّ سبيكي مبديا تفهّما مصطنعا: بما أنّ الأمر على هذه الأهمّية فاذهب ولا تشغل بالك. سأعود إلى المخيّم لأتحقّق من أنّ كلّ شيء على ما يرام.

أراهُ العرب المكان الفسيح الذي يمكن للقوافل أن تخيّم فيه ثمّ أعلموه بأنّه سيتمّ إيواؤه في منزل شاغر لتاجر عاد ليستقرّ في زنجبار. في الأثناء اعتذروا له في لباقة عن المسافة التي وجب عليه سيرها معهم على الأقدام لكنّ برتن أكّد أنّه لا يرى إرهاقا كبيراً بالنّسبة إليه. يدخلون منزلاً بسقف

متقدّم فيلاحظ أنّ ملاط الجدران حديث العهد وأنّ الأرضية تمّ كنسها قبل وصولهم بقليل. يتمّ تقديمه إلى الخدم ثمّ يترك العرب له المنزل قائلين إنّهم سيأتون لاحقاً لأخذه بعد أن يكون اغتسل وأخذ قسطاً من الرّاحة. ودّعهم برتن مغدقا عليهم عبارات الشّكر. دعوْه فيما بعد لتناول وجبة حقيقيّة يسكّن بها جوعه وليشبعوا هم فضولهم بما قد يقصّ عليهم من أخبار رحلته. كانت دعوة مفتوحة له ولغيره لكنّ برتن لاحظ لسبيكي الذي التحق به في الأثناء ونزل بالغرفة الثّانية في منزل التّاجر أنّه من الأفضل أن يتردّد لوحده على العرب لأنّ اختلاطهم بشخص يتكلّم لغتهم، يعرف ويحترم تقاليدهم وعاداتهم، من شأنه أن يُدخل عليهم الارتياح ويجعلهم أكثر انفتاحا. طبعاً، يا دِكْ، قد لا يشكّل وجودي إلاّ عائقا أمامك. هذا ما قاله سبيكي بينما لم يتغيّر شيء في نبرته.

سيبقى ما تناول من طعام محفوراً في ذاكرته إلى الأبد. ماعز محشوّ، أرزّ طريّ بلحم الدّيك الرّومي محضّر في مرق متبّل أفضل تتبيل، قطع صغيرة من لحم الدّجاج مع المَنيهُوت تمّ طبخه في بخار كريمة الفول السّوداني، عُجّة بيض بالزّبيب ذابت فوقها زبدة مصفّاة. سوف لن ينسى هذا الطّعام أيضاً لأنّه يسمع لأوّل مرّة، ومن مصدر موثوق به، أنّه لا توجد بحيرة كبيرة واحدة فحسب بل اثنتان، الأولى مباشرة في اتّجاه الشّرق والأخرى مباشرة في جهة الشّمال. لكنّ مضيّفيه، عرب كَازِيهْ المجتمعين حوله، يجهلون هل إنّ النّيل ينبع من إحدى هاتين البحيرتين، أي من تلك الموجودة شمالاً. يعدونه بجمع معلومات إضافية وبمساعدته قدر الإمكان، لكن عليه في الأثناء أن يؤدّي زيارة مجاملة إلى الملك ـ الملك سعيدي فُونْديكيرًا الذي يحكم انطلاقاً من مقرّ إقامته غير بعيد عن إيتيتيمِيَا. يدعُونه بعد الأكل للصّلاة ـ يحسبون أنّ كلّ من تكلّم عربية ممتازة لا بد أن يكون مسلما ـ ويخيب ظنّهم لمّا يردّ برتن الدعوة. يجب

عليه أن يرفض من أجل سعيد بن سالم والبلوشيين الذين واظبوا على أداء فريضة الصّلاة باكراً كلّ صباح وقد لا يفهمون تصرّفه لو رأوه يستعيد فجأة هيبته وورَعَه في حضرة أناس من وسط أرستقراطي، تلك الهيبة وذلك الورع اللذين لم يبدُ منهما شيء عليه طول الرّحلة. يا للخسارة، إنّه يحسّ حقّاً برغبة كبيرة في قول الذّكر مع أناس كلّهم خشوع.

ينطلقون في الصّباح الموالي ليقدّموا للملك ما هم مدينون له به من احترام وتقدير. يصلون إلى مقرّ إقامته فيجدونه ممدّداً في ظلّ الشجرة المَلَكية، يرون جسماً مترهّلاً إلى أبعد الحدود وقائداً يمقُت الحركة. يتمّ قرع طبليْن عظيمين احتفاء بقدوم الضّيف، طبليْ الملك اللّذيْن لا يدقّهما إلاّ من توفّرت لديه الخبرة الكافية ـ يلاحظ برتن من أوّل وهلة وبشيء من الارتياح أنّ العرب متعوّدون على المكان وعلى كلّ ما يجري. الملك سَعيدِي ـ في أوروبا قد يُلقّب بدون صعوبة فوُنديكيرَا الأوّل ـ لا ينظر إليه بتاتا، كما لا ينظر في عيني أيّ مخلوق على وجه البسيطة. يهمس رجل بشيء في أذنه، يصف له ربّما ما كان ليرى لو فتح عينيه وأدار رأسه. يتكفّل واحد من بين العرب يتقن لغة النّيَمْويزِي إلى حدّ كبير بتأمين مجرى الحديث الذي يدور مهذّبا وعلى قدر من التّكافؤ. يسكت الملك الذي أضعفت كاهله سنون عديدة من الترف والعيش الرّغد، يرفع رأسه ثمّ يطأطئه في تؤدة وحذر، لكنّ برتن لا يتمكّن من معرفة هل إنّ إيماءاته الرّأسية تحمل في طيّاتها رمزا مثقّلا بالمعاني أم إنّها مجرّد عادة سيّئة دأب عليها.

قال الرّجل العربي بجانب برتن: رجلاه صارتا غير قادرتين على تحمّل أمراضه المختلفة وبالتّالي على حمله، لهذا السبب هو مضطرّ للبقاء ممدوداً بينما يُوكل باتّخاذِ القرارات إلى المْغانْغَا الموجود تحت تصرّفه.

هو هذا الرّجل الشاب الذي يحاول أن يقنعه ويلحّ عليه بالقول. لا يُبدي الملك أدنى اهتمام بالهدايا التي قدّمها إليه برتن. يهمس الرّجل العربي في أذن برتن: من سوء حظّنا أن تصادف زيارتنا اليوم الموعد الذي سيبحث فيه المْغانْغا مجدّداً عن الحقيقة، الحقيقة التي تختبئ في مكان ما، ورغم أنّ هذا المْغانْغا عرّاف قدير فإنّه سيكون في حاجة إلى كامل اليوم لتقصّيها وسنضطرّ للبقاء هنا طوال الوقت لأنّه من اللّياقة وحسن الأدب ألاّ ينصرف الضّيوف وأن يحضروا عمليّة البحث هذه. وبما أنّنا موجودون هنا فإنّ المْغانْغَا سيقدّم شعوذته في شكل عرض يضفي عليه المزيد من الهيبة والوقار. لقد طوّر هذا المْغانْغَا خطّة ناجعة تمكّنه من المحافظة على مكانته: إنّه يتّهم من بين أقارب الملك كلّ الذين يلوم عليهم طموحهم أو عنادهم بتعاطي السّحر.

يصدُق الرّجل العربي في تنبّئه. بعد مرور وقت قصير لا يلبث أن يأخذ الضّيوف أيضاً أماكنهم على الأرض ليتحوّلوا إلى شهود على تلك الغمغمات المطوّلة التي يردّدها المْغانْغَا بسرعة وبطريقة آلية. بدون سبب ظاهر يُؤتى إلى المْغانْغَا بديك مكتنز فيقطع عنقه في الحين بحركة متواصلة وكأنّه يقطف زهرة. يفتح بطن الدّيك ليبدي رأيه في الوضع الذي عليه ما بداخله. البُقع السّوداء أو البقع بصفة عامة حول الجناحين من شأنها أن تفضح خيانة قام بها الأبناء، هذا ما يهمس به إليه العربي الجالس بجانبه، عندما يُكتشف نفس الشّيء في مستوى العمود الفقري فإنّ هذا يكون بمثابة حُكم على الأمّ أو الجدّة. بعكس هذا يدلّ العجُز على ذنْب تكون اقترفته الزّوجة، الفخذان يفضحان الحظايا والسّاقان بعضاً من العبيد الآخرين. . تتواصل الغمغمة بينما يتمّ تقطيع الدّيك، لا وجود لبقع في اللّحم، وبعد صمت عميق لا يُرى غير ظلّ على وجه المْغانْغَا. ينتصب واقفاً وينطلق صوته من داخله في تدفّق القيح من ورم تمّ وخزه. يقول هذا الصّوت

الذي يزيده الحنق حشرجة إنّ غيوما دكناء تحجب عنه الرّؤية، غيوم دكناء وكثيفة، وسوف لن يتمكّن من الرّؤية بوضوح إلاّ بعد أن يكون الرّجال البيض قد غادروا المنطقة وواصلوا رحلتهم. يقول برتن في نفسه: يا له من كلب ماكر، إنّه يستغلّ حضورنا لحياكة دسائسه. لا يُفصِح لأقرباء الملك بنتيجة بحثه، إن صحّ استعمال هذه العبارة في هذا الموضع، ثمّ يضغط على الأجانب لكي لا يُطيلوا الإقامة في كَازِيهْ. تصدر عن الملك إيماءة رأسية طفيفة عندما يودّعونه. هذه النهاية المفاجئة لها أيضاً جانبها الإيجابي: سوف لن يكونوا مجبورين على قضاء كامل اليوم في ظلّ أعظم شجرة من أشجار المملكة. هذا المْغانْغَا لا يجب الاستخفاف به، إنّه يعرف كيف يستخدم نفوذه. يقول أحد الرّجال العرب: هو ليس بالمرتشي ـ هذا هو الشيء الإيجابي الوحيد الذي أستطيع أن أقول عنه ـ ويعيش معتزلا في كوخ خاص به. فهم برتن أنّه يحذق فنّ الترويج لنفسه وكثيرون هم الذين تبهرهم هالته. في سوق لِيدِنْهَالْ في لندن قد يسمّون شخصاً كهذا وصولياً، إنّه أملس كالفولاذ وربّما أخبث من صاحب محلّ بغاء. لا أحد يستطيع إقناعه بأنّ هذا الوغد يثق في الكلام الفارغ الذي ينشره بكثير من التّزمير والتّطبيل.

* * *

سيدي مبارك بُمباي

في كَازِيهْ، المكان الذي تمكنّا فيه من استرجاع قوانا بعد أهوال الرّحلة ومشاقّها، حدث شيء في غاية الرّوعة، شيء أفعم قلبي إلى حدّ أنّ سعادتي بدت وضّاءة في عينيّ، ارتسمت على شفتيّ وأشعّت فوق بشرتي. التقيت رجلاً استطاع أن يشاركني ما لم يشاركني أحد غيره منذ سنوات عديدة، رجلاً توجّه إليّ بالكلام، رجلاً لم يكن أصيل كَازِيهْ ولا من

النَيَمْويزِي، وكما تعلمون، الغرباء يبحثون دائماً عن غرباء مثلهم، رجلاً كانت انتهت به رحلته إلى ذلك المكان بعد أن جاءت به مسالكُ عجيبة، تماماً مثلما قادني السّفر إلى هناك، رجلاً تكلّم لغتي، أتقن لغة طفولتي وعمري الأوّل لكنّه، مثلي تماماً، لم يستعملها منذ الصّغر. جلسنا تحت شجرة طلح ظليلة ونحن مشتاقان إلى بعضنا وكأننا عاشقان ثمّ بدأنا نتجاذب أطراف الحديث. كان حديثنا في بادئ الأمر متريّثا وحذرا، تعرّفنا، بما أوتينا من لسان، على كل كلمة بمفردها وتفحّصناها قبل أن ننطق بها، تحسّسناها، كما لو تحسّسنا هديّة تسلّمناها للتّو، وفتّشنا داخل رؤوسنا عن كلمات منسيّة وكأنّنا نبحث داخل صندوق لم يتمّ فتحه أبداً منذ أيّام الطّفولة. تركنا الشمس تمرّ فوق رؤوسنا بينما قضّينا كلّ الوقت في الكلام، بينما حوّلَنا الحديثُ إلى أطفال، إلى حدّ أنّنا بدأنا نتكلّم بسرعة وفي انفعال وكأنّنا كنّا جالسين على حافة بحيرتنا، هناك في بلادنا، نتهكّم على التماسيح وهي تتلوّى فوق كُوَم الرّمال تحت الماء. صار هذا الرّجل صديقي وخُيّل إليّ أنّنا ولدنا في يوم واحد واعتبرتُ كلّ حديث من أحاديثنا درّة أودعتُها علبةَ مجوهراتٍ زاد وزنها شيئاً فشيئاً إلى أن فاضت لمّا حان الوقت وكان لزاما علينا مغادرة كَازِيهْ. غير أنّ فضل هذه الأخوّة التي نشأت بيننا لم يتمثّل فقط في انتعاش لغتي الأصلية وتفتّقها، لا أبداً، بل أيضاً في كون هذا الرّجل كان مقرّباً من أكبر مْغانْغا نفوذا في البلاد ثم أنّه قدّمني إليه. لقد تحدّثَ عنه بأسمى العبارات وشكره كثيراً فظننتُ أنه رجل مسنّ تظهر خبرته برّاقة في لون الفضّة على حاجبيه، رجل علّم أحفاده المشي ثمّ الكلام بعدُ، لكن تصوّروا المفاجأة لمّا وجدت نفسي أمام رجل فارع الطّول مستقيم في وقفته تماماً. أزاح الرّجل الجلد الذي غطّى وجهه فبدا هذا الوجه شابّا بعينين صافيتين كالينبوع. وجدتُ المْغانْغا في سنّي فساورني شكّ طفيف بخصوص كلّ ما وعدني به أخي الجديد.

دام شكّي حدّ انتهائنا من تبادل الكلمات الأولى، نسيتُ عمر المْغانْغا والنّظر إلى مظهره واستمعت إليه فقط. استمعت إلى صوت لا عمر له، إلى كلمات فيها من الرّصانة ما يحمل على الاعتقاد أنّه احتفظ بها عبر الدّهور وجاء بها من عوالم أخرى. أحسّ برغبتي في تعلّم كل تلك الأشياء التي لم أسمع عنها حتى تلك السّاعة. لقد قال لي بعد ذلك، لمّا حلّت لحظة الوداع، إنّ التلاميذ الكبار هم أولئك الذين ينتزعون المعرفة من المعلّم انتزاعا، أمّا التلاميذ الصّغار فإنّهم، بدورهم، ينتظرون من المعلّم أن يهرّب المعرفة إلى داخلهم خلسة، كما باستطاعة المرء أن يأخذ شيئاً بالقوّة لكنّ هذه القوّة لا تساعده أبداً كلّما أراد أن يعطي شيئاً. هكذا قادني طوال تلك الأيّام التي بقيت لنا في كَازِيهْ عبر حقول من المعرفة لم أدخلها من قبل أبداً، أدخلني حقولا نبتت فيها أعشاب، أعني نباتات حقيقية، نباتات عديدة ومختلفة كانت تصلح للعديد من الأغراض المفيدة. كانت تلك المعرفة وذلك الإلمام بخصائص الأعشاب رحمةً لأنّ هذه الأخيرة تساعد أثناء الولادة، تقضي على أوجاع الرّأس وتكفكف الدّماء المتدفّقة من الجروح لكنّها أيضاً خطيرة بحكم أنّ لها القدرة على التّسميم، على تسميم أكثر من شخص.

ـ المْغانْغا كان إذن صديقك.

ـ كانت له علاقة وطيدة بحياتي. كان كلّ يوم، رغم مشاغله العديدة، يقضّي معي ومع أخي الجديد بعضا من وقته، كنّا أحياناً نتجاذب أطراف الحديث فحسب وأحياناً أخرى لا نتفطّن بالمرّة إلى أنّنا استوعبنا حكمته بعدُ، حكمته التي كانت بمثابة السكّر في القهوة، عذبة ولطيفة، كذلك لم ألاحظ إلاّ فيما بعد كيف أنّ كلماته اندسّت حقّاً في ذاكرتي وصارت لها قيمة حقيقية.

ـ أيّةَ حكمة تعني، بابا سيدي؟ الحكمة أيضاً لها تفاصيلها وجزئيّاتها.

ـ لقّن المْغانْغا هذا الرّجل الفظّ الذي أمامكم معاني الأدب والاحترام.

ـ أه، مَامَا، أمّ حميد، جميل أنك لم تنسينا.

ـ علّمه احترام النّساء وتبجيلهنّ. لأنّ صديقكم هذا كان قبل ذلك شخصاً لا يؤمن إلاّ بالرّجولة.

ـ معها حقّ. لقد انتُزعت من أمّي وأنا صغير فامّحت ذكراها لديّ، كذلك لم يكن في منزل البَانِيان نساء، أمّا في زنجبار فسكنتُ مع بعض الإخوة في بيت صغير. قضّيت حقّاً عمرا كاملاً ونصف العمر بدون نساء.

ـ شعرتُ وقتها أنّي مدينة للمْغانْغا، نعم، قد لا تتصوّرون كم كنتُ مدينة له.

ـ كان كلامه جميلاً إلى درجة أنّي حفظتُ كل ما قال ولم أنس شيئاً من كلماته فيما بعد، كان الأمر وكأنّ دماغي دوّن كلّ شيء. لم يقل أبداً بوضوح ما كان يقصد. لقد زيّن كلامه بزخارف لم تؤدِّ معناها إلاّ بعد شيء من التأمّل. كان يقول: حالما تصلُ منطقةً تكون فيها غريباً فإنّك تشعر بالجوع، وعندما تلتقي امرأة لا تعرفك فإنّك تطلب منها طعاماً. تُحيّيها ثمّ تقول لها مثلاً: الطريقة التي تلد بها النّساء أبناءهنّ هي واحدة في جميع أصقاع الدّنيا، نفس الأوجاع ونفس السّعادة. هذا هو مقياس ما يتطلّب الموقف من آداب. هكذا كان يتكلّم دون أن ينسى أن يصمت قليلاً، في موضع ما من حكْمته، أين تكون نقطة تركيزه.

ـ أنا أيضاً كنت أستمع إليه، كنت أجلس على بعد بضع خطوات وراء الرّجال، كنت أنظر إلى أسفل لكنّي كنت أسمع باهتمام أكبر، أمّا الشيء الذي سمعته فقد جرّبته للتو على هذا الشّخص الغريب الذي صار زوجي في الأثناء، وهكذا، رويداً رويداً، وجدتُ حلاً وعرفت كيف أتصرف معه.

ـ ثمّ واصل المْغانْغا: هذا أفضل من أن تقول: إنّي جائع. سوف تقدّم لك المرأة طعاماً لأنّك ذكّرتها بأبنائها وبالحبّ الذي تكنّه لهم. سوف تعوّض أمّك وتناديك «يا بنيّ» ثمّ ستبدأ في الحين بتحضير ما لديها من طعام.

ـ وهذا الشّخص الذي ترون أمامكم وهو يمتحن اللّغة ويحاول أن يحدّد مدى صبرها، فاجأني على صغر سنّي وعدم خبرتي مفاجأة كبيرة لمّا عمل بهذه النصيحة وبنصائح المْغانْغا الأخرى. لقد اكتشفني في الأيّام التي قضّيناها في كَازِيهْ، اكتشفني بعينين فيهما نوع جديد من الاحترام وعاملني بحركات فيها أدب من طراز غير معهود. فشكراً للأجداد الأوائل.

ـ شكراً لله.

ـ ولأمّ ذلك المْغانْغا، لأنّها خلقت في الرّغبة و، ربّما، أحيتني من جديد، أعطتني الحشائش والأعشاب التي حالت دون نشوء حياة جديدة في بطني. أمّا هذا المغترّ بنفسه الذي يجلس بينكم هناك في الأسفل فلم أسمح له بما كان يودّ فعله، لم أحترز فقط إزاء كونه كان غريباً بالنّسبة إليّ، بل خشيت أيضاً من أن أحمل منه أثناء الرّحلة لأنّي كنت واثقة من أنّي قد لا ألدُ غير طفل ميت في تلك القافلة.

ـ حاشى الله!

ـ لكنّ الأمور تحسّنت. طبختُ الحشائش وشربت عصارتها ثمّ، بعد أن وعدني مرّة أخرى بالعمل بقانون آدابه الجديدة، سمحتُ له بأن يقتسم معي الفراش. وابننا الأكبر حميد لم يولد إلاّ بعد أن صار لنا منزل قارّ هنا في زنجبار.

ـ يا أمّ حميد، إنّ زوجتي تسلّم عليك، تقول إنّ الأوجاع في المفاصل عاودتها وتطلبُ منك أن تزوريها.

ـ سأذهب إليها حالاً، بَابَا إسماعيل، قبل أن يداهمني موعد إعداد طعام العشاء.

ـ أحسنتَ. لقد أفلحتَ في تنفيذ ما ارتأيتَ، يا صديقي.

ـ إنّها الحقيقة.

ـ طبعاً، لكنّ هذه الحقيقة جاءت مواتية.

ـ هذا المْغانْغا يؤثّر في رغم المسافة البعيدة التي تفصل بيننا.

ـ لقد أعاد إليّ الإيمان، يا إخوتي، كشف لي هذا الرّجل عن إيمان نفذ إلى أعماق أعماقي أكثر من أيّ شيء آخر خبرتُه قبل أن أعرفه. أدركت بواسطته ما كان حقّاً يعوزني. تجوّلت عبر مسالك الحياة وأنا ما زلت في طور عدم الاكتمال، شعرت بالحزن وكأنني أضعت شيئاً عزيزاً على قلبي دون أن أتمكّن من تحديد طبيعة ما ظننت افتقاده كلّ يوم. في إحدى الأمسيات كان علينا أن نقسّم الأكل فطلب منّي أن أخصّ كل مشارك في العشاء بورقة من شجر الموز أضعها في مكانه على الحصيرة. قلتُ: نحن اثنان فقط، فأجاب: دعوتُ والدي أيضاً، ووالد والدي. سكتُّ في أوّل الأمر لأنّي كنت أعلم أنّ الاثنين ليسا على قيد الحياة ثمّ سألتُ بحذر: هل سنقدّم قرباناً للأجداد الأوائل؟ لكنّ المْغانْغا أجاب: سيتناولان الطّعام معنا. جلس كلّ منّا في مكانه وبجانبه ورقة من شجر الموز لم يجلس وراءها أحد. قدّمني المْغانْغا إلى أبيه وجدّه ثمّ سألني: وأنت، ألا تعرف أحداً تودّ دعوته؟ فلم أقدر إلاّ على الصّمت.

ـ الّذي لا أفهمه، بابا سيدي، هو أنّك تتحدّث عن الإيمان دون أن تذكر الصّلاة. ما هو موقف هذه الدّيانة الأخرى من الصّلاة؟

ـ ليست فيها صلاة في شكل فريضة كما تعرفها أنت.

ـ وهل هذا ممكن؟

ـ كلّما اعتبرنا الصّلاة استثناءً إلاّ وطبّقناها، بصفتها فريضة، مثل تطبيق القانون، وعندئذ نترك الحياة جانباً لتتفرّغ للصّلاة وحدها. أمّا إذا تبيّن أنّ كل نفَس من أنفاسك هو بمثابة صلاة، إذا أنت آثرت أن تُجلّ الله لأنّك موجود في الله، فإنّك لا تكون في حاجة إلى صلاة أخرى. بالعكس: تلك هي أجمل الصّلوات وأسماها إطلاقاً. في المسجد لا تعدو أن تكون صلاتنا أكثر من إفصاح عن نوايانا، عن نوايانا الحسنة والبيّنة للجميع، إنّها تشبه المركب الذي تهيّئه للإبحار فوق اليابسة لكنّك تعلم أنّ الاختبار الحقيقي لا يكون إلاّ بعد الإبحار، عندما تتعرّض لأوّل زوبعة. من ذا الذي يريد عندئذ أن يعرف شيئاً عن الهيئة الجميلة التي كان عليها المركب وهو ما زال لم يغادر الشّاطئ؟ هل تظنّون أنّ الله يبدأ في مراجعة عدّ صلواتنا في لحظات إخفاقنا؟

ـ بابا سيدي مصيب في قوله. الحياة الحقّ هي أفضل الصّلوات.

* * *

لا يجد برتن تفسيراً لكون سناي بن عامر يساعده كل تلك المساعدة. هل يفعل هذا بإيعاز من السّلطان؟ أم لأنّه، هو برتن، منذ أن وصل إلى كَازِيهْ، لبس ثيابا عربية وبدا يتصرّف وكأنّه عربي، إلى حدّ أنّ بُمباي التقاه مرّة بين المنازل ومرّ أمامه دون أن يتعرّف عليه. لقد وقع المشهد في نفس الرّجل قصير القامة لمّا سمع اسمه وتعرّف على صوت بْوانا برتن الذي قال في اتّجاهه مداعبا: صار لي اسم آخر، نحن الآن قريبان، اسمي عبد الله الرّحمان بُمباي. هل كان تعامُله الطبيعي مع العرب كافياً لتفسير سبب وقوف سناي بن عامر إلى جانبه لمّا اختلف مع سعيد بن سالم والبلوشيين؟ إنّ موقف سناي بن عامر يساعده بدون شكّ على القضاء في المهد على جميع المطالبات بالزّيادة في الأجر أو المؤونة. لكن ما الذي يجعله يقضّي

معه وقتاً لا حصر له، ساعات تمرّ بسرعة يشرح له فيها مبادئ لهجة النَيَمْويزِي أو يحيطه علما بخصائص البحيرة الكبيرة التي يسمّيها الأهالي نيَانْزَا؟ عندما لا يستطيع برتن إرجاء هذا السّؤال مجدّداً ويتوجّه به إلى سناي بن عامر يضحك هذا الأخير ويتحدّث عن حسن ضيافة ومودّة متبادلة ثمّ يقول: لماذا تظنّ أنّنا نحن التّجار نخشى قدوم البريطانيين إلى هنا؟ العكس هو الصّحيح. تجارتنا ستكون أيسرَ. يسأل برتن: وماذا عن العبوديّة؟ لسنا متشبّثين بتجارة الرقّ. سنتاجر بالذّهب أو بالخشب، أو بالسكّر. من سيطردنا من هنا؟ انظر حواليك، هل تعتقد أنّ بني وطنك سيتدفّقون على مناطق مهجورة ومغبرّة كهذه ليعيشوا عيشة نرضى بها نحن وتجعلهم هم غير سعداء؟ لا، أبداً، إنّهم سيكتفون بالتّعامل معنا، سيكون الأمر أرفق وأمتع بالنّسبة إليهم ومُربحا بما فيه الكفاية. أو، هكذا يفكّر برتن مكان مخاطبه، ستغادرون البلاد وتتركونها للذين لم يتعوّدوا على غيرها من البلدان.

طابت له الإقامة في كَازِيهْ. يجلس أمام مكتب صغير وضعه العرب في غرفته. استراحة صغيرة تُدخل عليه الطّمأنينة. في نقطة الوصول قبل الأخيرة من الرّحلة، في هذا المكان الفتّان والمفاجئ. لا، ليس فتّانا بحقّ لكنه يتوفّر فيه ما يحتاجه المرء بما فيه الكفاية، وهذا طبعاً أفضل. الطّلبة البوذيون الذين عرفهم فيما مضى في الهند ـ وهنا يتذكّر حالة تناقض ذات بال ـ كان يسمح لهم، كلّما حقّقوا تقدّما في دراستهم، بالسّكن في حجرات ضيّقة، كانوا ينعمون بميزة مغادرة غرفهم الفرديّة وحشر أنفسهم مع زملاء آخرين داخل حُجيرات لها نصف المساحة. مضت ستّة أشهر على تواجده في الأدغال. صار لديه من الحكمة ما يجعله يقدّر مكاناً مثل كَازِيهْ حقّ قدره. لكن، رغم قنعه غير المعتاد هذا، ساورته شكوك عدّة في خصوص مغزى الرّحلة، شكوك قوّضت راحة باله. كيف لا، وهو الذي

كاد يهلَك، كاد يفقد مداركه العقليّة بينما خارت قواه وظلّ جسمه منهوكا في حدود تعاف ميئوس منه. ما الذي يجب أخذه بعين الاعتبار؟ أيّ نجاح من شأنه أن يعوّض على كلّ هذه التضحيات؟ لقد وصل إلى كَازِيهْ، إلى هذه القرية. قد يرى البوذيون في شكوكه تعبيراً صادقاً عن عُجب مستديم. هل لا يكفيه أن يقنع برقعة من الأرض منسيّة، صغيرة ومغبرّة؟ هو، الرّجل الذي ارتحل ليغزو العالم؟ حتّى ولو لآن. الواحات لا يبتهج المرء ببلوغها إلاّ بعد أن يكون قد جاب الصّحاري. الآن يعلم علم اليقين أنّ هناك بحيرتين ولعلّ النّيل ينبع من واحدة منهما. ربّما توجد أربع بحيرات؟ عدم الاكتراث الذي يحسّ به بداخله سوف لن يدوم طويلاً.

يجلس بعد ذلك لساعات أمام الطّاولة الصّغيرة ليجيب على الرّسائل التي سبقته إلى كَازِيهْ، رسائل رحّب بها لكونها تحمل في طيّاتها عالماً غبر مع ذبول الذّاكرة. رسالة محزنة من عائلته تحمل إليه خبرا مفزعا بخصوص أخيه. مكتوب من زنجبار يعلمه بموت القنصل البريطاني. رغم أنّ برتن كان انتظر هذا الموت إلاّ أنّ الخبر حزّ في قلبه. لم يعُد الرّجل المسكين إلى أيرلندا. عليه الآن أن يرسل إلى خَلَفه تقريراً مستفيضاً، آملا في أن يتقيّد بما وعد به سلَفه. هناك حالة موت أخرى رُفعت إلى علمه، هو موت الجنرال نَابِيِي. لقد وقف صهرُه ماكْ مُورْدُو عند فراش موته ولمّا سلّم الجنرال النّفس الأخير لوّح براية الكتيبة الثّانية والعشرين فوق المحتضر.

ماذا تفعل؟ يخيّل لبرتن، حسبما خرج السّؤال من فم سبيكي، أنّ هذا الأخير يريد أن يقول: ما الذي يمكن أن تكتبه من جديد؟ أدوّن بعض الخواطر، يا جاكْ، بعض الخواطر فقط، قبل أن تتبخّر. هلاّ تقرأ عليّ بعضا منها؟ ليس الآن. لكنّك تعلم أنّي مولع بالخواطر. اتّصلت برسالة،

من أختي. تقول إنّ أخي جُرح في رأسه، في سريلانكا. جرحه بليغ إلى درجة أنّه صار لا يستطيع التّعرف على أحد. الأطبّاء يقولون إنّ بإمكانه العيش لمدّة نصف قرن آخر لكن دون أن يستطيع التّعرف على نفسه أو على أيّ واحد منّا.

أنا آسف، يا دِكْ. أخوك إِدْوارْد، أليس كذلك؟ كان.. رجلاً لطيفاً، نعم.. أنا أخشى أن يكون لي نفس المصير. أنا لا يهمّني أن أُقتل في إفريقيا، إذا لزم الأمر، أمّا أن تذهب بي هذه الحمّى، أن تسجنني داخلها وتعذّبني دون أن تقتلني، فهذا تصوّر يفقدني صوابي.

تعال، لنخرج قليلاً. لنقم بفسحة. سنتصوّر أنّنا موجودان في دِيفُونْ.

* * *

سيدي مبارك بُمباي

ـ رحلتك، بابا سيدي، صرتُ أعرفها بعد كلّ الأمسيات التي قضّيناها معاً كما أعرف سفراتي. أمّا هذا المْزُونغُو، بْوانا برتن هذا، فكان اللّغز بالنّسبة إليّ منذ البداية وبقي لغزا إلى الآن.

ـ لأنّي أنا شخصيّاً لست قادراً على حلّ اللّغز، بابا إسماعيل، لا أستطيع أن أصف بْوانا برتن وصفاً متكاملاً لأنّه لم ينفتح لي أبداً كلّيا. كان دائماً يُخيّل إلي أنه موجود على الضفّة الأخرى ولا وجود لعبّارة تجعل تخطّي النّهر الفاصل بيننا ممكناً. أعتقد أنّه لم يكن رجلاً فظيعاً بالمرّة، الذي أخافني فيه أكثر كان الشّخص الذي ادّعى أنّه هو. أنا واثق من أنّه لم يقتل أبداً إنسانا في حياته لكنّه كان يحبّ أن يوهمنا أنّه قادر على القتل إذا اقتضت الحاجة. بْوانا برتن كانت تحرّكه جِنّ من نوع خاصّ لا يعرفها الآخرون، جِنّ لم يستطع تفسيرها لأحد، لا لي أنا ولا للحمّالين ولا للبلوشيين وللبَانِيان ولا حتّى لبْوانا سبيكي. تسهُل الحياة عندما تكون جنّك

معروفة لدى الآخرين. لهذا السّبب، حسب اعتقادي، لم يتمكّن إلاّ نادراً من الإحساس بيأس الآخرين وقنوطهم، كان مثل الفيل الطّاعن في السّن الذي ينزوى عن القطيع ويتعوّد بعدُ على الشّرب من حفرة الماء لوحده. كان بْوانا سبيكي مختلفاً، هو أيضاً كان منغلقا على نفسه، لكن كلّما بان منه شيء للعيان كنت أرى من هو وماذا كان يحسّ. كان أحياناً فظيعاً لكنّه كان أقرب إلى نفسي. عاملني أحياناً كما يُعامل الكلاب وأحياناً أخرى كما يعامل الصّديق.

ـ ألم يسبق لك أن قلتَ أن لا صداقة مع الوازُونغُو؟

ـ صحيح، سبق وأن قلتُ هذا. بْوانا سبيكي كان يشكّل استثناءً. قضّينا أشهراً عديدة معاً، كان يثق فيّ، وفي النّهاية لم يخبّئ عنّي شيئاً، حتّى أفكاره. شيء غريب حقّاً، إنّه لم ير عيباً في أن يشرح لي أنّ أناسا مثلي هم أقلّ قيمة من الوازُونغُو.

ـ أناس مثلك؟ من هم هؤلاء النّاس؟

ـ الأفارقة، هذا ما قاله. سألته إن كان يقصد سكّان زنجبار أو الوَاجُوجُو أو النّيَمْويزِي فأجاب: أنتم كلّكم. ولمّا سألته عن السّبب الذي يجعل من أناس كثيرين ومختلفين أقلّ قيمة منه ومن أمثاله أشار إلى الإنجيل، إلى الكتاب المقدّس بالنسبة إلى كلّ من يحمل الصّليب على صدره، وقصّ عليّ قصّة نوح التي نعرفها أيضاً، غير أنّ قصّتنا مختلفة كما سترون في الحين. كان لا يهمّه النّبي نوح وتنبيهاته وتحذيراته بقدر ما كان يهمّه أبناؤه، أبناؤه الثلاثة سام، حام ويافث. استمعوا إلى هذه العجائب لأنّه، حسب الآتي، يعود أصل جميع البشر إلى هؤلاء الأبناء الثلاثة. يُحكى أنّ نوحا كان ذات يوم ممدّداً في خيمته وهو سكران..

ـ النبيّ سكران؟

ـ بمفعول نبيذه الخاص، ويُقال إنّه لمّا كان نائماً تعرّى دون إرادته فتفطّن إليه حام، رأى عورة أبيه فذهب ليخبر أخويه بما رأى، عندئذ جاء الأخَوان وجرّا الغطاء على نوح وهما يصرفان النّظر عنه بحياء. لذلك قيل إنّ النّبي نوح لعن أبناء حام وذرّيتهم، ليصيروا عبيداً لإخوتهم الآخرين. قصّة غريبة قد لا تهمّنا كثيراً لو أنّ بْوانا سبيكي لم يدّعِ أنْ حام كان جدّنا الأوّل بل أوّل أجدادنا على الإطلاق ولذلك وجبت علينا طاعة البيض لأنّه هو والوازُونغُو الآخرون يرجع أصلهم إلى أحد الأخوين الآخرين، نسيت بالتّدقيق إلى أيّ منهما. أليس عجيباً أن يدّعي الوازُونغُو الذين لا تربطهم أيّة علاقة بأقرب الأجداد لديهم أنّهم على علم تماماً بمن هم أجدادنا نحن؟

ـ تمنّيتُ لو قلتَ له إنّ كلّ الذي جاء به لا أثر له في القرآن الكريم.

ـ سكتُّ. كان لديّ من الخبرة ما جعلني لا أجرؤ على مقارعة الكتب المقدّسة.

ـ رجاءً أن تشرح لي، بابا سيدي، كيف يعارض الوازُونغُو تجارة العبيد والحال أنّهم مقتنعون بأنّ قيمتنا كبشر هي أقلّ من قيمة غيرنا؟

ـ الوازُونغُو يعارضون تجارة العبيد؟

ـ بدون شكّ، خصوصاً بْوانا برتن، لقد رفض العبودية بكلام قويّ، نعم، كان يمقتها، ورغم كل هذا لم يقل شيئاً كلّما التحق عبيد بقافلتنا. عندما سألته وأردت أن أعرف كيف يكون ضدّ العبودية رغم أنّه ينعم بخدمة العبيد، شرح لي أنّه ليس هناك ما يكفي من الرّجال الأحرار الذين لهم رغبة في العمل، لهذا هو يدفع للعبيد أجرا ويعاملهم كما لو عامل رجالاً أحراراً.

ـ كان يظنّ أنّه يكفيه أن يعامِل العبيد معاملته للأحرار ليصبحوا بدورهم أحراراً.

ـ كذا الحال بالنسبة للصّدقات. إذا أغدق عليك موسر من ماله، هل يعني هذا أنّك ستصير غنيّا؟

ـ قال إنّه ليس بإمكانه منع سعيد بن سالم، البلوشيين والبَانِيان الاثنين من شراء العبيد. قال إنّه أبدى معارضته لهذا الصّنيع. أبدى معارضته! هل سمعتم يا أصدقائي؟ مَلِكُ القافلة يربّت بلطف على أكتاف الرّجال المؤتمرين بأوامره والتّابعين له ويطلب منهم بكلّ أدب ألاّ يبالغوا في الاتّجار بالعبيد، فيجيبه التّابعون له، لكن قوانيننا تسمح لنا بهذا، يجيبونه باستياء من ادّعى العِصمة، فيعود ملك القافلة أدراجه دون أن يتحقّق حتّى من صحّة ما ادّعوه وهو يحدّث نفسه: قمتُ بما أمكنني القيام به. يهدأ ضميره. أوضحتُ لهؤلاء المتوحّشين دون التباس رفضنا اللاّمشروط للعبودية.

ـ النّفاق في تزايد.

ـ ومستقبله سيكون أكثر إشراقاً من ذي قبل.

ـ قلتُ له: أنت لم تفهم. العبودية حالة يجب أن تضمحلّ كلّيا من العالم بأكمله. هذا لا يتعلّق فقط بمعاناة بعض النّاس الذين نشاهدهم اليوم في هذا المكان. الأمر له علاقة أيضاً بمعاناة الأهل الذين يتركهم هؤلاء النّاس وراءهم وبمعاناة ذرّيتهم. كيف يمكن تخليص الأرض من الألم والرّعب إذا فات الأوان وتسرّبا بعدُ إلى داخلها؟ من سينظّف البلاد منهما؟ من سيحميها من بذور العنف التي ستنبت في قلوب الذّرية، في قلوب الأحفاد وأبناء الأحفاد الذين من حقّهم أن تشرق عليهم شمس أخرى، مختلفة تماماً عن الشّمس التي كان رآها أجدادهم.

ـ وماذا قال بُوانا برتن؟

ـ قال: أنت تقول هذرا، المْغانْغا لعب برأسك! أجبته: قد يكون

المْغانْغا لعب برأسي، لكنّي أعلم أنّي ابتداءً من الآن أنظر في الاتّجاه الصّحيح.

* * *

يقف في الماء إلى مستوى الخاصرتين في الماء العكر، وكلّ مرّة يغطس فيها يده يلمس شيئاً لزقا. في الواقع ليست العمليّة مزعجة بقدر ما بدت غير مألوفة. الوحل في كل موضع يدوسونه بأقدامهم. عليهم - ولو بمشاعر غلب عليها الضّجر - أن يعبروا لجّا من السّواد يبتلع أرجلهم. يقف في الماء ويتساءل إن كانوا ارتكبوا خطأً: لمّا وقفوا عند النّهر العريض الذي انساب ماؤه بهدوء وتدبّروا المكان الذي يمكنهم منه عبوره. أو ربّما هناك، أين كان الماء عميقاً لكنّه سمح لهم بالعبور. بالتّأكيد ليس هنا، في هذا المكان الذي قد يتيهون فيه لوفرة نبات هذه الدّلتا الدّاخلية. الطبيعة بِكر تماماً. وكأنّ النّهر الذي يُجانبون في سيرهم يقودهم إلى زمن ما قبل الخطيئة الأولى، وكأنّهم يعودون إلى أوّل بدايات العالم، لمّا كان النّبات ينمو ويتكاثر على هواه وسيطرت أشجار عملاقة على كلّ شيء. علِموا أنّ النّهر الذي يسمّى مَالاَغَارَازِي يقود إلى البحيرة.

زوّدهم سناي بن عامر بمرشد، برجل شابّ نصفه عربي ونصفه الآخر نيَمْويزِي، وسارت الأمور في البداية وكأنّ الرّجل الذي وثق في نفسه ثقة عمياء سيقودهم على أحسن ما يرام، إلى أن تفطّنوا أنّه سلك بهم طوال الوقت طريقاً ملتوية كلّفتهم ثلاثة أيّام من المشي ليتمكّن هو من زيارة زوجته. لم يشأ فيما بعد فراقها وقدّم لهم ابن أخيه كمرشد جديد قادهم بدوره بكلّ ثبات وثقة بالنّفس إلى التّيه، لكن على حسن نيّة هذه المرّة. قرّر برتن أن يطرد هذا المسكين وأن تسير القافلة والنّهر الذي أوحى لهم وقتها بثقة أكبر: كان عريضاً، محاطاً بنخيل خشخش في الرّيح وبأشجار البُوراسُوس التي غرسها تجّار العبيد، هكذا قال سناي بن عامر، نخل

سامق ومثمر بجريد ملتفّ حول جذع مستقيم. كان منظراً خلاّباً ومريحاً أدخلت عليه طيور غير مبالية بما يجري حولها حركة دائبة، طيور طارت وأخرى سبحت فوق الماء وطيور فوق الفروع والأغصان. كم كان جميلاً منظر الحِداء وهي تطير في شكل دائري مكتمل كأنّه رسم بالبركار. مجموعات اللّقالق كوّنت مجالس أنس وكأنّها تحضُر حفلا في حديقة، كلّ المناقير موجّهة إلى أسفل وكلّ الرؤوس ملتفتة إلى اليسار؛ الطّيور صائدة السّمك التي ارتمت في الماء عمودياً وخرجت منه أيضاً في سرعة البرق وفي منقارها سمكة؛ القنابر التي رصدت فريستها من مكانها على الصّخور وسط النّهر بدت بلا حراك.

صياح قردة. غير بعيد. أصوات لا تبعث على الاطمئنان. يرفع سبيكي بصره وكأنّ بإمكان شعاع الضّوء الخفيف الذي وصله أن يخفّف من معاناته. يبدو أنّ عينيه أصابهما رمدٌ. ملتحمةُ العين بها التهاب والعينان منتفختان، العين اليسرى بالخصوص. لا يستطيع أن يغمضها كما يشاء. منذ أن صار لا يرى إلاّ القليل بدأ يفضّل البقاء على مقربة من برتن ويقبل في صمت بدوره في القيادة. أمسك به مراراً لمّا كانا في المستنقع، تشبّث بطرف منتفخ برز من قميصه، زلق لمّا زلق برتن ثمّ سقط أرضاً لمّا سقط هذا الأخير. قبل أيّام، لمّا غضب برتن من تصرف مرافقه الوقح، تمنّى لو يهلك في البرّية، لو يفقد ذلك التّحكم في النّفس ومعه أسلوبه المتعالي في التّعامل مع النّاس وأرستقراطيته. في القرية التي بقي فيها المرشد قرب زوجته اعترض سبيلهم رجل طاعن في السّن وأعمى، نبت جفناه في اتّجاه العين بينما لم يظهر من القرنية غير النّدوب، أمّا القزحيّة فقد غرقت وسط سبيخة محمرّة تماماً. حدّق برتن في داخل العينين المريضتين ولم يستطع إزاحة النّظر عنهما. شعر بالخجل لمّا ملّ التحديق فيهما وتراجع عن لعنته: لتُشفَ عينا سبيكي.

يشعر بالتّعب. لو حاول أن يستريح قليلاً لداهَمه النّوم دون انتظار. ينحني تحت شجرة صفصاف، يصعد فوق شجرة خشبها هشّ لا بدّ أنّها تداعت منذ وقت قصير. ينظر إلى الأمام. هذا النّهر ليس عريضاً. هذه الدّلتا الدّاخلية لا بدّ أن تصل في أيّة لحظة إلى نهايتها. على بعد أقلّ من خمسة أمتار يقفز قردوح ضخم وأسود فوق مجرى الماء وكأنّه يخرج من نافذة مقوّسة وسط النبات المتشابك دون أن يصدر عنه صوت وبحركة حدّ من سرعتها السّكون. يقف برتن ويشير إلى الآخرين بعدم الحراك. تمرّ قردوحة وقد تشبّث بها صغيرها، تمرّ قرادح صغيرة أخرى ثمّ قرادح كبيرة الواحد تلو الآخر، مجموعة وافرة العدد تمرق بسرعة خاطفة عبر فتحة أحاطت بها الأغصان المتسلّقة دون أن تُحدث أيّة قرقعة أو تلتفت وكأن لا وجود لبشر على مقربة منها. سحرَ هذا الفاصل الترفيهي برتن، إنّه الحركة الطبيعية الخالصة، ولعلّ في كلّ هذا إشارة، إنّه حتما فيه إشارة. اللّحاق بالقردة. عليهم أن يتبعوا القردة. يُصدر الأوامر. بعد أقلّ من نصف ساعة يجدون أنفسهم على منحدر وتحتهم نهر عريض ينساب ماؤه بهدوء.

* * *

سيدي مبارك بُمباي

فترة الاستراحة المطوّلة في كَازِيهْ خفّفت، يا أصدقائي، من أتعاب الوازُونغُو، زوّدتهما بقوى جديدة، لكنّها لم تُشفهما حقّاً. استرجعا ما يكفي من القوّة للتّغلب على مصاعب السّفر، غير أنّ هذه القوّة لم تكف ليتعافا من المرض ويبقيا في صحّة جيّدة. عاودتهما الحمّى في المستنقع، غرست مخالبها في بُوانا برتن وشوّهته أيّما تشويه. انتقل من نوبات العرق إلى رجفات الحمّى، تقيّأ، باستمرار، ومن حين لآخر أخذه هذيان أوحى إليه فيه الجِنّ بأفكار سيّئة، أسوأ بكثير ممّا يُوحَى به إلى عربيد أثناء نشوة

السّكْر. صار لا يشعر أنّ له رجلين. برجليه اللّتين أصابتهما الدّمامل صار مشلولا. قال بصوت خافت وهو يكاد لا يحرّك شفتيه اللّتين غطّتهما البثور: لم تبق لي عضلات. نضحت عيناه دماً فبدَتَا وكأنّهما الشّمس تهشّمت كالبيضة، كانتا تحرقانه فتألّم واشتكى، كذلك اشتكى من الصّوت الحادّ في أذنيه وقال إنّه صار لا يقوى على تحمّله. الصّوت الذي سبّبه له دواء الوازُونغُو، ذلك الدّواء الذي يسمّونه كِينِين، الدّواء الذي عذّبه والذي قال إنّه لولاه لكان مات منذ أمد. كان الألم في كلّ موضع من جسمه، لكن لا شيء آلمه أكثر من ضعفه وفتوره، من تبعيّته للظّروف. أنتم لم تروا الاشمئزاز يرتسم على وجهه لمّا توجّب حمله من طرف ثمانية من الحمّالين الأقوى لأنّه لم يقدر على البقاء جالساً فوق البغل. أمّا بْوانا سبيكي فإنّه، بدوره، لم يستطع أن يرى شيئاً. حاول أن يخفي معاناته، لكن هل كان بإمكانه الاستمرار في خداعنا بعد أن لاحظنا أنّه منذ مدّة لم يطلق النّار على أيّ شيء ولم يخرج حتى سلاحه؟ في الصّباح الباكر، عندما تكون عيناه منتفختين ولزجتين وكأنّهما طُليتا بالصّمغ، كان دوماً في حاجة إلى مساعدتي. كان عليّ أن أغسل عينيه، أن أُلبسه حذاءه الطويل وهو متوتّر الأعصاب وكلّه خشونة. في تلك الأيّام كان الوازُونغُو الاثنان تحت رحمتنا وكم مرّة قلت في نفسي إنّهما محظوظان بأن وقعا علينا.

ـ أرجو المعذرة، بابا سيدي، تأخّر بنا الوقت ويجب عليّ أن أذهب، لقد وعدتُ أحفادي بأن أقصّ عليهم قصّة هذا المساء قصّة قد تكون حكاية من حكاياتك، لكن لا أريد أن أغادر الحلقة قبل أن أسمع ما سيبقى لي ذكرى جميلة، أي كيف وصلتَ البحيرة..

ـ نعم، البحيرة الكبيرة الأولى.

ـ أحسنت، بابا يوسف، سأترك مستنقع المَالاَغَارَازِي وسأتوقّف عند

آخر عمليّة صعود مات خلالها بغل بْوانا سبيكي. استلقت الدّابة على الأرض، شخرت شخرة استنفدت معها كلّ قواها ثمّ لفظت أنفاسها الأخيرة. ارتبك بْوانا سبيكي وبقي ممدوداً بينما انغرست يداه في التّراب، لم يقل شيئاً فظننت أنّه أراد عدم جلب الانتباه إلى حالته المزرية، رفعتُه، كان عليّ أن أُسنده قبل أن نتسلّق معاً الهضبة الوعرة، أستطيع اليوم أن أقول الهضبة الأخيرة، أمّا آنذاك فبدت مجرّد اختبار آخر من بين عديد الاختبارات. تشبّث بمرفقي محكما قبضته الموجعة عليه وترجّاني أن أصف له كلّ شيء استطعت رؤيته، الأدغال الشّوكية المختلفة، السّحب المُرغية الفوّارة، الأحجار في حجم القزع، لم يكن هناك شيء كثير كنت أستطيع وصفه له لكنّه كان شرِها ونافد الصّبر. كلّما حاولت أن أصمت قليلاً إلاّ وحثّني على مواصلة الوصف، نعم، لقد حلّفني بألاّ أحرمه من أيّ تغيير يطرأ على ما كنت أرى. وصلنا إلى القمّة، استرددنا أنفاسنا، رأيت شيئاً غير مألوف، شيئاً استثارني، مساحة فولاذية لمعت في الشّمس. حتّى بْوانا سبيكي شعر بشيء ما، كان لا يرى الشّيء الكثير لكنّ الضّوء والظلمة كانا يمرقان نوعاً ما إلى داخل عينيه المتورّمتين. سألني في انفعال: هذا الشريط الضّوئي، سِيدي، هل أنت أيضاً ترى هذا الشّريط الضّوئي؟ ماذا يعني؟ تمهّلتُ قبل أن أجيب، استمتعت بالفرحة التي غمرتني. قلت بتريّث: بْوانا، أظنّ أنّه الماء. وبينما كنت أجيبه سمعت التّهليل من حولي، رأيت سعيد بن سالم متحمّسا يلحّ بالقول على بْوانا برتن الذي جلس على كتفيْ أقوى رجل من بين الحمّالين وقد اشرأبّ عنقه. أمّا اليِيمَدَار مَلِيك فقد ضحك هازئاً وكأنّه مقامر ضاعف للتوّ رهانه الجمليّ بينما هنّأ البلوشيون بعضهم بعضا وكذلك الآخرين بانحناءات كبيرة كلّها أبّهة. أحسّ بْوانا سبيكي بالنّشوة من حوله فاستسلم إليها، لكن دون أن ينسى التذمّر من الضّباب أمام عينيه. لم يمضِ إلاّ قليل من الوقت حتّى

بدت لنا البحيرة أكثر جلاءً، لقد جثمت أمامنا وكأنها حوت أزرق عملاق تلوّى في الشّمس. سحرنا المنظر، نسينا جميع الأتعاب والمخاطر وكذلك شكّنا في رجوعنا إلى ديارنا سالمين، نعم، نسينا كلّ شيء روّعنا من قبل، ولأوّل مرّة، يا إخوتي، كما لآخر مرّة، غمرتنا كلّنا نفس السعادة.

* * *

الثالث عشر من فبراير كان يوماً تاريخيا بالنّسبة لاكتشاف العالم. لأوّل مرّة تشاهد أعين متحضّرة بحيرة على أجمل ما يكون. رغم أنّ المظهر كان في أوّل الأمر خادعا بحقّ، حين بدت لهما البحيرة وكأنّها مجرّد خيط برّاق، ازدراء لمّاع، ثمن بخس لأتعابهما وخيبة أمل ساحقة، تغيّر بعد ذلك كلّ شيء. بعد التّقدم خطوات قليلة في اتّجاهها، بعد أن كفّ سطح الماء عن عكس أشعّة الشّمس وانفتح منظر جديد، يحصل لهما انطباع أوّلي عن حجم البحيرة الحقيقي التي يسرى لمعانها إلى الأقاصي. هذا الماء المبارك ـ يتدفّق بداخله الحماس مثل ذروة الشّهوة يتمّ إرجاؤها طويلاً ـ الذي تحيط به الجبال وكأنّه نائم في حِجر الآلهة، هذا الرّمل الأصفر الفاقع وهذا الماء الزمرّدي. الشّمس تداعب وجهه والنّسمة الخفيفة التي يحسّ بها فجأة تترك تجاعيد من الرّغوة فوق الأمواج الهادئة، بعض الزّوارق ذات مجداف واحد تنزلق فوق الماء فتحدث غمغمة واعدة تتفاقم حدّتها بينما الجميع يواصلون السّير إلى أسفل والطّريق الوعرة. الكرسي المحمول ليس مريحاً والحمّالون يزلقون مرّات فيضطرّ إلى التشبّث بالسّنادتين الجانبيتين للكرسيّ، لكن، في الحقيقة، لا شيء يستطيع أن يزعجه وهو أمام هذا المنظر الخلاّب. يشاهدون تحتهم نهر مَالاَغَارَازِي الذي ينصبّ ماؤه ضاربا في الحمرة في البحيرة، كما يشاهدون قرية ارتمت في سعادة غامرة في حضن خليج تقوّس تقوّساً هادئاً. لو أضيفت

إلى القرية حدائق، بساتين فواكه، مساجد وقصور لصارت أجمل من أروع مكان على السّواحل الإيطالية. الإكتئاب؟ الرّتابة؟ تبخّر كلّ شيء، هنا وفي هذا المكان بالذّات يُكافأ على عذاب كلّ الصّحاري، يشعر في هذه اللحظة بارتياح كبير. يغمره الارتياح إلى درجة أنّه صار يعتقد أنه لو طُلب منه تحمّل ضعف الآلام الّتي تحمّل وضعف المتاعب والمعاناة مقابل هذا الجزاء الذي يرى أمامه لفَعلَ ولمَا أصابه النّدم.

* * *

سيدي مبارك بُمباي

صحيح، يا إخوتي، لقد تحدّثت عن سفراتي وكلّي فخر، وزوجتي معها حقّ لأنّي أحياناً تكلّمت بكثير من المباهاة، لهذا السّبب لا بدّ أن أعترف لكم الآن، نعم، الآن، وقد وصلنا إلى ذروة الرّحلة الأولى، بالسّبب الذي جعلني أخجل لكلّ سفرة من سفراتي، لا بدّ أن أذكر لكم السّبب الذي جعلني أندم على كلّ واحدة منها. لأنّي شاهدت بنفسي ما لا أتمنّى أن يراه إنسان، لأنّي شاهدت مجدّداً بداية العبودية، لأنّي أُجبرت كلّ مرّة على أن أعيش من جديد موتي الأوّل بجميع مراحله. كنت أيضاً كلّ مرّة أقول في نفسي، لن تكون الحال مستقبلاً أسوأ من الحال هنا في أوجيجِي، وجهة سفرنا، هكذا كنت أفكّر وقتها. لكنّكم تعلمون جيّداً، إذا ترك المرء للحياة مزيداً من الوقت فإنّها تأتي بما هو أكثر سوءاً، وهكذا وصلت أثناء الرّحلة الثانية إلى مكان أفظع من أُوجيجِي بكثير.

كنت كلّ مرّة أشاهد فيها قافلة عبيد، إن كان ذلك في زُونغُوميرُو، كِيفُوكُورُو، في كَازِيهْ، أُوجيجِي أو في غُندُوكُورُو، أموت موتي الأوّل من جديد. ثقوا أنّ الموت المجدّد ليس جميلاً بالمرّة. الوازُونغُو الذين رافقتُهم كانوا يسمّون أنفسهم رحّالة مستكشفين لكنّ مكتشفي البلاد

الحقيقيين كانوا تجّار العبيد. كلّ مكان وصلنا إليه علمنا فيه أنّ تجّار العبيد سبق لهم أن بلغوه قبلنا. إذا لم نجد القرى محروقة وجدناها مهجورة وإذا تعذّر على تجّار الرّقيق سوْق غنيمتهم برّاً فإنّهم حشروا ضحاياهم في زوارق، ممّا تسبّب في فناء نصفها الذي قُدّم كضريبة هُونْغو، ضريبة دُفعت بحقّ الموت. تجّار العبيد في البحيرة الكبيرة الأولى كانوا أخبث الخبثاء وأحقرهم، كانوا من أكلة لحوم البشر، لقد خجلت لمّا التقيتهم ثانية عند النّهرين الكبيرين، عند النّهر الذي يسمّونه النّيل ثمّ عند النّهر الذي يسمّونه الكُونغُو. انطلاقاً من أُوجيجِي كانت تتمّ مطاردة العبيد وصيدهم عبر كامل البلاد حتّى بَاجَامُويُو. وعلى نهر النيل كان يتمّ نقلهم إلى الشّمال في قوارب إلى مكان اسمه الخرطوم قُدّر لي أن شاهدته بنفسي أثناء سفرتي الثّانية، ومن هناك كانت الرحلة تتواصل حتّى المكان الذي يسمّى القاهرة الذي قُدّر لي أيضاً أن شاهدته، ومن هناك إلى كلّ أصقاع الدّنيا. جاء أكلة لحوم البشر وتجّار الموت كلّما كانت الرّيح مواتية، كلّما دفعت قواربَهم من الشّمال إلى الجنوب هذه الرّيح الملعونة التي وقفت إلى جانبهم وأوصلتهم إلى جلاّبي العبيد الذين تركوهم وراءهم في شكل مجموعات أقامت في معسكرات على ضفاف النّيل. كانت هذه المجموعات تنتشر في الدّاخل للصّيد كلّما لم تساعد الرّيح تجّار العبيد على الوصول بقواربهم. كان هؤلاء الصّيادون يُجمّعون غنائمهم في مساحات مسيّجة بالأعمدة الخشبية قرب ضفاف النّهر الكبير، أسّروها هناك وترقّبوا موعد ترحيلها بالقوارب. وإذا صادف أن لم يصطادوا أحداً، عندما يختبئ سكّان القرى أو عندما يكون رؤساء القبائل غير مستعدّين أو غير قادرين على بيعهم أسرى أو أولئك المغضوب عليهم، فإنّهم يعمدون إلى جمع كلّ الدّواب ويهدّدون شيوخ القرى، يضعونهم أمام خيارين اثنين: إمّا أن يستجيبوا لطلبهم ويسلّموهم العبيد أو أن تموت قراهم جوعاً. عندئذ يضطرّ الشّيوخ

لإصدار الأوامر بالهجوم على القرى المجاورة. هكذا كانت هذه المجموعات تنهب وتبتزّ، وعندما تقدّم الرّيح عونها الملعون تكون المساحات المسيّجة بالأعمدة الخشبية في المكان الذي يسمّى غُندُوكُورُو غاصّة بالبشر الذين ماتوا بعدُ ميتتهم الأولى. لا يوجد على هذه الأرض مكان أدخل على نفسي الذّعر، ذلك الخوف الذي عذّبني نهاراً وأزعجني ليلاً، مثل المكان الذي يسمّى غُندُوكُورُو، المكان الذي لم يعرف حِلماً ولا رحمة. لم توجد في غُندُوكُورُو غير نساء مريضات عرضن أجسادهنّ للبيع وكنّ بمثابة الإسفنجات الباليات يمتصصن شهوة الرّجال. لم يكن هناك أطفال في غُندُوكُورُو لم يتمّ حشرهم مع الآخرين أو لم يتمّ أسرهم. كانت غُندُوكُورُو مكان الموت بالنّسبة للجميع. بالنسبة لسكّان البلد كما للغرباء، بالنّسبة للمسلمين والمسيحيين. حتّى أشجار اللّيمون في غُندُوكُورُو داهمها الموت. انتصبت تلك الأشجار في صفّين، لقد غرسها الرّجال الذين تدلّى الصّليب على صدورهم وجاؤوا من بلاد الألمان، شيّدوا بيت عبادة تقديساً لإلههم وزرعوا حدائق لمتعتهم ثمّ أحدثوا مقبرة..

- مقبرة! يا لهم من مجانين.

- دُفن بعضهم في قبور قريبة من بعضها وراء حديقة اللّيمون. لم يتمكّنوا من إقناع شخص واحد باعتناق ديانتهم. كلّ ما بنوه خرب وتساقط ولم يؤمن شخص واحد في جميع أرجاء غُندُوكُورُو بالصّليب، لكنّ أعداداً كبيرة من الأهالي أدمنوا على شرب الكحول.

- ولا مسيحيّ واحد؟ هنا يتجلّى لنا مدى ضعف الدّيانة.

- ربّما، ربّما يكون إيمان الرّجال بالصّليب المتدلّي على صدورهم ضعيفاً وربّما كان النّاس راضين بدِين أجدادهم الأوائل.

ـ هم في حاجة فقط إلى أن يصلهم الدّين الصّحيح.

ـ لقد بلغهم بعد، لقد أفعم الدّين الصّحيح قلوب تجّار العبيد، أكلة لحوم البشر، جاءت به الرّيح التي جاءت بهم، لكنه أحجم عن الكلام لمّا استمرّوا في النّهب وقتل النّفوس. شأنه شأن الأب الذي يقبل بأعمال ابنه المشينة، لا لشيء إلاّ لأنّه ابنه. ما قيمة عدالة لا يكون لها أيضاً، لا بل لا يكون لها أوّلاً وزنها داخل العائلة؟ إخوتنا في الإسلام كانوا أبلغَ إساءةً من الشيطان. لقد بطشوا بالنّاس وعاثوا في الأرض فسادا، وإذا صادف أن تصدّت لهم قرية دفاعا عن نفسها ثمّ خسرت النّزال ـ لأنّ بنادق المغيرين كانت أسرع وأكثر قتلا من أيّ رُمح ـ، كلّما عمّ الاضطراب البلاد وصارت تجارتهم مهدّدة فإنّهم عمدوا إلى أسر النّاس، إلى أسر الكثيرين منهم ثمّ ربطوا أيديهم وأرجلهم ربطاً محكماً، لا بنيّة بيعهم وإنّما قصد مطاردتهم إلى أن يصلوا مكاناً يشرف على صخر ناتئ ينهمر فوقه ماء شلاّل. كانوا عندئذ يدفعون بهم في النّهر دفعا، كان المشهد مروّعا بما فيه الكفاية، حتّى لو اقتصر على موتهم فقط جرّاء سقوطهم على الصخور أو غرقا في مياه النّهر، لكنّهم، أيضاً، تمّ تمزيقهم إربا من طرف التّماسيح التي وجدت فيهم لقمة مستساغة وقد جاء بهم التيّار. هكذا انتشر خبر موتهم الشّنيع بين السّكان وعبْر البلاد كانتشار الجراد. أمّا إذا قَتل تجّار العبيد النّاس بأنفسهم فإنّهم كانوا يبترون أيديهم ليسلبوهم غوائشهم النّحاسية ثمّ يكدّسون الجثث بعيداً عن مخيّمهم وفي الصّباح الموالي لا تبقى من الأموات إلاّ العظام.

ـ طيور جارحة!

ـ سمعتُ أنّ النّسور تبدأ بالعينين..

ـ هل لا بدّ من معرفة كلّ هذا؟

ـ ثمّ تنقر داخل الفخذين قبل أن تنتقل إلى ما تحت السّاعدين وأخيراً إلى بقيّة الجيفة.

ـ هل النّاس الذين يقومون بمثل هذا بشر؟

ـ كلّنا نعلم أنّ لقب «بشر» يطلقه علينا الغير دائماً، وأنا لم ألتق يوماً أحداً وصفهم بالبشر. أمّا كلّ من لم يعرفهم، لم يعرفهم عن ممارسة، من لم يسمع عنهم شيئاً ولم يفكّر في أمرهم، فقد سمّاهم إخوة له في الإسلام.

ـ أسّر أحد هؤلاء الإخوة مرّة رجال قرية بأكملها ليحصُل على العاج الذي كانوا خبّأوه عنه. امتثل شيوخ القرية ونساؤها لطلبه واستعادوا حرّية رجالهم مقابل جميع قرون الفيلة التي كانت بحوزتهم، لكنّ واحداً من بين الرّجال كان فقيراً ولم تملك عائلته شيئاً يذكر بحيث لم يُدفع شيء من أجل استرجاع حرّيته. بتر له تاجر الرّقيق أنفه، يديه، لسانه ثمّ أعضاء رجولته ومرّر خيطاً من خلالها جميعاً صانعاً منها قلادة وضعها حول رقبة الرّجل وأرجعه على تلك الحال إلى قريته.

ـ هل شاهدت هذا شخصيّاً بَابَا إسماعيل؟

ـ لا.

ـ إذن قد تكون هذه الحكاية غير صحيحة؟

ـ هل تظنّ أنّي قادر على اختلاق حكاية كهذه؟ رأيت الرّجل بعد مدّة بعيني رأسي، وأقسم لكم أنّ أنفه، يديه ولسانه لم تنبت من جديد.

ـ أنا سأقول لكم ما عشته بنفسي رغم أنّ الحديث عن أشياء كهذه مؤلم وكذلك سماعها، لكن بما أنّي لا أستطيع نسيانها فسأحكيها على الأقلّ. نصبنا خيامنا قرب مخيّم تجّار العبيد والوازُونغُو الاثنان لم يشكّا لحظة في أنّهما بعملهما هذا اختارا أن يكونا جارَيْن للشّيطان. سمعنا في

اللّيل طلقة نارية وفي الصّباح الموالي علمنا أنّ شخصاً تسلّل إلى داخل المخيّم، والد إحدى الفتيات اللاّئي تمّ اختطافهنّ، كان جاء ليرى ابنته مرّة أخرى، ولمّا تفطّن إليه أحد الحرّاس كانت ابنته قد أحاطت عنقه بذراعيها بعدُ بينما تماديا سويّاً في البكاء. فرّقهما الحارس عن بعضهما وجرّ الأبَ إلى أقرب شجرة، أوثقه إلى الجذع وأطلق عليه النّار. في اليوم الموالي كان عليّ أن أرافق بْوانا سبيكي إلى مخيّم تجّار الرّقيق، كان يريد الحصول منهم على معلومات ويحتاجني لأترجم عنه. قبل أن نرى البَشَر رأينا كلّ ما كان على ملكهم وتمّ نهبه: أواني، طبول، سِلال، آلات يدوية، سكاكين، غلايين، أشياء متناثرة بدا تجّار الرّقيق وكأنّهم لا يفقهون لها وظيفة. أوّل إنسان رأيته كان رجلاً، فتًى شابّا رفع ساعده رغم أنّ القيد حزّ في يديه ليخفّف من وطأة الطّوق الحديدي حول رقبته فذكّرني بطائر يحاول رفع جناحه المتكسّر باستمرار.

كان واحداً من بين الكثيرين، لكن لمّا تفرّستُ فيه لم أرَ فتى غريباً عنّي جاثماً على الأرض وإنّما رأيت نفسي في ذلك اليوم الذي حلّت فيه نهاية عمري الأوّل، نظرتُ في وجه ذلك الفتى الذي سبق وأن مات بداخلي فبدأت النّدوب في معصمي وعنقي تحرقني. فضّلت عدم مشاهدة مزيد من الأسرى ووجّهت نظري إلى أسفل لكنّي كنت مغفّلا لاعتقادي أنّي سأتخلّص من ذلك المشهد بمجرّد التّظاهر بالعمى. كلّ ما لم أره على الأرض ألزمتني الرّائحة البغيضة التي شقّت لها طريقاً عبر أنفي على قبوله، كان تبخُّرا انبعث من أناس لم يتمكّنوا من التنقّل إلى المكان الذي وُجد فيه الماء ولم يُسمح لهم بالتّخفيف عن أنفسهم وراء تلال الأَرَض. من أناس لم يحصلوا على طعام بل أجبروا على البحث عنه نكشاً في الغابات، مهمّة اضطلعت بها النّساء الأسيرات اللاّئي تمّ سوْقهنّ إلى داخل الفضاء المسيّج بالأعمدة الخشبيّة لمّا كنّا واقفين هناك ونحن نحاول تحاشي رؤية أو شمّ

أيّ شيء. لقد أخرجن جذوراً من الأرض وجمعْن موزا برّيا، وما جئن به تمّ الإلقاء به إلى الذين شُدّوا إلى ذلك التبخّر المنبعث من إصرارهم على النّجاة بأنفسهم، أُلقي به إليهم بدون طبخ ولا تقشير، على طبيعته كما وجدته النساء في الأرض وجنيْنه من الأجمات. ارتمى الأسرى على الطّعام، زحفوا، تشاجروا من أجل الجذور النّيئة والموز الأخضر وعلا صراخهم لأنّ الأطواق حول رقابهم ووثاق الأرجل والسلاسل في المعاصم حزّت أكثر في أجسامهم. فجأة وقف بجانبنا تاجر العبيد الذي جئنا لمقابلته، وبعد كلمات التحيّة والتّرحاب التي قالها بْوانا سبيكي دون أن يكون في حاجة إلى مساعدتي بدأ حديث لم أتمكّن من متابعته متابعة جيّدة، لم أفهم كلمات بْوانا سبيكي وقرأت في وجه تاجر الرّقيق أنّه لم يفهم الكثير ممّا كنت أنقل إليه إذ أنّ تقاسيم وجهه بدت وكأنّها تعبُر صحراء شاسعة من الاستغراب. تكلّم بْوانا سبيكي بصوت أعلى وحاولت كلماته أن ترسّخ قناعات فرّقت بيني وبينها مسافات، كانت قناعاته بالنّسبة إليّ بمثابة البئر التي سقت حقول الغير. لم أشعر بنفسي إلاّ وأنا أقول لتاجر العبيد: هل ترى هؤلاء البشر؟ إنّهم في حاجة إلى الشّرب، مثلك تماماً. هم يعطشون مثلك. ماذا ستخسر لو أتيتهم ببرميل من الماء؟ تجهّم وجهه. صاح في وجهي: هل تظنّ، أيها القزم، أنّ هناك من يستمع إلى كلامك لو لم تأت لتترجم عن المْزُونغُو؟ أنت عندي لا شيء، وإذا لم تخرس وضعتُ حول عنقك طوقا ضيّقا حقّاً ورميتُ بك أين يوجد الآخرون. تصلّب وجهه كالكلس وتحوّل إلى قناع جامد من الاحتقار. نظر صوب بْوانا سبيكي وابتسم ابتسامة بغيضة لم يكن الردّ عليها ممكناً إلاّ بطريقة وحيدة: اقتلاع الأسنان التي برزت بوضوح خلال تلك الابتسامة. لم أفكّر، كان الخنجر في يدي وإذا بساعدي يُرفع، لم أسمع شيئاً، كذلك لم أحسّ بشيء ـ قال لي بْوانا سبيكي بعد مرور تلك اللحظات إنّي أخذت

أُصوّتُ مثل الجاموس عندما تصيبه طلقة نارية ـ وإذا بالاحتقار على وجه تاجر الرّقيق يتصدّع وكأنّ الطّباشير اصطدم بحجَر أكثر صلابة. بدا لا حول له ولا قوّة، أعزلَ كأيّ شخص يجد نفسه فجأة أمام شيء لم يكن متوقّعا. لا أدري هل أنّي كنت في تلك اللّحظات قادراً على جرحه أو حتّى قتله، وسوف لن أعلم هذا حقّاً لأنّ بْوانا سبيكي أمسك بكتفيّ من الخلف، طوّقني بساعديه الطّويلين ووشوش في أذني، شانْتي، شانْتي، العبارة التي ينطق بها البَانِيان طلباً للسّلام، لكنّي لم أحتمل كلّ ذلك وكنت مستعدّاً حتّى لتشهير الخنجر في وجهه، لكنّ بْوانا سبيكي كان قويّاً، قويّاً بصفة عجيبة، ممّا جعل غضبي يخرُّ أمام قوّته قبل أن يهدأ شيئاً فشيئاً. وبينما هو ما زال ممسكاً بي خرج تاجر العبيد من جموده وحاول، بكثير من الحركات، إفهام بْوانا سبيكي أنّه يريد جَلدي عقابا لي على تصرّفي، غير أنّ بْوانا سبيكي هزّ رأسه ونطق بالكلمة الوحيدة التي تعلّمها في لغتيْ العبودية، بالعربية والكيسْوَاهِيلي، قال بصوت جهوري وبتؤدة: هَابَانَا ثمّ صاح قائلاً: لاَ! كلمةً انتشرت ذبذباتها في الهواء وفصلت بين ذلك الذي جرى وبقيّة مشاغل اليوم فصلاً كاملاً. جذبني معه فرأيت، وأنا ألتفت إلى الوراء، النّاس المقيّدين خلف الأعمدة الخشبية مرّة أخرى ولاحظت أنّهم توقّفوا عن الشّجار من أجل الجذور، نظروا إليّ كلّهم نظرة هادئة ولم أتبيّن بوضوح ما الذي عبّرت عنه أعينهم، هل إنّهم باركوا ما صدر عنّي أم إنّهم احتقروني، عرفت فقط أنّها كانت نظرات سوف لن أنساها أبداً. تمنّيت في تلك اللّحظات ألاّ تكون لي عينان.

* * *

عليه أن يعترف، أن يُسلّم بأنّه لا يستطيع الصّعود إلى زورق خفيف يتسرّب إليه الماء، أنّه ليست له حتّى الشّجاعة بأن يمسك بحافتي الزّورق

كي لا يسقط في الماء. إنّه ممدّد في كوخ على سرير متنقّل. لقد تناول بعدُ دواءه الذي احتفظ بسرّ تركيبته لنفسه، سائل الأثير الممزوج بالعرق، وحدة قياس مقابل وحدتين. يخفّف الهواء النّقي من توتّر أعصابه، من الهستيريا التي تنمو شيئاً فشيئاً بداخله ومن القيء التّشنجي. يخبره سبيكي بما يجري في الخارج، في طريق العودة بعد حصّة سباحة في البحيرة أو بعد زيارة للسّوق. قال: نظّارتاي الشّمسيتان الفرنسيّتان، نظّارتاي الشّمسيتان الرّماديتان شلّتا كلّ حركة. كان عليّ أن أنزعهما لأشعر بالرّاحة. إنّه منشرح، لقد استردّ قواه. عليه أن يجد زورقاً ليتمكّنا من استكشاف البحيرة ومن البحث عن نهر، هناك في أقصى الجهة الشّمالية للبحيرة. نهر الرّوسيزي. عليهما أن يعرفا هل إنّ الرّوسيزي ينبع من البحيرة أم يصبّ فيها. على سبيكي أن يعبُر البحيرة برفقة بُمباي. هناك في الضّفة الأخرى يوجد رجل عربيّ - والخبر مصدره سناي بن عامر - وعلى ملكه دَاوْ قادر على الإبحار. سأتكفّل بهذا، يا دِكْ. يخرج سبيكي بعد ذلك من الكوخ. وعوض أن يعود بعد بضعة أيّام يتغيّب لمدّة شهر كامل، أربعة أسابيع بأكملها لم ينجز فيها شيئاً، لا شيء، هذا الخائبُ العاجز. حسنٌ لو أنّ برتن بإمكانه التّحرّك. بردٌ ليليّ. رمضاء تستعرُ. بردٌ ورطوبة، قُوبَاء في السّاقين والسّاعدين. عندما ينظر إلى جسمه يشعر بكراهية، كراهية يكنّها لنفسه. يجب عليه أن يبقى ممدّداً على السّرير المتنقّل، كرَهن. يجب أن يُضحّى بأحدهما. وأحدهما سيُطلَق سراحه. صار الشُّرب أعسر من التّفكير. الأكل مستحيل. الدّمامل تكاثرت في فمه. العصير السّحريّ، من يأتيه بقليل من العصير السّحريّ؟ من سيأتيه بالقنّينة الصّغيرة؟ أين أنتم؟ هل ترفضون أن تقدّموا لي عصير السُّوما الذي يهدّئ جميع الأوجاع؟ صرت في حاجة إلى جرعة مضاعَفة، تلك هي نتيجة تأخّركم، ما الألم في الحقيقة إلاّ ضرب من الاتّجار بصكوك الغفران. لا

ينفع الهروب لأنّ اللّحاق بالهارب أمر حاصل لا محالة. كذا العادة دائماً. لمَ لا يكون الرّجوع إلى الوراء؟ لا، السّير وجها لوجه والأحداث! يتّكئ لاستقبال الألم. يستسلم إليه. كن محبّا لعدوّك. كن ممنوناً لكونك يتمّ تجريحك، ضُمَّ الألم بين ذراعيك. اللّهب الذي يلتهمك سيتحوّل إلى ألسنة نار تلاطفك وتدلّلك. إنّه يذوب، يذوب في أحضان ثلاث من الحسناوات أشرقت في أعينهنّ ضحكة في لون الكهرمان، ثلاث حسناوات بَدوْن كالرّاقصات على النّقوش البارزة في المعابد الهنديّة، ثلاث حسناوات يلتقيهنّ على غير موعد في قرية لم يترعرع فيها شيء آخر غير هذه الوعود الثّلاثة التي تتحرّك بقصد مدروس. يحوم حول أعينهنّ، يحوم حول تهافُته ونهَمه، ثلاث حسناوات يشعر الرّجال في حضرتهنّ مع كلّ حركة من حركاتهنّ وكأنّ مناديا يحثّهم على الرّجوع إلى خطّ البداية، يذكّرهم بالعودة إلى ثكنات تقصيرهم. لا يظنّ نفسه قادراً على.. يبتسمْن بترفّع، هنّ أكثر منه خبرة، البُرونْز ينصهر على بشرتهنّ، ثلاث نساء ينادينه، بأيديهنّ هديّته، عطيّتُه من التّبغ، يتجرّدن ممّا أحاط بخواصرهنّ، تزداد قوّتهنّ مع العُري، يجذبنه إليهنّ، يَعرفن مكاناً لا تخرق حواجزه عينٌ، مخبأً كلّه نعومة، يمدّدنه، تنزلق أصابعهنّ من زرّ إلى آخر، اليدُ الأولى التي تلمس بشرته تمسح على صدره في تؤدة انبثاق الفجر، سينهل منه كمن ينهل من ماء عين دافق، اليد الثّانية التي تلمسه تدلك محطّ إثارته واليد الثّالثة تتحسّس طريقها حتّى زفيره، ما من فخّ منصوب، ولا توقّفَ في الأفق، سيستسلم، سيقْتات من غروب الشّمس. إنّه رهْن إرادتهنّ. لا طاقة له بهنّ. يُردن المزيد وليس له ما يعطيهنّ. لا يظنّ نفسه قادراً على الموت.

يجد نفسه أمام ستار، يجذّف برشاقة وبما أوتي من قوّة لكنّه لا يتقدّم. هناك، في الجهة الأخرى للسّتار يجلس الرّقباء، يرون ظلّ الرّجل،

يرون ظلّه المنهمك في التّجذيف، ظلاً هائلاً ينتشي له الجمهور ولا أحد غيره يشعر أنّه لا يقترب من مصبّ النّهر الذي يجذّفون هم في اتّجاهه، ينهمر المطر على السّتار، يقسّم الظلّ إلى أشرطة، يواصل الرّجل التّجذيف، تنسلخ الأشرطة عن السّتار على طول السّاحل في اتّجاه الشّمال، يبدأ شيئاً فشيئاً في تبيُّن الرّقباء، كذلك يفعل هؤلاء، في قرية لا تبعد إلاّ مسافة يومين عن مصبّ النّهر، ينتظر منه الرّقباء تفسيراً، لا يقدر على الكلام، الدّمامل تغطّي لسانه، ينهض الرّقباء، يمزّقون السّتار، يحدّقون في الرّجل قصير القامة الذي يجلس في زورق خفيف، يتكلّمون في وقت واحد ويقولون بكلّ تعقّل وكأبسط ما يكون، كما ينطق الباعة داخل دكّان عندما يُسألون عن ثمن بضاعة ما: لقد حصل سوء تفاهم، النّهر يصبّ في البحيرة ولا ينبع منها، الكلّ كان تضليلاً، لكن، هل لكلّ هذا تأثير؟ وصل العرضُ إلى نهايته. النّهر يصبّ في البحيرة وبرتن مستلق على السرير المتنقّل، المطر يهطل وكلّ شيء صار مبلّلا، البنادق يهاجمها الصّدأ، الدّقيق والحبوب تحوّلت إلى عجينة، الزورق الخفيف تنبعث منه رائحة برازهما، يقضّيان اللّيل في الوحل، سيعود سبيكي بأخبار سارّة. لا، لن يفعل. إنّه ملقًى وسط بِركة كاملة من خيبة الأمل. لا يظنّ نفسه قادراً على الموت بعزّة.

* * *

سيدي مبارك بُمباي

ـ ما لم أفهمه حتّى الآن، بابا سيدي، هو لماذا كان مهمّا بالنّسبة إليهما أن يعرفا حجم البحيرة، ما هي الأنهار التي تغذّيها والأخرى التي تتدفّق منها؟

ـ لأنّ هناك نهراً يُسمّى النّيل، وهذا النّهر كبير، رأيته في مكان ما قبل

اندماجه في البحر، في البلد الذي يسمّونه مصر، وأؤكّد لكم يا إخوتي، كان النّهر عريضاً بقدر المسافة التي تفصل جزيرتنا عن القارّة.

ـ أراد الوازُونغُو أن يعرفَا من أين يأتي هذا النّهر؟

ـ وما الصّعب في الأمر؟ لماذا لم يُجانبا هذا النّهر أثناء السّير؟

ـ حاولا، لكنّه انفصم إلى نهرين، سارا وطول النّهر الذي يطلقون عليه اسم النّيل الأزرق حتّى وصلا إلى مصدره، أمّا النّهر الثّاني الذي يسمّونه النّيل الأبيض فلم يتمكّنا من اتّباعه لأنّ مستنقعاً وعديد الشلاّلات قطعت الطّريق. توجّب عليهما البحث عن طريق آخر يقودهما إلى المنابع. وصل الوازُونغُو إلى البحيرة الكبيرة لكن هذا لا يعني أبداً أنّهما بلغا الهدف. ألم يسمعا النّاس في كَازِيهْ يتحدّثون عن بحيرتين؟ لذا بات من الممكن أن ينبع النّيل من بحيرة أُوجيجِي أو من البحيرة الكبيرة الأخرى أو ألاّ ينبع من أيّة منهما. لهذا السّبب كان لا بدّ لبْوانا سبيكي من الحصول على دَاوْ يمكّننا من عبور البحيرة، داوْ على ملك تاجر في الضّفة الأخرى يدعى الشيخ حامد، غير أنّ بْوانا سبيكي لم يكن الشّخص المناسب ليُقنع رجُلاً عربيّاً فخوراً ومغترّاً بنفسه بأن يستغني عن قاربه الشّراعي الوحيد لبضعة أشهر. قد يكون بْوانا برتن ربّما أفلح في إقناعه، لكن، كما تعلمون، كان وقتها رهينة في يدي الموت. في البداية، بعد استقبال حافل بالترحاب، طاب مزاجنا وانتظرنا رجوع الدّاوْ، أمّا فيما بعد فقد بدا واضحاً أنّ صبريَ وصبر بْوانا سبيكي لم يلبسا من نفس القماش. كان بْوانا سبيكي وكأنه ملتفّ بثوب من الصّوف الخشن لم يكفّ عن إثارته في كل لحظة بينما تمتّعت أنا بنعومة لباس من الحرير الخالص. لم نجد ما نقوم به في تلك الجزيرة الصّغيرة التي سكنها الرّجل العربيّ غير الثّرثرة وتجاذب أطراف الحديث. تأخّر الدّاوْ وانطلقت الأحاديث بسخاء تحت سقيفة

التّاجر العريضة، ورغم أنّ بْوانا سبيكي لم يفهم منها شيئاً فقد بدت له سخيفة. أسرّ إليّ في يوم من الأيّام ـ بعد أن استحال عليه أن يتمالك نفسه ـ أنّه استكره كل شيء في الجزيرة إلى حدّ كبير، أنّ النّاس وسخون جدّاً، ممدّدون في كلّ مكان كالخنازير وخاملون كصغارها وهي تتشمّس. قال هذا وأكثر ولم يلاحظ أنّه خدش مشاعري وتوقّعتُ شرّاً لأنّ الصّوف الخشن قد يكشط أديم ما تبقّى له من صبر. عاد الدّاوْ، تزحلقَ بأشرعته الكبيرة داخل القنال بين الجزيرة والبرّ فدبّت في بْوانا سبيكي الحيويّة، كذلك عاد إليّ الأمل في أن تكون النّهاية سعيدة، للحظات على الأقلّ، لأنّه، في واقع الأمر، بعد أن تمّ تفريغ الدّاوْ ـ الشّيء الذي استغرق بالنّسبة إليه طبعاً وقتاً طويلاً جدّاً ـ كان علينا أن ننطلق للتوّ، بدون شكّ بعد آخر تفاهم مع الشّيخ حامد، بعد تسليم لفّات القماش وتناول طعام مشترك، أن نطلق العنان للأشرعة العريضة والبيضاء ونترك الجزيرة الثّرثارة وراءنا. هكذا كان بْوانا سبيكي يتصوّر الأمور، هذا ما لاحظتُ على محيّاه الذي كان بمثابة سماء تلبّدت فيها الغيوم منبئة بحلول العاصفة ثمّ اخترقها فجأة بريق الشّمس. لكنّ الأفضل هو أن يُنصت المرء إلى نصائح الأطفال عوض أن يستمع إلى ما تهمس به الأماني. أوضح لنا الشّيخ حامد أنّه سيضع الدّاوْ تحت تصرّفنا لكنّه يعسر عليه أنّ يترك لنا طاقم قيادته لأنّه يحتاجه في مهمّة أخرى ولذا هو حقّاً مجتهد في البحث عن طاقم بديل، غير أنّه، كما لا يخفى على أحد، من الصّعب جدّاً العثور في تلك المنطقة على أناس قادرين على قيادة مركب شراعيّ. كانت تلك اللّحظة التي كنت انتظرتها وكلّي خشية، اللّحظة التي صار فيها بْوانا سبيكي لا يحتمل ذلك الإرهاص المتواصل لصبره.

تغيّر وجهه في خضمّ عاصفة هوجاء من الصّياح والتّوبيخ والإتّهامات، بصق على شرف مضيّفه، ورغم أنّ العربيّ نفى كلّ ما نُسب إليه من سوء

نيّة، رغم أنّه أكّد أنّنا سنتّفق في آخر الأمر - قال إنّه لا يترقّب أكثر من المبلغ الذي سوف يقدّمه ضيفه عن طواعيّة - بدا لي واضحاً أنّ مهمّتنا ازدادت صعوبة. امتنع في اليوم الموالي أن يقول ولو كلمة واحدة في الموضوع. قال فقط إنّه لا يستطيع وضع الدّاوْ تحت تصرّفنا إلاّ بعد أن يكون رجع من رحلته التّجارية الموالية التي ستستغرق ثلاثة أشهر. كان بإمكاننا أن نتصرّف تصرّفاً دراميّاً، كان علينا أن نرفع في قيمة عطائنا، أن نزيد من سخائنا، لكنّ بْوانا سبيكي لم يكن من أولئك الذي يعملون بنصائح الآخرين، وهكذا تجاهل اقتراحي أيضاً بتقديم ضعف المبلغ المالي المتّفق عليه للعربيّ وقرّر مغادرة الجزيرة. ألمّت بنا الرّزايا، لم نكن حقّاً في حاجة إلى تلك العاصفة التي داهمتنا لمّا كنّا في منتصف البحيرة، عاصفة كادت تبتلعنا لو لم تقذف بنا المياه إلى جزيرة كانت فيها نجاتنا. مكثنا هناك، بقي بْوانا سبيكي في خيمته بينما احتمى الآخرون بالأغطية المشمّعة. سمح لي بْوانا سبيكي بأن أنعم بالحماية التي وفّرتها خيمته، ازدادت العاصفة قوّة، اقتلعت جانباً من الخيمة ولم نستطع القيام بشيء آخر غير الانتظار. لمّا هدأت العاصفة أشعل بْوانا سبيكي شمعة ليتحقّق ممّا حصل وفجأة رأينا الجِعلان محيطة بنا من كلّ مكان، خنافس صغيرة سوداء. كان أوْلى ببْوانا سبيكي في تلك اللّيلة أن يستغني عن النّوم أو أن يقضّي اللّيلة مثلي على ألواح الزّورق السّميكة لأنّه لم يكن هناك أمل في طرد كلّ الجعلان من خيمته، كذلك لم يتمكّن من تخليص ملابسه منها جميعاً، وهكذا وجد أحد الجعلان طريقه إلى داخل أذنه، كان أرنبا أيقظه وحفر لنفسه جحراً بداخلها. قال لي بْوانا سبيكي في الصّباح الموالي: لم أقدر على تحمّل كلّ ذلك، لم أقدر. خفافيش رفرفت بأجنحتها داخل دماغي، هكذا قال، كانت أجنحتها ضخمة، أكبر حجما من رأسي، رَفْ، رَفْ، رَفْ، لو تمكّنت من القبض عليها، لكنتُ سحقتها بيديّ، تضرّعتُ

إليها، رجوتها أن تتركني لحالي، تضرّعت إلى الله، لم أهتد إلى حيلة تمكّنني من الوصول إلى داخل رأسي، سِيدِي، لم يكن هناك سبيل يقود إلى داخل رأسي، أردتُ أن أصبَ الزّيت السّاخن في أذني فلم أتمكّن من إشعال النّار، كان كلّ شيء نديّاً، ضربتُ على رأسي بقبضة يديَ لكن الرّفرفة لم تنقطع، ضربت برأسي على الأرض غير أنّ الرّفرفة لم تسكن، كانت أشدّ ألما من كلّ الأوجاع، وحتّى لو قمتُ ببتْر يدي ما كان هذا ليصرف انتباهي عن الرّفرفة. لم أقدر على التفكير في شيء آخر، لم أستطع سماع شيء آخر أو الإحساس بشيء آخر. تناولتُ سكّينا وأدخلت طرفها المدبّب في أذني بقوّة، كنتُ أعلم أنّه يجب عليّ أن أحتاط لكنْ يديّ كانتا ترتعشان وعيلَ صبري، كان الوجع يَصرُّ، كان في حدّة الصّراخ، انقطعت الرّفرفة، سقطت السكين من يدي وتمدّدتُ على الأرض في لحظة تملّكني فيها خوف كبير ما عهدتُ مثله طوال حياتي. خشيتُ أن تعود الرّفرفة فأسمعها من جديد. ذهبتْ، شعرت ببلل في أذني، لمستُها فأحسست بسائل خارج منها، رأيت الدّم على أصابعي لكنْ الرّفرفة انقطعت. سألتُه: لماذا لم تطلب مساعدتي؟ ماذا كنت تستطيع أن تفعل، سِيدي؟ كيف كنت تستطيع مساعدتي؟ لو ناديتني لكنتُ ألصقتُ الشّمعة بأذنك، ضوء الشّمعة هو الذي جلب هذا الجعل إلى داخل خيمتك، كنتْ أستطيع إخراجه من أذنك باستعمال نفس الطّريقة، بالضّوء، لو ناديتني لكان خرج من تلقاء نفسه. نعم، قلتُ له كلَ هذا. لكنّه ألحق جرحاً بأذنه بعدُ، جرحها جرحاً بالغ الخطورة..

ـ مهلا، ماذا أجاب هذا الرّجل الغبيّ لمّا قدّمت له حلاّ أفضل؟

ـ لا شيء. اكتفى بأن حدّق فيّ بنظرة غريبة لم أفهم لها معنى. تعكرت الأمور أكثر. التهبت الأذن، تقيّحت بأكملها، تقبّض وجه بْوانا

سبيكي وغطّت الأورام كامل رقبته. صار لا يقدر على المضغ، طبختُ له حساء الشّربة وناولته إيّاه قطرة قطرة كما نفعل مع الأطفال الصّغار. صار لا يسمع شيئاً بأذنه تلك، تولّدت عن الجرح حفرة وكلّما تمخّط اخترق صفير عميق وثقيل أذنه. كان منظراً يثير ضحكنا كلّ مرّة ويزيد من غضبه هو. بعد مرور أشهر خرج جزء من الجعل مع صمغ الأذن، من الأذن الأخرى!

ـ حقّا؟ لا تقلْ هذا!

ـ نحن نعلم جيّداً، بابا سيدي، أنّنا أدركنا من المساء الوقت الذي تبدأ فيه أنت بالتّهكّم علينا، لكن هذا الذي قُلتَ الآن لا يمكن أن نسلّم به. هل من الممكن أن يكون الجعل تنقّل عبر كامل الرّأس ليخرج من الطّرف الآخر؟

ـ هناك أشياء أعجب من كلّ هذا.

ـ بالتّأكيد، لكن التّسليم بكذبة لا يتوقّف أبداً على ضخامتها.

ـ كان رجوعنا إلى أُوجيجِي محرجاً إلى حدّ كبير. كان بْوانا برتن يعتقد أنّه بنجاته من الموت قد قام في حدّ ذاته بمهمّة صعبة، لذا انتظر منّا أن نكون نحن بدورنا قد قمنا بمهمّتنا السّهلة ظاهريّاً. كان جدّ مروَّعاً، أمّا بْوانا سبيكي فكان من جهته منقبض الصّدر ولم يكلّم أحدهما الآخر لبضعة أيّام، رغم كل هذا قرّرا في آخر الأمر أن يستكشفا البحيرة، وهكذا ركبنا الزوارق الخفيفة من جديد وقضّينا ثلاثة وثلاثين يوماً في الطّريق، لا لشيء إلاّ لنعلم من مصدر موثوق به أنّ الرّوسيزي يصبّ في البحيرة، ومن ظنّ منّا أنّ هذا كان نهاية خيبة الأمل فقد صحّح رأيه أثناء عودتنا المجدّدة إلى أوجيجي لأنّه أثناء غيابنا الذي دام ثلاثة وثلاثين يوماً فكّر سعيد بن سالم، الرّجل الأمين وطيّب القلب أنّ..

ـ ذلك الذي قلتَ عنه إنّه كان لا ينزعج حتّى ولو باع أمّه؟

ـ نعم، هو بالذّات. خلُص إلى الاعتقاد أنّ الوازُونغُو لا بدّ أنّهما مانا ولا أحد سوف يؤاخذه على بيعه قسطاً كبيراً من المؤن. كيف كان لنا أن نعود إلى كَازِيهْ بدون مواد غذائية وبدون سلع للمقايضة. هل كان علينا أن نستجدي قوتنا أو ننهب؟ لم يكن هناك حلّ، كلّما أطلنا التّفكير إلاّ وبدا لنا مدى الحرج الذي كانت عليه حالنا أكثر وضوحا، ورغم هذا تغيّر الموقف بين يوم وليلة بواسطة بعض الطّلقات النّارية، تلك الطلقات النارية التي تعلن عادة حلول قافلة، وفعلاً جلبت معها القافلة في تلك المرّة المدد الذي كان بْوانا برتن طلبه منذ وقت طويل، ولئن لم تأتنا القافلة بذخيرة حيّة فإنّها جاءتنا على الأقلّ بما يكفي من القماش لاقتناء ما يكفينا من طعام أثناء رحلة العودة إلى كَازِيهْ.

* * *

يسلكون أثناء عودتهم طريقاً آخر. كفاهم أن تعرّضوا مرّة إلى أخطار المستنقع المحاذي لنهر مَالاَغَارَازِي. المنظر الجميل والمريح هو عبارة عن فنجان حافته وسخة، مجرّد خاطرة تبادرت إلى ذهن برتن. في الفنجان شاي، حساء لحم دجاج بارد في طبق الفنجان. بُقع في طرف اللّسان. الأزمنة لا ترحم، هذا ما يفكّر فيه ثمّ يقرّر أن يُقلع عن التّفكير. إلى أن يصلوا إلى كَازِيهْ على الأقلّ. ينادي سبيكي: هل رأيت البعوضة، كانت عظيمة، عظيمة حقّاً، إنّك لم تر بعوضة مثلها أبداً. أن يشغل سبيكي نفسه بالبعوض لهو دليل قاطع على أنّ البلد جدّ فقير. على حافة الطريق جذع شجرة أجوف، شفتان منفتحتان تصوّران ثغرة هائلة تنطلق منها صرخة مكتملة الاستدارة. ما هذه الخاصّيات العجيبة التي يُحتفظ بها تحت السّقوف حديثة الصّنع. أوّل شخص يعترض سبيلهم يمشي متّكئاً على عصا، شيء عادي تماماً، عاهته هي رجله التي يسندها عند المشي،

جلدتها منكمشة انكماش لِحاء الشّجر، الرّكبة صارت لا تُرى، هذا الرّجل ساقه اليسرى ساق فيل وساقه اليمنى ساق أدمي، ثمّ إنّه صغير السّن، بوجه معافى، في صحّة جيّدة حقّاً، لا يحمل الرّجل أيّ كرب أو حزن رغم ساقه الضّامرة التي وجب عليه جرّها، هذه السّاق التي تحكم عليه بمصير الأجذم في هذه القرية. من يريد أن يرى شيئاً كهذا؟ الشّخص الموالي من بين سكّان القرية يحمل عاهة مماثلة، لكن في الرِّجل الأخرى التي نمت نموّا أكثر تشويها ولا تبدُو فيها غير الأصابع آدميّة، أمّا التّورم فيبدأ في مستوى ظهر القدم. الجلدة صارت غليظة، ملتهبة، بها تمزّق في بعض المواضع وتفزّر في مواضع أخرى. الحالة الثّالثة تنقبض لها نفسه، شخص يقف على رِجلين أصابهما جذام الفيل، نصفه الأعلى نحيل، كلّما يبدو نصفه الأعلى نحيلاً إلاّ وتزيد رجلاه انتفاخاً وترهّلاً. كلّهم على هذه الشّاكلة، هذا ما يتوصّل إلى استنتاجه فجأة، كلّ سكّان هذه القرية الذين يقبعون في صمت أمام أكواخهم أو يمرّون أمامهم عارجين دون تحيّة، الآن يرى كلّ شيء بوضوح، المِرفق غير موجود كلّيا، العضد يتحوّل إلى قزْع رخو، السّاعد يتدلّى من العظم بعد أن صار وكأنّه خرطوم عريض امتلأ ماءً. جهة الصّدر اليسرى منتفخة إلى حدّ أعلى الفخذ تقريباً، التجعّد يغزو الجلدة ونصف الصّدر الأيمن، الرِّجل اليسرى أو العكس، في هذه القرية تُعشّش العاهات والأخطاء بجميع أنواعها ومكوّناتها. المرض يطفو على السّطح، وكلّ ما هو جهنّمي يحتلّ الصّدارة. وكأنّ أجسامهم يسكنها طوفان.

يشاهد رجُلا بحليّ يزيّن رأسه، هو الوحيد الجالس على مقعد وحوله يجلس رجال ونساء في التّراب، لا بدّ أنّ هذا الرّجل هو الفازي. الوجه منبسط والملامح تنمّ عن راحة بال وهو يلقي على الحاضرين محاضرة ويقول كلاماً غير مفهوم، كذلك لا يُخفي من جسمه شيئاً، خصيتاه

الكبيرتان تشبهان في حجمهما ثمرتيْ بَابَايَا، أعلى الفخذ الأيسر يتدلّى كأنّه ضرع مفعم، أسفلُ الفخذ الأيمن تغطّيه دمامل تبدو كالدّيدان عندما تتلوّى في داخل الجسم، وفي طرف رجله قدم حنْفاء بدون أصابع ولا عقب.
قال برتن في نفسه: كلّ شيء بيّنٌ وجليّ، أدركتُ الأساس الذي يتمّ بموجبه الحُكم في هذا المكان، في هذه القرية يُصبح عمدةً من له أضخم صفن. يودّ أن يتوقّف، أن يتحدّث مع هؤلاء النّاس، أن يقول لهم: الآلهة يحلو لها أن تمزح، إنّها ترتكب هفوات حتّى لدى صنعها لأبنائها، مثلاً لدى خلقها غَانيش، ابنها الذي لا تعرفونه، اسمحوا لي بأن أحدّثكم عنه، حالته فيها ما يتماشى وحالتكم تماماً. يمضي برتن في طريقه، تحمله خطاه كما يحمله نسق سير القافلة الهادئ، وكأنّ الآخرين لم يلاحظوا شيئاً ولم يتفطّنوا إلى شيء، حتّى إلى أنّ أدوات التناسل لدى البغال في هذه القرية متورّمة وفيها اتّساع، كمن قام بعمليّة تهجين فأزْوج بين جنس الحمير وجنس الفيلة. ثمّ إنّ هناك سؤالا يضجره، يعذّبه كما تفعل حبيْبة الحصى تحت بطن القدم، شيئاً أذهله لدى رؤيته الفازي، الذّكَرُ، الآن يتذكّر، أين كان الذّكَر، ينطق بالسّؤال بصوت جهوريّ، لم أر الذّكَر. أمّا سبيكي الذي يسير بجانبه ـ منذ برهة؟ ـ فيقول: لسنا في حاجة ملحّة إلى معرفة كلّ هذا.

* * *

سيدي مبارك بُمباي

هل تشعرون أيضاً، يا أصدقائي، بنزول البرد؟ إنّه من جهة الفصل الذي نحن فيه، طبعاً، وأكثر من هذا أيضاً. لديّ شعور وكأنّ البرد يصعد من هذا الحجَر ليدخل إلى جسمي. هناك أمسيات لا أشعر فيها أبداً بالدّفء، بقطع النّظر عن عدد العباءات التي تضعها أمّ حميد على كتفيّ

البرد لا يستقرّ في اللّحم، لا، إنّه يجد طريقه إلى العظام، لا أحد نبّهني إلى أنّ العظام يمكن أن تصير باردة جدّاً، كذلك الرّكبة والجمجمة، أشعر وكأنّني سمكة مشلولة جاثمة في قاع البحر ولا تستطيع غير تحريك فمها إلى أن يتصلّب لسانها ويصير هو بدوره عظما.

- كفى مبالغة، بابا سيدي، لسانك بعيد حقّاً عن التّصلّب.

- حتّى الأشياء التي تفوق تصوّرنا وتبدو لنا مستحيلة ستحدث في يوم ما.

- سننتظر هذا اليوم.

- وفي الأثناء سأواصل الكلام، تأكّدوا من هذا ولا تُمنّوا أنفسكم، رغم أنّي أحياناً تنتابني الشّكوك في أنّ كلماتي سبقت الأحداث وأنّ سردي للأحداث طغى على الأحداث نفسها. كلّ هذا يذكّرني بصبيّ في صغري، بصبيّ عرفته أثناء عمري الأوّل كان أراد أن يقبض على ظلّي، طلب منّي أن أكفّ عن الحراك ثمّ نبش الأرض بيديه الصّغيرتين تماماً في المكان الذي كان فيه ظلّي، واصل النّبش إلى أن خُدشت يداه تماماً ولمّا ظنّ أنّه انتهى من مهمّته لاحظ أنّ ظلّي قد تغيّر في الأثناء. واصل إذن حفره متّبعاً كلّ تغيّر يطرأ على الظّل إلى أن نفد ما كان لديه من قوّة وما تحلّيتُ به أنا من صبر، تراجعنا إلى الوراء لتأمّل الظّل الذي قبض عليه فلم نرَ غير حفرة لا شكل لها، حفرة لم تشبه أيّاً من ظلالي الكثيرة، حزن الولد لتلك النّتيجة فعرضتُ عليه أن نذهب لجني الثّمار. هذا الصّبي الذي لا أستطيع أن أنساه لم يكن من بين أولئك الذين تمّ القبض عليهم يومَ بلغ عمري الأوّل نهايته، ولقد تساءلتُ فيما بعد أيّما تساؤل عن عدد الظّلال التي قد يكون أرسلها طول حياته، وعندما أحلم فإنّي أحلم أيضاً بلقاء هذا الصّبيّ مرّة أخرى، بلقائه ونحن رجلان بعد أن تقدّم بنا العمر، أودّ أن أطلب منه أن يحدّثني عن كلّ شيء يخصّه لعلّي بهذا أستحضر الحياة التي كانت

سُلبت منّي، لعلّي أراها أمامي مجسّدة لحما ودماً في شخص لم يُفلح في القبض على ظلّي، سواء في ذلك اليوم أو في ما تلاه من أيّام، لا لشيء إلاّ لأنّي لم أعرف بعدها لي ظلاّ. قد يُكتب لي أن أعلم من خلاله أنّي كانت لي ظلال أخرى. إنّه لحُلم جميل ومزعج في آن، كذا هي أحلامي، إنّها بمثابة الوجَبات التي يتمّ تحضيرها من طرف امرأة عاشقة وهجَرها حبيبها في نفس الوقت، كالوجَبات في حلاوة السّكّر وحرافة قرون شجرة البَاوْباب عندما تنمو وتترعرع في المقبرة. كحلم من الأحلام الأخرى التي لا أفلحُ في التخلّص منها، الحلم بالبحيرة وبمالك الحزين الذي لا يمكن في الحقيقة اعتباره حلما بقدر ما هو ظلّ ثابت لا يتحرّك لذكرى من الذّكريات. لذكرى البحيرة الثّانية ـ وحتّى أكون دقيقاً ـ لذكرى طائر جميل.
هذا يعني أنّ البحيرة الثّانية كانت موجودة، موجودة حقّاً، تماماً كما أكّد لنا العرب في كَازِيهْ، أمّا بْوانا سبيكي، أنا وبعض الحمّالين فقد بلغنا هذه البحيرة بعد نصف شهر من السّير بينما بقي بْوانا برتن في كَازِيهْ، ربّما بسبب مرضه وربّما أيضاً لأنّه فضّل البقاء مع العرب على مرافقة بْوانا سبيكي. وقفنا على هضبة صغيرة فامتدّت البحيرة الكبيرة الثّانية أمام أعيننا، كنّا أقلّ يأسا وانفعالا من اليوم الذي كنّا شاهدنا فيه البحيرة الكبيرة الأولى. كنّا كلّنا على هذه الحال، باستثناء بْوانا سبيكي الذي بدا وكأنّه شخص آخر. كانت النّظرة الأولى كافية ليتبيّن لنا أنّ هذه البحيرة كانت أكبر من أيّة بحيرة أخرى عرفناها نحن أو عرفها بْوانا سبيكي، كانت أكبر من البحيرة الأولى. وقفنا على الضّفة واندهشنا لمنظر الماء الذي لم نرَ له نهاية.
سمعنا خشخشة بالقرب منّا وإذا بأحد طيور مالك الحزين يخرج من صفوف القصب مرفرفاً أمامنا. بدت رفرفاته الأولى متخبّطة ثقيلة وكأنّ جناحيه أصابهما النّعاس، كان طائراً ممشوق البدن تجاهلَ القانون، ذلك القانون الذي يقضي بألاّ يمشي أو يطير حيوان أمام ناظريْ بْوانا سبيكي دون عقاب. صعد مالك الحزين في الجوّ ونحن ننظر إليه، زاد في سرعة

طيرانه ثمّ انساب في الفضاء بكلّ ثقة فوق رؤوسنا، طائر جمع لونه بين الرّمادي والأبيض والبنّي وبمنقار يشبه إبرة البوصلة. كان بْوانا سبيكي راضيا كلّ الرّضى، هذا ما لاحظناه عليه، إذ أنّه نادراً ما يظهر قلبه جليّاً على ملامحه، كان يخبّئه كما يخبّئ بعض الرّجال نساءهم، لكنه، على تلك الضّفة، خلع الحجاب. قال بلهجة منبريّة: هذا هو الشّيء الذي بحثنا عنه ثمّ مدّ يده وكأنّه أراد أن يضعها على البحيرة، كان حقّاً سعيداً، أمّا نحن فواصلنا النّظر إلى طائر مالك الحزين الذي كان، لأسباب سوف تبقى طيّ المجهول إلى الأبد، يحوم فوق رؤوسنا، نعم، فوق رؤوسنا تماماً. دوّت طلقة بارود، طبعاً طلقة وحيدة، فهوى طائر مالك الحزين كما تسقط الحجرة بينما عبّر بْوانا سبيكي عن ابتهاجه بصوت عال، رجّ بندقيّته كما تُرجّ مطَرةٌ أو زجاجة ورقص رقصة قصيرة، تماماً كما يفعل الوازُونغُو عندما يسيئون فهم المعنى الحقيقي للرّقص وعندما يشرع هو في النّداء: لقد بلغتُ هدفنا، لقد بلغتُ هدفنا. لم يتبع أحد منّا مالك الحزين بنظره لأنّ هذا قد يكون تسبّب في حصول مكروه. عوض أن نشارك بْوانا سبيكي ابتهاجه حدّقنا فيه لأنّنا لم نفهم سبب تبدّله، لم نفهم لماذا كانت البحيرة الثّانية أفضل من الأولى ولماذا تحتّم على مالك الحزين أن يموت.

ـ السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ـ وعليكم السّلام.

ـ كيف الحال أيّها الإخوة؟

ـ الحمد لله، الحمد لله.

ـ اجلس معنا قليلاً، إمامنا المحترم، نحن بصدد الاستماع إلى حكايات بابا سيدي التي تستحقّ هذا المساء أن نستمع إليها.

ـ لا تخفْ، الحكايات لا تعضُّ.

ـ لست خائفاً على نفسي.

ـ سوف لن تندم.

ـ سأبقى معكم قليلاً، اللّيل ما زال في مستهلّه.

ـ هكذا نفكّر دائماً ونقول: اللّيل ما زال في أوّله، إلى أن ينقضي فجأة.

ـ عليك أن تأخذ نصيباً من الرّاحة، إمامنا المحترم، خذ مكانك على الدّكة وسيكون لك في جلوسك إلينا نفع.

ـ سنرى إلى أيّ مدى سينفعني هذا. لا بأس، سأبقى في رفقتكم قليلاً.

ـ كنّا منذ لحظات نستمع إلى بابا سيدي وهو يتحدّث عن وصوله إلى بحيرة في اتّساع البحر تقريباً.

ـ معجزات الخالق لا حصر لها.

ـ نسيتَ أن تذكر أنّ أحد طيور مالك الحزين تمّ رميه بالرّصاص، بابا قدّوس، مالك الحزين هذا الذي هوى كما يهوي شهاب لامع، وهو جزء لا يتجزّأ من الحكاية، شأنه شأن البحيرة. كان بْوانا سبيكي راضيا، كذلك زاد انبساطه بعد أن غلّى ماءً وهو يحدّق النّظر في مقياس للوقت ودوّن جميع ضروب الأعداد لأنّه منذ أن بدأنا تنقّلنا بدون بْوانا برتن توطّدت علاقته مع كنّاشته. سألني: هل تعرف، سِيدي، ما الذي نشاهد أمامنا؟ قلتُ: لا، صاحب. إنّنا نشاهد منابع النّهر الذي يسمّى النّيل. لا بدّ أنّ النّيل العظيم يتغذّى من هذه البحيرة في مكان ما في الشمال. عجيب أنّ بْوانا سبيكي كان على علم بكلّ هذا.

ـ لقد حزَر.

ـ طبعاً، هو حزَر، لأنه لم يسبق له أن رأى المنابع من قبل، لكنّه حزر بكلّ رصانة لأنّه اتّضح خلال سفرتنا الثّانية أنّ تكهّنه كان صائبا. وقفنا معاً في الطّرف الآخر لتلك البحيرة العظيمة وشاهدنا معاً كيف أنّ النّهر نهَل منها.

ـ النّيل؟

ـ كنّا آنذاك لا نعلم، لا نعلم بالتّأكيد. لكنّ مْزُونغُو آخر كان اتّبع مرّة مجرى هذا النّهر، ولمّا بدأتُ رحلتي الثالثة علمت أنّ اللّغز قد تمّ فكّه وكلّ النّاس صاروا يعرفون أنّ النّيل ينبع من البحيرة الكبيرة الثّانية.

ـ كان إذن على صواب.

ـ بْوانا سبيكي كان على صواب ولم يكن على صواب في آن. هناك نهر ينبع من هذه البحيرة، وهذا النّهر يسمّونه النّيل، نعم، لكن هناك أنهار أخرى تصبّ في البحيرة الكبيرة الثّانية بحيث يمكن لكلّ من أحبّ الجدال أن يقول إنّ لكلّ نهر من هذه الأنهار منبعاً آخر خاصاً به وإنّ هذه المنابع هي في الحقيقة منابع النّيل لأنّ الماء الذي تدفع به في البحيرة الكبيرة الثّانية هو الذي يغذّي النّهر الذي يسمّونه النّيل. أراد بْوانا سبيكي أن يستكشف البحيرة للتّو، أراد أن يُدخل الرّجل الذي أخبرنا بالطّرف الآخر للبحيرة في خدمته، أراد أن يشتري زورقا وأن يطوف بكامل البحيرة ممّا قد يكون جعل رحلتنا تدوم شهوراً. ترجّيته أن يفكّر في ما بقي لنا من مخزون محدود، في الحمّالين المتعبين والذين قاموا بعملهم بامتعاض، في بْوانا برتن الذي كان ينتظر عودتنا في كَازِيهْ. قال وقد توهّج وجهه: أنت لا تدرك أهمّية الأمر بالنّسبة إليّ، عندما أحلّ مسألة المنابع حلاً لا شكّ بعده تكون الجائزة من نصيبي وأكون أنا الذي فككتُ بمفردي أكبر لغز على الإطلاق. أراد في الحقيقة أن يقول: بذلك سأكون غير مجبر على اقتسام الشّهرة مع بْوانا برتن.

ـ البشَر، كم هم مفْرطون في خيلائهم.

ـ وخاصّة الوازُونغُو.

ـ كلّنا هكذا! الإفراط في الخُيلاء يبدأ مثلاً باعتقادك أنّك معصوم منه.

ـ تمكّنتُ من إقناعه لأنّي أكّدت له أن الحمّالين سوف يهربون كلّهم لو لم نعُد قريباً إلى كَازِيهْ. لكن قبل أن نغادر البحيرة الكبيرة الثانية أراد أن يحتفل بنجاحه احتفالاً رسمياً يليق بالمناسبة. نادانا كلّنا وطلب منّا أن ندخل معه إلى الماء، ولمّا وصلتنا الأمواج حدّ الرّكبتين قال الرّجل الذي كان متعوّدا على الضّفة الأخرى: لا تتعجّبوا، هذه البحيرة عظيمة، تتدافع فوقها الأمواج وعندما تأتي العاصفة تصير هذه الأمواج أعلى من المنازل وكلّ من تفاجئه وهو في زورقه في عرض البحيرة فقد يكون مصيره الهلاك. قال بْوانا سبيكي: زيدوا، تقدّموا إلى الأمام، عليكم أن تبلغوا عمقاً كافياً يسمح لكم بالغطس، وبعد أن تغطسوا كلّيا في الماء عليكم أن تخرجوا ليحلِق كلّ منكم رأس الآخر ثمّ يمكنكم بعد ذلك أن تستحمّوا في هذا الماء المقدّس.

ـ مقدّس؟ أيّ ماء مقدّس؟

ـ هكذا قال، لكنّي رفضت قائلاً: لا أحد منّا يجيد السّباحة. لا خوف عليكم، سيمسك كلّ منكم بالآخر وسأسهر أنا على سلامتكم. نقلتُ اقتراحاته للحمّالين فصاح أحد الرّجال: شَعْري؟ ماذا يريد المْزُونغُو أن يفعل بشعري؟ وسأل آخر: ما هو الثّمن الذي سيدفعه بالمقابل؟ ثمّ قال ثالث: هذا الرّجل يجب أن نذهب به إلى مْغانْغَا في أقرب وقت ممكن، في رأسه يعشّش أكثر من جُعل. شرحت لبْوانا سبيكي أنّ الحمّالين يرفضون تقديم شعر رؤوسهم قرباناً وأن يغطسوا في الماء. لكنّه واصل وهو يترجّاني: إنّه حقّاً لحفل جميل، لا بدّ أنّك عشت مثله لمّا أقمت في الهند، سِيدي، إنّه الحمّام المبارك في الماء المقدّس.

ـ ماء زمزم لا يُستحمّ فيه.

ـ طبعاً لا، لكنّ البَنيان يعتقدون أنّ هناك أنهارا مقدّسة، لذلك هم، عوض أن يصلّوا، تراهم يستحمّون. قلتُ لبْوانا سبيكي: لسنا في الهند، ثمّ ما الذي يدلّنا على أنّ هذا الماء مقدّس؟ قال: إنّه منبع النّيل، فكيف لا يكون مقدّسا؟ سألته بدوري: هل من الممكن أن نقرّر، هكذا وبكلّ سهولة، أيّ المياه هو مقدّس؟ أجابني: فكّرْ قليلاً في السّبب الرّئيسي الذي اختُلقت من أجله هذه الاحتفالات، لا بدّ أنّ أحداً في يوم من الأيّام قال أو فعل شيئاً وأنّ آخرين صدّقوه وفعلوا كما فعل، واليوم صرنا كلّنا نرتعد إجلالا وتقديراً للطّقوس والعادات.

ـ لقد أهان نبيّنا صلّى الله عليه وسلّم.

ـ هوّن عليك ولا تنفعل، يا إمامنا المحترم.

ـ ماذا؟ ماذا تقول؟ هذا الكافر يُهين..

ـ لقد مرّ وقت طويل على كلّ هذا.

ـ لعلّ بابا سِيدي لم ينقل لنا عباراته كما جاءت على لسانه هو؟

ـ لم يهن النّبي.

ـ ماذا؟ أنت الذي نقلت لنا ما جاء على لسانه.

ـ كان، حسب علمي، لا يعرف شيئاً عن النّبي، أعني أنّه لا بدّ كان سمع به، أنّه عرف شيئاً قليلاً عن الإسلام لكنّ معرفته به لم تكن متجذّرة. كان في تلك اللّحظة لا يبحث إلاّ عن شيء يعُجّ قدسيّة، عن شيء له تأثير عظيم، عن شيء يتماشى والمشاعر الفيّاضة التي أيقظها اكتشافه في داخله. أراد أن يحتفل بالمناسبة لكنّه كان يجهل الطّريقة التي من شأنها أن تجعلنا نحتفل بها سويّة ونقدّرها حقّ قدرها.

ـ الشّيء الذي لا أفهمه هو أنكم تبتهجون لسماع هذه الحكايات كلّ مساء ودون انقطاع، تبتهجون إلى حدّ أنكم صرتم لا تهتمّون بعائلاتكم. طيور مالك الحزين يتمّ صيدها، شَعر مقصوص وكافر يتحدّث من خلاله الشّيطان.

ـ نحن نتعلّم من الدّنيا، أيّها الإمام، هل في هذا ضرر؟

ـ أظنّ أنّ الإمام يتصرّف حسب المقولة: لا تتعلّم شيئاً حتّى لا تضع شيئاً موضع الشكّ.

ـ هل تريد بدورك أن تهين إمامنا؟

ـ وأنتم، هل تحبّذون الاستياء من كلّ شيء غير صادر عن أفواهكم؟

ـ الأفضل بالنّسبة إليكم هو أن تقرؤوا القرآن الكريم أين تجدون ما يكفي من القصص، قصصاً قديمة، حكمتها أزليّة. أمّا الآن فيجب أن أترككم يا إخوتي. السّلام عليكم.

ـ وعليكم السّلام، أيّها الإمام المحترم.

ـ وعليكم السّلام.

ـ لم يبقَ معنا طويلاً.

ـ مدّة أطول من بقاء بابا سِيدي في المسجد.

ـ أنتما الاثنان سوف لن تتّفقا أبداً.

ـ ربّما في الآخرة.

ـ أخبروني يا إخوتي، إنّي لا أكفّ عن التّساؤل هل إنّ القرآن يُقرأ في الجنّة أيضاً أم إنّ وظيفته تتمثّل فقط في الهداية إلى هناك؟

ـ كان عليك أن تسأل الإمام.

ـ جاءتني الفكرة بعد أن ذهب.

ـ حسناً فعلت فكرتك!

ـ بالمناسبة، ماذا كان اسم البحيرة الكبيرة الثّانية؟

ـ نِيَانْزَا. هذا ما قاله لنا الرّجل الذي كان يعرف ضفّتها الأخرى. هذا الاسم لم يرُق لبْوانا سبيكي، كان يريد اسماً آخر. لقد أسند إلى كلّ الأماكن التي رآها خلال تلك الرّحلة القصيرة بدون بْوانا برتن للتّو أسماءً كمن وزّع هدايا على أطفال ينتمون إلى عائلات معوزة. كان كلّما قرّر اعتماد تسمية ما إلاّ وطلب منّي أن أحيط الحمّالين علما بالاسم الجديد. أعلمتهم بالأسماء الجديدة التي أثارت استغرابهم من هذه العادة التي لم يجدوا لها تفسيراً. قال أحدهم: لعلّه لا يستطيع تذكّر الأشياء إلاّ إذا سمّاها بنفسه. فحتّى قبل أن يرى بْوانا سبيكي الضّفة الأخرى للبحيرة، الجهة الأخرى للرّبوة أو الطّرف الآخر للوادي أعطى البحيرة، الرّبوة والوادي أسماء. لمّا كنّا جاهدين في صعود الرّبوة الوعرة التي رأينا من فوقها البحيرة الكبيرة الثّانية لأوّل مرّة ونحن نتنفّس بصعوبة ، أطلق على هذه الرّبوة اسم سُومرْسِتْ. الخليج الصّغير الذي كان تحتنا سمّاه جُوردَانْ، أمّا أحد الصّخور التي امتدّت إلى داخل البحيرة فحصلت منذ تلك اللّحظة على اسم برتن بُويْنْتْ، كذلك سُمّي أحد الأجْوان سبيكي شَانيلْ. مجموعة من الجزر أطلق عليها بْوانا سبيكي اسم بنغالْ أرْشِيبيلاَغُو، أمّا البحيرة في حدّ ذاتها، هذه البحيرة التي بدت شاسعة كالبحر، فقد سمّاها بكل تأثّر وبصوت منبريّ، وكأنّه كان يخطب أمام مجلس الأعيان، فيكْتُوريَا. وما زال الوازُونغُو إلى اليوم يسمّون البحيرة بهذا الاسم، على كلّ حال سمعتهم أثناء سفرتي الأخيرة يذكرونها بهذا الاسم، أمّا اليوم، وقد رفع الوازُونغُو رايتهم بعدُ في مينائنا، من يدري كم ستبقى البحيرة حاملة اسمَ إحدى نسائهم. أغلب الوازُونغُو فخورون بهذه

التسمية لأنهم يعتقدون أنّ البحيرة سمّيت فيكْتُوريَا تكريما لملكتهم. لكنّ بْوانا سبيكي سبق له أن أسرّ إليّ في مساء ذلك اليوم أنّ التّسمية كانت مجرّد صدفة سعيدة، أنّ أمّه وملكة بلاده تحملان نفس الاسم، وهكذا يكون أهدى البحيرة التي اكتشفها أمَّه دون أن يجرؤ أحد على اتّهامه بأنّه قام بإهداء ليس فيه إنصاف. كيف، صاحب؟ البحيرة لها اسم، البحيرة اسمها بحيرة نِيَانْزَا. صاح بْوانا سبيكي بينمَا لاح الغضب شيئاً فشيئاً على وجهه: هذرٌ. كيف يمكن أن يكون لهذه البحيرة اسم إذا أنا لم أكتشفها إلاّ اليوم؟ ألا تفهم، سِيدي، إلى اليوم هذه البحيرة غير موجودة على الخارطة. أربكتني كلماته، فكّرتُ مليّاً في الأمر وقلت في نفسي، لا ضرر في أن تحصل البحيرات والجبال والأنهار على أسماء عديدة، طالما نطقت الأفواه بأسماء لأسماعَ مختلفة، بأسماء تتحدّث عن خاصّيات أخرى وتعبّر عن آمال أخرى. غير أنّي حسبت أشياء وأشياء دون أن أقرأ حسابا لجلاّب الضّرائب، زرعتُ بذوري قريباً جدّاً من مجرى الماء ولم أنتبه إلى خطر الفيضان. الوازُونغُو لا يقبلون إلاّ باسم وحيد للأشياء، هم عنيدون كالحمير ولا يريدون التّعامل مع أسماء مختلفة لا يرضون بها تسمية لنفس المكان. لمّا عدنا إلى كَازِيهْ أين كان بْوانا برتن في انتظارنا وتحدّثنا هناك مع العرب عن البحيرة ألحّ علينا بْوانا سبيكي بأن نتحدث عن بحيرة فيكْتُوريَا. كان عليّ أن أشرح للعرب أنّ بْوانا سبيكي، وإن نطق باسم فيكْتُوريَا، فهو يقصد في الحقيقة كلمة نِيَانْزَا، ممّا حمل أحد العرب على سؤالي بحدّة عن السّبب الذي يجعل المْزُونغُو يقول ما لا يقصد وهل أنّ لديه ما يخبّئه عنهم. دائماً، وفي كلّ مرّة صار فيها الجواب عسيرا، كان بْوانا برتن يتدخّل ويذلّل كلّ ما ينشأ من صعاب بلغة عربيّة انسابت من فمه كالزّبدة الذّائبة. لكن يجب أن أقول أيضاً أنّ بْوانا سبيكي طلب منّي عديد المرّات مدّه بالأسماء المحلّية الّتي كتبها فيما بعد بحروف صغيرة تحت

تلك الأسماء التي أوجدها بنفسه. سألتُ عن الأسماء المتداولة وأعلمته بها، نِيَانْزَا بالنّسبة إلى البحيرة الكبيرة، أُوكِيرِيفِي بالنّسبة إلى الجزُر داخل البحيرة الكبيرة، وهكذا كان يتمكّن من نسخ المزيد من الأسماء في كنّاشته، تلك التي أوْجدها هو والأسماء الموروثة الأخرى لو لم تتمّ دعوتنا إلى حفل تناولنا خلاله قدراً هائلاً من جعة الموز بقي طعمها عالقاً بلساني لأيّام عديدة أخرى، صار لكلّ شيء فيها مذاق الجعة، الحساء، اللّحم والبطاطا الحلوة. أنتم تعلمون جيّداً أنّي عادة لا أتناول المشروبات الكحولية لكن يومها كانت الشّيء الوحيد الذي أفلح في إنعاشنا. لقد دعانا رجال القرية وحضّروا الجعة احتفاء بنا. شرب كلّ الحمّالين منها وشربت أنا معهم. تمكنّا في تلك اللّيلة من تضميد جراحنا حقّاً، صببنا جمّ غضبنا وامتعاضنا على الرّحلة وعلى الوازُونغُو، كما قصّ علينا ضيف آخر من ضيوف القرية حكاية، قصّة رجل كان يعيش على ضفّة أخرى من ضفاف البحيرة وأطلق عليها اسم لُولْفِي، ولمّا استفسرنا عن معنى هذا الاسم قال لنا إنّه اسم لمارد جبّار كان كلّما انتقل من مكان كان جثم فيه لقضاء حاجته ترك وراءه بحيرة، بحيرات صغيرة ومتوسّطة، وذات ليلة خلّف وراءه كمّية من المياه لم يسبق له أن ترك مثلها من قبل أبداً، وفي الصّباح الموالي تعجّب النّاس لمّا رأوا أمامهم بحيرة لا ضفاف لها.

ـ لا بدّ أنّه تناول من جعة الموز أكثر من اللاّزم.

ـ نعم، أكثر من اللاّزم بكثير. كانت تلك قصّة شيّقة تولّدت عنها فكرة وجدناها كلّنا رائعة. هذه الفكرة تمثّلت في أن نبحث لأنفسنا عن أسماء نقدّمها للمْزُونغُو الذي سوف يأخذها معه إلى بلاده، أسماء تسخر من كلّ من يقرأها دون أن يتفطّن إلى سخريتها منه، أسماء مثل التّفريغ الكبير للمُثانة بالنّسبة للبحيرة التي سبق وأن تناولنا على ضفافها ما طاب لنا من

جعة الموز. كانت فكرة جميلة سارعنا إلى وضعها حيّز التّطبيق، فكّرنا في الأسماء ونحن نواصل شُرب جعة الموز، وبداية من اليوم الموالي وجدت أسماؤنا طريقها إلى كنّاشة بْوانا سبيكي. سألني : كيف يسمّي الأهالي هذا النّهر؟ فأجبته: هذا النّهر تسمّيه قبيلة وَاكِيرِيفِي القرد المقمّل. ولمّا سأل عن اسم ربوة أجبته: هذه الرّبوة تسمّيها قبيلة وَاكِيرِيفِي العجُز الذي يعجّ بالثّآليل. ولمّا أراد أن يعرف إن كان لأحد الأودية العميقة اسم، قلتُ له: هذا الوادي تسمّيه قبيلة وَاكِيرِيفِي: الموضع الذي يلِجُه الذّكَر فيخرج منه رضيع. لا تنظر إليّ بكلّ هذا الفزع والامتعاض، بابا قدّوس، كان هذا مجرّد دعابة ثقيلة، أعترف بهذا، لكنّها ليست ثقيلة بالدّرجة التي سمح بها بْوانا سبيكي لنفسه بغزو كلّ العالم بالأسماء التي اختلقها. وإذا سمعتَني أتكلّم همساً فليس لأنّي خجل من أجل هذه الدّعابة وإنّما لأنّ هناك في الطّابق العلوي من يترصّدنا ولا تعجبه هذه القصّة أيضاً. لا بل انتظروا، تذكّرت شيئاً آخر من أجمل ما يكون، تذكّرت اسم ربْوتين كانتا تتشابهان إلى حدّ كبير وكان اسمهما بلغة قبيلة وَاكِيرِيفِي ـ لا بدّ أنكم تعرفون ما سأقول ـ نهْدَا الملك البدين. أسعدتنا هذه الدّعابة لكنّنا نسيناها بحلول موعد الرّحلة الثّانية. في الأثناء نما ابني البكر حميد وصار يقف على رجليه. عندما أراني بْوانا سبيكي الخرائط التي أمر برسمها في بلده قرأ عليّ أسماء الأماكن التي شاهدناها معاً. سمعتُ الاسم فيكتوريا والاسم سُومرْستْ ثمّ أشار إلى أحرف صغيرة وقال إنّها الأسماء التي مددتُه بها، الأسماء التي يستعملها النّاس الذين يعيشون في تلك المناطق، فرجوته أن يقرأ على مسمعي بعض تلك الأسماء، وحقّا، رغم أنّه لاك الكلمات في فمه، جاءت العبارات مفهومة، قال: عجُز كلّه ثآليل، وقال أيضاً: نهدا الملك البدين، وتأكّدوا يا إخوتي، لقد صعب عليّ كثيراً أن أكبت الضّحك بداخلي.

ـ هل يعني كلّ هذا أنّي لو سافرتُ إلى بلاد الوازُونغو واشتريت إحدى هذه الخرائط يمكنني قراءة كل دعابات بابا سيدي السّخيفة؟

ـ طبعاً، بابا علي، لكن عليك أن تعجّل بإنجاز مهمّتك لأنّ الوازُونغُو دقيقون وقد يجوب أحدهم قريباً هذه المناطق ويحصل على معلومات جديدة. هذه الخرائط يتمّ رسمها من جديد باستمرار لأنّ في هذا لعبةً مفضّلة لدى الوازُونغُو، لا بل في هذا أكثر من لعبة لأنّ هيبة بعض النّاس واعتزازهم بأنفسهم يصيران متوقّفين عليها، ناهيك أنّ الصّداقة بين بْوانا برتن وبْوانا سبيكي تحطّمت نهائيّاً بسبب هذه الخرائط.

ـ كيف؟

* * *

صوتٌ. صوتٌ فيه وخزٌ. نبرة شاكية تتلوّى. آخر طبقة في السّلّم الموسيقي تعلق كاملة بحنجرته فتخنقه. صيحتان تغرسان خنجرا في نومه الخفيف. يتبادر أوّلاً إلى ذهنه أن هاتين الصّيحتين خرجتا من حلم يتحوّل إلى يقظة لكنّه سرعان ما يحسّ بالسّماء المنخفضة لخيمته وبعالمه الصّغير الذي يحيط به من كلّ جانب. صيحات الألم تأتي من الخارج. ينهض، يمسك ببندقيّته، يزحف إلى خارج الخيمة، لا يستطيع التّعرّف على مصدر الخطر، لا يراه في فجر يغلب عليه النّعاس، تخترق الصّيحة دماغه، يحرّك سلاحه بغتة في الهواء، يستعدّ لإطلاق النّار لكنّه لا يرى غير طير، طير قبيح المنظر يفتح منقاره ويرسل صيحة، تلك الصّيحة التي كانت أودت بنومه. يتملّك برتن غضب جامح إزاء هذا الطّائر الصّغير جدّاً والذي يسمح لنفسه بمثل هذا الصّراخ العالي. يمسك بسلاحه من ماسورته ويلوّح به في الهواء، يتمكّن الطّائر من مواصلة طيرانه ويطلق زقزقات قصيرة كلّها استياء تترك برتن وراءها بقلق متزايد.

كانا غادرا كَازِيهْ قبل ذلك بيوم لقطع آخر مسافة على طريق العودة.
كان لا بدّ عليهما، قبل بدء رحلة العودة، أن يُدخلا حمّالين جدداً في خدمتهما. وقفوا أمامه، حصادٌ آخر من النّيَمْويزِي تمّ جمعُه من طرف سناي بن عامر، رجال شبّان تأنّقوا رغم قلّة صبرهم، مفرطون في النّشاط وبِبراءة تنتعش لها النّفوس. منهم من وقف على رجل واحدة كما تفعل الغرانيق في نهر مَالاَغَارَازِي، ألصقوا رجلهم المرفوعة بتلك التي بقيت واقفة وأحاطوا من وقف بجانبهم يمنة ويسرة بذراعهم، حركة يغلب عليها التّكاسل والاسترخاء قد لا تدوم أكثر من الأسبوع الأوّل، كذلك قرفص آخرون على أعقابهم وأحاطوا رُكبَهم بذراعيهم وهم يتطلّعون إلى قائد الرّحلة بتشوّق.

غادر كَازِيهْ على مضض. من جديد اتّخذ هذا المكان بالنّسبة إليه مظهر الواحة، وهل هناك حقّاً من يسهل عليه مغادرة واحة؟ من يسهل عليه الدّخول في مغامرة عبر صحاري أُوجُوجُو المقفرة؟ لم يخشَ ما كان ينتظره ولم يتوجّس منه خيفة. كان الأمر أشدّ وقعا على نفسه. استبقَ الأحداث بخواطره فتصوَّر له الألم الذي قد يكون في انتظاره، تصوّرَ له العذاب. لم يكن هذا خوفاً وإنّما شعوراً بالانزعاج قد يدوم طويلاً ـ كان يعلم كل هذا وكان هذا العِلم بمثابة اللّعنة التي ترافق كل رحلة عودة. خصوصاً وأنّه لم يسعد قطّ بالنّهاية التي وصلت إليها الأمور. كان سبيكي جدّ مفتونا بالتّفسير الأخرق وغير المفهوم الذي جاء به حلاً للّغز الكبير. رسومُه وتكهّناته الخرائطيّة لم يكن من الممكن اتخاذها منطلقا لتفسير منطقيّ. في أنهاره جرى الماء صوب قمّة الجبل وكذلك نضبت مياه البحيرات بعد أن سالت في الاتّجاه الذي سطّره لها. كان الأمر يبعث على الضّحك، لكن رغم كل هذا ـ هذه الخاطرة حيّرت برتن وأفسدت عليه جوّ العودة ـ لم يكن مستبعدا أنّ سبيكي كان، ولو بطريقة غير مباشرة، على حقّ. كان من

الممكن اعتبار كلّ التفاصيل التي أوردها مغلوطة بإستثناء الفرضيّة الكبرى التي قد يكون أصاب فيها. سوف يحتدّ الجدل بينهما بمجرّد أن تطأ قدماهما الأرض البريطانية، سوف تغذّي ناره مداخلات العموم، أعداؤه الكثيرون سوف تغمرهم الفرحة ويغتنمون هذه الفرصة، الأقاويل والتّكهنات العديدة سوف تمكّن كلّ واحد من الانضمام بدون أيّ التباس إلى الجهة التي يتحالف معها. كان لا يستطيع البقاء في كَازِيهْ، أمّا الرّجوع إلى إنجلترا، البلد الوحيد على وجه البسيطة الذي لم يتمكّن أبداً من التّأقلم معه، فكان أشدّ ما يمقت. قال في نفسه وقد تملّكه العبوس: مؤشّرات جدّ طيّبة للتّوغل من جديد في الصّحاري المقفرة.

* * *

سيدي مبارك بُمباي

شكّك بْوانا برتن في ادّعاء بْوانا سبيكي من أنّ البحيرة الكبيرة الثّانية هي منبع النّهر الذي يسمّى النّيل. وفي حال صحّة هذا القول فعليه إقامة الدّليل عليه، إقامة دليل لا يستند فقط إلى كون بْوانا سبيكي رأى البحيرة بنفسه، بحيرةً كان كلّ على علم بوجودها. لمّا كنت وبْوانا سبيكي على سفر كان بْوانا برتن وضع في كَازِيهْ رسوما خرائطية انطلاقاً من معلومات مدّه بها سناي بن عامر والعرب الآخرون، ولمّا عدنا إلى هناك قارن الوازُونغُو موقع البحيرة وحدودها على خارطتيهما المختلفتين فلم يكن هناك فرق بين رسوم بْوانا برتن ورسوم بْوانا سبيكي، عندئذ قال بْوانا برتن: هل رأيت؟ لقد أجهدت نفسك بدون موجب، كنّا مسبّقا وبصفة إجمالية على علم بهذه الحقائق.

ـ حقّاً، لسان البشر هو أحدّ الخناجر.

ـ غير أنّ بْوانا برتن، بعد أن درس خارطة بْوانا سبيكي بأكثر دقّة

واستمع إلى أقواله بانتباه أكبر، اضطُرّ إلى إدخال تغييرات على خارطته. كما تعلمون، لا يكون لضخامة الحيوان الذي أفلحنا في صيده اعتبار إلاّ مقارنة بضخامة الحيوان الذي يدّعي خصمنا أنّه اصطاده. كان عليه أن يقيم الدّليل بواسطة خارطته على أنّ البحيرة الكبيرة الأولى هي منبع النّهر الذي يسمّونه النّيل. دخلتُ ذات مساء إلى غرفته، في المنزل الذي سكنه بمعيّة بْوانا سبيكي، أردتُ أن أساله في أمر ما، فوجدته بصدد الرّسم، بدا عليه السّرور لتواجدي هناك وسألني بعض الشّيء عن تفاصيل تتعلّق برحلتنا القصيرة إلى البحيرة الكبيرة الثّانية. شرح لي بعد ذلك محتوى خارطته بإسهاب وكأنّ الحقيقة تتطلّب موافقتي. كانت الأسماء الموضوعة على خارطته والتي قرأها عليّ أسماء مثل شنْجانيقا ونيَانْزَا، ولا بدّ أنّه كان لاحظ استغرابي لمّا قال لي إنّه لا يوجد بالنّسبة إليه ما هو أحمق وأسخف من أن تُلصق أسماء إنجليزية بأماكن بعيدة داخل هذه البلاد. لم أتعرّف فوق الخارطة على هاتين البحيرتين فقط بل شاهدت كذلك جبالا، لم أفهم كلّ شيء شرحه لي لكنّني فهمتُ ما قاله من أنّها جبال، جبال لم يشاهدها في الواقع أحد منّا، لكنّه افترض وجودها لأنّ كُتبه تذكرها، هذه الجبال التي سمّاها جبال القمر وتمادى في تحريكها على خارطته إلى أن وقفت حجر عثرة أمام ادّعاء بْوانا سبيكي الذي كان يُروّج لكون البحيرة الكبيرة الثّانية هي المنبع.

- المرء ليس باستطاعته أن يمتطي صهوة الجواد وظهر الحمار في آن واحد.

- هذا كلام مصيب حقّاً، لكن إذا تجادل اثنان فيمكن أيضاً أن يكونا معاً على صواب.

- بابا سيدي، لقد تعوّدتُ على أن يكون لي دماغ كسلان، زد على

هذا أني متقدّم في السّن، شأني شأن أمسيتنا هذه، ولا أفهم كلمة واحدة ممّا تقول.

ـ لا يهُمّ، لا يهُمّ، بابا برهان، الأمر يتعلّق برجلين من الوازُونغُو حرّكا جبالا عظيمة كما طاب لهما من هنا إلى هناك.

ـ الجِبال التي لم يرها أحد قطّ لا يمكن تحريكها من مكانها.

ـ عثر بْوانا برتن على بعض الأخطاء في خرائط بْوانا سبيكي فنبّهه إليها، ممّا جعل بْوانا سبيكي يدخل تغييرات على رسومه. شاهدتُ الرّسوم في غرفته، لقد صغّر من حجم البحيرة الأولى، زاد في حجم الثّانية وحوّل الجبال في اتّجاه الشّمال. اختلطت عليّ الأمور لأني لم أتمكّن من فهم الأسباب التي جعلت الوازُونغُو اللّذين عُرِفا بتوخّيهما الدّقة يتهاونان في تعاملهما مع تلك الخرائط التي كانا خاطرَا بحياتهما من أجلها. لكن لمّا تحدّثتُ مع المْغانْغَا حول هذا التّصرف الغريب للوازُونغُو قصّ عليّ خرافة الجبال والإخوة الثّلاثة الذين سافروا من مكان إلى آخر تلبية لطلب أبيهم، ملك الجبال، ففهمتُ ما بقي غامضا بالنّسبة إليّ إلى حدّ تلك السّاعة، فهمتُ أنّ خرائط الوازُونغُو كانت بمثابة القصص الخرافية وأنّ بْوانا سبيكي وبْوانا برتن كانا يحوّران قِصصهما الخيالية باستمرار كما يليق بقصّاصين خرافيين مهرة.

* * *

كُنَاشة بْوانا برتن المفتوحة تُسجّل ثلاثة أشهر وعشر نوبات حمّى منذ أن غادرت القافلة كَازِيهْ مجدّداً. يكون في بعض الأمسيات مشلول الحركة وفي أمسيات أخرى يكاد يكون أعمى. صار من غير الممكن حماية المخيّم من البلل. الأمطار تنهمر فوق رؤوسهم منذ أيّام. وعندما تكفّ عن النّزول تصير للسّاعات أجنحة بيضاء تبسطها في الرّطوبة إلى أن تفوق

أعداد النّمل الأبيض أعداد الثّواني. اللّيالي تزداد برودة. حتّى الكوابيس التي تقضّ نومه تعاني من رجفات الحمّى.

سبيكي مستلقٍ بجانبه ويتحدّث. يتحدّث عن شتّى أنواع المعاناة. إنّه يجد راحة عندما يحصرها في كلمات ويلفظها بين أنّة وسعال. في الخارج يهطل المطر بغزارة. سبق له أن مرض أكثر من مرّة لكنّ هذا الانهيار الجسدي هو الأشدّ وطأة لحدّ الآن. كان في البداية شعور بألم حارق وكأنّ حديداً متوهّجاً ضغط على النّصف الأيمن لصدره. انطلق الألم من هناك وانتشر فوصل إلى القلب بوخزه الحادّ ثمّ إلى الطّحال أين مكث، داهم الجزء الأعلى من الرّئة ثمّ استقرّ في الكبد. كبدي! كبدي! هذا ما ردّده سبيكي قبل أن يعود من جديد إلى حالة من الغيبوبة.

يفيق في الصّباح الموالي من كابوس رأى فيه نفسه ملجّما بعُدّة من المناقر الحديدية ويجرّه على الأرضيّة قطيع من النّمور وبهائم مزعجة أخرى. يعتدل في جلسته ويشدّ جنبه. ألم فضيع. سأل بُمباي: هل من الممكن أن أجرّب شيئا؟ يسمح له برتن فيرفع بُمباي ذراع سبيكي اليمنى إلى أعلى ويطلب من هذا الأخير أن يمرّر ذراعه اليسرى من وراء رأسه ليخفّ ضغطُ الرّئة على الكبد. يتراجع الوخز المؤلم حقّاً. ينظر برتن إلى بُمباي مستحسنا ما فعل. لا يكاد الأسوأُ يمرّ حتّى ينتكس سبيكي ويعاوده ما يشبه نوبة صرْع. ومن جديد يقتلع مردةٌ جبابرة أوتارا من جسمه ويلوكونها وكأنّها لحمٌ مدخّن. يبقى بعد النّوبة ملقى على السّرير المتنقّل وأطرافه قد نال منها التّشنج وعضلات وجهه متوتّرة جامدة وعيناه باهتتان. يبدأ في الكلام فيتحوّل كلامه إلى نباح وتصدر عن فمه ولسانه حركات غريبة وغير متّزنة. يكاد لا يقدر على التّنفّس. يصفو لديه الفكر عندما يغلب عليه الاعتقاد أنّه يقترب من الموت فيطلب ورقا وقلما من برتن

ويحرّر بيد مرتعشة رسالة وداع مشوّشة إلى أمّه وعائلته. لكنّ قلبه لا يسلّم بالهزيمة. المناقرُ الحديدية الصّغيرة التي تمادت في وخزه تتوارى شيئاً فشيئاً. تمرّ ساعات بأكملها فيسمع برتن، الذي تذهب به غفوة، سبيكي وهو يغمغم: الخناجر عادت إلى أغمادها.

* * *

سيدي مبارك بُمباي

كان عذابنا لا حدود له، ما إن انتهى ألم إلاّ ونشأ آخر، ما إن تخلّصنا من عبء إلاّ وحلّ مكانه عبء ثان، لقد تساءلتُ مرارا: ما الذي يجعلنا نتحمّل كلّ هذا؟ ما الذي يجعل الوازُونغُو يتحمّلون كلّ هذا العذاب؟ الوازُونغُو الذين جاؤوا من بلد يختلف فيه كلّ شيء عمّا لدينا، حرارة الطّقس، الحيوانات وحتّى الأمراض. لكنّي لم أدرك إلاّ في آخر الرّحلة الأولى ما كان عليّ أن أعرفه منذ البداية: الوازُونغُو لا يشعرون بالحياة بدون هذا العذاب. كما لم يتبيّن لي إلاّ قبل بداية رحلة عودتنا بقليل أنّهم مدمنون على هذا العذاب إدمان الآخرين على الكحول أو القات أو الغَانيَا. لذلك لم أندهش لرؤية الوازُونغُو من جديد بعد مرور فصلين من الرّياح الموسمية وحميد ما زال لم يولد بعد. عاد بْوانا سبيكي من جديد إلى زنجبار يصحبه هذه المرّة شخص آخر، هذا أيضاً لم يُثر استغرابي، رجل هادئ الطّبع يدعى بْوانا غرانْت كان بمثابة البديل المملّ لبْوانا برتن. كذلك عاد الآخرون باستمرار، بْوانا ستانْلاي وبْوانا كَامِرُنْ، كانوا كلّهم يستهويهم عذابهم، كلّهم، باستثناء أولئك الذين لم يبقوا على قيد الحياة. كلّما بدأت أجسامهم في التّعافي من جديد إلاّ وشرعوا في التّخطيط لرحلة أخرى دون أن يفكّروا البتّة في جعلها هذه المرّة أكثر راحة وأقلّ تعقيداً. لا، بل بالعكس، كانوا كلّ مرّة يتعرّضون لآلام أشدّ وطأة ويُبحرون أكثر في حدود

الخطّ الذي يفصلهم عن الموت. كانوا بمثابة الصيّاد الذي لا يكتفي بالإبحار إلى ما وراء الشّعاب المرجانية ويحسب نفسه مجبوراً على القيام بمحاولات للوصول إلى أماكن يستحيل العبور منها، إلى أماكن لا بدّ أن يتحطّم فيها زورقه لا محالة.

كان بْوانا برتن الأكثر عنادا، كان لا يقبل حتّى بتوقّف العذاب والانتظار ليعود إلى بلده لينطلق من هناك من جديد. بلغنا زُونغُوميرُو وكنّا نعلم أنّ مسافة نصف شهر من السّير كانت تفصلنا عن السّاحل، تمثّلت لأعيننا ديارُنا وعائلاتنا، على الأقلّ بالنّسبة لمن كان له منزل وعائلة، كانت فقط على بعد نصف شهر من المشقّة عندما قال بْوانا برتن إنّه بقي لنا أن نبحث عن الطّريق المؤدّية إلى كِيلْوَا. سألتُ: أيّة كِيلْوَا؟ لأنّي تشجّعت وأردت أن أكون أوّل من يخالفه الرّأي علنا. أجاب: المدينة العتيقة في الجنوب. هل أنت الذي تتكلّم أم هي الحمّى تنطق بلسانك؟ إذا فضّلتَ عدم العودة فستكون لغزا بالنسبة لكلّ الآخرين وسيتوجّب عليك مواصلة ما تبقّى من مسافة لوحدك لأنّنا كلّنا لم يبق لنا غير هدف واحد. قال بصوت عال: ستفعلون ما آمركم به. قال هذا بصوت جهوري انبعثت منه إرادة الحسم في الأمور لكن بنبرة غلب عليها اليأس. نظرت حولي فشاهدت كلّ النّاجين من الموت وفهمتُ في تلك اللّحظة أنّنا كنّا كلّنا متّفقين على عدم الامتثال والرّفض حالاً، بدون نقاش. وهكذا انصرف الحمّالون، انصرف البلوشيون وانصرف أيضاً سعيد بن سالم وسيدي مبارك بُمباي وتركوا بْوانا برتن لوحده، تركوا مجنونا فشل في مواصلة فرض جنونه على غيره.

* * *

أخيراً كفّت الأمطار عن النّزول. صارت الأرض ثقيلة بسبب هطولها

لأيّام بأكملها. يَسمع دقَّ طبول ـ أم هل إنّه يتخيّله فحسب؟ ـ، دقَّ طبول غريب له وقع أكثر تهديداً من قرقعة الخراطيش التي يفرقعها القَطر. ورغم هذا لا يسمع غير همس، وقبل أن يتمكّن من الاندفاع إلى خارج الخيمة يصل إلى مسمعه أزيز، صوت لا يستطيع التّعرّف عليه فيزيد من إزعاجه. لا يجد لقدميه موطئاً خارج الخيمة، في ظلام حالك لم يستنز بغير الأصوات المبهمة، تُسحب الأرض من تحته حالاً قبل أن يتمكّن من النّظر من حوله. تتحرّك الأرض بين يديه ويسمع المنحدر ينهار كليّاً. يسقط برتن أرضاً بعد أن ينزلق ويبقى مستلقياً على جنبه بوجع في الضّلوع وساق يمنى مرفوعة، يحاول النهوض، يبحث عن مُرتكز، رجله لا فائدة ترتجى منها بعد أن تحوّلت إلى مِرساة ثلمةٍ، يتمادى في الانزلاق وقد وقع في مخالب قوّةٍ عاتية. ترتسم بذهنه فكرة: المخيّم، كلّ المخيّم تجرفه السّيول. يتمّ طمرنا أحياءً في الوحل. يصرخ: جاكْ! يا جاكْ! كتلة ثقيلة تسقط عليه وتدكّه دكّا. ينحصر الألم في مستوى كِليته اليمنى، يتدحرج، ينغرس وجهه في الأرض، يمتلئ صراخه وحلاً يفُور في فمه فوران الدّود وهو يفقّس. يحاول الارتكاز على ساعديه لكنّهما يغوصان في عجينة سميكة، يُجذب إلى أسفل باستمرار، سيغرق، سيُدفن حيّاً، يا للحظّ المنكود، يا للظّلم! يصطدم رأسه بحجر، يُصرع إلى الوراء، يتمرّغ في الوحل، يُطحَن، يشعر فجأة بلفحة من الهواء تهبّ على وجهه المغطّى تماماً بالوحل، يتنفّس، تخترق الأنفَ نفحة في ثقل الطّين، يتجرّأ على السّعال ثمّ يصيح من جديد: جاكْ! نداء يكرّره مرّات ليعود إلى الصّياح مرّة أخرى: بُمباي! لا يسمع في دوّامة الأصوات المتشابكة ولو صوتاً آدمياً واحداً، حتّى ولو كان نخيراً. أين ذهب الآخرون؟ هذا هو السّؤال الأخير الذي يشغل باله قبل أن يسقط في الماء فيبدو وكأنّ المنحدر دلقه، يلج عالماً بارداً آخر فيضيع وجهته ولا يفرّق بين الأعلى والأسفل، غير أنّ

الماء المحيط به يهدّئ من روعه قليلاً. الماء أيضاً يتحرّك، يتحرّك بتصميم يحاكي تصميم برتن لكن بأقلّ هستيريا. يشعر في الماء بأمان أكبر، يتمطّط، يمدّد أطرافه الثّقيلة. ذهب عنه الخوف. يقول في نفسه: من الصّعب أن أغرق، وكأنّ كل التهديدات التي تنتظره تصير لا قيمة لها بمجرّد أن يتوارى خطر الموت طمراً داخل الوحل. من حين لآخر تبدو السّيول متناغمة فتردّد لحناً جماعياً يزيد ضخامة شيئاً فشيئاً، يستطيع رفع رأسه قليلاً والنّظر إلى ما حوله، إلى عالم معتم في لون الحِبر، لكن أحياناً تجرّه أصوات غريبة وتأخذه في سياقها بقوّة، أصوات تمتصّ كلّ شيء بحثا عن فريستها. يتكبّب كالكرة وينتظر أن يُقذف به صوب صخرة. أو إلى اليابسة. يمسك بشيء، بشيء طويل وليفيّ، يمسك به بقوّة، الماء يسيل سيلاناً جارفاً ويبقى هو في مكانه. يشعر أنّ الجذر ـ أم هو نبتة متسلّقة؟ ـ الذي في يديه يبدو وكأنّه ذراع منخلعة لقرد ذي قوائم طويلة. يتشبّث به مدّة أطول وبقوّة، بقوّة حقّاً، معرّضا ظهره للمياه الجارفة. يرتكز عليه ويدفع بنفسه إلى الأمام مرّة أولى وبحذر. صلابة الجذر ومقاومته هو يحفزانه على التّمادي في محاولاته. تتوالى قبضاته، يخرج شيئاً فشيئاً من الماء، يحسّ بمرتكز صلب تحت قدميه لكنّه لا يجرؤ على أن يطأه بكلّ ثقله ولا على ترك الجذر خوفاً من الرّسوب من جديد. يبدو له وكأنّ الظلمة انقشعت قليلاً، قليلاً فقط. يستطيع الآن أن يتعرّف على الأجمات، على الأغصان المتداخلة، على الضّفة التي يتقدّم في اتّجاهها وهو لا يبعد عنها سوى مسافة تقدّر بذراع ممدودة. يتعثّر في شيء ما فيُدفع إلى الوراء، يجد الماء طريقه إلى فمه وإلى أنفه. يتشبّث بيده اليسرى بالجذر، يحرّك رأسه بقوّة لينفض عنه الماء ثمّ ينبح مثل الكلب المربُوّ إلى أن يخرج الماء من فيه وأنفه ويبدو صدره وكأنّه به صنفرةٌ. يخيّل إليه أنّ التّيار يجرفه، إلى أن يتحقّق من أنّ شيئاً يمنعه من الابتعاد عن مكانه. لم ينفصل الجذر عن

الضّفة المتآكلة. يتشبّث بالجذر من جديد ويجذبه إليه بغية الخروج من الماء ويعيش هذه المرّة مفاجأة سارة، يتعرّف على شكل في هيئة جذع شجرة ويحتضنه بشراهة. يترك الجذع فلا يستطيع غير السقوط على الأرض وهو يحدّد بأنفاس طويلة مكان استراحته المؤقتة. يمكث بلا حراك ودون تفكير إلى أن تذكّره الغريزة بوجودها: يجب أن تقوم بشيء ما. ينهض فيرى عجباً. خطوط الدّفاع التي تشكّلها السّحب تأخذ في التّقهقر وينتشر النّور على النّهر والضّفة، تواجُدٌ لطالما بقي منسيّاً للقمر المكتنز. يقف ويعود ليمسك بجذع الشجرة ثمّ يمتحن صلابة الأرضيّة: يقترب من الماء إلى الحدّ الذي يسمح له بالوقوف دون عناء. يجول ببصره فوق سيل المياه ثمّ يجرؤ على تفتيش الضّفة. يشاهد غير بعيد عن المكان الذي حطّ به كومة رمال وسط الماء ويرى فوقها مُعلّقا بين شجرتين ولمّاعاً قفا شِراع. يخلّص الشّراع من الأشواك الصّغيرة والمقوّسة داخل الأغصان المتشابكة ويبسطه. أزاح القمر في الأثناء جميع المتاريس ودفع بها جانباً. المنظر الطّبيعي الذي يتهيّأ له لا تجمعه قرابة بمحيط مخيّمهم اللّيلي إلاّ من بعيد. النّهر أضيَقُ والنّبات على طول الضّفة أكثر كثافة. الماء يجري بسرعة وفي نسق متّزن. انقضت حالة الهلع التي تسبّب فيها انزلاق التّربة. يحمل التيّار معه حمارا تطلّ رقبته الممدودة من تحت الماء وكأنّه إوزّ عراقي. لحظات أخرى ويمرّ أمامه صندوق تتبعه على مسافة قصيرة أشياء أخرى لا تبرز منها غير زاوية أو حافة فلا يستطيع أن يحدّد طبيعتها. هل لا بدّ أن تكون للرّحلة نهاية كهذه: أن يرى بعيني رأسه، هو الغارق في الوحل، كيف أنّ شذرات عالم منظّم ومحفوف بالرّعاية يأتي بها الماء وتمرّ أمام ناظريه، متفرّقة والواحدة تلو الأخرى وكأنّها تعرضُ سخريتها بأقساط مدروسة. ما تمّ جمعه وتركيبه طوال أشهر تفكّك بضربة واحدة وها هو يتحوّل قسراً إلى سلعة يتلاعب بها التّيار. ما سيبقى منها في الطّريق عالقا

بمنحدر من المنحدرات بعد أن يمرّ موسم الأمطار ويكون النّهر قد نفق، عندما يجفّ قاع النّهر وتبقى الأشياء مبعثرة فيه هنا وهناك على مدى أميال، ما سيبقى منها سوف يفقد حتّى مهمّة التّذكير والتّحذير، لأن لا أحد سوف يفهم ما ترمز إليه كلّ هذه الأشياء وهي مبعثرة على هذا الوجه. يتملّكه الفزع عندما يشاهد قامة عالقة بغصن تحمله المياه. يسرع برتن إلى الجذع الذي ترك بجانبه الجذر الطّويل، يمسك بالجذر ويرتمي في الماء. يستعمل ذراعيه ويسبح حتّى الغصن. يلمس الهامة بيُسراه من الخلف ثمّ يحيط خصرها بذراعه وهو يجذب الجذر بيمناه دون أن يتفطّن إلى أنّه سيكون في حاجة إلى استعمال كلتا يديه ليتمكّن من العودة إلى الضّفة. يُدير الجذر حول جسمه وحول الجسم العالق بالغصن ويحوّل طرفه إلى عروة توثِق كلا الجسمين معاً. هما الآن معلّقان في حبل واحد. بنسق يمليه عليه ما تبقّى له من قوّة، يجذب الحبل إليه إلى أن يصلا إلى الجذع. يرفع القامة فتقع على حافة النّهر ثمّ يمدّدها فوق الشّراع. يزيح خصلات الشّعر المُطيّنة جانباً ويتفرّس في وجه سبيكي المغمى عليه. ما زال على قيد الحياة. تلتهمه الحمّى وقد نجا من الغرق. وجه شاحب لا يطغى عليه هذه المرّة شعره الأشقر. ليس بمقدور برتن أن يفعل أكثر من أن يغطّيه بالشّراع وأن يدلّك أطرافه. يغرق بعد ذلك في غفوة ورجلا سبيكي في حجره، في غفوة هي آخر حقّ يرفعه عليه إعياؤه الشّديد.

تشرق الشّمس وضّاءة على حين غرّة. ستُصلح الشّمس كلّ شيء وتعيده إلى ما كان عليه لأنّها لا تعرف الضّغينة. تنشر أغطيتها الدافئة بلطف فوق ما تبقّى من آثار اللّيل المحمومة، تنشرها بكلّ ثقة وكأنّها لم تكن مسؤولة عن اختفائها لمدّة. يقرفص برتن على حافة النّهر ويتفرّس في منظر مخيف يحدّق فيه بدوره وكأنّه طيف لشخص غارق. الجلدة تتدلّى بعد أن انفصلت عن العظام، العينان تخرجان من مقلتيهما وكأنّهما

مسعورتان، الشّفتان تبتعدان عن الأسنان وهما داكنتان في لون بركتين منسيّتين. يقول سبيكي شيئاً ما مغمغماً. عيناه مفتوحتان تماماً. يسأل برتن وهو يدلك كتف سبيكي اليمنى بلطف: كيف أنت يا جاكّ؟ صوماليون، صوماليون ميّتون، لم يموتوا كلّهم، البعض منهم هم الآن في حالة احتضار رافعين أيديهم وممدّين أرجلهم، يريدون أن يلمسوا شيئاً مرّة أخيرة، أيّ شيء، عندما يموتون تسقط سواعدهم، دعهم يذهبون، اتركهم من فضلك يذهبون. لا أحد منهم يصيح، شيء لا يمكن احتماله، لا أحد يصرخ من بين هؤلاء الصّوماليين، سُحقا لهم، كيف يستطيعون مفارقة الحياة بكلّ هذا الهدوء؟ سأساعدك على النّهوض يا جاكّ، لا بدّ أن أنزع عنك كلّ هذا اللّباس، إنّه مبلّل، لا بدّ أن ننزع عنك سويّاً كلّ هذا اللّباس. كلّ شيء تحطّم، الخيام، كلّها تحطّمت، جميع المعدّات مبعثرة وملقاة هنا وهناك، في كلّ مكان، لم أرَ رفيقاً واحداً، تركوني كلّهم، هربوا جرياً، أمّا أنا فلم أقدر على الجري، لم تحملني رجلاي، لم أقدر على غير الزّحف. نعم، هكذا، كلّ هذا سيعود عليك بالنّفع يا جاكّ، سيأتيك بالدّفء. سوف أموت، الصّوماليون قادمون، صوماليون بأيد مرفوعة، سوف أموت، إنّي أشاهد الدّم يتدفّق من جسمي، أشاهد الرّماح، أشاهدها وهي تنغرس في، الدّم يغمرني، قد لا يخطر ببال أحد أنّ في جسمي مثل هذه الكمّية الهائلة من الدّماء، لم أقرأ لكلّ هذا حسابا. سأبدأ الآن بتدليكك يا جاكّ، حتّى تشعر بالدّفء، هل تسمعني؟ لا بدّ أن نعمل معاً لتشعر بالدّفء. سال الدّم بدون موجب، كان خسارة. لأنّ الرّجل الآخر لا يصدر عنه غير اللّوم، لا يعرف شيئاً آخر غير اللّوم. الرّجل الآخر يعتبر نفسه دائماً أفضل، يرى دوماً أنّه إله. كفى، سألبسك الآن سترتي، إنّها جفّت تقريباً. الرّجل الآخر لصٌّ، نعم، لصّ. ليس الأفضلَ، أبداً. كُنّاشة ذكرياتي، كُنّاشة ذكرياتي، تمّ تقطيعها، كما يقطّع

لحم الذّبائح، تحوّلت إلى مُلحق وأُضحية من أجل كتابه، من أجل شهرته، ودمي، كلّ ذلك الدّم، من أجل شهرته، الرّجل الآخر سلّم ما توصّلت إلى جمعه إلى متحف، نعم، يحقّ له أن يفعل ما فعل، إنّه إله، سلّم مجموعتي إلى متحف، إنّه آكل لحوم البشر، نعم، إنّه حقّاً آكل لحوم البشر. هدّئ من روعك يا جاكّ، هدّئ من روعك، أنت الآن بين أصدقائك، لمَ كلّ هذا الهذيان؟ من هو هذا الرّجل الآخر؟ هذا الرّجل ليس له اسم إنسان. كل أسمائه هي ألقاب مهينة فيها شتم. على قبره، نعم، سحقا له، على قبره يجب أن تُكتب كلمة دِكّ فحسب. لا شيء غير هذه الكلمة، دِكّ فقط.

يترك برتن سبيكي فيهوي أرضاً. أصابه الدّوار من فرط الكراهية التي تقيّأها رفيقه. يوجد بينهما سوء تفاهم، طبعاً، اختلاف في الرّؤية يمكن اعتباره كبيراً حتّى، أمّا هذه الكراهية الصّرفة والبدائية فهو لا يستحقّها، خصوصاً وأنّه هو أيضاً جُرح جرحاً بليغاً أثناء عمليّة الهجوم تلك، لقد ترك الرّمح الذي اخترق خدّه آثارا بيّنة لكنّ جرحه لم يكن في عمق جرح سبيكي، في حجم جرح كبريائه. المجموعة، المُلحق، كلّها مآخذ سخيفة، أراد فقط أن يقدّم له خدمة، ما من أحد كان ليطبَع الأوصاف المملّة لهذا الضّابط المجهول والبارع في عدّ حبّات الجلبّان، لهذا تكفّل هو على الأقلّ بنشر عمله المتهوّر وبتقديمه للعموم على مراحل، أمّا المجموعة فكانت في متحف كالْكوتّا، المكان الذي احتُفظ بها فيه كان أفضل من أيّ مكان آخر. آكل لحوم البشر؟ كيف؟ ألم يتبرّع بقدر من ماله حرصاً منه على أن تتمّ عمليّة النّشر، إنّ كلّ هذا لم يكسبه فلساً واحداً، لم يعُد عليه، بأيّة حال من الأحوال، بفائدة. يا له من مجادل متزمّت، هذا الممدّد على الأرض، رغم كل هذا هو يمرّض هذا الرّجل طليس العقل ويعتني به لتعود إليه صحّته، بينما تكون البشريّة أسعد لو تخلّصت منه.

يعود سبيكي لينام بينما يقرّر برتن البحث من جديد على طول الضّفة. لقد نجا من الموت، لكن لن يكون لنجاته معنى إن هو لم يجد كنّاشاته. كان لفّها في جراب للزّيت. يعثر على العديد من الأشياء التي لا قيمة لها في الغالب باستثناء صندوق المؤونة بما احتوى من بسكويت وتمر مجفّف. في الجهة الأخرى من النّهر الذي هدأ بعد الهيجان وصار ماؤه يسيل باحتشام وبكلّ تواضع يرى بعض القرَدة. لا يعيرها في أوّل الأمر أهمّية كبيرة إلى أن يلمح بطرف البصر شيئاً يجعله يُدير رأسه بسرعة: أحد القردة يمسك بجراب للزّيت بين مخالبه، لا يعلم برتن بالتّدقيق عدد جُرب الزّيت التي كانت على ملك القافلة لكنّه واثق من أنّ القرد يلعب بجرابه هو، الجراب الذي يحوي كل شيء عمل من أجله لسنوات عديدة. يشرع برتن في الصّراخ، يصرخ بصوت أعلى من أصوات القردة، يثير انتباهها فيُسقط القرد الجراب وكأنّه يريد أن يسخر من برتن، يأتي قرد آخر ويستولي على الجراب الذي يبقى عالقا بأغصان الشّجرة، يتمادى برتن في الصّراخ لكن هذه المرّة بألفاظ لا توجد في قاموس، تصدر عنه أصوات من شأنها أن تخيف القردة لكنّها لا تؤتي أكلها، يحاول القرد الآخر أن يُخرج ما في الجراب بعد أن اهتدى إلى الفتحة، يمسك بإحدى الكنّاشات، لم يخطئ برتن في تقديره، يتفرّغ القرد للكنّاشة، يُفلت منه الجراب، يسرع برتن إلى الماء، يغطس ويشرع في السّباحة، وعندما يبلغ الضّفة الأخرى يرى الجراب ملقى أمامه وكأنّه وُضع هناك في انتظار أن يأخذه أحد معه، أمّا القردة فقد اختفت وصار لا يَسمع منها غير نداءاتها لبرهة قبل أن تتراجع نهائيا. يعلم جيّداً أن لا جدوى من الشّروع في مطاردتها. يفتح الجراب ويعدّ الكنّاشات. تنقُص كنّاشة واحدة، خسارة لا تؤثّر فيه كثيراً لأنّه لاحظ شيئاً آخر، لاحظ الرّطوبة، كان يظنّ أنّ الجراب غير راشح لكنه يحسّ بالماء، بدفاتر يوميّات جدّ مبلّلة، وبشعور غريب

يصل حتّى أسفل المعدة. يفتح إحدى الكنّاشات ـ الكتابة مطموسة وغير واضحة المعالم. ليس في كلّ موضع، تبقّى قسط أساسي تسهل قراءته. مثل العفن الذي يداهم الثّمرة من الخارج تسرّب البللُ إلى داخل الكنّاشات واستقرّ على حافة الأوراق، طمس كلّ معنى للسّطور العليا والسّفلى والتهم الحروف الأخيرة لكلّ سطر، الثّلث تقريباً. يتأكّد اكتشافه مع كلّ كنّاشة يفتحها، امّحى ثلث ملاحظاته، بحوثه، أوصافه وتخميناته. سيعيد كتابة جزء منها بالرّجوع إلى ما بقي عالقا بذهنه، لكنّ الذّكرى نفسها، وهذا شيء يعلمه تماماً، تَغيمُ فيها الكتابة.

* * *

سيدي مبارك بُمباي

ـ تقول إنّ بْوانا برتن لم يعدْ بعد هذه الرّحلة مرّة أخرى إلى زنجبار ولم يرجع إلاّ بْوانا سبيكي. ألا يتعارض هذا مع ما أخبرتنا به عنه؟

ـ لا، أبداً، بابا برهان، إنّه ليشرّفني أن توليني في هذه السّاعة المتأخّرة كلّ هذا الاهتمام، لذا سأجيبك عن سؤالك بكل سرور. بْوانا برتن كان تابعاً، وهذا شيء لم أتوصّل إلى فهمه إلاّ فيما بعد، أثناء سفرتي الثّانية، كان مثل جميع الوازُونغُو الآخرين تابعاً للأسياد في بلده، لم يكن الرّجل الموسرَ كما اعتقدتُ في أوّل الأمر، كان خادما مثلي، كان في خدمة وازُونغُو آخرين لم تكن لهم القوّة، الجرأة، التصميم أو الرّغبة في أن يقوموا بالرّحلة بأنفسهم، ولهذا وفّروا المال لينجز أشخاص مثل بْوانا برتن وبْوانا سبيكي الرّحلة مكانهم. وبما أنّ هذين الرّجلين تحوّلا في نهاية السّفرة الأولى إلى عدوّين لدودين لبعضهما رأى الأسياد أنّ الهدوء لن يستتبّ إلاّ بعد أن تفرّق بينهما البحار، وهكذا بدا واضحاً أنّهم سيختارون أحدهما للقيام بالرّحلة الثّانية. ورغم أنّ بْوانا برتن كان يعرف الشّيء الكثير

فإنّه، أحياناً، لم يفهم أبسط الأشياء، فحتّى أذكى الأذكياء بين البشر يكون أحياناً في سذاجة الطّفل الصّغير. بالطّبع وقع اختيار الأسياد في بلاد الوازُونغُو على بْوانا سبيكي لأنّه كان له مظهر واحد منهم بينما اختلف عنهم بْوانا برتن من حيث المنظر بلحيته السّوداء الهائجة، بلون بشرته التي غلبت عليها السّمرة إلى درجة أنّه صار لا يمكن التفريق بينه وبين أيّ رجل عربيّ، بعباءاته التي التفّ بها. كلّ هذا جعله ينأى عن الهيئة التي لا بدّ أنّ السّادة الكبار كانوا يحبّذونها، ذلك المظهر المهندم، النّظيف والجميل الذي كان عليه بْوانا سبيكي، الجسم النّحيف، العينان الزّرقاوان، الشّعر الأشقر الطويل والمسترسل، لم يكن فيه شيء يهدّد بأن يجعل منه شخصاً غريباً. رأيت بنفسي في ختام الرّحلة الأولى كيف أنّ أناسه كانوا يبجّلونه، لمّا وصلنا إلى القاهرة وأقمنا في فندق، في الشّيبْهِيردْز هُوتيل. ، نعم، يا إخوتي، أقمتُ في نفس النّزل الذي أقام فيه بْوانا سبيكي، إلى هذا الحدّ كان يُجلّني.

ـ اسألوه عن صنف الغرفة التي خُصّصت له! عندئذ ستعلمون أنّ بطلكم العظيم هذا، بابا سيدي مبارك بُمباي، نام في حجرة صغيرة معدّة للخدم، أمّا صديقه ذو البشرة البيضاء والشّعر الأشقر الطّويل فقد نام في غرف القصر في الطّابق العلوي.

ـ كفى، ماما، وإلاّ فسوف لن نبلغ اليوم النّهاية أبداً.

ـ أوَ تظنّون أنّه كان ليُهديني سترته لو كان لا يُجلّني؟

ـ هذه السّترة القديمة والممزّقة تماما؟ الأفضل بالنّسبة إليه كان طبعاً أن يهديك إيّاها عوض أن يلقي بها في الزّبالة.

ـ حصلتُ على ميدالية فضّية من الجمعية الملكية للدراسات الجغرافية، أنتم لا تجهلون طبعاً من هي هذه الجمعيّة، إنّها المجلس الذي

يتكوّن من السّادة رفيعي الشّأن الذين كان صدر عنهم التّكليف بالقيام بالرّحلة الأولى ثمّ الرّحلة الثّانية، بالرّحلتين اللّتين شاركتُ فيهما. كذلك تمّ تصويري وتقديمي للعموم.

ـ وتجدُ رغم كلّ هذا الشّجاعة لتتبجّح بالعار الذي لحق بك! لقد عرضوه كعرضهم لوَحْش ضار سبق لهم أن اصطادوه، كان عليه أن يقلّد مع الآخرين الطّريقة التي ساروا بها في البرّية وكان عليه أن يبقى واقفاً دون حراك، أن يصبر لساعات بينما مرّ أهل تلك البلاد أمامه وتفرّجوا في ذاك المنظر الذي كان صورة هامدة اختلقها الأحياء. والأدهى والأمرّ، اسمعوا، أنتم أصدقاء هذا الشّيخ المفضوح، الأدهى والأمرّ أنّ المتفرّجين، أولئك الفضوليين، دفعوا معلوم الدّخول ليكون لهم حقّ الحملقة في زوجي الواقف كالجماد.

ـ لا تتعبي نفسك لأن لا أحد يثق فيما تقولين، أنا أعلم جيّداً ما حصل لأنّي كنت هناك، أعلم كيف تمّ تكريمنا بتنظيم الحفلات الموسيقية العمومية والاحتفالات، لقد تمّ تقديمنا كمساعدين ومرافقين للمستكشف الكبير بْوانا سبيكي ودُعينا حتّى إلى استقبال في قصر نائب الملك. لم يكن ذلك في القاهرة ولا حتّى في البرّ وإنّما في جزيرة تسمّى رُودس، كان حقّاً لنا شأنٌ، لقد تمّ نقلنا إلى تلك الجزيرة على متن السّفينة ودامت ضيافتنا في القصر أيّاما. لم نأكل من قبل أبداً طعاماً أفخر وبالقدر الذي اشتهينا، أيضاً، وهنا يجب أن أقرّ بواقع الأمر، تناولنا المشروبات الكحولية أكثر من اللاّزم لأنّها توفّرت هناك توفّر الماء. بعد كلّ هذا عدنا إلى زنجبار في سفرة طويلة عن طريق البحر تعرّفنا خلالها على أماكن أخرى، على أماكن مثل السّويس، عدن وعلى جزر مثل مُوريشيوس وسِيشيل أين حصلنا على هديّة تمثّلت في قدر من المال بعد أن ذاع صيتنا وبلغت شهرتنا تلك الأصقاع..

ـ بُوانا! ألا تلاحظ أن لا أحد صار يستمع إلى ما تقول؟ شخير بابا إسماعيل العالي يصل حتّى الميناء، أمّا البقية فقد عادوا جميعاً إلى ديارهم، آخرهم، بابا برهان، انصرف خلسة منذ لحظة. الجرذان فقط بقيت تستمع إلى حكاياتك. كُفّ عن الهذيان وادخل إلى البيت لأنّي أريد أن أُعدّ لك الطّعام. ولا تنس أن توقظ بابا إسماعيل من سباته، أيقظه إلى أن يفيق وإلاّ جاء ابنه ليبحث عنه مجدّداً وينهال علينا تأنيباً.

* * *

سبيكي مستعجل. قصّ شعره وقصقص لحيته. ربّما قام بكل هذا بنفسه. يُسرع في اتّجاهه بخطى طويلة وحازمة. يشاهد برتن أمامه صيّادا كان جرح حيوانا وها هو الآن يتعجّل في تتبّع آثار الدّم ليقبض على الطريدة قبل حلول الظّلام. قد تكون هذه الصّورة غير ملائمة.

يمدّ إليه يده ويقول كلاماً في العموميات لتوديعه، كلاماً من قبيل: سألتحق بك. سوف لن أطيل البقاء هنا. ظرافة هذا الشّخص وخفّة دمه تبدوان له على حالهما. لم تقْضِ عليهما البريّة. مع الأسف. إلى لقاء يا عزيزي. كن متأكّدا من أنّني سوف لن أتّصل بالجمعية الملكية للدراسات الجغرافية قبل أن تلتحق بي، سنذهب إليها معاً. ستركب أنت أوّل سفينة، أمّا أنا فسأنتظرك. لا تشغل بالك. إذا قال لك أحد لا تشغل بالك، عليك أن تشغل بالك حالاً ـ حكمة تعلّمها من أمّه. يحني برتن رأسه بالإيجاب ويتمنّى مغمغماً سفراً ميموناً. يستدير بعد ذلك ويعود أدراجه تاركا جُونْ هَانينْج سْبيكِي في الميناء. يعود وكلّه اعتقاد أنّ هذا الرّجل قادر على كلّ شيء، يعلم أنّه يستطيع أن يثق في وعوده وثوقه في معرفته للّحظة المحدّدة التي قد ينتهي فيها العالم. لا، أبداً، الشّقاق بينهما لم يكن سببه عدم فراسته في النّاس. عندما يشاء القدر أن يجمعنا بشخص ولا يكون لدينا

اختيار آخر، ماذا عسانا نفعل بأكبر فراسة في النّاس؟ لقد حاك له القدر الدّسائس، نعم، ذاك ما حصل، ولم يكن له إزاءه لا حول ولا قوّة.

* * *

سيدي مبارك بُمباي

المرأة، زوجته التي حصل عليها مقابل أسلاك من النّحاس الأصفر، تحكّ جوز الهند في المطبخ، تبلّل الأرزّ، تضع قطع السّمك في القدر الذي يغلي فيه البهار الهندي بتؤدة في صلصة فلفل الشّيلي الحمراء. تسمع صوته الآتي من الحجرة المجاورة، إنّه ما زال يتكلّم، سيدي مبارك بُمباي لا يعود إلى سكونه بسهولة كلّما انطلق في إحدى حكاياته. لا يعرف الهدوء. إنّها لا تستمع إليه حقّاً وهي تعتصر الماء من الأرزّ، يشغل بالها الوجع الذي يهزّ نصفها الأيسر، وجع برز على حين غرّة مثل الضّيف الذي يجلس في البداية في إحدى الزّوايا ويقنع بالفتات. مع مرور الأشهر، صار الضّيف أكثر شراهة، صار يستهلك أكثر ممّا كانت قادرة على مدّه به. لم يخفّف من ألمها أيّ عشب من الأعشاب التي أعطاها الطّبيب، تلك الحشائش التي دقّتها كما أوصى به تماماً. إنّها الآن تراقب ألمها في الوقت الذي تعدّ فيه الطّعام وزوجها يواصل سرد حكايته. بينما هي منغمسة في أعمالها تسمع كلمة، أو لعلّها كلمات، تجعلها ترهف السّمع لأنّ لها علاقة بقصّة لم تسمعها لحدّ الآن. بعد كلّ السّنين التي قاسمته وتقاسمه ما زال هذا الرّجل الأعجر ومقوّس الظّهر، المعجب بنفسه وصاحب الصّوت الصّاخب قادراً على المفاجأة والإتيان بحكايات أخرى، ما زال قادراً على إضفاء نكهة جديدة على كلامه كلّما أنذر بأن يصير مملاًّ. ما زال قادراً على مفاجأتها، بعد مرور كلّ هذه السّنين، بذكرى رجل قال إنّه التقاه خلال آخر سفرة له ـ أثناء سفرته الرّابعة التي قام بها بعد زواج حميد.

مباشرة ولا يذكرها إلاّ نادراً ـ، بذكرى رجل غريب زيّن رقبته ورأسه بأشياء عديدة، بأعجب الأشياء وأكثرها إثارة للدّهشة.

هذا الرّجل المبهرج بهرجة عجيبة كان جمَع المستقبل المنسيّ الذي تمّ التّخلّص منه، هكذا يقول الرّجل الأعجر الذي يتكلّم خارج المطبخ فلا تفهم هي ما يرمي إليه بكلامه، بهذه العبارات التي تخترق تعبها لكنّها، رغم التعب، تركّز انتباهها أثناء الطّبخ وتقترب من الممرّ لكي لا تفوتها كلمة واحدة، تماماً كما حرصت على ألاّ تُتلف حبّة واحدة من الأرز. يقول الرّجل الأعجر مواصلاً كلامه: كلّ مرّة عثر فيها هذا الرّجل غريب الأطوار على قطعة ما من المعدن، على خرطوشة قديمة، على زجاجة فارغة في طريقه لم يمسك نفسه، كان عليه أن يلتقطها، أن يتفرّس فيها ولم يقدر على فراقها ولا على أن يرمي بها جانباً، وجبَ عليه أن يُحدث ثقبا في كلّ من هذه الأشياء وأن يكوّن منها قلادة عجيبة زيّنت صدره باستمرار فتدلدلت فوقه العديد من القناني لحفظ الدّواء، مفتاح علب السّردين وبعض القطع المعدنية. الآن فهمتْ: هذا الرّجل الغريب تقلّد الزّبالة، تزيّن بزبالة القوافل التي كانت عبرت البلاد، أمّا زوجها، سيدي مبارك بُمباي، الذي سوف لن تتعوّد أبداً على عجائبه، على الأقل طالما بقيت لها القدرة على الإحساس، فقد شارك في أربع من رحلات تلك القوافل، لا بل هو كان مرشدها ودليلها، حسبما جاء في حكاياته، زوجها هذا سعيد إذن، لكن عن خطأ، بهذا الرّجل الغريب الذي ارتدى جميع الجلود التي انسلخت عنه هو، سيدي مبارك بُمباي، خلال رحلاته. تسري ابتسامة على وجهها، إنّه حقّاً لا يشبه أحداً، هذا العجوز في سذاجة الأطفال الذي يفاجئها باستمرار.

تُعلمه أنّ الأكل جاهز فيقول متلطّفا: دعينا نتناول طعام العشاء معاً.

يخلطان البهار الهندي بالأرزّ وفي صمت تُكوّر أصابعهما الطّعام وترفعه بالقدر المواتي إلى الفم. لا يأكل كثيراً لكنّها تلاحظ بجلاء أنّه يتلذّذ ما حضّرت. يستند إلى الوراء فتنهض بعناء وتأتيه بصحفة بها ماء يغسل فيها أصابعه. تتركه بعد ذلك لوحده لترتّب المطبخ ولتغلّي الماء الذي سوف تصبّه في سطل وتحمله إلى غرفة النّوم قبل أن تنادي: حمّامك جاهز! تنظر إليه فترى أنّه لا يرتدي غير كِيكُويْ. تتفرّس في جسمه الأعجر، تجلس فوق السّرير وساقاها عاريتان لتتذكّر الاستغراب الذي تملّكها وهي فتاة كلّما داعبت أفكارها إمكانية العيش مع رجل أقصر منها قامة. لقد تخوّفت آنذاك حتّى من إمكانية أن يكون ذكَره قصيراً فلا يملأ فرجها. ذات مرّة، بعد أن تعوّدت على زوجها بعض الشّيء، تشجّعت وسألته عن صغر جسمه. ضحكَ وقال: عوّضتُ عليه بقوّتي وصار من الصّعب أن يصرعني أحد. قد أكون مفرطاً في الحركة لكن لا أحد يقدر على اقتلاعي من جذوري. وكان الأمر كذلك. أسدى إليها أبوها النّصح مرّة فقال: تعرّفي أوّلاً على الشّجرة قبل أن تستندي إليها، يا بنيّتي. لم يُترك لها اختيارُ الشّجرة لكنّ الثّقل الذي استندت به إلى الرّجل الذي كانت بيعت إليه تحمّله الرّجل على مدى السّنين. تقول له بتؤدة لتتلذّذ كل كلمة من كلماتها: بْوانا، أنا زوجتك. دعنا، بْوانا، ندخل في لحظات يجمع فيها الحبّ بيننا، أشعر برغبة. يتنهّد سيدي مبارك بُمباي، يرفع بصره ويلتحق بها بتأنٍّ في الفراش. صار الأمر يتطلّب جهداً أكبر هذه الأيّام، غير أنّهما ما زالا، كلّما فرغا منه، يشعران بالسّعادة.

حلول الرّوح القدس

خلال الأيّام التي تلت الدّفن لم يكفّ القسّيس عن استعراض حوادث تلك اللّيلة التي قضّاها بجانب المحتضر إلاّ بعد أن صار لا يحتمل التذكّر. من بين الأشياء التي آخذ عليها نفسه، أحزنه أحدها بصفة خاصّة وحزّ فيه أكثر من البقية. دفعتْه الزّوجة إلى تقديم مسحة ما قبل الموت لشخص فقد الوعي بعدُ. كيف؟ البريطانيّ لم يفقد وعيه، لقد نظر في عينيه لمّا انحنى فوقه. لم يحاول القسّيس التكلّم إليه، لم تكن له الشّجاعة الكافية على السّؤال إن كان المحتضر يرغب في تلقّي القربان المقدّس بقطع النّظر عن حقّه في الحصول عليه أم لا. رغم أنّه كان لا يعرف الرّجل. إلى أي فصيلة من القساوسة كان ينتمي؟ لا بدّ أنّ هناك مخرجاً يمكّن من معرفة الحقيقة. وقبل معرفة هذه الحقيقة سوف لن تعود إليه راحة باله. ماذا لو حاول استقاء أخباره من الخدم؟ الخدم يعرفون حقّاً كلّ شيء. سيمدّونه أيضاً بمعلومات أكثر صدقا من الزّوجة التي لم يثق فيها لأنّها كانت كاثوليكية متحمّسة. أمر محيّر. كانت الحالة غامضة وخطيرة.

* * *

أثناء قدّاس الأحد لاحظ مَاسّيمُو أنّ قسّيساً كان يحدّق فيه النّظر. قسّيس بمسحة من الوجاهة والوقار. بدا وكأنّه مهتمّ به أكثر من اهتمامه بالقدّاس. دلّ مظهره على أنّه قسّيس في خدمة الأغنياء. رجل شابّ برأس محلوق تماماً ونظرة متعالية. لا بدّ أنّه ضلّ طريقه فوجد نفسه في هذا

الحيّ. لماذا يحدّق فيه؟ بعد انتهاء القدّاس، في الدّرج، توجّه إليه القسّيس بالكلام.

- هل أنت مَاسّيمُو جُوتّي؟

- نعم، أنا هو.

- هل من الممكن أن أكلّمك في شيء؟

- تكلّمونني أنا؟ في أيّ موضوع، أيّها الأب؟

- سبق لك وأن خدمتَ في منزل السّينيُورِي برتن.

- نعم، خدمتُ.

- لعدّة سنوات.

- تسع سنوات.

- هل خالطتَ السّينيُورِي؟

- خالطتُه؟ أنا البستاني.

- هل تحدّثت معه من حين لآخر؟

- مرّات.

- هل تعرف شيئاً عن إيمانه؟

- كان مؤمنا.

- هل أنت واثق ممّا تقول؟

- واثق تماماً.

- ما الذي يجعلك تقول مثل هذا الكلام؟

- كان رجلاً طيّبا.

- ذاك ما نتمنّاه له. حتّى الوثنيّ يمكن أن يكون رجلاً طيّبا.

ـ وثني؟ لم يكن وثنياً.

ـ كان لا يُرى في القدّاس إلاّ نادراً جدّاً.

ـ في منزله كنيسة خاصّة.

ـ هل شاهدتَه هناك وهو يصلّي؟

ـ أنا أعمل خارج المنزل.

ـ إذن أنت لم تشاهده أثناء الصّلاة.

ـ لقد صلّى. أنا على علم تامّ بهذا. ربّما صلّى في مكان آخر. كان رجلاً قويّاً. من المؤكّد أنّه لم يكن وثنيّاً. الوثنيّون مختلفون تماماً.

* * *

لم يحصل من هذا البستاني الأبله على شيء. الخادمة. يأمل أن تعرف أكثر. التحدّث إليها في السّوق سوف لن يكون صعبا. لكنّه لم يتصوّر أنّها ستُسائله عن أسباب اهتمامه بالموضوع. ماذا كان عليه أن يجيبها حقّا؟ استحال عليه أن يفصح لها عن شكوكه. كذب عليها، ارتكب هفوات إضافية للحصول على تفسير لخطيئته. يا إلاهي، لقد دخل في متاهة. ادّعى أنّه عليه أن يحرّر مقالا للصّحيفة الأسقفية يرثي فيه السّينيُورِي برتن ويلقي فيه الضّوء على العديد من جوانب شخصيّته. فاجأته الخادمة ـ واسمها أَنّا ـ وأثارت استغرابه لمّا قالت: ماذا؟ هل تريدون أن تعرفوا إن كان كاثوليكيا صالحا؟

ـ هذه واحدة من بين النّقاط التي تهمّنا.

ـ جوابي هو: نعم ولا.

ـ هل أنت غير متأكّدة؟

ـ لا، أبداً. أنا متأكّدة تماماً. كان يعرف الشّيء الكثير عن الإيمان.

كان أحياناً يقصّ عليّ قصص أولياء وقدّيسين لم أسمعها من قبل. هل تعلمون أنّ القدّيس جُوزافَات كان أصيل الهند؟ كان اسمه الحقيقي بوذا أو شيئاً من هذا القبيل.

ـ هل صدّقتِ هذه الحكايات؟

ـ طبعاً، حكاياته كان لا بدّ من تصديقها.

ـ لكنّكِ أيضاً شككتِ في أنه كان كاثوليكيا صالحا؟

ـ لسبب وجيه.

ـ سمعتُ أنّ المنزل به كنيسة صغيرة.

ـ هذا ما أردتُ الوصول إليه. لم تطأها قدماه أبداً. ربّة البيت فقط ذهبت إلى الكنيسة الصّغيرة، وأحياناً أنا أيضاً. لقد سمحتْ بذلك.

ـ لربّما صلّى في غرفته؟

ـ لم أشاهده أبداً يصلّي.

ـ ربّما لم يُصلّ في حضرتك.

ـ كان عندما يكون في المنزل غالباً لا يغادر مكتبه كامل اليوم. وهناك، أيّها الأب، كان لا يوجد مكان للصّلاة، كان أيضاً لا يوجد صليب ولا توجد صورة لمخلّصنا المسيح.

ـ فهمتُ. هل رأيتِه مرّة يقوم بشيء غير عادي؟

ـ كلّ شيء قام به كان غير عادي.

ـ هل دخلت عليه على حين غرّة ووجدته في وضع غريب؟ أعني جالساً على الأرض أو ساجداً؟

ـ لا. كلّما دخلتُ عليه وجدته جالساً على كرسيّه. أو كان يروح ويجيء في مكتبه، وأحياناً أخرى كان يردّد قولاً بصوت جهوريّ.

ـ ماذا؟

ـ لم أفهم كلامه.

ـ طبعاً، كان انجليزياً.

ـ لم يقل كلاماً بالانجليزية.

ـ أنت تفهمين الانجليزية؟

ـ لا، ولا كلمة. لا أرى حاجة إليها. السّيد والسّيدة حرمه تكلّما الإيطالية على أحسن ما يرام. معاً تكلّما دائماً الانجليزية. بعد كلّ هذا الوقت ـ لقد قضّيت أكثر من إحدى عشرة سنة في الخدمة ـ يتعوّد المرء شيئاً فشيئاً على نغمة لغة من اللّغات.

ـ في أيّة لغة تكلّم إذن؟

ـ لا أستطيع أن أقول لكم شيئاً.

ـ ألم تسأليه؟

ـ أرجوكم، أيّها الأب؟

ـ بماذا ذكّرك ما ردّد؟

ـ بقصيدة أو بدعاء. ترديد ساذج، دائماً نفس الكلام.

ـ هل كان يشبه اللاّزمة؟

ـ ماذا تعني هذه الكلمة؟

ـ تكرار الأهمّ. كأن نُعيد دائماً قول: باسم الأب، الابن والرّوح القدس.

ـ ربّما قال هذا. أو شيئاً مماثلا.

ـ هل خرج صوت مزعج من حلقه؟

ـ لا، بالعكس، كان للكلام وقع حسن في السّمع.

ـ استمعي مليّاً، هل كان له تقريباً هذا الرّنين: باسم الله الرّحمان الرّحيم؟

ـ لا، ليس هذا.

ـ أو هكذا: لا إله إلاّ الله؟

ـ نعم، نعم، هكذا. من أين لكم هذا؟ كان هذا بالتّأكيد.

ـ يا إلاهي!

ـ هل قلتُ شيئاً في غير محلّه، أيّها الأب؟

ـ ليتني ما فعلتُ!

ـ ماذا الذي حصل، أيّها الأب؟

ـ كان مُسلماً، كان مسلما ملعونا.

* * *

لمّا قرّر الذّهاب إليه بعد أن حاول تفادي لقاءه قدر الإمكان، كانت شمس آخر العشيّ تمرّر أشعّتها على قراميد المنازل فتصيّرها مساحة ملساء. قصد الأسقف، قسّيسه الذي سيُسِرّ إليه بخطاياه. وصف له الشّكوك التي تنامت بداخله كالفطْر. تلك الشّكوك التي كانت تفاقمت منذ أن تحدّث مع الخادمة. كان خائفاً من هذه المقابلة، كان يخشى الكلام مباشرة في مواضيع تشغل باله، غير أنّ اللّوم الذي كان تصوّر أنّه سيعرّض نفسه إليه لم يربكه أبداً كما أربكه الهدوء الذي كان عليه ردّ فعل الأسقف. تبسّم هذا الأخير في ترفّع من يعيش مترفّعا عن جدارة، في ترفّع من يعيش في بَالاَزُّو. عندما يكون للمرء عند الولادة منزلة كمنزلته. أمّا القسّيس فإنه، على عكس هذا، وجب عليه أن يدرس بجدّ وصعوبة، ارتقى في

سلّم المعرفة، ورغم كل شيء تمّ خداعه من طرف شخص كان أكثر منه سلطة وثقة في النّفس. قال الأسقف بدون مبالاة: أعتقد أنّه كان عليّ أن أطلعكم على الأمر مسبّقا. أرى أنّي نسيت أن أذكر أنّ السّينيُوري برتن جاءني مرّة وأسرّ إليّ بخطاياه.

ـ أسرّ بها إليكم شخصيًا؟

ـ زوجته هي التي ألحّت عليه. أعتقد أنّها ألحّت عليه لسنوات. حاولت أن تقنعه. ترجّته. قالت مناشدة إيّاه، افعل ما أطلب منك وستتخلّص نفسك من أعبائها. أجابها، الشيء الوحيد الذي من شأنه أن يخفّف عن نفسه هو أن يأتيه خبر يؤكد له عدم موته قريباً. مخلوق يحبّ التندّر، هذا السّينيُورِي برتن.

ـ لماذا سمحتم له بأن يُسِرّ إليكم بخطاياه؟

ـ كان القنصلَ البريطاني في مدينتنا، وزوجته هي ابنة وفيّة للكنيسة. علاوة على كلّ هذا أنا أُحبّ أن أسمع اعترافات أشخاص قلّما أسرُّوا بخطاياهم. كان الاستماع إليه شيّقا حقّاً.

ـ شيّقا؟

ـ قال في أوّل الأمر أن ليس لديه ما يُسِرّ به.

ـ يا له من متكبّر!

ـ قال إنّه رغم قضائه عشر سنوات في رتبة ضابط، رغم تعرّضه في جميع القارّات لأكبر الأخطار لم يقتل مرّة أحداً. قال: قد لا تقدّرون كلّ هذا حقّ قدره. ألححت عليه قليلاً فاعترف بمعصيّة، قال بالفرنسية إنّها مجرّد غباوة طفيفة. لئن لم يقتل أحداً فإنّه روّج مرّة لإشاعة مفادها أنّه قتل عربيّاً لأنّ هذا الأخير راقبه وهو يتبوّل واقفا. اعترف أيضاً أنّ اختلاقه هذا لم يكن موفّقا، الشيء الذي جعله فيما بعد يلوم نفسه. قال: حاولوا،

وأنتم تلبسون مثل تلك الثّياب، أن تتبوّلوا واقفين، إنّها عملية مستحيلة.
شرحتُ له أنّ كلّ هذا لا يمكن اعتباره خطيئة ولا بدّ أنّه اقترف ذنبا آخر في حياته أكثر خطورة. أجاب بالنّفي. قال إنّه لا يتذكّر شيئاً من هذا القبيل.

ـ هل سألتموه إن كان دوماً مسيحيّاً صالحاً؟

ـ طبعاً، لكنّ ردّ فعله كان عنيفا. نادى بأعلى صوته: الأفضل ألاّ تعرفوا كلّ هذا، حضرة الأسقف، ثقوا فيما أقول، الأفضل أن تتجنّبوا مثل هذه الأسئلة قدر الإمكان. ثمّ قال بعد برهة، عندما لاحظ أنّ إرضائي سوف لن يكون سهلا، إنّ لديه شيئاً آخر يستطيع تقديمه، شيئاً يتمثّل في عار كبير حقّاً ما زال يُخجله إلى اليوم، هو إثم من آثام الشّباب اقترفه في السّند ـ قال: ليس مهمّا أن تعرفوا أين يوجد السّند، يكفي أن يعلم الله أين يوجد ـ، في مكان أقام فيه مرّة لكنّه سرعان ما انتقل منه إلى مكان آخر. قاطعتُه هنا قائلاً إنّه تخطّى الحدود فقال: معذرة، الاعتراف بالخطايا هذا وتّر أعصابي، ألا تلاحظون أنّي تقريباً صرتُ لا أعرف من أنا.

ـ أعرف أين يوجد السّند هذا، لقد عاش هناك مدّة طويلة. مع المسلمين.

ـ قال: في السّند قام بعض هُواة علم الآثار الذين كانت تعوزهم المعرفة والتفكير بحفريّات بحثا عن كنوز أثريّة. ثمّ إنّ علم الآثار ـ العبارة ما زالت وقتئذ غير معروفة ـ هو في حدّ ذاته علم مهمّ وقائم الذّات، أمّا هو، برتن، فهو آخر منِ قد يضع هذا العِلم موضع الشّك، لكنّه سمح آنذاك لنفسه بدعابة تتمثّل في الآتي: قام بوضع رسوم إتروسكية على قلّة بخسة مصنوعة من الطّين الأحمر على طراز تُحف معبد الإلهة أثينا ثمّ هشّم القلّة وأخفى الشّظايا في المكان الذي كان الباحثون المجتهدون

يقومون فيه بعملية الحفر. عثروا طبعاً على الشّظايا المخبّأة في التّراب، أقاموا الدّنيا وأقعدوها، تبجّحوا بما اكتشفوا وادّعوا أنّ تاريخ الإتروسكيين وربّما حتّى تاريخ روما القديمة يجب مراجعتهما بإعادة كتابتهما. اتّضح بعد ذلك أنّ مثل تلك التصريحات كانت سابقة لأوانها وفي غير محلّها. لم يدْرِ إن كان صديقه والترْ سكُوتْ هو الذي أعلمهم بواقع الأمر أم إنّهم، من تلقاء أنفسهم، ساورتهم الشّكوك بعد أن لم يحصلوا على لقيّات أخرى، إذ إنّهم في يوم من الأيّام جمعوا أمتعتهم واختفوا عن الأنظار. قال إنّه إلى اليوم يشعر بالخجل لِما فعل. اعتراف بالخطايا مثير للدّهشة، أليس كذلك؟

ـ كِذبة أتى عليها التّقادم. هل كان هذا كلّ الذي قاله؟

ـ لا، لقد انتزعت منه أكثر من هذا. اعترف أنّه يوم أسندت إليه الملكة فيكتوريا لقب فارس سارع بالذّهاب إلى صاحب مطبعة في حيّ ملعون جنوبي نهر التّيمز، قال إنّه غادر حفل الاستقبال مبكّرا ليحضّر طبعة جديدة لكتاب اسمه كَامَاسُوتْرَا. حتّى هذه الخطيئة المزعومة لم تثِر اهتمامي كثيراً لو لم يشرح لي ما احتواه هذا الكتاب. لا أستطيع أن أعيد ما سمعتُ ويكفي أن أقول إنّه إثم، إثم ومعصية. ثمّ إنّه لم ينشر الكتاب فحسب بل ترجمه أيضاً. تحدّث أيضاً عن شهوات جسديّة استسلم لها في إفريقيا، مع ثلاث نساء، عن لواط حقيقي فأُجبرتُ على مقاطعته لأنّي سمعتُ ما فيه الكفاية. غفرتُ له خطاياه وصرفته بالحسنى في أسرع وقت ممكن. البداية كانت لطيفة، لكن فجأة..

ـ إذا كان كذبَ كلّ هذا الكذب في حياته، كيف لنا أن نحدّد مدى إيمانه؟

ـ إنّكم تشغلون بالكم بدون سبب. كان كاثوليكيّاً والسّلام!

ـ وما الذي يعرّفنا بهذا؟

ـ لقد قال لي، في صورة وُجوب أن يكون مسيحياً فهو يفضّل أن يكون كاثوليكياً.

ـ يا لها من مجاهرة بعقيدة!

ـ لنكن واقعيّين. هل هناك من يؤمن بمحض إرادته؟

ـ صحيح، لكن تحديد الحرّية في هذا المجال يجب أن يترك للخالق.

ـ كدتُ أنسى، قال شيئاً آخر سترون من خلاله أنّه كان له ميل كبير إلى الفكاهة. قال إنّه كاثوليكي لأنّ تْرييِسْتا، مع الأسف، لم يبق فيها مسيحيون مشكّكون. لديه اشتياق إلى المسيحيين المشكّكين! هل سمعتم بمثل هذا من قبل؟

ـ ماذا يعني كلّ هذا؟ ماذا يعني بالنّسبة إليّ؟

ـ لا تشغلوا بالكم بهذا الموضوع.

ـ هل بحث عن الخالق على الأقلّ؟

ـ بكلّ تأكيد، وككلّ البشر، لم يعثر عليه إلاّ نادراً. كان موقفه في هذا الخصوص غريباً. قال لي مرّة أثناء حفل عشاء، لا أحد سوف يلتقي الله حقّاً في يوم من الأيّام، وكلّ من أصرّ على ملاقاته ستكون النتيجة بالنسبة إليه كالآتي: ستتفكّك شخصيّته لأنّه سيندمج في الله. سيندثر الأنَا، سينسدّ المستقبل وسيدخل العالم الأبدي. ثمّ من تراه سيرضى بالإبقاء على إنسانيته لو أتيحت له فرصة أن يكون في الله. منطق جدير بالاهتمام، أليس كذلك؟

ـ إلى ماذا كان يرمي بكلّ هذا؟

ـ طبعاً إلى أنّنا علينا أن نبحث دائماً، لكن دون العثور على شيء

أبداً. قال إنّه لم يفعل طوال حياته غير هذا. بحث في كلّ مكان في حين أنّ أغلب النّاس لا ينظرون دائماً إلاّ داخل قِدْر واحد. ثمّ حدّق في بنظرة كلّها حزم. وحسبما أظنّ، بابتسامة فيها شيء من المكر.

ـ هل أنتم ما زلتم مصرّين على أنّه كان كاثوليكيّاً.

ـ لنقل: كان كاثوليكياً شرفيّاً.

ـ كلّ هذا يكلّف نفسي أكثر من وسعها. لماذا أرسلتموني إليه؟

ـ لأنّي أكره أن أُطرَد من فراشي في وقت متأخّر من اللّيل. أمّا الآن فاتركوا هذا الموضوع وشأنه قبل أن يبدأ في مُضايقتي.

* * *

فارق ريتشارد فرانسيس برتن الحياة في الصّباح الباكر، قبل أن تبدأ العين في التّمييز بين خيط أسود وآخر أبيض. عُلّقت فوق رأسه لوحة فنّية بخطّ فارسي كتب عليها:

هذا أيضاً مآله الفناء.

1998 - 2003: Great Eastern Royale, Bombay Central, Mumbai, Indien

2003 - 2005: Strathmore Road, Camps Bay, Kapstadt, Südafrika

شرح الكلمات والعبارات الأجنبية

آرَتِي: أحد الطّقوس الهندوسية، يقام بعد غروب الشمس.

آدَافايْتا: يعني أنّ كلّ ضروب المعرفة تنتهي لزوماً باتّحاد بين الرّوح والمادة. مذهبٌ فلسفي هنديّ قوامه الاتّحاد بالذّات التي لا تعرف التّجزئة إلى خالق ومخلوق.

آرِي بَابْري: «يا إلهي!».

آسْتي آسْتي: نسق بطيء للغاية.

أشْرام: مكان للعبادة.

إنْتِزارْ كارْنَا : انتظار.

أنْجلسْتان: بلاد الإنجليز.

أنغريز: إنجليز.

أُورْس: الاحتفال بعيد ميلاد أحد أولياء المتصوّفة عند قبره.

بَابَا: «رجل مسن»، عبارة يوجّه بها الكلام وكلها احترام، كذلك إزاء الأولياء.

بَاتَاني: هنا: قميص للرّجال.

بَاراتْها: رغيف محشوّ.

بَاشيبَازوك: عسكري كان ينتمي في عهد الإمبراطورية العثمانية إلى فرقة غير نظامية.

بهانْج: الحشيش، نوع من المخدرات.

بَانكهَا: إطار من الخشب مغلّف بالقماش يُعلّق في سقف البيت ويُحرّك من طرف الخدم عندما يكون الطقس حارّا.

بَانِيَأن: في الأصل طبقة من التّجار في غُوجاراتْ، أمّا في شرق إفريقيا فتعني العبارة عموما: الهنود.

بَاذَاهِي: نجّار.

براتيكْشا كارْنَا: انتظار.

بْرَاهْمَانِي نَاغَارْ: «برهمانيو المدينة»، طبقة البرهمانيين الذين يتشكّل منهم العدد الأكبر من الموظّفين في غُوجاراتْ.

بَكْري عِيدْ: عيد الأضحى.

بِنْدِي: غالباً ما يكون نقطة حمراء على جبهة المرأة ويدلّ في واقع الحال على أنّها متزوجة.

بْهَاجَانَات: مفرده: بْهَاجَان، أغنية شعبية دينية.

بْهارَاتْ: الهند

بْهاكْتي: إنشاد في حبّ الربّ.

بْهايْ: عبارة فيها تقدير واحترام عند المخاطبة.

بْهيسْتْ: خادم.

بْوانا: رجل رفيع الشّأن، سيّد، «سيرْ».

بُوجَا: سلسلة من الاحتفالات إجلالا للإلهة دُورْغَا.

بُوجَاري: قسّيس.

بُورامبُوليسْ: فطيرة محشوّة وحلوة المذاق.

بُورَانَات : «نصوص قديمة»، نصوص سنسكريتية فيها قصص الخليقة، سِيَر الآلهة وسلسلة النسب لدى الأولياء.

بُورْخا: لحاف أسود اللون يغطّي لدى المرأة كل ما من شأنه أن يثير رغبة الرّجل.

تَاوَا: آنية حديدية مسطّحة ومستديرة.

تْشَاي: شاي يحضّر مع الحليب والسكّر وبعض الحشائش.

تْشُوكيدارْ: حارس.

تُوبِي: غطاء للرأس.

تُونْغا: عربة يجرّها حصان أو بغل.

جِيُوتيشْ: منجّم متعدّد الاختصاصات.

حَجاوِمْ: حلاّق.

خَطَرْناك: خطير.

خبَرْدارْ: حذَر.

خِلاصِي: خادم يحرّك المَراوح.

دَارْما: الطبيعة الباطنية للإنسان أو الشيء، رسالة الإنسان في الحياة، الاحتكام إلى القانون.

دَارُو : مشروب كحولي.

دالْ: العدس.

دَاوْ: مركب شراعي تقليدي أصيل البحر الأحمر. عرّف به البحّارة العرب في شمال وشرق المحيط الهندي.

دْهُوتِي: «مغسول». قطعة من القماش تُلفّ ثمّ تُربط حول الخاصرتين.

دَوَاء: في النّص الألماني: «دَوَا» ويعني السّحر.

دُوبَاتَا: شال طويل يغطّي كتفيْ المرأة وصدرها.

دُورْغا: إلاهة عند الهندوس تمثّل القوّة الأزلية للأنوثة وتسمّى أيضاً بَافَاتِي أو دِيفِي.

دِيفادَازي: «في خدمة الرب». في الحياة اليومية، هي قبل كل شيء امرأة في خدمة القساوسة، أي عاهرة (معبد) مقدّسة.

ديوان: «الوزير الأوّل» في بلاط الماهاردجا.

راكِي: مشروب كحولي، «عَرَقْ»، يستخرج غالباً من الأنيسون.

سَادُو: التسمية الهندوستانية للدرويش.

سَانْتَانُو دارْما: «إيمان مقدّس»، تسمية شائعة لدى الهندوس وتعني الهندوسية.

سَرْدارْجي: السّيخ.

سِرْكارْ: خادم يحمل محفظة نقود سيّده.

سَفَرْنَماهْ: وصف رحلة.

سْمَاشَانَا: فضاء لحرق الجثامين، مقبرة.

سُوتْرات: مفرده: سُوتْرَا، حكمة موجزة.

سِيبُويْ: جندي من الأهالي تحت إمرة البريطانيين.

شَاكُونْتَلاَ: أشهر الشخصيات الدرامية للكاتب المسرحي الهندي كَالِيدَازَا.

شَنْجَانيقَا: الاسم القديم لطنجانيقا.

شِيشْيَا: تلميذ.

شِيفاآراتْري: ليلة كلّها صلوات تقديساً للإله شيفا.

شِيفاجِي: أمير شعب المَرَتَا في القرن السّابع عشر. هناك من يعتبره بطلاً وهناك من يرى فيه طاغية.

شِيلُّوم: غليون لتدخين الحشيش.

شِيلُومْشي: آنية كبيرة من النحاس.

طَالِي: أكلة شعبية هندية تتكون من معدّات نباتية وصلصة.

فَازِي: عُمدة القرية.

فَانيكَا: المتوحّشون. سكّان الأدغال الإفريقية.

فِيذْهاتَا: أحد أسماء الإله فِيشْنُو.

غَارُودا: مالك الحزين كبير الحجم تقول الأسطورة إنّه الطائر الذي يحمل الإله فَيشْنُو.

غَانْدهَارْفَا ـ فِيفَاهَا: زواج منطلقه الحبّ المتبادل.

غَانيا: المرهوانا، القنّب الهندي.

غانيش: إله، ابن شيفا وبَارْفَاتِي. جسم آدمي مكتنز له رأس فيل.

غَانِيشْ تْشاتُورْتي: عيد يدوم أحد عشر يوماً ويقام إجلالا للإله غَانِيشْ.

غُوتْرَا: «ما يحمي البقرة»، أي الحظيرة، وتعني العبارة مجازا تتبّع سلسلة النسب حتى الوصول إلى ولي معيّن يدعى رِيشِي.

غُوجَارَات: مقاطعة في غرب الهند.

غُورا: جنس البِيض.

كَازِي وكزْكَازي: في لهجة الكيسُواهيلي: اسمَا الرّيحين الموسميتين.

كَانسُو: ثوب أبيض طويل يلبسه الرّجال أصيلو ساحل شرق إفريقيا.

كَانْغَا: قطعة من القماش مستطيلة الشّكل تُلفّ في شرق إفريقيا حول

النصف الأسفل من الجسم، تُستعمل كلباس أو لحمل الأطفال الصّغار.

كِدمُوتْغار: خادم يجهّز مائدة الطّعام ويساعد في المطبخ.

كَامَا: الحبّ والشّهوة، أحد أهمّ واجبات الإنسان الحياتية حسب تعاليم الهندوسية.

كُوبرَادُول: قماش من النّوع الرّفيع.

كُورْتات: مفرده: كورتا، لباس للرجال والنساء في شمال الهند، باكستان وأفغانستان.

كِيكُويْ: في شرق إفريقيا، قماش من القطن متعدّد الوظائف.

لاَهيَة: كاتب عمومي.

لُوبَانَار: كلمة لاتينية وتعني: دار بغاء.

مَادافُو: حليب جوز الهند.

مَانْترات: مفرده: مَانتْرَا، تراتيل وأقاويل للعبادة.

مَايخنَا: ملهى ليلي.

مْزُونغُو: رجُل أبيض، أوروبّي.

مْغانْغا: طبيب عرّاف.

مْليتْشا: وحشي، دنس، وضيع الأصل، هنا: أوروبّي.

مُنْشي: معلّم، أستاذ، علاّمة.

مْهَابْهَارَاتَا: ملحمة سنسكريتية، أحد أهمّ أثرين اثنين من الأدب الهندي القديم.

ميثايوالاه: بائع حلويات.

مِييَّا: المختونون، تسمية فيها احتقار للمسلمين.

نَاوْتش : «راقصة»، حظية مهذّبة.

وازُونغو: صيغة الجمع لمْزونْغو (رجُل أبيض).

وَكالة: مستراح القوافل ينزل به الأسياد والخدم والدّواب والسّلع.

ياكْشَا: كائن في مقام نصف إله.

يُوغي : ناسك، يعتمد اليُوغا كوسيلة للتعبّد.

يُونّي: لدى الهندوس، رمز لقدرة الطبيعة على الإنجاب والآلهة التي تمثّلها.

يُونيُون دْجَاك :(Union Jack) العلم البريطاني.

يِيمَدَار: رتبة عسكرية استُعملت سابقاً في جيش الهند البريطاني، وهي أدنى الرّتب التي كان يسندها الملك.

الفهرس

هذا الكتاب

هذه الرّواية مستوحاة من حياة وأعمال ريتشارد فرانسيس برتن (١٨٢١ ـ ١٨٩٠) وتأتي أحداثها تارة متّفقة مع سنوات شبابه في جميع تفاصيلها، كما تبتعد تارة أخرى كل البعد عن المتعارف. ورغم أنّ بعض الأقوال والتعابير الصادرة أصلاً عن برتن تمّ إقحامها في النصّ، فإن شخصيات الرواية وتسلسل الأحداث فيها تبقى في مجملها من نسج خيال المؤلف ولا تتطلّع إلى أن تُقاس بوقائع حقيقية لها صلة بالسّيرة الذاتية. إذا صحّ القول بأن كل إنسان يشكل سرّاً في حد ذاته، فإنّ هذا ينسحب قبل كل شيء على شخص لم يسبق للمرء أن كان له معه لقاء. هذه الرّواية هي إذن محاولة شخصيّة للاقتراب أكثر من أحد الأسرار دون الإصرار على كشف النّقاب عنه تماماً.